

سِرِّهُ الْأَكْلُ لِلْبَيْنِ

مِنْ مُحَاضَرَاتِ الرَّكْتُورِيَّةِ أَخْمَدِ الْوَاسِي

١٤٢٤ هـ - ١٣٤٦



إِعْلَان
مَطَفِّي الْمَهْرُونَ

مَشْرُوْت

جَمِيعَ الْمُنْتَاجِينَ وَالْمُنْتَهِيِّنَ

سِيرَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ

بِمِنْ حَاضِرِ الْكَوْثَرِ يَهْبِطُ أَمْرُ الرَّاهِمِينَ

سِرِّ الْحَلَالِ الْبَيْتِ
مِنْ مَحَاضِرِ الرَّكْعَةِ لِيَسِّعَ
عَلَيْهِمْ بَدْرَمْ

مِنْ مُحَاضَرَاتِ الرَّكْعَةِ لِيَسِّعَ أَحْمَدُ الْوَائِي

١٤٢٤ هـ - ١٣٤٦ هـ

إعداد
مصطفى آل مرھون

الجزء الأول

شبكة كتب الشيعة



مسنودات
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يُنَزِّلُ

shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

لشرف التحقيق

مُصطفى السنجي عبد الحميد آل مردمون

الطبعة الأولى

عام ١٤٣١

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطوي مسبق من المحقق والناشر
تحت طائلة الملاحقة الشرعية والقانونية

يطلب من:

لبنان - بيروت - جادة السيد هادي - مفرق الرويس - بناية اللؤلؤة ط ١ -

هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢ - ٠٠٩٦١ - ٧٠٠٦٦٦٩١

سوريا - ص.ب: ٧٣٣ - السيلة زينب محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤ و ٠٩٤٠٧٣٥٥٤

مؤسسة المصطفى: إيران - قم - خ سمية - ١٦ مترى عباس آباد بلاك ٢٤

هاتف : ٠٠٩٨٢٥١ - ٧٧٣٨٨٥٥

البريد الإلكتروني: mnmnmn3@hotmail.com

مَسْنُوْرَاتٌ

شَرْكَةُ الْمَسْنُوْرَاتِ لِلْمُنْسَطَبِ فِي الْجَمِيعِ الْمُلُوكِ

الشيخ الوائلي في سطور

اسم ونسبه وولادته

أحمد ابن الشيخ حسون ابن الشيخ سعيد بن حمود الليثي التجفي. ولد في النجف الأشرف يوم الجمعة ١٧ / ٣ / ١٣٤٦ - ١٩٢٧ م. درس في المدارس الرسمية ثم التحق بكلية الفقه وتخرج منها، انتقل إلى بغداد لمواصلة دراسته في معهد العلوم الإسلامية، ونال منه شهادة الماجستير، وحصل على شهادة الدكتوراه من القاهرة في العلوم الإسلامية.

أقام في الشام لدعائين سياسية، مواصلاً طريقه في التأليف والتصنيف والبحث. وهو عالم وخطيب ومتكلم وشاعر يشتف الأسماع بأدبه الجم وقريحته الواقدة؛ فقد عرف بجودة البيان والاطلاع الواسع^(١).

مكونات خطابه:

- ١- الدراسة الأكاديمية والحوزوية.
- ٢- اطلاعه الواسع ومتابعاته العلمية.
- ٣- البيئة التي ترعرع ونشأ فيها.
- ٤- الملكة الشخصية والأدب الرفيع، مما ساهم في تطويره للمنبر الحسيني الذي تربى على قمته. وكان منفتحاً على جميع قطاعات الأمة، وكان يحضر بثقة الجميع واحترامهم حتى من يختلف معه، وكان متواصلاً مع كل المسلمين في دول عديدة، وكان من الوعي والعيقورية بمكان يجعل الكل يحترم موضوعيته وإنصافه.

مؤلفاته

- ١- الشعر الواله ج ١ - ٢ (ديوان شعر).

(١) للمزيد انظر: مقدمة موسوعتنا (محاضرات الوائلي).

- ٢- هوية التشيع.
- ٣- أحكم السجون بين الشريعة والقانون.
- ٤- من فقه الجنس في ثنواته المذهبية.
- ٥- الأوليات في حياة الإمام علي عليه السلام.
- ٦- جمعيات حماية الحيوان في الشريعة الإسلامية.
- ٧- الخلقة الحضارية لموقع النجف قبل الإسلام.
- ٨- تجاريبي مع المنبر.
- ٩- إيقاع الفكر.
- ١٠- استغلال الأجير و موقف الإسلام منه.
- ١١- متاجع الغيث في الصحابة والأعلام من بني ليث.

وفاته

عاد من منفاه بعد (٢٤) عاماً، وكان راغباً في العودة إلى الوطن، وأن يدفن فيه بعد موته، حيث كان يعاني من مرض عضال، توفي في مسأء الاثنين (١٤ / ٥ / ١٤٢٤) (٢٠٠٣ / ٧ / ١٤) في الكاظمية، وشيعته الجماهير في حشد منقطع النظير، ودفن في النجف الأشرف، وبفقده خسرت الأمة عظيماً لا يعوض.

وتلبية للطلب الحثيث على تقديم البحوث الموضوعية تسهيلاً للتناول، فسوف نتواصل معكم إن شاء الله بتلبية طلبكم، كما نشكر لكم متابعتكم مشروعنا (موسوعة محاضرات الوائلي) الذي لازلنا نواصل إنتاج مجلداته القيمة.

مؤسسة المصطفى عليه السلام قم المقدسة

مصطفى آل مرهون

١٤٣١/١/١

الفصل الأول

الرسول ﷺ

﴿١﴾

ذكرى الرسول الأعظم ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابُتْهُمْ مُعْصيَةً قَاتُلُوا إِنَّمَا يَأْكُلُ
وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أَوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتُ
رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾^(١).

مراحل حياة الرسول الأعظم ﷺ

وفي هذا اليوم سيكون مجلسنا الظاهر في ذكرى الرسول الكريم، نبينا وشفينا محمد المصطفى ﷺ، وللتعرف على حياته وسيرته (صلوات الله عليه وعلى آله) لا بد من المرور بمراحل ثلاث من هذه الحياة الشريفة، وهي مراحل ملؤها العطاء:

المرحلة الأولى: من ولادته حتى بعثته ﷺ ولد ﷺ في مكة المكرمة^(٢)، وقد اعتاد المؤرخون أمراً هو أنهم إذا مروا بولادته ﷺ فإنهم يذكرون إرهاصات وأموراً جرت معها وساوقتها. لكن

(١) البقرة: ١٥٦ - ١٥٧ . وقد نهى الله في هذه المحاضرة: استشهاد آية الله العظمى السيد السبز واري الله، للمزيد انظر: كتابنا محاضرات الواثق ج ٤: ص ٥٩.

(٢) في ١٧ / ربيع الأول من عام الفيل.

نقول: إن الواقع أن هذه الأمور لا تزيد الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه شيئاً فوق ما هو عليه.

ابراهيم ولادته عليه السلام

ومن هذه الأمور التي يذكرها المؤرخون أنْ غاضت بحيرة السماوة،
وغضبت بحيرة ساوة، ومنعت الشياطين من استراق السمع^(١)،
وغيرها^(٢). وهذا التماس للمناقب من خارج ذات الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه، وهو
غني عن ذلك، فكل لحظة من لحظات حياته عطا ومحاسب من المكاسب
لهذه الأمة ما زال يمدّها ويرفعها. فسواء غارت النجوم أو منع الشياطين
من استراق السمع أو غاضت بحيرة ساوة أو لم يكن، فإن ذلك لا يعطي
النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه شيئاً أكبر مما أعطاه الله، فهو صلوات الله عليه وآله وسلامه منذ ولادته ولد في أقدس
الحجور وأطهر البيوت، فبيت الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه - وهذا معروف على تسلسله
- ما يخص لنكاح من أنكحة الجاهلية، يقول البوصيري رحمه الله:

لَمْ تَزُلْ فِي ضَمَائِرِ الْكَوْنِ تُخْتَأْ	رَّلَكَ الْأَمْهَاثُ وَالْأَبَاءُ
تُتَبَاهِنُ بِكَ عَصُورُ وَتُسْمُو	بِكَ عَلَيَّاً بِسُدَّهَا عَلَيَّاً
وَبِدَا لِلْوُجُودِ مِنْكَ كَرِيمَةُ	مِنْ كَرِيمٍ أَبَاوِهِ كَرِيمَةُ
نَسْبُ تَحْسِبُ الْفَلَابِخُلَامًا	فَلَذْتَهَا نَجُومُهَا الْجَوَازَةُ
حَسِيدًا عَقْدَ سُوْدَدُ وَفَخَارٌ	أَنْتَ مِنْهُ الْيَتِيمَةُ الْعَصِيمَةُ ^(٣)

رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ولد في بيت طاهر، ولم يتطرق إلى نسبه شيء من العقود

(١) قال تعالى على لسان الجن: «وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمَعِ فَعَنْ يَسْتَعِمُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شَهَابًا رَّصْدًا». الجن: ٩.

(٢) انظر كل ذلك في مناقب آل أبي طالب ١: ٢٧ - ٣١، أسد الغابة ٥: ٥٢.

(٣) ديوان البوصيري: ٩.

التي كانت في الجاهلية.

والفت النظر هنا إلى أن الإسلام لم يقدح بالعقود التي كانت في الجاهلية: «لكل قوم نكاح»^(١). فأقرّهم على ما هم عليه، وكان معظم الصحابة مولودين من زواج على غير الصيغة الإسلامية، فكان العقد في الجاهلية أن يوجه الإنسان بباب خباء إلى باب خباء، أو باتباع اصطلاحات أخرى بحيث لو صدرت الآن فإننا لا نتردّها، لكنها صادرة منهم، «لكل قوم نكاح». ويعتبر آخر إبراز الإرادة تارة يكون لفظياً وأخرى يتم عملياً، وهذا مثل البيع المعاطاتي الذي يتم دون إجراء لفظ العقد بصيغته الشرعية التي ينبغي أن يقول البائع فيها: بعتك، ويقول المشتري: اشتريت. وكذلك العقود التي كانت في الجاهلية فإنها مبرزة للإرادة، فأقرّها الإسلام. ولكن عرف عن بيت رسول الله ﷺ أنه انتقل من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة: «أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجزكم الجاهلية بانجاسها، ولم تلبسكم من مدلهمات ثيابها»^(٢).

فترعرع ﷺ في ذلك البيت الذي حنا عليه: لأنّه عاش يتيم الأبوين، فقد توفّي أبوه وهو في بطنه أمه، وتوفيت أمه وعمره ستة أشهر، فحرم من عطف الأبوين. ولكن شاء الله أن يستبدلها بحجر عوّضة ذلك العطف بل زاد على ما كان متوقعاً، وهو حجر جده عبد المطلب ﷺ، وبيت عمّه أبي طالب ﷺ، وحجر هذه المرأة الطاهرة الرائدة في دنيا الإسلام فاطمة بنت أسد (رضي الله عنها) التي كفلته وحملته. وكان ﷺ ينقل عنها أن

(١) تهذيب الأحكام ٧: ٤٧٢ / ١٨٩١، المذهب (ابن براج): ٢٥٥.

(٢) مصباح المتهجد: ٨٠٧ / ٧٢١.

أولادها يصبحون وقد يكون أحدهم مترباً، في حين أنه عليهم السلام يصبح وقد ذهن شعره ورجله وغسل وألبس ثياباً جدداً. وكانت تحرم أولادها من الطعام وتقدمه له عليهم السلام. ولذلك كان يقول عنها: «أمي»^(١).

وعندما توفيت شيعها عليهم السلام وقال لأمير المؤمنين عليه السلام: «إذا دخلتها إلى القبر فأخبرني». فنزل عليه السلام إلى القبر، ونزل رسول الله عليه السلام معها، فكفنها بردائه، وأضجعها بيده، وخرج والتأثير باد على وجهه، ثم قال: «أردت أن يخفف الله عنها ضفطة القبر وأن يقيها برداني»^(٢).

أما عمه أبو طالب رض فقد وقف معه مواقف سوف نعرفها عندما نمر بالدور الثاني من حياته عليه السلام.

فنشأ عليه السلام وترعرع في هذا البيت الظاهر، ولم يألف مجتمعاً من مجتمعات قريش التي كانت في مكة، وكان يتحف في طفولته. ويختلف المفترون والكتاب في أنه عليه السلام هل كان يتحف على الحنفية التي هي ملة إبراهيم الخليل رض، أو أن الله ألهمه أن يتحف على طريقته، لهم في هذه المسألة رأيان، وكل رأي له جماعته وأنصاره. لكن المهم أن النبي عليه السلام كان يخرج فيطيل النظر إلى السماء، ويقلب طرفه في الكواكب كأنه يتوقع حدثاً جديداً.

وكان عليه السلام يخرج قبيل بعثته إلى غار حراء فيأخذ الإمام علياً رض معه آنذاك وهو لا يزال طفلاً صغيراً، يقول البوصيري في همزاته:

(١) المعجم الكبير: ٢٤، ٣٥١، المعجم الأوسط: ٦٧، كنز العمال: ١٢ - ٢٢٥ - ٢٢٦ . ٣٧٦.٧

(٢) قريب منه في عين العبرة: ٦٨، المستدرك على الصحيحين: ٣: ١٠٨، كنز العمال: ١٢ - ٦٣٦ . ٣٧٦.٦ - ٣٧٦.٧

أيُّهُمْ أَنْجَاهُ مُلْفًا وَهُكْمًا الْجَنَابَةِ
 (١) نَشَطَ فِي الْعِبَادَةِ قَلْبًا
 وَإِذَا حَلَّتِ الْهَدَايَةُ قَلْبًا

فكان الله يخرج هناك يدعوه الله ويترعرع إليه ، ويتأمل في الكواكب ويقلب طرفه فيها . ومكث هذه الفترة الطويلة في مجتمع قريش وليس هو معهم . وكان الله يلقب بالصادق والأمين؛ لأنَّه كان متصفًا بكل صفات الصدق والأمانة ، بحيث إن قريشاً كانت إذا أهتمَّها أمر رجعت إلى رأيه ، وكانت تسميه المبارك .

الرسول ﷺ يقضى النزاع في رفع الحجر الأسود
 فمن المعروف أنه هو الذي فصَّلَ النزاع بين قريش في موضوع وضع الحجر الأسود في الكعبة ، وإنَّما كان قد وصل إلى القتال بين قبائل قريش ، فكل قبيلة تريد أن تضع الحجر بنفسها ، وجاء رسول الله الله فأمرهم أن يضعوا مازاراً ويضعوا عليه الحجر ، وتتوزع القبائل على جوانبه الأربع فيحملوه دفعة واحدة ، فلما رفعوه وضعه بيده الشريفة في مكانه ^(٢) .

لقد عرف بسداد الرأي وحصافة الفكر منذ طفولته ، وعرف بالطهر الظاهر ، فقد كان بعيداً عن آنام قريش ولم تدنسه أو ضار الجاهلية ، وإنما كان يخرج وليس له من لذة يألفها إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رض ، وبعض اللدودات الذين لم يلقي التاريخ عليهم كثيراً من الأضواء ، ولكن المعروف عنه أنه كان يألف علي بن أبي طالب رض ، فكان يحمله على

(١) ديوان البوصيري: ٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٤٥٨، المستدرك على الصحيحين ١: ٢٠٠.

صدره ويطوف به شعاب مكة ويقول: « أخي وزيري وناصري وخليفتني من بعدي »^(١). وكان إذا عاد إلى البيت عاد بعلي عليه السلام معه.

وقد قضى عليه السلام هذا الدور إلى أيام زواجه من خديجة رضي الله عنها، وكان يصر خلال هذه الفترة على أن يعمل ولا يأكل إلا من عمله، فاشغل عليه السلام في كثير من الأعمال كان آخرها العمل في التجارة مع خديجة رضي الله عنها التي كان لها الكثير الكثير من الأموال، وكان التجار القرشيون يضاربون بأموالها ويقتربون منها. ويقول بعض المؤرخين عن أموال خديجة: لو أن رجلاً وقف بهذا الجانب، ووقف رجل آخر بذلك الجانب ووضع بينهما أموال خديجة رضي الله عنها لمارأى أحدهما الآخر لما تشكّله هذه الأموال من تل من بدر الدنانير والدرامم^(٢)، وقد ساقتها بأجمعها إلى بيت النبي عليه السلام، وساقت معها ثمانية آلاف ناقة، ومن الحلى والحلل ما أطرب التاريخ في وصفه، كل ذلك كان في خدمة الإسلام^(٣)، وأآل بها الأمر أن تضطجع مع

(١) ورد هذا الحديث عن الصادق الأمين عليه السلام في حق أمير المؤمنين عليه السلام بصيغ كثيرة ومناسبات عدّة، انظر: الكافي ١: ٢٢١، ٧، الأمالي (الصدوق): ٣٥٤ / ٤٢٢، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٢٦، ٨٤٥١ / ١٢٦، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١.

(٢) قريب منه في بحار الأنوار ١٩: ٦٢ - ٦٣.

(٣) انظر ذلك في محاجة أسماء بنت عميس (رضي الله عنها) مع عمر، وذلك أنه حين رأى أسماء قال لها: نحن سبقناكم بالهجرة؛ فنعن أحق برسول الله عليه السلام منكم. ففضحت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله عليه السلام يطعم جانكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار أو في أرض البعداء البغضاء بالبغضاء، وذلك في الله وفي رسول الله عليه السلام. وأنتم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله عليه السلام، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي عليه السلام، وأسئل الله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي عليه السلام قالت: يا نبي الله، إن عمر قال كذا وكذا. قال عليه السلام: « فما قلت له؟ ». قالت: قلت له كذا وكذا. قال عليه السلام: « ليس بأحق بي منكم، ولو لأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنت أهل السفينة هجرتان ».

النبي ﷺ على جلد كبش، فقد أنفقت كل ذلك في سبيل الله.
نعم لقد اشتغل النبي ﷺ مع خديجة بأن ذهب في تجارة لها مع غلامها
ميسرة، وقد أوصت غلامها ميسرة أن يراقب النبي ﷺ في بيته وشرائه،
فكان يراقبه فيرى أنه إذا مشى في الصحراء انفصلت غمامه من الغمام
فتظلل على رأسه وتدفع عنه حرّ الشمس، وتميل معه أينما مال. فأخبر
ميسرة خديجة ﷺ وقال لها: والله لقد رأيت صدقه وعفافه وأمانته،
ورأيت الغمامه تظلله، يقول البوصيري:

جوده منه سجية والحياة
وأرائه خديجة والشقي والـ
ح أقلته منها أقياء
وأتاماً أن الغمامه والسرـ
حسن ما يبلغ المعنى الأذكياء
فدعته إلى الزواج وما أحـ
لسعد فائهم سعداء (١)
وإذا سخر الله أناساً

خطب له عمه أبو طالب خديجة، وساق لها ثلاثة من الإبل تحرث، وساق لها المهر، فتزوج خديجة من خديجة فأرسلت منادياً لينادي في الناس: كل مال لي فهو تحت تصرف محمد يفعل به ما يشاء. فأخذ النبي تلك الأموال وأنفقها في طريق الإسلام بأجمعها. ثم أعقب منها القاسم والظاهر والزهراء التي لقبها النبي بـ «أم أيها»^(٢); لأن الأم هي أصل الأشياء، ومن هنا اعتبر عن مكة بـ «أم القرى»، وعن الفاتحة بـ «أم

انظر: صحيح البخاري ٨٠، صحيح مسلم ١٧٢، السن الكبري (الساني) ٥: ١٠٤.
ومعلوم أنه عَلَيْهِ الْمُؤْمَنَةُ كان فقيراً؛ فهو عَلَيْهِ الْمُؤْمَنَةُ كان ينفق من أموال خديجة عَلَيْهَا السَّلَامُ، ويبؤده ما في
المصدر السابق.

(١) ديوان البوصيري: ٩، وانظر: كمال الدين: ١٨٧، المستدرك على الصحيحين ٢: ٦٦٦.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٢٩، المعجم الكبير ٢٢: ٣٩٧، أسد الفأبة ٥٢٠.

القرآن»، وكذلك فاطمة^{عليها السلام}؛ لأنها الأصل، فلولا أولاد فاطمة^{عليها السلام} لانقطع أصل النبي^{عليه السلام} ونسله. ولذلك كان^{عليه السلام} يقول عنهما: «ابنائى».^(١)

وهذا ما احتاج به الإمام موسى بن جعفر^{عليه السلام} على الرشيد حيث قال له: «لو بعث رسول الله^{عليه السلام} حياً وخطب منك ابتك أكنت مزوجة؟». قال: بلى والله، وأفتخر بذلك على العرب والجم. فقال الإمام^{عليه السلام}: «وما يسعني أن أزوجه؟». قال: لا. فقال الإمام^{عليه السلام}: «لماذا؟». قال: لأنك داخل في صلبه. قال الإمام^{عليه السلام}: «فهذا هو الذي دعانا إلى أن نقول: نحن أبناء رسول الله^{عليه السلام}».^(٢)

وقد درج القاسم والطاهر في حياة النبي^{عليه السلام}، أما ربائبه الثلاث غير فاطمة فتختلف آراء المفسّرين والمؤرخين في كونهن بناته أو ربائبه، ويميل ظاهر التحقيق إلى كونهن ربائبه^(٣)، وهناك روايات بأنهن بناته^(٤). وبقيت هذه النسمة الطاهرة التي قال عنها النبي^{عليه السلام}: إنها «أم أيها»، بعث سلوة لرسول الله^{عليه السلام} يلمس في جبينها جبين أمها خديجة^{عليها السلام} التي ما ذكرها إلا وانتقض واهتز من قرن إلى قدم، حتى قالت له بعض نسائه يوماً: ما الذي يدعوك إلى الإكثار من ذكر خديجة؟ وهل هي إلا امرأة حمراء

(١) تحفة الأحوذى ١: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمال ١٢: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٢٥، ١٩٩، ٢٦، ١٤: ١٥١، ١٥١، تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثيرة.

(٢) انظر الاحتجاج ٢: ٢٢٨ / ٢٧١، ومثلها مناظرة الإمام الرضا^{عليه السلام} مع المأمون، انظر بحار الأنوار ١٠: ٣٤٩ / ٩٤، ٩ / ١٨٧.

(٣) انظر كتاب: الإمام علي بن أبي طالب^{عليه السلام} : سيرة وتاريخ (آل ياسين): ٢٧.

(٤) الطبقات الكبرى ١: ١٢٢، ٨: ٢١٧، تاريخ مدينة دمشق ٣: ١٢٥، ١٢٨، ١٢٨: ١٢، ١٢٨، أسد الغابة ٥: ٤٥٦.

الشدقين أبدلك الله بخير منها؟ فقال عليه السلام: «كلا إن الله لم يبدلني بخير منها، إنها آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقني إذ كذب بي الناس، ورزقني الله منها ولدأ إذ حرمني أولاد سائر النساء»^(١).

المرحلة الثانية: من بعثته المقدسة حتى هجرته الشريفة
 مر الدور السابق على رسول الله عليه السلام قبيل البعثة وهو في هذه الأجواء
 التي رسمتها لك؛ ابتداءً من طفولته وتحفته في غار حراء واستمراره على
 هذا النوع وابتعاده عن مجتمع قريش وترقبه لعطاء السماء إلى أن أراد الله
 تعالى لهذه الأرض أن تزدهر بنور النبوة، وأن يغمرها عطاء السماء،
 وأ يريد للنبي عليه السلام أن يحمل قبس الهدایة. خرج عليه السلام من بيته قاصداً غار
 حراء، فنزل الوحي بأول سورة كانت إيداناً ببعثته عليه السلام: «أَفَرَا إِنَّمَا زَيْنَكُ
 الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ غَلَقٍ • أَفَرَا إِرْبَكَ الْأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَنْ • عَلَمَ الْإِنْسَانَ
 مَا لَمْ يَعْلَمْ»^(٢).

وهنا يقول المؤرخون: إن علياً عليه السلام كان مضطجعاً إلى جانبه، وقد أشارت
 إلى ذلك خطبته الغراء التي يقول فيها: «أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح
 النبوة. ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه عليه السلام»^(٣).

(١) بحار الأنوار ١٦: ١٢، مستند أحمد ٦: ١١٨، المعجم الكبير ٢٢: ١٣، سير أعلام النبلاء ٢: ١١٢، الإصابة ٨: ١٠٣، كنز العمال ١٢٢: ١٢ / ٣٤٤٨.

(٢) الملق: ١ - ٥.

(٣) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢، المعروفة بالخطبة القاسمة.
 وفيها: «ولقد كان يجاور في كل سنة بعراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد
 يومئذ في الإسلام غير رسول الله عليه السلام وخدیجه وأنا ثالثهما؛ أرى نور الوحي والرسالة،
 وأشم ريح النبوة. ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه عليه السلام، فقلت: يا رسول
 الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان أليس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى

فخرج الرسول ﷺ من غار حراء يحمل هذا العبء: «إِنَّا سَئَلْنَاكِي عَلَيْكَ قُوَّاً ثَقِيلًا»^(١)، ويرى أن الدنيا قد أنيط به إصلاحها، وهو عبء حمله ذلك الكتف العملاق، فما إن نزلت الآية حتى رفع عقيرته: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى هُوَ أَكْبَرُ»^(٢).

إن رسول الله ﷺ حملنا عبئاً، فلنحمله فكراً، وحملنا جاهلية فينبغي أن نحمله هداية، وعشنا في همومه فينبغي أن يعيش في همومنا. وأنتم الآن في بلد ليس من بلدان الإسلام، فأولادكم هنا أمانة في أعناقكم، فلا يبعدوا عن الإسلام وعن سيرة نبيكم محمد ﷺ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوَّاً أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُوَّذُهَا النَّاسُ وَالْجَحَّازَةُ»^(٣). فعليكم تقع المسؤولية بالتضامن والتكاتف.

اني اتصل في بعض الأحيان بقسم من الأخوة هنا، فيجيبني أبناءهم تلفونياً وهم لا يعرفون العربية، أو يتعرّدون في أدائهم، وهؤلاء بالتدرج سوف ينسون القرآن والأحكام والقيم والأخلاق، ونحن مهما ربّحنا لكن حين نخسر الأخلاق فإننا لم نربح شيئاً. لا تخسروا أولادكم وبيناتكم والأسرة الإسلامية، وحاولوا الاتصال بالمؤسسات والجماعات الإسلامية، وخصصوا في الأسبوع ولو يومين لهم للدراسة في مدارس تنشئونها باللغة العربية، لتدريس اللغة والقرآن. وفي الوقت نفسه على الآباء أن يدفعوا أبناءهم، بشتى الوسائل إلى تعلم دينهم وأخلاقهم، وأن

إلا إنك لستنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلى خير».

(١) المرآة: ٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٥١، المصطف (ابن أبي شيبة) ٨: ٤٤٢، ٦.

(٣) التحرير: ٦.

يكون ذلك مصحوباً بالإصرار منهم إن لزم الأمر.
قد تقول لي: أنت مضطرك إلى البقاء هنا، وإذا ذهبت إلى مكان آخر فقد لا
يتوفّر لي رغيف الخبر.
وأقول لك: لكن علينا ألا نكون كمن قال فيه الشاعر:

أبْشِئِي إِنْ مَنْ الرِّجَالُ بِهِمْ فِي صُورَةِ الرِّجَالِ السَّمِيعِ الْفَبِصِيرِ
فَمَطْنَنْ لَكُلُّ رَزِيْةٍ فِي مَالِهِ فَإِذَا أَصَبَّ بِدِينِهِ لَمْ يَشْفَعْ

وهناك نقطة أخرى مهمة أرجو أن تنتبهوا إليها، وهي أن الغرب يعنون إلى
مؤسساتنا الإسلامية، ويريد الأسرة الإسلامية، فلا ينتهيون بكم الأمر إلى
حد أنه إذا وصل الابن إلى السن القانوني ترك أباه يصارع آلامه وحده، و
إذا كبرت البنت فلت وملكت زمامها بيدها. وهذا المصير عليكم أن
توقعوه وتضعوه أمام أعينكم؛ لأنني أعرف أن الحالة في بلداننا لا
تشجعكم على الرجوع حتى لو حلّت مشكلتنا؛ لأنكم وجدتم هنا
خدمات لا تتيّسر لكم هناك. وأنا أشك في أن الكثير من خرج سوف
يرجع مرة أخرى.

فإذا كان الأمر كذلك فعليكم أن تضعوا أمام أعينكم الحل الذي يحفظ
لكم أسركم وأبناءكم بأي طريق كان، ولا تلقوا التبعات على غيركم،
فأنتم مسؤولون مباشرة في أن تتعاونوا على حفظ أسركم وأبنائكم. وهذا
الصوت أرفعه من هنا، وأأمل من الله أن يستجيب له من يقوى على
الاستجابة بقليل أو كثير.

نعم، رجع النبي ﷺ من غار حراء، فهبط عليه جبرئيل يحمل السورة
الثانية: «يَا أَيُّهَا الْمُذْكُورُ ۝ قُمْ فَانِذْ ۝»^(١). فخرج، وخرج من ورائه الساعد الذي

ما فارقه ، والسيف الذي ما ابتعد عنه ، والنفس التي ما برحت إلى جانب روحه ليل نهار ، وهي نفس على ابن أبي طالب عليه السلام . فكان رسول الله صلوات الله عليه وسلم يقول : « قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » ، والحجارة تأخذه ، ويد على عليه السلام على سيفه يناله قسط من الحجارة التي تناول النبي صلوات الله عليه وسلم ، ويناله الألم ، ويتعرض إلى ما يتعرض له رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، فيذود عنه ويدافع ، ولا يكاد يترك قائم السيف حتى يعود إلى البيت .

ويُنذر أن يعود النبي صلوات الله عليه وسلم وعلى عليه السلام خاليين من الجراح ، فقد كانت الجراح والحجارة تستوعبهما ، وكان النبي صلوات الله عليه وسلم بما عرف عنه من النفس الكبيرة يمسح الدم ويشخص ببصره إلى السماء فيقول : « اللهم اغفر لقومي ؛ إنهم لا يعلمون » ^(١) . إلى أن اضطروه يوماً من الأيام من كثرة ضغط الحجارة أن يخرج إلى الطائف ، فوقف له أهل الطائف ثلات فرق ، وقال له أحد رؤسائهم : أما وجد الله نبياً غيرك يبعثه ؟ فأغضى النبي صلوات الله عليه وسلم وسكت عنه ؛ لأن السكوت في بعض الأحيان هو أبلغ جواب . وقال له الآخر : أنت يتيم أبي طالب ، وتريد أن تسود العرب ؟ ألا يسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك ؟ ولم يجده النبي صلوات الله عليه وسلم أيضاً . وانتفت له الثالث فقال : أنت بين أمرين : إما أن تكون نبياً ، وأما أن تكون كذاباً ، فإن كنت نبياً فأنت أكبر من أن أكلمك . وإن كنت كذاباً فأنت أكبر من أن أكلمك .

ثم أشاروا إلى أطفالهم فأخذته الحجارة من كل جانب ومكان حتى أدمته ، فرفع رأسه إلى السماء وقال : « اللهم إنيأشكرك إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضفين ، وأنت

(١) الإقبال بالأعمال العدد ١: ٣٨٤، بحار الأنوار ٩٥: ١٦٧.

ربِّي، لمن تكلني؟ إلى عبد يتوجهُنِي، أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعود بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، أو يحلّ على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

ونظر إليه عتبة عن بعد، وقد عطفته عليه أواصر الرحيم، فالتفت إلى غلام له اسمه عداس من أهل الموصل وقال له: احمل بيديك شيئاً من العنبر، واذهب إلى هذا الجالس، واطرح العنبر بين يديه وابتعد عنه، وإياك والدنو منه؛ فإنه ساحر، وأخاف أن يسحرك بسحره. فأقبل إليه عداس، فرفع إليه النبي ﷺ بصره وقال: «عداس هذا؟». قال بلى، من الذي أخبرك باسمي؟ قال ﷺ: «أوليس قد أسمتك أمك بهذا الاسم عندما وضعتك؛ لأنك كنت ثقلاً في بطنها؟». قال: بأبي أنت وأمي، من الذي أخبرك بهذا؟ قال ﷺ: «أولست أنت من قرية العبد الصالح يونس بن متى من نينوى بالموصل؟». قال: وما أدركك بهذا؟ قال ﷺ: «ذاكنبي وأنانبي». فقال عداس: والله إني لأرى عليك سماء النبوة. ثم انحنى على أقدامه يقبلهما، فنظر عتبة إلى بعض من كان حوله وقال: قد سحر علينا غلاماً فلا ننتفع به^(١).

ثم رجع رسول الله ﷺ، وفي الطريق وجد علياً وخدية عليها يبحثان عنه، وقد حملت خديجة وعاء فيه طعام وماء وهي تنادي: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أين أنت يا ثمال اليتامي؟ فلما التقاه أخذت

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ العقوبي ٢: ٣٧ - ٣٦، تاريخ الطبرى ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ١٥: ٢، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١.

خديةجة عليها السلام تضمد جراحه، ثم سقته ماء وأطعنته الطعام، ورجع يتذكر على علي عليه السلام إلى البيت.

وهكذا كان رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه بين سيف على عليه السلام يقوم بوظيفة توفير الحماية له، وبين عطف أبي طالب يدافع عنه، فكان يجن الليل على أبي طالب ولا يذوق النوم، وقد جند أولاده الأربع في شعب أبي طالب في خدمة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، فكان النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه ينام ساعة في مكان ثم ينقله أبو طالب عنه إلى مكان آخر، ويأتي بأحد أبنائه ليضجعه مكانه، وهكذا إلى الصباح لا يذوق النوم ^(١). وكان يمر فيجد النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه يصلي، وعلى عليه السلام يأتى به، ولم يكن على وجه الأرض آنذاك من يعبد الله غير هذين، فيقول لولده جعفر: صل جناح ابن عمك، ثم يقول:

إن علياً وجعفراً ثقتي
عند ملء الزمان والنوب
لا تخذلا وانصرا ابن عمما
أخي لأمي من بينهم وأبي ^(٢)

إلى أن لفظ أبو طالب عليه السلام أنفاسه الطاهرة ولحق بربه.

المرحلة الثالثة: من هجرته الشريفة إلى لحوقه بالرفيق الأعلى

ثم توفيت خديجة عليها السلام فهبط جبرئيل على النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وقال: «اخْرُجْ مِنْ مَكَّةَ؛ فَلَيْسَ لَكَ فِيهَا نَاصِرٌ» ^(٣). وأوحى الله له أن يخرج في تلك الليلة من بيت أبي طالب عليه السلام الذي ما انفك عنه، ولما نزل عليه جبرئيل بقوله تعالى: «إِنَّمَا يَنْهَا رَبُّكُمْ بِكُلِّ الْجِنَّاتِ كُفَّارُوا إِلَيْنَا يُرْجَوُنَ وَيَنْكُرُونَ وَيَنْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ حَسْنَى»

(١) روضة الوعاظين: ٥٣.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٥٩٨ / ٨٢٥، شرح نهج البلاغة: ١٣: ١٤، ٢٦٩: ٧٦.

(٣) الكافي: ١ / ٤٤٩، الفصول المختارة: ٢٨٣.

الفاكِرِينَ^(١)، استدعي علیاً^{عليه السلام} وقال له: «المولى عز وجل أمرني أن أهاجر من مكة إلى المدينة، وأمرني أن أضجعك مكانك». فقال: «يا رسول الله، لو اضطجعت مكانك أو تسلم؟». قال: «بلى». قال: «روحبي لروحك الفدا، ونفسى لنفسك الوفا»^(٢).

ورحم الله الكعبي حيث يقول:

بـمـقـامـكـ التـحـديـ وـالتـعـديـداـ	وـمـنـاقـبـ لكـ دـونـ أحـمـدـ جـاـوزـثـ
ثـهـدـيـ إـلـيـكـ بـوـارـقـاـ وـرـعـوـدـاـ	فـعـلـيـ الفـراـشـ تـبـيـتـ لـيـلـكـ وـالـعـدـىـ
يـهـدـيـ الـقـرـاعـ لـسـمعـكـ التـغـرـيدـاـ	فـرـقـدـتـ مـثـلـوـجـ الـفـؤـادـ كـانـمـاـ
بـالـفـخـسـ لـأـطـفـلـاـ وـلـأـرـعـيـداـ	وـوقـيـتـ لـيـلـتـهـ وـبـتـ مـعـارـضاـ
أـوـ ماـ دـرـواـ كـنـزـ الـهـدـىـ مـرـصـودـاـ ^(٣)	رـصـدـوـاـ الصـبـاحـ لـيـنـفـقـوـاـ كـنـزـ الـهـدـىـ

وخرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر، وقد صنعت لهما أسماء شيئاً من الطعام حمله أبو بكر معهم؛ إذ كان معه أيضاً أيمن ابن أم أيمن وابن أبي أريقط، فوصل النبي ﷺ إلى الغار فأوحى الله إلى حمامتين وحشيتين فعششتا وباضتا في الغار، وأوحى إلى العنكبوت أن تنسج على باب الغار، يقول أحد الشعراء:

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خبر البرية لم تنسج ولم تحم^(٤)

فتبعته قريش حتى الغار لكنها يشت أن يكون قد دخل إلى هذا الغار.

(١) الأنفال: ٣٠.

(٢) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٤٦٦ - ٤٦٧.

(٣) ديوان الكعبي: ٤١.

(٤) البيت للبوصيري في قصيدة البردة. ديوان البوصيري: ١٦٥.

ووصل عليه السلام إلى المدينة، وأبى أن يدخلها حتى وصل إليه الإمام علي عليه السلام بالظعينة، فقد كتب عليه السلام إلى علي عليه السلام أن يرد الودائع، فردها ولحق بالنبي عليه السلام، وكان للمدينة يوم مشهود عند دخوله عليه السلام إليها، وبادر الأنصار يضربون الأكبار بأيديهم وينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع^(١)

ودخل ومعه علي عليه السلام، فناخت ناقته بباب بيت أبي أيوب عليه السلام الذي هدمه الأمويون بعد ذلك ولم يقواله أثراً ولا عيناً.

وابتدأ الدور الثالث من حياته الشريفة، وحمل عبء إنشاء المجتمع المدني. فهو في مكة كان يخطط لترسيخ العقائد، ثم انصرف في المدينة إلى ترسيخ الدولة الإسلامية.

فجاهد في سبيل الله حق جهاده، وذلك أن خاض أربعاً وثمانين غزوة حتى لحقه أذى القتال، فكان عليه السلام يرجع وبجسده الجراحات، وقدم الأضاحي من صحابته وأهل بيته، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَخْفَنْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَنْتُمْ غَنِيمَةٌ بِغَنَمِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنَنَا﴾^(٢). فأدى رسالة ربه، وأكمل دينه حتى نزل به الوجع في يوم السبت الحادي والعشرين من صفر. وكان عليه السلام قبل ذلك قد صعد على المنبر وخطبهم قائلاً: «أيها الناس، أي نبي كنت لكم؟ ألم أربط حجر الماجاعة على بطني؟ ألم أجاهد الكفار والمنافقين؟ ألم أقاتل في سبيل الله؟ ألم... ألم؟...». ثم قال: «إن ربي أقسم

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٩٤، فتح الباري ٧: ٢٠٤، ٨: ٩٨.

(٢) المائدة: ٣.

الآية فوته ظلم ظالم، فلما امرئ منكم له ظلامة عند محمد فليقم إلى يأخذها، فإن القصاص في دار الدنيا أحب إلى من القصاص يوم القيمة على رؤوس الأشهاد». فقام إليه أحد هم فقال: كنت طالباً منك أن تساعدني في زواج وقد وعدتني بأوقتيين. فأشار النبي ﷺ إلى الفضل بن العباس فقال: «تخله ما وعدته به». وقام له سوادة بن قيس فقال: يا رسول الله، لي عندك شيء. قال ﷺ: «ما هو؟». قال: كنت راجعاً من الطائف، فرفعت القضيب الممشوق لتضرب الناقة فوقع الضربة على بطني. وأنا أريد القصاص. فالتفت إلى بلال فقال: «يا بلال، قم إلى المنزل فاتبني بالقضيب الممشوق». فذهب إلى بيت فاطمة ، فقال: يا بنت رسول الله، أعطيني هذه القطعة. فقالت: «لماذا؟». قال: إن رسول الله يريده. قالت: «وماذا يصنع والدي بالقضيب، وليس هذا يوم القضيب؟». قال: أو ما علمت أنه يودع أهل الدين والدنيا. فصاحت: «واغمّاه لفمك يا أبناه من للقراء والمساكين وابن السبيل يا حبيب الله وحبيب القلوب؟».

ثم أخرجته له، فجاء به فتناوله النبي ﷺ بيده فأعطاه له وقال: «خذ يا سوادة». فقال: يا رسول الله اكشف لي عن صدرك. فكشف له النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله، أنا ذنن لي أن أقبله؟ فقال: «افعل». فوضع فمه عليه وقال: أعود بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم النار. فقال ﷺ له: «أتغفوا أم تقتض؟». فقال: بل أغفو يا رسول الله. فقال ﷺ:

«اللهم اعف عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد».

ثم أرجع النبي ﷺ إلى البيت وهو مثقل ويدعوه: «رب سلم أمة محمد من النار»، فلما أضجعوه على فراشه أقبلت إليه ابنته فاطمة وهي تنادي: «واغمّاه لفمك يا أبناه». ثم جلست إلى جانبه ورأسه في حجر أمير

المؤمنين عليهم السلام ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام مخاطبًا إياه: «ولقد وسدتك في ملحوقة قبرك ، وفاضت روحك بين صدري ونحري ». فقد كان رأسه عليه السلام بين صدر أمير المؤمنين عليه السلام ونحره ، وبين الآونة والأخرى كان الإمام عليه السلام يأخذ شيئاً من الماء ويمسح به جبين رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وهو يرفع رأسه فيقول: «رفقا بي ملائكة السماوات ، رفقا بي ملائكة ربى ، لمثلها فليعمل العاملون ». وكان يقول: «حببي جبريل ، عند الشدائند لا تخذلني »^(١).

وخرج رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه في اليوم الثاني إلى البقع ، ووقف على أهل البقع فصاح: «السلام عليكم يا أهل البقع ، لقد جامت الفتنة كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ». ثم استغفر لهم وقرأ شيئاً من القرآن ورجع . وأخذت العلة تشتدّ عليه ، فصاح: «عليّ بعلی بن أبي طالب ». فأقبل إليه ، فساره طويلاً ، واستدعي ابنته فاطمة عليها السلام ، فسارها طويلاً ، فبكّت وضحكـت ، فلما سُئلت أجبـت: «أـتـيـتـ لـذـرـةـ ». ولما سُئـلتـ بـعـدـ ذـلـكـ قـالـتـ: «لـقـدـ بـكـيـتـ فـيـ الـأـولـىـ ؛ لأنـهـ نـعـيـ إـلـيـ نـفـسـهـ ، وـضـحـكـتـ فـيـ الثـانـيـةـ ؛ لأنـهـ أـخـبـرـنـيـ أـنـيـ أـوـلـ أـهـلـ بـيـتـ لـحـوقـاـ ». ^{٤٠}

حتى إذا اشتدّت الحالة عليه أقبل الحسن والحسين عليهما السلام فوقعـاـ عـلـىـ صـدـرـهـ ، فأـرـادـ الإـمـامـ عـلـيـ عليه السلام أنـ يـعـدـهـمـاـ عـنـهـ ؛ لـثـلـاـ يـضـاـيـقـاهـ ، فـقـالـ عليه السلام: «لا ، لا يـعـلـيـ ، دـعـهـمـاـ أـنـزـوـدـ مـنـهـمـاـ وـيـتـزـوـدـاـ مـنـيـ »^(٢).

ثم أخذ يضمـهـمـاـ إـلـيـ وـهـوـ فـيـ آخـرـ لـحظـاتـ حـيـاتـهـ :

يـوـمـاـ لـمـ أـزـ بـالـأـيـامـ مـلـئـهـاـ	قـدـ سـرـزـنـيـ ذـاـ وـهـذاـ زـادـنـيـ أـرـقـاـ
يـوـمـ الحـسـينـ رـقـيـ صـدـرـ النـبـيـ بـهـ	وـيـوـمـ شـمـرـ عـلـىـ صـدـرـ الحـسـينـ رـقـيـ

* * *

(١) الأمالى (الصدق) : ١٠٠٤ / ٧٣٦ . (٢) الأمالى (الطوسي) : ٦٠٢ / ١٢٤٤ .

وَمَرْيَحُ النَّحْرِ غَيْرُ مَرَاقِبٍ مِنَ اللَّهِ لَا يَخْشَى وَلَا يَتَوَجَّلُ

ولكن لما اشتد عليه الأمر سجأه أمير المؤمنين عليه السلام إلى القبلة، وأقبلت إليه ابنته فاطمة عليها السلام فألقت نفسها عليه وهي تصيح: «والوعناه، والثكلاه بعدهك يا رسول الله». فأقبل إليها أمير المؤمنين عليه السلام، وأقامها من على جسد أبيها برفق^(١). نعم نحاحتها عليها السلام عن صدر أبيها برفق، ولعله يرى ولده الحسين عليه السلام لما سقطت أخته زينب عليها السلام على صدره، فقد نحاحتها شمر عنه بسوطه:

بِسْرَضَكَ يَسُورُ غَيْمًا عَلَيْكَ يَجْرِيَ الْعَدُوُّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيكَ

↔ ١٥٦٣ ↔

(١) انظر: الأمالي (الصدوق) (٧٣٢ - ٧٣٦)، ١٠٠٤، مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠١ - ٢٠٣.

﴿٢﴾

هجرة الرسول ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذْ يَنْكُرُ إِلَيْكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَيْهِمْ بُشِّرُوكَ أَوْ
يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرُجُوكَ وَيَنْكُرُونَ وَيَنْكُرُ اللَّهُ
وَاللَّهُ خَيْرُ النَّاكِرِينَ﴾ ^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في تحديد مفهوم الهجرة وأقسامها

ترتبط الآية الكريمة بموضوع الهجرة النبوية الشريفة، والهجرة فيها دروس كثيرة وعبر ضخمة. وقد حدثت الهجرة بعد بعثة النبي ﷺ بثلاث عشرة سنة، حيث إن جبرائيل عليه السلام هبط على النبي ﷺ وأمره بها. وكان عمره الشريف عندما هاجر ثلاثة وخمسين سنة. وقد سبقت هجرته الشريفة بعض القضايا، كما أن بعضاً منها وقع بعدها؛ فهنا مرحلتان: الأولى - أي مرحلة ما قبل الهجرة - وكانت مرحلة تأصيل العقائد، أما المرحلة الثانية - أي مرحلة ما بعد هجرته ﷺ - فكانت

مرحلة تأسيس الدولة.

وقد سارع النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه إلى الهجرة؛ لأن المشركين قد ألجؤوه إلى ذلك، حيث إنهم عقدوا اجتماعاً لهم في دار الندوة - وهو ما يعبر عنه باصطلاح اليوم «البرلمان» - لتدارس فكرة اغتيال الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه.

ولم تكن دار الندوة حينذاك تقتصر على الرجال فقط، بل اشترك فيها حتى النساء؛ حيث كانت أخت أبي سفيان (عمّة معاوية) وزوجة أبي لهب عضواً فيها، وكانوا يتباردون الآراء، فأجمع رأيهم على قتل النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه؛ لأنه يشكل خطراً عليهم. فهؤلاء أرادوا أن يحصّنوا أنفسهم منه بأحد طرق ثلاثة: فجماعة طرحت فكرة الحبس، وجماعة أخرى قالت: نبعده عننا، وجماعة ثالثة قالت: نقتله. وطريقة القتل أن يقتلوه جميعاً بسيوفهم دفعة واحدة فيضيع دمه بين القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم وبنو الفضل أن يطالبوا بدمه صلوات الله عليه وآله وسلامه.

فاستقرّ الرأي على الأخير وصار القرار أن ينفذوه في الليلة التي هاجر فيها صلوات الله عليه وآله وسلامه، فهبط جبرئيل عليه السلام فأنزل الآية: **(وَإِذْ يُنْهَىٰ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَيْنَا تُؤْتُونَ أَوْ نِقْتَلُوكُمْ أَوْ نُخْرِجُوكُمْ)**. والمكر من الإنسان: الحيلة والتصريف الغادر، لكنه من الله: إبطال الحيلة. وهو من باب المقابلة، فنحن نقرأ في القرآن: **(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا)**^(١)، فهذه سيئة من باب التقابل؛ جرياً على قاعدة العرب؛ حيث يقول شاعرهم:

الا لا يجهلْ احـدَ عـلـيـنـا فـنـجـهـلـ فـوـقـ جـهـلـ الجـاهـلـيـنـ^(٢)

(١) الشوري: ٤٠.

(٢) البيت لمعرو بن كلثوم من معلقته. الأنمالي (المرتضى) ١: ٤٢، ٤٣: ٢، ٨، شرح نهج البلاغة ٢٥٦: ٢، ٢٠٧، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠٧، ١٩١، ١١٠: ٢٢١.

فيسمون التقابل باسم الفعل . فهنا المكر من الله رد لمكرهم إلى أعناقهم . ثم بين له جبرئيل عليهما السلام أنه لابد أن يخرج ويبيقي أحداً مكانه؛ حتى يوهمهم أنه ما يزال نائماً في فراشه ، وقال له : «إن الله يأمرك أن تضجع علياً مكانك» . فاستدعي النبي عليهما السلام علياً ، وقال له : «يا علي ، إن الله أمرني أن أضجعك مكانني هذه الليلة وأن تتعجر برداي وتنام مكانني» . فقال له الإمام عليهما السلام : «يا رسول الله ، إذا نمت مكانك أو تسلم؟» . قال : «بلني» . قال : «روحني لروحك الفدا ، ونفسي لنفسك البقاء»^(١) . ثم أخذ سيفه واضطجع مكانه .

عملية الهجرة اشتركت فيها أكثر من صحابي

وعملية الهجرة اشتركت فيها عدة أشخاص ؛ فأبوبكر خرج مع النبي عليهما السلام وعلي نام في فراشه ، وقسم من الصحابيات هيأن طعاماً للنبي عليهما السلام ، وأخرون همّوا بالرحالة . فهذا إسهام في العملية ، فلا بد من ذكر أي فضل أو إسهام لأي أحد في هذه العملية . وهذا هو التاريخ السليم ، حيث تسلط فيه الأضواء على الأشخاص كافة ، وأما التسلیط على جزء دون آخر فهذا عيب ونقص ، وهذا ما نجده عند بعض المؤرخين ، وهو شيء يؤسف له . فالنبي عليهما السلام خرج بهذه العملية الجماعية في حين أن الضوء لم يسلط على علي بن أبي طالب عليهما السلام .

وللتقرير المعنى بحدث آخر نذكر أن ابن كثير حينما يمرّ بحادثة الدار يذكر أنه عندما نزل قوله تعالى : «{وَانذِّرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}»^(٢) ، أرسل النبي عليهما السلام خلف أمير المؤمنين عليهما السلام وقال له : «اصنع طعاماً لأربعين رجلاً» .

(١) الأنباري (الطوسي) ٤٧١ - ٤٧٢، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٢، التفسير الكبير ٥: ٢٠٤.

(٢) الشعراء: ٢١٤.

فصنع لهم علي عليه السلام طعاماً، وكان فخذ جزور وعساناً من اللبن، وكان عددهم أربعين فأصدر لهم شباعاً، ولم ينقص من الطعام شيء، ثم قال لهم رسول الله: «لو قلت لكم وراء هذا الجبل قوم يريدون غزوكم، هل كنتم تصدقونني؟». قالوا: بلـى، لأنـنا ما عرـفـنا مـنـكـ كـذـبـةـ وـأـنـتـ الصـادـقـ الـأـمـيـنـ. قال: «وـافـهـ لـقـدـ جـتـكـمـ بـخـيـرـ ماـ جـاءـ بـهـ وـافـدـ إـلـىـ قـوـمـهـ، قـولـواـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللهـ تـفـلـحـواـ».

فقام إليه عمّه أبو لهب وقال له: ألمـذا جـمعـتـنـاـ؟ تـبـأـ لـكـ. فـهـبـطـ القرـآنـ الكـرـيمـ ليـقـولـ: «تـبـأـ يـنـدـ آـبـيـ نـهـ وـتـبـ»^(١).

ولم تؤثر تلك الواقعـةـ في نفس النبي عليه السلام أبداً، فـكـرـرـ الدـعـوـةـ وـأـمـرـ عـلـيـهـ بـصـنـعـ الطـعـامـ فـفـعـلـ، وـوـقـفـ رـسـوـلـ اللهـ عليه السلام ليـقـولـ لـهـ: «مـنـ مـنـكـ يـتـبـعـنـيـ عـلـىـ هـذـاـ لـيـكـونـ أـخـيـ وـوزـيرـيـ وـخـلـيفـتـيـ مـنـ بـعـدـيـ؟». فـلـمـ يـقـمـ إـلـاـ عـلـيـهـ عليه السلام، وـهـوـ أـصـفـرـ الـقـوـمـ سـنـاـ، يـقـولـ عليه السلام: «قلـتـ: أـنـاـ يـاـ رـسـوـلـ اللهـ. فـقـالـ: اـجـلـسـ. وـفـيـ الثـانـيـةـ قـمـتـ فـقـلـتـ: أـنـاـ يـاـ رـسـوـلـ اللهـ. فـقـالـ: اـجـلـسـ». وـفـيـ الثـالـثـةـ أـمـسـكـهـ مـنـ رـقبـتـهـ فـقـالـ: «هـذـاـ أـخـيـ وـوزـيرـيـ وـخـلـيفـتـيـ مـنـ بـعـدـيـ، فـاسـمـعـواـهـ وـأـطـيـعـواـ».

فـخـرـجـ الـقـوـمـ يـضـحـكـونـ وـيـقـلـوـنـ لـآـبـيـ طـالـبـ: إـنـهـ يـأـمـرـ بـطـاعـةـ وـلـدـكـ^(٢). لـكـنـنـاـ نـجـدـهـ يـقـولـ: لـقـدـ أـمـسـكـهـ مـنـ عـنـقـهـ وـقـالـ كـذـاـ وـكـذـاـ، فـهـلـ يـظـنـ أـنـ بـقـولـهـ يـهـدـمـهـ؟ الـحـقـيقـةـ أـنـ إـنـماـ يـسـيـءـ لـنـفـسـهـ وـلـتـارـيـخـهـ. إـنـ عـنـدـنـاـ نـجـوـمـاـ مـضـيـئـةـ تـعـطـيـ تـارـيـخـنـاـ رـوـحـاـ، فـعـلـيـ عليه السلام رـجـلـ صـنـعـتـهـ السـمـاءـ وـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـقـضـيـ عـلـيـهـ الـأـرـضـ، فـهـذـاـ عـبـدـ الـعـزـيزـ بـنـ مـرـوـانـ يـقـولـ: مـاـ بـنـتـ الدـنـيـاـ شـيـئـاـ إـلـاـ وـهـدـمـهـ الدـيـنـ، وـمـاـ بـنـيـ الدـيـنـ شـيـئـاـ وـاسـتـطـاعـتـ الدـنـيـاـ أـنـ تـهـدـمـهـ^(٣). يـقـولـ

(١) المسد: ١، انظر مناقب آل أبي طالب ٤٣: ١.

(٢) شرح الأخبار ١: ١٠٧.

(٣) اختلف المؤرخون في نسبة لقائلها؛ ففي بحار الأنوار ٤٢: ١٩، أنه الوليد بن عبد الملك،

أحد الأدباء:

سيدى كلما تلبد أفق
 وتمادت صحائف خطأ منها
 قلم الحقد والهوى والزور
 فحبام عطفاً وطيباً كما يف
 سهل إن زج باللهيب البخور
 وتمهل أبا تراب فدون الله
 شتم من حولك الفضائل سور
 إن أشادت بك السما وأفاضت
 أي ضمير لو سبتك الماجوز

المبحث الثاني: إفرازات الهجرة الشريفة

وهكذا استدعاى النبي ﷺ الإمام علياً عليهما السلام فأضجعه مكانه ، وخرج . ولنا أن نسأل : ما هي الخطوات التي خطها رسول الله ﷺ ؟ وهل كان فيها إيحائية وتدريب الناس ؟ نعم كان كل ذلك مما يمكن إجماله بالأتي :

أولاً: وضع قاعدة إنسانية على مستوى العمارسة الفعلية فالرسول الأكرم ﷺ بإجرته الشريفة يكون قد وضع لنا قاعدة إنسانية ربما احتجنا أن نمارسها في حياتنا العملية . فنحن عندما نزرع أرضاً ولا تنبت يحب أن ننتقل لأن الأرض أخرى نزرعها ، وهذا عين ما فعله النبي الأعظم ﷺ ; حيث إنه بقي في مكة ثلاثة عشرة سنة ولم يجن إلا الحجارة ، ولم يتبعه إلا قليل ، فرأى أن التربة غير صالحة لبذر الرسالة ونمّوها ، وأن المناخ غير صالح ، فلا بد أن ينتقل إلى مناخ آخر . ذلك أن الناس معادن ؛ فبعضهم خسيس كالأرض البور ، يقول القرآن الكريم :

وفي شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، المحاسن والمساوي (البيهقي)؛ ٧٧، البيان والتبيين ٢: ١٧٣، أنه لعبد الله بن عروة بن الزبير.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾^(١).

أي أنهم أرضية ليس فيها خير ولا تعطي أي نتيجة. فهؤلاء تذهب معهم كل الحلول سدى وإن تكررت عدّة مرات. وفي مثل هذا الحال يجب تركهم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ اخْبَتْ﴾^(٢); ولذا اضطرّ الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه أن ينقل الدعوة من بيته إلى أخرى. وهذا سلوك إنساني يفعله المصلحون حينما يرون أنهم لم يفلحوا في مكان فيعمدوا إلى أن ينقلوا حركتهم إلى مكان آخر.

فنبينا صلوات الله عليه وآله وسلامه أراد أن يؤصل هذا المعنى في نفوسنا، فقمنا لنا فكرة أن الناس كالأرض ليس بعضهم القابلية على الإنبات، فانتقل بحركته الشريفة إلى دار أخرى.

وهذا - ببالغ الأسف - ما حصل مع إمامنا علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وآله وسلامه، فلم تعطه التربة حقّها، وكان مظلوماً، (نسأل الله أن يجعلنا ممّن يبجل النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه وأصحابه، لأنهم الواسطة بيننا وبين رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه للوصول إلى عقائدهنا)، لكن ينبغي ألا نتعذرّ القرآن الكريم حيث وضع لنا منهجاً في ذلك فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الشَّابِقُونَ﴾^(٣)، ﴿أَوْلَئِكَ الْمُقْرَبُونَ﴾^(٤). فمن أصحاب النبي الأعظم صلوات الله عليه وآله وسلامه من يعبر عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿خَطَّوا عَنْلَاصَالْحَا وَأَخْرَسْتَنَا﴾^(٥) وعبر عن جماعة أخرى بقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ﴾^(٦). وبهذا فإن منهجنا منهج القرآن لا يعدوه، وهو قد ذكر أنه: ﴿لَا

(١) الفرقان: ١٨ ، وقال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ الفتح: ١٢.

(٢) الواقعه: ١٠ - ١١ .

(٣) التوبه: ١٠١ .

(٤) الفصل: ٥٦ .

(٥) التوبه: ١٠٢ .

يُشْتَوِي أَصْحَابَ النَّارِ وَأَصْحَابَ الْجَنَّةِ^(١) وَ(هَلْ يَشْتَوِي الَّذِينَ يَقْلُمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَغْلُمُونَ)^(٢).

فهذه أول خطوة للرسول ﷺ، وهي نقل الدعوة، وقد أثمرت في البيئة الجديدة ثمرة رائعاً؛ حيث إن الأنصار احتضنوا وقاموا بها.

ثانياً: أنها أصبحت مبدأ للتاريخ الإسلامي فالهجرة الشريفة مثلت منطلقاً جديداً في التاريخ: فكانت بداية التاريخ الإسلامي، وأصبح المسلمون يؤرخون بالهجرة. وكان هذا الأمر بإشارة من الإمام علي بن أبي طالب^(٣).

والتاريخ هو عملية تقطيع الوقت، وهو مرتب بالمعاملات الأساسية، فعندما يستغل العامل يحدّد له وقت (٨) ساعات مثلاً، فلا يسرق منه حقه: (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)^(٤). وعندما يعالج بعض الفقهاء قوله تعالى: (وَالْحَرَمَاتُ قِصَاصٌ)^(٥) يقرّ أن الوقت الذي يحدّد للعامل لا ينبغي أن يزداد عليه، ولا ينبغي للعامل أن ينقص دقة منه؛ فكلّا هما يحاسبان أمام الله. فالتاريخ إذن هو عملية تقطيع الوقت، والوقت بعد من الأبعاد، مثل الطول والعرض والعمق؛ فلذا لا بدّ من المرور بالزمن وقطعه حتى تضبط المعاملات والتصرفات ومواسم الزرع والعبادات: (يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْأَمْلَأِ قُلْ هُنَّ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ)^(٦).

(١) العشر: ٢٠ . (٢) الزمر: ٩ .

(٣) تاريخ الطبرى: ٢: ٣، الكامل في التاريخ: ١: ١١ .

(٤) الأعراف: ٨٥، هود: ٨٥، الشعراة: ١٨٣ .

(٥) البقرة: ١٩٤ . (٦) البقرة: ١٨٩ .

ثالثاً: إزالة العقبات النفسية من المجتمع الإسلامي

فمنذ السنة الأولى التي هاجر فيها نبينا الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه عمد إلى أن يزيل العقبات النفسية من المجتمع الإسلامي، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً. إن البعض من الناس يظن نفسه أفضل من الآخرين، وأنه سيَد على غيره وأنه عقري. وهذه النظرة لا يقتصر وجودها على العرب فقط، بل تتعداهم إلى الأوروبيين؛ فهي موجودة عندهم؛ إذ أنهم يركِّزون على الجنس الأشرف، ويذكرون أقسام الدماء، ويقولون: إن الدماء الزرقاء أفضل من الدماء الأخرى، ويذكرون أن بعض الأمم لم يرسل الله لهم نبياً؛ لأنهم ليس لديهم القابلية على استيعاب هذا الأمر. وهذا كلام غريب؛ فالله تعالى هو رب العالمين، وهو كلهم عبيد له، وقد ساوي فيما بينهم وإن اختلفوا في الأ giochi الحضارية والثقافية والقابليات الذهنية، فمعلوم أن هناك فرقاً بين إنسان وأخر.

مظاهر تعليق مبدأ المساواة في الإسلام

ولتأكيد مبدأ المساواة جاء النبي الأعظم صلوات الله عليه وآله وسلامه بلال الحبشي وأخى بيته وبين رويحة الخثعمي، وهو رئيس قبيلة من القبائل الكبيرة.. آخرى بين السيد والمولى. لكنه صلوات الله عليه وآله وسلامه آخرى بين المسلمين جميعاً وترك الإمام علياً صلوات الله عليه وآله وسلامه وحده، يقول صلوات الله عليه وآله وسلامه: «جئت وعيناي تطفحان دموعاً، فقلت: يا رسول الله أراك آخريت بين أصحابك وتركتني؟». قال: «إنما أذكرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»^(١):

(١) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وصيغ مختلفة، انظر الطبقات الكبرى ٢: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٨، كنز العمال ١١: ٥٩٨، ٦٠٨، ٣٢٨٧٩ / ٣٢٩٣٩، ٣٦٤٤٠ / ١٤٠، ١٣، ٣٢٩٥٥ / ٦١٠.

لورأي مثله النبي لآخر ولا فاخطا الانتقاد^(١)

يقول عبد الباقي العمري:

صَهْرَهُ وَابْنُ عَهْدِهِ وَآخِرَهُ	يَا أَبَا الْأَوْصِيَاءِ أَنْتَ لَطِيفٌ
أَكْثَرُ الْعَالَمِينَ مَا عُرِفَوْهُ	إِنَّ اللَّهَ فِي مَعَانِيكَ سَرًا
رَوَابِطُهُ شَعْدَرَةُ بَسْنَوَهُ	أَنْتَ ثَانِي الْأَبَاءِ فِي مِنْتَهِي الدَّوْهُ
فَهُوَ إِبْنُكَ وَأَنْتَ أَبُوهُ ^(٢)	خَلَقَ اللَّهُ آدَمًا مِنْ تَرَابٍ

فنبينا عليه السلام أزال هذه العقبة من خلال هذا التحرك، وخلع من المجتمع هذا الشعور بالتفاضل، وأكده ببيانه فقال: «كلكم لآدم وأدّم من تراب»^(٣)، وقال: «ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتفوّي»^(٤). فالذى يميّز أحداً على غيره هو التفوّي.

الهدف من إزالة العقيبات النسبيّة

والمراد من نزع هذه العقبة من نفوس المسلمين أمور، منها خلق عامل تكافؤ الفرص؛ فمن حق أي مسلم أن يحصل على عمل كمثل غيره دون فرق، وكذلك في مسألة الزواج؛ فليس هناك عقبة تقف بوجه أحد دون أحد؛ فالمسلمون تتكافأ نفوسهم وأموالهم وأعراضهم^(٥). وربما يقول

(١) البيت للسيد محمد الهندي . الأنوار العلوية : ٣٤٠ .

(٢) الفديري ٦ : ٣٣٨

(٢) تحف العقول: ٢٤، شرم نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدر المنشور ٦: ٩٨.

(٤) الكافي ٢: ٨، ٣ / ٣٦١: ٥٥١، مسند أحمد ٥: ٤١١، قريب منه.

(٥) قال رسول الله ﷺ : « المؤمنون تتكافأ دمائمهم، ويُسْعى بذمائمهم أدناهم، وهم يد على من

سوهم». دعائم الإسلام ٢٠٢١/٥/١٢، العصا: ١٤٩، مسند أحمد: ١٨١، سنن أبي داود: ٦٢٥، سنن ابن ماجة: ٢: ٨٩٥ - ٢٦٨٣ - ٢٦٨٥، سنن أبي داود: ٦٢٥ / ٢٧٥١.

البعض : هذه المثالية لا نجدها في كتب الفقه في باب الكفاءة ؛ فمثلاً جاء أحدهم إلى قاضي قضاة المسلمين وقال له : أشكوا إليك فلاناً . قال : ماذا فعل ؟ قال : شتمني وقال لي : سفلة . قال : ما عملك ؟ قال : أنا حجام . فقال له القاضي : أنت سفلة سفلة سفلة . أي أنه شتمه كذلك ، فلماذا هذا الشتم ؟ ومانقص الطبيب الذي عنده مرضع ويمارس الجراحة ؟ ولو رجعنا إلى كتب الفقه عند الشيعة لوجدنا أنهم يقولون : المسلم كفء المسلم ، ويستدلون بالأية الكريمة : **(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاقُكُمْ)**^(١) ، أما المذاهب الإسلامية الأخرى في باب الكفاءة فيعتبرها البعض منهم الثروة والبعض الآخر يعتبرها المهنة في حين أن بعضًا منهم يعتبرها القبيلة .

وهكذا توضع عقبات عديدة في سبيل إزالة التفاوت بين المسلمين ، وهذا خطأ ؛ فالنبي ﷺ جعل المسلمين أخوة تتکافأ دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وكان المسلمون يحملون هذا الشعور . فالنبي ﷺ آخر بين المسلمين ؛ بين المهاجرين والأنصار ، وبين المهاجرين أنفسهم ، وبين الأنصار أنفسهم ، وأخرى بين الأسود والأبيض ، وأعلن الوثيقة الشهيرة لحقوق الإنسان في حجة الوداع .

رابعاً: زرع أمر الصلاة في نفوس المسلمين وكانت العملية التالية مباشرة أمر الصلاة وزرعها في المجتمع الإسلامي ، فشرع صلاة الحضر التي هي أربع ركعات ، وصلاة السفر التي هي ركعتان ، وهذا في الرابعة فقط . ودليلها ما يروى من أنه دخل محمد بن

مسلم وزيارة على الإمام الباقي ﷺ وقال له: ما تقول في صلاة السفر؟ كيف هي؟ وكم هي؟ فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: (إِذَا أَضْرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَنِعْنَشْ عَلَيْكُمْ جَنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ)»^(١)، فصار القصر من الصلاة واجباً كوجوب التمام في الحضر». قال: إنما قال الله عز وجل: «فَلَنِعْنَشْ عَلَيْكُمْ جَنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا»، ولم يقل افعلوا، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟ فقال ﷺ: «أَوْ لَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَزْوَةَ مِنْ شَعَابِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اغْتَمَرَ فَلَا جَنَاحٌ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوُفَ بِهِمَا)»^(٢)؟ ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض؟^(٣)

فالقصر: التنقيص، والرسول ﷺ نص على أن صلاة السفر ركعتان، تقول السيدة عائشة: أول ما فرضت الصلاة كانت ركعتين ركعتين، وبعد ذلك أقرت صلاة السفر ركعتين، وأتمت صلاة الحضر أربع ركعات^(٤).

(١) النساء: ١٠١ . (٢) البقرة: ١٥٨ . (٣) النساء: ١٠١ .

(٤) الفقيه ١: ٤٢٤ ، ١٢٦٥ ، وسائل الشيعة ٨: ٥١٧ - ٥١٨ ، أبواب صلاة المسافر، ب٢، ح٢.

(٤) في (الدر المتنور) من حديث الإسراء والمعراج عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «ثُمَّ صعد بي إلى فوق السبع سماوات، وأتيت سدرة المنتهي، فخشيتني ضبابة فخررت ساجداً، فقيل لي: إبني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك. فمررت على إبراهيم فلم يسألني شيئاً، ثم مررت على موسى فقال لي: كم فرض عليك وعلى أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: إنك لن تستطيع أن تقوم بها أنت ولا أمتك، فسأل ربيك التخفيف. فرجعت فأتيت سدرة المنتهي، فخررت ساجداً فقلت: يا رب، فرضت علي وعلى أمتي خمسين صلاة، فلن أستطيع أن أقوم بها أنا ولا أمتي، فخفف عني عشرًا. فمررت على موسى فسألني قلت: خفف عني عشرًا، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف: فخفف عني عشرًا ثم عشرًا، حتى قال: هنّ خمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. فعلمته أنها من الله، فمررت على موسى فقال لي: كم فرض عليك؟ فقلت: خمس صلوات. فقال: فرض علىبني إسرائيل صلاتان فما قاما بهما. فقلت: إنها من الله ، فلم أرجع». الدر المتنور ٤: ١٢٨ ، ١٣٩ ، وفي الفقيه ١: ١٩٩ ،

وقال النبي ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلني»^(١).

اختلاف المذاهب الإسلامية حول فعل النبي ﷺ
وكان النبي ﷺ يقصر من الصلاة في السفر؛ ولهذا فإن المذاهب الإسلامية ينقسمون حول هذا الفعل إلى قسمين:

الأول: استحباب القصر في السفر

وأصحاب هذا الرأي يفهمون من هذا الدليل الاستحباب؛ فعندهم أنه يجوز للمصلى أن يتم أو يقصر في السفر. وهؤلاء هم الشوافع^(٢) والحنابلة^(٣).

الثاني: وجوب القصر في السفر

وأصحاب هذا الرأي يفهمون من هذا الدليل الوجوب؛ ولذا فإن عندهم أن المصلى يجب عليه أن يقصر من الصلاة، ويرون أن التصر في السفر عزيمة وليس رخصة، أي أن القصر واجب ومتعين على المصلى. وهؤلاء هم الأحناف^(٤) والموالك^(٥) والشيعة^(٦)، فهم يرون أن الله عزّ وجلّ أراد أن يعطي رخصة لعباده للتخفيف عنهم.

وهذا التعليل وارد في الروايات: «تلك فرصة فاغتنمواها»؛ فالحاضر تسهل عليه الصلاة وهو في بيته أو في المسجد، أما المسافر فقد تدركه الصلاة وهو في الطريق أو في بلد بعيد، فربما أقعده السفر عنها. فالسفر حالة

التوحيد: ١٧٧ إشارة إليه.

(١) عوالي الآلاني: ١ / ١٩٨ : ٢٠٨ / ٨٥ : ٧٦، السنن الكبرى (البيهقي) ٢: ٣٤٥.

(٢) كتاب الأم: ١ : ٢٠٨ .

(٣) الشرح الكبير: ٢ : ٩٠ .

(٤) المبسوط: ١ : ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٥) المدونة الكبرى: ١ : ٢٠٨ .

(٦) المقنع: ١٢٤ - ١٢٥، شرائع الإسلام: ١ : ١٠١ - ١٠٢ .

استثنائية أراد الله تعالى أن يخفف فيه من عبادته عن عباده. فالنبي ﷺ أكد على هذا المعنى عند هجرته، وهذا يدل على الاهتمام بالصلاوة؛ فالصلاحة في حالة الخوف - أي حينما يخاف المصلي أن يصيبه مكروه؛ فإنه لا يترك الصلاة - لا تسقط، لكن إذا استطاع أن يصلّي للقبلة صلاتها وإن لم يقدر فيتوجه إلى القبلة ويصلّي بالنية فقط: «فَإِنَّمَا تُؤْلُو فَتْمَةُ وَجْهِ اللَّهِ»^(١)، فإذا استطاع أن يقرأ الحمد والسورة فليقرأهما، وإن لم يستطع فالحمد فقط، وإن لم يستطع فليقرأ ما يتيسر من القرآن، وإن لم يستطع فبالإيماء.

ثمرة الخطاب بلسان الجمع في سورة الحمد
وهذا الإصرار على الصلاة لأنها الرابط الوحيد الذي يشد الناس إلى عوامل الخير، فعندما يقرأ المصلي سورة الحمد يقول: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَشْتَغِلُ»^(٢)، لكن هو واحد، فلماذا يقول: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ»، وهي صيغة جمع؟ إن المفترض به ابتداء أن يقول: «إِيَّاكَ أَعْبُدُ». إن معنى الجمع وثمرته هنا أمور، منها:

الأول: قبول الصلاة التي يتطرق إليها النقص
أن المصلي يضم صلاته إلى صلاة المسلمين كافة، وثمرة هذا أنها إن كان بها نقص فإنها حينئذ ستكون مع المجموعة وتقبل بقبولها.

الثاني: التأكيد على الهوية الإسلامية
كما أن المصلي يريد أن يعبر بهذا عن كونه جزءاً من المسلمين الذين يصلّون، ويريد للرحمة التي ستنزل على المسلمين أن تشمله.

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) البقرة: ١١٥.

فليسمع دعاء السوء الذين يريدون تمزيق شمل المسلمين، فهو لاء ما إن يروا أن أحداً يخالفهم في الفكر حتى يسارعوا إلى اعطائه لقب كافر ومشرك، مع أن المفترض هو توجيه الأخطاء وإصلاحها. وهذه كانت سيرة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه حيث إنه كان يراقب الصحابة في صلاتهم وفي تصرّفاتهم، فإذا لم ينفهم النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه عرفوا أن صلاتهم صحيحة.

فالصلة إذن هي صلة بين العبد وربه، ومهما أنها تصنع الفرد، والنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه قد صنع المجتمع المدني من خلال المواطن الصالح. وهذا يبيّن حرص الإسلام على أن يبني المجتمع ببناء سليماً؛ فإن الإنسان إذا استشعر الصلاة على أنها صلة بينه وبين ربه ومجتمعه فإنه سيكون إنساناً مرتبطاً بالقيم والأخلاق، ونظمئن إليه.

فهذه الكيفية للصلة أقرّها النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، فعندما نزل المدينة أتمَ صلاته - أي صلاتها صلاة حضر - وأعلن القصر في صلاة السفر.

خامساً: تزويج الإمام علي من فاطمة صلوات الله عليهم وآله وسلامه

وفي السنة نفسها زوج النبي الأعظم صلوات الله عليه وآله وسلامه ابنته فاطمة من الإمام علي صلوات الله عليه وآله وسلامه، حيث إن المفسرين الشيعة يروون أن قوله تعالى: «الذِي خَلَقَ مِنَ الْفَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ شَبَابًا وَصَبَرَا»^(١) نزل في علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وآله وسلامه^(٢)؛ لأنَّه اجتمع له مع النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه النسب والصهر. لكنه بما أن التاريخ قد كتب في أيام الأمويين، وبما أن هؤلاء كانوا لا يطيبون لهذا الرجل نفسها أبداً فقد واد كل فضيلة لأمير المؤمنين صلوات الله عليه وآله وسلامه. ومن ذلك أنه حينما جاء سليمان بن عبد

(١) الفرقان: ٥٤.

(٢) تفسير فرات الكوفي: ٢٩١، خصائص الوحي المبين: ٢٢٨.

الملك - وكان ولیاً العهد - للحج ومر بالمدینة التقى أبان بن عثمان بن عفان ، وكان من الأعلام الذين يكتبون التاريخ ، فقال له : اكتب لي السيرة والتاريخ . فقال له : إنها مكتوبة عندي ، وهي من أوثق المصادر والكتب . فلما قرأها سليمان ، وجد فيها فضائل للأنصار في بيعة العقبة الأولى والثانية ، وكفالة النبي ﷺ ، والجهاد ، فقال له : إن للأنصار فضائل في هذه الكتب ؛ فلما أن يكون آبائي قد غمط حق هؤلاء ، أو أن هذا التاريخ كذب ، فلا أقبله حتى أرئي عبد الملك فيه . ثم أخذ الكتب ومزقها ، ولمّا جاء إلى الشام ودخل على أبيه عبد الملك قال له : إن القصة كذا وكذا ، وقد مزقت الكتب . فقال له : نعم ما صنعت . أي لا ينبغي أن تجلب شيئاً للشام يجب ألا يقرأ ؟

وكلّ هذا الموقف المتشنج من الأنصار لأنهم كانوا إلى جانب الإمام علي عليه السلام ، فكيف يكون الحال مع علي بن أبي طالب عليهما السلام نفسه ؟ ولذا فإنهم كانوا إذا رأوا اسمًا لعلي في التاريخ أحرقوا الأرض . ولكن هل استطاعوا أن يضيّعوا ذكر الإمام علي عليه السلام ؟ طبعاً لا ؛ لأن ما كان لله ينفع .

وممن روى أن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليهما السلام القرطبي ، حيث إنه نقل عن ابن سيرين أنها نزلت في علي بن أبي طالب عليهما السلام ، وهناك مصادر أخرى ^(١) تؤكد ذلك .

زواج النور من النور تعريف عملي لنظريات الإسلام

ولعل هناك من يسأل فيقول : ما هي الخطوة الضخمة في هذا الزواج ؟
إن هذه الخطوة الضخمة تمثل بأمور منها :

(١) تفسير الشعبي ١٤١، ١٤٢، شواهد التنزيل ١: ٥٢٨، زاد المسير ٦: ١٩.

أولاً: مسألة القيادة

أن فاطمة عليها السلام بنت رئيس الدولة.. بنت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه الذي كان يحمل رسالة السماء بيد ويحمل قيادة الأرض باليد الأخرى. فالرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه جمع بين السلطتين السياسية والدينية، وكان الناس من الصحابة وأهل المكانة والجاه يتسابقون لخطبة ابنته عليها السلام، وكان النبي يردهم، ولم يلب أحداً منهم، حتى آذوه صلوات الله عليه وآله وسلامه، فأخبرهم أنه سيشكو من يخطب إليه فاطمة عليها السلام إلى ربِّه؛ ذلك أن المسألة ليست بيده. إلى أن جاءه أمير المؤمنين عليه السلام وقد بدا عليه التعرّض والتلعن والحياة، فقال له الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه باسماً: «ما حاجة ابن أبي طالب؟». فقال عليها السلام: «ذكرت لي فاطمة». فبئس له النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، وقال: «أبشر يا علي، فإن الله قد زوجك بها في السماء، قبل أن يزوجهك بها في الأرض»^(١).

وعظمة هذه الخطوة أنه صلوات الله عليه وآله وسلامه خالف جملة من الأعراف الاجتماعية، فالناس كانوا قد عيروا خديجة لأنها تزوجت النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وهو الفقير اليتيم؛ حيث إنه صلوات الله عليه وآله وسلامه كان قد ربي عند أبي طالب عليه السلام. فخديجة صاحبة المكانة والأموال تلعج مثل هذه الزبحة؛ ولذا فقد قاطعوها زمناً طويلاً، ثم يفعل الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه الشيء نفسه مع أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة، وبأي مهر؟ إن المهر الذي ساقه مروان بن الحكم لأمرأة بلغ (٥٠) ألف دينار، وساق مصعب بن الزبير مهراً قدره مليون، فقال أحد الشعراء:

أبلغ عميد بني الزبير رسالة	من مؤمن لك لا يسرد خداعا
بعض الفتاة بalf ألف كامل	وبنات سادات الجنود جياعا

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٢، بحار الأنوار ٤٣: ١٠٩.

أما المهر الذي زوج به النبي ﷺ فاطمة ﷺ فكان أربعين درهماً، وقد اشتري به بعض الصحابة طيباً، وسريراً مزملأ بشرائط النخل، وحصيراً هجرياً، وستراً من صوف، ومخضبة من نحاس، وقعباً للبن، وشناً للماء. فهذا هو كل الأناث، ولما جاؤوا به طرحوه بين يدي رسول الله ﷺ، والنبي يقلبه ويقول: «بأبي وأمي قوم جل إنانهم الخرف»^(١).

ثانياً: القضاء على الشعور بالعار من تزويع البنت والعرف الثاني الذي قضى عليه الرسول الأكرم ﷺ هو النظرة التي كان العرب يتظرون بها إزاء تزويع البنت، فالرسول ﷺ عاش في قلب الجزيرة العربية .. في مكة .. في مجتمع يقول أحد الرؤساء فيه وهو عقيل المري:

إني وإن سبق إلى المهر ألف وعشرين وذود عشر
أحب أصهاري إلى القبر^(٢)

فهذا لا يطبق أن تُخطب ابنته إلى رجل ، في حين أن النبي الأعظم ﷺ يقود موكب عرس فاطمة ﷺ بنفسه ، وحتى أزواجـه ﷺ اشتراكـن في زفاف فاطمة ﷺ . وكان لأم المؤمنين عائشة في هذه المناسبة هذه المقطوعة :

وأنظرـن ما يحسن في المحاضـر	يـا نـسـوـة استـقـرـنـ بالـمـعـاجـبـ
والـشـكـرـ لـهـ العـزـيزـ الـقـادـرـ	وـالـحـمـدـ لـهـ عـلـىـ أـفـضـالـهـ
وـخـضـهـ مـنـهـ بـطـهـ طـاهـرـ	سـرـزـنـ بـهـ فـاشـةـ أـعـلـىـ ذـكـرـهـ
	وـكـذـلـكـ كـانـ لـحـفـصـةـ دـوـرـهـاـ فـقـالتـ :

(١) دلائل الإمامة: ٨٧، بحار الأنوار: ١٠١: ٨٨ / ٥٣.

(٢) الأمالي (المرتضى) ٢: ٤٠، تاريخ مدينة دمشق: ١٤: ٣٢.

وَمَنْ لَهَا وِجْهٌ كَوْجِهِ الْقُمْ
أَعْنِي عَلَيْنَا خَيْرٌ مِنْ فِي الْحَضْرِ
كَرِيمَةُ بَنْتُ عَظِيمِ الْخَطْرِ

فَاطِمَةُ خَسِيرٍ نِسَاءُ الْبَشَرِ
زَوْجُكَ اللَّهُ فَتَنَ فَسَاضِلًا
فَسِرْنَ جَارَاتِي بِهَا إِنَّهَا
وَقَالَتْ مَعَاذَةُ (أم سعد بن معاذ):

وَذَكَرَ الْخَيْرَ وَأَبْدِيهِ
مَا فِيهِ مِنْ كَبِيرٍ وَلَا تَبِهِ
فَسَاهَةُ بِسْالِخْرِ يُجَازِيهِ
ذِي شَرْفٍ قَدْ مُخْتَنَتْ فِيهِ
فَمَا أَرَى شَبِينًا يُسَانِيهِ

أَقُولُ قَوْلًا فِيهِ مَا فِيهِ
مَحْمَدٌ خَسِيرٌ بَنِي آدَمْ
بِفَضْلِهِ عَرَفْنَا رُشْدَنَا
وَنَحْنُ مَعَ بَنْتِ نَبِيِّ الْهَدَى
فِي ذَرْوَةٍ شَامِخَةٍ أَصْلُهَا
وَأَنْشَدَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تَقُولُ:

وَاشْكَرْنَاهُ فِي كُلِّ حَالَاتِ
مِنْ دُفَعٍ مَكْرُوهٍ وَآفَاتِ
ثُفَدَى بِسَعْقَاتٍ وَخَالَاتٍ
بِالْفَضْلِ مِنْهُ وَالرِّسَالَاتِ

سَبَرْنَ بِعُونِ اللَّهِ جَارَاتِي
وَإِذْكَرْنَ مَا أَنْعَمَ رَبُّ الْعَلَا
وَسِرْنَ مَعَ خَيْرِ نِسَاءِ الْوَرَى
يَا بَنْتَ مَنْ فَضَلَهُ ذُو الْعَلَا

وكان زمام الناقة بيد سلمان الفارسي عليه السلام، وإلى جانب الناقة عمران بن ياسر عليه السلام، وأبو ذر عليه السلام من وراء الناقة يسوقها، ورسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، وأصحابه رض، ثم يقف بباب الحجرة ويقعن بالشيبة الكريمة إلى السماء ويقول: «يا رب إلئك باركت على آل عمران، فبارك على آل محمد». ويأخذ يد علي بن أبي طالب ويضعها بيد فاطمة ويقول: «هذه وديعتي عندك». ثم يتلو قوله تعالى: «زَخْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ غَلَنِّيْكُمْ أَهْلُ النَّبِيِّ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» ^(١). ويخرج من

فالنبي ﷺ يرى المسلمين بهذا الفعل أنه يسحق أعراف الجاهلية، فليعمل كل مسلم لأجل إنشاء الأسرة السعيدة.

ثالثاً: التأكيد على بنوة الحسين

وَهُنَا أَرَادَ الرَّسُولُ الْأَكْرَمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا يَبَارِحُ بَيْتُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
بَعْدَ ذَلِكَ، لِيُؤَكِّدَ عَلَى مَسْأَلَةِ حَيْوَيَةِ وَهَامَةِ فِي أَنْ وَاحِدٌ، وَهِيَ أَنْ يَكُونُ
أَوْلَادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَفَاطِمَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَوْلَادُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْ يَظْلَمُوا مَشْدُودِينَ
إِلَيْهِ. وَأَهْمَمُ مَا فِي هَذِهِ الْخَطْوَةِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوجَدَ لِلْمُسْلِمِينَ دَارَ الْأَمَانَ
وَالْعَزَّةَ، فَكُلُّ مُسْلِمٍ يَدْخُلُ الْآنَ الْمَدِينَةَ يَلْمِعُ بَيْتَ فَاطِمَةِ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ
وَالْمَوْقَفُ الَّذِي وَقَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ، يَقُولُ أَحَدُ الشَّعْرَاءِ:

وعُرِفَتْ خَدِي فِي ثَرَى مَئَ عَزَّةٍ
وَفِيهِ مُحَارِبَ لَلِّمَخْدُورِ
وَأَثَازَ أَقْدَامِ صَبَّارٍ وَفَهْجَعَ
وَصَوْتُ زَهْرَاءِ شَطْحَنْ قُوتَها
زَوْئِي سَوْفَ يَنْقِي الْذَهْرَ بِرُوْيِ جَلَانَها
وَتَبَقَّى عَلَى زَغْمِ النَّبَاسَاطَةِ تَأْشِيَّ
إِلَى جَلْدِ كَبِشٍ حِيثُ تَجْلِسُ زَيْنَبَ
إِلَى الْخَسْنَينِ الزَّاكِيَّينِ وَمَلْعَبَ
بِهِنْ ضَرَاعَاتٍ إِلَى اللَّهِ تَنْصَبَ
لِجَبَرِيلَ مَنْ جِنْحِيَهِ رِيشُ مَرْأَبَ

ويدرك أن دخول النبي ﷺ للمدينة قد جلب لها وللمسلمين مجد الدنيا والأخرة، وفعلاً كانت فرحة غامرة عمّت الدنيا، وخرجت المدينة بأهلها تطفو على موجة من الفرح من السرور؛ لأن النبي ﷺ دخل ومعه الفواطم (فاطمة بنت حمزة بنت عبد المطلب)، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ).

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣-٢٩٣، ٤٠٥، بحار الأنوار: ٤٣، ١١١-١١٧، ١٢٥-١٢٧.

^{٢١}) ديوان المحاضر ١ : ١٥، وتأشيب: تجتمع. لسان العرب ١ : ٢١٤ - أشب.

وقد دخلت الفواطم إلى المدينة مرّة أخرى بعد واقعة الطف، فكيف استقبلت المدينة ظعينة رسول الله صلوات الله عليه وسلم؟ لقد كان استقبالاً يهز المشاعر، ويؤجج الزفات في النفس:

مدينة جدنا لا تقبلينا في الحسرات والأحزان علينا	رجعنا منك بالأهلين جمعاً (١) رجعوا لا رجال ولا بنينا
--	---

وفعلاً رجعت حرم الرسول الأكرم صلوات الله عليه وسلم بغير الرجال والبنين، فكل من رجع كانوا مجموعة من الأرامل واليتامى . وبعد أن أدت زيارة قبر جدها رسول الله صلوات الله عليه وسلم، وقفت أمام دار أخيها أبي عبد الله الحسين عليه السلام وراحت تخاطبها:

أرد عيني وأصد فكري الدرجنا بيها من صغري	اخوي من اطب عندك دار أخاف تشوف ملعينا
مثل عذب الهوى تجري ****	تمز اطيوفك اعليه ****

أناجيها بدمع سخاب واشتم رحمة الأحباب	وحشك لو جهيت الدار أشوف ارسومكم ببها
وتكتوم كباب الباب ****	واتذكر ثنایاكم

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا لأنزلن طريق الطف ريحانا	وخلقا في سويدا القلب نيرانا نذر على لنن عادوا وإن رجعوا
---	--

← ----- →

(١) بحار الأنوار ٤٥ : ١٩٨ ، بناية المودة ٣ : ٩٤.

(٢) شجرة طوبى ١ : ٩١.

﴿٢﴾

أمية الرسول ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ
يَشَّلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: أقسام الأمية ومعنى أمية الرسول ﷺ

الأميون: جمع الأمي، وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب. وفي الأيام الأخيرة نشأ عند الكتاب والمتكلمين اصطلاح هو أن الأمية صنفان: الأمية الأبجدية، وهي أن المرء لا يعرف القراءة والكتابة. والأمية الحضارية وهي خلو الذهن الإنساني من المعلومات. فقد تجد إنساناً لا يقرأ ولا يكتب لكنه يمتلك معلومات كثيرة، وتجد له أفقاً واسعاً ومعرفة واطلاعاً، وكل ما في الأمر أنه لا يستطيع أن يسطرها أو يقرأها في كتاب.

طبيعة أمية الرسول ﷺ

والآية بالتأكيد تعني الصنف الأول من الأمية، فالنبي ﷺ لم يمارس القراءة

(١) الجمعة: ٢.

والكتاب، يقول تعالى: {وَمَا كُنْتُ شَفِيلًا مِّنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا شَخْطَةً بِتَمِينِكَ إِذَا لَازَمَكَ الْمَبْنِطُونَ} ^(١). وكان القرآن الكريم يعلل ذلك بأن النبي ﷺ لو كان يمارس القراءة والكتابة لقليل له: إن هذا القرآن من عندك، وأنت الذي اخترعنه وليس وحيًا من السماء. وحتى مع كون النبي ﷺ أميًّا فإن هذه المقوله إلى الآن موجودة خصوصاً لدى المستشرقين والمجاميع العلمية الأوربية، فإنهم عندما يمرون بمسألة تقييم رسالات السماء والكتب السماوية يقولون: إن هذا القرآن من اختراع محمد. مع العلم أنه من المفترض في الإنسان أن يكون ابن البيئة التي يعيش فيها، فهو ابن المنطقة والحضارة السائدة. والزمن الذي عاش فيه النبي ﷺ كانت فيه الحضارة بدائية. فنحن نعرف أن مجموع من كان يقرأ ويكتب في الجزيرة العربية كما ينص عليهم البلاذري ^(٢) كان (١٧) فرداً؛ قسم منهم كان يحسن القراءة والكتابة، وقسم كان يحسن القراءة فقط، ونعرف أن الجهل كان يلف المجتمع الذي كان حول النبي ﷺ والذي عاصره.

فالمجتمع بأجمعه كان جاهلاً لا يملك أي معلومات، والمعلومات التي جاء بها القرآن معلومات ضخمة، فكلما جدت العصور وتقدمت الدنيا وتعمق الفكر واتسعت الثقافة فتحن نجد أن القرآن يتتجّر عطاها، وفي كل

(١) المنكبوت: ٤٨

(٢) وهم كما نصّ عليهم: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة ابن الجراح، وطلحة، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وحاطب بن عمرو العامري، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وأبابا بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد أخوه، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وحوبيط بن عبد العزى العامري، وأبا سفيان بن حرب بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، وجheim بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمي. فتوح البلدان ٣: ٥٨٠ / ١١٠٤.

عصر تجد فيه مكامن لاستفادة البشرية تأخذ منه من العلوم ما تريده. والباحث لو أراد الآن أن يبحث عن الكثير من النظريات الحديثة لوجدتها ضاربة الجذور في القرآن الكريم. فمن أين جاء محمد وهو الأمي بهذه المعلومات حتى يسطرها في القرآن؟ فلو فرضنا أن النبي ﷺ عند هذه المعلومات عامة، فهي لا تتعذر محيطه الذي يعيش فيه؛ لأن الإنسان إنما يأخذ معلوماته وثقافته من بلده بما فيه من عطاء علمي.

العلم يصدق القرآن

فالقرآن الكريم يقول: «إِنَّ أَنْكَحَ الْأَضْوَاتَ لِصُوتِ الْخَمِيرِ»^(١)، وما يتسع له أفقنا الذهني وهو الذي نستطيع أن نفهمه من هذه الآية وفق المعرف التي نعيش فيها هو أن القرآن يضرب مثلاً في الصوت الخشن المزعج، ولكن العلم اليوم يقول على لسان أحد علماء الأكاديمية الفرنسية: إن أعظم المطارق إذا وضعت جنب الأذن البشرية فإنها لا تحدث ضرراً في السمع بقدر ما يحدثه صوت الحمار من ضرره. وهذا لم يتحقق لأحد أن يكتشفه إلا بعد (١٤٠٠) سنة من نزول القرآن، فمن أين أخذ النبي ﷺ ذلك، وهو

الذي كان يعيش في مجتمع بدائي بما للكلمة من معنى؟

إذن لا قيمة لدعوى أن النبي ﷺ جاء بالقرآن من عنده كما يدعي المستشرقون وتلامذتهم. وقد يكون بعض أبنائنا ممن ينقلون أفكار الأجنبي ويكونون ترجمة صادقة للأجنبي في أفكاره يحملون مثل هذا الرأي.

فالنبي ﷺ كان أمياً بمعنى الأمية الأبجدية.

المبحث الثاني: وجوب بعثة الأنبياء وعدمه

والنقطة المهمة التي ينبغي أن نعرج عليها هي أن بعثة الأنبياء عليهم السلام هل هي واجبة على الله تعالى أو مستحبة؟ علماء المسلمين في هذه المسألة فريقان: فريق يقول: إن مثل البعثة أو غيرها لا يمكن أن يأخذ صفة الوجوب على الله، فلا يمكن أن نقول: إن هناك شيئاً واجباً على الله أبداً. فالله يمكن أن يترك الناس سدى بدون دين، ويمكن أن يعذب بعض الناس بدون ميرر، فيمكن أن يعذب المطيع وينعم العاصي؛ لأن القرآن يقول: «لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ»^(١)، فلا يمكن أن نوجب على الله شيئاً^(٢).

وهذا اللون من الفكر خطر على الإسلام، لأنه يفتقر إلى مقومات الأصالة، فالله تعالى عندما خلق العقل فإنما خلقه ليكون مقياساً لنا لا أن نجمده في رؤوسنا، وخلقه لنتعمله ونستفيد منه ونفهم به، وليس من الممكن أن يخلق الله العقل كي نعطيه عن العمل. والعقل يحكم بقبح تعذيب المطيع وحسن تعذيب العاصي، والله سيد العقلاً وخالق العقل، والمقياس العقلي مقياس صحيح ترجع إليه كل الأمور. فلا يمكن أن نحكم على الله أنه من الممكن أن يترك مجتمعاً سدى. يقول تعالى: «وَمَا كُنَّا مُغَنِّيِنَ حَتَّىٰ تَبَغَّثَ رَسُولًا»^(٣). فلابد من وجودنبي يحمل الرسالة إلى الناس، ويشرح لهم التكاليف وفلسفه وجودهم، ويحجب عن الأسئلة التي لا يستطيع العلم أن يجيب عنها.

(١) الأنبياء: ٢٣.

(٢) انظر: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: ٤٠، الصراط المستقيم: ١.

(٣) الإسراء: ١٥.

شبهة البراهمة حول إرسال الرسل، وردّها

واحدى الشبهات حول بعثة الأنبياء عليهما مثلاً شبهة البراهمة، فهم يقولون: لا داعي لأن يبعث الله نبياً؛ فهذا النبي الذي يبعثه الله هل سيأتي بأحكام تتوافق العقل أم تخالفه؟ فإن كانت توافق العقل فلا قيمة لها؛ لأنها أصبحت مكررة، فالعقل كان يقول بها قبل مجيء النبي، وإن جاء بأحكام تخالف العقل فيجب علينا رده؛ فلا ضرورة إذن إلى بعثة الأنبياء عليهما مثلاً^(١).

وقد انطلت هذه الشبهة على الكثير من الناس، ولكن الواقع غير ذلك، فالله يبعث النبي بما لا يخالف العقل، وهذا صحيح، لكن هناك أشياء كثيرة لا يستطيع العقل أن يصل إليها، فنحن نستطيع أن نكلف العقل ما يستطع، كأن نسأل عالم الكيمياء حول قوله تعالى عن العسل: «فيه شفاء للناس»^(٢)، فهو يحلل العسل في المختبر ويقول لنا: إن فيه موادًّا وعناصر نافعة، لكن لو أردنا أن نكلف العلم أن يحلل لنا ما بعد الموت، وهل إن الإنسان يُبعث أولاً، وهل إنه يُسأل إذا بعث أو لا، وأين يكون البعث والنشور، وكم هي البقعة التي سوف يحشرون عليها، فلدينا الآن عشرات المليارات من الناس منذ آدم إلى الآن، ولو حشروا كما يقول القرآن: «وَحَشِزْنَا هُمْ فَلَمْ تُقَابِرْ مِنْهُمْ أَخْدَأْ»^(٣)، فآية رقعة تتسع لهم؟ فإن العلم لا يستطيع أن يجيب عن ذلك، والعقل لا يهتدى إلى ذلك، لأن ذلك ليس من شأنه. فهذا من علوم ما وراء الطبيعة، وهو من اختصاص الوحي والنبوات. فنحن إذن بمسيس الحاجة إلى النبوة باعتبار أنها تجيب عن أسئلة لا

(١) شرح المواقف: ٢٢٥ - ٢٢٦ (حجرى). (٢) التحل: ٦٩.

(٣) الكهف: ٤٧.

يجب عندها العلم ولا العقل؛ فهذه الشبهة إذن ليست مستقيمة.

عدم وجوب الوصية يساوق عدم وجوب البعثة

إذن هذا الرأي في عدم وجوب البعثة والنبوة على الله لا يمكن أن يقبله العقل. ونحن عندما نسمع هذا الرأي، فإننا لا نستغرب إذ نسمع رأياً آخر يقول: إن النبي عليه مات ولم يوصي^(١)؛ لأنك عندما تسمع أن الله لا يجب عليه أن يبعث النبي، فليس من الغريب أن تكون الوصية على النبي غير واجبة. مع أن هذا خلاف المعهود من أسلوب الإسلام، فنحن نعرف أن أسلوب الإسلام يفرض الوصية حتى في الأشياء البسيطة، يقول النبي عليه: «حق على المؤمن ألا يبيت إلا ووصيته تحت رأسه»^(٢). فكيف يمكن أن يخرج النبي عليه من الدنيا دون أن يوصي؟

وتعال إلى التناقض في هذه المسألة، فتارة يقال: إنه خرج من الدنيا ولم يوصي نهايّاً، مع العلم أنه كان عندما يخرج خارج المدينة قليلاً ولو ليلة واحدة فإنه يعين شخصاً ينوب عنه عليها^(٣). فكيف يخرج

(١) انظر: صحيح مسلم :٥، نيل الأوطار :٦،٤٤، فتح الباري :٥،٢٦٩، كنز العمال :٦، ١٧٠٦٢/٦٠.

(٢) مصباح المتهجد: ١٤، المدونة الكبرى :٦، ١٠.

(٣) أحصى الخطيب الشيخ عبد الحميد المرهون في كتابه (رائق الضمير) ١: ٢٠٤ - ٢٠٨ غزوات الرسول الأكرم عليه التي كان يستخلف فيها أحد أصحابه على المدينة، ذكر منها:

- ١ - استخلف عليها سعد بن عبادة عندما خرج إلى غزوة الأباء.
- ٢ - استخلف عليها السائب بن عثمان بن مضعون عندما خرج إلى غزوة بُواط.
- ٣ - استخلف عليها أبي سلمة المخزومي عندما خرج إلى غزوة العشيرة.
- ٤ - استخلف عليها زيد بن حارثة عليه عندما خرج خلف كرز بن جابر الفهري.
- ٥ - استخلف عليها عبد الله بن أبي بن سلول عندما خرج إلى غزوة بدر والسوق وبني قينقاع.

من الدنيا ويترك الناس سدىً دون وصيَّة؟
وتارة يقال: إنه وصيَّ ولكننا لا نأخذ بوصيَّته؛ لأنَّه كان (يهجر)؛ لأنَّه في
ساعة مرض^(١)! فكيف يمكن الجمع بين هذين الادعاءين؟

أوصى النبي ﷺ فقال قائلُهم	قد راح يهجر سيدُ البشر
لحسن أبو بكر أصحاب فلم	يهجز وقد أوصى إلى عمر ^(٢)

فالاثنان أوصيا؛ النبي ﷺ وأبو بكر، وكلتا الوصيَّتين كانتا في وقت
العرض، فالمرض الذي غلب على النبي ﷺ وجعله يهجر لم يغلب
على الخليفة الأوَّل أيضًا ويجعله يهجر؟ إنَّ هذا اللون من الفكر نستطيع
أن نسميه تزييناً للتاريخ والحقائق. مع أنَّ الإسلام يرتئي فيما الموضوعية،
ويريد منا أن نكون كذلك عند البحث، وألا تغلب علينا العاطفة فتجعلنا

- ٦ - استخلف عليها سُباع بن عرفة الغفاري عندما خرج إلى غزوة كدر.
 - ٧ - استخلف عليها أبا دجابة الساعدي عندما خرج إلى حجة الوداع.
 - ٨ - استخلف عليها ابن أم مكتوم عندما خرج إلى غزوة نجدان وأحد وحراء الأسد والخندق وبني لحيان وذي قَرَد.
 - ٩ - استخلف عليها عثمان بن عفَّان عندما خرج إلى غزوة ذات الرقاع، وقيل: ذي أمد.
 - ١٠ - استخلف عليها أبا ذرًا الغفاري عندما خرج إلى غزوة ذات الرقاع وغزوة بني المصطلق.
 - ١١ - استخلف عليها عبد الله بن رواحة عندما خرج إلى غزوة بدر الثانية.
 - ١٢ - استخلف عليها نميلة بن عبد الله الليثي عندما خرج إلى غزوة الحديبية وخبيث.
 - ١٣ - استخلف عليها عوف بن الأخطب الدُّولِي عندما خرج إلى عمرة القضاة.
 - ١٤ - استخلف عليها أبا رهم الغفاري عندما خرج إلى فتح مكَّة.
 - ١٥ - استخلف عليها علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما خرج إلى غزوة تبوك، وفيها قال له: «إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك، فأمنت خليفي في أهلي ودار هجرتي وقومي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبي بعدي؟». فعاد رضي الله عنه قرير العين.
- (١) مسنَد أحمد ١: ٢٥٥، صحيح البخاري ١: ٣٦، ٩، ٧، صحيح مسلم ٥: ٧٥ - ٧٦.
- (٢) البيتان للديلمي. انظر الصراط المستقيم ٣: ٧.

نلوي المقاييس ليأ؟ فنمنسخ وجه الدنيا.
فهذا الفريق من العلماء -وهم الأشاعرة، وهو الذي عليه المذاهب الأربع
- يقولون: إن الله لا تجتب عليه النبوة^(١).
أما المعتزلة^(٢) والإمامية^(٣) وال فلاسفة^(٤) والمتكلمون^(٥) كلهم فيذهبون
إلى وجوب بعثة الأنبياء؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به يكون واجباً، أي أن
مقدمة الواجب واجبة أيضاً. فنحن نعرف أن نظام المجتمع يتوقف على
وجود شريعة سماوية، فإذا لم ينزل الله لنا شريعة تتوضح لنا الأشياء فإن
نظامنا سيتبقى متخللاً. فليس من الممكن أن يترك الله الناس سدى،
وليس من الممكن أن يخلقهم ولا يعلمهم وينظم شؤونهم. فلا بد من
إنزال شريعة تنظم الدنيا، وهذه الشريعة لا يحملها إلا النبي، ولا يصلح
له أحد؛ إذ أن الله لا بد أن يختار لها عنصراً يحمل القابلية والكفاءة
والمرونة والطاقات العظيمة حتى يصلح لحمل النبوة والرسالة. ولذا
أصبحت بعثة الأنبياء واجبة على الله.

المبحث الثالث: دلائل النبوة

ولكن كيف يمكن لنا أن نعرف النبي؟ وما هي الدلائل على نبوته؟ هناك
ثلاث علامات لابد أن تتوفر كي نعرف أن هذانبي:

الأولى: لا يأتي بما يخالف العقل والواقع والفطرة
فمن الأمثلة على ما يخالف العقل أن يقول: إن الآلهة متعددة؛ لأن العقل يحكم

(١) الصراط المستقيم : ٤٠.

(٢) المصدر نفسه، شرح المواقف: ٢٢٠ (محري).

(٣) شرح تجريد الكلام: ٢٧٥ - ٢٨١ / المسألة: ٥ - ٦.

(٤) شرح المواقف: ٢٢٠ (محري). (٥) المصدر نفسه.

بأن الآلهة إذا تعددت تضاربت الإرادات؛ وبالتالي يضطرب الكون ولا يمكن أن يستقيم. قال تعالى: «لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»^(١)، فلو كان هناك أرباب متعددون فإنه يلزم من هذا أن أحدهم يريد شيئاً ويريد الآخر خلافه؛ فتتعارض إراداتهم؛ فيتغطّل الكون. يقول أمير المؤمنين ع: «لابنِ الْحَسْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَكَ رَسْلَهُ»^(٢).

وأما ما يخالف الواقع فكأن يقول: إن الأرض مسطحة لا كروية. فهذا خلاف الواقع؛ لأن غروب الشمس وظهورها دليل على كرويتها. وعندما تقف على البحر وتتأمله تعرف أن الأرض كروية^(٣). فإن قال النبي: إن الأرض مسطحة فهذا مما يخالف الواقع.

وأما ما يناقض الفطرة فكأن يقول: إن الزواج محرام. ولذلك نحن لا نقبل ما ينسب إلى النبي عيسى عليه السلام في هذا الميدان، ولا يمكن أن يقول عيسى عليه السلام: إن الإنسان إذا أراد أن يكون قريباً من الله فعليه أن يبتعد عن المرأة. فالإنسان غريزه، وعندما وضع الله الغريزة عنده لم يضعها عبثاً، وإنما وضعها ليمد المجتمع بالأجيال. فليس من الممكن أن يخلقها ثم يقول له: لا تتزوج وابتعد عن المرأة كي تكون قريباً مني. فهذا تناقض، وهو خلاف الفطرة. فإذا كان الله قد وضع عندي الاستعداد لإشباع غريزة ما، فلماذا يكلّفني بخلافها؟

ومما يخالف الفطرة أن يقول النبي: إن العلم قبيح، فهذا مستحبيل؛ لأن الله

(١) الأثنياء: ٢٢. (٢) نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

(٣) فإن الباقي التي تمحر عبابه حينما تقدم من بعيد أوّل ما يتراهم منها أعلى جزء فيها، ثم بعد ذلك تبدأ السفينة بالظهور شيئاً فشيئاً من جزتها العلوى حتى تستبين كلها، مما يدلّ على تكؤ سطح الماء الناشئ عن تكؤ الأرض.

خلق عندنا حب العلم والاستعداد لطلبه، فكما أن المعدة تحتاج للأكل فإن العقل أيضاً يحتاج للمعلومات. فالإنسان عندما يخرج إلى الدنيا يسأل نفسه: من أين أتيت؟ وإلى أين سأذهب؟ وما هذا الكون المحظي بي؟ فيجب على النبي ألا يأتي بما ينافق الفطرة.

الثانية: أن تكون بعلته خيراً للناس وطاعة الله

فلا يمكن أن يأتي الأنبياء بشر للناس. وإذا كنا نحن لا نعرف الخير، فهذا بحث آخر، فالمجتمع قد لا يعرف الخير فيسميه شرّاً، ولا يعرف أسرار البعثة أحياناً، لكن هذا بحث آخر كما قلنا؛ وعليه فالنبي عليه السلام لا يأتي إلا بالخير.

والمرء قد يجد من يسأل عن حكمة الصوم وألامه، ويقول: لم الصوم في هذا الصيف الحار وأفواهنا جافة؟ وكيف يكون هذا خيراً؟ لكن هذا لا يعرف معنى الخير، فلو كان يعرف أن الله هو الذي خلق الجسم وهو أعرى بمصلحته وفسدته، لعرف الخير، ولعرف أن بعثة الأنبياء خير محسن، ووكل أمر كل شيء إلى الله؛ لأن النبي ينفذ أوامر السماء، فهو يطيع الله بهذا.

الثالثة: أن يكون مسلحاً بالمعجزة

والمعجزة تكون في الإثبات بما هو خلاف المعتاد، فنحن نعرف مثلاً أن الإنسان لا يمكن أن يصلع إلى الجو إلا بالطائرة، أو أن يكون عنده جناحان يطير بهما. لكن عندما أعرف أن النبي عليه السلام صعد واخترق الجو كما يقول القرآن: «سُبْحَانَ الَّذِي أَشْرَى بِعَنْبَدِهِ نَهْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(١)، وأعرف أنه يجتاز الأفق ويشقه بهذا الإعجاز فإني أرى أن

(١) الإسراء: ١.

هذا دليل على نبوته.

ولكن أفت نظرك هنا إلى أن هناك فرقاً بين المعجزة والكرامة، فالكرامة مثل ولادة النبي عيسى عليه السلام من غير أب، لأن مريم عليه السلام حملت به من دون زوج، أما المعجزة فشرطها التحدي، فإن لم يكن بها تحدي فلا تعتبر معجزة. فالنبي يتحداهم أن يأتوا بما يأتي به هو.

المبحث الرابع: من معجزات النبي ﷺ

المعجزة الأولى: تنظيم المجتمع

وأول معجزة للنبي محمد ﷺ أنه استطاع أن ينظم الدنيا وهو أمي، فقد استطاع أن ينظم ذلك المجتمع البدوي الذي يقول عنه التاريخ: إن التخلف كان يسوده في الأبعاد؛ فلا علم ولا أخلاق ولا اقتصاد ولا تنظيم. لكن النبي ﷺ بدأ معهم من الصفر كما نقول اليوم في لغتنا، فقد جاء إلى مجتمع أقل ما فيه أنه وصلت به الحالة أن يقف أحدهم على النبي ﷺ في سنة جدباء لا مطر فيها ولا زرع ولا خيرات، وكانت البيوت تنام على الطوى والجوع، فيقول:

أسيتك والعذراء تسبكي بزنة وقد ذهلت أم الرضيع عن الطفل
واخت وبستان وأم كسييرة وقد بدت من فقري أخالط في عقلٍ
وليس لنا ما يأكل الناس عندنا سوى الحنطة العامي والعلوز الفسل^(١)

(١) العلوز: شيء يتخذون منه طعاماً في سن المعاقة، حيث يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوننه بالنار ويأكلونه. وقيل: كانوا يخلطون فيه القردان، ويقال للقراد الضخم: علوز. وقيل: العلوز شيء ينتس بلاد بنى سليم له أصل كأصل البردي. والفالس: الرديء، الرذل من كل شيء، المصدر نفسه.

وليس لنا إلَّا إِلَيْكَ تَسْقُبُنا وَإِنَّ فِرَارَ النَّاسِ إِلَّا إِلَى الرَّسُولِ^(١)

ويقف كعب بن مالك فيقول:

زعمت سخينة ان ستغلب ربها وليغفبن مغالب الغلاب^(٢)

ويعني بسخينة: قريشاً؛ فقد كانوا من جوعهم يأكلون السخينة، ويعتبرونها من الأكلات الراقية عندهم، وهي أن يؤتون بالماء فيغلى ثم يلقى فيه شيء من طحين الحنطة إذا كان عندهم، ويضاف إليه شيء من الحلو. فهذه أكلتهم المفضلة.

ونجد الزهراء عليها السلام ترسم صورة أكثر براعة من هذا، فتقول في خطبتها: «وكتتم على شفا حفرة من النار، أذلة خاسدين، تقاتلون العقد وتشربون الطرق»^(٣) فأنقذكم الله بأبي محمد عليه السلام منها^(٤). والعقد هو جلد الخروف بعد أن يؤخذ لحمه^(٥)؛ فهم يضطرون أحياناً لأكل الجلد، وقد يضطربون الأمر أحياناً لأكل الحشرات.

فالنبي صلوات الله عليه انطلق من هذه النقطة، وإذا بك تدخل بعد أيام إلى مطابخ المسلمين فتجد فيها ما لا يطاب، في حين أن فترة البعثة هي (٢٣) سنة فقط. فهل يستطيع أحدنا أن يرتب في مثل هذه الفترة ولداً واحداً فقط؟ فكيف بتربية مجتمع معقد غاية التعقيد؟ لقد جاء النبي صلوات الله عليه إلى الاقتصاد

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٢٩٣ - علهز، ٣٢٢ - عول، ٤٤٦ - فسل، لسان العرب ٥: ٣٨١ - علهز، ١١: ٥١٩ - فسل.

(٢) غريب الحديث (ابن قتيبة) ٢: ١٤٠، لسان العرب ١٣: ٢٠٦ - سخن، طبقات فحول الشعراة ١: ٢٢٢ - ٢٠٥.

(٣) الطريق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبع. لسان العرب ٨: ١٥١ - طرق.

(٤) شرح الأخبار ٣: ٣٤٥ - قد.

فعالج الموانع عن تنمية الاقتصاد، فجعل النفوس تتقبل العمل بعد أن كانت تألف منه^(١)، وجعل المجتمع ينزل إلى العمل بمختلف أصنافه. وحمل شعار «من لا يعمل لا يأكل»^(٢). وهذا الشعار أول من طرحته هو

(١) والرسول الكريم عليه السلام لم يكن يقول ذلك فقط، بل كان يطبقه بالفعل على الواقع كما سراه في الأمثلة التالية:

- ١- فمن المعلوم أن الرسول عليه السلام مارس الرعي والتجارة بنفسه كما هو المشهور من سيرته.
- ٢- كما أنه عليه السلام كان يؤكد عليه بقوله: «لأن يعمل الرجل حبلاً فيحتحطبه به ثم يجيء فيضعه في السوق فيبيعه ثم يستفني به فينفقه على نفسه خيراً له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه». الكافي ٤: ٢٠، مسند أحمد ١: ٤٩٦، ٢: ١٦٤.
- ٣- ويقول له عليه السلام: «والله لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتحطبه على ظهره فباكل ويتصدق خيراً له من أن يأتي رجلاً أغنمه الله عز وجل من فضله فيسأله أعطاء أو منعه». مسند أحمد ٢: ٣٠٠.
- ٤- وقد جاء رجل إلى النبي عليه السلام، فشكى إليه الفاقة، فقال عليه السلام: «انطلق حتى تجد من شيء». فانطلق فجاء بحلس وقدح، فباعهما له رسول الله عليه السلام، وقال له: «اشترِ بدرهم فاسأّ ويدرهم طعاماً لأهلك، وانطلق إلى هذا الوادي فلا تدع شوكاً ولا حطباً، ولا تأتني إلا بعد خمسة عشر يوماً». فانطلق فأصاب عشرة: فعاد إليه فقال له: «فانطلق فاشترِ بخمسة طعاماً لأهلك». فقال: يا رسول الله، لقد بارك الله لي فيما أمرتني. فقال عليه السلام: «هذا خيراً من أن تجيء يوم القيمة وفي وجهك نكتة المسألة. إن المسألة لا تصلح إلا ثلاثة: الذي دم موجع، أو غرم منقطع، أو فقر منقع». انظر: بحار الأنوار ١٠: ١٠٠، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٢٥.
- (٢) ليس المراد أنه مبدأ إسلامي بمنطقه، بل المراد: بمفهومه، ذلك أن الإسلام حثّ على العمل، ومنع من التصدق على القادر على العمل كيلاً يتسبّب في إعااته على خلق طبقة غير منتجة، وبالتالي زيادة نسبة البطالة في المجتمع. ومن مصاديق حثّ الإسلام على العمل وترغيبه فيه ما روي من أحاديث عن الرسول الأكرم عليه السلام مثناً من بعضه في الهاشم السابق. ويلاحظ أنه يجب التفريق بين تطبيق هذا المبدأ في الإسلام وفي غيره؛ فالمقصود به في الإسلام: القادر على العمل، أو من تتوفر له فرص العمل لكنه لا يعمل، في حين أن من لم يكن كذلك فإن الإسلام يضمن له حاجاته الحياتية حتى يتمكن من العثور على عمل بالنسبة لل قادر عليه أو حتى يتوفّأ الله بالنسبة للعجز، أما في غير الإسلام من الأنظمة الوضعية فالمراد به كل أولئك: سواء كان قادرًا على العمل أو لا. وهذا ما أراده المحاضر مثناً من في موضوع «المبدأ لا ترتبط بالقائمين عليها»، ولأجله نوهنا.

الإسلام؛ لأن الله جنَّد الناس إلى العمل في مختلف الميادين: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً»^(١). ثم كرم العمل والعامل^(٢)، ثم أعاد توزيع الثروة^(٣)، ثم استفرغ وسع المجتمع كلَّه في استثمار الطاقات.

وإذا بنا بعد فترة نلاحظ مثلاً أن الزبير يموت وعلى مربطه من الخيل ألف فرس^(٤)، ويموت زيد بن ثابت فيترك من الذهب والفضة ما يكسر بالفتوس^(٥)، ويموت عبد الرحمن بن عوف فيأتون بتركته إلى مجلس

(١) الفقيه ٣ / ١٥٦ / ٢٥٦٩ عن العالم عليهما السلام، وروي عن الرسول عليهما السلام بلفظ «احرث لدنياك ...». النهاية في غريب الحديث والأثر ١ : ٢٤٦ - حرف.

(٢) قال الصادق عليهما السلام: «الكافر على عياله كالمجاهد في سبيل الله». الكافي ٥ : ١ / ٨٨، الفقه النسوب للإمام الرضا عليهما السلام: ٢٠٨، وفيه: عن رسول الله عليهما السلام.

(٣) كما في مسألتي الزكاة والخمس، والمساواة بين المسلمين في العطاء، وغير ذلك.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١ : ٢٠٤ - ٢٠٥، ونص عبارته: في أيام عثمان اقتني الصحابة الضياع والمال، فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومئة ألف دينار، وخلف ليلاً وخليلاً كثيرة. وبلغ الثمن الواحد من متراوه الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف درهم، وقيمة ضياعه بودي القرى وحنين وغيرهما مئتا ألف دينار، وخلف ليلاً وخليلاً كثيرة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متراوه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً. وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفتوس، غير ماخلف من الأموال والضياع بعنة ألف دينار، وبين الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والköفة والاسكندرية. وكذلك بنى طلحة داره بالköفة وشيد داره بالمدينة، وبناها بالجص والآجر والساخ. وبين سعد بن أبي وقاص داره بالقيق ورفع سكها وأواسع فضاءها، وجعل على أعلاها شرفات. وبين القداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن. وخلف لعلي بن منه بخمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك مما قيمته ثلاثة ألف درهم. وانظر المنتخب من ذيل المذيل (الطبراني): ١٣، وفيه: اقتسم ميراث الزبير على أربعين ألف ألف.

(٥) مروج الذهب ١: ٤٣٤، وروي أن عثمان أعطاه يوماً مئة ألف مرة واحدة. انظر أنساب الأشراف ٥: ٣٨، ٥٢، وروي كذلك أنه قال: كان عمر يستخلفني على المدينة، فوالله ما رجع

ال الخليفة الثالث فيقف رجلان كلّ واحد في جهة من الترفة فلا يرى أحدهما الآخر^(١). وقد انعدمت الحاجة تماماً في عهد النبي ﷺ، ولا أقول انعدم التفاوت؛ لأن انعدام التفاوت نظرية طوبائية لا يمكن أن تكون على أرض الواقع. فليس من الممكن أن يكون هناك مجتمع ينعدم فيه التفاوت، فالله تعالى خلق البشر متفاوتين بالعقل والادراك والأجسام. فلا بد من وجود تفاوت في المعاش أيضاً، لكن ينبغي أن يكون تفاوتاً معقولاً لا أن يصل إلى درجات مرعبة. فالنبي ﷺ ركز الحالة الاقتصادية ووضع أساسها وقواعدها العامة، ثم ذهب إلى ربه.

أما على الصعيد الاجتماعي فقد جاء النبي ﷺ والأرحام تقطع، والدماء تسفلت، فيجئ الليل على الإنسان وليس عنده إلا النهب والسلب والاعتداء، وإذا بالنبي ﷺ يجند هؤلاء للعبادة، فالذى كان إذا جنَّ الليل ينهب ويسلب إذا به يفترش محراياً من الحصباء عند هجوع الأنفاس ويستقبل القبلة ويتجه إلى الله يستوحى منه الخير. فهو ﷺ وجهه إلى الصلاة: «أقم الصلاة لدُلُوك الشففين إلى غسق الليل وقزان الفجر إنْ قرآن الفجر كان مشهوداً»^(٢).

وإذا بهذه المدينة التي كنت إذا مررت بها في الليل تسمع صكصكة اللجم وضرب السيوف وسُرُّ الرماح وتعديل الأسلحة صرت تمرّ بها ليلاً فتسمع القرآن في البيوت: «وَالَّذِينَ تَبَيَّنُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً وَالَّذِينَ يَقُولُونَ

من مغيب قط إلا قطع لي حديقة من نخل. انظر: الإصابة ١: ٥٦٢، سير أعلام النبلاء ٢: ٤٣٤، أخبار القضاة ١: ١٠٨.

(١) مروج الذهب ٢: ٣٤٠، حلية الأولياء ١: ١٦٠.

(٢) الإسراء: ٧٨.

رَبِّنَا اضْرَفْ عَنْا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً • إِنَّهَا سَاعَةٌ مُسْتَقْرَأً وَمُقَامًا • وَالَّذِينَ
إِذَا انْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوْاماً^(١)، وَتَسْمَعُ فِيهَا «وَلَا
تُصْغِرْ خَدْكَ لِلنَّاسِ وَلَا تُغْنِي فِي الْأَرْضِ مَرْحَأً»^(٢)، وَإِذَا الْمَجَمُونَ مَجَمِعَ قُرْآنَ،
وَإِذَا اللَّيلَ يَمْرُّ عَلَيْهِمْ بَيْنَ بَالِهِ وَشَالِهِ مُنْتَرِسَعَ وَمَتَأْوِهِ وَمُنْتَرِقَ إِلَى اللهِ،
وَيَصْبِحُ عَلَيْهِمِ الصَّبَاحُ وَقَدْ اسْتَعْدَدُوا لِلْجَهَادِ دَفَاعًاً عَنْ كَلْمَةِ التَّوْحِيدِ:

سُمَّةُ الْعَبِيدِ مِنَ الْخُشُوعِ عَلَيْهِمْ
لَهُ إِنْ فَسَدَتْهُمُ الْأَسْحَارُ
وَإِذَا تَزَجَّلَتِ الْفَضْحَنِ شَهَدَتْ لَهُمْ
بِيَضْنِ الْقَوَاضِيبِ أَنَّهُمْ أَهْرَازٌ^(٣)

نعم، جاء النبي إلى تلك الأمة التي كانت مسحوقة من عروش كسرى وقيصر فجعلها تسحق عروش كسرى وقيصر، وترفع لواء «لا إله إلا الله». فالنبي ﷺ أذن ابتدأ من الصفر، وأول معجزة له أنه استطاع أن يخلق ذلك المجتمع التكافلي وهو أعمى لا يقرأ ولا يكتب.

المعجزة الثانية: القرآن الكريم

فالنبي ﷺ جاء في معدن الفصاحة والبلاغة، وهذا القرآن بين أيدينا منذ (١٤٠٠) سنة، وله من الأعداء ما لا يعد ولا يحصى، بل إن الدنيا لا زالت تعيش إلى اليوم الحملات الصليبية؛ فإن ذهبت إلى أوروبا لم تست ذلك الحسن الصليبي بأوضح صورة، فهم لازالوا يبحثون عسى أن يجدوا سقطة في القرآن، ويحركون أتباعهم ويحتونهم على ذلك. فقد رأيت مثلًا أحد المسيحيين اللبنانيين يحمل الدكتوراه - واني لأستغرب كيف نال هذه الشهادة - يقول: إن هذا القرآن في غاية الصحالة، فهو يتحدث عن

(١) الفرقان: ٦٤ - ٦٧ . (٢) لقمان: ١٨ .

(٣) ديوان السيد حيدر العلوي ١: ٨٢ .

ناقة صالح مرة، وعن الذبابة مرة أخرى، وعن العنكبوت مرة ثالثة؛ فهذا الكتاب كلّه أسطير.

وهذا اللون من التفكير ضحل جداً؛ لأن القرآن اشتق أمثلة من المحبيط أراد بها أن يقدم المعنى، فيجعل منه صورة متحركة محسوسة شاخصة أمام أعين الإنسان، فعندما يريد القرآن أن يصف من يحمل علمًا ولا ينتفع بعلمه - فإن بعض الناس يحمل العلم لكنه ليس أكثر من أنه يخزن العلم في رأسه، فيستعمل الدجل لسرقة وينهب ويذبح، ويدعى ادعاءات أكبر من حجمه، فهو يحمل العلم لكنه لا يستفيد منه - فإنه يقرب هذا المعنى إلى البساطة فيقول: ﴿فَنَّمَّلَهُ كَعْنَبٌ إِنْ تَخْفِي عَلَيْهِ يَنْهَى﴾^(١). وهذا أروع تمثيل، فهذا أولًا كلّه خسّة؛ لأنّه يلوي جبين العلم والصلاح فهو مثل الكلب. وثانياً أن الكلب يلهم سواء حملت عليه أو لم تحمل، وهذا مثلك لأنّه لا يستفيد من علمه؛ فهو سئي؛ سواء كان عنده علم أم لا.

فالقرآن أراد أن يقرب الصورة المعنوية بهذه الصورة الحسّية، فصور هؤلاء الذين يسخرون علمهم للجبارية وتحت أحذية الظالمين ويخدمون به حكماً متهرّباً، أو يعملون ما يلوي جبين العلم، صورهم بأنّهم مثل الكلب الذي يلهم في كلّ وقت. فآية صورة أروع من هذه الصورة؟ وهل هذا كتاب أسطورة، أم أنه يحاول أن يلبس المعنى صورة شاخصة ليقربه إلى الذهن؟

فالقرآن جاء بما يحمل من روعة ليبني المجتمع الإسلامي، ولا يزال

مصدر عزّتنا وأحكامنا وحضارتنا، ولا يزال شعارنا ومجدنا، (نسأل الله تعالى أن يجعلنا دائمًا ممَّن يحمل كتابه الكريم فكراً ومضموناً، وممَّن يعيش في حياته وسلوكه ولسانه).

المعجزة الثالثة: خلقه الكريم ونفسه الرحيمة
 فهاتان المعجزتان واضحتان للنبي ﷺ، ومن بعد ذلك فكل جانب من جوانب حياة النبي ﷺ معجزة، فقد حمل هذا الرجل نفساً وسعت الدنيا بأجمعها، فهو كما يقول عنه أنس بن زنيم:

وَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ كُورِبِهَا أَبْرَزَ وَأَوْفَى ذِئْثَةً مِنْ مَحْمِدٍ

فهذا الرجل وسع الدنيا بتلك النفس، والآن - ونحن إذ نعيش في القرن العشرين - لو ذهب أحدنا إلى الصحراء وجلس إلى جنب البدوي المتأصل في البداوة، فهل يستطيع أن يحتمله خمس دقائق من الزمن؟ وانظر إلى رسول الله ﷺ كيف يصبح عليه الصباح فيجدونه في معاطن الإبل، وحوله الأعراب الجفاة مستلقين على بطونهم ويلعبون بأرجلهم، وهو إلى جانبيهم يهدّيهم ويرشدّهم ويبين لهم، إلى أن استطاع أن يخلق من هؤلاء عباقرة يتملّهم التاريخ باعجاب. فقد نظر إليهم النبي ﷺ على أنهم مرضى يجب أن يداووا، فوسّعهم بخلقه، وهم أولئك الذين كانوا يدخلون إلى بيته فيستخدمون معه أغلفظ وأخشن الأساليب^(١).

جاء سهيل بن عمرو في واقعة الحديبية مفاوضاً النبي ﷺ من قبل قريش، فلما جلس وضع ركبته على صدر النبي ﷺ، وأمسك لحيته بيده وراح

(١) كمثال على ذلك انظر: المعحسن ٢: ٣٣١، ٩٦، القيد ٣: ١٠٧، ٣٤٢٦، شرح الأخبار ١: ٢٣١، المسند (الشافعي): ٢٠، سنن ابن ماجة ٢: ٧٧٧، ٢٢٨٦.

يَهْرَأ هَرَأ، وَيَقُول لَهُ: يَا مُحَمَّد، وَالنَّبِيُّ سَاكِتٌ، وَالصَّحَابَةُ وَالضَّعُوفُونَ أَيْدِيهِمْ عَلَى مَقَابِضِ سِيَوفِهِمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَضْرِبُوهُ، وَهُوَ يُشَيرُ إِلَيْهِمْ أَلَا يَفْعُلُوا. فَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَكْتُبُوا الْمُعَاہَدَةَ قَالَ النَّبِيُّ لَعَلِيٍّ: «اَكْتُبْ: هَذَا مَا تَعْاهَدْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ...». فَقَاطَعَهُ سَهْلُ قَاثِلَةً: مَهْلًا، لَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّكَ رَسُولَ اللَّهِ لَأَطْعَتُكَ، وَلَكِنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ؟ اَكْتُبْ: (مُحَمَّدٌ). يَقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ: «فَقُلْتَ: هُوَ وَاللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ رَغْمَ أَنْفُكَ، لَا وَاللَّهِ لَا أَمْحُوْهَا. فَقَالَ لَهُ: أَمَا إِنْ لَكَ مَثَلًا، سَتَأْتِيْهَا وَأَنْتَ مُضْطَرٌ»^(١). وَفَعْلًا مَرَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَثَلِهِ، وَذَلِكَ فِي وَاقْعَةِ صَفَينَ، فَقَدْ أَجْرَهُ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِمِ وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَأَشْبَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ^(٢).

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٦٥ - ٣٦٦، سنن النسائي ٥: ١٦٧ / ٨٥٧٦.

(٢) قال ابن حجر مفسراً رفض الأمير عليه محو كلمة رسول الله مع أمر الرسول عليه إيه بذلك بقوله: وكان علياً فهم أن أمره له بذلك ليس متحتماً، فلذلك امتنع من امتناعه. وفتر قول رسول الله عليه: «أَمَا إِنْ لَكَ مَثَلًا، سَتَأْتِيْهَا وَأَنْتَ مُضْطَرٌ»، بقوله: يشير عليه إلى ما وقع لعلي يوم الحكمين، فكان كذلك. فتح الباري ٧: ٢٨٦.

وقول ابن حجر: «فكان كذلك»، يفسره ما رواه ابن قتيبة الدينوري في (الإمامية والسياسة) عند ذكر صلح أمير المؤمنين عليه ومعاوية بن أبي سفيان، حيث قال: «فَلِمَّا جَاءَهُ بِالْكِتَابِ - يَعْنِي كِتَابَ الصِّلْحِ - قَالَ عَلَيْهِ: «اَكْتُبْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا تَقْاضَى عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفِيَّانَ». فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: عَلَامَ قَاتَلْنَاكَ إِذَا كُنْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ اَكْتُبْ: عَلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ. فَقَالَ الْأَشْعَثُ: اطْرُحْ هَذَا الْاسْمَ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ. فَضَحِّكَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ يَعْلَمُهُ يَوْمَ الْحَدِيبَةِ حِينَ صَدَّهُ الْمُشَرِّكُونَ عَنْ مَكَّةَ، فَقَالَ: يَا عَلِيًّا اَكْتُبْ: هَذَا مَا تَقْاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَمُشَرِّكُو قُرْبَانِهِ، فَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَمْرُو: لَقَدْ ظَلَمْنَاكَ إِذَا يَا مُحَمَّدُ إِنْ قَاتَلْنَاكَ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكَ اَكْتُبْ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: اَكْتُبْ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدَ اللَّهِ، وَإِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ يَعْلَمُهُ بِشَيْءٍ أَسْرَعَتْ، وَإِذَا قَالَ مُشَرِّكُو قُرْبَانِهِ أَبْطَأْتَهُ، وَإِذَا اَكْتُبْتَ نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: امْحُهَا، فَتَعَاظَمَنِي ذَلِكُ». فَدَعَا بِمَقْرَاضِنَ قَرْبَانِهِ، وَكَتَبَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا تَقْاضَى عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَمَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفِيَّانَ». فَقَالَ أَبُو الْأَغْوَرِ: أَوْ مَعَاوِيَةُ وَعَلِيٌّ. فَقَالَ الْأَشْعَثُ: لَا لَمَرْ

فهكذا كان سهيل بن عمرو مع النبي ﷺ، ومن بعد ذلك وفي يوم الفتح يقول سهيل: انقمت في بيتي وأرسلت ابني عبد الله وقلت له: اذهب إلى محمد وخذ لي منه الأمان، فأقبل ابنه فقال: سهيل بن عمرو تؤمن بهما محمد؟ قال: «نعم، له الأمان». وسهيل له عقل وله رأي وله حكمة، وما أظنه يكون بعيداً عن الإسلام. والتفت إلى أصحابه قائلاً: «لا يحده أحد منكم النظر إلى سهيل».

وبقي سهيل ينعم بذلك الأمان، مع أنه كان يقول: ما تركت سوءاً إلا أساءت به إلى محمد. ثم أسلم يوم العبرانة وحسن إسلامه وكان من خيار المسلمين.

وكذلك التقاه عليه السلام أعرابي فامسكه من تلابيه، ثم قال له: بعثتك فرساً ولم تدفع لي الثمن فقال النبي ﷺ: «بل اشتربت وأعطيتك الثمن». فقال الأعرابي: كلا، لم تسدّد، هات الشهود. فانفعل الصحابة من الأعرابي، وانتظروا أن يسمح لهم النبي بدفعه أو قتلته، فقال النبي ﷺ: «دعوه، إن لصاحب الحق مقالاً». ثم قال: «من منكم يشهد لي؟» فلم يشهد له أحد. فجاء خزيمة بن

الله، ولكن نبدأ بأولهما إيماناً وهجرة.
الإمامية والسياسة ١: ١١٤ - ١١٥.

والأنكى أن رسول الله ﷺ قد أرهص بهذا الأمر لأبي موسى الأشعري حيث قال عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى: مررت مع أبي موسى الأشعري بدومة الجندي فقال: حدثني حبيبي - يعني: رسول الله ﷺ - : «أنه حكم فيبني إسرائيل في هذا الموضع حكمان بالجور، وأنه يحكم في أتنى في هذا المكان حكمان بالجور». قال: فما ذهب إلى أيام حتى حكم هو وعمرو بن العاص بما حكم، قال: فلقيته فقلت: يا أبو موسى، قد حدثني عن رسول الله ﷺ بما حدثني. فقال: والله المستعان. معجم البلدان ٢: ٤٨٩ - دومة الجندي.

وهذا يعني أن أمير المؤمنين عليه السلام قد جرى عليه كلّ ما جرى على الرسول ﷺ.

ثابت الأنصارى فلما رأى الجمع سأله فقيل له: أعرابى يطلب من النبي ﷺ ثمن فرس وقد حبسه في الشمس يطالب بحقه، والنبي ﷺ يطلب الشهود فلم يشهد له أحد. فقال خزيمة: أناأشهد.

فناده النبي ﷺ فقال له: «كيف تشهد وأنت لم تكن معنا ولم تسمع ولم تر؟». قال خزيمة: صدقناك على الوحي وأخبار السماء وما تنقل عن الله ولم تصدقك في هذا؟ فاما أن تكون صادقاً فيكون قولك كله صدقاً، واما أن تكون غير صادق فإن نبوتك كلها غير صادقة. أي أنه يريد أن يقول له: نحن عندما صدقناك صدقناك بكل شيء باعتبار أنك صادق، فأنا أعلم أنك صادق من حيث أعلم أنكنبي. فقال النبي ﷺ: «قد أجزت شهادتك وجعلتها بشهادتين». فلقب خزيمة من ذلك اليوم بذى الشهادتين^(١).

فهذا الصدر وسع العالم، وهذه الروح الكريمة تعاملت مع ألد أعدائها. وممّا يؤسفني أن الكثير من أبنائنا لم يستوعب تاريخ النبي ﷺ، والمفروض أنه بدل أن تذهب مطالعاته إلى أشياء تافهة عليه أن يدرس سيرة النبي ﷺ ليرى كيف أن هذا الرجل العظيم يتفجر عقرية. فكل مسلم ملزم أن يأخذ فكرة كاملة عن حياة النبي ﷺ؛ لأنه إن استوعب حياة النبي وموافقته ﷺ، واطلع عليها فإنه سيطلع على عالم كله بهجة وشراط ونور وعطاء. فكل شاب مسلم ملزم أن يمدد يده إلى هذا النبع الهادر الذي لا يقف عند حد، والذي يقول فيه أحد الشعراء:

قطعـتـ إـلـيـكـ الـبـيـدـ شـاسـعـةـ الـقـدـىـ
إـذـاـ مـاـ تـقـضـىـ سـبـبـ جـدـ سـبـبـ^(٢)

(١) الانتصار: ٤٩١، سنن أبي داود: ٢: ١٦٦ - ١٦٧ / ٣٦٠٧.

(٢) السبب: المغارة، لسان العرب: ١٥٢: ٦ - سبب.

إِلَيْكَ وَدَرَبَ لِلْحَبِيبِ مُسْخَبَ
غَزَوْتُ عَلَيْهَا يَوْمَهُ تَفَضَّبَ
يُغَرِّدُ فِي بَدْرٍ وَأَحْمَدُ وَيُطَرَّبَ
إِلَى الْآنَ بِالصَّحْرَاءِ مِنْهَا تَلَهَّبَ

تَخَاهِلُ فِيهَا الرَّؤْمَلُ أَنْ صَارَ مَعْبُرًا
وَلَاغٌ عَلَيْهَا رَسْمٌ أَخْلَافِ شَاقَةٍ
وَقَافِلَةٌ مَا زَالَ رَجْمُهُ حَادِيَّهَا
عَلَيْهَا مِنَ الْأَصْحَابِ مَحْضٌ غَرَائِبٌ

إِلَى أَنْ يَقُولُ:

لِجَبْرِيلَ مِنْ جَنْحِيهِ رِيشُ مُرْزَقَبَ
بِهِنْ ضَرَاعَاتٌ إِلَى اللهِ تُنْصَبَ
إِلَى الْحَسَنِينِ الزَّاكِيَّيْنِ وَمُنْلَبَ
إِلَى جَلْدِ كَبِيشٍ حِيثُ تَجْلِسُ زَيْنَبَ
وَتَبْقَى عَلَى رَغْمِ النَّسَاطَةِ تَأْشِبَ^(١)

وَعَرَثَ خَدِيَّ فِي ثَرَئِي مَشْعَرَةٍ
وَفِي هِيَ مَسْحَارِيَّبِ لَلْمُحَمَّدِ
وَأَثَارَ أَقْدَامِ صَبَّارٍ وَمَهْجَعَ
وَصَوْرَ زَحْرَى الرَّهْمَاءِ تَمْطَحَنُ قُوَّثَهَا
رَوْنَى سَوْفَ يَبْقَى الدَّهْرُ يَرْوَى جَلَانَهَا

المبحث الخامس: فترات حياة النبي صلوات الله عليه وسلم التبليفية

فالنبي صلوات الله عليه وسلم عاش هذه الفترة على ثلاث مراحل: مرحلة في مكة، وأخرى في المدينة بعد هجرته قبل مرضه، والمرحلة الثالثة لما ألمَ به المرض في يوم السبت، الحادي والعشرين من شهر صفر. وقد خرج في ذلك اليوم كما تقول أم المؤمنين عائشة يشكو وهو ينكح بيد على كتف الفضل بن العباس وبآخرى على كتف رجل آخر. فحتى اسم على صلوات الله عليه وسلم لا يطاق ذكره، وهو ذلك العبرى الذي هيأ لها يوم الجمل أربعين خادمة يخدمتها^(٢)، لكنها لا تطبق أن تقول: إن يده الأخرى صلوات الله عليه وسلم على عاتق علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وسلم.

(١) تأثِب: تختلط. لسان العرب ١: ١٤٩ - أثب.

(٢) تاريخ الطبرى ٥: ٢٠٤ - ٢٠٥، الفتوح (ابن أثيم) ٢: ٣٤١، الفتنة ووقعة الجمل: ١٨٢.

نعم، خرج حتى وصل إلى قبور أهل البقيع فصاح: «السلام عليكم يا أهل القبور، السلام عليكم يا أهل البقيع، ليهينكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، لقد أقبلت الفتنة كأنها قطع الليل المظلم يتبَعُ آخرَها أوَّلَها». ثم استغفر لهم وقرأ لهم شيئاً من القرآن ثم رجع فأوى إلى بيته^(١).

يقول المؤرخون: إنه ﷺ قال: «ادعوا لي حبيبي». فقالت عائشة: ادعوا له أبا بكر. فرفع ﷺ رأسه ثم وضعه وقال: «ادعوا لي حبيبي». فقالت حفصة: ادعوا له عمر. فرفع ﷺ رأسه ثالثة ووضعه، وقال: «ادعوا لي حبيبي». فقالت أم سلمة: لا تؤذوه، إنكم تعلمون من يريده، ادعوا له علينا. فدُعِيَ له على ﷺ، فاستدناه إليه فساره، تقول أم سلمة: وضع صدره على صدره وراح يسأله طويلاً إلى أن خرج^(٢).

واستمرت به الحالة فترة من الزمن، فقال يوماً: «مراوا أحدكم فليصل بالناس». إذ لم يستطع أن يصل إلى الناس، إلى أن وجد يوماً في نفسه نشاطاً، فخرج وصعد المنبر وقد أستدوه، فقال: «أيها الناس، أي نبئ كنت لكم؟ ألم أربط على بطني حجر المجاعة؟ ألم أجادم الكفار والمنافقين؟ ألم أقاتل في سبيل الله؟ ألم؟... ألم؟»... ثم قال: «إن ربي أقسم ألا يفوته ظلم ظالم، فأيما أمرٍ منكم له ظلامة عند محمد فليقم إلى يأخذها، فإن القصاص في دار الدنيا أحب إلى من القصاص يوم القيمة على رؤوس الأشهاد». فقام إليه أحدهم فقال: كنت طالباً منك أن تساعدني في زواج وقد وعدتني بأوقتيين. فأشار النبي ﷺ إلى

(١) الإرشاد ١: ١٨١، شرح نهج البلاغة ١٠: ١٨٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٩٣، مناقب أمير المؤمنين (الخوارزمي): ٤١ / ٦٨، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ١: ١٧٥، ينابيع المودة ٢: ١٦٣ /

الفضل بن العباس فقال: «تأخّله ما وعدته به». وقام له سوادة بن قارم فقال: يا رسول الله، لي عندك شيء. قال عليه السلام: «ما هو؟». قال: كنت راجعاً من الطائف، فرفعت السوط لتضرب الناقة فوقع الضربة على بطني. وأنا أريد القصاص. فالتفت إلى بلال فقال: «يا بلال، اذهب إلى بيت ابنتي فاطمة وعلّي وانتني بقطعة الخيزران».

فذهب إلى بيت فاطمة. فقال: يا بنت رسول الله، أعطيني هذه القطعة. فقالت: «لماذا؟». قال: إن أباك يريدها. قالت: «وماذا يريد بها؟». قال: أو ما علمت أنه يودع أهل الدين والدنيا. فصاحت: «واغمّاه لغمك يا أباها». ثم أخرجت له قطعة الخيزران، فتناولها النبي عليه السلام بيده فأعطها له وقال: «خذ يا سوادة». فقال: يا رسول الله اكشف لي عن صدرك. فكشف له النبي عليه السلام. فقال: يا رسول الله، أتأذن لي أن أقبله؟ فقال: «افعل». فوضع فمه عليه وقال: أعود بموضع القصاص من بطن رسول الله.

ثم أرجع النبي عليه السلام إلى البيت وهو مقلّ، فلما أضجعوه على فراشه أقبلت إليه ابنته فاطمة وهي تنادي: «واغمّاه لغمك يا أباها». فأدناها النبي إليه وسأرّها طويلاً فبكّت، ثم سارّها فضحكت، فلما خرجت سألتها بعض نساء النبي: ما سبب ضحكك وبكائك؟ قالت: «إنّي إذا لبّزرة». ولما سئلت بعد ذلك قالت: «نعم إلى نفسه فبكّت، ثم أخبرني أنّي أول أهل بيته لحوّا به فضحكت؛ لأنّي فرحت أن الحق بأبي».

ثم جلست إلى جانبه ورأسه في حجر أمير المؤمنين عليه السلام، يقول أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً إياه: «ولقد وسدتك في ملحوظة قبرك، وفاضت روحك بين صدري ونحري». فقد كان رأسه عليه السلام بين صدر أمير المؤمنين عليه السلام ونحره، وبين الأونة والأخرى كان الإمام عليه السلام يأخذ شيئاً من الماء ويمسح به جبين

رسول الله ﷺ وهو يرفع رأسه فيقول: «رقاً بي ملائكة السماوات، رقاً بي ملائكة ربِّي، لمثلها فليعمل العاملون». وكان يقول: «حبيبي جبريل، عند الشدائند لا تخذلني»^(١). حتى إذا اشتَدَتَ الحالة عليه كما يقول أمير المؤمنين <عليه السلام>: أقبل الحسن والحسين <عليهما السلام> فوقعَا على صدرِه، فأراد الإمام <عليه السلام> أن يبعدَهُما عنه لثلا يضايقاه، فقال <عليه السلام>: «لا، لا يا علي، دعهما أتزودُ منهما ويترَدُّداً مني»^(٢).

ثم أخذ يضمُّهما إليه وهو في آخر لحظات حياته، ولكن لما اشتدَّ عليه الأمر سجَّاه أمير المؤمنين <إلى القبلة... و/or رسول الله، و/or نبِي الله، أغمض عينيه ومدد يديه ورجليه، وفاضت روحه الشريفة الطاهرة، فأقبلت إليه ابنته فاطمة <عليها السلام> فألقت بنفسها عليه وهي تصبِّح: «والوعنة، واثكلاء بعدهك يا رسول الله». فأقبل إليها أمير المؤمنين <عليه السلام>، وأقامها من على جسد أبيها برفق^(٣).

نعم هذه فاطمة لَمَّا وقعت على جسد أبيها أقامها علي برفق، وجلس تلك الليلة عندما يهددها؛ لأنَّ رسول الله <ﷺ> لا زال مسجَّى والبيت مظلم، فكان أمير المؤمنين <عليه السلام> يبعث السلوى والعزاء في نفس الزهراء <عليها السلام> وهي تنتحب انتحاباً عالياً وتقول:

«نفسي على حسراتها محبوسة با ليتها خرجت مع الحسرات	لا خير بعده بالحياة وإنما
أبكي مخافة أن تطول حياتي» ^(٤)	با حسرايتها محبوبة

(١) الأُمالي (الصدوق): ١٠٠٤ / ٧٢٦. (٢) الأُمالي (الطوسي): ٦٠٢ / ١٢٤٤.

(٣) انظر: الأُمالي (الصدوق): ٧٢٢ - ٧٢٦ / ١٠٠٤، مناقب آل أبي طالب: ١: ٢٠١ - ٢٠٣.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ١: ٢٠٧، بيت الأحزان: ١١٨، تنبية الغافلين: ٤١، وفي الجميع نسب لأمير المؤمنين <عليه السلام>.

هذا وفاطمة الزهراء عليها السلام لا ت يريد أن تفارق النعش. وجرياً على عادة أهل البيت عليهم السلام منذ زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه إذا قضى عندهم أحد كانوا يسرجون ضياء تلك الليلة في المكان الذي يقضى فيه نحبه، فأسرج أمير المؤمنين عليه السلام الضياء في المكان الذي توفي فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وليتك ترى يا أبا الحسن مخيّم ولدك الحسين ليلة الحادى عشر من المحرم، هل كان فيه ضياء؟ لقد باتوا في الظلماء، والأطفال يتصارخون وقد جن عليهم الليل:

ببويه عليه الليل موز و أنه غريبه وما لي اخذ

ومما ينص عليه الفقه الإسلامي^(١) أن اليتيم ليلة يتمه يستحب مواتاته، وألا يترك وحده يجترر الآلام؛ لذا راح أمير المؤمنين يواسى الزهراء عليها السلام، ولكن ليلة الحادى عشر من المحرم من الذي واسى أيتام الحسين عليه السلام؟ وما كانت مواستهم؟ كانت السياط تتلوى على أكتافهم:

وان يبك اليتيم أباء شجوا فرغن سياطهم رأس اليتيم



(١) انظر: مستدرك وسائل الشيعة ٤٧٤: ٢ - ٧٤٢: ٢ / ب ١٢٢: ١٥، ٧٨ - ١٢٣: ٤٧٤ / ب ١٠، الجامع الصغير ١: ٢٥١، ٩٧ / ٢٠.

{٤٤}

مزايا الرسول الأكرم ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّجِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ
جِينَ تَثُومُ * وَتَقْبِلُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾^(١).

مباحث النص الشريف

في هذه الآية الكريمة مجموعة أبحاث أعرض لها إن شاء الله تعالى على التوالي :

المبحث الأول: معنى التوكّل وموضوعه

إن موضوع التوكّل من المواضيع التي يكثر حولها التساؤل، وإثارة علامات الاستفهام؛ لما ينطوي عليه من مورد خلاف بين المسلمين. ونحن قد اعتمدنا في حياتنا اليومية وفي معاملاتنا على أن نقول عند كلّ مناسبة منها: توكلت على الله ، فالمجتمع عندما يكثر من ترديد هذه الكلمة والتأكيد عليها عند كلّ حركة أو فعل فهو يعني أنه يعتمد في أموره كلّها على الله تعالى . ولنا هنا أن نتساءل عن ماهية التوكّل هذا ، وعن

معناه الشرعي، إن التوكل بمفهومه العام يعني تفويض الأمر، فحينما نقول: توكلنا على الله فإن هذا يعني أننا نفترض أمورنا كلها إليه تعالى يتصرف فيها كما يشاء ويريد.

التوكل بين الوعي واللاوعي

لكن بناء على هذا التعريف يرد إشكال هو أن التوكل بهذا المعنى هل يعد توكلًا واعيًّا، أم أنه توكل غير واعٍ؟ بمعنى هل إنه عملية عقلية إرادية واعية، أو إنه عملية من متبنيات اللاوعي عند الإنسان؟ سوف أنقل هذه الحادثة التي تلقي الضوء على هذه المسألة وتزيدها إيضاحاً كي نتمكن من أن نخلص إلى النتيجة الصحيحة حول هذا الإشكال. دخل أعرابي على النبي ﷺ في المسجد فقال له النبي ﷺ: «أين تركت راحلتك؟». قال: يا رسول الله، أرسلتها وتوكلت على الله. فقال له النبي ﷺ: «اعقل وتوكل»^(١).

أي أن على الإنسان أن يحصل الأسباب الطبيعية أولاً ثم بعد ذلك يتوجه إلى التوكل؛ كي يكون حينئذ عملية واعية يتحكم بها العقل والشعور. وبعد أن يكمل الإنسان الأسباب الطبيعية التي يجب عليه مراعاتها فإنه حينئذ يتركباقي على الله تعالى ليدبر له أمره ويدير له حياته. فالأسباب الطبيعية لابد من تحصيلها أولاً في كل حال؛ باعتبارها القدر العقلاي الذي يعتمد عليه الإنسان في تحصيل مقدمات العمل الذي يقدم عليه وفي تصريف أموره.

وينبغي التنوية إلى أنه يجب ألا يفهم من هذا أن الأسباب الطبيعية لها

الأثر الكامل في حياة الإنسان، أو أنها علة تامة لحدوث مجرياتها، فهذا الاعتقاد غير صحيح مطلقاً، فهي مطلقاً لا تكون العلة في ذلك أو في حفظ الإنسان متعلقاته. فالأعرابي حينما يعقل ناقته فهذا لا يعني أنه قد أمن عليها من السرقة أو التعدى أو الموت، لكن هذه المقدّمات هي من مسؤولية الإنسان وواجباته؛ لأنّه لو لم يعقلها في مكان أمين ثم تعرّضت للتعدى فإنه سيجعل من نفسه عرضة لللوم أهله وأصحابه، أما لو عقلها كذلك ثم توكل على الله لكنها تعرّضت للسرقة أو التعدى فإنه حينئذ لا لوم عليه. فهذا التصرّف (عدم عقل الناقة) يعده المشرع تصرفاً خالياً من الشعور بالمسؤولية.

وعليه فإنّ الإنسان يجب أن يتصرّف دائمًا بداع من الشعور بالمسؤولية في كلّ مجالات تصرّفه، وليس في بعضها دون البعض الآخر؛ فكُلّ ما يصدر عن الإنسان من فعل يجب أن يكون خاصعاً لهذا الشعور. وهذا هو معنى التوكل الصحيح، أي الذي تتوفر فيه المقدّمات وتحصيلها دون التوكل الخالي عنها إلّا الأشياء التي تكون خارجة عن قدرة الإنسان لظرف يقسره أو لحالة الجأته إليها طبيعته.

إذن فالأغلب من أمور الإنسان لا يكفي فيها التوكل وحده، فإن يقول الإنسان: توكلت على الله، ويكتفي ثم ينتهي الأمر لهو اعتقاد باطل غير صحيح، بل لابدّ من عمل معه، ثم بعد ذلك يأتي دور التوكل. سأّل أبو الأسود الدؤلي أحد أبنائه - وهو أبو حرب - عن سبب عدم خروجه لطلب الرزق، وكان قد لزم منزل أبيه بالبصرة؛ فلم يكن ينبعج أرضاً، ولا يطلب الرزق في تجارة ولا غيرها، وعاتبه على ذلك ليحثّه على العمل، فقال له أبو حرب: إن كان لي رزق مقدر فسيأتيني. فقال له أبوه:

وَمَا طَلَبَ الْمُعِيشَةَ بِالْتَّمَنِي
وَلَكِنَّ أَنْقَى دَلُوكَ فِي الدَّلَاءِ
تَجْذَبَ بِعَلَثَهَا يَوْمًا وَيَوْمًا^(١)

فالملهم أن على المرء أن يعرض نفسه على مواطن الكسب ولا يظل حِلس بيته ينتظر قدوم رزقه كما ينتظر قدوم موته. إن مثل هذا التصرف من الإنسان يعد تصرفاً غير واع وغير مقبول، لأنه ينطوي على لون من تأخير الأسباب الطبيعية عن مجال تحرّكها، وعزلها عن ميدان عملها. ثم إن المفترض بالإنسان أنه كائن منتج، وطبيعة الكائن المنتج تحتم عليه أن يحرز مقدّمات الإنتاج التي يتطلّبها هذا المشروع؛ فعليه أن يهيئة نفسه وفق قواعد السنن الكونية لتحقيق هذا الأمر، ثم يترك المتبقّي على الله جلّ وعلا.

إذن لا شك في أن التوكل على الله تعالى نوع من الأعمال النفسية العامة، والجانب النفسي أمر ضروري للإنسان، والإنسان لا تكفيه صحته الجسدية في أداء دوره في الحياة مالم تصاحبها الصحة النفسية التي تعد أساساً مهماً جداً في استقامة السلوك وتوازن الفرد، وبانعدامها لا يمكن للإنسان أن يعيش حياة مطمئنة. وينبغي التنويه إلى أن الصحة النفسية لا يمكن لأي شيء في الوجود أن يهيئها للإنسان سوى العقيدة، ولا يمكن أن توجد إلا في ثناياها وثناياها الدين؛ لأنهما الطرفان الوحيدان اللذان يوفران الطمأنينة للفرد والمجتمع، وهما اللذان يمتّصان من النفس شعورها بالألم.

ويمكن تقريب هذا بما لو أن إنساناً أصابته مصيبة فإنه سينهار تحت

(١) مستدركات أعيان الشيعة ١ : ٦٣ ، خزانة الأدب ١ : ٢٨٠ .

وطأتها وضغوطها ما لم يكن متسلحاً بعقيدة وإيمان بالله تعالى، ويعتقد اعتقاداً تطمئنَّ معه نفسه إلى أن الله سيغفره عن مصيبته هذه وسيلهمه الصبر عليها. إن اعتقاد الإنسان هذا هو لون من ألوان الإيمان بأن هناك من يمدّه بالقوة عند مصيبته، وسيمنحه الطاقة على امتصاص الشعور بالألم والتمزق الذي سوف ينتابه فيما لو لم يكن متسلحاً بهذا الإيمان. ولذلك فإن القرآن الكريم يسعى إلى أن يشبع هذه الظاهرة عند الإنسان وإلى أن يحيي هذا الجانب النفسي عنده: «الذين إِذَا أصابتهم مُصيبة قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ زَاجِفُونَ» أَوْ لِكَ غَلَبْتُمْ صَلَوَاتٍ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةً وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ»^(١)، أي أننا جميعاً عائدون إلى الله تعالى.

المبحث الثاني: في متعلق التوكل وصفاته

تقول الآية الكريمة: «وَتَوَكَّلُ عَلَى الْغَفِيرِ الرَّؤْجِيمِ»، فهي تأمرنا بالتوكل على الله جلّ وعلا، وعليينا أن نتوقف عند هاتين الصفتين «الغَفِيرِ الرَّؤْجِيمِ» والتي وجه الجمع بينهما، وهو أمر هام جداً وضروري. ومنشأ هذه الأهمية أن هذه الآية الكريمة بعد أن أمرتنا بالتوكل، بينت لنا صفات الذي ينبغي أن نتوكل عليه، فقالت: «الغَفِيرِ»، أي القوي الذي يصحّ الاعتماد عليه، ثم قالت: «الرَّؤْجِيمِ»، أي أن من نتوجه إليه لنتوكل عليه عزيز، وفي الوقت نفسه رحيم بعباده عامة ومن يتوكل عليه خاصة. فهذه الرحمة تقابل العزة وتعادلها دون أن تمسخها.

إن بعض ذوي الرحمة يصل بهم الأمر في مواطن معينة إلى درجة أنهم يفقدون معها الحزم في معالجة الأمور وإلى درجة من الرقة لا يخاف منه،

وكذلك إن البعض من ذوي القوة أو العزة يصل بأحدهم الأمر أنه يفقد الإحساس بالرحمة تجاه الآخرين فينتصف لنفسه ولا ينتصف منه، أما عند الله تعالى فإن الأمر مختلف، فهو رحيم عزيز.. رحيم في موقف يتضي أن تكون فيه رحمة ولين، وعزيز في موقف يتضي أن يكون فيه حزم وشدة واتخاذ قرار مناسب. وهذا الأجل تحديد صورة تحقق للإنسان معنى التوازن وطبيعته؛ فيبيّن له أن الله تعالى من جهة قوي عزيز وحازم، ومن جهة أخرى هو رحيم رفيق بالأخرين يتعامل معهم على ضوء هذه الرحمة والرفق واللين. فالجمع بين هاتين الصفتين يهدف من ورائه إيجاد معنى التوازن هذا.

ولو تتبعنا التاريخ لوجدنا أن فيه الكثير من الأعزاء الذين تصل بهم عزتهم إلى مرحلة القسوة التي أراقوا معها الدماء وانتهكوا الأعراض والحرمات^(١) دون أن تفشاهم ذرة من رحمة بأولئك المظلومين. أما رحمة البارئ جل وعلا فيمكن أن تشمل حتى فرعون نفسه، حينما فرض الله تعالى الزكاة على النبي موسى عليه السلام وأوجبها علىبني إسرائيل، أبى قارون أن يدفعها، فصالحه النبي الله موسى عليه السلام عن كل ألف شيء على شيء واحد، فلما رجع قارون إلى بيته وحسب مقدار المبلغ وجده كبيراً هائلاً مع أنه يعادل (١٠٠٠)، من ثروته، فلم تطب له نفسه بدفعه. وربما كان هنا عنصر مبالغة في تصوير هذه الثروة الضخمة، بل ربما كان وصفاً أسطورياً، لكن الغرض أنه ورد بهذا التعبير ليبيّن لنا الصورة التي رسمتها الرواية لهذه الثروة.

(١) كمسر夫 بن عقبة وسمرة بن جندب والحجاج بن يوسف وغيرهم.

على أية حال لم يرق الأمر قارون، فجمعبني إسرائيل وقال لهم: يا بني إسرائيل، إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا له: مرتنا بما شئت. فقال: أمركم أن تجئوا بفلانة البغي، فنجعل لها جعلاً على أن تقدّف موسى بنفسها، وتهتمّه بأنه قد زنى بها، فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فاسترحنا منه. فأتوا بها، فجعل لها قارون حكمها على أن ترمي النبي موسى <ﷺ> بممارسة الخطيئة معها، وأن تقدّفه بالزنا. فلما كان الغد أتى بنو إسرائيل، ثم أتى النبي موسى <ﷺ>، فقال له قارون: إن بني إسرائيل قد اجتمعوا ينتظرون خروجك؛ لتأمرهم وتنهاهم، ولتبين لهم أعلام دينهم وأحكام شريعتهم. فخرج <ﷺ> إليهم، فقام فيهم خطيباً، فوعظهم وقال: «يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده، ومن افترى علينا ثمانين، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مئة، ومن زنى ولو امرأة رجمناه حتى يموت». فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ فقال <ﷺ>: «وان كنت أنا». فقال قارون: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة. فقال <ﷺ>: «أنا؟». قال: نعم. قال <ﷺ>: «ادعوها، فإن قالت فهو كما قالت».

فلما أُن جاءت قال لها النبي الله موسى <ﷺ>: «يا فلانة، أنا فعلت لك ما يقول هؤلاء؟». فتداركها الله تعالى بالتوفيق، وقالت في نفسها: لأن أحدث اليوم توبة أفضل من أن أؤذني رسول الله <ﷺ>، ثم قالت: لا، كذبوا، ولكن قارون جعل لي جعلاً على أن أُقذفك بنفسك.

فلما قالت هذا أسقط في يد قارون، ونكسر رأسه، وسكت الملا، وعرف أنه وقع في مهلكة، وخرّ النبي الله موسى <ﷺ> ساجداً يبكي ويقول: «يا رب، إن عدوك قد آذاني وأراد لضيحيتي، اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي وسلطني

عليه». فأوحى الله سبحانه إليه أن «ارفع رأسك، ومر الأرض بما شئت تطع». فقال النبي موسى عليه السلام: «يا بني إسرائيل، إن الله تعالى قد بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليثبت مكانه، ومن كان معي فليعتزل». فاعتزلوا قارون، ولم يبق معه إلا رجلان، ثم قال النبي موسى عليه السلام: «يا أرض خذيهم». فأخذتهم إلى كعباتهم، ثم قال: «يا أرض خذيهم». فأخذتهم إلى ركبهم، ثم قال: «يا أرض خذيهم». فأخذتهم إلى حقوهم، ثم قال: «يا أرض خذيهم». فأخذتهم إلى أعناقهم، وقارون وأصحابه في كل ذلك يتضرّعون إلى النبي موسى عليه السلام، وقارون يناشده الله والرحم. حتى روى في بعض الأخبار أنه ناشدَه سبعين مرّة، وموسى عليه السلام لا يلتفت إليه لشدة غضبه، ثم قال: «يا أرض خذيهم». فانطبقت عليهم الأرض، فأوحى الله سبحانه إلى موسى: «يا موسى، استغاثوا بك سبعين مرّة فلم ترحمهم ولم تغفر لهم، أما وعزّتي وجلالّي، لو إبأي دعوني مرّة واحدة لوجدوني قريباً مجيناً»^(١).

وهذا هو الواقع - كما أشرنا - من أمر القسوة التي يكون عليها بعض ذوي العزة والقوة والمنعة، وهذه هي رحمة الله تعالى: «لوجدوني قريباً مجيناً». وهؤلاء يتّنامون رصيدهم من السيّئات كلّ لحظة، لكن الله تعالى مع ذلك أعطائهم القوّة والعافية والصحّة والأموال وكلّ المؤهّلات الدنيوية؛ لأنّه «إنما يعجل من يخاف الفوت»^(٢)، والله جلّ وعلا لا يخاف الفوت؛ ولذا فإنه لا يعجل أبداً ولا يعاجل أحداً بالعقوبة، فكلّ الدنيا بسمائها وأرضاها

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٥٧ - ٢٥٦، تفسير التعلبي ٧: ٢٦٤ - ٢٦٥، تفسير البغوي ٢: ٤٥٧ - ٤٥٨.

(٢) الصحفة الكاملة السجادية: ٢٨٤، دعاوه عليه السلام في ردّ كيد أعدائه، مصباح المتّهّج: ٣٧٠ / ٥٠١.

في قبضته^(١): «وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْنَسْتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالشَّعَوَاتُ مَطْوَيَاتٌ بِنَمِينَهُ»^(٢). فللله رحمة تسع البر والفاجر.

إذن ينبغي على الإنسان في ضوء حالة التوازن التي تحاول هذه الآية الكريمة أن تثبتها في أذهاننا وتبيّنها لنا أن يعرف أن الرحمة التي يشار إليها في جميع موارد الإشارة في القرآن أو السنة يجب ألا تفارقها حالة من العزة والحرز في اتخاذ القرارات والمواقف الصحيحة. فالله تعالى إذا أراد أن يأخذ أحداً بذنبه فعل من غير أن يستطيع أحد الحيلولة دونه هذا، ولو أراد أن يعقوب مدينة لقلب عاليها سافلها^(٣).

إننا نرى الآن ما تفعله الزلازل والبراكين من تدمير لمدن بكمالها وطممرها، فكم من مدينة تنعم بوسائل الراحة والرفاهية والترف وإذا بها وقد ابتلعتها الأرض تحت وطأة بركان أو انهارت تراباً من شدة زلزال خربها: «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِيدَ إِذَا أَخْذَ الْقُرْيَ وَهِيَ طَالِعَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»^(٤).

فالرحمة لا بد أن تلازمها القوة ويقارنها الحزم؛ كي تسير الأمور على خير، ولتعمر الأرض. وهنا تكمن دقة التعبير القرآني الذي يهدف إلى تركيز هذه الحالة في الأذهان، والتي تقترب فيها الرحمة بالحزم، وأن هذا يجب أن يكون شأن كل من يتصدى للمسؤولية أو غيرها. فالإنسان يجب عليه ألا يفرق بينهما في جميع مستلزمات حياته ومواطن اتخاذ القرارات

(١) ورد في الحديث القدسي الإلهي: «من لم يرض بقضائي، ولم يصبر على بلاني، ولم يشكري على نعماني، فليخرج من أرضي وسأني، وليطلب ربّاً سوائِي». الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربع: ٨: ٢٨٠، المعجم الكبير: ٢٢: ٢٢١.

(٢) الزمر: ٦٧.

(٣) كما يحدّثنا التاريخ عن سروم وعاموراء، انظر تاريخ مدينة دمشق: ٥٠: ٣٠٩.

(٤) هود: ١٠٢.

والموافق.

المبحث الثالث: فضل الصلاة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: «الَّذِي يَرَاكُ حِينَ تَقُومُ»، ربما يحمل من لا إمام له بالأهداف والأساليب القرآنية في التعبير كل لفظ قرآنی على ظاهره دون أن يحاول النظر إلى ما بين السطور واستخراج المعنى المراد من النص القرآني. ومن هذا قوله تعالى: «تَقُومُ» من آية المقام؛ فالقيام لغة هو الكيفية المضادة للقعود^(١)، لكنه هنا يراد به صلاة الليل التي كان عليها يقومها، أي أن اللفظ لم يؤخذ على ظاهره.

والقرآن الكريم في هذه الآية المباركة يبيّن لنا أن قيام النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه ليلا هو قيام لوجه الله تعالى ولأجله كما يشير إليه الخطاب القرآني له صلوات الله عليه وآله وسلامه. ودليل هذا أن المرائي لا يمكن أن يقوم ودونه ستر من ظلمات الليل، فالمرائي لا يصلى إلا أمام الحشود من الناس، فهو لا يقوم في السحر، بل يقوم في وضح النهار، فيعرض نفسه لأنظار الناس ليبيّن لهم أنه من أهل الدين والتقوى، في حين أن الإنسان المخلص في دينه وتقواه، والذي يعزم على الانقطاع إلى الله تعالى خلاف ذلك تماماً.

انقطاع أمير المؤمنين عليه السلام

يسروى أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يخرج ليلاً إلى بصيلات النخل - البصيلات: هي النخل الذي لا ينبت قرب مجرى الماء، أو نهر يشرب منه، بل إنه يشرب الماء عن طريق جذوره التي تمتد في الأرض - لينقطع إلى الله تعالى. وهذه العبارة تعني أن هذا النخل يقع بأطراف المدينة،

فلا عمران قربه ولا ماء. فهو ﷺ كان يقصد ذلك المكان مبتعداً عن الرقباء والعيون؛ ليخلو إلى ربّه تبارك وتعالى، يناجيه ويدعوه ويعبده. وهنا نعرف أن في عبارة «بصيلات النخل» كناية عن انقطاع الإنسان لربّه بعيداً عن الأنظار.

وهذا الخلق والالتزام مما اكتسبه من الرسول الأكرم ﷺ؛ فقد كان ﷺ ملازماً له لا يكاد يفارقه، وقد كان ﷺ إذا أراد أن يقوم إلى الله سبحانه وتعالى قام في أعماق السحر مناجياً عابداً حتى تورّم قدماه من كثرة العبادة، فهبط عليه الأمين جبرائيل ﷺ يحمل قوله تعالى: «طه» ما أنزلنا عليك القرآن لتشقّي^(١)، أي أن الله تعالى لم ينزل عليك القرآن لتتعدّب نفسك كلّ هذا العذاب، وتقف إلى أن تتوّرم قدماك وينتفخ ساقاك. وهنا يأتي الرد النبوي الشريف معتبراً عن محض العبودية لله تعالى والإذعان له: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

فهو ﷺ يخاطب جبرائيل ﷺ مبيناً له جملة من الحقائق، فقال: إن الله تعالى قد وهبني النعم الجزيلة، ومنحني عطاياه الكثيرة، فلا بد أنأشكره، ومن مظاهر شكره تمجيده وتقديسه وعبادته. فالله تعالى حينما أفضى على الإنسان الوجود وجب عليه أن يشكره حقّ شكره وأن يشعر أنه لو لا هذا الخالق لما كان له وجود من أصل.

أقسام النعمة

إن الإنسان العالم الوعي لا يمكن إلا أن يعتقد أن هذه النعم لابد أن تكون صادرة من خالق حكيم مرشد. فإنه ليعلم كذلك أن أعظم نعمة أنعم بها

الله تعالى عليه هي نعمة الحياة أو نعمة الوجود: (كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيْهِ هَيْنَ وَقَدْ خَلَقْتَ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ تَخْنَ شَيْئًا) ^(١).

والنعمـة نعمـتان:

الأولى: نعمة العرض

وهي أن يصنع أحد طرفـي المعادلة معروفاً للطرفـ الثاني أو ينعم بنعمة عليهـ، فيحاـول الطرفـ الثاني أن يرـد هذا المعـروف أو يـشكـر هذه النـعـمة؛ فـينـعم عليهـ بنـعـمة تـقـابـلـها.

الثانية: نعمة الابتداء والامتنان

وهي النـعـمة التي تكون من اللهـ تعالى لمـخلوقـاته؛ فـهي نـعـمة اـبـتـداء؛ لأنـ هذه المـخلوقـات لمـ تـقـدـم إـلـيـهـ تـعـالـيـ بـنـعـمة سـابـقـةـ حتىـ يـقـالـ: إنـ نـعـمة اللهـ عـلـيـهـاـ نـعـمةـ عـوـضـ، فـالـلـهـ جـلـ وـعـلاـ يـنـعـمـ نـعـمةـ اـبـتـداءـ أـبـداـ؛ فـهـوـ تـبارـكـ وـتـعـالـيـ الـذـيـ أـفـاضـ عـلـيـهـ الـوـجـودـ وـالـحـيـاةـ بـعـدـ أـنـ كـانـ تـرـابـاـ جـمـادـاـ دـونـ سـابـقـ نـعـمةـ مـنـهـاـ كـمـاـ ذـكـرـناـ: (كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيْهِ هَيْنَ وَقَدْ خَلَقْتَ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ تَخْنَ شَيْئًا). فـهـذهـ النـعـمةـ التـيـ يـرـاـهـاـ إـلـيـانـ وـيـشـعـرـ بـهـاـ هـبـةـ مـنـ اللهـ لـهـ وـمـنـةـ مـنـهـ عـلـيـهـ.

الحركات الإصطلاحية والتزمـتـ الدينـيـ

إنـ أيـ إـنـسانـ لـهـ مـسـكـةـ مـنـ عـلـمـ لاـ يـمـكـنـ أـنـ يـعـدوـ هـذـاـ التـقـرـيرـ. أـنـ الـحـيـاةـ وـالـوـجـودـ هـبـةـ وـإـفـاضـةـ مـنـ اللهـ وـحـدهـ. وـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـكـونـ هـنـاكـ عـالـمـ بـالـمـعـنـىـ الدـقـيقـ لـاـ يـؤـمـنـ بـهـذـهـ الـحـقـيقـةـ. فـحتـىـ «ـدـارـونـ»ـ كـانـ يـؤـمـنـ بـوـجـودـ اللهـ تـعـالـيـ، وـأـنـ خـالـقـ الـكـوـنـ، لـكـنـهـ لـمـ تـعـرـضـ إـلـىـ هـذـهـ الـحـمـلـةـ الـكـنـسـيـةـ

التي أثيرت ضده نتيجة مواقفه العلمية التي تخالف متبنيات الكنيسة؛ مما أدى إلى أن تَشَدَّدَ الكنيسة منه موقفاً، ولأنه راح يسلط الأضواء على عقائد الكنيسة، راحت الأقلام تتناوله بالانتقاد والتجریح ونسبة الكفر والإلحاد إليه. بل وأكثر من هذا أننا نجد أن نظريته في التطور لا تصطدم مع الدين إطلاقاً.

نقد نظرية التطور

ولو أننا تتبعنا تاريخ الحركات الإصطلاحية في العالم لوجدنا أنها جمِيعاً تجاهها بهذا النمط العدائِي من المواجهة، وتواجه تحت ستار الدين، مع أن المسألة ليست مسألة دين، وإنما هي مسألة سياسة تتستر ببطء الدين. ومعنى هذا جر الدين إلى ساحة النزاع السياسية وإقحامه فيها؛ لجعله يخدم أهدافها وأغراضها. وهذا اللون من الممارسة المستترة تحت غطاء الدين يعد توجهاً خطراً؛ لأنَّه يضع الدين في موقف يجعل الناس تَشَدَّدُ منه موقفاً عدائياً، ومن ثم تبتعد عنه. ومن هذا ما يروى من أنه في خلافة المهدي كان كُلُّ من تغضب عليه السلطة يرمى بالزنقة ويقتل^(١)، وفي أيام المؤمن كانت مسألة خلق القرآن وقدمه سبباً في إراقة الكثير من دماء الخصوم^(٢).

(١) سأتأتي مثال هذا في الحادثة التي وقعت بين المهدي هذا وبين ابن عبد القدوس بعد أن اتهمه بالزنقة، ثم حكم عليه بالقتل والصلب في هذه المحاضرة تحت عنوان (بين المهدي وابن عبد القدوس).

(٢) حتى وصل الأمر إلى تكفير بعض علماء السنة لمن يقول بخلق القرآن. انظر: البحر الرائق ٥: ٢٠٩، المعني ١٢: ٣٠، حاشية در المختار ٤: ١٤.

نظريّة التلخیص

وعليه فإن «دارون» ليس هو الأول ولا الأخير في مسلسل توجيه العملات الغريبة ضدّ العلماء والمجددين في تاريخ البشرية. وحينما نقرأ الأصل الإنجليزي لكتابه نجد أنه كان يؤمن بوجود الله تعالى إيماناً واضحاً يائناً، وكان يؤمن بحقيقة أنَّ الله جلَّ وعلا هو واهب الحياة، وغاية ما في الأمر أنه قال: إن الإنسان قد تكون من خلية، وإن هذه الخلية تطورت. وهذا كما أشرنا إليه لا يصطدم مع الدين أبداً، فالجنين في بطنه أمه يسير وفق نظرية التلخیص، وهي نظرية وضعها العالم «يونك» وتنص على أنَّ الحوبيمن بعد أن يلقي البريضة تتطور إلى ما يسمى بالزایگوت ZYGOTE، ومن ثم ينمو ويتطور حتى يصبح إنساناً سوياً، وهو تطور يلخص مراحل مسيرة الإنسان التطورية. وهي نظرية ضخمة يبحثها علماء الاجتماع بصورة مفصلة.

على أية حال فإن دارون يعتقد بأن الحياة هبة من الله تعالى الذي خلق الخلية الحية ووهبها الحياة باعتبار أن فاقد الشيء لا يهبه لغيره، فالحياة لا يمكن أن تأتي من شيء ميت، بل إنها لابد أن تأتي من حيٍّ. وكل ما في الأمر أن نظرية التطور ترسم صورة للخلق تختلف عن الصورة الكلاسيك التي ترسمها كتب الدين عندهم مثلاً.

والقرآن الكريم ربما يشير إلى هذه القاعدة؛ ولذا فإننا نجد فيه تنويهاً إلى مثلها كما في قوله تعالى: «أَفَرَا إِنَّمَا زَيْدَ الَّذِي خَلَقَهُ خَلَقَ إِنْسَانًا مِنْ عَلْقٍ»^(١)، والعلق: الدودة الصغيرة التي تكون في الطين باستثناء أبينا

أدم ﷺ وخلقه؛ فإن الله تعالى خلقه ابتداءً، غير أن ما بين أيدينا من التاريخ الطبيعي لا يمكن أن يعطي حقائق واقعية في هذا المجال.

رجع

إذن فليس هناك من عالم له أدنى مسكة من علم وهو ينكر وجود الله سبحانه وتعالى ويقول بالصدفة التي تعارض مع منطق الرياضيات وكل متبنياتها.

وما دام الله تعالى هو مفهوم الوجود والحياة، وهو المنعم المتنفصل على خلقه فلابد من شكره، وأحد مظاهر شكره هو الانقطاع إليه، فعلى العبد أن يخلو بنفسه مع خالقه أو قاتلها يتصل بها معه. وهذه الأوقات هي الجزء الحقيقي من الحياة وما عداه أوهام، والحياة كلها وهم لو لا لحظات الانقطاع الخالص إلى الله تعالى والتواصل معه.

رأي النظرية التسموية في نشوء المعرفة

وفي هذا المضمار أود أن أذكر أن أحدى النظريات التي تفسّر نشوء المعرفة عند الإنسان تذكر أن كل هذه الموجودات الخارجية هي في الواقع لا وجود حقيقي لها، بل هي موجودة في مخ الإنسان فقط. وهي نظرية كما هو واضح من مذهبها فيها مبالغة؛ كونها تذهب إلى أن كل الموجودات هي عبارة عن صورة مرسومة في الذهن وليس لها أي وجود خارجي متحيز، وأن الحياة هي طيف خيال في كل أبعادها. صحيح أنه ليس هناك من يملك تفكيراً سليماً وعقلاً صحيحاً وهو يعتقد بأن هذه الدنيا لها صفة الدوام، لكن لا على النحو الذي تذهب إليه هذه النظرية. إذن فالدنيا في حقيقتها ليست إلا ظلاماً زائلاً، يقول المعربي:

خلق الناس للبقاء فضل
أمة يحسبونهم للنفاذ
إنما ينتقلون من دار أهوا
ل إلى دار شقة أو رشار^(١)

فهم ينتقلون من عالم إلى آخر.. من عالم الوهم والخيال إلى عالم الحقيقة وكأنهم لم يعيشوا هذا العالم إلا لحظات بعدها انداخ كل شيء: «(وَمَا هُنَّ
الْخَيَّأَ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهُمُ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)»^(٢)، كما
عبر عنها القرآن الكريم، وكما عبر عنها كذلك بقوله: «(وَمَا الْخَيَّأَ الدُّنْيَا إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ حَيْثُ بِلَدَيْنِ يَتَقَوَّنُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)»^(٣). الواقع الذي ينبغي
التسليم به هو أن من يعقل نفسه وجوده وما حوله فلا بد أنه يؤمن بأن
الدار الآخرة هي الحيوان.

إذن فإن الله تعالى يريد من عباده التواصل معه والانقطاع إليه، لأنه هو
الأحق بأن يشكر، وهذا الفعل مظهر من مظاهر الشكر كما أسلفنا.
ولحظات الانقطاع والتواصل لا تتأتى للإنسان كل حين، فهناك لحظات
قليلة يحسن الإنسان فيها بالتجلى، وهي لحظات عظيمة، غير أن
النبي ﷺ كان يعيشها في كل جزئيات حياته وعبادته؛ ولذا فإن القرآن
الكرييم يقول له: «(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)»، فكان عليه السلام إذا جن عليه الليل صَفَّ
قدميه واتجه إلى الله عز وجل.

وهكذا كانت ليلي أهل بيته عليهم السلام، وهي الصورة التي يرسمها لنا أبو فراس
الحمداني في ميمنته الرائعة، وهو يقارن بين البيوت العلوية وبيوت
العباسيين، فيقول:

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٨١ - ١٨٢، تاريخ بغداد ٤: ٤٦٤، الواقفي بالوفيات ٧: ٦٧.

(٢) المنكبوت: ٦٤.

(٣) الأنعام: ٣٢.

تبدو التلاوة من أبياتهم سحراً
إذا تسلوا سورة غنى خطيبكم
وفي بيوتكم الأوتار والنغم
قف بالديار التي لم يعفها القدم^(١)

فقصر الخلد (دار الرشيد)، كان يصبحه الصباح بمحضر الرشيد والأغاني تصدق فيه عرض ذكر الله تعالى، يصحب ذلك عزف القيان ورقص الجواري ومعاقرة الخمور، أما دور آل محمد عليهم السلام فكانت عامرة بذكر الله جل وعلا، فلا يمر عليها الليل دون أن يسمع منها رنين التوجع والخوف من الله تعالى والفزع منه إليه، ولا يعانقها السحر دون أن تбеж الكون منها أنوار تلاوة القرآن الكريم والبكاء وملامح الاتصال بالله جل وعلا.

فهل يستوي هذان البيتان؟ أبداً، لا يمكن أن يستويا بحال من الأحوال، ولا يمكن أن يقول به عاقل. ودليل هذا أن بيت العلوين بقى خالداً مع الدهر، بل إنه بيت افتزع الخلود افتراعاً، أما بيت العباسين فقد اندر وانقطع أثره، ولم يعد يذكره ذاكر، يقول أحد الشعراء:

عن ثنتين مما موتى وأحياء	هيأنا بنا لربى الزوراء نسائلها
في ألف ليلة حيث العيش سرآءة	فقد مشت وبنو العباس سامرة
بما يلذ فانغام وصهباء	دار الرقيق وقصر الخلد طافحة
تجاذبها الشريأا فهئ شفاعة	وبل إلى الكرخ وانظر قبة سمعت
سحابة الفضل والإنعم وفاء	وحني فيها إماماً من أنامله

المبحث الرابع: في معنى التقلب في الآية
ثم قالت الآية: «وَتَقْلِبْكَ فِي السَّاجِدِينَ»، وللمفسرين في التقلب رأيان:

(١) ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥.

الرأي الأول: عبادته عليه السلام في الأسحار

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن المقصود بهذا المقطع الشريف هنا: عبادة الرسول الأكرم عليه السلام في جوف الليل ، وعين الله تراه . وهذا المعنى لا يمكن أن يكون غريباً؛ لأن بيت النبي عليه السلام كان بيت ركع وسجود . وهذه الآية الكريمة توحى بأن من حوله على غير شاكلته في العبادة والانقطاع ، فمن بين كل هؤلاء هو عليه السلام وحده الذي كان يقيم ليله حتى ورمت قدماه .

الرأي الثاني: طهارة آبائه عليهم السلام

وبناء على هذا الرأي فإن المقصود هنا بالنقل هو الانتقال من صلب إلى صلب . أي أنه عليه السلام كان ينتقل في الأصلاب الظاهرة والأرحام المطهرة . وهذا الرأي مروي عن الإمام الباقر عليه السلام^(١)؛ لأن الرسول الأكرم عليه السلام لابد أن يكون كذلك ؛ لئلا يتطرق إليه العيب والنقد من الناس ، فهو عليه السلام لم تتدنسه أرحام الشرك والجاهلية .

التهافت في روایات العامة

وهذه المسألة من المسائل التي وقع فيها الخلاف بيننا وبين المذاهب الإسلامية الأخرى التي تجيز وقوع ذلك ولا ترى به بأساً ، ويررون أنـه عليه السلام كان قد مر بالأبواء (المكان الذي دفن فيه أبواء) ، ونزل على قبر أمـه ، فناجـى ربـه طـويلاً ثم بكـى حـتـى اشـتدـ بـكـاؤـه ، وبـكـى الـمـسـلـمـونـ لـبـكـائـهـ وـقـالـواـ: ماـ بـكـىـ نـبـيـ اللـهـ عليه السلامـ بـهـذـاـ المـكـانـ إـلـاـ وـقـدـ حـدـثـ فـيـ أـمـهـ شـيـءـ لـاـ نـطـيقـهـ . فـقـالـ عليه السلامـ لـهـمـ: «ـمـاـ يـكـيـكـمـ؟ـ»ـ . قـالـواـ: ياـ نـبـيـ اللـهــ، بـكـينـاـ لـبـكـائـكـ . فـقـالـ: «ـنـزـلتـ عـلـىـ قـبـرـ فـدـعـوتـ اللـهــ أـنـ يـأـذـنـ لـيـ فـيـ شـفـاعـتـهـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ، فـأـبـيـ اللـهــ أـنـ

يأذن لي ، فرحمتها وهي أمي فبكيت . واستأذنت ربتي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي . ثم جاءني جبريل ﷺ فقال : تبرأ من أمك كما تبرأ إبراهيم ﷺ من أبيه »^(١) .

ونحن في هذا المضمار نطالب من يروي هذه الرواية أن ينظر إلى الروايات الأخرى الواردة في المقام قبل أن يرويها : كيلا يحصل تصادم أو تعارض بين هذه الروايات والرواية التي يرويها . ومن هذا القبيل ما يروى عن أبي هند الحجام الذي كان يحجم لرسول الله ﷺ ، فاحتجم رسول الله ﷺ عنده ، فلما فرغ دفع إليه دمه ، وقال له : « اذهب به فواره حيث لا يراه أحد ». فذهب به فشربه ، فلما رجع قال له رسول الله ﷺ : « أين الدم ؟ ». أو قال له : « ما صنعت به ؟ ». قال : جعلته في مكان أظن أنه أخفى مكان عن الناس . فقال ﷺ : « فلعملك شربته ؟ ». فقال : نعم . فقال ﷺ : « ما كان يتفي لك أن تفعل ، وقد جعله الله عز وجل حجاباً لك من النار . فلا تعدد »^(٢) .

ونحن لانعول على هذه الرواية ؛ لأننا نقول : إن ابن النبي نفسه لو عصى الله دخل النار . هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن من يروي هذه الرواية يرى عدم دخول أي جسد إلى النار ما دام فيه جزء من جسد الرسول ﷺ ، في حين أن أمه وأباه ﷺ يعذبان بالنار مع أنهما جزء منه وهو جزء منهما ؛ لأنهم من بعض ، فللحمة لحمهما ودمه دمهما ، والعكس كذلك ، إن هذا

(١) مسند أحمد ٤٤١ : ٢ ، صحيح مسلم ٦٥ : ٣ ، سنن ابن ماجة ٥٠١ : ١ ، المستدرك على الصحيحين ١ : ٢٧٤ ، ٦٠٥ ، ٢٧٥ ، تفسير البيضاوي ٢ : ١٧٩ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٧ : ٤٥ ، مجمع الزوائد ١ : ١١٧ .

(٢) لم نعثر على هذا الحديث بزيادة قوله ﷺ : « وقد جعله الله عز وجل حجاباً لك من النار » فيما بين أيدينا من مصادر . انظر : شرح نهج البلاغة ٢٠ : ١٠٩ ، أسد الغابة ٢ : ٢٤٧ ، قال : « وقد أخرجه الثلاثة ». كنز المقال ١٥ : ٤٣٦ / ٤١٧٢٨ .

إلا تناقض.

طهارة آباء الإمام عليهم السلام

على أية حال فإن آباء النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه يمكن أن يكونوا مشركين على رأي المذاهب الإسلامية، أما نحن فلا نذهب إلى هذا الرأي، بل إننا نعدهي موضوع طهارة الآباء للإمام عليهم السلام، لأن العلة في نصب الإمام عليهم السلام هي عينها العلة في نصب النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وبعثته، والمفروض أن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه يجب إلا يكون عنده ما ينفر الطباع منه وكذلك الإمام عليهم السلام حكمه حكمه. فالنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه يرفع شعار التوحيد وكذلك هي وظيفة الإمام عليهم السلام؛ لشأنه يعترض معترض على النبي أو الإمام ويقول: كيف تدعوا إلى التوحيد وكنت بالأمس مشركاً، أو كان آباوك مشركين؟

إن مثل هذه التهمة تعدّ نقصاً في حق الرسول أو الإمام عليهم السلام، والله تعالى يأبى لأنبيائه وأوصيائهم صلوات الله عليهم وآله وسلامه أن تكون فيهم جهة نقص، أو أن يولدوا من مصدر فيه جهة نقص. وهذا هو الأمر الذي حدا بنا إلى القول بأن أبو طالب مات مسلماً مؤمناً.

دليل إسلام أبي طالب عليهم السلام

والإثبات لهذا الأمر لا بد من سرد تمهيدي له، ولنذكر في هذا الباب قصتين يذكرهما التاريخ:

الأولى: بين المهدي وابن عبد القدس

إن عند العقلاء كافة أن إقرار العاقل على نفسه حجّة، ومن ذلك أن صالح بن عبد القدس البصري - وكان أحد الشعراء - اتهمه المهدي العباسى بالزندقة، فأمر بحمله إليه، فلما أحضروه بين يديه وخاطبه أعجب بغزاره

أدبه وعلمه، وبراعته وحسن بيانه، وكثرة حكمته، فأمر بتحلية سبيله، فلما ولَّ رَدَّه وقال له: ألسْتَ الْقَائِلَ:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسيه
إذا أرعوى عاد إلى جهله كذا الضئي عاد إلى نكسه

قال: بلَّى . قال: إذن فأنْتَ لا تترك أخلاقك ولا عقيدتك ، وقد كنت زنديقاً وسترجع زنديقاً، ونحن نحكم فيك بحكمك في نفسك . ثم أمر به فقتل ، وصلب على الجسر^(١) .

الثانية: بين أمير المؤمنين عليه السلام وأعشى همدان
 صعد أمير المؤمنين عليه السلام المنبر مرّة فقال: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنكم لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فتنة تهدي مئة أو تضلّ مئة إلا حدثتكم بناعقها وساقها حتى يخرج الدجال». فقام إليه أعشى همدان الشاعر فقال: من لا يحسن أن يقول مثل هذا؟ إن هذا الحديث خرافه.

والواقع أن هذا الرجل العظيم جاء في غير أوانه وسابقاً لعصره؛ لأنَّه جاء في عصر معاوية وأمثال معاوية^(٢) .. معاوية الذي حينما أراد أن يأخذ ولاية العهد ليزيد قام يزيد بن المقنع العذري فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن أبي فله هذا، وأشار إلى سيفه . فقال معاوية: اجلس؛ فأنْتَ سيد الخطباء^(٣) .

في حين أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يتعامل مع هؤلاء الأجلال بمنتهى

(١) تاريخ بغداد ٩ / ٣٠٤ ، ٤٨٤٤ ، تاريخ مدينة دمشق ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) حتى إنده عليه السلام قال: «أنزلني الدهر حتى قيل: معاوية وعلي». الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

٤٥ ، لقد شيّعني الحسين : ٢٣٥ . (٣) الكامل في التاريخ ٣: ٥٠٢ .

الديمقراطية والانفتاح والحرية.. وهذا الأمر بطبيعة الحال مصيبة وبلاء، ولذا فإنَّه عليه السلام كان يشعر بغربة وألم، فكان يخرج إلى الصحراء لينفس من كربه، يقول ميثم عليه السلام: كنت أتفقده عليه السلام فأراه جالساً في الجبانة، وهو ينكت الأرض باباهامه ويقول:

وفي الصدر لسبانث
إذا ضاق بها صدرِي
نحت الأرض بالكُفِّ
وابدِيَت لها سرِّي
فَمِمَّا ثَبَّتِ الأرض
لذاك التَّبْثُّتُ من بذرِي^(١)

وكان يصعد على المنبر فيقول: «أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ ... أوه على إخواني الذي تلو القرآن فأحكموه...». ^(٢).

فهو لاء القلائل هم الذين كان عليهما يأنس بهم، لكن الحروب أخذتهم، وهذا اللون من الصحبة الذي كان ينشده عليه السلام لكونه الصحبة الحقة التي كان عليه السلام يعيش معها، وهي التي كانت تفهمه، لكن ما حصل هو أن أصحابه تركوه يعيش الغربة.

على أية حال فإن أعشى همدان هذا قال له عليه السلام: هذا حديث خرافات، فتبسم الإمام عليه السلام وقال له: «لو شئت لنلت بطرف سيفي، ولكن سلط الله عليك غلام ثقيف». فقالوا: يا أمير المؤمنين، ومن غلام ثقيف؟ قال عليه السلام: «غلام لا يدع لله حرمة إلا انتهكها، ولا عظيمة إلا ارتكبها».

ثم أخذ في وصف الحجاج بن يوسف الثقفي، وفعلاً أدرك هذا الرجل

(١) فضل الكوفة ومساجدها (المشهدى)، ٦٥، بحار الأنوار ٤: ٢٠٠، ٩٧، ٩٩٢، ٤٥٢.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢، وقد مرَّ في ج ٢ ص ٥٥.

الحجاج فقتله؛ حيث إنه كان خرج مع ابن الأشعث فأُتني الحجاج به أسيراً، فقال له: يابن اللخاء، أنت القائل لعدو الرحمن، يعني عبد الرحمن بن الأشعث:

سدة لا أبالي فيك عتبًا	بابن الأشج قريع كف
س وانت أعلى الناس كعبا	أنت الرئيس ابن الرفيق
سف خر من زلق فتنا	نبنت حجاج بن يو
يجلو بك الرحمن كربلا	فانهض هديت لعله
ب يكتبهن عليه كتابا	وابعث عطية في الحرث

قال: أيها الأمير، وأنا القائل:

أبى الله إلا أن يتقم نوره	ويطفئ نار الكافرين فتخمدوا
وينزل ذات بالعراق وأمله	كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما لبث الحجاج أن سل سيفه	عليينا فسوى جمعنا وتبددا

فالتفت الحجاج إلى من حضر، فقال: ما تقولون؟ قالوا: لقد أحسن إليها الأمير، ومحا بأخر قوله أوله، فليسعه حلمك. فقال: لاما الله! إنه لم يرد ما ظننت، وإنما أراد تحرير يمن أ أصحابه. ثم قال له: وبذلك، أسلت القائل:

إن نلت لم أفرح بشيء نلتنه	وإذا سبقت به فلا أتأله
ومقت تصبك من الحوادث نكبة	فاصبر فكل غيابة تكتشف

أما والله، لتطلعن عليك غيابة لا تنكشف أبداً، يا حرسي اضرب عنقه^(١).

(١) لم نعثر عليها أنها مع أغنى همدان، ولا بهذه الكيفية، انظر هذه المصادر مجتمعة: بصائر الدرجات: ٣١٧، شرح الأخبار: ٢، ٣٩، المحضر: ١٥٧، المسترشد: ٦٧٢، مناقب

وقد قال بعضهم: نالته دعوة العبد الصالح، يعنون أمير المؤمنين عليه السلام. فمثل هذا يستنبع من شعره أنه يذهب لهذا المذهب فيلزم به، ويعاقب عليه. وهنا سوف ندخل إلى موضوعنا الذي مهدنا له، وهو موضوع إيمان أبي طالب عليه السلام، فمادام كلّ من المهدى والحجاج قد استدلّا على ابن عبد القدوس والهمدانى من شعرهما فإنّ أبو طالب عليه السلام كذلك من الحقّ أن يستدلّ له من شعره على إيمانه، فهو الذي يصدق بشعره قائلًا:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خطّ في أول الكتب ^(١)

ونسمعه يقول:

كذبتم وبيت الله نخلي محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل ^(٢)

ونسمعه يقول:

نبي آتاه الوحي من عند ربِّه ومن قال لا، يقرغ بها سئّ نادم ^(٣)

ويقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوشذ في التراب دفينا

فاصدح بأمرك ما عليك مخافة وابشر وقرّ بذلك منك عيونا

آل أبي طالب ٢: ١١٣، شرح نهج البلاغة ١: ٣٢٠ - ٣٢٢.

(١) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٢٨، السيرة النبوية ١: ٢٢٥، البداية والنهاية ٣: ١٠٧، ١٠٨،
المقتني من سيرة المصطفى ١: ٦٧.

(٢) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٤١، أخبار مكة ٢: ٣٧٥، السيرة النبوية ٢: ١١١، ٢١٧، ٣: ٢٩٢،
تاريخ الطبرى ٢: ٥٧٧، الكامل (ابن عدي) ٣: ٤٠٩، أعلام النبوة ١: ١٧٢، دلائل
النبوة ١٨٥، الفائق في غريب الحديث ١: ١٠٥، الاستيعاب ٢: ٤٦٨، الاكتفاء (الكلاغي)
١: ٢٢٠، ٢٦٧، ٥٦، المقتني من سيرة المصطفى ١: ٥٧، تاريخ مدينة دمشق ٨٣:
٢٥٨، البداية والنهاية ٦: ٢٠٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، باختلاف في رواية البيت.

(٣) شرح نهج البلاغة ١: ٧٣، مناقب أهل البيت عليهم السلام (الشيرازى)، ٥٨.

ولقد علمت بان دين محمد من خير اديان البرية ديناً^(١)

ان من يقرأ ديوان أبي طالب ﷺ يجده طافحاً بملامح التوحيد والإيمان والعقيدة المخلصة لله تعالى. ولست أدرى ما هو الفرق بين من يقول: «أشهد ألا إله إلا وأشهد أن محمداً رسول الله» ثرأ، وبين من يقولها شرعاً!

سر تحفير أبي طالب ﷺ

ان التاريخ الأسود كل يوم يطلع علينا بمدعٍ جديد يعلن عبره أن أبي طالب ﷺ مات كافراً مشركاً، وكأنه قد فتح فتحاً كبيراً في مجال التاريخ، مع أن السبب واضح، وهو أنه أبو أمير المؤمنين رض ولو لا أنه أبوه لما تعرض لهذه الحملة الشعواء عليه. لقد ذكرت في احدى المحاضرات أن مجموعة من العلماء الأزهريين نشروا بحثاً انتهوا فيه إلى أن من يذهب إلى كفر أبي طالب فهو كافر؛ لأنهم توصلوا إلى نتيجة أن من يكفره يؤذ النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه، ومن يؤذ النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه يؤذ الله تعالى، ومن يؤذ الله فهو كافر.

هذا هو الاستنتاج الذي انتهوا إليه، الواقع أنه كذلك؛ لأن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه

(١) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٦، السيرة الحلبية ١: ٤٦٢، البداية والنهاية ٢: ٤٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، زاد المسير ٢: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥.

ورحم الله ابن أبي الحديد حيث يقول:

لما مُثُلَّ الدَّيْنَ شَخْصًا قَمَّا	وَلَوْلَا أَبُو طَالِبٍ وَابْنَةٍ
وَهَذَا بِسَكَّةَ آوَى وَحَامَى	فَذَلِكَ بِسَكَّةَ آوَى وَحَامَى
وَلَلَّهِ ذَا لِلْمُعَالَى خَتَاماً	فَلَلَّهِ ذَا فَاتَحًا لِلْمُهَدَّى

شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤.

شيئه ووقف على قبره واستغفر له . وهناك روايات في هذا الصدد من أهل البيت عليهم السلام يذكرون فيها أن أبا طالب كأصحاب الكهف أظهر الشرك وأضمر الإيمان فآتاه الله أجره مرتين ^(١) ، وأنه كمؤمن آل فرعون يكتنم إيمانه ^(٢) . لكن مع كل هذا يخرج علينا سمرة بن جندب .. الأجير الذي امتلاه جوفه خمراً، وتلوثت يداه بالإثم وتلطختا بالدم ، والذي خالط السحت رأسه فغيره عكس هذا ، والسبب معروف كما ذكرنا ، وهو صلته بالإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام .

رج

إذن فنحن نقول: إن العلة التي توجب أن يكون النبي ﷺ طاهر الآباء هي العلة عينها التي نقولها في الإمام عليه السلام; فكما أن النبي ﷺ لا بد فيه من صفة طهارة الآباء وعدم شركهم فكذلك الإمام. وهذا هو الذي ي يريد القرآن الكريم من خطابه للرسول الأكرم ﷺ بقوله: «وَتُنْقَلِبَنَّ فِي السَّاجِدِينَ» . يقول البوصيري:

لَمْ تَزُلْ فِي ضَمَانِ الْكَوْنِ تُخْتَأْ	رَلَكَ الْأَمْمَاهُتُ وَالْأَبَاءُ
تَتَبَاهَنِ بِكَ الْعَصُورُ وَتَسْمُو	بِكَ عَلَيَّهِ بَعْدَهَا عَلَيَّهُ
وَبِدَا لِلْوُجُودِ مِنْكَ كَرِيمٌ	مِنْ كَرِيمٍ أَبَاؤُهُ كَرِيمٌ
نَسْبٌ تَحْسِبُ الْفَلَاحَ بِخَلَامًا	فَلَذْتَهَا نَجْوَمَهَا الْجِوَزَاءُ
حَيْثُنَا عَقْدُ سَوْدَرٍ وَفَخَارٌ	أَنْتَ مِنَ الْبَيْتِمَةِ الْعَصَمَاءِ ^(۲)

ويقول آخر:

(١) الكافي ٤٤٨، ٢٨، الأمازي (الصدوق) ٧١٢ / ٩٨٠.

(٢) وسائل الشيعة ١٦: ٢٣٢ / ٢٤٠ . (٣) دیوان البوصیری: ٩.

لو لم يكن قلباً لكن ساجد بالساجدين الغر ما تقلبا

فهو ﷺ تقلب في الأصلاب الظاهرة والأرحام المطهرة، ولذا فإننا نخاطبه في الزيارة الشريفة بمخاطبتنا عنترته؟ ﷺ: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة»^(١). وظللت تجليات هذا النور تنتقل في ذرية الرسول ﷺ، يقول هلال بن نافع: مررت على الإمام الحسين <عليه السلام> فرأيت شفتيه تتحركان وهو في لحظاته الأخيرة، فوالله، لقد شغلني نور وجهه عن التفكير بقتله، فأقبلت إليه، وقلت: إن كان يدعونا علينا هلكنا ورب الكعبة. فدنوت منه فسمعته يقول: «صبراً على قضائك يا رب، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك»^(٢):

تركـتـ الـخـلـقـ طـرـأـ فـيـ هـوـاـكـاـ
وـأـيـمـتـ الـعـيـالـ لـكـيـ أـرـاـكـاـ
فـلـوـ قـطـعـتـنـيـ بـالـحـبـ إـرـبـاـ
لـمـ مـالـ الـفـوـادـ إـلـىـ سـوـاـكـاـ^(٣)

وافتقدته نساوه، فقالت إحداهن: مالي لا أرى لأبي عبد الله شخصاً ولا أسمع له صوتاً؟ فقالت الأخرى، لعل الخيل حالت بيننا وبينه. فقالت أختها: حاشا ابن أبي أن تضمه خيل أو رجال. ثم انحدرنا إلى مصرعه بين تلك الجثث والأشلاء:

نـادـتـ فـقـطـعـتـ الـقـلـوبـ بـشـجـوـهـاـ
لـكـنـماـ اـنـتـظـمـ الـبـيـانـ فـرـيـداـ
إـنـسـانـ عـيـنـيـ يـاـ حـسـيـنـ أـخـيـ يـاـ
مـالـيـ دـعـوـتـ فـلـاـ تـجـيـبـ وـلـمـ تـعـنـ
أـمـلـيـ وـعـقـدـ جـمـاعـيـ المـنـضـودـاـ
غـؤـدـثـيـ مـنـ قـبـلـ ذـاكـ صـدـودـاـ

(١) كامل الزيارات: ٤٠٣ / ٦٣٩، مصباح المتهجد: ٧٢١ / ٨٠٦.

(٢) انظر: شجرة طوبى ٤٠٩: ٤، مقتل الإمام الحسين <عليه السلام> (المقرن): ٣٥٧، بنايع المودة ٣: ٨٢.

(٣) بيثان ينسبان لابن إبراهيم بن أدهم. تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

أَلِيمَةٌ شَفَلْتَكَ عَنِّيْ أَمْ قَلَى
حَتْ ثُ فَلَمْ تَرْ مَثَلَهُنْ نَوَانِحاً
إِذْ لَيْسَ مَثَلُ فَقِيدهِنْ فَقِيدَا
وَثَوَالِبَ بِالنُّوْحِ تَسْعَدُ مَثَلَهَا
(١)

* * *

أَخْيَيْ مَا عَوَدْتَنِي مِنْكَ الْجَفَا
أَخْيَيْ أَيْنَ أَبَيْ عَلَيْ الْمَرْتَضِي
فَلَعَلَّمَ تَجْفُونِي وَتَجْفُو مِنْ مَعِي
لِيَرِي انْكَسَارِي لِلْعَدِي وَتَخْضُعِي
مَسْنُوبَةً مَشْتَوْمَةً مَسْبِيَّةً

* * *

اتَّمَرْمَتَ وَاللَّهُ بِيَتَامَكَ يَحْسِينَ مَا لَيْ حِيلَ فَرِگَاكَ

عَدَنَا اشْبَعَدَ فَلَلَ لوْ فَكَدَنَاكَ

← ١٥٦ ١٥٧ →

عصمة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُوكُمْ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا
إِنَّكُمْ لَنْ تَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَسْخَدُوكُمْ
خَلِيلًا) (١).

مباحث الآية الكريمة

إن مجمل الهيكل العام للأية الكريمة يدور حول أمر واحد هو أن الله عز وجل يعصم رسوله ﷺ عن الخطأ وإن كان بشراً. ذلك أن البشر بحكم كونهم بشراً معرضون للخطأ؛ لأن الكمال لله عز وجل، فإذا كان الإنسان كذلك فإنه يكون عرضة للتأثير بالنماذج نفسها التي يتتأثر بها غيره من الناس بما عندهم من عواطف وعلاقات وارتباطات ولحظات ضعف تمر بهم، وكلها تؤثر عليهم. فالآية الكريمة تقول له ﷺ: مع أن طبيعتك البشرية، لكنك بشرٌ صانه الله عن الوقوع في الخطأ. هذا هو مجمل جو الآية الكريمة.

المبحث الأول: سبب نزول الآية الكريمة

يذكر المفسرون في نزول هذه الآية الكريمة أربعة أسباب:

السبب الأول: أن وفداً من ثقيف جاء إلى النبي ﷺ، فقالوا: إنك دعوتنا إلى الإسلام، ونحن نسلم ونطيع بثلاثة شروط. قال ﷺ: «ما هي؟». قالوا: الأولى: أن تحرّمَ وادينا كما حرّمت مكة، فكما أن مكة محّرمة ولا يدخلها الإنسان إلا محّرماً، وتترتب عليها أحكام، فنحن نريد أن تقول عن وادي ثقيف: إن الله جعله مثل مكة. وتذكر للناس أن الله أوحى إليك بحرمة هذا الوادي.

والثاني: أنك تأمر بالصلوة، ومن أفعال الصلاة أن الإنسان لا بد أن ينحني، فيركع ويُسجد، ونحن لسنا على استعداد لأن ننحني؛ لأن احناءنا ذلل، فنريد أن تغفينا من هذا.

والثالث: أننا نريد منك مهلة سنة لتحطيم الأصنام، فنجتمع بهذه السنة الهدايا والندور التي تهدى للأصنام، ثم بعد ذلك تكون مستعدين لحطيمها وتكسيرها.

فإن حققت لنا هذه الشروط الثلاثة أمنا بك وبايعناك، وإنما نؤمن لك ولن نبايع.

نظرة على السبب الأول

ولنلقي الآن بعض الضوء على شروطهم الثلاثة هذه:

فالشرط الأول - وهو تحريم الوادي - فيه طلب من النبي ﷺ أن يكذب ويُدعي أن هذا وحي من الله. وهذا منتهى العجرفة والصفاقفة عند هؤلاء؛ فهم يريدون منه ﷺ أن يكذب، ويقول ما لم يقله الله له، وينسبه إليه

تعالى . وهذه مشكلة من أخطر المشاكل ، فهو لا يعرفون قيمة الوحي ، ولا يعرفون أن النبوة كلها تزلزل إذا ثبت بحادثة واحدة أن النبي ﷺ يمكن أن يصدر منه شيء من هذا النوع .

أما الشرط الثاني - وهو اعتقادهم من الاتحاء في العبادة - فهذه مثل نظرية أبي جهل الذي دخل على النبي ﷺ يوماً فقال له: تريد مني أن أصلِّ حتى تعلوني استي؟ وهذا نمط من التفكير النافه الذي لا يستحق المناقشة؛ لأن المعنوي في الصلاة ينبع من الله تعالى البارئ الرازق الذي أنعم عليه .

وأما شرطهم الثالث وهو أن يمهلهم النبي ﷺ سنة حتى يجمعوا الهدايا والندور التي تهدى للأصنام فيوحى إلينا بالنظرية التي تقول: إن معظم السلوك مرتب بالعامل الاقتصادي ، وهي النظرية الماركسية ، القائلة: إن دوافع الإنسان في السلوك دوافع اقتصادية . فإن أراد الصلاة والعبادة وغيرها فذلك بدافع اقتصادي ، وإن السلوك يتأثر ١٠٠٪ بالاقتصاد . وهذه النظرية مبالغ فيها .

وتسمى مثل هذه النظريات بالنظريات ذات العامل الواحد . صحيح أن العامل الاقتصادي قد يلعب دوره في التأثير على السلوك ، ولكن ليس معنى ذلك أن كل سلوك الإنسان هو بدوافع اقتصادية . لأنهم يقولون مثلاً: إن الإنسان حتى لو عبد الله فإنه يريد أن يراه الناس متدينًا فيطمئنوا إليه ويتعاملوا معه أكثر ، فيربح أكثر .

وهذا سوء ظن بالإنسان أولاً ، وخلاف الواقع ثانياً؛ لأننا نعرف أن الإنسان تحركه دوافع متعددة ، كغرائز الجوع والجنس والأنانية وغيرها . والمسألة معروفة ولا تحتاج إلى تفصيل .

فهذه الشروط الثلاثة إذن تدل على عقلية بدائية جاهلية.
السبب الثاني: أن النبي ﷺ لما كسر الأصنام قال له المشركون: اترك لنا صنماً واحداً وهو على الصفا، فنحن مستعدون لأن نؤمن بك، ولكن اترك لنا هذا الصنم مدة من الزمن حتى نرؤض أنفسنا ثم نكسره.

السبب الثالث: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: لم تدعوا إلى الله وتشتم آلهتنا؟ فأنت يمكنك أن تدعوا إلى الله من غير أن تشتم آلهتنا. فكُفّ عن شتمها، ولا تعيناها وتفسد شبابنا.

السبب الرابع - وهو سبب يستدعي التوقف عنده قليلاً - : أن قريشاً قالوا له:
لَا ندعك تلتمس الحجر الأسود إلَّا أَن تُلْمِنَّ بِالهَتْنَا . فقبل أن تلمس الحجر
الأسود عليك أن تمرّ بأصنامنا وتمتّح بها .

ويقول المفسرون: إن النبي ﷺ لما طلبوا منه ألا يمس الحجر الأسود حتى يمر بالهتهم، قال في نفسه: إن الله يعلم أنني كاره لهذا المعنى، فلا مانع من أن أمر وأوهمهم بأنني مررت بالهتهم، لكنني أمرت إلى ما هو أهون، وهو الطواف وعبادة الله، والتماس الحجر الأسود^(١).

نظرة على السبب الرابع

وهنا يأتي هذا السؤال: هل ينافي ما هم به النبي ﷺ العصمة أم لا
ينافيهما؟ وهذا من قبيل: «وَلَقَدْ هَمَتْ بِهِ وَهُمْ بِهَا نَوَّلُ أَنْ زَانِي بِزَهَانِ زَانِهِ»^(٢)، فما
هو الهم هنا؟ هل هو تحرك النوازع النفسية في نفسه بحكم كونه بشراً لولا
العصمة؟ فكلمة «نَوَّلُ» هي حرف امتناع لوجود، ومعنى ذلك: لو لا أنك

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٩٩، تفسير العالبي ٣: ٤٨٧، وفيه: تمسّ أهنتنا، بدل: تلم

۲۴: (۲)

معصوم لكنه انسقت معهم لذلك. فالله عندما يرسل نبياً فليس معنى ذلك أنه ينقطع عن ارتباطه بحكم كونه بشراً، وإنما تبقى له غرائزه ونوازعه البشرية: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْكُمْ»^(١)، لكنه بشر معصوم لا يصدر منه الخطأ.

فلو أن معدتي أحست بالجوع، وكان عندي دين، هل كنت أشعها من الحرام؟ كلاً طبعاً. فكوني أعرف أن أكل مال الناس حراماً ليس معناه إلا تحرّك معدتي بالجوع. فالنبي ﷺ عنده همٌ وعنده تحرك وغرائز، والغرائز تخاطبه وتريد إشباعها، لكن الله يعصمه عن الوقوع بالخطأ. على أن يلاحظ أن عصمه لا تكون بالإجبار.

ما هي العصمة

وبما أنها مررنا بهذا الموضوع فدعونا نلقي عليه الضوء، فهناك ضبحة ثمار، ومفادها أن الشيعة يقولون: إن أيمننا معصومون. في حين أن صاحب الضبحة يثبت العدالة لعشرات الآلاف من الصحابة، فهم عدول لا يصدر منهم الخطأ، وإن صدر فهو اجتهاد، والمجتهد له أجر إن أخطأ. فإذا كان من الممكن أن يكون الإنسان عادلاً ولا يصدر منه الخطأ، فلم يستكثرون علينا أن يكون إنسان معصوماً؟

ثم ما هي العصمة؟ العصمة هي الامتناع عن الخطأ، فلنرى المعصوم القدرة على الإتيان بالفعل ولكنه لا يفعله، والقدرة على ترك الطاعة لكنه لا يتركها. فهو يستطيع ترك الصلاة ولا يتركها، ويستطيع أن يشرب الخمر ولا يشربه؛ لأن لديه لوناً من التربية العالية. وهذا هو اللطف الذي

صنعه الله بالمكلف، فجعله يمتنع عن اتيان القبيح وترك الواجب. فإن كان كذلك فالنبي صلوات الله عليه لم تذهب عنه خواصه البشرية، ولا قلت عنه نوازعه، فهو يهم أن يلبي مطلبهم لولا العصمة. وقد تكون هذه طريقة من باب (الوسائل والغايات)؛ فبعض الغايات تكون جليلة، فيتوسل إليها بوسيلة ما وإن كانت تلك الوسيلة دون مستوى الغاية. فالإنسان يستعمل الوسيلة كي يصل إلى الغاية.

وكمثال على ذلك أن الله تعالى نهى المؤمن أن يذل نفسه، ولكن في سبيل الإصلاح بين اثنين يمكن أن يذل نفسه، فإذاً إلى هذا وي الخضع له قليلاً، ويذهب إلى ذاك ويفعل كذلك. فبلحاظ ما يترتب على المسألة من موضوع أهم يضحي بالمهم من أجله. وهذا من العناوين التي يستند إليها الفقهاء، وهو تقديم الأهم على المهم. وله تطبيقات كثيرة^(١).

فكانت المسألة مع النبي صلوات الله عليه من هذا الباب، فكان الأهم أن يرشد هؤلاء، والمهم أن يمز على الصنم ويوحى إلى المقابل أنه كرم هذا الصنم

(١) كالذي كان من سيدنا النبي إبراهيم صلوات الله عليه في محااجته مع قومه، وقد صورها القرآن الكريم بقوله: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْجَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفْلَى قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَقْلَيْنِ» # فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفْلَى قَالَ لَيْلَنِ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَا تَكُونُنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ» # فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفْلَى قَالَ يَا أَقْوَمُ إِنِّي بَرِي؛ مِنَ ثُشْرِكُونَ # إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّهِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَتَّيْفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشَرِّكِينَ». الأنعام: ٧٦ - ٧٩.

وكما حدث من عمار، فقد ألحت عليه قريش وطلبت منه الاستجارة بوثن. فلم يعد عمار إلى النبي صلوات الله عليه كانت عيناه تطفحان بالدموع، فقال له: يا رسول الله، لقد انتزع هؤلاء مني كلمة بالاكراه. وقال من معه لرسول الله صلوات الله عليه: قد كفر عمار. فقال صلوات الله عليه: لا، لا تقولوا هذا، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه». ثم قال له: «لا تبك يا عمار، وإن عادوا فعد». مجمع البيان ٢: ٢٠٣، تفسير القرآن (الصناعي) ٢: ٣٦٠.

واحترمه؛ فهداية الناس أهم من المرور على الصنم. فلما هم بذلك نزلت الآية تمنعه، فالنبي ما ارتكب شيئاً ينافي العصمة.

ومن ناحية ثانية فإنَّ الهمَّ الذي يحدث في داخل نفس الإنسان لا يؤخذ عليه الإنسان دون الفعل والقول. فلو دار في ذهني أن أرتكب معصية، ولم أنكلم بها ولم أطبقها عملياً، فلا أؤخذ عليها، يقول الحديث الشريف: «وضع عن أمتى ما حدثت به نفسها ما لم ي عمل به أو يتكلم»^(١). فمجرد الخواطر التي تحدث في ذهن الإنسان لا يؤخذ عليها إلا إذا طبقها بالقول والفعل.

هذه خلاصة أسباب التزول. ونعود الآن إلى الآية الكريمة، فالمجموع الذي تستفيده منها أن المشركين حاولوا جرَّ النبي ﷺ بطريقه أو بأخرى إلى تلبية مطالبهم. لكن الله عصمه عن أن ينزل إلى هذا المستوى.

المبحث الثاني: أن على صاحب الموقف الثبات على موقفه ثم قالت الآية الكريمة: «إِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُوكُمْ عَنِ الدِّينِ أَوْ حَيْثَا إِلَيْكُمْ أَوْ لَيْزِيلُونَكُمْ عَنْ مَوْقِفِكُمْ فَالآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَقُولُ لَهُ: إِنَّ إِنْسَانَ مَوْقِفٍ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ النَّاسَ الْمُبَادَىءَ، وَأَهْمَّ هَذِهِ الْمُبَادَىءِ أَنَّ إِنْسَانَ إِذَا آمَنَ بِقَضِيَّةٍ فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَزَلَّزَ عَنْ مَوْقِفِهِ إِذَا هُوَ مُؤْمِنٌ. وَهُؤُلَاءِ يَحَاوِلُونَ أَنْ يَزَلِّلُوكُمْ عَنْ مَوْقِفِكُمْ؛ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَبْقَى صَامِدًا عَلَيْهِ.

ومن تطبيقات هذا المعنى أن الإمام أمير المؤمنين ^{عليه السلام} حينما وصلت إليه

(١) التبيان ٦: ٥٠٦، باختلاف يسير، مجمع البيان ٦: ٢٧٨، بحار الأنوار ١٧: ٥٤. وورد عنه ^{عليه السلام} أنه قال: «وضع عن أمتى تسع خصال: الخطأ والنسيان وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطروا إليه وما استكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكير في الخلق والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد». ا

انظر: الكافي ٢: ٤٦٢ - ٤٦٣، فتح الباري ١١: ٤٧٨، المعجم الأوسط ٨: ١٦١.

الخلافة جاءه جماعة من الرؤوس البارزة، حتى من شيعته، فطلبوه منه لأنّه يغيّر العمال والولاة من قبل عثمان، ولا يحرّكهم الآن، وأن يتركهم حتى يستقرّ الوضع وتأخذ الأمور نصابها؛ فإنّهم إن عرفوا غير مستعدّين للتنازع عن هذه الأمكنة والمناصب التي وصلوا إليها، فهم وصلوا إلى أمكنة ما كانوا يحلمون بها. وأن هؤلاء ليسوا مثل أمير المؤمنين عليهما السلام في نظرتهم للدنيا، فقد وصلوا إلى الكرسي، فملكو الأموال وحازوها، ونالوا الإمارات، فإن شعر أحدهم أنه سوف يُزال عن سلطان فسيخلق ألف مشكلة^(١).

(١) ومن هؤلاء المغيرة الذي انصرف مفاجأةً لـ تارضي الإمام عليهما السلام الانتصاع خلف أهوانهم في ثبيت معاوية في ملکه، وجعل ينشد:

نصحت علیاً في ابن هند مقالة
وقلت له أرسل إليه بمهده
ويملأ الشام أن قد ملكته
فلم يقبل النصح الذي جنته به
مروج الذهب ٢: ٣٩١.

ويريـى أن المغيرة قال لـ ابن عباس عليهما السلام فيما بعد في مجلس معاوية: والله لقد أشرت على عليـ بالنصيحةـ، فـآثر رأـيهـ، ومضـنى علىـ غلوـانـهـ، فـكانت العـاقـبةـ عـلـيـهـ لاـ لهـ. فقالـ لهـ ابن عـباسـ: كانـ واللهـ أمـيرـ المؤـمنـينـ عليهـ أـعـلـمـ بـوجـوهـ الرـأـيـ وـمـعـاـقـدـ الـحـزـمـ وـتـصـرـيفـ الـأـمـورـ منـ أـنـ يـقـبـلـ مشـورـتـكـ فـيـمـاـ نـهـيـ اللـهـ عـنـهـ وـعـنـفـ عـلـيـهـ، قالـ سـبـحانـهـ: (لـ تـجـدـ قـوـمـاـ يـؤـمـنـونـ بـالـلـهـ وـالـيـومـ الـآـخـرـ يـوـادـونـ مـنـ حـادـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ وـلـوـ كـائـنـواـ آـبـاءـهـمـ أوـ أـبـيـاءـهـمـ أوـ إـخـرـائـهـمـ أوـ عـشـرـائـهـمـ) [المجادلة: ٢٢]. ولـقد وـقـفـكـ عـلـىـ ذـكـرـ مـبـيـنـ، وـآـيـةـ مـتـلـوـةـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: (وـمـاـكـنـتـ مـتـتـخذـ الـمـضـلـلـينـ عـضـداـ). وهـلـ كانـ يـسـوـغـ لهـ أـنـ يـحـكـمـ فـيـ دـمـاءـ الـسـلـمـيـنـ وـفـيـ الـمـؤـمـنـيـنـ منـ لـيـسـ بـمـأـمـونـ عـنـهـ، وـلـاـ مـوـثـقـ فـيـ نـفـسـهـ؟ هـيـهـاتـ هـيـهـاتـ، هـوـ أـعـلـمـ بـفـرـضـ اللـهـ وـسـنـةـ رـسـوـلـهـ مـنـ أـنـ يـبـيـطـ خـلـافـ ماـ يـظـهـرـ إـلـاـ لـلـتـقـيـةـ، وـلـاتـ حـيـنـ تـقـيـةـ مـعـ وـضـوحـ الـحـقـ، وـثـبـوتـ الـجـنـانـ وـكـثـرـ الـأـنـصـارـ، بلـ يـمـضـيـ كـالـسـيفـ الـمـصـلـتـ فـيـ أـمـرـ اللـهـ، مـؤـتـراـ لـطـاعـةـ رـبـهـ، وـالـتـقـوـىـ عـلـىـ آـرـاءـ أـهـلـ الدـنـيـاـ. بـحـارـ الـأـنـوارـ ٤: ١٧٠، شـرـحـ نـهجـ الـبـلـاغـةـ ٦: ٣٠١.

وقد يكون هذا الرأي من الوجهة السياسية ممكناً، وله حصة من الصواب، لكن الإمام علي عليه السلام يتصرف وفق أحكام الإسلام، وهو إسلام يمشي على الأرض. فقال عليهما السلام لهم: «أَمَا طَلْحَةُ وَالْزَبِيرُ فَسَارُوا رَأْيِيْ فِيهِمَا، وَأَمَا معاوِيَةَ فَلَا وَاللَّهِ لَا أَرَانِي مُسْتَعْمِلاً لَهُ وَلَا مُسْتَعِنًا بِهِ مَادَمَ عَلَى حَالِهِ: (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذًا لِفُضْلَيْنِ غَضِيدَأ)»^(١)، ولكن أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمين، فإن أَبْنَى حاكِمَتِهِ إِلَى اللَّهِ»^(٢).

فهو عليهما السلام يقول لهم: ما المبرر لأن ترك أحداً يعصي الله ويشرع في مقابلة؟ فأنا أحكم باسم القرآن، ولا بد أن أطبق القرآن، وهو يقول: «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَنَسَّخُمُ النَّازَارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ ذُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَيَّةَ نُعْلَمُ لَا شَنَصَرُونَ»^(٣)، ويعطيني حدوداً هي أن أعطي الأمر إلى من يستحقه، وهؤلاء ليسوا مستحقين من وجهة نظر الشرع، فكيف تطلبون مني أن أدعهم؟

دخل أبو الدرداء يوماً على معاویة فقال له: ما المبرر لك أن تشرب بأنية الذهب وقد حرم الإسلام ذلك؟ فقال: أنا لا أرى به بأساً^(٤). فما المبرر لعلي أن يترك هذا في عمله؟ يقول أمير المؤمنين: «قد يرى الع Howell القلب^(٥) وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، ويتهزء فرصتها من لا حرية له في الدين»^(٦).

والغريب هنا أن بعض الكتاب لم يفهموا على بن أبي طالب عليهما السلام ، ولا

(١) الكهف: ٥١.

(٢) مروج الذهب: ٢٣٩١.

(٣) هود: ١١٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٧: ٣٩٢.

(٥) القلب: البصیر بتحويل الأمور وتقليلها. مختار الصحاح: ١٦٤ - حول.

(٦) نهج البلاغة / الخطبة: ٤١.

المسألة التي يعالجونها، فراحوا يقولون عنه: إن حياة هذا الرجل حدثت فيها أخطاء كان اللازم عليه ألا يعملاها. ومن ذلك أنه ما كان ينبغي له أن يسارع إلى عزل ولادة عثمان حتى يستقر له الأمر.

وهذه ليست من الأخطاء، إنما هي من الالتزامات والمواقف التي يريد لها الشرع؛ لأن الشرع يريد من يحكم باسمه أن يطبق أوامره ونواهيه. وقد كان بوسع أمير المؤمنين عليه السلام أن يتركهم في أعمالهم، لكن ضميره لا يدعه يتركهم، والتزامه بأحكام الله وأوامر القرآن لا يعطيه مجالاً لأن يتصرف هذا التصرف. ولذا لم يقبل آراء المقتربين، وقال لهم: ليحدث ما يحدث، فأنا لست صاحب مصلحة، ولا أريد أن أحافظ على كرسي أجلس عليه، وإنما أريد أن أطبق أحكام الله في الأرض.

وكانت هذه من القضايا التي سببت حرجاً لأمير المؤمنين عليه السلام، ولها نظائر من القضايا كثيرة، فمن هذه القضايا أن الحاكم اليوم مثلاً لو كانت عنده جريدة تخدمه، فتنشر له أخباره يومياً وتثير وجوده وتفخمه وتعظمه وتدعمه فكريأً، فإنه يلتزمها وإن كانت باطلة. والشعراء في عصر أمير المؤمنين عليه السلام كانوا صحفاً سيارة، فالشاعر يذود ويدافع ويبرر ويحسن ويقبح، وللشاعر منزلة كبيرة، لكن إذا ارتكب الشاعر العصيان وشرب الخمرة، فما المبرر لعلي عليه السلام ألا يقيم عليه الحد؟ وهذا ما حدث له عليه السلام مع جرير الشاعر المعروف، فقد كان يشرب الخمرة، وفي الوقت نفسه يريد عطاء من أمير المؤمنين عليه السلام من الحق الشرعي. والحق الشرعي لا يمكن أن يعطيه الإمام عليه السلام لمن يصرفه بالحرام، وهذا ما يذهب إليه المسلمون كلهم؛ ففي ذلك إعانة على الإثم، فلم يكن الإمام مستعداً لأن يعطيه،

فالتحق بمعاوية^(١). في حين أن غير علي بن أبي طالب يبحث عن ألف طريق لتبرير مثل هذه العمل.

لقد كان ابن هرمة شاعراً أديباً، وقلمًا من الأقلام ذات المنفعة، وكان صديقاً للمنصور، فلما وفد على المنصور سأله: ألك حاجة؟ قال: بلى، حاجتي أن توزع إلى الوالي ألا يلحقني في الخمرة بأن يقيم على الحد فيها؛ فإنني لا أصبر عليها. فقال المنصور: لا أستطيع أن أفعل ذلك أمام الناس وأعطل حدًا من حدود الله، ولكن اذهب وسوف ترى.

ثم بعث المنصور إلى الوالي فقال له: إذا جاءك من يشهد أن ابن هرمة شرب الخمر، فاجلد ابن هرمة الحد ثماني سوطاً، واجلد من شهد عليه مئة سوط. فراح ابن هرمة يسكر في الشارع ويصبح: من يشتري ثماني بمئة؟ فلم يتجرأ عليه أحد^(٢).

وهذا لون من التحايل على حدود الله. ولكن الضمير الذي حمل الله في داخله لا يمكن أن يتسامل في موقف فيه إساءة للدين ولو بقييد شعرة. فالآية تقول للنبي ﷺ: أنت موقف، فلا يُزِّلك هؤلاء عن موقفك، وأنت تحمل للناس التعليم، وهذا التعليم يدرّبهم على المبادئ الكريمة، فلا تتغىّر إزاء ذلك.

المبحث الثالث: في الافتداء على الله ورسوله ﷺ

ثم قالت الآية: «لتَفْتَرَى عَلَيْنَا غَيْرَهُ»، وهذه أشدّ من سابقتها، فهم يقولون له: كما جعلت مكة بلداً حراماً آمناً، فاجعل وادينا مثلها. فالله حرم فيها

(١) حوار مع الشيعة (الجبرى): ٢٠٣، السيف والسيفية (الورداوى): ١٢٦ عن بعض الكتاب، وانظر الدولة الأموية (الحضرى): ١: ٢٨٨.

(٢) جواهر الطالب (ابن الدمشقى): ٢: ٣١١، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٧.

سفك الدم واللجاج والعناد أثناء الحجّ، فقل في وادينا: إن الله قال فيه: إنه محرم، ليعرف العرب فضلنا، أي انسُب إلى الوحي ما ليس منه. فأجابهم النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بأن هذا لا يمكن أن يكون أبداً. وهذه أيضاً من النقاط الخطرة، فالكل يلاحظ في تاريخ القمم التي حكمت في أمتنا أن الحكم يبحث عن جماعة يبررون وجوده ويثبّتون أعداءه، فمثلاً يدخل أحدّهم من يعتبرونه من الفقهاء على الحجّاج، والحجّاج معروض في أن وسيلة للحكم هي سفك الدم ونشر الرعب والإرهاب، فيبرر له هذا «الفقيه» عمله بقوله: إن الله إذا استرعى عبداً رعية كتب له الحسنات وأسقط عنه السيئات^(١)!

فهذا يقول له: إن الله هو الذي ولّك على هؤلاء هذا أولاً، وثانياً: إن الله سيكتب لك الحسنة ويمحو عنك السيئة. فلماذا هذا؟

قد يقول قائل: هل إن هذا التيار موجود فعلاً عند المذاهب الإسلامية؟ فأقول: نعم، هذا صحيح، إنه موجود مع الأسف، ويعزّ علىي أن أصرّح بهذا المعنى. فهناك من حكم، ولمجرد أنه حكم صار مقدساً. وأكبر دليل على ذلك أنهم يطلقون عليه لقب الخليفة، كالوليد ويزيد بن الوليد^(٢)، ثم يفترضون طاعته، ويررون أن من يبيت ليلة وليس في عنقه بيعة لهم ثم يموت فإن ميتته ميتة جاهلية^(٣). مع أنه إنسان كله ثغرات

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ١٧: ٦١، فتح الباري ١٣: ١٠١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢٠١: ٢، وفيها ردّ الزهرى لهذا الحديث.

(٢) قد مرّ ما كان من أعمال هؤلاء وأمثالهم في ج ٣ ص ٩٢ - ٩٣ من كتابنا هذا.

(٣) انظر: صحيح مسلم ٦: ٢٠ - ٢٢، السنن الكبرى (البيهقي) ٢: ١٥٨ - ١٥٩، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢: ٢٢٩، التمهيد: ١٥٢.

وعيوب ، فكيف يطلب منا أن نتعبد ونتقرب إلى الله بإطاعته؟^(١)
يروي البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه لما حدثت واقعة
الحرة في المدينة جمع أولاده وأهله فقال لهم: إذا بايع الناس أحداً ثم
غدروا به فقد غدروا بالله ، وللغادر لواء يُرفع يوم القيمة . فتمسّكوا ببيعة
يزيد^(٢) .

وهذا الذي يرى أن من ينكث بيعة يزيد يكون غادراً يقال له: ما المبرر لك
في طاعة هذا الرجل؟ إنه كان يجلس على منبر المسلمين ويقول:

أقول لصاحب ضفت الكأس شملهم
وداعي صبابات الهوى يترئم
خَدُوا بِنَصْبِهِ مِنْ نَعِيمِ الْدُّرْ^(٣)
خَلُّ وَإِنْ طَالَ الْفَدْيَ يَتَضَرِّمْ

كان هكذا في الخمرة ، أضف إلى لعبه بالقرود والمهود^(٤) ، ومع ذلك يرى
ابن عمر التمسك بطاعته ، والمبرر هو أن يزيد صار حاكماً . بل الأكثر من
ذلك أن هناك حملات على الذي ينتقد واحداً من حكم . وأقولها ببالغ
الأسف: إن مثل هذا الفكر لا يطارد وإنما يطارد من يتمسك بقوله تعالى:
﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَقْسَمُنَّ النَّازَ﴾^(٥) .

فمثل هؤلاء ينسبون إلى الله ما لم يقل وما لا يريد ، من مثل «إن الله إذا
استرعى عبداً الخلافة كتب له الحسنات ومحا عنه السيئات»^(٦) . وفي

(١) انظر محاضرة (موقف الإسلام من الجور) في ج ٣ ص ٨٥ - ١٠١ من كتابنا هذا.

(٢) صحيح البخاري ٨: ٩٩، وانظر صحيح مسلم ٦: ٢٠٧ - ٢٢٢، قريب منه.

(٣) جواهر المطالب ٢: ٣٠١.

(٤) انظر: شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٢٣، البداية والنهاية ٨: ٢٣٩، النزاع والتخاصم (المقريزي) ٥٦.

(٥) فتح الباري ١٢: ١٠١، شرح نهج البلاغة ١٧: ٦١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢: ٣٠١، وفيها أن الوليد بن عبد الملك سأله ابن شهاب عنه فكتبه.

المقابل يحاولون أن يحطموا أولياءه، فيبتكرروا حديباً ينسبونه للنبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فمثلاً ينبرى أحدهم ليقول: قال النبي: إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء^(١).

من هم آل أبي طالب الذين هم ليسوا بأولياء للرسول ﷺ؟ أجمعوا^(٢) ذو الجناحين الشهيد الذي لفعته دماء الشهادة، الطهر الطاهر الذي ملئ إيماناً من قرن إلى قدم، أم علي بن أبي طالب^(٣) إمام المتقين، أم سيد العرب عقيل بما له من مزايا ومكانة، أم جمانة بنت أبي طالب المؤمنة الصالحة^(٤)؟ أهؤلاء ليسوا أولياء لله! فإن لم يكونوا كذلك فمن هو ولـي الله؟ سمرة بن جندب^(٥)

والمصيبة أن الرواية تقرؤها في كتاب يعتبر الثاني بعد القرآن، فلماذا يأثرى يوجد مثل هذا اللون من النقل الذي يحرّك في النفس؟ ومعنى هذا أنك ترى مثل هذا الرافد في حضارتنا الفكرية الدينية يفترى على الله

(١) صحيح البخاري ٧: ٧٢، وفيه: آل أبي []، قال عمرو: في كتاب محمد بن جعفر بياض، صحيح مسلم ١: ١٣٦، وفيه: آل أبي، يعني فلاناً، لكن يؤيد أن المقصودين هم آل أبي طالب، ما في فتح الباري ١٠: ٣٥٢، شرح نهج البلاغة ٤: ٦٤ عن البخاري ومسلم، ١٢: ٨٨، صحيح مسلم بشرح النووي ٣: ٨٧، قال النووي بعده: الكتابة بقوله: «يعني فلاناً» هي من بعض الرواية، خشي أن يسميه فترب عليه مفسدة وفتنة.

(٢) أم أم هانى التي أجار رسول الله ﷺ من أجارت وهو أخوا زوجها هيبة بن أبي وهب المخزومي، وكانا ضمن من هرب عند الفتح، وذلك بقوله ﷺ: «قد أجرنا من أجرنا يا أم هانى». الموطأ ١: ١٥٢، مسند أحمد ٦: ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، صحيح البخاري ٧: ١١٠.

(٣) الذي يروى أنه قتل في يوم واحد ثمانية آلاف شخص في البصرة، ولم يفرق ويميز بين خارجي ومسلم. وحينما اعترض عليه في قتل المسلمين قال: الخارجي يعجل به إلى النار، والمسلم يعجل به إلى الجنة. انظر: تاريخ الطبرى ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، التصانع الكافية: ٧٦.

كذباً.

فالآية تخاطب النبي ﷺ باعتباره عنوان الخطاب، والأفالمة هي المعنية بالخطاب. فمن يفتر على الله تهدده الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَنْتَ نَحْنُ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾^(١)، وقال: ﴿قُلْ أَتَخَذُتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

فالآية مقام البحث تقول للنبي ﷺ: إن هؤلاء يحاولون أن يزعزعوك ويقربوك إليهم كي تميل إلى اختراع شيء وتنسبه إلى الله تعالى، وهذا افتراء على وحي السماء.

المبحث الرابع: في اتخاذ الكافرين أولياء

ثم قالت له: وإنك لو فعلت ذلك لهم ﴿إِذَا لَاتَّخِذُوكَ خَلِيلًا﴾. فالنبي ﷺ له خلة مع الله تعالى، وهو تعالى ناجي الأنبياء ﷺ كما في قوله لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا أَخْتَرُكَ فَاسْتَغْفِرُ لِمَا يُوحَى﴾^(٣). فالآية الكريمة تقول له ﷺ: إنك لو أطعت هؤلاء صرت خليلاً لهم ولم تعد خليل الله، بل تنفصل عن ولاية الله إلى ولاية هؤلاء الظلمة. وهذا في الحقيقة تهديد مرعب.

الحجاج والأعرابي

ومما له صلة بهذه المعنى حادثة حصلت للحجاج، ذلك أنه كان في الحج ذات يوم، وكان الزحام شديداً على الكعبة، فلم يستطع الطراف، فوضعوا له طنفسة في طرف من أطراف البيت واتكأ عليها. وفي هذه الأثناء مرّ أعرابي يلقي بصوت عال ملفت للنظر. فقال الحجاج: علىي به.

(١) البقرة: ٨٠.

(٢) يونس: ٥٩.

(٣) طه: ١٣.

فلما جاء به سأله: ممن؟ قال: من بطن أمي. قال الحجاج: أعني من أين استقصي أثرك؟ قال: من ظهر أبي. قال الحجاج: بل أعني من أين جئت؟ قال: من الطائف. قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ (وهو آخر الحجاج، وكان والياً على الطائف). قال: تركته عظيماً جسيماً خراجاً ولاجاً، لباساً حريراً، أكلأ شارباً، يلعب بأموال عباد الله. قال الحجاج: أنا لا أسألك عن سيرته الذاتية، وإنما أسألك عن سيرته الاجتماعية مع الناس. قال الأعرابي: تركته ظلوماً غشوماً، أمراً بالمنكر تاركاً للمعروف، عاصياً لله، مطيناً للناس. قال: أتقول ذلك وأنت تعلم موضعه مني؟ قال: بلـ، أنا زائر لنبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووافد على بيت الله، أفتراء بمكانة منك أعز مني بمكانتي من الله ونبيه؟

فسكت الحجاج، وخرج الرجل من بين الصنوف دون أن يشعر به أحد، فتبعد طاووس الذي كان جالساً في المجلس، فقال له الأعرابي: ما تريد؟ قال: إن موقفك هذا أعجبني، وأحببت أن أنتفع بصحبتك. فقال الأعرابي: أنت صاحب الوسادة؟ وكان قد ثنيت له وسادة يجلس عليها جنب الحجاج. قال: بلـ، هذا رجل قوي، وكما طلبك طلبني. فقال: أما كان من ورفك ما يردعك عن الاستقرار بمجلسه؟ ثم قال: وإنك تطلب مني الصحبة؟ قال طاووس: بلـ. قال: لا، إن لي صاحباً يغار علي، ولا أريد أن أترك صحبته^(١).

فالآية تقول للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن هؤلاء لو ملت إليهم لاتخذوك خليلاً ولن تكون حينها حبيباً لله. وقد كان أبو الزهراء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبيب الله حقاً، فقد وقف في

(١) جمهرة خطب العرب ٣: ٣٢١ - ٣٢٢، ولم ينقل حديث طاووس معه.

الليالي المظلمة حتى انتفع الساق وورم القدم ونزل عليه قوله تعالى: «(طه) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتُشْقِي»^(١). فقال ﷺ: «حبيبي أ فلا أكون عبداً شكوراً؟»^(٢).

هذا هو خطط آل محمد ﷺ، إذا جنّ عليهم الليل تجدهم ذاتين بالله عز وجل. فهكذا كان رسول الله ﷺ، وهكذا كان خليله وأخوه وصفيه على بن أبي طالب رض. يقول حبة العرني: بنت عنده ليلة فرأيته عند منتصف الليل شبيه من طار عقله، يتلمس الحيطان ويقول: «ربى ليت شعري أفي غفلات معرض أنتعني، أم ناظر إليني؟ مالي كلما طال عمرى كثرت خطاياي؟». ولم يهدأ إلى الصباح^(٣).

وكان أولاده هكذا، لا في اللحظات الاعتيادية التي يكون فيها الإنسان على وعي واتجاه إلى الله، وإنما حتى في أحراج ساعة تمر بهم، فكان أبو الشهداء عليه السلام يرمي السماء بطرفه في لحظاته الأخيرة ويقول: «لك العتبى يارب، صبراً على قصاصك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى»^(٤). فحتى هذه اللحظات العصيبة لا يجعلهم ينفكون عن الله أبداً، على الرغم من الارتباط بأسرهم وأولادهم وأهليهم. فالإمام

(١) طه: ١ - ٢.

(٢) الكافي ٦/٢٥١:٤، مسندي أحمد ٢٥١:٤، وليس فيهما: حبيبي، فالحديث فيهما خطاب منه عليه السلام لمن سأله: لم هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.(٣) لم نعثر عليه عن أمير المؤمنين عليه السلام، و قريب منه ما يرويه طاوس عن السجاد عليه السلام ، انظر: مناقب آل أبي طالب ٣:٢٩١، المزار (المشهدي) : ١٤٢ - ١٤١، وسيذكره المحاضر فيما سيأتي، انظر محاضرة (قبسات من حياة الإمام السجاد عليه السلام).(٤) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرئ) : ٣٥٧، ينابيع المودة .٨٣:٣

الحسين عليه السلام في لحظاته الأخيرة يرفع رأسه إلى السماء ويقول:

تركتُ الخلق طرفاً في هؤا كا
وابتمنَ العيال لكي أراكا
فلو قطعْتني في الحب إرباً
لما مال الفؤاد إلى سواكى^(١)

وأي علاقة كانت له مع أهله؟ خصوصاً مع أخيه زينب رض؟ إنها علاقة لا يقوى الإنسان على تصويرها؛ لأنها درجت معه من طفولتها.. من حجر فاطمة إلى حجر على عليه السلام في أرجاء ذلك البيت، لا تكاد تفارقه.. وجهه ملء عينيها، لا تبتعد عنه الليل ولا النهار.

لقد كانت رض في بيت عبد الله بن جعفر، لكنها تركت بيتها وأولادها وجاءت مع الحسين عليه السلام، فتبعها ولداتها محمد وعون، وقتلها بالطفق، فلم تذكرهما أبداً، وإنما كانت مغمورة بالحسين عليه السلام، وقد صعب عليها مصروعه، وجعلها لا تهدأ الليل ولا النهار.. تدخل إلى داره عليه السلام فترى صورته أمامها، وطيفه يناديها، وتخرج فترى مواطن قدمه من الأرض التي درجا عليها معاً. فكانت أينما ذهبت تلاحظها أنفاسه فتملاً عليها أحاسيسها، فكانت إذا جن عليها الليل تنتجه إليه:

أعيش وياك حلم بفوم	وصوره من أعدد من النوم
ما بسيه ابتعد عنك	أريد وياك اعيشن دوم
على بي بكر بلا عفتة	يرف عالغير رف الحوم
وانسه هنا بكمايا روح	تعيش احزانها وتنعاد

(١) سبق أن نوهنا في ج ٢ ص ٣٣٦ من المعاشرات إلى أننا لم نعثر على من ينسبه الإمام الحسين عليه السلام، بل هما ينسبان لأحد أبناء إبراهيم بن أدهم. انظر تاريخ مدينة دمشق ٢٠٦:٦

لو يسمك يبو السجاد
وعيونك يخلوني
أحط راسي على كبرك
وارشه بدمعه عيوني
أقضى العمر كله هناك
واكون للسيلوموني

هذى الطفوف ومنها بالحشا شغل
من نساشدلى أحباباً بها قُتلاوا
من طيبة تزغوا فسي كربلا أفلوا (بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا
وخلقا في سويدا القلب نيرانا) ^(١)



(١) انظر البيت المخمس في شجرة طوبين .٩٠ : ١

﴿٦﴾

اتباع الرسول ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْشُوفًا عَنْهُمْ فِي الشَّوَّارِعِ
وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَغْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
الثَّنَكَرِ وَيَعِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِيهِمْ
الْغَبَائِثِ﴾^(١).

مباحث النص الشريف

المبحث الأول: وجه الجمع بين النبي والرسول

يفرق العلماء بين النبي والرسول ، فالرسول هو من يرسل ويبعث للناس عامة ، أما الذي يبعث إلى منطقة خاصة كأن تكون مدينة أو قرية فهونبي.

والرسول يجمع الاثنين؛ فكل رسولنبي ، وليس كلنبي رسول .
لكن يرد هنا سؤال هو: لماذا جمعت الآية بين الرسول والنبي؟ وما هي الحاجة للنص على النبوة والرسالة؟ إن هذا سيتضمن من خلال البحث إن

شاء الله تعالى ، إن وجه التأكيد على (الرسول النبي) في الآية هو أنها تريد أن تبيّن أن الأشياء التي يأمر بها وينهى عنها ليست من عنده ، بل هو مجرد رسول يحمل رسالة السماء ، أي أنه واسطة وقناة بيننا وبين السماء التي تأمره وهو ينفذ . وهذا الجانب له أثر نفسي ، فعندما يعرف الإنسان أن هذه الأحكام من الإنسان نفسه وليس من السماء ، فليس من السهل أن يتبع صاحبها ؛ لأنه بشر يخطئ ؛ ولهذا فإننا حينما نتبع الفقيه فليس لشخصه ، بل باعتباره ممثلاً للشرع ولرأي الإسلام ، فهو وإنما يستتبط الأحكام الشرعية من الآية أو من الرواية .

فعندما نعرف أن الحكم من الله ، وأن الرسول هو ناقل للحكم ، فحينها نقول : إن الله هو الذي يحكمنا ويوجهنا ، وإن الرسول مجرد واسطة بين الأرض والسماء . وهذا المعنى يخفف الوطأة على النفوس .

تقول الآية الكريمة : **(الَّذِينَ يَتَبَرَّغُونَ الرَّسُولَ النَّبِيُّ الْأَمِيُّ)** ، وهي تصف النبي عليه السلام بالأمية ، فما هو وجہ الوصف هذا ؟ وربما يقول قائل : إن الأمية جهل وعمى ، ولذلك فإن الدول الراقية ترصد أموالاً ضخمة لتخلص شعوبها من الأمية ، فالأممي يعيش في ظلام الجهل ، فكيف يكون هذا الحال مع الرسول عليه السلام ؟ إن عندنا نوعين من الأمية ، هما الأمية الحضارية ، والأمية الأبجدية . والمقصود هنا في هذه الآية الكريمة الأمية الأبجدية ، والأمية الأبجدية هي التي لا يجيد صاحبها القراءة والكتابة ، في حين أنه حضارياً يمتلك معلومات لا حصر لها ، أما الأمية الحضارية فيقصد بها الأمية التي لا يملك الشخص معها مقومات المعرفة ، والمعلومات ، بل إن ذهنه خالي من أي شيء ، ويفتقرا إلى الفكر الثقافي .

إذن فالآية الكريمة إنما تنتهي إلى النبي عليه السلام بالأمية الأبجدية ، أي أنه عليه السلام لا

يقرأ ولا يكتب.

لكن مع هذا يبقى الإشكال وارداً، وهو أن الأمية نقص، والنقص لا يمكن أن يكون في النبي، فلماذا أرسل الله نبياً أمياً؟ إن هناك أمية عند البعض، لكن مع قدرته على ممارسة القراءة والكتابة لو أراد ذلك، فنعتبر عنه بأنه أمي؛ لأنه لم يمارسها، لكن القابلية على القراءة والكتابة موجودة. وهناك من يميل لهذا الرأي، فيقرر بأن النبي ﷺ يستطيع أن يقرأ ويكتب لكنه لم يمارسها.

إن الأمية إذا كانت عند الناس نعcessاً، فإنها عند النبي فضيلة؛ لأن قريشاً سترتهمه بأن القرآن كان من عنده، وهكذا فلو أنه ﷺ كان يقرأ ويكتب فإن التهمة ستثبت عليه: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأُولِيَّنِ اخْتَبَرُهَا فَهِيَ تُفْلِي عَلَيْهِ بُخْزَةً وَأَصْبَلَهُ»^(١)، فأراد الله جل وعلا أن يبين أن النبي ﷺ أمي لا يعرف القراءة والكتابة، ولأجل هذا فالقرآن ليس منه؛ لأن الذي يخطئ لابد أن يحسن القراءة والكتابة. فالله تعالى يريد أن يدفع هذه الشبهة. ومع كل هذا فإننا لازلنا إلى الآن نسمع من المستشرقين وأعداء الإسلام وبعض الغربيين أن النبي ﷺ هو الذي اخترع القرآن ليحكم العرب، ووعدهم بالجنة وخوّفهم بالنار. فالعرب تنقصهم روضة خضراء، وأنهار وثمار متنوعة؛ لأنهم يعيشون في الصحراء، فصور لهم جنة الله الواسعة التي فيها هذه الأشياء.

فانظروا إلى هذا التفكير الأبله، فإن النبي ﷺ لم يبعث للعرب فقط، وإنما بعث للدنيا كلها، ومن جملته أوروبا، وأوروبا عبارة عن جنات بالنسبة

(١) الفرقان: ٥، «وَمَا كُنْتَ تَتَلَوُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُلُهُ يَتَبَيَّنُكَ إِذَا لَأْرَاتَكَ الْمُبَطِّلُونَ».

بعض بقاع الأرض ، فما قيمة وعدهم بالجنة؟ هذا فضلاً عن أن كل الكتب السماوية تصور الجنة بالصورة نفسها التي يصورها القرآن ، مع أن التوراة والإنجيل نزل قسم منها في أوروبا . ثم إن هؤلاء ليسوا أنفسهم عن هذه المفاهيم الحضارية الموجودة في القرآن من أين جاء بها النبي ﷺ ، وهو يعيش في الجزيرة العربية التي كانت تعيش الجahلية ، ولا تمتلك مصادر العلم والمعرفة ، فكانوا يعيشون أنماطاً من العقائد النافحة في الجزيرة العربية؟ ومن هذه الأنماط أن أحدهم إذا مرض فإنهم ينجزون ملابسه حتى يطردوا الشر أو الجن عنه ، يقول أحدهم :

فلو أن عني جارتين ورامياً وعلق انجاساً على المعلق^(١)

فمن أين جاء النبي ﷺ بهذه المعلومات الضخمة الموجودة في القرآن لو لم يكن من الله عزّ وجلّ؟ فهؤلاء يطعنون في القرآن ولم يستتبوا إلى الثغرات التي ترد عليهم . فالإسلام يحمل للدنيا زاداً لا ينقطع ، ويضع لها مبادئ ليصلحها ، وفي القرآن قواعد عامة لكل ذلك . إذن فالآمية التي أشار إليها القرآن فضيلة بحق النبي ﷺ؛ لأنها تنفي وتطرد تهمة أنه ﷺ قد خطّ القرآن بيده .

المبحث الثاني: كفمان الحق

ثم قالت الآية : **«الذِي يَجْدُونَهُ مَخْتُوبًا عَنْهُمْ فِي التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ»** ، أي أن هؤلاء قد اطلعوا على وصف النبي ﷺ في التوراة ووصفه في الإنجيل ، لكنهم لا يبشرون به؛ لأنهم إذا بشروا به فقدوا مراكيزهم الدينية ووظائفهم ، ثم انهم بعد لا تهمهم الحقيقة . سأله مروان : هل تعتقدون أن

(١) البيت للمرقب العبدي . شرح نهج البلاغة ١٩ : ٣٩٨ .

الإمام علياً قد اشترك في الأحداث ضد الخليفة الثالث عثمان؟ قال: معاذ الله، وإن الإمام علياً أبرا الناس من هذا، بل إنه بعث أولاده للدفاع عنه. فقيل له: فلماذا تشيرون بين الناس بأنه قد شرك في دم الخليفة الثالث؟ قال: لأن أمرنا لا يستقيم آلاً بهذا^(١).

فهذا الرجل صادق مع نفسه، ونحن نرى في تاريخنا الكثير ممن إذا مرّ ذكر الإمام علي عليه السلام أعرض عنه، وإذا مرت برواية له أعرض عنها، مع أنه تراث إسلامي كبير؛ فإن أهل البيت عليهما السلام للناس كافة، وإن آل محمد عليهما السلام عطاء للأمة الإسلامية كلها. ومعلوم أن ترك ذلك وعدم ذكره لأجل المكانة والمال، مع أن المفروض بهذا أنه يكتم علمًا، وسيحاسبه الله عليه^(٢). فنحن نأخذ الحكم الشرعي من أي مذهب إسلامي إذا استكمل الشرائط.

والأغرب من هذا أن الرشيد يبعث إلى جماعة من القضاة والمفتين ويقول لهم: إذا مررت برأي علي بن أبي طالب فلا تأخذوا به. فهو لاء وقفوا موقفاً معادياً لعلي بن أبي طالب عليهما السلام بكل ما في الكلمة عداء من معنى. بل إن الرشيد قال لهم: إذا مررت بأية في القرآن تنتوه به فأعرضوا بوجوهكم عنها. وغير خفي أن هناك روايات عديدة لأعداء أهل البيت عليهما السلام تشهر بالإمام علي عليهما السلام، لكن هذا لا يضره، يقول الشاعر:

عِدَى لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيْهِ وَمِنْهُ فَلَا بَعْدَ الرَّحْمَنِ عَنِ الْأَعْدَادِ

(١) الصواعق المحرقة ١ : ١٦٣.

(٢) قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا يَبَيَّنَ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْأَعْنُونُ» البقرة: ١٥٩، وقال عزّ من قائل: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ يَهْ تَمَّاً قَلِيلًاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بَطْوَنِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَرَكِبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» البقرة: ١٧٤.

مُمْ فَتَشُوا عَنْ زَلْطِي فَاجْتَنَبُهَا وَمِمْ نَافِسُونِي فَارْتَقَيْتِ الْمَعَالِيَا^(١)

ثم قالت الآية الكريمة: **﴿يَا أَيُّهُمْ مَا يَنْعَزُونَ وَيَنْهَا هُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾**، وهنا مكمن المشكلة، حيث إنه **﴿أَنْكَرُوا﴾** أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ولم يسكت؛ لأنَّه وضع يده على مكامن النقص في حضارتهم، فوقفوا بوجهه، فقد فند مزاعمهم، وأبطل الكثير من معتقداتهم.

المبحث الثالث: معنى الطيبات والخبيث
 نأتي إلى المقطع الأخير من الآية الكريمة، وهو مركز الثقل فيها، حيث يقول: **﴿وَيُحَلِّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾**، إن للمفسرين هنا آراء حول هذا المقطع الشريف، سوف أحمله ببعض النقاط:

النقطة الأولى: أن الإسلام مساوق للنطرة

يقول بعض المفسرين: إن الإسلام مساوق للنطرة، أي أن المستلزمات النفسية يبيحها الإسلام، أما الأشياء التي تنفر منها الطباع والنفس فإنه يحرِّمها، فالطيبات هي ما كانوا يستطِبونه، والشيء الطيب محلل لهم، أما الخباث فهي الأشياء المستقدمة، فقد حرَّمها الإسلام عليهم. وهو بهذا يساوق الفطرة، أي يسير مع الطبيع. وهذا الرأي غير مقبول؛ لأن هذه القضايا أمور نسبية، فقد تجد بعض الأمم تستطِيب شيئاً، في حين أن أمماً أخرى تنفر منه، فال الأوروبيون مثلاً يأكلون حيوانات عجيبة يستخرجونها من البحر، بل إننا نجد هذا حتى عند بعض المسلمين، كما أن بعض المسلمين يأكلون الأربب والضب في حين أن بعض المسلمين لا يطِقون

(١) البستان لأبي حيان الأندلسي. الكتبة والأمثال ١: ٦١.

أكل ذلك كله.

وبغض النظر عن آراء الفقهاء في حليتها وحرمتها، فإن هناك شعوباً تتدوّق هذه الأكلة، وغيرها لا تتدوّقها. فالطبيات إذن لا يمكن أن تعتبرها عنواناً عاماً، والقرآن عندما يذكر الطبيات والخبائث لا يترك الذوق يتحكّم بها؛ فنحن نتبع ما قاله الله في الطبيات والخبائث من أن هذا طيب وهذا خبيث حسب ما قاله الله تعالى لنا؛ لأننا لا نعرف أسرار الأشياء.

الأثار الوضعية للأطعمة

ومن المعلوم أنه توجد أثار نفسية لبعض الأكلات، وقد تعرّض أكلها لإصابته بالمرض بعد ذلك. ولذا فإننا يجب ألا نتدخل في تحطيط السماء، ولا في تكليفها، فما هو حجم الإنسان من الدنيا لكي يقابل الله؟ إن هذا هو منتهى الغرور.

وعليه فهذا الرأي - وهو أن الدين مساوق للفطرة فيما نحب ونكره - لا يمكن أن نقبله، فإن هناك أشياء قد ترفضها الفطرة، مع أنها ترتب عليها مصلحة جسدية لا نعرفها.

فعلينا إذن أن نتبع ما رسمته السماء لنا، فالشرع الإسلامي أعطانا مواصفات السمك الحلال، وحيوانات البر إذا لم تكن من الحشرات ومن السباع، وليس لها ناب أو ظفر فهي حلال، أما إذا كانت من الحشرات والسباع فهي من الخبائث. وكذلك أعطى مواصفات الطير فإذا كان صفيقه أكثر من دقيقه أو إذا لم يملك حوصلة فهو حرام. فالله تعالى يَبَيِّنُ لَنَا ذَلِكَ كُلَّهُ، وهو الحكيم، بل هو خالق الحكم.

النقطة الثانية: في الحسن والقبح الذاتيين

إن قوله تعالى: «وَيَجْلِلُهُمُ الطَّيْبَاتُ وَيَخْرُمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ» يقرّر أن هناك

حسناً وقبحاً ذاتين للأشياء. وهذه المسألة موضع نزاع بين المذاهب الإسلامية، فمتى نسمى هذا الشيء حسناً ومتى نسميه قبيحاً؟ المذاهب الإسلامية تقول: إن القبيح ما قبحه الله، والحسن ما حسن الله؛ فإنه يجوز لله أن يعذب المطبع، ويرفع العاصي ويدخله الجنة، فالذى يقضى عمره بالصلوة والصوم والعبادة لا ضير في أن يضعه الله في النار، والذي يقضى عمره بالفجور والرذائل لا ضير في أن يضعه الله في الجنة. فهو تعالى يفعل ما يشاء.

وهذا الكلام غير مقبول، لأن هذا ظلم، والظلم قبيح، والله تعالى لا يقدم على القبيح، وبالتالي لا يقدم على الظلم. فإذا نعم العاصي فإنه فرق بين المقاييس، والله تعبدنا بالعقل والمقاييس. ولذا فإن ابن قيم الجوزية (وهو تلميذ ابن تيمية) يذهب إلى الحسن والقبح العقليين، أي أنه لا يذهب إلى أن الحسن والقبح هما ما حسن وقبحه الشرع. فالشرع يرشد إلى الحسن والقبح العقليين، وهذا الذي عليه الشيعة. سألاً أعرابياً: بماذا بعث الرسول ﷺ؟ قال: إنه لم يجيئ بشيء وقال عنه العقل: إنه قبيح، ولم ينـه عن شيء وقال عنه العقل: إنه حسن؛ فهذا دليل على أنه على حق. فهذا الأعرابي أفضل من هؤلاء الذين يقولون: إن الحسن ما حسنـهـ الشرع، والقبيح ما قبحـهــ الشرع، ومن يقل بأن الله يمكن أن يأتي بشريعة ثم يأتي بضدـهاـ فليراجع متبنياته العقلية والفكرية.

فهذا المقطع من الآية تستدل منه على أن الأشياء لها صفة ذاتية، أما الأشياء المادية أو بعض الأعمال فنحن نعرف أن بعضـاًـ منها قبيح، كالسرقة والخيانة قبل أن يقول الشارع لنا ذلك، وكذلك الإحسان إلى الناس فهو أمر حسن قبل أن يقول لنا الشارع بأنه أمر حسن. والشرع إنما

يرشد لهذا؛ فإن العقل نبي داخلي والشرع نبي خارجي . ومن لم يكن لديه عقل فإن الله لا يكلفه ، فالأبله لا يكلف ، ذلك أن العقل مناط التكليف وملاكه ، أي أن له القابلية على تمييز الأشياء ، ومعرفة القبح والحسن ، وأن الله تعبدنا بهذا : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكَرًا لِّقَوْمٍ يَغْفِلُونَ»^(١) ، و: «مَنْ فِي ذَلِكَ قَسْمٌ لِّذِي جَنْبِرٍ»^(٢) ، أي ذي عقل ، و: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَغْقِلُونَ بِهَا أَوْ أَذْنَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْنِي الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْنِي الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»^(٣) .

فالله يأمرنا أن نحكم عقولنا ونفكّر ، ولو لم يكن العقل حجة ما أحالنا إليه ، ومن هذا نعرف أن الله تعالى تعبدنا بالعقل ، والإنسان إذا جُرد من العقل فإن الحيوان يصبح أفضل منه ، وإذا ألغى العقل ألغى التكليف ، والله لا يأمرنا بما يخالف العقول ، فإن الله عبد وعرف بالعقل .

سأل النبي ﷺ عجوزاً: كيف عرفت ربك؟ قالت: إن عندي دولاباً ألف عليه المغزل ، يستغل بحركة يدي ، ويتوقف إذا لم أحركه ، وأنا أرى الشمس تطلع وتغرب ، والأرض تمر بأحوال مختلفة حيث الليل والنهار ، والمراسم كلّاً في وقته ، فعلمت أنه لا بد من وجود أحد يديره ، فإذا كان هذا الدولاب لا يتحرك إلا إذا حرّكته فكيف بهذا الكون؟ فهذا تحكيم للعقل ، فالأشياء لها حسن وقبح عقليان.

النقطة الثالثة: الحرية الفكرية

إن هذا المقطع الشريف يدلّ على تحرير البشر من المؤسسات التي

(١) الرعد: ٤، النحل: ١٢، الروم: ٢٤. (٢) الفجر: ٥.

(٣) الحج: ٤٦.

تحكم في تفكيره؛ لأن السماء هي التي تحدد لنا الطيب والخبيث بمساعدة عقولنا. فالله تعالى خلق لنا هذه العقول ومنحنا القدرة على التفكير، ووضع لنا القواعد التي نستطيع عبرها أن نعرف الصحيح من غيره. فهذه الضوابط هي من وضع السماء، وليس من هؤلاء الذين يطرحون رأيهم بلا دليل كالأخبار والرهبان، فهو لاءً مثلاً كانت أغلب آرائهم مناطها التحكم^(١)، كما في مسائل الزواج والطلاق، حيث أباحوا زواج المحارم كالمحوس، فإن المحسوس يباح له أن يتزوج بنت أخيه وبينت أخيه. وهذا بخلاف الإسلام الذي يأمر بالزواج من الأبعد؛ لأن هذا الفعل سيؤدي إلى أن يغرس المحبة بين عائلتي الزوجين، فحينما يضم الزوج أسرة جديدة إلى أسرته، فإنه يكون قد نشر المحبة بينهما، وهذا من جملة أهداف الزواج. فبهذا الزواج تقترب هذه القبيلة من تلك القبيلة، وتتبادل المحبة والولاء بينهما، ويختلص من البلايا التي تحدث عند الزواج من الأقارب.

فهو لاء الأخبار والرهبان يتحكمون بالزواج كما يتحكمون بالطلاق، حيث يمنعونه ولا يبيحونه. وليس هذا مقتضياً على هؤلاء، فبعض المذاهب الإسلامية لها أمور عجيبة في الطلاق، فمثلاً إذا قال الرجل لزوجته: أنت بنت فقد طلت^(٢)، أما عندنا فلا يقع الطلاق إلا بلفظ الطلاق. كما أنهم يجيزون طلاق السكران^(٣) الذي يفقد عقله، فتنهدم الأسرة بقول السكران. وقد ألغيت الطلقات الثلاث في جمهورية مصر مؤخراً،

(١) التحكم: هو كل دعوى بلا دليل يعدها.

(٢) الأم: ٥، ١٢٤، الشرح الكبير: ٢، ٤٠٢، المبسوط (السرخسي): ٦: ٧٩.

(٣) مختصر المزن尼: ١٩٤، عن الشافعي، روضة الطالبين: ٦: ٢٣، فتح الوهاب: ٢: ١٢٤.

واعتبرت واحدة ، ذلك أن عندهم لو طلق الزوج زوجته بالثلاث أصبح طلاقاً بائناً ، وحرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره .

فالأخبار والرهبان كانوا يتحكمون بالطلاق والزواج ، ونحن نشاهد مقدار المفاسد التي ترتب على بعض الزيجات ، فربما لا تنسمح حياة الرجل مع المرأة ، فلابد من الطلاق حينها ، صحيح أنه أبغض الحال عند الله^(١) ، لكن إذا تعددت الحياة فلابد منه .

إذن في بيان الحال والحرام من اختصاص السماء وليس من اختصاصنا نحن ، فالعرب مثلاً كانوا يتحكمون بالسوائب والفوائل ، فالبعير إذا خرج من ظهره عشرة عشرة اعتبروه سائبة فلا يأكلونه ، ويقولون: إنه حام ، أي حمى ظهره ، وكذلك الحال مع البحيرة التي هي ناقة تلد خمسة بطون ، فيبحرون أذنها ، ويرسلونها فلا يستفيدون من لحمها . فهو لاء كانوا يتحكمون بهذا ، فجاء الدين وقال لهم: إن الله هو الذي يبيّن لكم الحال والحرام ، فشأنه ليس لكم ولا بأيديكم : «قُلْ أَللّٰهُ أَكْبَرُ لَمَّا هُمْ عَلٰى اللّٰهِ شَفَّرُوا»^(٢) .

إن بعض المذاهب الإسلامية تذهب إلى أنه لا يوجد حكم ثابت عند الله ، وإنما الحكم ما حكم به المفتى ، ونحن نقول: إن الله له حكم في كل واقعة ، والفقير أو المفتى إنما يبحث عن الحكم ، فإن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد . فالآية الكريمة إذ تقول: «وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيَعْرُمُ عَلَيْهِمُ الْغَبَائِثُ»^(٣) ، فهي إنما تقرر أن السلطة بيد الله ، ولو أنها أعطيت للإنسان فإنه سيتحكم بغيره من أبناء جلدته ، صعد الحجاج على المنبر وقال: اسمعوا

(١) سنن ابن ماجة ١: ٦٥٠، ٢٠١٨، سنن أبي داود ١: ٤٨٤ / ٤٨٧٨.

(٢) يونس: ٥٩.

وأطیعوا لیس فيها مثنویة لأمیر المؤمنین عبد الملک، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجو من باب آخر لحلت لی دماءهم وأموالهم. والله لو أخذت ریعة بمضر لكان ذلك لی من الله حلالاً^(١).

وهذا لون عجیب من التحکم بعباد الله، وهذا وأمثاله^(٢) هو الذي دفع بالحسین عليه السلام إلى أن يقف بوجه هذا التیار الجاهلی الذي حاول أن يظهر مرّة أخرى على الساحة الإسلامية، ويقف بوجه رسالة السماء، فاستحلّ أصحابه به المحارم، فرأى الحسین عليه السلام أنه لابد من جولة للوقوف بوجه الطفیان الذي تحکم بعباد الله، وقد کلفه هذا ثمناً غالباً دفعه من بیوت آل محمد عليهم السلام كافة، فقدم قرایین من أجل تحقیق اراده الله، وضھی هذه التضحیة لأجل رسالة السماء.

كان عمرو بن سعید الأشدق والیاً على المدينة، وكان آباؤه وأجداده قد قتلوا في واقعة صفين، فبعث إليه یزید برأس الحسین عليه السلام إلى المدينة؛ حتى يشمّت به ویبرد غلیل قلبه، فأخذ الرأس وصعد على المنبر وقال: يا محمد، ثار بثارات بدر. ومررت عليه مواكب النساء الأرامل واليتامی من آل محمد فتمثل بهذا البيت:

عجت نساء ببني علي غبة كعجب بنسوتنا غداة الأرض^(٣)

(١) سنن أبي داود : ٢ / ٤٠٠ ، ٤٦٤٣ ، تاريخ مدينة دمشق : ١٢ / ١٥٩ ، البداية والنهاية : ٩ . ١٤٨ - ١٤٩

(٢) ك فعل مسرف بن عقبة حينما أخذ الیعة لیزید من أهل المدينة بعد وقعة الحرّة، حيث إنه كان يقول للصحابي: تبایع على أنك عبد قن لیزید. تاريخ مدينة دمشق : ٥٤ / ١٨١ - ١٨٢ .

(٣) الإرشاد : ٢ / ١٢٣ .

وبالفعل تشفى منهم ، في حين أن بيوت آل محمد يمرّ عليها الليل وهي تعانق الأسني واللوعة ، فهذه زينب رض تأتي إلى مكان الحسين رض فتجده حالياً ، وأم البنين تخرج للبيع وتندب أبناءها ، وقد بكى مروان لها مرة حينما سمعها ، وكانت تخطّ ياصبعها أربعة محاريب وتقول : كان لي أولاد محاريبهم عامرة بذكر الله ، والآن محاريبهم خالية ، ثم تندبهم :

لَا تَدْعُونِي وَيَكْ أُمَّ الْبَنِينَ تَذَكَّرِينِي بِالْمِيَوَثِ الْعَرِينِ
 كَانَتْ بَنُونَ لَيْ أَدْعُنَ بِهِمْ وَالْيَوْمَ أَصْبَحْتَ وَلَا مَنْ بَنِينَ
 أَرْبَعَةَ مِثْلَ نَسْوَرِ الرَّبِّينَ قَدْ عَالَجُوا الْمَوْتَ بِقُطْعَ الْوَتَّينَ
 يَا لَيْتَ شَعْرِي أَكْمَأْخَبْرُوا بَانَ عَبَاسًا قَطْبِيعَ الْبَيْمَنِ^(١)



(١) شرح الأخبار ٢: ١٨٧ ، مقتل الإمام الحسين رض (أبو مخنف) : ١٨١ .

صحابة الرسول ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَتَبَعَوْنَكَ
ثَخَتِ الشَّجَرَةَ فَقُلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ
السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنْبَاهُمْ فَتَحَاهُ قَرِيبًا﴾ (١١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: منهجهنا العلمي في تقييم الصحابة

هذه الآية الكريمة فيها مضمومين عدّة، وهي ترتبط بموضوع مهمٍ من مواضيع الساحة الإسلامية، وهو موضوع يرتبط بمشاعر كل مسلم؛ لأنّه يتعلق بالواسطة بيننا وبين المصدر الثاني من مصادر التشريع، بل بين المصادرتين المهمتين: الكتاب والسنّة. وأعني به موضوع عدالة الصحابة، الذي يحتاج إلى كثير من التجليل؛ لكثرة ما قيل فيه ووضع من التقولات والأدعّاءات التي لا نصيب لها من الصحة. ومن يحرص على أن ينظر الساحة الإسلامية ويكتسح ما بها من ألغام، فعليه أن يعطي هذا الموضوع

حقه من البحث؛ ليزيل عنه الكثير من الغبار والشبهات العالقة به، والمتغلغلة في أدمغة الناس.

و قبل كل شيء لا بد من أن ننوه إلى أننا لن نألف من أن نتبرك بتراب أقدام الصحابة الظاهرين الأبرار الأوفياء الذين حملوا الكتاب والسنّة، وامتلأت قلوبهم إيماناً ورحمة^(١). وإذا كان هناك تختبط حاصل حول نقاط معينة ساخنة، أو حول شرائع معينة، فإننا نتبع معهم أسلوب القرآن الكريم في تحديد مفهومي التزكية والعدالة. ومن يملك أدنى مقدار من الإدراك والوعي والاطلاع على العلوم الإسلامية وطلب الحقيقة فإنه سيجد أن علماء الدراسة عندنا وحتى كتابنا لا يخرجون في هذا الموضوع عن إطار منهج القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة. وهذا ما نجده واضحاً بينما في الكتب المعتبرة الموثوقة عندنا في تقييم الصحابة، وسوف نمر بهذا المعنى في هذا المبحث، وما يليه من مباحث إن شاء الله تعالى.

في سبب نزول الآية الكريمة

نزلت هذه الآية الكريمة في واقعة الحديبية، وكانت هذه الواقعة سنة ست من الهجرة المشرفة؛ إذ خرج النبي الأعظم صلوات الله عليه وآله وسلامه (١٤٠٠) صحابي، فلما وصل إلى الحديبية ظنت قريش أنه صلوات الله عليه وآله وسلامه خرج لقتالهم، في حين أن الأمر لم يكن كذلك، فالنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه أرسل يخبرهم بأنه لم يجيء مقاتلاً، وإنما جاء معتمراً وأصحابه، وليجدد العهد بالبيت ويعظمواه، ولينحرروا الهدي عنده ويرجعوا. لكن قريشاً صدّوه، وقالوا له: لا تبرح المكان الذي نزلت فيه. ثم حشدوا جيشهم، وجعلوا خالد بن الوليد

(١) كسلمان المعتمدي وأبي ذر والمقداد وحبر الأئمة وغيرهم من أمرائهم.

قائداً عليه، ورابطوا هناك استعداداً لما يطرأ.

وتالت بينهم الرسل، فهناك من عَزَّ عليه أن تُسفك الدماء، فقام بدور الوسيط لحسن الأمر، وكان أحد الوسطاء بين الطرفين عروة بن مسعود الثقفي جدّ علي الأكبر لأمه. وكان آنذاك لم يُسلم بعد، فهو قد أسلم سنة (٩) هـ. وكان في تلك الأيام مع قريش، لكنه كان من العقلاء الناضجين ذوي المكانة في قريش. فجاء إلى النبي ﷺ وقال له: علام هذا الجمع؟ فبَيْنَ له النبي ﷺ أَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِالحَرْبِ وَلَا لِلنَّافِرِ، وَإِنَّمَا جَاؤُوهُوا زَائِرِينَ لِهَذَا الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَلِيَنْحِرُوا إِلَيْهِ الْهَدِيَّ وَيَرْجِعُوا.

فعاد عروة إلى قريش وأخبرهم بقول النبي ﷺ، فقالوا له: ماذا رأيت هناك؟ قال: والله لقد وفدت إلى الملوك ووفدت إلى كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه كما يعظّم أصحاب محمد مهداً. والله إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ اقتتلوا على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر؛ تعظيمًا له. وإنّه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها وأجمعوا أمركم^(١).

ولأنّ عثمان بن عفان كان قريباً لأبي سفيان، فقد بعث به رسولاً الأكرم ﷺ إلى قريش ليُرى رأيهم فيما قاله لعروة، فاحتسبته قريش وانقطع خبره، وبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أنّ عثمان قد قُتل، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: «لا نبرح حتى ننجز القوم». ودعاه ^{عليه السلام} الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فنزل قوله تعالى:

(١) صحيح ابن حبان ١١: ٢١٩ - ٢٢٢.

فَلَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السُّجَىَنَةَ عَلَيْهِمْ وَأَذَانَهُمْ فَتَحَقَّا قَرِيبًا)، فسميت «بيعة الرضوان»؛ لما حصل فيها من رضا الله تعالى على المؤمنين، و«بيعة الشجرة»؛ لوقوعها تحت الشجرة^(١).

فلما رأت قريش إصراره على هذا الأمر خضعوا له وقالوا: نصالحك على أن ترجع هذه السنة، وتعود في السنة الآية وتدخل إلى مكة، ولك فيها ثلاثة أيام، تسعى وتطوف وتعتمر ثم ترجع. فقال النبي ﷺ لأمير المؤمنين: «هل اكتب بيتنا هذا». فأتى بورقة وكتب: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». فقالوا له: لا تكتب هذا، بل اكتب: باسمك اللهم. فقال له النبي ﷺ: «اكتبها كما يريدون». ثم كتب ﷺ: «هذا ما تعاهدت عليه رسول الله محمد بن عبد الله...». فمقاطعه سهيل قالاً: مهلاً، لو كننا نعرف أنك رسول الله لأطعناك ولما خرجنا لقتالك، اكتب: «محمد بن عبد الله».

فطلب الرسول الأكرم ﷺ من أمير المؤمنين عليٍّ أن يكتب ذلك فتكلّمَ عليٌّ في ذلك؛ حيث إنه (صلوات الله وسلامه عليه) لم تطاوشه نفسه الشريفة أن يمحو صفة الرسالة عن النبي الأكرم ﷺ ويكتب اسمه فقط، يقول ﷺ: «فقلت^(٢): هو والله رسول الله وإن رغم أنفك، لا والله لا أمحوها. فقال ﷺ لي: أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطر»^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٠٠، صحيح ابن حبان ١١: ٢١٩ - ٢٢٢.

(٢) مخاطباً سهيل بن عمرو.

(٣) انظر: مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٦٥ - ٣٦٦، سنن النسائي ٥: ١٦٧، تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٠٠، صحيح ابن حبان ١١: ٢١٩ - ٢٢٢. وقد مرّ في ج ٢ ص ٢١٠ - ٢١١/الهامش: من المحاضرات تفسير ابن حجر رفض أمير المؤمنين عليٍّ محو كلمة رسول الله مع أمر الرسول ﷺ إياه بذلك بقوله: وكان علياً فهم أن أمره له بذلك ليس متحتماً.

وفعلاً مَرَّ أمير المؤمنين <عليه السلام> بهذه التجربة نفسها، وذلك في واقعة الحكمين في صفين، فقد أجبره عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري وأشباحهم على ذلك^(١). والتاريخ يحذّرنا أن معاوية قد حاول الفرار وتهيأ له، فجاء إليه من أمسك ركابه قائلاً: إلى أين، وقد قتل عشرات الآلاف من أجلك؟ يقول معاوية: فتذكري عند ذاك أبيات ابن الإطناية:

أبٰت لِي عَسْقُلْيَ وَأبْسَى بِلَافِي	وَأَخْذِي الْحَمْدَ بِالثَّعْنَ الْرَّبِيعِ
وَإِقْدَامِي عَلَى الْمُكْرُوهِ نَفْسِي	وَضَرْبِي هَامَةً الْبَطْلَ الْمُشْبِعِ
وَقُولِي كَلَمًا جَشَّاتِ وَجَاشَتِ	مَكَانَكَ تَحْمِدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي ^(٢)

ثم قال معاوية لعمرو بن العاص: ما في مخبأك؟ قال: مرهم فليرفعوا المصاحف. فلما رفعوها تغير الأمر.

فكان النبي ﷺ يذكر الإمام علي <عليه السلام> في الحديبية بقوله: «أما إن لك مثلها، ستأنبها وأنت مضطر».

وهكذا وقع النبي الأكرم <ﷺ> على الوثيقة، وحلّ وأصحابه من احرامهم، ونحرروا وحلقوا ورجعوا. ثم انتظروا إلى السنة القابلة، فذهبوا إلى مكة، وبقوا فيها ثلاثة أيام، ودخلوا الكعبة وهم يهللون ويكترون. وهذا هو السبب في نزول هذه الآية.

فلذلك امتنع من امثاله.
وكذلك فسر قول رسول الله ﷺ: «أما إن لك مثلها، ستأنبها وأنت مضطر»، بقوله:
يشير <ﷺ> إلى ما وقع لعلي يوم الحكمين، فكان كذلك. فتح الباري ٧: ٢٨٦.

(١) انظر ذلك مفصلاً في ج ٢ ص ٢١١ - ٢١٠ / الهاشم: ٢.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ٢٢٢، ١٨: ٥٩، ٢٠٣، تنزيل الآيات على الشواهد من الآيات: ٣٥٩، تفسير الطعلبي ٤: ٥٢.

والمهم في القصة أن النبي ﷺ لما أصرّ على القتال رضخ المشركون، وطلبوها الهدنة، وقال الصحابة للنبي ﷺ: نبأيتك على القتال والموت. وكان النبي ﷺ تحت شجرة فبايعوه فنزلت الآية. فكان الناس يقولون: بايعنا رسول الله ﷺ على الموت.

المبحث الثاني: مناسبة الحكم والموضوع

نقول الآية الكريمة: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ»، ولدينا هنا ما يسمى: الحكم والموضوع، فلكلّ موضوع حكم يرتبط به. وهذا الارتباط تارة يكون على أساس أن الموضوع صفة له، وأخرى لا يكون كذلك. ولتقريب المعنى سنعوم في أجواء هذا المقطع من الآية الكريمة، فالرضا في قوله تعالى: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ» حكم موضوع المؤمنون. والمؤمن هو عبارة عن إنسان مضافاً إليه الإيمان . وهذا مثله مثل النجار الذي هو عبارة عن إنسان مضافاً إليه مهنة النجارة أو مهارة التجارة. وهنا نلاحظ أن الرجل موصوف، وأن الإيمان صفة زائدة عنه. وعليه فإن الله تعالى عندما يقول: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ» أي رضي عنّمن بايتك من الصحابة المتصفين بصفة الإيمان والاعتقاد، والتغافلي في طاعة الله. وهذا اللون من الصحابة - بلا شك - منارة هدى لنا، وطريقنا إلى القرآن والستة النبوية الشريفة، وهم مجدنا، ونحن بهذا اللحاظ نقدّسهم ونحترمهم.

لكن عندما ينزل القرآن سورة كاملة باسم سورة (المنافقون)، وعندما ينزل في القرآن: «وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النُّفَاقِ لَا شَعْلَمُهُمْ ثَخَنْ شَعْلَمُهُمْ سَفَرْدُهُمْ مَرَدَنِينِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ»^(١)، كما يعطي صفات متعددة في

القرآن تحدّد جماعة خاصة، منها أنهم لم يتّصفوا بصفات الصحابة ولو
أنهم عاصروا النبي الكريم ﷺ، فكيف يمكن أن يكون الموقف من
الصحّة والصّحابة؟

إننا نقرأ في (صحيح البخاري)^(١) و(صحيح مسلم)^(٢) والصحاح الأخرى^(٣) أن النبي الأكرم ﷺ يقول : «ألا وإنه يجاه ب الرجال من أمنتي ، فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب ، أصيحيابي . فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك . فأقول : كما قال العبد الصالح : ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دَفَتْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّوَّابِطُ عَلَيْهِمْ﴾^(٤) . فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم .»

وهذا كما يرى القارئ ليس من كتب الشيعة، بل هو من كتب السنة، ومن أراد المزيد فليرجع فقط إلى روايات الحوض في الصحيحين، وأنا على استعداد لأن أعطيه عشرات المصادر حول هذا الموضوع. فهو موضوع حساس جداً، لكنني لا أريد أن أضع يدي على جراحتنا فتؤلمنا، غير أنني أأمل أن يكون المسلم واعياً، وأن نفكّر جميعاً بعقلتنا لا بأذاننا.

إن القرآن ينزل آيات فيمن أتصف بصفة الصحابة، ومفهوم الصحابة عند أخواننا السنة ينطبق على كل من يرى النبي ﷺ ولو لساعة واحدة، فمن رأى النبي الأكرم ﷺ كذلك أصبح ممن لا يمكن أن يتطرق إليه الريب أو

(١) صحيح البخاري: ٥: ١٩١-١٩٢، ١٩٥: ٧، ٢٤١-٢٤٠، ٢٠٧، ٢٠٨، ٨: ٨، ٨٧.

(٢) صحيح مسلم ١: ١٥، ٧: ٧٦، ٨: ٨٧، ٩: ١٥٧.

(٣) انظر: مسند أحمد ٢٨٤، وغيره كثير، سنن ابن ماجة ١٠٦٦، ٣٥٧، الجامع الصحيح (سنن الترمذى) ٤: ٢٩-٣٨، ٢٢١٥ / ٤: ٥، ٢٥٣٩ / ٢٩، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧ / ٤١٥، المصنف (الصناعي) ١١: ٤٧، ٢٠٨٥٥.

(٤) المائدة: ١١٧

النقد. وهذا كلام بعيد عن دائرة المسؤولية، ولا يمكن أن نعتبره اهتماماً؛ لأنّه ليس كلام من يحترم عقله. فالله تعالى أعطانا المقاييس وأمرنا أن نتبعها. والنبي ﷺ نفسه أشار إلى أن الناس فيهم الصالح وفيهم الطالع، وليس هناك ميزة استثنائية آلاً للعصوم، أما غيره فيمكن أن يخطئ ويُمْكِن أن يصيب. وكل ما في الأمر أننا إذا مررنا بأحد هم فالواجب يقتضي حينئذ أن نقيمه أولاً، لا أن نشتمه أو نسبه حتى يتبيّن أنه أهل لذلك.

والتقييم الذي نعني هنا هو التقييم الموضوعي، وهو أن يُذكر للصحابي ما له وما عليه من الفضائل والإنجازات والمقام المحترم، أو الأخطاء التي ارتكبها والانحراف الذي أصابه، أما الشتم فلا، فهو غير وارد في قاموس النقد الموضوعي. وليس الشتم من شأننا، والذي يشتم غيرنا لا نحن، لأن السباب والشتم يؤذيان مشاعر كل مسلم. ونحن نتقرّب إلى الله بحب الصحابي الذي تتطبق عليه صفات الصحابة، وهذه كتبنا بين أيدي الجميع. أما إذا قيّمنا فإننا إذا رأينا في البين انحرافاً، فحتى سنقول: إن هناك انحرافاً يترتب عليه جزاء.

وهذا ليس بعيداً عن القرآن الكريم؛ ذلك أنه مدح أقواماً بقوله: «وَمِنَ الْأَغْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالنِّيَّمُ الْآخِرِ وَيَتَّجَدُّ مَا يَنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ إِلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيِّدُنَا خَلَقَ اللَّهُ فِي زَخْرَفَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»^(١) وذم آخرين بقوله: «الْأَغْرَابُ أَشَدُّ كُفَّارًا وَيُنَافِقُونَ إِلَّا يَعْلَمُونَ حَدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»^(٢) وهذا هو منهج القرآن: فـ«فَرِيقٌ فِي النَّجَّةِ وَفَرِيقٌ فِي

(١) التوبه: ٩٦.

(٢) التوبه: ٩٧، وقال: «وَمِنَ الْأَغْرَابِ مَنْ يَتَّجَدُّ مَا يَنْفِقُ مُغْرِمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَازِرُ عَلَيْهِمْ

السعير^(١)، و«لا ينتهي أضحاك النار وأضحاك الجنة»^(٢). وهذه هي المقاييس التي يجب أن نتبعها، أما الشتم فقد جاء من غيرنا، ومن هذا مثلاً ما يرويه المؤرخون من أنه كان في أيام هشام بن عبد الملك رجل يدعى جنيد بن عبد الرحمن من أهل حزان، وهو من الرجال المحترمين المرموقين، والرؤساء المعروفين، وكان الأمويون يحترمونه، وكانت له حصة من العطاء من بيت المال يأخذها كل سنة. يروي جنيد نفسه فيقول: كنت في طريقني إلى الشام يوماً لاستلم عطائي، وكان دخولي يوم الجمعة، فدخلت إلى مسجد احتشد فيه الناس ليصلوا الجمعة، فلما فرغت من الصلاة صعد الخطيب المنبر، ووعظ فاتعظنا، وذكر فتذكّرنا، ونصح فانتصحتنا. ثم لما أراد الختام قال: دعونا نختتم صلاتنا وموعظتنا بـشتم أبي تراب.

فراحوا يستمون علياً شتماً ذريعاً، فلما فرغوا سألت أحدهم: من أبو تراب هذا؟ فقال: إنه علي بن أبي طالب. قلت: زوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قلت: أبو الحسن والحسين عليهم السلام؟ قال: نعم. قلت: أول القوم إسلاماً؟ قال: نعم. قلت: أهو صاحب السيف المقاتل الذي ذبّ عن الإسلام، ثم استشهد في سبيل مبدئه؟ قال: نعم. قلت: فما المبرر لشتمه إذن؟

ثم قمت إلى الخطيب فأمسكته من وفرة شعره، وجعلت أضرب برأسه الجدار حتى أدميته، فصاح: خذوني إلى الخليفة. فأخذنا الجلاوزة، فلما وقع بصر هشام علي قال: مرحباً بك أبا عبد الرحمن، متى قدمت؟

دايزة السوء والله سميع علیم) التوبة: ٩٨.

(١) الشورى: ٧. (٢) الحشر: ٢٠.

قلت: أمس. قال: ما الخبر؟ فأخبرته الخبر وقلت: لو أني سمعت من
يشتم صهرك وأبن عمك وأبا سبطيك لما تركته، وهذا يشتم صهر رسول
الله ﷺ. فقال هشام: صدقت يا أبو عبد الرحمن، وعليك ألا تتأخر، خذ
عطاءك واذهب إلى أهلك.

لقد أحسن هشام أن هذا الرجل يشكل عنصر خطر عليه، وهذا هو شأن الكثير من الدول الآن، إذ أنها تعتبر الإنسان الواعي خطراً عليها.

وقد جعل الأمويون هذا الأمر سنة شاب الصغير وهرم الكبير عليها، حتى أنها وصلت إلى الصلاة، وكان معاوية يقنت في الصلاة ويشتم أمير المؤمنين عليهما السلام، ويقترب إليه البعض فيقول: وأزيدكم حسناً وحسيناً، ثم يأتي عمرو بن العاص فيقول: وأزيدكم أحهما فاطمة. والمسألة معروفة، فالأمد الذي شتم فيه علي عليهما السلام على المنبر ثمانون عاماً. بل إن البعض كان يشتمه وهو في حياته، وكان بوسع الإمام عليهما السلام أن ينتقم منه، لكنه على العكس من ذلك كان لا يبخسه في عطائه. يقول أحد الأدباء:

وتمادي بعسهفه الديجور	سيدي كلما تلبد أفق
قلم الحقد والهوى والزور	وتتمادت صحائف خطط منها
بعض أوصافه السننا والعبيز	لاج بالافق من رفاك جيбин
وإلى الآن بالجيوب الكثثير	الجيбин الذي أحاطوه شتما
حل إن زرج في اللهيـب البخور	فحباهم طيباً وعفواً كما يف
شتم من حولك الفضائل سوز	وتسمهل أبا تراب فدون الد
أي ضمير لو سينك المسعوز	إن أشادات بد السما وأفاضت

ويقول آخر :

أرَدْ بِإِطْرَانِي عَلَيْكَ الطَّوَارِيَا
عَلَيْكَ فَمَا شَانِي وَشَانِ شَانِي^(١)

وَمَا مَدْحُتِي ثَوْلِيكَ فَخَرَأْ وَإِنَّمَا
إِذَا الْمَلَأُ الْأَعْلَى تَحْذَرُ بِالثَّنَاءِ

المبحث الثالث: فرى القوم على الشيعة

وقد كان هذا المنهج من شتم علي عليه السلام وأهل بيته عليهما السلام هو السائد عند الأمويين. وليس هذا فحسب، وإنما عمدوا على أيدي صنائعهم ووعاظهم إلى تزييف وتكميم كل منقبة له، ومحوها من الوجود. والى الآن لم تنته آثار هذه المسألة، فعندما تدخل إلى مكتبة لنقرأ التفسير أو التاريخ أو الحديث، فستجد ركاماً هائلاً من الشتائم في قواميس الكثيرين الذين لا يتركون كلمة ناوية أو جارحة أو فيها سباب إلا ويقذفون بها من يوالى علي عليه السلام.

فري ابن تيمية

الأولى: أن كتب الصحاح لم تنقل عن راوٍ منهم وكمثال على هذا أنقل لك ما ينقله ابن تيمية عنا حيث يقول: «ليس في فرق الأمة فرقاً أكثر كذباً واحتلافاً من الرافضة، فهم أكذب الناس؛ ولذا لم تروي كتب الصحاح عنهم رواية واحدة»^(٢).
هذا مع ملاحظة أن الكذب عندنا ينطر الصائم إذا كان كذباً على الله تعالى

(١) الآيات للشيخ حميد الساوي. علي في الكتاب والسنّة والأدب ٥: ١٤٩. وقد عوتب المتنبي في ترك ذكر المناقب فقال:

إذْ كَانَ نُورًاً مُسْتَطِيلًا شَامِلاً
وَكَذَا صَفَاتُ الشَّمْسِ تَذَهَّبُ باطِلاً
وَرَتَكَتْ مَدْحِي لِلْوَصِيِّ تَعْمَدًا
وَإِذَا اسْتَطَالَ الشَّيْءُ قَامَ بِذَاتِهِ
نَهْجُ الْإِبْيَانِ: ٦٦٩.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥: ١٨٤.

رسوله صلوات الله عليه وآله وسلامه، لكن لنَّ من هو الكاذب مُنَا، وهل صحيح أن كتب الصالحة لم تروِ عن الشيعة؟ كلاً، إن العشرات من روايات هذه الكتب من الشيعة. ومن أراد المزيد فليرجع إلى (الفصول المهمة) لعبد الحسين شرف الدين، والجزء الثالث من (الغدير).

والذى تحت يدي الآن منهم (٩١) راوياً، أما المصادر الأخرى فتروي أنهم أكثر من هذا. فهل تبيَّن من الكاذب الآن؟

الثانية: تمثيل عائشة بالشابة

وكمثال آخر على الكذب على الآخرين ما يدعوه ابن تيمية أيضاً حيث يقول: «إن الرافضة يمسكون نعجة ويطعنونها، ويقولون عنها: هذه أم المؤمنين عائشة»^(١).

إننا - الشيعة - والحمد لله نعرف أنفسنا، فهل رأى أحدكم هذا المنظر يوماً من الأيام؟ وأين يوجد هذا الكلام؟ إنه موجود في كتب شيخ الإسلام ومخيّلته.

الثالثة: كراهة الرقم عشرة

ويقول أيضاً: «إن الشيعة يكرهون العدد عشرة، ولا يذكرون رواية فيها هذا العدد؛ لأنهم يكرهون العشرة المبسوطة إلا على بن أبي طالب»^(٢). ورحم الله الشيخ الأميني الذي تتبع عشرات الروايات فيها العدد عشرة^(٣).

(١) منهاج السنة النبوية ٤: ١٧٦ - ١٧٧. (٢) منهاج السنة النبوية ٤: ١٧٦.

(٣) الغدير ٣: ١٤٨ - ١٥٠، وانظر الخصال: ٤٢٥ - ٤٥٤ / باب العشرة.

فري أخرى

وليس هذا فحسب ، فلو نظرنا في كتاب (الفصل في الملل والنحل) لابن حزم لرأيت الغرائب ، وكذلك الشهرياني في مؤلفاته ، والقصيمي في (الصراع بين الوثنية والإسلام) ، وابن عبد ربه الأندلسي في العقد الفريد ، وغيرهم^(١) ، فإن القارئ لا يجد فيها إلا الافتراءات والكذب على الشيعة ، ثم يقولون بعد ذلك : إن الصاحح لم ترو عن الشيعة ؛ لأنهم يكذبون . إن هؤلاء يروون في صحاحهم عن خالد بن مسلم المخزومي الكوفي الذي كان من المرجنة ، وكان يتقرب إلى الله بشتم علي بن أبي طالب رض . ويروون عن عمران بن حطّان الذي يقول في عبد الرحمن بن ملجم :

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا يبلغ من ذي العرش رضوانا

إنني لأذكره يوماً فاحسبة أوفي البرية عند الله ميزاناً^(٢)

بالتالي ، لو كان عمران بن حطّان يمدح أبو لؤلؤة قاتل الخليفة عمر ، فهل كان البخاري يروي عنه^(٣) ؟ فلم هذا اللون من التعامل مع أمير

(١) انظر كل ذلك مفصلاً في المجلد الثالث من الغدير.

(٢) تاريخ الإسلام ١: ٧١٠، الاستيعاب ١: ٢٤٨، الإصابة ٥: ٣٠٣، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٢٨٠، ٤٩٥: ٤٣، المواقف ٣: ٦٩٨، الحور العين: ١١.

(٣) فقد روى عن عمران هذا ، انظر صحيح البخاري ٧: ٤٥ . وهو إنما يسبّ رجلاً يقول فيه رسولنا الأكرم ﷺ : « لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق ». مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سن الترمذى) ٥: ٣٠٦، كنز العمال ١١: ٥٩٨/٥٩٨ . ويقول فيه : « حربك حربي ، وسلمك سلمي ». شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي) : ١٩٩، وأحاديث كثيرة غيرها بهذا المعنى ، انظر الحاوي للفتاوى ٢: ٤٤، ويقول أيضاً : « من أحبتك ختم الله له بالأمن والإيمان ، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام ». مسند أبي يعلى ١: ٤٠٣/٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١/٣٢٩٥٥ . وقد نقل عن البوصيري قوله : رواه ثقات . ١٥٩

المؤمنين عليهم السلام ، وهو على أقل التقادير خليفة من خلفاء المسلمين؟ إن من الضروري أن نقوم بتسليط الأضواء الكاشفة على هذا الركام في تأريخنا وعلى ما يلفه من زيف ، وإنما فلى متى نبقى هكذا؟ الآباء يأكلون الحصرم ، والأبناء يضرسون؟ ولمصلحة من هذه الترفة السوداء الثقيلة والعباء القاتل في تأريخنا؟ وما ذنب من ينشأ على كلمة «لا إله إلا الله» ليلغم فكره بمثل هذا؟ فإن أردنا أن نصفي أفكارنا ونغربلها ، فعلينا أن نزيل هذا الركام من الفرى والاختلاق ، وأن يعاد النظر في هذه الكتب التي تقف عقبة في طريق المسلمين ، وهو أمر ضروري جداً ولا بد منه. يروي الإمام الحسين عن جده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله : «الزموا موذتنا أهل البيت ؛ فإنه من لقي الله عز وجل وهو يوذنا دخل الجنة بشفاعتنا . والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا»^(١).

وهذا الرواية مروية في كتب السنة أيضاً ، وبإمكان القارئ أن يراها في كتاب (الصواعق المحرقة) ، وغيره^(٢) من الكتب . ويقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمير المؤمنين عليه السلام : «لا يجوز أحد على الصراط إلا من كتب له على الجواز»^(٣).

وان كان الأمر كذلك ، فهل يسعنا إلا أن نفصل من تنزل فيه هذه الروايات والأخبار والآيات؟ وكيف لا نرتب على قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آثاراً؟ إذن فالذي يشتم غيرنا ، وإلى الآن ما يزال الشتم يصيبنا منهم ، وكل من ألف كتاباً منهم لا يسعه أحياناً إلا أن يفتحه بشتمنا والافتراء علينا ، ولا يقدر إلا أن يهتمنا ، فلم كل هذا؟

(١) الأمالي (المفيد) : ١٣٩ - ١٤٠ - ٤ / ٤ . (٢) المعجم الأوسط : ٢ : ٣٦٠ .

(٣) جواهر المطالب ١: ١٨، ١١٨، ١٠١، ١٠١، ١٦٣، ٤٠٤ .

وعليه فإن الحكم في الآية الكريمة ترتب على قيد هو الإيمان، فيكون الوصف علة له. فالصحابة المتصفون بهذا الوصف هم موضع احترامنا وتقديرنا وتقديسنا، وأما إذا كان الأمر على غير ذلك، فإن النبي يقول: «لو عصيت لهويت»^(١).

المبحث الرابع: صفة صحبة الإمام الحسين رضي الله عنه على ضوء الآية
 ثم قالت الآية: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السُّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا»، فما المقصود بالفتح؟ يروى أن عمر قام للنبي ﷺ حينما نزلت هذه الآية، فقال له: أهو فتح يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: «نعم»^(٢)، أي أن هذا الصلح الذي حصل بينه وبين قريش هو فتح.

ونفهم من هذا أن النبي ﷺ يقول: إن وصولنا إلى أهدافنا هو الفتح؛ فالإنسان عندما يتحقق هدفه يكون قد فتح عليه. والإسلام لا يحب سفك الدماء، وعندما يقرر الجهاد فإنه إنما الجأته إليه الظروف؛ لأنه يريد أن يهيئة أرضية صالحة؛ ليمر عبرها الدين الإسلامي. وعقيدة الإسلام تعنى الرفاهية والحرية والخير والعطاء، ومن يقف في وجه ذلك فلا بد من إراحته من طريق سعادة الناس. يقول النبي ﷺ: «لا تمنوا لقاء العذق، واسأموا الله العافية، وإذا لقيتموهم فاثبتوهواصبروا»^(٣).

ومن مجمل هذه الصفة من الصحبة علم الله تعالى ما في قلوبهم، وكان الجزء أن أنزل السكينة عليهم، فكانوا مستعدين لمقابلة الموت بنفس

(١) الإرشاد ١: ١٨٧، شرح نهج البلاغة ١٠: ١٨٤.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤: ٥٦.

(٣) صحيح البخاري ٤: ٩، ٨: ١٣٠، صحيح مسلم ٥: ١٤٣، سنن الدارمي ٢: ٢١٦، سنن أبي داود ١: ٥٩٢.

مطمئنة. وهذه هي صفة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام. وأود أن ألفت النظر إلى أن أصحاب الإمام الحسين عليه السلام فيهم مجموعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، وقد قتلوا معه يوم الطف، أما الباقيون فكانوا حملة القرآن والعلم والأخلاق. ومن يرد الاطلاع أكثر فعليه بمراجعة سيرة عباس بن أبي شبيب الشاكري، وبنو شاكر بطن من همدان التي يقول فيها أمير المؤمنين عليه السلام:

سعام العدوي في كل يوم خصم	جزى الله همدان الجنان فابنهم
وليس إذا لاقوا وحسن حلام	لهمدان أخلاق ودين يزيتهم
تبث عندهم في غبطة وطعم	متن تأييم في دارهم لضيافة
لقت لهمدان ادخلوا بسلام ^(١)	ولو كنت بوايا على باب جنة

ويقول عنهم يوم صفين: «لو تمت عدتهم ألفاً لغبدهم حق عبادته»^(٢). وكانوا من حملة السنة والقرآن وشرف الجهاد. فعايس هذا كان منهم، وكان بالكوفة، فلما دخل مسلم بن عقيل عليه السلام الكوفة كان ممن يتربّد عليه، وممن قام باليبيعة له، ودعا الناس إلى بيعته، وممن موّن الحملة واشترى السلاح. وكان قد قام خطيباً بعد أن أُعلن مسلم عليه السلام دعوته عند دخوله، وقرأ على الناس كتاب أبي عبد الله عليه السلام، فقال: أنا لا أخبرك عمّا في قلوب الناس، ولكنني أخبرك عمّا في نفسي، والله أنا أقاتل دونك وأجريب دعوتك، حتى ألقى الله، ولا أريد بذلك إلا وجهه.

لكن الظروف أجأت مسلماً عليه السلام إلى أن يخرج قبل موعد الحركة، وكان

(١) ديوان الإمام علي: ٧، ٨٨-٨٧، شرح نهج البلاغة ٥: ٨، ٢١٧: ٧٨.

(٢) الجوهرة: ٢٥، إصارات العين: ١٢٧.

عابس لا يزال خارج الكوفة، فلما عاد ودخلها وجد الأمر قد استتب لعبيد الله، فلحق بالحسين ﷺ، وخرج معه شوذب مولاه. يقول بعضهم: كان شوذب أفضل من عابس، لأنه كما نقل السماوي في (إيصار العين) كان أفضل علمًا وأكثر حملًا للقرآن، وكان يجلس للشيعة فيأتونه للحديث الذي أخذه عن أمير المؤمنين ﷺ.^(١)

وكان يوم الطف يحمل سيفه على عاتقه ويتبع سيده عابساً الذي كان شديد الولاء لآل النبي ﷺ. يقول تميم بن ربيعة - وكان صديق عابس -:رأيته نازلاً إلى الحرب وهو ينادي: ألا رجل ينازلني؟ ألا من مقاتل؟ فلم يقترب منه أحد. فلما تحاشه الناس؛ خوفاً منه، أمرهم ابن سعد أن يرضخوه بالحجارة، فلما رأى الأمر كذلك ألقى درعه وبرزته ونزل حاسراً إلى الحرب، فناديه: أجئت يا عابس؟ قال: ويهلك، إن حب الحسين أجنّني. ورأيته يطرد أمامه أكثر من مئتين. حتى استشهد هو وغلامه (رضوان الله عليهما) في المعركة^(٢).

ومن جملة الأنصار حبيب بن مظاهر - أو مُظَاهِر - الأُسدي، وهو من الصحابة، ومن لازم أمير المؤمنين ﷺ في كل حربه، وكان هو ومسلم بن عوجة الركيبة التي قامت عليها دعوة مسلم. ولما قتل مسلم أخاه بنوأسد عندهم في الأرياف. فلما وصله الخبر بقدوم الإمام الحسين ﷺ تهيأ للالتحاق به، فنادى أحد غلاماته، وطلب إليه أن ينتظره خارجاً بين النخيل، وأن يكون معه جواد، على أن يتبعه فيما بعد. ثم دخل على زوجته وأطفاله يودعهم، وقال لزوجته: إني ذاهب إلى الحسين بن رسول

(١) إيصار العين: ١٢٨.

(٢) إيصار العين: ١٢٧.

الله عليه السلام. فقالت له: أبلغ حسيناً عنِّي السلام، وخذ لي لحظة من لحظات رضاه عنِّي، ثم ودعها وجزاها خيراً وخرج.

فلما وصل إلى الموضع الذي تواعد فيه مع الغلام سمع الغلام يتحدث، فأصغى إليه، فإذا به يخاطب الجواد ويقول له: يا جواد سيدِي، لقد أبطأ سيدِي، والله لئن لم يأت لأمتنينك وأذهب إلى نصرة أبي عبد الله. فلما سمعه حبيب اعترز به كثيراً، واهتزَّ كثيراً لموقفه، ثم أقبل إليه وقال له: ويرحك، جراك الله خيراً، ارجع إلى أهلك. فقال له: سيدِي أنت تذهب إلى الجنة وتردُّني إلى النار؟ خذني معك، لاقاتل بين يدي أبي عبد الله عليه السلام. وأصرَّ على حبيب في أن يصطحبه، فاصطحبه معه.

وأقبل حبيب والغلام من ورائه، إلى أن التحقا بالحسين في كربلا.

وكان الإمام الحسين عليه السلام جالساً إزاء المخيم، فأطلَّ حبيب عن بعد، فلما وقع بصره على حبيب التفت إلى أصحابه قائلاً: «قوموا بنا، هذا حبيب بن مظاهر». وقام ومن معه من أصحابه لاستقبال حبيب الذي ما إن وقع بصره على الحسين عليه السلام حتى ترجل عن جواده وانحنى على قدميه يقبلهما، وقال: سيدِي أبا عبد الله، ايذن لي في أن أسلم على بنت أمير المؤمنين عليه السلام. فقال له الإمام الحسين: على الرحب والسعـة. فأقبل وجلس بباب الخيمة، وجلست زينب داخلها، فقال: آه لوجدك يا زينب، يوم تحملين على بغير ضالع.

ووقف طويلاً عند بيت آل الرسول عليهم السلام، وصاحب الإمام الحسين عليه السلام حتى نزل إلى المعركة يوم الطَّفَّ، وقاتل قتال المستميتين الأبطال إلى أن سقط، فأقبل إليه الإمام الحسين عليه السلام، وزاد عنه الخيل، وجلس عند رأسه وقرأ: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا يَنْدُلُوا شَبَدِيَّاً»^(١)، ثم قال:

«أين أبطال الصفا؟ أين حبيب وأين زهير وأين برير؟ مالي أنا ديكم فلا تسمون،
وأدعوكم فلا تجيبون، أولستم قد طلقتم حلائلكم لأجلِي، وأعرضتم عن زهرة
دنياكم؟»^(١).

غضوا حَدَّ عليهم دون الخيام
ولا خلوا خوات حسين تغصام
لمن طاحوا تقايض منهن الهم
تهاروا مثل مهوى النجم من خر

وخرجت إليهم الحوراء زينب بعد منتصف الليل .. بعد أن هدأت العيال
والأطفال ، مررت ما بين المصارع تقوم وتقع ، وتحاطب الشباب الذين قتلوا
مع الإمام الحسين عليه السلام ، فقد كانوا كلهم شباباً باستثناء بعض الصحابة ، وكان
أكبرهم سنَا العباس عليه السلام فقد كان عمره (٣٤) عاماً :

يا هل نائمين على الشرابع كلمن بطبراته يتنازع

* * *

أقمار تسبيح في غدير دماء تلك الوجوه المشترقات كأنها الـ
بدم من الأوداج لا الحئاء خضبوا وما شابوا وكان خضابهم



(١) معالي السبطين ٢: ١٩ ، شجرة طوبى ٢: ٢١.

الفصل الثاني
السيدة فاطمة الزهراء

{٨}

وراثة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاؤُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْطَقَ الطَّفِيرِ وَأُوتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمِيْنُ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

وطائفة

نبي الله سليمان عليه السلام يعتبر الملك الثاني لبني إسرائيل؛ حيث كان الملك الأول «طالوت». وهو عليه جمع إلى جانب الملك النبوة، أي أنه كان يمسك بزمام السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، وكانت فترة ملكه مع أبيه داود عليهما السلام (٧٠) سنة. وخلال هذا الحكم استقرت أمور الدولة إلى حد ما، ثم حدث بعد ذلك صراع وانقسمت الدولة إلى قسمين: مملكة يهودا، ومملكة إسرائيل، وكانت بينهما حرب طاحنة، إلى أن جاء نبوخذنصر فقضى عليهمما معاً، وشتتهما فلم تقم لهما قائمة إلى سنة (١٩٤٨) م حيث

أسسوا دولتهم الجديدة.

يقول المؤرخون: إن نبي الله داود عليه السلام أثناء حكمه كان يقوم بجولات بين الناس ويسألهم، حيث إنه يسمع ما يقال فيه، و«السنة الناس أقلام الحق»، فأراد أن يتعرف مبلغ رضاهم عنه، فسأل أحدهم: «ما تعرف عن داود؟». فقال له: نعم الرجل؛ يقول ويعمل بالحق. وأثنى عليه ثناء حسناً، فقال له: «هل ترى به عيباً؟». قال: بلى. قال عليه السلام: «ما هو؟». قال: إنه يأكل من بيت المال، إن خير الناس من يأكل من كسبه.

رجع النبي داود عليه متألماً، ووقف في محرابه، وقال: «أي رب، علمني كسباً تغبني به عن بيت المال». فألان الله تعالى له الحديد^(١)، فأخذ يصنع من الحديد دروعاً وبيعها، ثم يأخذ ثمنها ويقسمه أثلاثاً؛ فيعطي ثلاثة لبيت المال، ويتصدق بثلثه الثاني، والثالث الآخر يعيش به. قال تعالى: «وَإِنَّ اللَّهَ الْحَمْدُ لَهُ أَنَّهُ أَعْفَلَ سَابِقَاتَ وَقَدْرَ فِي السَّبَرِيْ وَأَعْفَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»^(٢)، فكان يتناول طعامه من كذبة.

فأكل الإنسان من عمله ومن كد يده يعده من أعظم المقربات إلى الله عز وجل؛ لأن الإنسان بالعمل يشعر بالكرامة والاعتزاز بالنفس، وهذا هو الذي دفع بالإمام علي عليه السلام إلى أن يعمل ويأخذ مسحاته ويردد هذه الآية: «يَوْمَئِذٍ تُغَرَّضُونَ لَا تَخْفِي مِنْكُمْ خَافِيَةً»^(٣)، وكان عرقه يمتزج بالتراب. وكان لا يميز نفسه الشريفة بالعطاء من بيت المال حتى عن قنبر^(٤)، لكن

(١) المبسوط (المرخسي) ٢٤٦: ٣٠، تفسير القرآن العظيم ٥٢٥: ٣.

(٢) سباً: ١٠-١١ . (٣) الحaque: ١٨.

(٤) وقد مَرَّ بنا قصة التوبين اللذين اشتراهما وأعطى غلامه قنبراً أحسنها. انظر ص ٨٢
١١٤، ٢٢٧ من هذا المجلد.

الجماعة الذين عاصروه لم يدركوا أسرار عظمته ونبله وحقيقة شخصيته.

وهذه الآية يصنفها المفسرون ضمن الآيات المختصة بالفقه السياسي، حيث إنه قد أثير صراع حول أن النص إما أن يفهم موضوعياً - أي بما يحمله اللفظ من معنى ، فقط - فالماء يدل على السائل الذي نشربه ، وأما أن يُفهم منه شيء آخر يُؤول إليه .

المبحث الأول: هل يورث الأنبياء عليهم السلام؟

إن قوله تعالى: **(وَوَرِثَ سُلَيْمَانَ دَأْوِدَ)** هو في الميراث المألف بين الناس؛ لأن الآية بضميمة آيات ^(١) وروايات أخرى ^(٢) تؤكد أن الأنبياء عليهم السلام كباقي الناس يرثون بعضهم بعضاً . فالمسألة إذن عامة ولا يتميز بها الأنبياء عليهم السلام عن غيرهم من سائر الناس ، فكما أن الناس يأكلون ويشربون ويعملون ويتزوجون فكذلك هم عليهم السلام يفعلون مثلهم . لكن هناك أشياء يختص بها النبي عليهم السلام؛ منها أنه يستطيع أن يتزوج من أكثر من أربع نساء .

ونظرية الميراث ترتبط بالقابليات الفطرية ، فعندما يموت الأب فإن الأبناء يرث جسداً ضخماً وذلك حسب الجينات الوراثية ، فهم كما يعطون الخواص الوراثية ، فكذلك عليهم أن يعطوا الخواص المادية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إن الآباء إنما يلدون الأبناء لتبقى مسيرة الإنسانية

(١) انظر: النساء : ١٧٦ ، مريم : ٦ ، الأنبياء : ٨٩ .

(٢) انظر: جامع البيان، المجلد: ١١، ج: ١٩، ح: ١٧٢ حيث قال في تفسير قوله تعالى: **(وَوَرِثَ سُلَيْمَانَ دَأْوِدَ)**: «ورث سليمان أباه داود العلم الذي كان أباه الله في حياته ، والملك الذي كان خصّ به على سائر قومه» ، معاني القرآن: ٥ / ١٩٩ ، قوله: ويروى أن سليمان ورثه النبوة والملك ، زاد المسير: ٦ ، ٦٠ ، وقد ذهب القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٤٣ / ١٦٩ إلى أن الملك غير المال . وليس بشيء؛ لأن المال من لوازم الملك يورث معه .

- أي ليستمر النوع - وكذلك المادة يحب أن تستمر ، حيث إن الأب يعطي ماله لأبنائه هكذا .

وكذلك فإن هذه المسألة ترتبط بمبدأ من مبادئ الاقتصاد الإسلامي في تفتيت الثروة ، فالثروة إذا تضخمت عند الأب ، فإن الميراث يجزئها على الأولاد ، وإن كانت الثروة لا تضخم في الإسلام ، لكنها ربما كانت من ربا أو غش أو استغلال .

قضية فدك ودعوى «لا نورث»

فنظريّة الميراث يتساوي بها الناس جميعاً ، ولهذا وقع خلاف بين السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وبين الخليفة ، حيث استشهد الخليفة بهذه الرواية: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ماتركناه صدقة». وقال: إن هذه الرواية تخصّص العمومات في القرآن؛ حيث إن القرآن يقول: «وَرِثَ سُلَيْمَانَ دَأْوَذْ» ، و«فَهُبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيَا • يَرْثِنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»^(١) ، «وَأَذْوَأَا الْأَزْحَامَ بِغَضْنِيمَ أَوْلَى بِبَغْضِ فِي كِتَابِ اللَّهِ»^(٢) وذلك بعد أن أذاعت (سلام الله عليها) أنها قد ورثت فدكاً من أبيها رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه .

وحدثت «لا نورث» لم يروه إلا الخليفة أبو بكر ، وقد انفرد بروايتها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن التكليف عادة عندما ينزل فإنه يبلغ لأهل الشأن والاختصاص أولاً ، فمثلاً حينما امتنع ثعلبة عن أداء الحق الشرعي نزلت به آية ، فبلغه النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بذلك^(٣) . وكذلك خولة بنت خويلد لما ظاهر منها زوجها نزلت بها آية ، فبلغها النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بذلك^(٤) .

(١) مريم: ٥ - ٦ . (٢) الأنفال: ٧٥ .

(٣) انظر مستدرك وسائل الشيعة ٣١: ٢٥٦ / ٢٥٨٩ .

(٤) انظر: مجمع البيان ٩: ٤٠٨ ، تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٤١ .

أي أن الذي تنزل فيه آية يبلغ بها أولاً وقبل أي أحد^(١). فنظرية الميراث عامةً. وحينها فنحن إما أن نقول: إن النبي عليه السلام لا يدرى ماذا سيحدث بعده بما أنه لم يبين ذلك للزهراء عليها السلام، أو أنه عليه السلام كان يدرى لكنه سكت. لكن من حقنا هنا أن نتساءل: لماذا سكت ولم يستدِع فاطمة ويقل لها: «نحن معاشر الأنبياء لأنورث، ماتركناه صدقة»، فلا تطالبي بالميراث؟ وهذه الفكرة خطرت على شاعر أهل البيت عليه السلام في هاته:

حيث قال:

قال حاشا مولاتنا حاشاها تطلب الإرث ضلة وسفها أفضل الناس عفة ونزاها فدئاً ما الجميل أن يقطعها كان إكراام خاتم الرسل لها <small>(٢)</small>	بضعة من محمد خالفت ما سمعته يقول ذاك وجاءت هي كانت لـه أتف وكانت ولسان الجميل أن يقطعها دي البشير التذير لو أحرماها
--	---

ومن ناحية أخرى كيف يمكن أن تكون الزهراء عليها السلام قد جهلت آية نزلت في بيتها؟ فحيث توجد قرائن نذرعن إليها فإننا نقول بذلك ، لكن المسألة التي تأخذ هذا المنحى لم تكن بالشكل الطبيعي.

فالإمام علي عليه السلام جمع القرآن ، وقد كتبه وشرح غامضه ، حيث كان يسمع الشرح من النبي عليه السلام ، فليس من المعقول أن تجهل الزهراء عليها السلام معاني آياته . ولأنه يعقل أن أوس بن ملك الذي يتظاهر بيوله ويعيش في الصحراء يفهم القرآن^(٣) ، والزهراء عليها السلام لا تفهم معناه؟ إن هذا مخالف

(١) ومن ذلك حديث إسطوانة التوبية ، أو إسطوانة أبي لابية ، وستأتي آخر البحث إن شاء الله .

(٢) الأبيات للسيد الجذوعي . بيت الأحزان (القمي): ١٦٢ .

(٣) ذلك أنه جاء أوس بن ملك وعائشة وحفصة وشهدوا عند أبي بكر أن النبي عليه السلام قال: «نحن معاشر الأنبياء لأنورث». انظر: الإيضاح: ٢٥٧ - ٢٦٢ ، المسترشد في الإمامة:

للفطرة، وعناد الواقع.

وعليه فالميراث نظام شامل ليس له علاقة بفرد دون فرد، والأنبياء كسائر الناس يرثون ويورثون.

ثم إن الإسلام نظم الثروة وأساليب انتقالها، وميراث النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه لم يكن بذلك القدر الكبير الذي يستحق أن تحدث حوله هذه الضجة، فلماذا أثيرت هذه الضجة إذن؟

الزهراء عليها السلام استدللت بعمومات القرآن: «يُوصِّيكُمُ اللَّهُ فِي أُولَئِكُمْ لِلذِّكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأَنْتَيْنِينَ فَإِنْ كُنْتُ بِنَسَاءً فَوْقَ الْأَنْتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَّا مَا تَرَكَ فَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النَّصْفُ وَلِأَبْوَيْهِ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ»^(١)، فهذه الآية الشريفة شاملة للنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وغيره، لكن أبا بكر أدعى أن حدث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ماتركناه صدقة» قد خصص العموم.

دعوى النحلة

وذلك بعد أن فشلت دعوى الميراث التي كانت الزهراء عليها السلام قد رفعتها، ومقادها أن فدكاً كانت نحلة دفعها إليها النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، حينما نزلت الآية الكريمة: «وَاتَّ ذَا الْقَرْبَى حَثَّةً»^(٢). فسأل النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه من جبرائيل عليه السلام مستفسراً: «من هم ذوو القربى؟». فقال جبرائيل عليه السلام: «إن الله يأمرك أن تمعطى فدكاً بلغة لفاطمة، عوضاً عما أنفقته أمها في سبيل الإسلام». والإتفاق الذي كان من خديجة يفوق الوصف، فقد ذكر المؤرخون أنه ما من بيت من بيوت مكة إلا كان يضارب بأموال خديجة^(٣)؛ فقد كان مجتمع قريش بأجمعه

(١) النساء: ٣١ . ٢٩٥ . ٥٠٨ . بحار الأنوار

(٢) الإسراء: ٢٦ .

(٣) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣ . شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ - ٤٦٧ / ٤٤٤ - ٤٧٣ .

يتاجر بأموالها ويضارب بها. وقد ساقت هذه الأموال كلها إلى بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانتهى الأمر بها أن تناول مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جلد كبش. فنادي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاطمة وأعطاهما فدكاً بحضور الشهود على أنه نحله لها. وقد كانت يد الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ على فدك ست سنوات تتصرف به، وال المسلمين يرونها، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرّها، فلو كان خاضعاً للملكية العامة لكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتزعه منها، أو نصّ على أنه ملكها المنفعة فقط لا الأصل. ولكن لم يوجد من ذلك شيء.

ثم إن فدكاً كان للنبي خاصّة؛ لأنّه ممّا لم يوجد عليه بخيل ولا ركاب - أي لم يأخذه المسلمين بقتال - وإنما أخذ بصلح^(١)، فقد تنازل أهلها عنه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصالحوه مصالحة، وقالوا له: نصالحك على نصف أموالنا مقابل أن تقرّنا على هذه الأرض^(٢). فاستدعي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ وأنحلّها فدكاً. وقد جرت هذه الهبة في بيت أم أيمن (رضي الله عنها) بحضورها وبحضور أمير المؤمنين والحسن والحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. ولذا أذاعت فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ عليه بدوعى النحله.

وقد ردّها أبو بكر قائلًا: إن هذه ثروة، وال المسلمين بحاجة إليها، ثم قال لها: نعطيك طعاماً وكساء فلا تحتاجين لشيء. فقالت عَلَيْهَا السَّلَامُ: «إن هذا نحلة أنحلنيه أبي». فقال: إن النبي حسب علمي لا يعطيكم هذا بأجمعه، بل

٥٧٠ / ٦٠٨ الدر المنثور ٤: ١٧٧.

(١) يوجد عليه: يسرع إليه، أو تُحثّ الخيل على الإسراع إليه. لسان العرب ٩: ٣٥٢ - وجف.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٢٧ / ٢٠١٦، تاريخ الطبرى ٢: ٣٠٦، السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٢١٧، شرح نهج البلاغة ١: ١٦٠١٩٨.

(٣) تفسير القمي ٢: ١٥٥، بحار الأنوار ٢٩: ١٢٨.

يعطيكم حاجتكم، وما تبقى يودعه في بيت المال.

دعوى الخامس

فقالت له: «اذن أعطني سهم ذوي القربى: ﴿وَاغْلُمُوا أَنْتَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ
خَيْرُهُ وَإِلَيْهِ الرُّشُوْلُ وَإِلَيْهِ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ﴾^(١) إن اليتامى
يتامانا، والمساكين مساكينا، وابن السبيل منا، واسم الله ذكر للبركة، وسهم
النبي ﷺ وسهم ذوي القربى كله يعود لنا، فأعطنا حقنا من خمس الفنائيم وما
يحصل للمسلمين من مواردهم». فقال: إن مبلغ علمي أن النبي ﷺ لم يكن
يعطيكم هذا كله، وإنما كان يسدّ حاجتكم فقط، ونحن نعطيكم بهذا
القدر، فمن لم يكن له طعام أعطيناه، ومن كان يحتاج للباسكسوناه،
ومن أراد التزويج زوجناه، وما زاد على ذلك يعود إلى بيت المال.

ثم قال لها: أتراني أعطى الأحمر والأبيض حقه وأظلمك حرك، وأنت
ابنة رسول الله ﷺ؟ إن هذا المال لم يكن للنبي ﷺ، وإنما كان مالاً من
أموال المسلمين يحمل النبي به الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلما
توفي رسول الله ﷺ ولته كلاماً يليه^(٢). فهو يريد أن يقول لها: أنا
أسد حاجتك، لكن لا أعطيك سهم ذوي القربى كله.

وهذه النقطة ما زالت مثار تشنج وخلاف. وليرعلم بأن التاريخ لا يعود،
ولكن ينبغي على الباحث عندما يتناول آية من القرآن أن يذكر معناها
بغض النظر عن ارتباطها بالتاريخ، فليفسر تفسيراً موضوعياً وليخرج من
أغلال التبعية. فنحن نأخذ من عطاء القرآن، فلنملك تفكيراً عملاً
ولنتبع الدليل في تفسيرنا له.

(٢) السقيفة وفديك (الجوهرى)، ١٠٤.

(١) الأنفال: ٤١.

فعلى المفسر أن يتساءل ويقول: لماذا لا يورث الأنبياء؟ فالMuslimون يروون قصة أبي لبابة، حيث تخلف عن القتال مع اثنين، ثم ندموا وشدوا أنفسهم على السواري في المسجد، وقالوا: لأنبرح حتى ينزل الأمر من الله بالرضا عنا. فنزلت آيات تبرئهم وتغفو عنهم، وكانت فاطمة (عليها السلام) قادمة للمسجد، فقال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لها: «افتحي عنه وثاقه». فأرادت أن تفتح الوثاق من الإسطوانة فقال لها أبو لبابة: أنا أريد رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن يفتح لي نفسه الحبل. فقال له النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «دعها تفتح؛ فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها ويرضيني ما يرضيها»^(١).

وهذه الواقعية يرويها تاريخ المسلمين، فألمها ألم رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهي جزء منه. فهذه شهادة على أنها لا تعرف الكذب في أقوالها، فلماذا لم يؤخذ بقولها هنا؟

نرجع للأية الكريمة، فهي تقول: «وَوَرَثَ سَلَيْمَانَ ذَوَوْذِهِ»، أي أنها تقرر أن مسألة الميراث عامة لكل البشر، فوراثة سليمان أباه (عليه السلام) تكون انسجاماً مع نظرية الميراث وفق العادة.

المبحث الثاني: في نعم الله تعالى على سليمان (عليه السلام)
 ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: «وَقَالَ يَا أَبَيَهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطَقَ الطَّيْرِ»، وهذا من جملة ما أعطى الله تعالى نبيه سليمان (عليه السلام) من مزايا، حيث أعطاه ملكاً لم يتبغ لأحد من بعده. كان الحجاج يقول: ثلاثة لو ظفرت بهم

(١) انظر: الروض الأنف: ٢، ١٩٦، وقال الإمام الشهيلي صاحب (الروض الأنف) بعد ذكر هذا الحديث: «فصلنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فاطِمَةَ، فهذا حديث يدلُّ على أنَّ مَنْ سَبَّهَا فَقَدْ كَفَرَ، وَأَنَّ مَنْ صَلَّى عَلَيْهَا فَقَدْ صَلَّى عَلَى أَبِيهَا»، سيل الهدى والرشاد (الصالحي الشامي)، ١٠: ٣٣٨، ١٢: ٣٩٢.

لعقابتهم، ومن جملتهم النبي سليمان عليه السلام، وكان يقول: ما هذه الأنانية حيث إنه يقول: **(زَبَ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُنْخَأْ لَا يَنْبَغِي لِأَخْدِ مِنْ بَغْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ)**^(١). وكان الحجاج قد نسي نفسه، فهو يرى القذر في عين غيره أما ما في عينه فلا يراه. والحجاج هذا هو من كان يأمر بالمسجونين فشداً أيديهم ويلقى بهم في المستنقعات، فإذا كل بهم البَق حتى يموتوا، فيمر بهم وهم يصيحون: الله الله أيها الأمير، القبود أكلت لحومنا. فيقول لهم: اخسروا فيها ولا تكلمون^(٢)، أي يخاطبهم بخطاب الله تعالى لأهل النار^(٣)، وهذه ليست أنانية فقط، بل هي منطق جيفة عبر التاريخ. فالنبي سليمان عليه السلام قد علمه الله منطق الطير، وهذا ليس بغرير، إذ أن عندنا الآن بعض الكوادر العلمية التي تطور نفسها للتعلم لغة الحيوانات. والأكثر من ذلك أنه حتى النبات له لغة. ولغة الحيوان إما أن تكون حركية أو إيقاعية. فهناك الكثير من العلماء ممن يحسن لغة بعض الحيوانات وأشاراتها.

النبي سليمان عليه السلام يفسر لغة الطير

يروي المؤذخون أنه مر سليمان عليه السلام على طائر الورشان، وقد وقف على شجرة، فرأه يحرك ذيله وعنقه، فقال عليه لأصحابه: «أترغبون ما يقول هذا الطائر؟». قالوا: لا يأنبي الله. قال عليه: «إنه يقول: إني أكلت نصف ثمرة، فعلن

(١) ص: ٣٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٢: ١٩٢، البداية والنهاية ٩: ١٥٧.

(٣) وذلك قوله تعالى: **(قَالُوا رَبُّنَا غَلَبْتُ عَلَيْنَا شَيْئُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبُّنَا أَخْرَجَنَا مِنْهَا فَإِنَّا عَدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ # قَالَ اخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ)**. المؤمنون:

الدنيا العفا»^(١). أي أنه لا تهمني الدنيا مادمت شبعاناً. وهذه الكلمة على وجائزتها فيها عبرة، أي أنه عليه السلام يريد أن يقول لأصحابه: إن الدنيا لا ينبغي أن تستبد بكم؛ فإن الإنسان تملأ بطنه قطعة من الخبر. كان الإمام علي عليه السلام يخرج من بيته ويمر بمطعم التمّار ويشتري منه قوصرة ويجلبها معه إلى البيت وهو يرتجز:

«أفلح من كانت له قوصرة يأكل منها كل يوم مرّة»^(٢)

وكان يمدّ يده إلى بطنه ويمسح عليها ويقول: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»^(٣):

وَكَلَّا لِمَا بِالْزَانِعَاتِ قَعِينَ	أَلَا الْحُسْنَى وَتِلْكَ أَرْوَهُ كُنْيَةُ
ثَرَوْيِ الشَّنَّا وَيُتَرْجِمُ الشَّسْرِينَ	لَكَ فِي خَيَالِ الدَّهْرِ أَيُّ مَلَامِحُ
وَالشَّيلِ فِي الْمَحْرَابِ أَنْتَ أَنْيَنَ	فِي الصَّبَحِ أَنْتَ الْمُسْتَجِمُ مِنَ الْأَنْظَنِ
وَشَمُوثُ مِنْ جَوْعٍ وَأَنْتَ بَطْلِينَ	تَكْسُو وَأَنْتَ قَطْبِيَّةُ مَرْقُوقَةُ
أَلَوْكُ الْبَيْضَاءَ طَوْقَتُ الدُّنْدَانِ	أَلَوْكُ الْبَيْضَاءَ طَوْقَتُ الدُّنْدَانِ
فَلَهَا عَلَى ذِمَمِ الْأَنَامِ ذَبِيونَ ^(٤)	فَلَهَا عَلَى ذِمَمِ الْأَنَامِ ذَبِيونَ ^(٤)

ومر النبي سليمان عليه السلام ذات يوم بطائر الهدهد، فرأى صبياً يريد أن يصيده، فقال له: «أيها الهدهد، احذر الفخ». وذهب، فقال له: إن هذا صبي

(١) جوامع الجامع ٢: ٧٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ١٦٥، فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ١١٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث والأثر ٢: ٨٦ - التوصرة، البداية والنهاية ٣: ٢، تاريخ مدينة دمشق ٤: ٤٨٠. والتوصرة: الوعاء الذي يكتنز فيه التمر من الباري. الصحاح ٢: ٧٩٢ - قصر.

(٣) الدعوات: ١٢٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤: ٢٤٠ / ٢٦٢، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤: ٤٨ / ٢٣٠.

(٤) ديوان المحاضر ١: ١٩.

لاعقل له فسأغالطه ، فلا يستطيع أن يصيّدني . فلما رجع وجده واقعاً في الفخ ، فقال له: «ما الذي أوقعك في الفخ وأنت تنظر الماء تحت الأرض؟». قال: إذا جاء القدر عمي البصر^(١). أي أن الإنسان إذا أتاها قدره أعمى بصره .

وهناك حادثة ثالثة ، وهي أن النبي سليمان عليه السلام مرّ بصرد (جراد الزرع) وكان له صوت قوي ، فقال عليه السلام لأصحابه: «إن هذا الصرد يقول: يابني الله استغفروا الله».

ويعقب أبو هريرة على هذه الرواية بقوله: ولذلك نهى النبي صلوات الله عليه وسلم عن قتل الصرد؛ لأنّه صوّام ، وهو أول من صام يوم عاشوراء^(٢).

حول صيام عاشوراء

إن مسألة صوم عاشوراء وقع فيها اختلاف ، وإن الرواية التي تروى عن النبي صلوات الله عليه وسلم هي أن اليهود كانوا يصومون هذا اليوم ، فقال النبي صلوات الله عليه وسلم: «ما هذا من الصوم؟» فقالوا: هذا اليوم الذي نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون فصامه موسى شكرًا . فقال صلوات الله عليه وسلم: «أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم»^(٣).

وهذه الرواية قد اخترت من بعد الفاطميين ، والهدف هو إشغال الناس عن ذكر واقعة الطف فلا يستعيدون ذكرها ، فقد أرادوا بهذه الواقعة أن تنطمس معالمها ويقضى عليها .

إننا نلتمس طريتنا إلى الحسين عليه السلام في كل حال وكل حين؛ لأنه طريقنا إلى

(١) قريب منه ما في الجامع لأحكام القرآن ١٢: ١٧٨ ، تفسير القرآن العظيم ٣: ١٧٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٢٧٠ ، وليس فيه: يوم عاشوراء .

(٣) مسند أحمد ٢: ٣٥٩ ، باختلاف .

رسول الله ﷺ؟ فهو عليه السلام قد جسد تعاليم الإسلام، وبهذا فنحن لا نمجد لحماً، وإنما نمجد موقفاً بطالياً خالداً في حقيقته هو كرامة للإسلام. فلماذا إذن هذا الموقف من تعظيمه؟

نرجع للرواية حيث عَقَبَ أبو هريرة بقوله: إن النبي ﷺ نهى عن قتل الصرد من أجل هذا، أي لأنه يدع الناس للاستغفار من الذنب. فالذى يدعو الناس للاستغفار لا يقتل، وأماماً الذى يدعو إلى كلمة «لا إله إلا الله» فإنه يقتل ، دخل رجل على عبد الله بن عمر وقال له: إن البق يصير على يدي فأضر بها ويخرج الدم، فهل هو حرام أم لا؟ فقال: من أين أنت؟ قال: من الكوفة. فقال له: أنت قد قتلت العيسى ولم تستشكلاوا. وهذه المفارقات نجدها كثيراً في تاريخنا.

المبحث الثالث: في مخصصات العموم
ثم قالت الآية: (فَوَأْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)، وهنا نقطة هامة أحب أن أتبه إليها هي أن لسان الآية فيه عموم، ويقول المفسرون: إن هذا العموم مخصوص بالحسن.

التخصيص بالعقل

فهناك بعض العمومات مخصوصة بالعقل، فمثلاً نحن نعرف أن كل واحد معرض للمسؤولية والأمر بالأحكام والتكاليف يتوجه إليه ، لكن إذا كان هذا المكلف جاهلاً قاصراً كأن يعيش في غابات أفريقيا ، فهل يدخل ضمن هذا العموم؟ طبعاً لا يدخل ضمن هذا العموم؛ لأنه لا يكلف ما لم يصله التكليف ، فلا يعاقبه الله حيث لم يأته رسول ولم ينبهه إليه أحد. ويبالغ الأسف نحن نعيش ضمن أجواء لا نعرف الدين؛ تقسيراً لا قصوراً.

فالعموم مخصوص بالعقل ، والله تعالى لا يعاقب : لقبح العقاب بلا بيان .

التخصيص بالإجماع

وهناك حالات يكون العموم فيها مخصوصاً بالإجماع ، مثل «لا صلة لجار المسجد إلا في المسجد»^(١) ، ف الحديث النبوي عليه السلام هنا منصب على الكمال ، أي لا صلة كاملة إلا في المسجد حيث إن ثوابها في غيره أقل ؛ فهذه الرواية تؤكد على المسلم أن يكرم بيت الله ؛ لأن الجلوس في المسجد خير من الجلوس في الجنة حسبما يقول أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد قال : «الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة ؛ لأن الجنة فيها رضا نفسي ، والجامع فيه رضا ربِّي»^(٢) ورضا ربِّي خير من رضا النفس .

فلماذا لا يمكت الناس في المساجد ؟ إنهم سرعان ما ينفضون منه بعد الصلاة ، فلماذا لا نذكر الله فيه ولا نقرأ القرآن ؟ إنه بيت الله .

كان الإمام الحسن عليه السلام إذا دخل المسجد ردَّ هذه العبارة : «إلهي مسكنك بفنائك ، عبيدك بفنائك ، فقيرك نزل بساحتك»^(٣) . أي أنا في بيتك : «أنت المحسن ونحن المسيئون ، نتجاوز يا رب عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك»^(٤) . فهذا العموم مخصوص بالإجماع .

التخصيص بالحسن

وكذلك هناك عموم مخصوص بالحسن ، فنحن نقرأ في القرآن : «وَنَزَّلْنَا

(١) تهذيب الأحكام ١: ٩٢ ، ٢٤٤ ، السنن الكبرى (البيهقي) ٣: ٥٧ .

(٢) إرشاد القلوب : ٢١٨ ، وسائل الشيعة ٥: ١٩٩ ، ٦٢٥ .

(٣) كمال الدين : ٤٧١ ، ٢٤ ، الفقه المنسوب للإمام الرضا عليه السلام : ٢١٩ .

(٤) مصباح المتهجد : ٥٨٥ ، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ١٦١ .

عَلَيْكَ الْحِكْمَةُ تَبَيَّنَا بِكُلِّ شَيْءٍ^(١) حيث يقول البعض: إن الإسلام أسس علم الميكانيك وعلم الذرة، وتناول تحليل الهيدروجين. وهذا الكلام لامعنى له، وألا ما هي علاقة القرآن بهذه الأشياء؟ فإن «تبَيَّنَا بِكُلِّ شَيْءٍ» ليس على نحو الاستيعاب، بل هذا عรวม مخصص بالحسن.

فقوله تعالى: «وَأَوْتَيْنَا مِن كُلِّ شَيْءٍ» من قبيل العموم المخصص بالحسن، أي لم يخلق نعمة ليست في متناولنا وقدراتنا أو أنها قد حرمها منها.

المبحث الرابع: في كيفية شكر نعم الله تعالى
 «إِنَّ هَذَا أَنْهُوَ الْفَضْلُ الْغَيْبِيُّ» فلم يفت النبي ﷺ أن يشكر الله؛ لأن الشكر إما أن يكون بالقلب أو باللسان، فإنه ﷺ اعترف بأنه فضل من الله، واعتقد ذلك، وكان النبي سليمان عليه السلام يطعم، أي أنه طبق الأقسام الثلاثة من الشكر، يقول الشاعر:

أفادتكم النعمة مني ثلاثة يدي ولسانني والضمير المحجبا^(٢)

فلساني يلهج بذكركم، ويدني تساهم في إيصال النعمة إليكم، وقلبي يعتقد بأنكم محسنو. فالشكراً أن تعطي مما منحك الله، والإتفاق أن تعطي لله ما يتحقق رضاه. وقد وقف أبو الشهداء عليه يوم الطف ليؤدي لله شكره، وشكراً مختلف، حيث قدم القرابين له تعالى؛ لأن شريان الحياة يحتاج أحياناً إلى أن يصلح بالدم:

نجماؤها عند القتام مطلع	أبا الشهداء الواهبيين وجومهم
وماهم قد جذ الزمان فروع	زرعت بهم أرض الطفو فيبرعموا

(١) النحل: ٨٩.

(٢) لم ينسب لقائل معين. تفسير القرآن العظيم ١: ٥٣٦، ٢٤: ٣، البداية والنهاية ١: ١٣٥.

توخدمهم دنيا الفداء فيستوي بها طاعن في سنته ورضيع
 حيث قدم الصحايا الواحد تلو الآخر، ولم يبق إلا رضيعه، حيث نادى
 أخته زينب: «علي بالطفل الرضيع» فلما قتل رجع به للخيمة:

رأيت بدرأ يحمل الفرقدا	ولو تراه حاماً طفله
البسه سهم الردي مجسدا ^(١)	مخضباً من فيض أوداجه



(١) المجد: الثوب الملams للجسد، يريد: أن السهم ألبـه ثوباً من دم. انظر المعمـجم الوسيط: ١٢٢ - جسد.

{٩}

أصوات على خطبة الزهراء

أفبنت النبي لم تدرِ إذ كا
نَ نبِيُ الْهُدَى بِذَلِكَ فَاهَا
بضعة من محمد خالفت ما
قال حاشا مولاتنا حاشاها
سمعته يقول ذاك فجاءت
تطلب الإبرة ظلة وسفها
هي كانت الله أتقى وكانت
أفضل الخلق عفة ونزها^(١)

المباحث العامة في الموضوع

المبحث الأول: حول مسألة فدك

أول ما يلفت النظر في خطبة الزهراء^{عليها السلام} القدرة الأدائية والفهمية في حوارها مع الخليفة الأول، فالزهراء^{عليها السلام} كانت في سن مبكرة، وفي عمر الورد؛ إذ كانت في عامها الثامن عشر. وهذا العمر مع هذا العطاء الذي لم يجد العلم بمثله إلى الآن شيء يبعث على الإعجاب؛ فالبعاد التي تناولتها (سلام الله عليها) في خطبتها تنطوي على جانبين: الأحكام والعقائد؛ فجانب العقائد هو الجانب الذي تعرّضت له في كلامها على

(١) الآيات للسيد الجذوعي، بيت الأحزان (التعي)، ١٦٢.

التوحيد، وجانب الأحكام هو الجانب الذي تعرّضت له في كلامها على العبرات. ونحن الآن في القرن الرابع عشر وما جدّ شيء على ما جاءت به في هذين الجانبيين. وأحدث ما توصل إليه علم الأصول كانت الزهراء عليها السلام قد تطرّقت إليه في الصدر الأول.

ولنلاحظ أولاً أساس الدعوى التي جاءت بها الزهراء عليها السلام، فهي أول ما بدأت بدعوى النحلـة، والنحلـة في اللغة: العطية، ومعنى أنـحله: أعـطاـه^(١). فالواهب يقول: أنـحلـتك، والمـوهـوب له يقول: قـبـلتـك.

فالزهراء عليها السلام رفعت دعوى مفادها أن فدكاً كانت نـحلـة دفعها إليها النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه. ولدينا هنا أمور، منها أن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه هل دفع ما يملك أم لا؟ فهذه القطعة من أي أقسام الأرضيـ هي؟ لأن للارضـيـ أقسامـاً، كما أن لكل قسم منها حـكمـاً، فلديـنا مثلاً الأنـفالـ والـغـنـائـمـ وما يـحيـاـ فيـ حالـ الفـتحـ. فمن أي الأـقسامـ كانت فـدـكـ؟ لقد كانت فـدـكـ مـمـالـمـ يـوجـفـ عـلـيـهـ بـخـيلـ ولا رـكـابـ، أي أنها مـمـالـمـ يـؤـخذـ بـقـتـالـ وـلـاـ بـحـربـ، وإنـماـ أـخـذـتـ بـصـلحـ^(٢)، فقد تـناـزلـ أـهـلـهاـ عنـهاـ لـلنـبـيـ صلوات الله عليه وآله وسلامه بعد حـادـثـةـ معـيـنةـ وـصـالـحـوـهـ مـصـالـحةـ، وقالـواـهـ: نـصـالـحـكـ عـلـىـ نـصـفـ أـمـوـالـنـاـ مـقـابـلـ أـنـ تـقـرـنـاـ عـلـىـ هـذـهـ الـأـرـضـ^(٣). فـهـذـهـ الـأـرـضـ تـدـخـلـ تـحـتـ قـسـمـ الـأـنـفـالـ، وـالـقـرـآنـ الـكـرـيمـ يـقـولـ: (يـشـأـلـونـكـ عـنـ الـأـنـفـالـ قـلـ الـأـنـفـالـ لـلـهـ وـالـرـسـوـلـ)^(٤). فـالـأـنـفـالـ لـلنـبـيـ يـتـصـرـفـ بـهـاـ كـيـفـ يـحـبـ، وـجـيـءـ بـاسـمـ اللهـ هـنـاـ لـلـبـرـكـةـ. فـلـمـاـ صـالـحـ أـهـلـ فـدـكـ النـبـيـ صلوات الله عليه وآله وسلامه عـلـىـ هـذـهـ

(١) المعجم الوسيط ٢: ٩٠٧ - نـحلـ.

(٢) يـوجـفـ عـلـيـهـ يـسـرـعـ إـلـيـهـ، أـوـ تـحـثـ الخـيـلـ عـلـىـ الـإـسـرـاعـ إـلـيـهـ. لـسانـ الـعـربـ ٩: ٢٥٢ - وجـفـ.

(٣) سنـ أـبـيـ دـاـوـدـ ٢: ٢٧ـ / ٢٠١٦ـ، تـارـيـخـ الطـبـرـيـ ٢: ٢٠٦ـ، السنـ الـكـبـرـيـ (الـبـيـهـيـ) ٦: ٢١٧ـ.

شرحـ نـهجـ الـبـلـاغـةـ ١: ١٦ـ، ١٩٨ـ. (٤) الـأـنـفـالـ: ١ـ.

القطعة هبط جبرئيل عليه السلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحمل قوله تعالى: «وَأَتَ ذَا الْقَرْبَى
حَقَّةٌ»^(١)، فاستفسر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جبرئيل عليه السلام: «مَنْ هُمْ ذُوو الْقَرْبَى؟»، هُلْ هُم
الْمَجْمُوعُ؟ أَمْ أَنَّ الْمَعْنَى بِذَلِكَ وَاحِدٌ لِكُنَّ الْقُرْآنَ عَبَرَ عَنْهُ بِالْجَمْعِ مِنْ بَابِ
الْتَّكْرِيمِ وَالْتَّعْظِيمِ؟ فَالْقُرْآنُ قَدْ يَسْتَعْمِلُ مَعَ الْوَاحِدِ صِيغَةَ الْجَمْعِ تَكْرِيمًا
لَهُ، وَهَذَا مَعْرُوفٌ فِي أَسْلُوبِ الْقُرْآنِ. فَقَالَ جَبَرِيلُ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْطِي
فَدَكًا بِلِّغَةِ فَاطِمَةَ، عَوْضًا عَمَّا أَنْفَقْتَهُ أُمَّهَا فِي سَبِيلِ الإِسْلَامِ».

وَالْإِنْفَاقُ الَّذِي كَانَ مِنْ خَدِيْجَةَ يَفْوَقُ الْوَصْفَ، فَقَدْ ذُكِرَ الْمُؤْرَخُونَ أَنَّهُ مَا
مِنْ بَيْتٍ مِنْ بَيْوَتِ مَكَّةَ إِلَّا كَانَ يَضَارِبُ بِأَمْوَالِ خَدِيْجَةَ^(٢)؛ فَقَدْ كَانَ مجَمِعُ
قَرِيشٍ بِأَجْمَعِهِ يَنْاجِرُ بِأَمْوَالِهَا وَيَضَارِبُ بِهَا. وَقَدْ سَاقَتْ هَذِهِ الْأَمْوَالُ كُلَّهَا
إِلَى بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْتَهَى الْأُمْرُ بِهَا أَنْ تَنَامَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَلْدِ كَبِشٍ.
فَاسْتَدْعَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ عليها السلام وَأَنْهَلَهَا فَدَكًا، وَقَدْ جَرَتْ هَذِهِ الْمَسَأَةُ فِي
بَيْتِ أُمِّ يَمِنَ بِحُضُورِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْحَسَنِ وَالْحَسِينِ عليهم السلام وَأُمِّ أَيْمَنِ^(٣).
وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: أَلَمْ يَكُنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْسِبُ حَسَابًا لِلظَّرُوفِ، فَأَعْطِيَ فَدَكًا
لِفَاطِمَةَ دُونَ أَنْ يَشَهِدْ شَهْوَدًا عَلَى ذَلِكَ؟

الجواب: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ كَلَّهُمْ تَحْوِلُوا إِلَى شَهُودٍ. وَزِيادةً عَلَى ذَلِكَ
أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَخْطُرْ بِبَالِ مُسْلِمٍ أَنَّ الزَّهْرَاءَ يَمْكُنُ أَنْ تَكَذِّبَ، بِغَصَّ النَّظَرِ عَنِ
الْقَوْلِ بِعَصْمَتِهَا. فَلَيْسَ هَنَاكَ مُسْلِمٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ
فَاطِمَةَ يَصُدِّرُ مِنْهَا مَا هُوَ خَلَافُ الْوَاقِعِ؛ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ يَكَذِّبُ النَّبِيِّ، وَإِنْ كَذَّبَ

(١) الإِسْرَاءُ: ٢٦.

(٢) انتَرَ: مَنَقِبُ آلِ أَبِي طَالِبٍ: ١، ١٢٣، شَوَاهِدُ التَّنْزِيلِ: ١: ٤٣٨ - ٤٤٤ / ٤٦٧ - ٤٧٣، ٥٧٠ / ٦٠٨ الدَّرُ المُثُورُ: ٤: ١٧٧.

(٣) تَفْسِيرُ الْقَمِيِّ: ٢: ١٥٥، بَحَارُ الْأَنْوَارِ: ٢٩: ١٢٨.

النبي كذب الله. ذلك لأن القرآن يقول: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِلِذَّهِ عَنْتُمُ الرُّجُسُ أَهْلُ الْبَيْتِ»^(١)، والأية نزلت في خمسة كانت الزهراء أحدهم^(٢). فالكذب نوع من الرجس، وهو منفي بنص الآية.

والرسول ﷺ يقول: «فاطمة بضعة مني يؤذني ما يؤذيها»^(٣). ولو كانت مما يجوز عليها الكذب لما كان يؤذيه ما يؤذيها؛ لأن الكاذب يؤذى. فهي صادقة بنص القرآن والسنة.

ويستفاد من النص العصمة أيضاً فضلاً عن الصدق. ولإجماع المسلمين على أنها صادقة، ما كان من الممكن أن يدور في ذهن أحدهم أنها يصدر منها ما هو خلاف الواقع.

البحث الثاني: أدلة صحة ملكية الزهراء عليها السلام لهدى
وعليه، لما أنحلها النبي ﷺ فدكاً صار عندها وسائل شرعية للتملك:

الوسيلة الأولى: النحلة

وهذا ناقل من النوائل الشرعية، وتسمى بالهبة المقبوضة. وهناك نوعان من الهبة: الهبة المغروضة، والهبة غير المغروضة^(٤). وأحببت أن أبين هذه الأحكام بشكل مبسط لأنني اعتبر المنبر مائدة آل محمد عليهم السلام، ولما كان كذلك فالملأ مأمول أن يستفيد منه كل من له صلة بآل محمد عليهم السلام. وأنا اعتبر أن كل من يمت بصلة لآل البيت عليهم السلام هو على مائدتهم. وأأمل أن يستدلّ

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) مسند أحمد ١: ٣٢١، ٣: ٣٢١، ٢٥٩، ٢٨٥، ٤: ٢٩٢، ٦: ١٠٧، صحيح مسلم ٧: ١٣٠، الجامع الصحيح ٥: ٣٠ - ٣١، وغيرها كثير.

(٣) الشفاعة (القاضي عياض) ٢: ٢٢٠، أمالى أبي نعيم: ٤، ينابيع المودة: ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

(٤) انظر عدم جواز الرجوع في الهبة المغروضة المبسوط (السرخسي) ١٢: ٨٢، ١٠٥.

الخلاف ما بين الأخوة، وأن يجمعهم على حب آل محمد (عليه السلام)، لأن ذلك ذخيرة لنا.

رد دعوى جواز الرجوع بذك كونه هبة غير معوضة وقد يقول قائل: إن هذه الهبة إذا كانت هبة غير معوضة فيجوز الرجوع فيها، فإن لم يرجع بها النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يمكن أن يرجع فيها ولني الأمر؛ لأن صلاحيات ولني الأمر هي صلاحيات النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نفسها، وبذلك يمكن لأبي بكر أن يرجع فيها.

والجواب على ذلك: أن هذه الدعوى تنقض من جوانب كثيرة، نذكر منها جانبين هما:

الأول: أن الوصول إلى ولاية الأمر يكون إما عن طريق التعيين من النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أو عن طريق الانتخاب على نظرية الشورى. فأين هي نظرية الشورى التي وصل عن طريقها أبو بكر أو غيره؟ إن الذين بايعوا أبي بكر أول الأمر اثنان فقط، فهل هذان يمثلان المسلمين؟ ولو بايع كل أهل المدينة، فهل يمثلون المسلمين؟ إننا نخترع اصطلاحاً هو أن أهل الشورى هم أهل الحل والعقد، يعني أنهم يكفي فيهم كونهم اثنين أو ثلاثة، وهذا مالا يقرئنا عليه العرف العلمي أو المعنوي. فمن أراد الدليل فالشورى لا تحصل بهذا المعنى، ومن أراد فرض الأمر الواقع فلا كلام معه.

الثاني: أن لسان الخبر يقول: إن الهبة كانت معوضة، فالعرض كان مدفوعاً مقدماً وهو ما أنفقته خديجة (رض). فهذه هبة معوضة لا يمكن استردادها.

الوسيلة الثانية: اليد^(١)

وهي الناقل الشرعي الثاني. فنحن الآن نقر الملكيات العامة بدليل اليد،

(١) انظر ذك في التاريخ: ١٩٦، ومعنى قاعدة اليد: إثبات الملكية بواسطة اليد، أي بواسطة السلط على المال. انظر المحكم في أصول الفقه: ٥: ٣٥٥.

فلو أن شخصاً كان في بيت وأنا أعرف أنه لا يمتلك ورقة إثبات على ملكيته، فمن أين أعرف أنه يملكه؟ الجواب أن يده عليه حجّة، فإن تصرّفه يدلّ على أن البيت ظاهرًا له. فمن أدعى أن هذا البيت ليس له، وأنه مستأجر يملك المنفعة لا العين، فعليه أن يأتي بالدليل، أما إذا لم تكن هناك دعوى من أحد على الملكية فإن يده عليه حجّة؛ فالإيدامارة على الملكية.

والزهراء عليها السلام كانت يدها على فدك سنتين تتصرّف به، وال المسلمين يرونها، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرّها، فلو كانت خاضعة للملكية العامة لكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتزعها منها، أو نصّ على أنه ملكها المنفعة فقط لا الأصل. ولكن لم يوجد من ذلك شيء، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاها بحضور الشهود على أنها لها نحلة، فلما جاءت أبا بكر أذاعت النحلة فقال لها: ما بلغني أنها لك ملك. فقالت: «أتحلّنها أبي». فقال: لا أقبل الدعوى إلا بالشهود.

ومع أن الزهراء ينبغي ألا يطلب منها الشهود لأن الشاهد يؤيد الدعوى ويعزّ الشعور بالصدق، وهذا هو ملاك الشهادة، والقرآن يقول: «وأشهدوا ذوي غليل مِنْكُمْ»^(١)؛ لأن ملاك الشهادة أن الشاهد يعزّ الشعور بصدق المدعى، فإن كان المدعى صادقاً فما الحاجة إلى الشاهد والشهادة؟ ومع ذلك أتت الزهراء عليها السلام بالشهادتين حضروا الواقعه وهم علي والحسن والحسين عليهم السلام وأم أيمن (رضي الله عنها)^(٢). فقال: الحسن والحسين

(١) الطلاق: ٢.

(٢) السقفة وفديك (الجوهرى): ١٠٤، وفيه: وروى هشام بن محمد عن أبيه قال: قالت فاطمة لأبي بكر: إن أم أيمن تشهد لي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاني فدكاً. فقال لها: يا ابنة رسول الله، والله ما خلق الله خلقاً أحبّ إلى من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أريك، ولو ددت أن السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك، والله لأن تفتقر عائشة أحبّ إلى من أن تفتقر، أتراني أعطي الأحرم

فرعان، وشهادة الفرع للأصل لا تجوز.

متى ترد شهادة الفرع للأصل؟

ولكن هل التزم الخليفة بهذا الرأي للنهاية أم لا؟ لقد قبل الخليفة فيما بعد شهادة مالك بن أوس ^(١) وعائشة ^(٢) بأنهما سمعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث». وهذه المرأة (عائشة) فرع لأبيها، فكيف قبلت شهادتها لأبيها، ولم تقبل شهادة الحسن والحسين؟ فإن كانت شهادة الفرع للأصل لا تقبل، فهذا يلزم أن يكون ذلك قانوناً عاماً، وإذا كان لحالة دون حالة فهذا أمر يبعث على التساؤل.

ثم من قال: إن شهادة الفرع للأصل لا تجوز؟ نعم، إنها لا تقبل فيما إذا كانت تشکّل مورد تهمة، أما إذا كان هذا المورد منفياً، أو كما يقول الأصوليون: (هذا خارج تخصيصاً)، فلم لا تجوز؟ وهذا المورد مقام البحث خارج تخصيصاً؛ لأن الحسن والحسين عليهم السلام سيداً شباباً أهل الجنة ولا يمكن أن يتهما.

وأما على صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم تقبل شهادته أيضاً لأنه يجرّ النار إلى قرصه كما أدعوا. وأمام أيمن وهي امرأة أعمى لا تفقه ما تقول ^(٣)! فرجعت فاطمة، ولم

والبعض حثه وأظلمك حقك، وأنت بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ إن هذا المال لم يكن للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبي به الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولته كمَا كان يليه.

(١) انظر: المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار: ٢٩: ١٢٤، مسنـدـ أـحـمـدـ: ٦: ١٤٥، صحيح البخاري: ٨: ٣، ٥، وغيرها.

(٢) مسنـدـ أـحـمـدـ: ١: ٤٨، ٤٧، السنـنـ الـكـبـرـيـ (الـنـاسـيـ) ٤: ٦٤، ٦٣٠٨، وغيرهاـ كـثـيرـ.

(٣) انظر: كتاب سليم بن قيس: ٢/٣٩١، بحار الأنوار: ٢٨: ٣٠٢، ١٩٨: ٤٣.

يكن أحد صادقاً برأيهم، لا علي ولا فاطمة ولا الحسن ولا الحسين عليهم السلام ولا أم أيمن (رضي الله عنها). والى هنا انتهت دعوى النحلة وتوقفت^(١).

الوسيلة الثالثة: الإرث

ثم رجعت الزهراء عليها السلام إلى وسيلة التملك الأخرى وهي الإرث فقالت: «وأنتم الآن تزعمون ألا إرث لي ولا حظوة من أبي، أفضّلكم الله بأية أخرج أبي محمداً منها؟ أم تقولون: أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من ملة واحدة؟ أم أنت أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟».

وعقبت بكلامها هذا على قوله تعالى: «﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانَ ذَارُوذَ﴾»^(٢): وقال فيما اقتضى من خبر يحيى بن زكريا: «فَهُنَّ لِي مِنْ لَذْنَكَ وَلِيَّا» يزكي ويرث من آل يعقوب «وَاجْفَلَهُ زَبَ رَضِيَا»^(٣)، وقال: «﴿وَأَوْلُوا الْأَزْحَامِ بِغَصْبِهِمْ أُولَئِي بِنَفْسِهِمْ﴾»^(٤) وأنتم الآن تزعمون ألا إرث لي ولا حظوة من أبي».

فهي عليها السلام أنت الآن بدعاوى جديدة هي دعوى الإرث. ثم جاءت إلى موانع الإرث فقالت: «أفضّلكم الله بأية أخرج أبي محمداً منها؟». ومعنى هذا أن

(١) السقفة وفك (الجوهري): ١٠٣.

لقد أجاب المحققون والمحدثون على كلام أبي بكر، بأن قوله هذا مردود؛ لأن جميع مفاهيم الإسلام والسنة الحمدية ظهرت واضحة على عهد النبي صلوات الله عليه وسلم، فكيف لم يظهر هذا القول إلا بعد وفاته، والتناقل له هو وحده. وهل إن النبي صلوات الله عليه وسلم - لا سمح الله - أتى بخلاف ما جاء به القرآن كما قالت واستشهدت به السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام من الآيات؟ وكيف أخرج أبو بكر وبأي دليل وسنته آلة الرسول صلوات الله عليه وسلم وداته وحذاءه من ضمن الإرث ودفعها إلى علي عليه السلام. وعلى حد قول أبي بكر فإن فاطمة الزهراء عليها السلام ورثت إيمان النبي صلوات الله عليه وسلم وحكمته وعلمه وسنته، وإنها وارتة في جميع ذلك، فهل يمكن أن تدعى ما ليس لها بحق؟ كلاماً وألف كلاماً. وهل يجوز له أن يقول للصديقية الطاهرة: «أغلقت فأهجرت، فغفر الله لنا ولنك»؟.

(٢) النمل: ١٦. مريم: ٥ - ٦.

(٤) الأحزاب: ٦.

القرآن يخصّص بعضه بعضاً، فهي تقول له: هل هناك آية في القرآن تقول: إن الأنبياء لا يورثون؟ إن آيات القرآن عامة في الميراث. فهل عندك دليل من القرآن يخصّص هذا العموم؟ فقال: لا. فقيل له: فبم تخصّص العموم؟ قال: أخصّصه بقول النبي: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

الرواية على حديث «لا نورث»

وهذا القول غير ثابت، ولم يُؤيد أحد به الخليفة، إلا بعد ستة أشهر عندما جاء أوس بن ملك وعائشة وحفصة وشهدوا عند أبي بكر أن النبي ﷺ قال ذلك.

هذه واحدة، والأخرى أن رأي المذاهب الإسلامية الأربع أن القرآن لا يخصّص بخبر الواحد^(١)، فإذا قال القرآن: إن الناس كلهم يورثون، فلا تستطيع أن تأتي من السنة برواية تخرج الأنبياء من العموم؛ باعتبار أن القرآن قطعي الصدور والخبر ظني الصدور، والظني الصدور لا يقابل القطعي الصدور. فالقرآن عندهم لا يخصّص بخبر الواحد، لكنهم خصّصوه بهذه المسألة فقط تصحيحاً لرأي الخليفة.

ثم أتت إلى مانع آخر من موانع الإرث فقالت: «أم تقولون: أهل ملتين لا يتوارثان؟». فمن موانع المواريث أن يكون هناك اختلاف في الدين، كأن يكون أحدهما مسلماً والأخر يهودياً فهما هنا لا يتوارثان.

ثم قالت: «أم أنكم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟». فقال لها: على كل حال، إنني سمعت أباك يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

(١) انظر: الإبهاج في شرح المنهاج ٢: ١٧١ - ١٧٢، نهاية المسؤول ٢: ٤٥٩ - ٤٦٠، البحر العظيم ٣: ٢٦٥.

طلب الشهادة من الزهراء تجاوز على روح القرآن

ثم إن طلب الشهد من الزهراء تجاوز على روح القرآن والشريعة، فمن شواهد ذلك أن النبي ﷺ كان يمشي يوماً في الصحراء فجاءه أعرابي وأمسكه من تلابيبه، ثم قال له: بعنتك فرساً ولم تدفع لي الثمن فقال النبي ﷺ: «بل اشتريت وأعطيتك الثمن». فقال الأعرابي: كلاً، لم تسدّد، هات الشهد. فان فعل الصحابة من الأعرابي، وانتظروا أن يسمح لهم النبي بدفعه أو قتلها، فقال النبي ﷺ: «دعوه، إن لصاحب الحق مقالاً». ثم قال: «من منكم يشهد لي؟» فلم يشهد له أحد. فجاء خزيمة بن ثابت الأنباري رض فلما رأى الجمع سأله فقيل له: أعرابي يطلب من النبي ﷺ ثمن فرس وقد حبسه في الشمس يطالب بحقه، والنبي ﷺ يطلب الشهد فلم يشهد له أحد. فقال خزيمة: أناأشهد.

فناداه النبي ﷺ فقال له: «كيف تشهد وأنت لم تكن معنا ولم تسمع ولم تر؟». قال خزيمة: صدقناك على الوحي وأخبار السماء وما تنقل عن الله، ولا نصدقك في هذا؟ فهو يقول له: إما أن تكون صادقاً فيكون قولك كله صدقاً، وأما أن تكون غير صادق فإن نبوتك كلها غير صادقة، ونحن عندما صدقناك صدقناك بكل شيء باعتبار أنك صادق، فأنا أعلم أنك صادق من حيث أعلم أنكنبي. فقال النبي ﷺ: «قد أجزت شهادتك وجعلتها بشهادتين». فلقب خزيمة من ذلك اليوم بذى الشهادتين^(١).

وهذه العلة نفسها مطردة عند الزهراء رض لأنها أحد الخمسة أهل آية التطهير، وهي التي يعبر عنها النبي ﷺ بقوله: «بضعة مني»^(٢)، و«روحى التي

(١) الانتصار: ٤٩١، سنن أبي داود: ٢: ١٦٦ - ١٦٧ / ٣٦٧.

(٢) النسا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالى أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودة: ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

بين جنبي^(١)، و«سيدة نساء العالمين»^(٢). فهي موضع تقدیس المسلمين عامة، وهي صادقة قطعاً، فما الوجه في طلب الشهود منها؟ بالتأكيد لا وجه لذلك.

فرأت الزهراء^{عليها السلام} أن دعوى النحلة قد أغلقت، وأغلقت دعوى اليد، وكذلك دعوى الميراث بادعائهم أن النبي^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث». ^(٣)

وقد حدث فيما بعد بين الخليفة الثالث وأم المؤمنين عائشة تشنج في مسألة ميراث النبي^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}. فقد دخلت عليه هي وحفصة أيام بوادر الثورة، فقالت عائشة: ادفع لنا حقنا من الميراث من حجر النبي^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}. فاستوى جالساً بعد أن كان متكتئاً، فقال: ستعلم فاطمة أي ابن عم أنا لها اليوم. ثم قال لمن حوله: أي ميراث؟ قيل له: إن النبي^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} توفى عن تسع نساء، وهن يشتركن في الثمن من الميراث، (وهذا على نظرية الإمامية)^(٤). فقال عثمان: والنبي^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} يورث؟ إذا كان يورث فلم منعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورث فأي حق تطالبين به؟ أولست أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جتنما معكما بأعرابي يتظاهر ببوله، وشهادتم عند أبيك أن النبي^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»؟ قالت: بلى. قال: فأي ميراث تطالبين به؟ فخرجت ورفعت قميص النبي^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبل وقد أبلى عثمان سنته^(٥).

(١) الأمالى (الصدق): ١٧٥ / ١٧٨.

(٢) المستدرک على الصحيحين ٣: ١٥٦، فتح الباري ٧: ٨٢، ٢٦٦: ٩، ١٠١، ٢٦٦، مسند أبي داود: ١٩٧.

(٣) الفقيه ٤: ٢٤٧ / ٥٧٤٨، المراسم العلوية: ٢٢٤، النهاية: ٦٤٠، شرائع الإسلام: ٤: ٨٣٤.

(٤) الإيضاح: ٢٥٧ - ٢٥٨، المسترشد في الإمامة: ٥: ٨٠، بحار الأنوار: ٣١: ٢٩٥.

ثم بعد ذلك خرجت مطالبة بدمه لما علمت أن الأمر آل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فاستقبلها أحد بنى أخوالها - وهو ابن أم كلاب من بنى ليث - فقال لها: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعشلاً. ثم أنشد:

ومنكِ الرياحُ وَمِنْكِ الْفَطْرَ	فَمِنْكِ الْبَدَاءُ وَمِنْكِ الغَيْرِ
وَقَلْتَ لَنَا إِنَّهُ قد كَفَرَ	وَأَنْتَ أَمْرَتِ بِمَقْتَلِ الْإِمَامِ
وَقَاتَلَهُ عَنْدَنَا مِنْ أَمْرِهِ	فَهُنَّا أَطْعَنَا فِي قَتْلِهِ
يُزِيلُ الشَّبَابَ وَيُقْيِيمُ الصَّغْرَ	وَقَدْ بَأْيَعَ النَّاسَ ذَا تَدْرِزاً
وَمَا مِنْ وَقْنَ مِثْلَ مَنْ قَدْ غَدَرَ ^(١)	وَيُسْلِبُ لِلْحَرْبِ أَنْوَابَهَا

فقد خرجت من مكة عائنة إلى المدينة فسألت: ما الخبر في المدينة؟ فقيل لها: قتل عثمان. قالت: من الذي استخلف بعده؟ قيل لها: علي بن أبي طالب. قالت: لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد تاب عثمان، ولما تاب قتلوه^(٢).

حقيقة قداسة المصدر الأول

وهذا لا يثيرنا نحن بقدر ما يثيرنا أن جيلنا الإسلامي يفتح عينيه على هذه المفارقات ثم نريد منه أن يؤمن بقداسة المصدر الأول من الصحابة كله على الإجمال، فهذا يثير عنده التناقض والازدواجية في نفسه، فهو يسأل نفسه: هل إن الدين بالإكراه؟ أليس عندنا عقل يحلل ويفكر؟ فكيف تؤمن بهذه المتناقضات؟ كيف تؤمن بوجود القدسية مع هذه التصرفات؟

(١) تاريخ الطبرى ٣: ٤٧٦، الإمامة والسياسة ١: ٥١.

(٢) المصدر نفسه.

فالمسألة تثير لوناً من التناقض في الذهن، وتحلّ مشكلة. وهذا أشبه بما يُنقل عن أحد الأشخاص أنه كان إلى جوار نهر، فخرج كلب كان في النهر ورشه بما كان عليه من الماء، ولم يكن عند الرجل إلا هذه الجبة التي يلبسها، فأغمض عينيه وقال: إن شاء الله هو عنزة. فإن كان التاريخ هكذا بأن نغمض أعيننا ونقول: إن شاء الله عنزة، فهذه مصيبة.

الوسيلة الرابعة: سهم ذوي القربي

المهم أن الزهراء^(١) انطوت على نفسها وتركت دعوى اليد والميراث والنحلة، لكن جاءت في اليوم التالي تطالب بسهم ذوي القربي: «وَأَغْلَمُوا أَنْتَانِي فَنَتَّمْتُ مِنْ شَيْءٍ فَلَئِنْ لَّهُ خُفْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقَبْرَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ»^(٢)، فقالت: «إن الباتامي يتامانا، والمساكين مساكينا، وابن السبيل منا، واسم الله ذكر للبركة، وسهم النبي^(٣) وسهم ذوي القربي كله يعود لنا، فأعطينا حقنا من خمس الفنائيم وما يحصل للمسلمين من مواردهم»^(٤). فقال: إن مبلغ علمي أن النبي^(٥) لم يكن يعطيكم هذا كلّه، وإنما كان يسد حاجتكم فقط، ونحن نعطيكم بهذا القدر، فمن لم يكن له طعام أعطيناه، ومن كان يحتاج للباسكسوناه، ومن أراد التزويج زوجناه، وما زاد على ذلك يعود إلى بيت المال. فأحسنت الزهراء أن المراد بكل ذلك أن يغلق الباب بوجهها.

أستاذ ابن أبي الحديد يعلّم موقف أبي بكر

يقول ابن أبي الحديد: «سألت أستاذِي، وقد كان مهذباً في تعبيره، رقيقة، فقلت له: أليس المسلمون يعلمون بصدق الزهراء؟ قال: بلـ، ولا

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) انظر الخطبة كاملة في شرح الأخبار ٣٤: ٤٠، بحار الأنوار ٩٢: ٢٢٥ - ٢٢٠.

يجتمع إيمان مسلم مع قوله: إن الزهراء غير صادقة. قلت: أوليس الخليفة الأول كان يعلم بصدقها؟ قال: بلى. قلت: إذن لم لم يدفع لها فدكاً؟ قال: إن أبي بكر يعلم أن الزهراء لم تكن تطالب بفديك فقط، ولو كان يعرف أن المسألة تتف عنده فدك لأعطاتها، لكنه يعلم أنه إذا سُجل على نفسه أنها صادقة، فهذا يعني أنها لا يجوز ردّها، وإذا كان الأمر كذلك فإنها سوف تأتي إليه غداً فتقول: إن هذا المنصب لابن عمّي فأعده إلينا. لذاأغلق الخليفة الباب من أصله». وهذا هو الواقع.

والغريب أن المذاهب الإسلامية عندما يأتون إلى ميراث النبي ﷺ يقولون: إنه لا يورث الأموال وإنما يورث المنصب والعلم والحكمة، وهذا ما يورثه الأنبياء. ونحن نسأل: لمن يورث النبي المنصب؟ أليس للوريث؟ فلم لم يعط المنصب للوريث؟ ولذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «احتتجوا بالشجرة وأضاعوا الشمرة»^(١). لأن من جملة ما احتاج به المسلمين في السقيفة أنهم قالوا: نحن شجرة محمد عليه السلام; لأن محمداً منا. فالإمام يقول: إن الاحتجاج ينبغي أن يكون بالشمرة، لأن الشجرة ما هي إلا وسيلة للشمرة.

المبحث الثالث: الزهراء عليها السلام ماتت غير راضية عن الشيفيين فرجعت الزهراء منفعلة بعد أن أحست أن الباب أغلق في وجهها. يقول أصحاب الصحيح: إن الزهراء لما اشتذت بها العلة قصدها الخليفتان الأول والثاني، فدخلت عليها بعد أن استأذنا من أمير المؤمنين عليه السلام وألح عليها، فقالت: «ليدخلاء». فلما دخلت حولت وجهها إلى الحائط، فاستدار

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٦٧.

ال الخليفتان، فاستدارت هي، ثم استدارا فاستدارت، ثم قالت: «وافه لا أكلمكما حتى تصدقاني إن صدقت». قالا: بلى. قالت: «الله عليكم، هل سمعتم قول أبي في: فاطمة بضعة مني من آذها فقد آذاني؟». قالا: بلى. قالت: «اللهم اشهد عليهم أنهما آذاني»، ثم حوت وجهها مرة أخرى، فجزع أبو بكر جرعاً شديداً، فوضع الخليفة الثاني يده بيده وقال: قم ولا تجزع لقول امرأة. فأخرجها^(١).

وانطوت الزهراء على جراحها وألمها، تجترّ الألم واللوامة وتنطلب بواعث الأسى وداعي الشجا، فلاذت بالحسرة والدمعة التي ضئوا حتى بها عليها، فكانت تأتي إلى قبر النبي ﷺ فتجلس وتأخذ قبضات من ترابه وهي تقول:

ماذا على من شتم تربة احمد	لا يشم مدي الزمان غواليا
صبتت على الآيات صرن لياليا ^(٢)	صبتت على مصائب لو أنها

عكب ابوها شلون ذلت	ومن البجا ما يوم ملت
حين بالشجرة استقللت	عمدوا عليها اكتفعوها

نعم، دخلوا على أمير المؤمنين، فقالوا له: لقد أزعجتنا فاطمة بكثرة بكائها، قل لها أن تبكي أباها إما ليلاً أو نهاراً. فأخرجها أمير المؤمنين^{عليه السلام} إلى خارج المدينة فبني لها بيتاً يطلّها عن الشمس، فكانت^{عليه السلام} تأخذ يد

(١) الإمامة والسياسة ١: ٢٠ - وحول حديث «يؤذيها ما يؤذيني» انظر: مسند أحمد ٤: ٥، صحيح مسلم ١٤١: ٧، وغيرها كثير.

(٢) المغنى (ابن قدامة) ٢: ٤١١، نظم درر السمحطين: ١٨١، سبل الهدى والرشاد ١٢: ٢٨٩، مغني المحتاج ١: ٣٣٧.

الحسن والحسين عليهما السلام، فتجلس تندب أباها عليه السلام إلى أن يجنّ عليها الليل، فتأخذ بيد الحسين عليه السلام وتحمّل وثوابه إلى الدار:

قالوا لها قرئي لقد أذيتنا
البضعة الزهاء تعدد خلفهم
جمعوا على بيت النبي محمد
حطباً وأوقدت الضغائن نارها^(١)
أثى وقد سلب المصائب فرازها
عبرى فليتك تنظر استعبازها

تقول أسماء: اشتئت عليها العلة يوماً فقالت: «أنا ذاهبة إلى حجرتي أضطجع، وبعد ساعة ناديني، فإن أجبتك وألا فاعلمي أنني لحقت بأبي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. يا أسماء، إذا جاء الحسنان فضعي لهما الطعام، وإن سألا عنني فقولي: إن أتمكما نائمة بالحجرة. وتعالى إلى هنا فاسكب لي الماء».

تقول: فسكت لها ماء، فلبست ملابسها وذهبت إلى الحجرة، وبعد ساعة

(١) ومثل هذا قصيدة للشيخ صالح العلوي يقول فيها:

وَمُحَمَّدٌ مُلْقٌ بِلَا تَكْفِيرٍ
فِي طُولِ نُوحٍ دَانِمٍ وَحَنِينٍ
لَمْ يَجْتَمِعْ لَوْلَاهُ شَمْلُ الدِّينِ
وَالْمُسْتَقْبِطِينَ لَهَا أَعْزَّ جَنِينٍ
رَأْسِيٌّ وَأَشْكُوُ لِلَّاهِ شَجُونِي
بِالْفَضْلِ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا دُونِي
عَبْرِيٌّ وَقَلْبٌ مُكْمَدٌ مُحَزَّوْنِ
غُونَاهُ قَلْ عَلَى الْمَدَةِ مَعِينِي
تَبْعًا وَمَالَ النَّاسُ عَنْ هَارُونِ
هُوَ فِي التَّوَابِ مَذْحِيَّتِي قَرِينِي
أَمْ كَسْرٌ ضَلِّيٌّ أَمْ سَقْوَطٌ جَنِينِي
أَمْ جَهَلُهُمْ حَقِّيٌّ وَقَدْ عَرَفُونِي
وَسَالُوهُمْ حَقِّيٌّ وَقَدْ نَهَرُونِي

الْوَانِسِينَ بِظُلْمِ آلِ مُحَمَّدٍ
وَالْقَائِلِينَ لِنَفَاطِمِ آذِيَّسْتَنَا
وَمَجْمَعِي حَطْبٍ عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي
وَالْهَاجِمِينَ عَلَى الْبَسْتُولِ بَيْتِهَا
خَلَوَا إِنْ عَمِيْ أَوْ لَا كَشْفٌ فِي الدَّعَا
مَا كَانَ نَاقَةً صَالِحَةً وَفَصِيلَهَا
وَرَنَتْ إِلَى الْقَبْرِ الشَّرِيفِ بِمَقْلَةٍ
قَالَتْ وَأَظْفَارُ الْمَصَابِ بِقَلْبِهَا
أَبْنَاهُ هَذَا السَّامِرِيُّ وَعَجَلَهُ
أَيِ الرِّزَاعِيَا أَتَسْقِي بِسَجَلْدِي
فَقَدِي أَبِي أَمْ غَصْبٌ بِعَلِيٍّ حَقَّهُ
أَمْ أَخْذَهُمْ إِرْثِيٌّ وَفَاضِلٌ نَحْلَتِي
قَهْرَوَا يَتَعَمِّيكَ الْحَسِينَ وَصَنَوْهُ

ناديت: يا بنت رسول الله، فلم تجبني. قلت: يا بنت من صلی بملائكة السماء مثنى مثنى، فلم تجبني. قلت: يا بنت من حمل الركن بأطراف الرداء، فلم تجبني. فدنوت إليها فكشفت الرداء عن وجهها فإذا بها ميّة، فجلست عندها أبكي، وبينما أنا كذلك وإذا بالحسن والحسين قد أقبلَا، فقالا: «أين أمّنا يا أسماء؟». قلت: سيداي، إنها في الحجرة مضطجعة، هذا طعامكما إن أردتما الطعام. قالا: «أسماء، متى علمت أننا نأكل وأمّنا ليست معنا؟ أين هي؟». قلت: في الحجرة. فهروي الحسن إليها فكشف الرداء عنها، ثم صاح: «أخي حسين هلم إلي، إن أمّنا فاطمة قد فارقت روحها الدنيا»^(١):

بابي التي ماتت وما دفنت وبين ضلوعها	ماتت مكارها السنية (٢)
--	---------------------------



(١) قريب منه ما في بحار الأنوار ٤٣: ١٧٤ - ١٨٠ / ١٥، عن فضة خادمة الزهراء عليها السلام.

(٢) الأصبهية: سياط تنسب إلى ذي أصبع، ملك من ملوك حمير. لسان العرب ٢: ٥٠٧ - صبح، ٤٩٢: ٣ - ربـ.

الفصل الثالث
أمير المؤمنين على عليه السلام

﴿١٠﴾

بين يدي أمير المؤمنين ﷺ

أبا الحُسْنَى وَتِلْكَ أَرْوَعْ كَنْبَةٍ
لَكَ فِي خَيَالِ الْدَّهْرِ أَيُّ مَلَامِعٍ
ثَرَوْيِ السَّئَنَا وَيُتَرَجِّمُ النَّسَرِينَ
فِي الصَّبَحِ أَنْتَ الْمُسْتَحْجُمُ مِنَ الْلَّظَنِ
وَالثَّلِيلُ فِي الْمَحْرَابِ أَنْتَ أَنْبَىَ
تَحْسُو وَأَنْتَ قَطْلِيقَةٌ مَرْقُوْعَةٌ
وَثَمُوثُ مِنْ جُوعٍ وَأَنْتَ بَطِينَ
أَلْؤُكُ الْبَيْضَاءَ طَرْقَتُ الدَّنَى
فَلَهَا عَلَى ذِيْمِ الْأَنَامِ ذِيْوَنَ

المباحث العامة في الموضوع

المبحث الأول: شعاع من حياته ﷺ

وأنت تواجه علي بن أبي طالب ﷺ يأخذ الشعاع بيصرك، فلا تدرى من أية ناحية تلتح إلى مضمونه ومعناه. وهناك نافذة فتحها الرسول الأعظم ﷺ نريد أن ندخل إلى علي ﷺ من خلالها، تلك هي التي حددها يوم الخندق لما نزل على ﷺ لقتال عمرو بن عبد ود، فقد رفع رأسه وقال كلمته التي كانت وما تزال ترن في سماع الدهر: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله». وهذه الرواية يرويها المسلمون، مفسروهم ومؤرخوهم^(١) كافة. مما معنى هذه

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١، ٢٨٥، ٢٨٥، ٦١، ٦١، ينابيع المودة ١: ٢٨١، ٢٨٤.

النافذة التي يفتحها النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه لنخرج منها إلى مضمون على صلوات الله عليه وآله وسلامه؟

المبحث الثاني: محطات مضيئه

المحطة الأولى: ولادته صلوات الله عليه وآله وسلامه في الكعبة

عند التأمل في سيرة هذا الرجل منذ أن دخل الحياة إلى أن خرج منها - وإن كان في الواقع لم يخرج منها بسوى الجسم - نجد أن في حياته لحظات حاسمة في تاريخ الإسلام، فقد دخل الحياة عن طريق أقدس بقعة في نفوس المسلمين وهي الكعبة مهوى أفئدة الناس. وهذه منقبة لا يشك بها المسلمون، وقد تغنى بها الأدباء، ورعت بها الأقلام، واهتز لها التاريخ، وتباينت العواطف. وفي اعتقادي أن تلك المنقبة وإن كانت عظيمة كبيرة له، لكنها لا تزيد في شخصيته شيئاً؛ لأنه صلوات الله عليه وآله وسلامه لو كان عنده في حياته نقص أو كان يُغزوه سبب من أسباب العظمة لالتمسناله العظمة من خارج ذاته، لكن ذاته مليئة بالعظمة، فولادته في الكعبة المقدسة ما ظهرت له قبلأً مرتّبه الشرك أو الكفر فهو لم يشرك طرفة عين، ولا وأضافت مجدأً إلى جبهة ما عفرت بالسجود للأصنام فهو قد كرم الله وجهه عن السجود للصنم. فعلي صلوات الله عليه وآله وسلامه ولد وكان الله يملأ قلبه، ونور الإيمان يعم حياته، والوحدةانية تأخذ عليه أبعاده، فلم يسجد لصنم قط. ولكن الله تعالى أراد بهذه المنقبة لعلي صلوات الله عليه وآله وسلامه أن يرد الجميل لهذه البقعة المقدسة التي انطلقت منها كلمة التوحيد بقلب الكعبة بأن يكون صلوات الله عليه وآله وسلامه المدافع عن هذه الكلمة بتحطيم الأصنام والقضاء على آلهة تعبد من دون الله، ولو صلوات الله عليه وآله وسلامه أيضاً - كونه المدافع عن دينه - بأن جعل ولادته في بطن الكعبة. يقول السيد الهندي:

تسولد في البيت فلبيته
لما دعاك الله قدما لأن
طهرت من أصنامهم بيته^(١)
جزيئه بين قريش بان

ماذا أقول لمن حطت له قدم

فعندهما دخل رسول الله عليه السلام إلى الكعبة الشريفة عام الفتح جلس وقال: «يا علي، إن الله أمرني أن أحطم هذه الأصنام، اجلس حتى أرقني على منكبك». يقول علي عليه السلام: «قلت بلني يا رسول الله، فجلست ووضع رسول الله عليه السلام رجله على عاتقي، فأردت أن أقوم فما استطعت، وحاولت أن أنهض فلم أتمكن، فقال رسول الله عليه السلام لي: تنه، ثم جلس وقال لي: ضع رجلك على عاتقي. فأحجمت وقلت له: يا رسول الله رجلي لا تطاوعني. فقال لي: ضع رجلك على عاتقي، إن الله أمرني بذلك. فوضعت رجلي على عاتقه فنهض بي، فواهله لو شئت أن أطاح السماء لطلتها»^(٢). ثم صعد علي عليه السلام إلى أعلى الكعبة وجعل يأخذ الصنم ويضرب به الآخر ويقرأ: «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا»^(٣)، وعمد إلى الأصنام وجميع آثار الشرك فأزالها عن بيت الله^(٤).

وإذا كان في هذا بعد قد حطم الأصنام المادية فقد حطم فيما بعد الأصنام المعنوية في نفوس الناس، فقد حطم الأصنام التي قامت في النفوس على العصبية والطمع والإلحاد، فجاء ليملأ النفوس بأنوار

(١) ديوان السيد رضا الهندى: ٢٥، الفدير ٦: ٢٢.

(٢) وفي ذلك قال أبو نواس:

وعلى راضع رجلاه بمسكان وضع الله يده
وقال آخر:

ماذا أقول لمن حطت له قدم في موضع وضع الرحمن يمناه

انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٣٩٩ - ٤٠٠، نهج الإيمان: ٦٦١.

(٤) الإسراء: ٨١. قريب منه في نهج الإيمان: ٦٠٧.

الإيمان، وليهذب السلوك من شوائب الشرك، وليلعلع أنشودة على فم الدهر، مهمتها أن تزيح الإلحاد والشرك من كلّ بعد من أبعاد الحياة، فنادي بأعلى صوته بأن الناس «صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق»^(١).

وقد ترى بعضهم يعبد ربّاً ولكنه يعبد ربّاً مجسماً، ولذا يقول القرآن: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَخْتَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٢)، ووقف على عليه السلام ليقول: «من قرنه فقد ثناه ... ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده»^(٣). وقد وضع بهذا دستوراً للوحدانية؛ ليزيل من نفوس الناس الأوهام العالقة، وليتحقق التوحيد في المضمون، وفي السلوك الاجتماعي. فـ«ما عرض له أمران أحدهما له والأخر لنفسه إلا اختار الذي له على الذي هو لنفسه»^(٤)؛ إيماناً منه بأن الله هو خالق العباد، وهو المتفرق بالعبادة، فيجب أن يلحظ وحده.

المحطة الثانية: ياعلي أنت أخي في الدنيا والآخرة

ومن بعد هذا المنزل الذي تفرد به في ولادته في الكعبة والذي لم يتأت لأحد قبله ولا بعده، تفرد بشيء آخر إلا وهو المهد الذي نشأ فيه، فهل تجد مهدأً منذ أن خلق الله الدنيا مثل المهد الذي نشأ فيه على عليه السلام? كلاً وألف كلاً، فمهده صدر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، فقد تلقاه رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه بين ساعديه، واحتضنه وأحنى عليه يقبله ويضمّه إلى صدره، ويوجره^(٥)

(١) نهج البلاغة / عهد عليه السلام إلى مالك الأشتر، الرقم: ٥٣.

(٢) يوسف: ١٠٦ . (٣) نهج البلاغة / الخطبة: ١.

(٤) من حديث الإمام زين العابدين عليه السلام وقد ورد بهذا المعنى أحاديث كثيرة، انظر الكافي: ٨ / ١٦٢ ، الإرشاد: ٢ ، ١٤١ ، بحار الأنوار: ٤١ ، ١٢٩ ، ١٣٠ - ٤٠ ، وغيرها كثير.

(٥) الوجر: أن يوضع الدواء أو الماء أو غيره في حلق الصبي. لسان العرب: ١٥ ، ٢٢٠ - وجرا.

اللبن ساعة شربه، ويهرّ مهده وينام قربه ويطوف به شعاب مكّة:

لقد ترعرعت في جبر عليه الذي
جبر براهيم تعظيم بها قطعاً
كان المُؤْتَبِ لَهُ طَهَ فَقَدْ بَرَغَ^(١)
ربِّيْبِ طَهَ حَبِيبِ اللهِ أَنْتَ وَمَنْ

فكان هذا المهد صدرأً نقل إلى الدنيا الخير والنور والوحى والقرآن. لقد حصل على عليه السلام مهد لم يتمن لأحد أن يحصل عليه، لقد رفعه ذلك الصدر وأحنت عليه وعذاته ورباه وترك بصماته عليه، فكانت آداب رسول الله عليه السلام وأخلاقه وسيرته الطابع المميز لعلي عليه السلام في مسيرته في هذه الحياة، وذلك هو الذي يفسّر لنا مُواخاة رسول الله عليه السلام له، عندما أخى بين كل اثنين من أصحابه وترك علياً وحده، فجاءه وعيناه تطفحان دموعاً يقول عليه السلام: «قلت: يا رسول الله أراك أخيت بين أصحابك وتركتني؟». قال: «إنما أذكر لك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»^(٢):

لو رأى منه النبأ لأخاه ه وإن فاخطا الانسقاذ^(٣)

يقول عبد الباقي العمري:

صهره وابن عمّه وأخوه	يا أبا الأوصياء أنت لطه
أيشر العالمين ما عرفوا	إن الله في معانيك سرًا
روابياؤه في متنهم الدو	أنت ثاني الآباء في منتهي الدو

(١) البيتان لعبد الباقي العمري. الأنوار العلوية: ٣٤٥، ٣٩.

(٢) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وصيغ مختلفة، اظر الطبقات الكبرى: ٣، ٢٢، المعجم الكبير: ٦٢، تاريخ مدينة دمشق: ٤٣، ٨، كنز العمال: ١١: ٥٩٨، ٢٢٩٣٩ / ٦٠٨، ٣٢٨٧٩ / ٦٦٠، ٣٦٤٤٠ / ١٤٠، ١٣، ٣٢٩٥٥ / ٦٦٠.

(٣) البيت للسيد محمد الهندي. الأنوار العلوية: ٣٤٠.

خَلَقَ اللَّهُ أَدْمَأْ مِنْ تَرَابٍ فَيُؤْ أَبْنَأْ لَهُ وَأَنْتَ أَبْوَةُ^(١)

وهكذا ولع عليه الحياة من أقدس بيت، وترعرع في أقدس مهد، واحتلَّ
أعظم مكانة في نفوس المسلمين.

المحطة الثالثة: دفاعه عن الإسلام ونبي الإسلام

ثم جاء المنزل الثالث، فقد هبط جبرئيل يحمل أول سورة من السماء ليقرع بها سمع النبي محمد ﷺ، فولج الإسلام إلى الدنيا عن طريق سمعه ﷺ؛ فهو المبلغ الأول لرسالة السماء، فكان أول سمع ولجهة الكلمة الوحي هو سمع ابن أبي طالب ﷺ عندما هبط جبرئيل عليه السلام يحمل قوله تعالى: «أَفَرَا بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلْقٍ»^(٢)، فراحـت تلك السورة تقرع سمع ابن أبي طالب^(٣) الذي احتضن القرآن ورعاه فكراً ومضموناً، وحمله شعاراً، وذاه عنه بسيفه، ووقف يستخدم منه دستوراً للحياة في كل ما قال وما فعل وما بلغ.

خرج الرسول ﷺ يحمل القرآن على يديه، فشرعت له الرماح وسلّت له السيوف، وأزيأَ الشرك يربد القضاء عليه.. بروز ﷺ وحيداً تكاد السيوف والرماح تشتجر فيه والأحقاد تأكله، ويقاد المشركون يزلقونه بأبصارهم

(١) الفديري ٦: ٣٣٨ . (٢) العلق: ١ - ٢ .

(٢) الذي نزل فيه قول تعالى: **(وَتَبَيَّنَهَا أُذْنُ وَاعِيَةٌ)** الحافظ: ١٢. انظر: جامع البيان، المجلد: ١٤، ج ٦٩ / ٢٦٩٥٤، شواهد التنزيل: ٢: ٣٦١ - ٣٧٨ / ٢٧٨، كنز العمال: ١٣: ١٧٧ / ٣٦٥٢٥ - ٣٦٥٢٦، فيض القدير: ٣: ٦٠، وقد قال بعد نقل جملة من الأحاديث في فضله ﷺ: والأخبار في هذا الباب لا تكاد تحصى. أو هو ما يروى من أنه عليه السلام كان إلى جنب رسول الله عليه السلام في غار حراء لما نزل عليه الوحي، وسمعه

لما سمعوا الذكر^(١)، ووقف على عليه السلام ويده على قائم سيفه يذود عنه عليه السلام ويدأب على حمايته في الليل وهو نائم، وفي النهار وهو يبلغ رسالات ربه، فكان ألزم له من ظله. فكان للرسول عليه السلام من على عليه السلام سيف، ومن أبي طالب عليه حماية، ومن فاطمة بنت أسد رعاية، وهكذا ترعرع من قبل نبينا محمد عليه السلام في بيت علي عليه السلام. واذ الناس ترمي الرسول عليه السلام بالحجارة والجتون، وتهمه بكل تهمة يقف عليه ومن ورائه بيته، وينتفض سيف له وحماية لأبي طالب لتحدب على النبي عليه السلام حتى يؤدي رسالته:

لما مثل الدين شخصاً فاما	ولولا أبو طالب وابنه
وذاك بيثرب شام الحساما	فهذا بمحنة آوى وحامي
وأودى فكان علي تماما	تكلل عبد مناف بأمر
(٢) والله ذا للسماعي ختاما	فنهذ فاتحاً للهدى

هذا أخي وزيري

ثم كانت مرحلة التبليغ، وأمرت السماء النبي محمد عليه السلام أن يبلغ الأدنى فالأدنى؛ لأن الأقربين أولى بالمعروف^(٣)، وحمل الرسالة، فلا بد من قرع

(١) تضمين لقوله تعالى: **«إِنْ يَكُادُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْيَزُّ لَقُونَكَ بِإِنْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الدُّخْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمُجْتَنِونَ»** (القلم: ٥١).

(٢) الآيات لابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة: ١٤: ٨٤، وانظر الصراط المستقيم: ١: ٣٣٤، الدرجات الرفيعة: ٦٠.

(٣) تضمين لقوله تعالى: **«وَالْأَقْرَبُونَ بِالْعَزْرَوْفِ حَقًا عَلَى الْمُتَقَبِّلِينَ»** (البرة: ١٨٠). قال المجلوني: «(الأقربون أولى بالمعروف) قال السخاوي: ما علمته بهذا اللفظ، ولكن قال النبي عليه السلام لأبي طلحة: «أرأى أن تجعلها في الأقربين»... وفي أنسى المطالب: اشتهر على الألسنة: «الأقربون أولى بالمعروف»، وليس بحديث خلافاً لمن زعمه، لكن يشهد له قصة أبي طلحة، وقوله تعالى...». ثم ذكر الآية الكريمة أعلاه، كشف الخفاء: ١: ٤٨٦ / ١٦١.

أسماعهم أولاً بالرسالة، وأمر النبي ﷺ أن يجمع بني عبد المطلب، فجمعهم، ووقف رسول الله ﷺ بين ظهرانיהם بعد أن صنع لهم على عليه السلام طعاماً وكان فخذ جزور وعساً من اللبن، وكان عددهم أربعين فأصدرهم شباعاً، ولم ينقص من الطعام شيء، ثم قال لهم رسول الله: «لو قلت لكم وراء هذا الجبل قوم يريدون غزوكم، هل كنتم تصدقونني؟». قالوا: بلى، لأننا ما عرفنا منك كذبة وأنت الصادق الأمين. قال: «والله لقد جئتكم بخير ما جاء به وآسف إلى قومه، قولوا: لا إله إلا الله تفلاحوا».

فقام إليه عمّه أبو لهب وقال له: ألم هذا جمعتنا؟ تبا لك. فهبط القرآن الكريم ليقول: {تَبَّأْيَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} ^(١).

ولم تؤثر تلك الواقعة في نفس النبي ﷺ أبداً، فكرر الدعوة وأمر عليه عليه السلام بصنع الطعام ففعل، ووقف رسول الله ﷺ ليقول لهم: «من منكم يتبعني على هذا ليكون أخي وزيري وخليفي من بعدي؟». فلم يقم إلا علي عليه السلام، وهو أصغر القوم سنّاً، يقول عليه السلام: «قلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس. وفي الثانية قمت فقلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس». وفي الثالثة أمسكه من رقبته فقال: «هذا أخي وزيري وخليفي من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا».

فخرج القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: إنه يأمرك بطاعة ولدك ^(٢).

الله تعالى يباهي الملائكة بعلی عليه السلام

ومررت الدعوة تأخذ طريقها بين الشدة والعسر والامتحان، وأحياناً بين الحرب والسيوف إلى أن قدر لها أن تمر بأمر حاسم؛ فلما أن تموت بمماتها وأماماً أن تنتعش، واجتمعت قريش في دار الندوة، وقررت

(١) المسد: ١، مناقب آل أبي طالب: ٤٣. (٢) شرح الأخبار: ١٠٧.

الآن يفلت منهم النبي محمد عليهما السلام، وتوقفوا فيمن يقدم ويقوى على قتله، حتى انبرى لهم أبو سفيان فقال: نأخذ من كل قبيلة رجلاً ونعطيه سيفاً، ونأمرهم أن يدخلوا عليه دفعة واحدة ويضعوا السيوف فيه فيذهب دمه هدراً بين القبائل، فصعب على بني هاشم أن يطلبوا بدمه. فقرر رأيهم على ذلك، ووضعوا السيوف بأيدي الرجال المنتدبين لذلك فحاصروا البيت. وبات رسول الله عليهما السلام وقد قرع الوحبي سمعه: ﴿وَإِذَا يَنْخُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِيَثْبِطُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَنْكُرُونَ وَيَنْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١)، فأمره جبرائيل عليهما السلام أن يهاجر في تلك الليلة، وخرج النبي عليهما السلام والثالث، لكنه لم يصل معهما، وكان قبل خروجه استدعى الإمام علياً عليهما السلام فقال له: «يا علي». قال: «بلني يا رسول الله». قال: «إن الله أمرني أن أضجعك مكانك هذه الليلة وأن تتعجر برداي وتنام مكانني». فالتفت إليه الإمام علي عليهما السلام قائلاً وفي نفسه الإذعان الكامل: «يا رسول الله، إذا نمت مكانك أو تسلّم؟». قال: «بلني». قال: «روحني لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الودا».

وبات علي عليهما السلام على فراش النبي عليهما السلام، فلما أصبح الصباح هجموا عليه فانبرى لهم بسيفه قائلاً: «ما وراءكم؟». قالوا: أين محمد؟ قال: «أوتركوني عليه حارساً». وشهر السيف في وجوههم، فكرروا عنه راجعين. وقد خلدت السماء هذه اللحظة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَشَرَّى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَةَ اللَّهِ﴾^(٢)، وهبط جبرائيل وميكائيل كل منهما يقول: «بغ بغ لك يابن أبي طالب، من مثلك وقد باهني الله بك ملائكة السماوات»^(٣):

ومناقب لك دون أحمذ جاوزت بمقام التوصيف والتحديد

(١) الأنفال: ٢٠٧. (٢) البقرة: ٢٠٧.

(٣) الأمالي (الطوسي) ٤٧١ - ٤٧٢، شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٦٢، التفسير الكبير ٥: ٢٠٤.

ثُهْدِي إِلَيْكَ بِسَوْارِقَ وَرَعْدِهَا
 يُهْدِي الْقَرَاعَ لِسَمْعَكَ التَّغْرِيدَا
 بِالْتَّفَسِ لَا فَشِلًا وَلَا رَعْدِهَا
 أَوْمَادَرُوا كَنْزَ الْهَدَى مَرْصُودَا
 لَوْلَانَكَ مَا عَرَفَ الْوُجُودَ وَجُودَا^(١)

فَعَلَنَ الْفَرَاشَ مَبِيتَ لِيلَكَ وَالْعِدَا
 فَرَقَدَتْ سَلْوَخَ الْفَرَادِ كَاشِمَا
 وَوَقَيْتَ لِيلَتَهُ وَبَئْ مَوَاسِيَا
 رَصَدُوا الصَّبَاخَ لَيَنْقُلُوا كَنْزَ الْهَدَى
 يَا مُنْشِئَ الْأَقْلَاكِ وَالْأَمْلَاكِ بَلْ

وَتَلَكَ الْلَّيْلَةَ لَمْ تَكُنِ الْأُولَى الَّتِي نَامَ فِيهَا الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي فَرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ أَلْفَ فَرَاسِهِ ثَلَاثَ سَنِينَ مُتَتَالِيَّةٍ يَوْمَ حَوْصَرَ بْنُ هَاشِمٍ فِي الشَّعْبِ، وَيَوْمَ وَقَفَ أَبُو طَالِبٍ رض وَبَنْوَهُ الْأَرْبَعَةِ، فَكَانَ يَضْجَعُ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاعَةً ثُمَّ يَنْقُلُهُ لِيَضْعُ عَلَيْهِ مَكَانَهُ ثُمَّ يَنْقُلُهُ لِيَضْعُ أَحَدٌ وَلَدَهُ مَكَانَهُ وَهَكَذَا^(٢).

حامي ظعينة الرسول صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَهَا جَرَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَتْ قَرِيشٌ: إِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ أَفْلَتْ مَنَا بِشَخْصِهِ فَلَنْ يَفْلَتْ مَنَا أَهْلُهُ وَعِيَالُهُ. وَبَعْثَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ «أَنْ احْمَلْ إِلَيَّ الْفَوَاطِمَ». وَحَمَلَ عَلَيْهِ فَاطِمَةُ بْنَتِ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَاطِمَةُ بْنَتِ أَسَدٍ وَفَاطِمَةُ بْنَتِ الزَّبِيرِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ وَفَاطِمَةُ بْنَتِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ، وَمَرْ بَقْرِيشٍ وَهِيَ فِي أَوْجِ كَبْرِيَائِهَا وَغَطَرَسْتَهَا، فَتَحَدَّى تَلْكَ الْكَبْرَيَاءِ، وَوَقَفَ لِيَقُولُ: «هَذِهِ ظَعِينَةُ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا خَارِجٌ بِهَا، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَتَبَعَنِي فَلِيَفْعُلْ». وَخَرَجَ، وَعَرَّ عَلَى قَرِيشٍ أَنْ يَتَحَدَّا هَمَّا صَبَّيَ لَمْ يَجَازِ العَشْرَيْنَ إِلَّا بَقْلِيلٍ، فَتَبَعَهُ ثَمَانِيَّةُ مِنْ أَبْطَالِ قَرِيشٍ وَمَعَهُمْ عَبْدُ الْأُمَيَّةُ بْنُ حَرْبٍ يَقَالُ لَهُ جَنَاحٌ،

(١) الأبيات للكعببي، وقد مررت في ج ١ ص ٧٨.

(٢) روضة الراعظين: ٥٣.

حتى إذا بلغوا محلاً فيه راعٍ يرعى الغنم سأله: هل مررت بك ظعينة لمحمد؟ قال: نعم، مرّ بي ابن أبي طالب، وقد سلك هذا الطريق. فتبعدوا، فلما أحس بهم علي عليهما السلام قال لأبي واقد الليثي وأيمن - وكانا يقودان النباق - «انزلَا». فنزلَا، فقال: «اعقلَا النباق وأنزلَا الفواطم». ففعلَا، وأخذ على سيفه وأقبل عليهم، فقالوا له: أتخرج بظعينة محمد من بين ظهرانينا؟ عَد. قال: «وإن أبى؟». قالوا: لابد من عودتك، قال: «لا وافه».

فبدره العبد بضربة راغ على عليهما السلام، عنها ثم ضربه ضربة قدّته ووصلت إلى سرج الفرس. فتراجع الثمانية وقالوا: كُفْ سيفك عنا يا بن أبي طالب. ثم كرّوا راجعين، وكرّ لظعينة يحميها وهو ماشير على قدميه، حتى مجلتا، وظهرت فيهما القروه، فتلقاءه رسول الله عليهما السلام يبارك قدمين سمعنا في سبيل الله، ويدأ ذادت عن عيال رسول الله عليهما السلام، فاحتضنه ومسح على رجليه واعتنقه وأبى أن يدخل إلى دار هجرته إلا وساعده بساعد على عليهما السلام، وحط على عليهما السلام رحله بالمدينة^(١).

سجدت رؤوسهم لديك

وفي المدينة واجه النبي عليهما السلام الحرب بكلّ ضراوتها وقد أطبت العرب على قتاله، ووقف علي عليهما السلام في هذا المنزل سيفاً لا تثنّمه الحوادث، ورمحاً لا تكسره النوازل، وعزيمة لا تهزم. ودونك تاريخ الغزوات، فهذه غزوة بدر التي يسمّيها التاريخ أم الواقع؛ لأن وجود الإسلام كان متوقعاً على نصر المسلمين في تلك الواقعة بشهادة رسول الله عليهما السلام حيث قال: «يا رب، لئن هلكت هذه العصابة فلن تبعد على وجه الأرض»^(٢). ووقف ثلاثة

(٢) جامع البيان، العجلة: ٦٤، ج ٩، ٢٥١.

(١) شجرة طوبين ١: ٦٤ - ٦٦.

وثلاثة عشر مجاهداً من صحابة الرسول ﷺ في مقابل جموع قريش
بكبر يائها وعنجهيتها وسلاحها، وكان فيها على عليه السلام الوجه الأول. فكان
عدد القتلى آنذاك سبعين قتيلاً، منهم خمسة وثلاثون بيد علي عليه السلام،
والنصف الآخر اشترك به الجيش بأجمعه. وكان في طليعة القتلى عتبة
وشيبة والوليد الذين قالوا الرسول الله محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه: أخرج إلينا أكفاءنا من
قريش. فأخرج لهم ثلاثة من الأنصار فقالوا لهم: ارجعوا فلستم لنا بأكفاء.
فلما رجعوا نادوا النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه ثانية: أخرج لنا أكفاءنا من قريش. فقال صلوات الله عليه وآله وسلامه: «قم
يا علي، وقم يا حمزة، وقم يا عبيدة». فقاموا، والتقوى عبيدة بشيبة، وحمزة
يعتبة، وعلى عليه السلام بالوليد، فقتل علي عليه السلام الوليد ورجع ليمرى عمه حمزة
يصاول عتبة، فقال له: «طاطىء رأسك يا عم»، فضرب رأس عتبة فأرداه،
وشدّا معاً على شيبة فقتلاه وحملوا عبيدة ومنح ساقه ينتشر على
الأرض ^(١):

كُبْرٌ وَمَا زَالَتْ لَهُنَّ وَلُودًا	وَغَدَاءَ بَدِيرٍ وَهِيَ أُمٌّ وَقَانِيٌّ
شَظِيمًا وَلَا تَنْظَلَاهُنَّ عَقِيدًا	فَابْلَتْهُنَّ فَلِمَ تَدْعُ لِعَوْدَهَا
يُسْمِنَاهُ أَرْدَتْ شَيْبَةً وَوَلِيدًا	فَالْتَّاخُ عَتْبَةً ثَاوِيًّا بِسَعِينَ مَنْ
كَانَ الَّذِي ضُرِبَتْ عَلَيْهِ سَجُودًا	سَجَدَتْ رُؤُوسَهُمْ لَدِيكَ وَإِنَّمَا

نداء السماء: لا فتنى إلا على

ثم جاءت محطة أخرى في طريق الإسلام وهي واقعة أحد، يوم وقفت
قريش وهي موتورة وزغاريد النساء وراءها تملأ الأفق:

نَحْنُ بَنَاثُ طَارِقٍ نَفْشِي عَلَى النَّعَارِقِ

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢١١، مجمع البيان ٤: ٤٤١، بحار الأنوار ١٩: ٢٥٤، ٢٢٥، ٢٩٠.

الذر بالمخانق
والمسك بالفارق
إن ثقلوا ثعائق
أو ثدروا شفاق
فراق غير وابق^(١)

وكتيبة أخرى تسمع منها:

إيها بني عبد الدار^(٢)
إيها حمامة الأدباز

وحامل اللواء يرتجز:

إن على رب اللواء حقة^(٣)
أن يخضب الصعدة أو تندقا

فكان ذلك المنظر قد بعث الرعب في النفوس وزلزل الأقدام، ووقف على علي عليه السلام وبide سيفه وبين أضلاعه النفس المطمئنة والقلب الذي لا تهزه الهزائم، ونزل إلى حامل اللواء طلحة بن أبي طلحة العبدري وأرداه بضربة من ضرباته، فخفّ أخوه للواء فأرداه على علي عليه السلام قتيلاً، وخفّ أخوه الثاني فأرداه بسيفه، وهكذا حتى أرداهم علي عليه السلام بأجمعهم، وكانوا سبعة من ولد عبد الدار. فجاء غلام لهم فحمل اللواء فأرداه على علي عليه السلام قتيلاً.

وسقط اللواء وانهزم الجيش، ولكن المسلمين خذلوا النبي عليه السلام ولم يأخذوا بقوله، فترك الرماة مكانهم ونزلوا ليغنمو، فدارت الدائرة على المسلمين، وفرّ الناس عن رسول الله عليه السلام، وصاح إبليس: قتل محمد. ولم

(١) شرح الأخبار ١: ٢٧٣، تاريخ الطبرى ٢: ١٩٥، ولم ينقلها بتمامها.

(٢) شرح الأخبار ١: ٢٧٣، تاريخ الطبرى ٢: ١٩٦، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٧، البداية والنهاية ٤: ١٨ باختلاف في لفظ «إيها».

(٣) هو عثمان بن أبي طلحة، أخو طلحة الذي قتله أمير المؤمنين عليه السلام في المعركة عينها. شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٣٦.

يبقى مع النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه أربعة عشر، سبعة من المهاجرين ومثلهم من الأنصار، ووقف بعض كبار الصحابة على الجبل يقول أحدهم للأخر: دعوا عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان.

وقف علي صلوات الله عليه وآله وسلامه يدافع عن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه في ذلك الموقف، يقول له النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه: «ددعني هذه الكتبة»، فيذودها، ويقول له: «ادفع عني هذا الخصم». وهو يقاتل، والعباس بن عبد المطلب ينادي: يا أهل سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، هذا رسول الله، ويحكم ثوبوا إليه.

وقف علي صلوات الله عليه وآله وسلامه حتى انتهت المعركة ووقف جبرائيل يهزه الإعجاب لينادي بين السماء والأرض: «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتن إلا على»^(١).

برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه

ومرت معارك ومعارك، ولعل من أبرزها الخندق، يوم وقف المسلمون والرعب يملأ قلوبهم. ورسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ينادي: «من لعمرو، وأنا ضامن له على الله الجنة؟». فلم يفزع سوي ذلك الفتى الذي نزل إلى المعركة، فضرب عمراً ضربة راغ عنها فقطعت فخذنه وسقط إلى الأرض. فجثا علي صلوات الله عليه وآله وسلامه على صدره، وبصق عمرو في وجهه، فمسح علي صلوات الله عليه وآله وسلامه وجهه وانتظر حتى هدأت عنه حدة الغضب ليقتله قتلة خالصة لله، فاحتز رأسه^(٢) ورجع وهو يقول:

(١) انظر القصة كاملة في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٤ - ٢٥٠، وانظر: الكافي ٨: ١١٠ / ٩٠، الإرشاد ١: ٨٧، علل الشرائع ١: ٨ / ٣، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٢. كما أن بعض المصادر قد نقلت أن نداء جبريل صلوات الله عليه وآله وسلامه هذا كان في وقمة الأحزاب، انظر: رسائل المرتضى ٤: ١٢٣، ١١٩.

ونقل بعضهم أنها يوم بدر، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٧١. وقد صالح الحديث حسان بن ثابت شرعاً، انظر التذير ٢: ٥٩.

(٢) الإرشاد ١: ٩٨، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢٢، السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ١٣٢.

ونصرت رب محمد بصوابي
كالجدع بين دكاك وروابي
خنت المجدل بزني أثوابي
ونبيه يا معاشر الأحزاب^(١)

نصر الحجارة من سفاهة رايه
فضربته فتركته متذلاً
وعففت عن أثوابه ولو انتي
لا تحسبي الله خاذل دينه

وكانت قوله النبي عليه السلام آنذاك: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»^(٢).
ويكفينا عن يوم خيبر ما يقوله الأزرى:

كترت منظرأ على من راما
رايتي ليثها وحامي حماما
لبزوا أي ماجد يعطيها
ـ م مجيرا الأنام من باساما
بالثريا مرسوعة نسباها
فسقاها من رئيسه فشفارها
ـ وبرئ مرحبا بكف اقتدار

وله يوم خيبر فشكاث
يوم قال النبي إني لأعطي
فasherأبت أعناق كل فريق
ـ فدعا أين وارث العلم والحد
ـ أين ذو النجدة الذي لو دعته
ـ فاتاه الوصي أرمذ عين
ـ وبري مرحبا بكف اقتدار

ورجعت أخت عمرو^(٤) وأهلها يفتخرن بقتله على يد علي عليه السلام، ذلك

(١) شرح الأخبار ١: ٢٩٤ - ٢٩٦، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٣٣ - ١٣٤، البداية والنهاية ٤: ١٢٠ - ١٢١.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١، ٢٦١: ٦١، ٢٨٥، ٢٨٥: ١٩، ٢٨١: ١، ينابيع المودة ١: ٢٨٤، ٢٨١: ٢٨٤.

(٣) من قصيدة الشيخ كاظم الأزرى المعروفة بالأزرىية. انظر: تخميص الأزرىية ٦١، شجرة طوبى ٢: ٢٩٠.

(٤) وهي أم كلثوم، وكان أن ارتجزت قائلة:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله	ل كنت أبكي عليه آخر الأبد
لكن قاتله من لا يعاب به	وكان يدعى أبوه بيضة البلدى

ـ شرح نهج البلاغة ١: ٢٠ - ٢١، ذيل تاريخ بغداد ٢: ١٩٨.

البطل الذي كانت العرب تعتبر الفرار عيباً إلا من سيفه. أما إذا رجعنا إلى تاريخ الفكر عند علي عليه السلام فسنجد له اللسان المدافع والفكر المكافح والثروة العقلية التي تتجند لرفع لواء «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، وعنوان الصالحة والبلاغة التي تتدفق سيلًا عرماً، ونجد له رمزاً من رموز العدل الذي قلل أن تحظى الدنيا بنظير له.

أبعد ذلك لا نعرف معنى كلمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»؟ لقد كان الإسلام في لسان علي عليه السلام وسيفه وسلوكه وخلقه:

وصبّنَ القنا والسيف إن مطلع الفجر	أخو الذكر والمحراب إن جن ليلة
تلاقى البيان الجزل والبخاري الغر	وفارس مضمار البيان بهجهة
ومازال للدنيا بمزوده ذخر	ترزوذ منه حُلُّ عصر كما اشتهر

سلام عليك أبا الحق يوم ضمتك الكعبة ولidea، ويوم حملك محمد صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طفلاً، ويوم تلقيت الوحي صبياً^(١) من فم حامل الرسالة، وسلام عليك بطلاً دافع عن الحق، وبياناً يطرب الدهر بتغريده، وعدلاً يتمناه كل مستضعف في الأرض، وسلام عليك في مثل هذه الليلة جريحاً يضميك محراب مسجد الكوفة، ودماؤك تسيل، وأهل بيتك يسمعون النداء بين السماء والأرض: «تهدمت واثق أركان الهدى، انقضت واثق العروة الوثقى، قتل

(١) المعلوم أنه صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن أسلم صبياً لكن إسلامه مقبول صحيح، فهو السابق في الإسلام كما نص عليه العلماء من الفريقين. وكدليل على هذا انظر احتجاج المؤمن على يحيى بن أبي شر وغيره من العلماء والذي أورده ابن عبد ربّه في الجزء الخامس من (العقد الفريد)، وكذلك انظر ردود أبي جعفر الأسکافي - أحد المتكلمين من معتزلة البغداديين، ولوه تصانيف معروفة، مات سنة (٢٤٠)هـ - على ثبّه الجاحظ الواهية في شرح نهج البلاغة ١٣: ٢١٥ - ٦، باب: القول في إسلام أبي بكر وعلي عليهم السلام وخصائص كلٍّ منها.

أنقى الأتقياء، قتله أشقي الأشقياء»^(١).

وهنا أقبل الناس يُهرعون من كل جانب وهم ينادون: واسيداه، وأقبلت عائلته إلى المحراب فوجده قد أخذه نزف الدم وهو ملقى على محاربه:

أسمع على المحراب وته حامي الحمه مجروح اظنه

بادر إليه الحسن والحسين عليهما فحملاه من المحراب، وعياله من ورائه:

بعيد البله يا حارس الدين يشمال اليتامى والمساكين

مخضب بدم راسك بيyo حسين

أبو حسين ما تقم صيامه لفة العيد واولاده يتامه



(١) بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦.

{١١}

أمير المؤمنين عليه السلام سيرة وموفا

منهن ما ظنوا به المعبودا
 حلبات ملطوم العجين مذودا
 عنت السرايا منصناً وعنيداً
 أخذت على مفاوزاً ونجوداً
 إسلام يكشفها ولا تقييداً
 كالعقد ثلبسه العسان الخودا ^(١)

بشر أقلّ صفاته إن عاينوا
 ضلت قريش كم تقيس بسابق الـ
 يا صاحب المجد الذي لجعله
 لك غير أفعال إذا استقرأتها
 وصفات فضل أشكلت معنى فلا
 ومسراتب قلّدتتها بمناقب

المباحث العامة للموضوع

وقفات في حياته عليه السلام

حينما يريد البعض أن يترجم لشخصية ما فإنه يلجأ إلى طريقة إحصائية لبيان أبعاد المعرفة عنده، فيسلط الأضواء على بعض الأمور الهامة في حياته. ونحن سوف نستخدم هذه الطريقة في دراستنا البعض ملامح أمير المؤمنين عليه السلام، وسوف نسجل ذلك في وقوفاته عدة، وسنخصص كل وقفة بمبحث إن شاء الله :

(١) ديوان الحاج هاشم الكعبي : ٣٩.

المبحث الأول: قضية العمر عنده عليه السلام وإشكالية إسلامه

إنَّ أَوَّلَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْصِيَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام هُوَ عُمْرُهُ، وَهُوَ وَانْ كَانْ قَصِيرًا بِالْمُدْرَى لِكُنَّهُ طَوِيلٌ بِعَطَائِهِ وَإِنْجَازَاتِهِ وَخَدْمَاتِهِ لِلْإِسْلَامِ وَرَسُولِ الْإِسْلَامِ عليه السلام وَلِلْمُسْلِمِينَ. وَعُمْرُ الْإِمَامِ عليه السلام بِالنِّسْبَةِ لِلْأَعْمَارِ الطَّوِيلَةِ يُعْتَبَرُ قَصِيرًا جَدًّا، فَهُوَ لَمْ يَتَجاوزِ الْعَامَ الثَّالِثَ وَالسَّتِينَ مِنْ عُمْرِهِ الشَّرِيفِ إِذَا عَرَفْنَا أَنَّهُ عليه السلام وُلِدَ عَامَ (١٠) قَبْلَ الْمُبْعَثِ الشَّرِيفِ (بَعْدَ عَامِ الْفَيْلِ بِثَلَاثَيْنَ عَامًّا). وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ عُمْرَهُ الشَّرِيفِ كَانَ عَشَرَ سَنَوَاتٍ حِينَمَا نَزَّلَ أَوَّلَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَسَمِعَهَا وَوَعَاهَا. وَهَذَا الْمَعْنَى حَاوِلُ بَعْضُ الْمُؤْرِخِينَ أَنْ يَرْمِيهِ بِسَهَامِ الشُّكُوكِ، مِنْ جَهَةِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْتَبَرَ الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْعُمْرِ إِنْسَانًا كَامِلًا، وَلَا تَعْدُ مَدَارِكُهُ مَدَارِكَ نَاضِحةٍ. وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ إِسْلَامُهُ عليه السلام غَيْرَ صَحِيحٍ فِي مَثْلِ هَذَا السَّنِ، وَلَا يَعْدُ إِسْلَامُهُ أَنْ يَكُونَ تَقْليِدًا؛ لِأَنَّهُ صَبِيٌّ غَيْرَ نَاضِجٍ لَمْ يَعْتَنِقِ الْإِسْلَامَ عَنْ وَعِيٍّ وَادِرَاكٍ^(١).

مناقشة دعوى أَنَّهُ عليه السلام لَمْ يَسْلِمْ عَنْ إِدْرَاكٍ
وَهَذِهِ الدَّعْوَى مَرْدُودَةٌ مِنْ عَدَّةِ وَجْهٍ، مِنْهَا :

الأَوْلَى: أَنَّهُ عليه السلام نَشَأَ مُسْلِمًا

إِنَّ هَذَا الْكَلَامُ يُمْكِنُ أَنْ يَوْجَهَ إِلَى شَخْصٍ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا ثُمَّ أَسْلَمَ، أَمَّا مَعْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام الَّذِي رَبِّي فِي بَيْتِ التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ، فَالْأَمْرُ مُخْتَلِفٌ؛ لِأَنَّهُ عليه السلام كَانَ يَعِيشُ الْوَحْدَانِيَّةَ فِي ذَاتِهِ وَمُشَاعِرِهِ؛ فَلَمْ يَسْجُدْ لِصُنْمٍ قَطُّ. وَهَذِهِ الْذَّهَنِيَّةُ الْلَّامِعَةُ إِذَا لَمْ تَكُنْ تَسْجُدُ لِصُنْمٍ أَبَدًا فَلَمْنَ كَانَتْ عَبَادَتُهَا تَنْتَوِيَّةً إِذَنَ؟

(١) وَهَذَا مَا أَثْبَتَهُ الْأَعْمَوْنُ فِي مَنَاظِرَتِهِ مَعَ عَلَمَاءِ الْسَّنَّةِ. الْعَقْدُ الْفَرِيدُ ٤: ٣٦١٦ - ٣٦٣٧.

الثاني: اصطحاب رسول الله عليه السلام أيامه إلى غار حراء إننا نعرف - كما يثبت التاريخ - أنَّ الرسول الأكرم عليه السلام كان يصطحب أمير المؤمنين عليه السلام خلال هذه السنوات العشر معه إلى غار حراء حيث يتعبد، فكان عليه السلام يفتح عينيه على الدنيا من خلال عبادة الله وتوجهه. وكان يعيش هناك في حجر النبي عليه السلام يسمع تهجده ويحفظ أذكاره ويحاكي تعبده. وهكذا يكون على مثل منهج الرسول الأكرم عليه السلام، ويكون الاعتراض بأن إسلامه غير واضح لا اعتبار له، وفي غير محله.

ثم إننا لو راجعنا التاريخ المعاصر لوجدنا فيه عباقرة وهم في سن دون السن التي كان عليها أمير المؤمنين عليه السلام، ففي العام (١٤١٥) مثلاً منح شخص شهادة البكالوريوس وكان عمره (١٢) سنة. ونحن لا نريد أن نبرهن على أنَّ الإمام علي عليه السلام كان على رأس التوابع؛ فهو عليه السلام أكبر من هذا.

المبحث الثاني: الإمام علي عليه السلام ينذر حياته دفاعاً عن الإسلام و أصحابه عليه السلام
لقد كان عليه السلام منذ أن بعث الله تعالى نبيه محمد عليه السلام برسالته وحتى هجرته الشريفة واضعاً يده على قائم سيفه، ينافح ويكافح من أجل رسول الله عليه السلام ومن أجل هذه الدعوة المباركة الجديدة. وكان عليه السلام بهذا يعرض نفسه للحجارة والألام والمخاطر في سبيل هذا الهدف الشريف، وكان نصيبه من الاضطهاد كبيراً؛ حيث إنه عليه السلام كان يلاقى كل ما كان يلاقيه رسول الله عليه السلام؛ لأنَّه كان يلازم كظلَّه، ويدافع عنه دفاع المستميت.

دوره في حفظ الإسلام

وعندما هاجر الرسول الأكرم عليه السلام وال المسلمين إلى المدينة كان عمر الإمام علي عليه السلام ثلاثة وعشرين سنة، وفي السنة الأولى من الهجرة تزوج من

سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام . وكانت السنوات العشر الأولى التي قضاها في المدينة المنورة مع رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه تعدّ مركز الثقل في حياته عليه السلام من نواحٍ متعددة؛ لأن الإسلام بني خلال هذه السنوات العشر، وفيها تأسّس المجتمع المدني . وقد كان لأمير المؤمنين عليه السلام الإسهام الأكبر في بناء هذا الدين والمجتمع على الأصعدة المدنية والحربيّة، وكل ذلك خدمة للنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه ورسالته، خدمة خالصة لوجه الله تعالى.

وبعد وفاة النبي الكريم صلوات الله عليه وآله وسلامه وارتحاله إلى الرفيق الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر . وكان عمره الشريف آنذاك ثلاثة وثلاثين سنة . عاش خمساً وعشرين سنة مع الخلفاء إبان فترة حكمهم ، حيث بلغ من العمر ثمانية وأربعين سنة . ولم يكن عليه السلام خلال فترة حكم الخلفاء الثلاثة، ممّاداً أو يمتنع عن أن يكون له دوره الفاعل في حياة المجتمع والدولة، بل كان يشارك في كل الفعاليات بكل ما يمكنه المشاركة به ، فكان عنصراً ذا وجود واضح على الساحة الإسلامية في المدينة ، يتدخل ليبدى رأيه في كثير من أمور الدولة والناس ومشاكلها ومشاكلهم ^(١) .

(١) لعل في تدخله عليه السلام في كثير من أحكام القضاء التي قضى بها الخلفاء الثلاثة، انظر: الإرشاد ١: ٢٠٥ - ٢٠٦، شجرة طوبي ٢: ٤١٨.

وفي مشورته على الخلفاء في أمور الدولة: قضية التاريخ، انظر: تاريخ الطبرى ٢: ٣، بداية والنهاية ٧: ٨٥، الكامل في التاريخ ١: ١١.

ومنه الخليفة الثاني من الذهاب بنفسه إلى المعركة حيث قال له: «تخن علىي مَؤْمُونٌ من الله، والله مُنجِزٌ وَعْدَهُ، وَتَاصِرُّ جُنْدَهُ . وَمَكَانُ الْقِيَمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النَّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْتَمِعُهُ وَيَضْمِمُهُ»؛ فإن انقطع النّظام تفرق الخرز وذهب، ثم لم يجتمع بحدافيره أبداً.

والغرب اليوم، وإن كانوا قليلاً، فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتیاع؛ فكُنْ قُطباً، وانشئِر الرّحى بالغرب وأصلِهم دونك نارُ الحزب فإِنَّك إن شَحَصْتَ من هذِه الأَرْضِ انتَقضَتْ عَلَيْكَ الْقُرْبُ بين أطْرافيها وأقطارِها، حتَّى يَكُونَ مَا تَدْعُ وزَانَكَ مِنَ الْقُورَاتِ أَعْمَمُ إِلَيْكَ مِنَ

وبعد استلامه عليه دفَّة الخلافة سنة (٣٦) هـ بقي في المدينة المنورة، لكنه عليه ارتحل عنها إلى الكوفة بعد واقعة الجمل سنة (٣٧) هـ، وبقي فيها حتى استشهاده عليه عن عمر يبلغ الثالثة والستين عاماً. وكانت فترة حكمه أربع سنوات وثمانية أشهر. يقول أحد الشعراء:

ستون عاماً فخاماً في حصانتها وإن تبدى قليلاً عندها العدد

لقد كان عمره الشريف كما قلنا (٦٣) سنة، لكن هل هذا هو العمر الحقيقي له (سلام الله عليه)? كلا؛ إنه لازال في صميم الحياة، فالعمر يقدر بالعطاء، وعمره الشريف (سلام الله عليه) متذبذب بالعطاء، مفعم بالإخلاص والتغافل في خدمة دين الله تعالى. وهكذا كان عليه منذ دخوله الدنيا وحتى خروجه منها، ويظل عطاوته يتواتد؛ فنظرياته تمسح كل أبعاد المعرفة:

وفي كل سفر من رواشه فكر	ستلقاه حيَا في الروانع كلها
أهذا الكيان الضخم يجمعه قبر	فإن قيل هذا قبره قلت أربعوا
يعد غناه من بساحته فقرُ	ولكنه بباب إلى معطياته

فما يزال على حيَا بنظرياته وفكته وأخلاقياته وقيمته، وسيبقى حيَا وعطاءً بعد عطاء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهذه هي حصيلة

ثمين يذكر. إنَّ الأَعْاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَدَ يَقُولُوا: هَذَا أَصْلُ الْتَّرَبِ، فَإِذَا أَفْسَطْتُمُوهُ اشْتَرَخْتُمُوهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلْبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعُهُمْ فِيهِكَ.

فَأَنَّا مَا ذَكَرْتُ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَفْدَرُ عَلَى تَفْسِيرِ مَا يَكْرَهُ، وَأَنَّا مَا ذَكَرْتُ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نَقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّا كَمَا نَقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَغْوِبةِ». انظر: نهج البلاغة / الخطبة: ١٤٦. أكبر دليل على ذلك.

عمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه الإحصائية.

المبحث الثالث: زواجه رضي الله عنه وأسباب تعدد الزوجات أول الإسلام
 لم يتزوج أمير المؤمنين من غير فاطمة رضي الله عنها حال حياتها، ولم يعدد إلا بعد وفاتها رضي الله عنها. وهذه نقطة تستحق الوقوف عندها، فعند الرجوع إلى تاريخ الصحابة في الفترة التي عاشها أمير المؤمنين رضي الله عنه من النادر أن نجد صحابياً لا يملك عدد الأزواج نفسه الذي يملكه أمير المؤمنين رضي الله عنه. فقد كان الصحابة يكثرون الأزواج لأسباب متعددة، منها:

الأول: تمعتن الوشائج بين القبائل

فقد كان البعض من الصحابة يعمد إلى الزواج من قبائل أخرى، حتى تبقى الوشائج قوية بين قبيلته هو كمسلم وقبيلة زوجته، وهكذا تستمر المصاورة بهذا اللون حتى يأتي الوقت الذي تمحي فيه الآثار القبلية. وهذا مردّه إلى أنَّ الإسلام كان ضعيفاً في بدايَ أمره، فاحتاج إلى أن يتجلَّ في القبائل.

الثاني: تكثير المقاتلين

فالإسلام في أول أمره حاصر من جهات عدَّة، فقد تكالب عليه العرب والأمم الأخرى، وكان المسلمون معرَّضين للقتل والذبح والإبادة في أية لحظة؛ فلذا كان لابدَ لهم من أن يهيئوا وقوداً لمعركتهم ضدَّ أولئك، وهذا الوقود لا يجيء إلا عن طريق الإكثار من الزوجات.

الثالث: عامل القربي والتربية

إنَّ المتتبع لبعض الزيجات وبالأخص عند الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه وعنده أمير المؤمنين رضي الله عنه يجد أنَّ عامل الرغبة منتَج جداً وبشكل واضح وكبير فيها.

والعامل الوحيد المأخوذ بنظر الاعتبار هنا هو مراعاة أواصر القربي بينهم وبين من يتزوجون منهن أو من أزواجهن المتوفين عنهن، ومراعاة تربية أبنائهن تربية سليمة، كما فعل أمير المؤمنين عليه في زواجه من أسماء بنت عميس. وألا فما الذي يجبر أمير المؤمنين عليه على الزواج منها وقد كانت تحت تصرف جعفر بن أبي طالب عليهما السلام، وقد أولدتها، ثم تحت أبي بكر الذي أولدتها محمدًا (الابن النجيب والمطيع لأمير المؤمنين عليه)؟ أليس هو عامل مراعاة القرابة وتربية هؤلاء الصغار تربية صحيحة سليمة؟ فمعظم نساء أمير المؤمنين عليه من هذا النوع.

إذن فقد كان أمير المؤمنين مكثراً من الزوجات، وكانت فاطمة الزهراء عليهما سكنه الأول وروحه من الدنيا، وكان عليهما يوليهما رعاية وعناء لا حدود لهما ولا نظير. ثم تزوج بعدها أمامة بنت أبي العاص (ابنة اخت الزهراء عليهما)، وكانت قد تزوجها بوصيَّة منها عليهما حيث قالت لهما: «في صدرِي وصايا تخليج، وأريد أن أوصيك بها». قال عليهما: «بلى، عز والله على فراقك يا بنت رسول الله». قالت: «يا أبا الحسن، لا بد للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوج بعدي فعليك بابنة أخي أُمامَة؛ فإنها تكون لولدي مثلِي، ومع ذلك أجعل لها يوماً وليلة وللحسين يوماً وليلة».^(١)

ثم تزوج فاطمة بنت حرام أم البنين (رضي الله عنها)^(٢). ومن أزواجه خولة الحنفية (أم محمد بن الحنفية عليهما)، والمحياة بنت امرئ القيس

(١) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وقدك: ١٤٧، شرح الأخبار: ٢ / ١٦٠ - ٤٩٢.

(٢) ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر أن من أسباب تعدد الزوجات هو من أجل إعداد المقاتلين للمعركة، نذكر أن أمير المؤمنين عليهما كان قد طلب من أخيه عقيل أن يبحث له عن امرأة قد ولدتها الفعولة من العرب ليتزوجها فتلد له غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضاً لولده الحسين عليهما بطْف كربلاء. انظر: عدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلمي: ٩٧.

الكلبية، وأم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفي ، بالإضافة إلى عدد من الجواري.

وكان عدد نسائه ثمانية على أصح الأقوال ، ومعظم زيجاته ﷺ منها منهن كان يتجلّى فيها الجانب الاجتماعي ؛ حيث إنّه ﷺ يصادر عروة بن مسعود الذي يقول فيه القرآن الكريم على لسان المشركين : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنْكَ وَلَوْلَا أَنْزَلْنَا مِنْكَ الْقُضَى إِذْ لَا يُنْظَرُونَ ﴾^(١) . فكان زواجه من هذا البيت لهدف اجتماعي يصب في خدمة الإسلام . وأما جواريه فلم يكن لغير هدف اجتماعي كان ﷺ يرثيه .

وأما عدد أبنائه وبيناته ثلاثة وثلاثون ولداً ؛ قتل منهم عشرة يوم الطف الذي لم يحضره آخرون لمرض أو لعذر آخر . والتاريخ لا يسعنا بمعلومات كافية وافية حول امتناع من امتناع عن الطف ، ولا يمدّنا بما نستطيع أن نخرج منه بنتيجة صائبة لا تقبل الرد والنقاش ، مع أنّ في هذه الواقعه تقرير مصير الدين والأسرة والحق . وإنّا فلماذا يتخلّف أخ للإمام الحسين ﷺ عن الخروج معه في حين أنه ﷺ حضر معه من لا يمتنون إليه بصلة دموية ؟ لابدّ أن يكون هناك سبب ما يستحق أن تسلط الأضواء عليه .

المبحث الرابع: عطاءاته ﷺ

العطاء الأول: رصيده ﷺ من الهجرة

لقد كان له ﷺ هجرتان :

الأولى: هجرة الطائف

فقد كان ﷺ يخرج خلف رسول الله ﷺ حينما كان يذهب إلى الطائف

ليدعو أهلها إلى الإسلام والإيمان بعد رفض قريش دعوته، فكان أهل مكة يدفعون جهالهم وأطفالهم ليرموه بالحجارة التي كانت تأخذه يميناً وشمالاً حتى تدمي قدماء الشريفتان. وعندما اضطررت عليه للخروج إلى الطائف، ولم يكن موقف أهل الطائف بأحسن من موقف أهل مكة، فكانوا يسلطون عليه أطفالهم بالحجارة يرمونه بها؛ ولذا كان أمير المؤمنين عليه يخرج معه ليدفع عنه شرهم وأذاهم.

مقالات المؤرخين فيما يخصّ أمير المؤمنين عليه
والغريب من بعض المؤرخين أنهم حينما يمرّون بمنقبة له عليه أو فضيلة يحاولون نسبتها إلى غيره أو سحبها لذلك الغير^(١). ومن هذه الموارد:

١- مجرته عليه إلى الطائف

بعض المؤرخين يقولون: إنّ الذي كان يخرج مع رسول الله عليه هو أُسامة بن زيد^(٢)، وليس أمير المؤمنين عليه الذي ذكر ابن أبي الحديد

(١) من قبيل ادعاء ابن تيمية أن آية التطهير وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرَّجُسُ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيُطْهِرُكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب: ٣٣ لم تنزل في أمير المؤمنين عليه، يقول: إنّق أهل العلم على أن هذا كذب. منهاج السنة: ٤: ٢٥٩. وكذلك من قبيل ادعائه أن سورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ لم تنزل فيه وفي فاطمة الزهراء وابنيهما عليهما السلام. مجموع الفتاوى: ٤: ٤١٩.

وادعاته أنه ليس في الصحيح من أخبار مدح أمير المؤمنين عليه ما يدل على إمامته ولا على فضيلته على أبي بكر وعمر، بل وليست من خصائصه وإنما هي فضائل شاركه فيها غيره بخلاف ما ثبت من فضائل أبي بكر وعمر فإن كثيراً منها خصائص لهما لا سيما فضائل أبي بكر فإن عاتتها خصائص لم يشركه فيها غيره. منهاج السنة: ٥: ٧ - ٥.

وقد مر كل هذا مفصلاً مع رد ابن الجوزي عليه في ج ٢ ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) انظر: بحار الأنوار: ١٩: ٢٢ عن الكازروني، الاستيعاب: ١: ٤٠، الطبقات الكبرى: ١: ٢١، أسد الغابة: ١: ٢٠.

أنه ﷺ كان معه .^(١)

٢ - توكّل رسول الله ﷺ على كتفه

و كذلك نحن نروي أنَّ رسول الله ﷺ خرج في مرضه من بيت احدي نسائه ، وكان ﷺ متوكلاً بيد على منكب الفضل بن العباس ، و بيده الشريفة الأخرى على منكب أمير المؤمنين عليه السلام . أما الطرف الآخر فيروي أنَّه ﷺ كان يتوكلاً على منكب الفضل بن العباس بيد وبالأخرى على منكب رجل آخر . فهم لا يطيقون حتى ذكر اسمه عليه السلام .

٣ - حامل لواء المسلمين في أحد

وفي هذا المضمار يروي ابن شهاب فيقول : وحمل لواء المسلمين يوم أحد رجل منهم ، فلا يطيق ذكر اسم على عليه السلام حامل اللواء يومها . فالتشنج الذي يحمله البعض إزاء أمير المؤمنين عليه السلام ، و يجعلهم لا يطيقون ذكر اسمه من الطبيعي أن يحملهم على رفض فكرة أنه صاحب الهجرة إلى الطائف مع رسول الله ﷺ درعاً له وحماة ، بعد أن اضطرته حجارة قريش إلى أن يخرج إليها . وهناك وقف له أهل الطائف ثلاثة فرق ، وقال له أحد رؤسائهم : أما وجد الله نبياً غيرك يبعثه ؟ فأغضى النبي عليه السلام عنه ؛ فالسكتوت أحياناً يكون أبلغ جواب . وقال له الآخر : أنت يتيم أبي طالب ، وتريد أن تسود العرب ؟ ألا يسرق ثياب الكعبة إن كان الله يبعثك ؟ ولم يعجبه النبي عليه السلام أيضاً . والتفت له الثالث فقال : أنت بين أمرتين : إما أن تكون نبياً ، وإما أن تكون كذاباً ، فإن كنت نبياً فأنت أكبر من أن أكلمك ، وإن كنت كذاباً فأنا أكبر من أن أكلمك .

ثم أشاروا إلى أطفالهم فأخذته الحجارة من كل جانب ومكان حتى أدمنته ، فرفع رأسه إلى السماء وقال : « اللهم إنيأشكرك إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، لعن تكلني ؟ إلى عبد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكه أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بناور وجهك من أن ينزل بي غضبك ، أو يجعل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »^(١). وهذه هي الهجرة الأولى .

الثانية: هجرة إلى المدينة

وهذه الهجرة تشكل رقماً يلوى الأعناق ، ويشد العيون إليه شدّاً ، لأنّه تحدى كبراء قريش وهو ابن ثلاط وعشرين سنة ، وخرج بالفواطم (فاطمة الزهراء رض ، وفاطمة بنت أسد ، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب) إلى المدينة قائداً لظعينة رسول الله صلوات الله عليه وسلم . وكان قد تحدّاهم في وضح النهار قائلاً : « هذه ظعينة رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، وأنا خارج بها ، ومن أحبّ منكم أن يتبعني فليفعل » .

وخرج لظعينته يحميها وهو ماشر على قدميه ، فقد ذكر المؤرخون أن قدميه قد تشقتا ؛ إذ لم يرضا رض أن يركب على راحلة ؛ طلباً لمرضاة الله تعالى ومرضاة رسوله ، إلى أن أخذت الأرض من قدميه مأخذها ، وحتى تشقتا ، وظهرت فيها القروح ، فتلقاء رسول الله صلوات الله عليه وسلم يبارك قدمين سعتا في سبيل الله ، ويداً دادت عن عيال رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، فاحتضنه ومسح

(١) اظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦ - ٣٧.
تاريخ الطبرى ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢:
١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١.

على رجليه واعتنقه وأبي أن يدخل إلى دار هجرته إلا وساعده بساعد على (١).

العطاء الثاني: رصيده من الواقع والحروب

وخاص (سلام الله عليه) ثلاثة وثمانين غزوة وسرية كان لواء المؤمنين فيها بيده، وكان فيها البطل الأول المدافع والمنافع عن الإسلام وعن رسول الإسلام (عليه السلام)، وكان الجسد الذي يتلقى الطعنات درءاً للخطر عن أن يصيب جسد المسلمين، وكان السيف الذي غرّد به جبرئيل بين السماء والأرض : «لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي» (٢).

إنه السيف الذي لم يسلّ قط للبغى أو للتجبر والظلم ، بل إنه سلّ ضد هذا .. كان سيفاً ينال الشجاع ويترفع عن قتل الجبان ، سيفاً أبى أن يوضع على عنق عمر بن العاص الذي لم يستقبله ببطولة الرجال الشجعان ، بل استقبله بانخذال الجبناء .. سيفاً ترفع عن قتل بسر بن أرطاة وعمرو بن العاص (٣) ، بل أنه ترفع حتى عن قاتله . إنه سيف سُلّ تركيزاً لكلمة «لا إله

(١) شجرة طوبى ١: ٦٤ - ٦٦.

(٢) تاريخ الطبرى ٢: ١٩٧، السيرة النبوية (ابن كثير) ٣: ٩٤، ٤: ٧٠٧، كنز العمال ٥: ٧٢٣ / ١٤٢٤٣.

(٣) حيث استقبلاه بعورتيهما ، وقد نظم بعض الشعراء ذلك شعراً، فقال أبو فراس الحمداني :
ولا خير في دفع الردى بمسدلة كما رددَه يوماً بسوءته عمرو
ديوان أبي فراس: ١٥٧ . وقال آخر :

أفي كل يوم فارسٌ تندبونه
ويكف بها عنه علي سلاحه
بدت أنسٌ من عمرو فقتل رأسه
فقولا لعمرو وابن أرطاة أبصرا
سبيليكما لا تلقيا الليث ثانية
الفصول المهمة: ٩٠ ، النصائح الكافية: ٩٣

إلا الله، وللدفاع عن دماء المسلمين وأعراضهم، فأبلئ في الله أحسن البلاء.

وها هو عليه يعطينا صورة واضحة عن هذه المسيرة الطويلة المفعمة بالعطاء والجراح، والعلية بالآلام في خدمة الإسلام؛ فيلج الحرب تلو الحرب. يقول عليه: «وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهذا أنا ذا قد ذرفت على الستين»^(١).

أي أنه عليه أمضى من عمره ثلاثة وأربعين سنة لم يخرج فيها من لهوات الحرب. وقد أعطته هذه الفترة رصيداً ضخماً من الجراح، فقد حُمل في واقعة أحد مثلاً وفي جسده أربع وستون طعنة رمح وضربة سيف كما يروي المؤرخون. وكانوا قد وضعوه على حصیر أحضرته الزهراء^(٢) وهو قطعة واحدة من الدم، فراحت^(٣) تمسح الدماء عنه وتضمد جروحه، فنبذ إليها السيف وهو يقول:

«فَلَسْتُ بِرَعِيدٍ وَلَا بِمُطْهِّمٍ
لِعُمرِي لَقَدْ جَاهَتِي فِي نَصْرِ أَهْمَّ
وَطَاعَةِ رَبِّ الْعَبَادِ رَحِيمٍ»^(٤)

وجاءه رسول الله^{صلوات الله عليه وسلم} يعوده ويواسي جراحه، فأخذ يمرّ بآنامه الشريفة وكفه الكريمة فتهاوى الجراح فنبرق. وكان عليه طالما يقول: «إن أكرم الموت القتل. والذي نفس علي بن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون علىي من ميتة على فراش»^(٥).

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ٢٧.

(٢) الإرشاد: ١، ٩٠، الأمالي (الطوسي): ١٤٣، شرح نهج البلاغة: ١٥، ٣٥، المستدرك على الصحيحين: ٣، ٢٤، مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ٦٧، وغيرها كثیر.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ١٢٣.

إنَّ كلَّ جرحٍ من هذهِ الجراحِ هو وسامٌ من أوسمةِ البطولةِ؛ لأنَّه كانَ يبتغي بها وجهَ الله تعالى وليس الانتقام لنفسه^(١)، فلذاً كانَ كلَّ واحدٍ منها يفرد بفضله وبطولته، فهو عليه السلام عندما ينزل إلى ساحة المعركة تتحاشاهُ الرجال والأبطال، فيخطُّ صفحاتٍ من صفحاتِ المجد والخلود، وهو يحمل ذلك السيف الفارق بين الحق والباطل، أوليسنا نسمع رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخاطبه بقوله: «وَيْلٌ لِمَنْ سَلَّ سَيْفَهُ عَلَيْكَ، وَسَلَّتْ سَيْفَكَ عَلَيْهِ»^(٢)? فهو سيف لم يسلَّ إلَّا لينصرَ الحقَّ ويُخذلَ الباطلَ ويُدْحِضَهُ، وليقف بوجهِ البغيِّ.

العطاء الثالث: رصيده من المؤلفات له عليه السلام من المؤلفات عشرة:

١- تفسير القرآن الكريم. لقد كان عليه السلام ما إن تنزل آية حتى يسأل عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن معناها ونزوتها، فيجيبه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكان يكتب كل ذلك في ذيل كل آية يسأل عنها، حتى جمع القرآن كله على هذه الشاكلة على ترتيب النزول؛ المكي ثم المدني. وهذا القرآن هو الذي يعتبر عنه الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «مثُلُّ قرآنكم هذَا ثَلَاثَ مَرَاتٍ»، و«مَا فِيهِ مِنْ قرآنكم شَيْءٌ»^(٣)، أي أنه تفسير فقط.

فرى على الشيعة حول مصحف أمير المؤمنين عليه السلام
فهذا هو مصحف على عليه السلام، لكن هنا بدأت الأقلام المأجورة والمزيغة،

(١) وأكبر دليل على أنه لا يروم الانتقام لنفسه موقفه مع عمرو بن وذ العامر. انظر تاريخ الطبرى ٢: ١٩٤.

(٢) المزار (الشهيد الأول) : ٨٣، بحار الأنوار ٩٧: ٣٦٦، وفيهما: «فعلى أبي العادية لعنة الله ولعنة ملائكته ورسله أجمعين، وعلى من سلَّ سيفه عليك وسلمت عليه سيفك يا أمير المؤمنين من المشركين والمنافقين إلى يوم الدين». .

(٣) الكافي ١: ٢٣٩، بحار الأنوار ٢٦: ٣٩ / ٦٩.

والأيدي والأفواه غير الشريفة بالتطاول والتقول على الشيعة حول هذا المصحف، فيقولون: إن للشيعة قرآنًا غير قرآن المسلمين، ويزعمون أنَّ المهدي حينما يخرج فإنه يخرج به.

وهذا تحريف، فنحن ليس عندنا سوى هذا القرآن الذي يقرؤه مسلمو الأرض، وكل من يدعى غير ذلك فعليه أن يأتي بالبرهان ولا يكتفي بالتحكم وإطلاق الدعاوى والفرئي بغير دليل. ومن يقل بوجود روایة عند الكليني بهذا الخصوص، فنحن مستعدون لأن نعطيه عشرات الروایات في كتب الحديث والصحاح، تقول بوقوع التحريف في القرآن^(١). غير أنَّ المسلمين لا يأخذون بهذه الروایات ولا يعتمدون بها.

إنَّ هناك روايات تُنسب إلى الخليفة الثاني يصرّح فيها بأنَّ هناك آيات قد حذفت من القرآن مثل آية الرجم^(٢)، وينسب إلى عائشة حذف آيات الرضاعة بنسخ التلاوة^(٣)، وينسب إلى بعض نساء النبي عليه السلام أيضاً أنَّ بعض الآيات قد أكلها الداجن^(٤)، غير أنَّ المسلمين كما ذكرنا لا يرثبون

(١) مرَّ هذا البحث في محاضرة (تحرير القرآن) ج ٤ من كتابنا هذا، وانظر الهامش التالية.

(٢) وهي: (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله تعالى). انظر: الطبقات الكبرى ٢: ٢٣٤، المخمول في علم الأصول (الغزالى): ٣٩٢.

(٣) التفسير الكبير ٣: ٢٢٠.

(٤) حول هذا الموضوع انظر: مسند أحمد ١: ٢٣، ٢٩، ٤٠، ٣٦، ٢٩، ٢٢: ٥، ٥٠، ٤٠، ١٢٢، ١٢٩: ٦، ١٢٢، ١٢٩.

صحیح مسلم ٢: ١٠٥: ١٤٥٢ / ١٠٧٥، ٧٢٦، سنن الدارمي ٢: ٢١٧٩: ٢١٧٩.

الكتابي ٨: ٢١١، الجامع الصحيح (سنن الترمذى) ٤: ٤٥٦، المصنف (الصنعاني) ٧:

١١: ٤٧٠، سنن ابن ماجة ١: ٦٢٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٣٥٩، ٣٦٠.

الكتشاف ٣: ٥١٨، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١١٣، ٢٠: ٢٥١، مناهل العرفان ١: ٢٧، ٢٧: ٢٥٧.

روح المعانى ١: ٢٥، الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٤، الإتقان ١: ٢٤٢، ٢: ١١١، ٢: ٢٥٧.

الدر المنثور ٦: ٥٥٩ - ٥٦٠، وغيرها كثیر.

على هذا أثراً. والكليني رحمه الله نفسه يشترط لصحة الأحاديث شروطاً في مقدمة (الكاففي)، حيث يقول: «فاعلم يا أخي (أرشدك الله) أنه لا يسع أحداً تمييز شيء مما اختلف الرواية فيه عن العلماء برأيه إلا على ما أطلقه العالم رحمه الله بقوله: «اعرضوها على كتاب الله؛ فما وافق كتاب الله عز وجل فخذوه، وما خالف كتاب الله فرذوه»...»^(١).

وليس هناك مسلم يشهد الشهادتين يؤمن بوجود زيادة ونقيصة في القرآن الكريم؛ لأنَّه حينذاك سوف لن تسلم له عبادة ولن يتم له حكم شرعِي؛ إذ من الممكِّن أن تكون هذه الزيادة أو النقيصة قد تطرقت لعباداته ومعاملاته وتکاليفه، فتكون ناقصة أو فيها أشياء ليست من الله ولا من رسوله صلوات الله عليه وآله وسلامه.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يسلِّي فاطمة الزهراء عليها السلام عن فقد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه بقراءة شروح الآيات لها وما فيها من معانٍ وأحكام؛ فقد كانت عليها السلام تعيش الألم والحزن لفقد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، فكان الإمام عليه السلام يسلِّيها بذكر الله ومدارسة آيات كتابه العزيز.

٢-كتاب علوم القرآن: وهو كتاب جمع عليه السلام فيه أحكام علم التجويد والنحو المرتبط بالقرآن، وعلمي الفقه وأصوله، والأيات التاريخية وغير ذلك.

٣-قضايا علي بن أبي طالب عليه السلام. وهو مصنف جمع فيه القضايا والأحكام القضائية التي استلَّها من القرآن، وذلك حينما يترافق عنده اثنان فإنه يحكم بينهما بالقرآن. وقد جمعت هذه المسائل في كتب مستقلة.

٤-كتاب الجفر. يقول أبو العلاء المعربي:

أتهم علمهم في مسكن جفر

(١) أرته كل عاصمة وقطر

لقد عجبوا لأهل البيت لما

ومرأة المنجم وهي صغرى

٥- الجامعة.

٦- كتاب في الزكاة.

٧- كتاب في الفرانخ والمواريث.

٨- كتاب في أبواب الفقه العامة.

٩- كتاب في الفقه، لكن لم يحدد المؤرخون موضوعه.

١٠- نهج البلاغة. وهو كتاب غني عن التعريف.

ومن المختصين من يجعل مؤلفاته أحد عشر مصنفاً يجعل عهده عليه السلام إلى
مالك الأشتر كتاباً مستقلاً، أما من يعده ضمن (نهج البلاغة) فيجعلها
عشرة مصنفات.

محاولات التشكيك في نسبة (نهج البلاغة)

إن كتاب (نهج البلاغة) هو أهم مؤلفات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد
استأثر باهتمام عامة الناس وخاصتهم من علماء وأدباء وغيرهم؛ شرعاً
وإثباتاً ونفياً، فلم تترك الأقلام المشبوهة هذا الكتاب و شأنه، بل نجد أنه
بين فترة وأخرى يطل علينا كاتب يدعي أنه ليس لأمير المؤمنين عليه السلام، بل
أنه من وضع غيره ثم تُنسب إليه. وهذا مردود بأن أي أديب متعرّس يعرف
بمجرد قراءته أنه لأمير المؤمنين عليه السلام، وأنه من كلامه؛ فكلامه عليه السلام واضح

(١) وفيات الأعيان ٣: ٢٥٠ / ٤٠٨، والجفر: ولد المعز، وهو ما بلغ أربعة أشهر. الصحاح ٢:

٦١٥ - جفر.

والمسك: الجلد، ومنه قولهما: أنا في مسكن إن لم أفعل كذا وكذا، الصحاح ٤: ١٦٠٨ -
مسك.

بَيْنَ لَا يُسْتَطِعُ أَحَدٌ أَنْ يُجَارِيهِ فَصَاحَةً وَبِلَاغَةً^(١).

وَبَقَى (نهج البلاغة) يَصْدُحُ بِاسْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ مَهْمَا سَلَطَتْ عَلَيْهِ وَضَدَّهُ الشَّهَابَاتُ، وَتَظَلُّ هَذِهِ الشَّهَابَاتُ تَنْحَسِرُ عَنْهُ بِمَجْرِدِ أَنْ تَرْتَطِمْ بِهِ. ثُمَّ إِنَّ مَنْ نَسَبَ إِلَيْهِ كِتَابَهُ - وَهُوَ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ عَلَيْهِ - أَجَلٌ وَأَشْرَفَ مِنْ أَنْ يَفْتَرِي وَيَكْذِبَ وَيَنْسَبَ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ مَا لَيْسَ لَهُ. يَقُولُ أَحَدُ الْأَدْبَاءِ:

غَيْرُ أَنَّ النَّفْسَ النَّثِيمَةَ تَهُوِي	أَنْ يَغْطِيَ الْحَقَائِقَ التَّخْلِيلُ
زَعْمُوهُ نَهَجُ الرَّضِيِّ وَمَهْلَأُ	أَيْنَ مِنْ هَادِرِ الْفَحْوُلِ الْفَصِيلُ
كُلُّ فَصِيلٍ أَبُو تَرَابٍ بِهِ يَبْ	دُو فَتَهَرَّبُ بِالْمَهْدِيرِ الْفَصُورُ

فَكُلُّ مَقْطَعٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ يُسْتَشْفَّ مِنْهُ نَفْسُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ عَلَيْهِ، وَتَرَى بِصَمَانِهِ وَاضْحَى عَلَيْهِ؛ فَخَبْرَتِهِ عَلَيْهِ وَأَدَاؤُهُ مُتَمَيَّزٌ لَا يَتَمَكَّنُ أَحَدٌ مِنْ أَنْ يَضَاهِيهِمَا أَوْ يَحَاكِيهِمَا.

المبحث الخامس: عَلِيٌّ عَلَيْهِ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ

لَقِدْ مَدَحَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي ثَلَاثَةِ آيَةٍ، وَإِنْ كَانَ مَحْلُ اتِّفَاقِ الْمُفَسِّرِينَ سَبْعِينَ آيَةً، وَهَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي تَنَوَّلُهُ إِمَّا بِصُورَةِ مُبَاشِرَةٍ لِوَحْدَهُ، أَوْ بِصُورَةِ ضَمْنَيَّةٍ مَعَ آخَرِينَ. وَهَذَا الْمَجْمُوعُ مِنَ الْآيَاتِ يَعْدُ رَصِيدًا ضَخْمًا

(١) قَدْ مَرَّ هَذَا المَبْحَثُ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ فِي مَحَاضِرَةٍ (تَحْرِيفُ الْقُرْآنِ) ج ٤.

قَالَ أَبْنَى الْحَدِيدِ: «وَأَنَّا الْفَصَاحَةَ فَهُوَ عَلَيْهِ إِبَامُ الْفَصَاحَةِ وَسَيِّدُ الْبَلَاغَةِ... وَكَلَامُهُ دُونَ كَلَامِ الْخَالِقِ، وَفَوْقَ كَلَامِ الْمُخْلُوقِينِ». وَمِنْهُ تَعْلُمُ النَّاسُ الْخَطَابَةَ وَالْكِتَابَةَ: قَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنَ يَحْيَى: حَفِظْتُ سَبْعِينَ خَطْبَةً مِنْ خطَبِ الْأَصْلِعِ فَفَاضَتْ ثُمَّ فَاضَتْ. وَقَالَ أَبْنَى نَبَاتَةَ: حَفِظْتُ مِنَ الْخَطَابَةِ كَثِيرًا لَا يَزِيدُهُ الْإِنْفَاقُ إِلَّا سَعَةً وَكُثُرَةً، حَفِظْتُ مَثْلَهُ فَصُلِّ مِنْ مَوَاعِظِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ عَلَيْهِ. وَلَمَّا قَالَ مُحْفَنُ بْنُ أَبِي مَحْفَنٍ لِمَعاوِيَةَ: جَنِّتُكَ مِنْ عَنْدِ أَعْيَا النَّاسِ، قَالَ لَهُ: وَيَحْكُ! كَيْفَ يَكُونُ أَعْيَا النَّاسِ؟ فَوَاللَّهِ مَا سَنَّ الْفَصَاحَةَ لِتُرِيشَ غَيْرَهُ». اَنْظُرْ: شَرْحُ نَهَجٍ الْبَلَاغَةِ ١: ٢٤ - ٢٥، طَبَقَاتُ الْحَنَابَلَةِ ٢: ١٢٠.

لم يبلغه أحد غيره.

فمن الآيات التي ذكرت في ضمنها آية التطهير^(١) حيث ذكرت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاطمة والحسنين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. ومن الآيات التي احتضنها واحتضنها آية النجوى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقُدُّمُوا بَيْنَ يَدَيِّنِي نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»^(٢). قوله تعالى: «بِنَجْعَلُنَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِينُنَا أَذْنَ وَاعِيَةً»^(٣). قوله تعالى: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلَا كُلُّ قَوْمٍ هَادِيٌ»^(٤). وهكذا نجد أن ذكره عليه السلام مبيعاً في صفحات القرآن الكريم،

(١) هي قوله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِذَهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ النَّبِيِّ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا» الأحزاب: ٣٢؛ ففي كتب الصحاح الأساسية وغيرها بعده طرق أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى الفجر، فيقول: «الصلاحة يا أهل البيت»، ثم يتلو هذه الآية الشريفة. انظر: مسند أحمد: ٢: ٢٥٨ - ٢٥٩، الجامع الصحيح (سنن الترمذى): ٥: ٢١، شواهد التنزيل: ٢: ١٩، تهذيب الكمال: ٥٣: ٢٥٠، سير أعلام البلا: ٢: ١٣٣.

(٢) المجادلة: ١٢.

(٣) الحاقة: ١٢، حيث إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله أمرني أن أدنوك ولا أقصيك، وأن أعلمك وأن تعني، وحق على الله أن تعني». فنزلت هذه الآية الشريفة. وفي رواية أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَقرأ هذه الآية الشريفة، ثم التفت إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقال له: «سالت الله أن يجعلها أذنك». قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فما سمعت شيئاً من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنسيته». انظر: جامع البيان: ٢٩: ٦٩ / ٢٦٩٥٤، تخريج الأحاديث والآثار: ٤: ٨٤، كنز العمال: ١٢: ١٧٧ / ٣٦٥٢٥، شواهد التنزيل: ٢: ٣٦٥ / ٣٦٨، ١٠١١ / ٣٦٨، ١٠١٣ / ٣٦٨، ٢٦٩٦ / ٣٦٩، ١٠١٥ / ٣٦٨، ٢٧٢ - ٢٧٤، ١٠١٩ / ٢٧٥ - ٢٧٦، المواقف: ٣: ٦٢٧.

(٤) الرعد: ٧، حيث إنه لما نزلت هذه الآية الشريفة وضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده الشريفة على صدره وقال: «أنا المنذر ولكلّ قوم هاد». ثم أوصى بها إلى منكب أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «أنت الهادي يا علي، بك يهتدى المهدون من بعدي». جامع البيان: ١٣: ١٤٢، المستدرك على الصحيحين: ٣: ١٢٩ - ١٣٠، قال الحكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، تفسير ابن أبي حاتم: ٧: ٢٢٢٥ / ١٢٥٢، شواهد التنزيل: ١: ٢٨٢، ٣٩٩ / ٢٨٤ - ٣٨٧، الدر المثور: ٤: ٤٥، ٤٠٨ / ٢٨٨، تفسير القرآن العظيم: ٢: ٥٢٠، الدر المثور: ٤: ٤٥.

واحتل مساحة كبيرة من مجال صدحه وذكره.

محاولات طمس فضائله ﷺ

لكنه ﷺ لم يسلم من أقلام السوء المأجورة وهي تحاول أن تغطي ذلك النور المنبع من القرآن الكريم بحقه، وكل ذلك تحت رعاية ونظر الأمويين والعباسيين الذين حاولوا طمس هذا الواقع وتحريفه عبر شراء ذوي الأقلام الرخيصة والحناجر المبتذلة من وعاظ المسلمين. لكن كل ذلك لم يفلح، ولم تنتهي هذه المحاولات، ولم تستطع أن تهز ذرة واحدة من كيانه ﷺ، يقول أحد الأدباء:

أهل وجدت للجومر الفرد ثانيا ليحمل معنى منك لا متناهيا إذا لم تزف المدح عادت هجانيا	سلوا النفس قد طافت عليها عوالم وهل متنامي للفظ يتبعه الثنا ولكنها الألفاظ منها تناسقت
--	---

إلى أن يقول:

أردة يا طاراني عليك الطواريا عليك فما ثانٍ وشأن ثنانيا	وما مدحني توليك فخراً وإنما إذا الملا الأعلى تحدد بالثنا
---	---

فإذا كان القرآن الكريم يفرد ذكر على ﷺ ليلاً نهاراً، فما شأن مدحه مادح من أهل الأرض؟ إنَّ هذا السيد العظيم قد احتل مساحة واسعة من مدح القرآن الكريم، فلا يمكن أن يمدحه أحد آخر بمدح فوق مدحه، ولا يكون مدحه حينئذ شيئاً حيال مدح القرآن الكريم. ومما يروى في هذا المجال أن معاوية كتب كتاباً لعمرو بن العاص في واقعة صفين يستدعيه، وقال له فيه: أما بعد فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك... وقد حبس نفسك عليك، فأقبل أذاكك أموراً لا تعدم صلاح

مغبّتها.

فلما جاءه قال له : ما تجعل لي إن شاءت على حربه ، وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر؟ قال : حكمك . فقال : مصر طعمة . فتكلأ عليه معاوية وقال له : يا أبا عبد الله ، إني أكره لك أن تتحدى العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا . فقال عمرو : دعني عنك . ثم لما أخذ معاوية منه مصر وأعطاه عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز ، كتب إليه قصيدة الجلجلية المشهورة :

وعن موطن الحق لا تعدل	معاوية الفضل لا تنفس لي
ونحن على دومة الجندي	نسيث محاورة الأشعري
تخاف الخروج من المنزل	ولولي كنت كمثل النساء
على البطل الأعظم الأفضل	تبعناك من جهلنا يابن هند
نزلتنا إلى أسفل الأرجل	وحيث تركناك أعلى التفوس
فاين الخسائم من المنجل	وإن كان بينكما نسبة
واين معاوية من على	وأين الشريا وأين الشرى

إلى أن يقول :

(١) وأعطيت مصر عبد العزيز وأعطيتني زنة الخردل

وموضع الشاهد هنا أن ما أوتي هذا الرجل العظيم من مناقب ومفاخر

(١) شرح نهج البلاغة ٢ : ٦١ - ٦٦ . قال ابن أبي الحديد : « قال شيخنا أبو القاسم البلاخي عليه السلام : قول عمرو له : « دعني عنك » ، كنایة عن الإلحاد ، بل تصريح به ، أي دع هذا الكلام لا أصل له ، فإن اعتقاد الآخرة أنها لا تبع بعرض الدنيا من الغرافات . وقال عليه السلام : وما زال عمرو بن العاص ملحداً ، ما تردد قط في الإلحاد والزنادقة ، وكان معاوية مثله ، ويكتفي من تلاعبيها بالإسلام حديث السرار ».

وفضائل مما طرّقه به القرآن الكريم والسنّة النبوية المشرفة، ومما يتصدح به واقعه المشرف على السنّة أعدائه يلوى الأعنق إليه وإن تغافل عنه المتغافلون، وسيبقى ألقاً ونوراً ومشكاة تضيء وجه الدنيا وصفحة العالم؛ سواء رمته العيون أم لم ترممه.

المبحث السادس: زهده عليه السلام في الدنيا

لقد كان كل رصيده من الدنيا التي كانت تتكدّس بين يديه حين وفاته عليه السلام سبعمئة درهم أراد أن يشتري بها خادماً لأهله؛ لتعيينهم على أمور الطحن وأعمال البيت، فعاجلته الشهادة^(١).

فلم تصرعه البيضاء والصفراء، وكان ينظر إليها نظرة من يعافها ويزدرّها، وكل ما كان يشغلها فم جائع يحسّه قريباً منه وإن كان يسير على بعد منه، فهو يحسّه يخاطبه بقوله: إنك مسؤول عن جوعي. لقد سمعناه يصفي لأنّات المظلومين في شرق الأرض وغربيها، ويقول: «اللهم اشهد على علي بن أبي طالب فقد أدى إلى عبادك حقوقهم». وكان يتمثّل دائمًا بقوله:

هذا جنائي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه^(٢)

فكان عليه السلام يذود عنّه الذهب والفضة، ويتحاشّهما:

ما سره أن يرى الدنيا له ذهباً وفي البلاد قلوب شفّها السفّ^(٣)

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أثيم) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٢: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر عليه السلام برده إلى بيت المال بعد وفاته كما في الفتوح ٤: ١٤٦.

(٢) الأمالى (الصدوق) ٢٥٧ / ٤٤٠، الفائق في غريب الحديث ٣: ١٧٥.

(٣) البيت للشيخ عبد المهدى مطر. من مواليد النجف الأشرف سنة (١٩٠٠) م، وكان عضواً عاملأً في جمعية منتدى التحرير في النجف منذ إنشائها. تولى تدريس التعلو في كلية الفقه.

وكان ^{عليه} يقول: «يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم»^(١)
وكان ^{عليه} يأكل العجوة والخل ويلبس لباس المساكين، فكان رصيده من
الدنيا أن سجدت هي على أبوابه وأعتابه:

إن بيته أصلعه من جريد الف سعد النجم فوق رملته السمر حراء واستشرفت مداده العصوّر خل والسلقُ والفراش حصيري

المبحث السابع: جزاً وهملاً في الدنيا

فحسيبك أبا تراب أنك أخذت قلوباً من الناس فسكنتها، وحللت
بمشاعرهم، وما يقدم الذهب والفضة وما يؤخران؟ سواء كانوا لك أم
لغيرك؟

لقد كان رصيده من العواطف لا حدود له ، فقد امتلك قلوب المؤمنين كما ذكرنا ، وهذا ما يشهد له قول النبي ﷺ: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» ^(٢) ، وقوله ﷺ له كذلك: «إن الله عز وجل رَسَخَ حُبِّي في قلوب المؤمنين وكذلك رَسَخَ حَبْكَ يا علي في قلوب المؤمنين ، ورَسَخَ بغضي وبغضك في قلوب المنافقين؛ فلا يحْبَكَ إلا مؤمن تقم ، ولا يبغضك إلا منافق كافر» ^(٣) .

فيامن سكنت إليك قلوب المؤمنين، إن القلوب لتتقرّح عليك أسرى وهي تحس بأنك في مثل هذه الليلة قد اشتدت بك العلة، وسرى السم في بدنك، وعلت الصفرة وجهك الشريف، وهذا الصوت الهادر، وخلال المحراب من فارسه المصلى ليه ونهاره، وإن العيون لتدمع لعينيك وقد

^١ أعيان الشيعة ١: ٥٥٨، مستدركات أعيان الشيعة ١: ١١٢ - ١١٣.

(١) نهج البلاغة / الحكمة : ٢٤١

(٢) مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سن الترمذى) ٥: ٣٠٦، كنز العمال ١١:

(٢) الخصال : ٥٧٧ . ٥٩٨ / ٣٢٨٧٨

غارنا، تلکما العینان اللتان كانتا تبکیان من خشیة الله تعالى وتقرّحتا وسهرتا في سبیله حتى ذبلنا. يقول سوید بن غفلة: دخلت ومعی نفر من أصحاب أمیر المؤمنین عليه السلام، ومنهم الأصیغ إلى داره بعد إصابته، فسمعوا البکاء والتحیب من داخل الدار، فما استطعنا أن نسكت، وعلا نحیبنا، فخرج الإمام الحسن عليه السلام إلينا وقال: «إن أمیر المؤمنین يقول لكم: انصرفوا وارجعوا».

يقول الأصیغ: فرجع الناس إلا أنا لم تطاوعني قدمای، فرجع الإمام الحسن عليه السلام وقال: «ألم أقل لكم: ارجعوا؟». قلت: سیدی، والله لا تطاوعني قدمای. قال: «ادخل». فدخلت، ولما وقع بصری على أمیر المؤمنین عليه السلام رأیت رأسه وقد عَصَب بعصابة صفراء، والله ما أدری أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة، فبكیت عند ذلك فالتفت إلى أمیر المؤمنین عليه السلام قائلاً: «يا أصیغ لا تبك، إنها والله الجنة». قلت: سیدی، أنا أعلم أنها الجنة ولكنی أبکي لفراقك. ثم دخل عمرو بن الحمق الخزاعی فقال له: إن هذه الضربة مخدشة، وليس أعظم من ضربة عمرو بن ود العامری. فقال أمیر المؤمنین عليه السلام: «إنی مفارقکم وراحل إلى رسول الله صلی الله علیه وآله وسَلَّمَ». عند ذلك سمعت النساء، وعلت أصواتهن بالبکاء واشتدّ ضجيجهن ^(١):

الليله مسه المحراب خالي	يسعماه خيمتنا يسغالی
ما چنت اظنن لن الليالي	بيك اشقدر وتخیب آمالی

وذهبت إحدی بناته إلى محراب مسجد الكوفة الذي خلا من أمیر المؤمنین عليه السلام، فجلست تمطره بدمع عینيها:

الفصل الثالث: علي عليه السلام / أمير المؤمنين عليه سيرة و موقفاً

يا محراب ابوي اجيست انا حبيك اصبّن ادموع العين وارويك

من طاح ابويه وانطبر بيك صدك شبيته من ادماء تسگيک

هذا المحاريي أين القائمون بها والليل مربع من الظلاماء أستارا

(1 7)

في رحاب أمير المؤمنين عليه السلام

ك قوله للحاقدين يسأل
هل إمام على التقى مجبول
فالصلى تفجع وذهول
سراب في فاحم الدجى ماهرول
وحسام قاد الفتوح فلول

يا إمام الهدى رويداً فما ضرَّ
ناب عنه سيف ابن ملجم فاغتيل
فتلقى المحراب خبراً شهيداً
لا فم ملؤه الصلاة ولا السجدة
رامب أجيح المناجاة صمت

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: في عطائه لله ومنشئه

نَحْنُ نَعِيشُ الْآنَ فِي رَحَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَأْمَلُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ نَكُونَ فِي رَحَابِهِ دَوْمًا. وَلِيَكُنْ فِي الْحِسَابِ أَنَّ الْوَلُوحَ إِلَى بَابِهِ لِلتَّعْرِفِ عَلَى هَذِهِ الْشَّخْصِيَّةِ يَتَرَكُ الْإِنْسَانُ حَائِرًا فِي اخْتِيَارِ أَيِّ الْأَبْوَابِ يُمْكِنُهُ أَنْ يَلْجُعَ مِنْهُ لِيَتَعْرِفَ عَلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ كُلُّهُ وِجْهٌ، فَمَنْ أَيِّ بَابٍ وَلَحَثَ إِلَهٍ تَحْدُدُ عَنْهُ عَطَاءً مُتَدَفِّقًا.

والشيء الذي نريد أن نسلط الضوء عليه في هذه الليلة هو أن هذا

الرجل مع امتلاكه لجميع المؤهلات ، واجتماعها عنده ، فإن المجتمع الذي عاصره لم يتفاعل معه التفاعل المطلوب ، حتى انتهى به الأمر إلى الشهادة ، فما هو السبب في ذلك؟ إن هذا الرجل منذ ولح الحياة وهو يتذوق عطاً ، وهذا العطاء نوعان: نوع حباء الله تعالى به ، والنوع الآخر ما كان للكسب فيه دخل وإن كان في النتيجة هو من عطاء الله تعالى أيضاً.

المبحث الثاني: جملة من خصائصه عليه السلام ذات المنشأ الإلهي وهذا القسم - كما قلنا - قد اتصف عليه السلام به بتدخل من الله تعالى ، ومن دون أن يكون لكتابه عليه السلام - أو لكسب أي شخص بشكل عام - أي دخل فيه . ويندرج تحته أمور عديدة ، منها:

الخصيصة الأولى: أنه عليه السلام ينحدر من أسرة كريمة فامير المؤمنين عليه السلام ينحدر من أسرة وصفها الشاعر الشیخ هاشم الكعبي في داليته بقوله:

(١) نسبٌ كانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الْفَضْحَنِ أَنَّهَا وَمِنْ فُلْقِ الصَّبَاحِ عَمُودًا
وهذا النسب الظاهر يبتدئ من الأصلاب الشامخة إلى الأرحام المطهرة ^(٢) ، فهو من القبيلة والنسب اللذين تحدّر منهما رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، دون أن تعرّق فيهما أصلاب غير طاهرة ، ولا أرحام غير مطهرة . وهذه

(١) البيت من قصيدة التي نظمها في رثاء أبي عبد الله ، ومطلعها:
أرأيت يوم تحملتك القودا من كان منا المقل المجهودا
ديوان الشیخ هاشم الكعبي: ٢٩ ، لكن هذا البيت غير مذكور ضمن هذه القصيدة في ديوانه هذا.

(٢) ورد فيزيارة الشرفية: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة». انظر: كامل زيارات: ٤٠٣ / ٦٣٩، صباح المتهجد: ٧٢١ / ٨٦.

الميزة تعطي الإمام علياً حجماً غير اعتيادي؛ لأن الأسرة تتدخل تدخلاً مباشراً في تحديد حجم الشخص، فهو ع من اختار الله تعالى قومه وأسرته، ففي الحديث: «اختار الله عز وجل من الناس العرب، واختار من من العرب قريشاً، واختار من قريش كنانة، واختار من كنانة بنى هاشم، واختار من بنى هاشم هذا البيت»^(١). وعلى ع من هذا البيت الذي ما ولج الشرك عموده الأساس، فأباء النبي ﷺ وعلي ع ما مر بهم الشرك، ورحم الله البوصيري حيث قال في همزته في رسول الله ﷺ:

لَمْ تَرِزِّلْ فِي ضُمَاءِنِ الْكَوْنِ ثُخْتَا	رَلَكَ الْأَقْبَاهَتِ وَالْأَبَاءَ
وَبِدَا لِلْأَنَامِ مِنْكَ كَرِيمَةُ	مِنْ كَرِيمِ أَبَاؤه كَرِيمَةُ
نَسْبَ تَحْسِبُ الْعَلَا بَحْلَةُ	قَلْذَنَهَا نَجْوَمُهَا الْجَوْزَاءُ
حَبْدَا عَقْدَ سُؤْدَدِ وَخَمَارَ	أَنْتَ فِيهِ الْبَيْتِيْمَةُ الْعَصْمَاءُ ^(٢)

وقد شاء الله تعالى أن يتسلسل هذا الرجل ليستقر في رحم مؤمن هو رحم فاطمة بنت أسد، هذه المرأة المجahدة المهاجرة في سبيل الله، التي أفعمت إيماناً، والتي رأينا النبي ﷺ يعبر عنها بأنها أمه^(٣) وينزل في قبرها عند وفاتها، فيضطجع فيه ويخلع رداءه ليكشفها به^(٤).

الخصيصة الثانية: أن الله تعالى كرمه بأن جعله وليد الكعبة ثم شاء الله له أن ينتقل من بيت طاهر في رحم طاهر إلى أن يولد في بيت طاهر، وهو أشرف بيت شتجه إليه القلوب، وتندع إليه الأفءة،

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ عدة، انظر: شرح الأخبار ٢: ٤٨٢، ٨٥١، المجموع شرح

المذهب ١٦: ١٨٧.

(٢) ديوان البوصيري: ٩.

(٣) خصائص الآية: ٦٦، المعجم الكبير ٢٤: ٢٥١، كنز العمال ١٢: ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٧٦٠٧.

(٤) المصدر نفسه.

وترمه الأ بصار، ويصلّي له المسلمين. وكما يقول الألوسي صاحب التفسير: «سبحان من يضع الأشياء في مواضعها، لقد وضع عليه عليه السلام في هذا المكان». يقول المرحوم السيد رضا الهندي:

لما دعاك الله قدمًا لأن تولد في البيت فلبية
جزيته بين قريش بان طهرت من أصنامهم بيته^(١)

ولا يضير عليه عليه السلام ألا يشار إلى موضع مولده وإن أطبق المؤرخون على قولهم هذا، ولكن قد يتحسن البعض من هذه الناحية فيقول: لماذا لا توضع علامة على المكان الذي ولد فيه على عليه السلام في حين أنه مفخرة من مفاخر المسلمين؟ أليس من الوفاء أن يشير المسلمين إلى مكان ولد فيه هذا الرجل وهو جندي من جنود الإسلام حمل السلاح مدافعاً عنهم؟ في واقع الحال إن عليه عليه السلام لا يضره ولا يضيره ألا يشار إلى موضع ولادته؛ لأنه عليه السلام يولد في كل نفس حرّة كل يوم ولحظة.

لقد اعتاد بعض المؤرخين عند ترجمته لأحد الخلفاء أن يذكر بوابة وشاعره وغير ذلك، ولقد رأيت أحدهم ممن ترجم لعلى عليه السلام يقول: «بوابه سلمان الفارسي وشاعره حسان بن ثابت». كأنه يشير بذلك إلى أبيات حسان التي أنشدتها يوم الغدير:

يُناديهم يوم الغدير نبيهم بخ وأسمع بالنبي مناديا^(٢)

ثم يعلق هذا المؤرخ على ذلك فيقول: «لا يقال لعلى عليه السلام: إن شاعره حسان، إنما على عليه السلام شاعره الدنيا بأكملها».

(١) ديوان السيد رضا الهندي: ٢٤.

(٢) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الковي) ١: ١١٩، مناقب آل أبي طالب ٢: ٤٢٠.

نعم، لا يمر بعلي عليه السلام بعد من أبعاد الحياة إلا وجدها يغرّد باسمه إلا أن يكون قلباً مريضاً أو نفساً مدخولة. وإن فأي جانب من جوانب حياته لا يستوجب الإشادة؟ وأية ناحية من نواحيه نمرّ بها ولا تستوجب الثناء والتغريد؟

فليها على ذمم الزمان ديبون
وصفاتك البيضاء حور عين
وبحيث ليلى يوجد المجنون^(١)

آلوك البيضاء طوقت الذئن
ما عدث الحو في هواك مُتئماً
فبحيث تحتشد الورود فراشة

فهذا الرجل شاعر الدنيا؛ لأنها احتضنت منه شخصاً تفجر بالعطاء والمواهب، فلا غُرَّ وان غرَّت الدنيا به، ولن يضيره^{عليه السلام} ألا يشار إلى موضع ولادته، وإنما ينبغي أن نفهم أن لهذا الرجل في كل قلب بيته، وفي كل روح مكاناً. وهذا هو الكرسي الذي لا يفقده الإنسان وإن ذهب عنه، فهو الكرسي الذي يتمركز في الأرواح والقلوب، وهذا الرجل عنده في كل قلب عرش وكرسي.

الخصيصة الثالثة: أنه تعالى قادر أن يتربي في قلب النبي عليه السلام ثم شاء الله تعالى لعلي عليه السلام أن ينتقل إلى الحجر الطاهر الذي احتضنه، إلا وهو قلب النبي عليه السلام، وقد كان من سعادته ألا يفارق هذا الحجر الكريم، وهذا الصدر الذي حمل رسالة السماء، فكان مع رسول الله عليه السلام في غار حراء، وسمع رنة الوحي، فقال له النبي عليه السلام: «يا علي إنك تسمع ما أسمع، وتترى ما أرى، إلا إنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك على خير»^(٢). ورأينا فمه يحمل كلمة التوحيد ويخرج تابعاً لرسول الله عليه السلام، ثم

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢.

(٢) ديوان المحاضر ١: ١٩٢.

تبدأ كلمة التوحيد من إطار كونها لفظة في الفم إلى الواقع بتجسدتها عزماً يد على ابن أبي طالب عليهما السلام، يترك يده قابضة على قائم سيفه يذبح عن التوحيد وعن كلمة التوحيد، ولم يكن يبارح النبي عليهما السلام ليلاً ولانهاراً، وكانت الحجارة تأتي النبي عليهما السلام فياخذ منها نصيبه منها، وكانت النبال تأتيه ويأخذ منها نصيبه منها أيضاً، ثم لا يكاد يفارق النبي عليهما السلام.

حتى إذا أراد الله تعالى لهذه الدنيا أن تزدهر بنور الإسلام رأيناه عليهما السلام وهو يتحمل العبء بنص رسول الله عليهما السلام عندما أمسكه من عنقه وقال: «هذا أخي ووصيي وخليفي من بعدي»^(١). كل ذلك يقوله النبي عليهما السلام على عليهما السلام ليؤهله كي يأخذ مكانته من بعده في هذه الدنيا.

ورأيناه عليهما السلام يمشي قدماً بهذه المسيرة؛ فلا يكاد يمر على فضيلة إلا ويأخذ منها، ولا يكاد يمر على منقبة إلا ويحملها، حتى تحول إلى كتلة مناقب، وحتى قال فيه رسول الله عليهما السلام: «يا علي، إن فيك شبهة من عيسى بن مرريم، ولو لا أن تقول فيك طوائف من أمنتي ما قالته النصارى في المسيح عيسى بن مرريم لقلت فيك قولًا لا تمر بمن الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يتلمسون بذلك البركة»^(٢). وقد حدث هذا فعلًا^(٣).

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٤٤، كنز العمال ١١٤: ١٣، ٣٦٣٧١، وقد نقل ترك أحد روائده، ١٣: ١٢٢ / ١٢٣: ٢٦٤١٩. وقد ورد هذا الحديث بالفاظ آخر منها قوله عليهما السلام: «إن وصيي وخليفي في أهلي علي بن أبي طالب»، وقوله عليهما السلام: «من أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليتول ولئن ووصيي وصاحبني وخليفي...». وقوله عليهما السلام: «إن وصيي وخليفي وخير من أترك بعدى ينزع موعدى ويقضى ديني علي بن أبي طالب»، وغيرها، انظر: شواهد التنزيل: ٧٦، ٧٨ - ٩٩، ٤٨٦ - ٤٨٩، ٤٨٩، ٥٤٥، ٥٤٣، تاریخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٣، ٤٩ - ٥٦، ٥٠ - ٥٧.

(٢) الكافي ٨: ٥٧، الخصال: ٥٥٧، وتمامه: فغضب الحاضرون وقالوا: ما راضي أن يضرب لابن عمه مثلًا إلا عيسى بن مرريم. فنزل قوله تعالى: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مُتَلَّا إِذَا قَوْمَكَ وَمَنْهُ يَصِدُّونَ» الزخرف: ٥٧.

(٣) كما في قصة التفر الذين أحرقهم (صلوات الله وسلامه عليه) بالنار بعد أن خاطبوه بنت

يقول المرحوم العقاد في (عقبريّة علي): «ما اتسعت مساحة للأخذ والردة كما اتسعت مساحة علي بن أبي طالب عليهما السلام، فهناك من يعبده ويرى أنه إله، وهناك من يقول: إنه كافر مطرود من رحمة الله». وهكذا يكون العظاماء، وهذا هو شأنهم فهم بين الإفراط والتفريط:

تجنف وتبعد والضفان تُغتلي
والدهر يقسّو تارةً وبلينٍ
وتضل أنت كما عهدتك نسمةً
لأن لا يرقن لها تلحينٍ^(١)

المبحث الثالث: عوامل عدم تفاعل المجتمع مع أمير المؤمنين عليه السلام
وهكذا كان ولم يبرح الفضائل والمناقب حتى النفس الأخير من حياته، لكن السؤال الذي يطرح هو: لماذا لم يتفاعل المجتمع معه؟ ذلك التفاعل المطلوب مع ما له من هذه الميزات والمكانة، ومع هذا الحشد من المناقب والإضمادات؟ ولماذا وجد عليه السلام في طريقه أكثر من عشرة وعشرة؟ ما السبب في كل ذلك؟ هناك عوامل عديدة أدّت إلى حصول مثل هذا، نذكر منها:

العامل الأول: الحسد

فأول عقبه اصطدم بها أمير المؤمنين علي عليه السلام هي عقبة الحسد، فقد كان محسوداً حسداً لا حدود له، والحق أن الحسد في بعض الأحيان يخدم المحسود، يقول الشاعر:

الإلهية، وقد مرّ في ص ٤٧ - ٤٨.

(١) ديوان المحاضر ١: ١٩.

عَدَى لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيْهِ وَمَنْهُ
 فَلَا يَبْعَدُ الرَّحْمَنُ عَنِ الْأَعْدَادِ
(١)
 مَنْ بَحْثُوا عَنْ زَلْتِي فَاجْتَنَبْتُهَا
 وَهُمْ نَافِسُونِي فَارْتَقَبْتُ الْمَعَالِي

خُسْدَ هَذَا الرَّجُلُ لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَاهُ مِنْ صَفَاتِ الْكَمَالِ مَا لَمْ يُعْطِ
 أَحَدًا غَيْرَهُ، فَقَدْ كَانَ وَهُوَ طَفْلٌ صَغِيرٌ إِذَا أَخْذَ يَدَ الرَّجُلِ أَخْذَ بِنَفْسِهِ،
 وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْفَرْسَ بِعَنْفُوْانِهِ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ فَإِنَّهُ يَرْدَهُ.

يَصْفُهُ الْمُؤَرِّخُونَ بِأَنَّهُ كَالْأَسْدِ، غَلَظَ مِنْهُ مَا اسْتَغْلَظَ، دَقَّ مِنْهُ مَا
 اسْتَدَقَّ، كَانَ يَحْمِلُ سَاعِدًا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْحَاطِمِ وَالْقَاضِمِ^(٢). يَقُولُ صَاحِبُ
 (الْسَّانِ الْعَرَبِ) فِي مَادَةِ قَضِيمٍ: «كَانَ عَلِيًّا بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(٣) إِذَا نَزَلَ إِلَى
 الْحَرْبِ تَنَادَى الْجَيْشُ وَصَاحُوا: احذِرُوا الْحَاطِمَ، احذِرُوا الْقَاضِمَ»^(٤)، لَأَنَّ
 ضَرِبَاتِ عَلِيٍّ^(٥) كَانَتْ بَكْرًا؛ إِذَا عَلَّاقَدَ، وَإِذَا تَوَسَّطَ قَطًّا^(٦)، فَكَانَتْ
 الْعَرَبُ تَعْتَبِرُ الْفَرَارَ مِنَ الْزَّحْفِ عَارًا إِلَّا مِنْ سِيفِ عَلِيٍّ^(٧).

ثَلَاثُ وَثَمَانُونَ غَزْوَةً مَا تَخَلَّفَ فِيهَا عَنْ نَصْرَ الْمُسْلِمِينَ وَمَا تَأْخِرُ إِلَّا
 فِي غَزْوَةِ تِبُوكِ حِيثُ خَلَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ^{صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} لِحَفْظِ الْأَمْنِ وَالْوَلَوَةِ فِي
 الْمَدِينَةِ، وَكَانَ حَسَامُهُ هُوَ الْحَسَامُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَدْافِعُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ
 أُعْطِيَ مِنْ كَمَالَاتِ الرِّجُولَةِ وَالْبَطْوَلَةِ مَا كَانَتْ مَعَهُ الْأَمْمَ تَنَفَّلُ بِكِتَابَةِ اسْمِهِ
 عَلَى سِيوفِهَا، وَأُعْطِيَ مِنَ الْقُوَّةِ وَالضَّرَاوَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْبَسَالَةِ فِي سِيلِ
 اللَّهِ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ. وَمَا وَضَعَ تِلْكَ الشَّجَاعَةَ فِي طَرِيقٍ

(١) الْبَيْتَانُ لِأَبِي حِيَانِ الْأَنْدَلُسِيِّ. الْكَنْتُ وَالْأَنْقَابُ ١: ٦١.

(٢) شَرْحُ الْأَخْبَارِ ٢: ٤٢٨، مَنَاقِبُ آلِ أَبِي طَالِبٍ ٣: ٩١، وَقَدْ نَقَلَهُ عَنِ الْمُغَيْرَةِ.

(٣) لَسَانُ الْعَرَبِ ١٢ - ٤٨٨ - قَضِيمٌ، وَمِثْلُهُ فِي النَّهَايَةِ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثْرِ ٤: ٧٨ - قَضِيمٌ.

(٤) الْخَرَائِجُ وَالْجَرَائِحُ ٢: ٥٤٢، النَّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثْرِ ٤: ٨١ - قَطُّ.

البعي ، وما اعتدى يوماً على ضعيف أو من هزم أبداً، بل كانت شجاعته الشجاعة التي تسم بالرجلة الحقة والنبل والكرم، وما قاتل إلا في سبيل الله ، ما قاتل لحقد أو هدف شخصي^(١)، بل ترفع عن أن يقابل الضعيف أو المن هزم نفسياً.

ولقد رأينا يترفع عن أن يقتل عمرو بن العاص عندما استلقى بين يديه ، أو أن يقتل بسر بن أرطاة^(٢).

ولو رجعنا إلى تاريخ عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة لعلمنا أن من الصعوبة بمكان أن يغضّ الإنسان طرفه عنهم؛ لأنهما كانوا مثالاً للخشة والاعتداء.

وقف عمرو بن العاص ليبيع دينه وهو يعلم من هو علي بن أبي طالب عليهما السلام ، ثم في لحظة من لحظات يقظة الضمير كتب إلى معاوية ، وذلك لما أخذ معاوية منه مصر وأعطاه عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز ، كتب إليه قصيده الجلجلية المشهورة:

وعن موطن الحق لا تعدل	معاوية الفضل لا تنسى لي
ونحن على دومة الجندي	نسبيت محاورة الأشعري
تخف الخروج من المنزل	ولولي كنت كمثل النساء
على البطل الأعظم الأفضل	تبعناك من جهلنا يابن هند
نزلنا إلى أسفل الأرجل	وحبيت تركناك أعلى النفوس
فأيسن الحسام من المنجل	وإن كان بيتعما نسبة
وأيسن معاوية من على	وأيسن الشرايا وأيسن الشرى

(١) كما تمهد في قتل عمرو بن ود حينما يصق عليه: حتى لا يدخل قتله غضبه لنفسه عليه السلام .

(٢) انظر ج ١ ص ٣٨٩ ج ٢ ص ٨

إلى أن يقول:

واعطيت مصر لعبد العزيز وأعطيتني زنة الخردل^(١)

هذا هو موضع الشاهد.

وعمر بن العاص هذا كان يوماً ما يصف علياً عليه السلام بأنه تلعابة يداعس ويغافس، وأن فيه دعاية^(٢)، وما ترك شيئاً إلا شهره في وجه هذا البيت الظاهر. ولكنها نفس على الكبيرة التي تأمين أن تنحط إلى هذا الدرك، أو تنزل إلى هذا المستوى المنهزم. لقد كان علي عليه السلام بطلاً يقانع الأبطال ويعف عن المنهزمين والجبناء.

أما بسر بن أرطاة فقد ملأ الأرض من دماء المسلمين، وقتل حملة القرآن الكريم، وأشبع البلدان التي مرت بها قتلاً وتنكيلًا، وقد أراق الدم في بيته علي عليه السلام، فقد قتل طفلين لعيده الله بن العباس حتى جنت أمهما^(٣). وبستر هذا هو الذي ملأ اليمن دماً، وقد سقط بين يدي علي بن أبي طالب عليه السلام فعاد بعورته، وأدار علي عليه السلام وجهه عنه، ووقف شاعر من الشعراء يصف فعلته وفعلة عمر بن العاص قائلاً:

أفي كل يوم فارس تذبوه
له عورة وسط العجاجة باديه
يكف بها عنه علي سنة
ويضحك منها بالخلاء معاوية^(٤)

(١) انظر: الفدير: ٢: ١١٧ - ١١٨، شرح نهج البلاغة ١٠: ٥٦ - ٥٧.

(٢) وردت على لسان عمر بن الخطاب كما في الإيضاح (ابن شاذان): ١٦٣، ١٦٤، ٢٦٢، ٢٢٧، تاريخ المدينة: ٣، ٨٨٢، أنساب الأشراف: ٥: ١٦، منتخب كنز العمال: ٥: ١٨٩. وعلى لسان عمر بن العاص كما في المصدر نفسه: ٤٩٨، أو كما نقلها عنه أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة / الخطبة: ٨٤.

(٣) انظر الكامل في التاريخ: ٣: ٣٨٤ - ٣٨٥.

(٤) الفصول المهمة (ابن الصياغ المالكي): ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣.

لقد وقف أول ما وقف في طريقة الحسد؛ لأن هذا السيف يحسد على ما فيه من قوّة وفترة، وفتك وبطولة، وهذا الجسد المتكامل الذي يأخذ صفة الأسد، وهذه الروح القوية التي ما انهزمت، وهذا التوجّه الصلب الذي يقول: «ما لقيت أحداً إلا أعانتي على نفسي»^(١). هذه كلّها جديرة بأن تحسد.

ولم لا تحسد مثل هذه الروح، ولقد رأينا عليه السلام يابى أن يقابل بالمثل من يقابلها بأشدّ أنواع الحقد، بل يترفع تماماً عن ذلك؟

وأي واقعة لم نر فيها السمو عند علي عليه السلام؟ رأيناه بعد واقعة البصرة والقتلن خمسة وثلاثون ألفاً تقريباً، ولكنه عليه السلام يبقى تلك النفس المطمئنة، وذلك الجأش الرابط والثابت، وتلك الروح الكبيرة لينادي: «لا تجهزوا على جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تهيجوا النساء بأذى»، ولينادي: «لا يصلن لزوجة رسول الله عليه السلام منكم أذى». ويأتي ليقف على رأس المرأة ليقول: «ما أنصفك الذين أخرجوك من بيتك إذ صانوا حلالهم وأبرزوك»^(٢).
للله أنت يا بن أبي طالب، ليتك تسمع استشهادها بهذا البيت في مثل هذه الليلة وهي تقول:

وإن يكُن نسانياً فلقد نعاه نبئي ليس في فيه التراب^(٣)

هذه الروح التي تحنو على من أشبعها طعناً لتغمره بالعطاء والرحمة، لا شك أنه يحسد عليها، فعلي عليه السلام يحسد على كلّ صفة منحتها السماء

(١) نهج البلاغة / الحكم: ٣١٨.

(٢) شجرة طوبين ٢: ٣٢٤، وقعة العمل (ضامر بن شدق): ١٤٦.

(٣) العمل: ٨٤، تاريخ الطبرى ٤: ١١٥. حيث إن العرب يقولون لمن جاء يتعى عزيزاً عليهم ملأ الله فمه تراباً، وهي هنا تقول: لا ملأ الله فمه تراباً.

إيّاه؛ سواءً في الروح أو في الجسد.

يقول الحاكم في (المستدرك): «قال عمر بن الخطاب: ثلث خصال لعلي بن أبي طالب لو أن لي واحدة منها لكان أحب إلى من حمر النعم. قيل له: ما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: إن علي بن أبي طالب أخذ الراية يوم خيبر، وأنه تزوج فاطمة، وأنه سكن المسجد مع النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه يحل له ما يحل لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه»^(١).

فعلي صلوات الله عليه وآله وسلامه حُسد على مكانته من النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، وحسد على ما حباه الله من المزايا، وحسد على هذا الخطأ الناصع الذي لم تتدّسه نقطة سوداء من بدايته إلى نهايته، وحسد على العجبين الذي ما سجد لصنم، وعلى الروح التي ما استكانت إلا لله، وعلى الجسد الذي فنيت كل ذرة فيه في الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

ومن هنا سئل الخليل بن أحمد الفراهيدي: ما بال الناس هجروا علياً صلوات الله عليه وآله وسلامه مع قرباه من النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وموضعه من المسلمين، وغناه في الدفاع عن المسلمين؟ فقال: والله لقد غالب نوره أنوارهم، وغلبهم على كل فضل فهجروه، والشكل إلى أشكاله أميل^(٢).

نعم، بان عن مجتمعه بالمزايا التي رفعته وميزته، فحسد، ولما حُسد وقف الحسد في طريقه، ولم لا يحسد وكل جوانبه جديرة بأن تحسد، سيما من ذوي النفوس الضعيفة؟

العامل الثاني: الحقد

فلقد تعرض علي صلوات الله عليه وآله وسلامه لحقد بلغ به من الأمر أن تقف إحداهن لتقول:

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٥، ورواه أحمد عن ابن عمر، انظر مستند أحمد ٢: ٢٦.

(٢) الأموي (الطوسي) ١: ٤٨١ / ٣، بحار الأنوار ١٢٥٦ / ٦٩ - ٦٠٨.

لامفأعمر بعلی جمله ولا تبارك ببعير حمله^(١)

وهذا هو الحقد عينه الذي بلغ بالبعض حدّاً أنه يتقرب إلى الله تعالى بشتمه كلّ يوم سبعين مرة لما يقارب القرن من الزمان، ورحم الله الشاعر حيث يقول:

شتمته بالشام سبعين عاماً لعن الله كهلها وفتاتها^(٢)

فكان منابر المسلمين لا تفتح إلا بشتم علي عليه السلام، ولكن، هل ضرّه ذلك الشتم؟ كلاً، بل إن الحقائق تبقى كما هي لا يطالها التشويه الأعمى، ويبقى ذلك الشتم عطراً ينشر على تاريخ الإمام علي عليه السلام^(٣).

ومن شواهد الحقد الذي تعرض له علي عليه السلام أن علي بن عبد الله بن عباس كان يكتنأ أبو الحسن، فدخل يوماً على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: أنت علي أبو الحسن؟ قال: نعم. فقال عبد الملك: والله لا أجمعهما لك، علي وأبو الحسن؟ إما أن تغير اسمك أو أن تغيّر كنيتك. فاضطر إلى أن يغيّر كنيته^(٤).

فلم يكن عبد الملك بالذى يطبق أن يسمع اسم علي عليه السلام وكنيته

(١) القائلة هي أخت علي بن عدي من بنى عبد العزى بن عبد شمس. تاريخ الطبرى: ٣، الإصابة: ٥ / ٥٣، ٦٢٧٧. (٢) دراسات في التاريخ الإسلامي: ٢٢٠، ٤٩٣.

(٣) انتقض ابن لحرمة بن عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين عليه السلام فقال له أبوه: يا بني، إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلا هدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا، أما ترى علياً وما يظهر بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكانما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء، وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس فكانما يكشفون عن الجيف؟ جواهر العطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩، و قريب منه ما في المحاسن والمساوئ: ٤٠، البيان والتبيين ٢: ١٧٣.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٥، وفيه أنه أغراه بمئة ألف كي يغيّر كنيته أولاً.

مجتمعتين، بل ولا منفردتين.

ويرسل الرشيد وهو ابن عم علي عليه السلام خلف أحد العلماء، وقد أعطى رأياً لعلي عليه السلام في مسألة فقهية، فيقول له: ألم تعلم أنا نهينا أن يذكر لهذا الرجل رأي؟ إياك أن أسمع ذلك منك مرة أخرى.

هكذا بلغ الحقد بالناس الذين عاصروه والذين جاؤوا من بعده، فالذين عاصروه ما شكروا له مواقفه بل حقدوا عليه، والذين جاؤوا من بعده ما اعترفوا بما أسداه لهم من خير، بل وقفوا يأكلهم الحقد عليه. وهكذا أخذ الحقد طريقه حتى إلى تاريخه (صلوات الله وسلامه عليه).

ومن الغريب أنك ترى أن التاريخ إذا مر بهذا الرجل فقد توازنه، والحال أنه عليه السلام ليس له ذنب، فما ذنبه إذا أمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الله تعالى بالقتال^(١)؟ وما ذنبه إذا كان عدد القتلى في بدر سبعين وكان نصفهم أو أكثر بسيفه؟ وما من شك أن هذه الدماء لعبت دوراً كبيراً في تحديد مكانته، وقد اختزن له قريش هذا الحقد.

العامل الثالث: منهجه عليه السلام في تقديم العامة على الخاصة

وهذا المعنى واضح في عهده لمالك الأشتر رحمه الله، وفي تصرفه أيام حكمه. فقد كان يؤثر رضا العامة على رضا الخاصة، فليس عند علي عليه السلام أن يأخذ القوي أو صاحب الرئاسة حقه ولا يأخذ الضعيف حقه، وكان عليه السلام يقول: «القوي عندي ضعيف حتى أخذ الحق منه، والضعف عندي قوي حتى أخذ الحق له»^(٢). لقد آثر رضا عامة الناس؛ فتحول إلى أنه عند

(١) في الخندق مثلًا.

(٢) ورد أنه عليه السلام لما حضرته الوفات جاء الخضر ووقف على باب الدار مسلماً بسلام طويل منه: «القوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق». انظر: كمال الدين: ٢١٨ - ٢١٩ . بحار الأنوار ٤٢: ٣٠٣ - ٣٠٥.

كل مريض، وألم عند كل جائع.. سمعناه وهو على منبره يقول: «والله لو شئت لاحتديت الطريق إلى مصنفي هذا العسل ولباب هذا القمع، ونساجن هذا الفز، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعى إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطنون غرثني وأكباد حرى؟»^(١).

فكان علي عليه السلام دمعة في عين كل يتيم، وحسرة عند كل محروم، وسيماً يُنتصي ليجلب الحقَّ لمن أخذ منه، وليقف في وجه الباطل. فعلى الله آثر العامة على الخاصة فحققت عليه الخاصة.. عمد إلى الرؤوس الكبيرة التي كانت تصول على الرؤوس الصغيرة لتسللها رغيفها أو تأخذ ثوبها فزادها عنها، وأعاد الحقَّ إلى نصابه، وكان في أول خطبة له على المنبر عندما انتهت إليه الخلافة يقول: «والله لو وجدها مهرت بها النساء لرددتها، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»^(٢).

لقد أعاد (صلوات الله وسلامه عليه) للمسحوقيين مكانهم، وللمغضوب حقوقهم، وللبيتامي حقوقهم من الرعاية والعناية والاعطف؛ فحملت الخاصة السيف في وجهه وحققت عليه.

العامل الرابع: التسوية بالعطاء بين الناس

وهذه إحدى العقبات التي وضعت في طريقه (صلوات الله وسلامه عليه) واصطدم بها، وقد ألبَّت عليه هذه التسوية الخاصة من المجتمع. فعن الحرج قال: كنت عند علي فأتنبه أمرأتان فقالتا: يا أمير المؤمنين: إننا أمرأتان فقيرتان مسكيتتان. فقال: «قد وجب حتقهما علينا وعلى كل ذي سعة

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٢) نهج البلاغة / الكتاب: ١٥.

من المسلمين إن كتتما صادقتين». ثم أمر رجلاً فقال: «انطلق بهما إلى سوقنا فاشترِ لكل واحدة منهما كرزاً من طعام وثلاثة أنواع وأعط كلَّ واحدة منها من عطاني مئة درهم». فلما ولَّتا سفرت إحداهما وقالت: يا أمير المؤمنين، فضلنِي بما فضلَك الله به وشرفلك. قال: «وبماذا فضلنِي الله وشرفني؟». قالت: برسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال: «صدقت، وما أنت؟». قالت: امرأة من العرب، وهذه من الموالى. قال: فتناولِ أمير المؤمنين صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً من الأرض ثم قال: «قد قرأت ما بين اللوحين فما رأيت لولد إسماعيل على ولد إسحاق صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضلاً ولا جناح بعوضة»^(١).

ثم قال: «كلَّكم لأدم وآدم من تراب»^(٢).

لذلك ترك على صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القلوب تشتعل حقداً، وتتأبى أن تخضع لهذا اللون من التصرف.

لم لا يحقد عليه عمرو بن العاص؟ وقد دخل عليه بعد البيعة مباشرةً، وعلى صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشغول بأمور المسلمين، فأوعز على صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى غلامه بأن يطفئ السراج، ويحضر سراجاً آخر فسألَه: لماذا؟ فقال: «كان زيته من بيت المسلمين ولا ينبغي أن نصاحبك في ضوئه»^(٣).

فعلى صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأبى أن يميز هذا الرجل عن غيره وهو يعلم من هو في تأثيره وخطره، ومن هو إذا أراد أن يعيث أو يعبث.

أما هو صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يكن يميز في عطائه عن غلامه قنبر^(٤)، فياكل كما

(١) أنساب الأشراف: ١٤١.

(٢) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدر المنشور ٦: ٩٨.

(٣) المناقب المرتضوية (المولى صالح الحنفي): ٤٥، وفيه أن الداخِل عليه طلحة والزبير.

(٤) وقد رأينا أنه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يميز حتى أخاه عقبلاً، وذلك حينما جاءه يحمل صبيانه وهم جياع، أو كما يقول عنهم أمير المؤمنين: «فرأيت صبيانه شاعت الشعور غير الألوان من فقرهم، كما

يأكل ، وكان عليه يضع على الموضع الممزق من ثوبه قطعة من الليف وينتظر حتى يخرج عطاوه ليشتري به ثوباً^(١) ، ويأبى أن يمدد يده إلى بيت مال المسلمين ليشتري له به ذلك الثوب .

وكان إذا أراد أن يشتري ثوباً ذهب إلى السوق فاشترى ثوباً من الكراسي بثلاثة دراهم وأخر بدرهمين ، ثم يقول لقبر: «يا قبر خذ الذي بثلاثة دراهم»^(٢) . وكان يجول في سوق الكوفة وهو يصبح: «من يشتري مني هذا السيف؟ والله لو كان عندي ثمن إزار ما بعثه»^(٣) . فيقول له رجل من أهل السوق: أنا أسلفك إلى أن يخرج عطاوك . فيجزيه خيراً، ويستلف منه ثمن الثوب حتى يخرج عطاوه فيعطيه . وكان الإمام الصادق عليه السلام يقول عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنه ليعمل عمل رجل كان وجهه بين الجنة والنار ، يرجو هذه ويخاف عقاب هذه»^(٤) .

العامل الخامس: أنه سبق زمانه بعشرات السنين

فهو عليه السلام لم يتسع له وعاء عصره لأن القص في عصره ، وإنما القص في عصره ، فقد ضاق به مجتمع الكوفة؛ لأن حجمه عليه يحتاج إلى وسط أكبر من هذا الوسط؛ فلم يتفاعل معه عصره . ولذا نراه يصعد المنبر فيقول: «اللهم إني قد مللتكم وملوني ، وسنتهم وسموني ، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم ،

سودت وجوههم بالظلم». نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

(١) فهو عليه السلام القائل: «ولقد رقت مدرعتي حتى استعجيت من راقها ، وحتى قال لي قائل: ألا تتبذها عنك؟ فقلت أعزب عنك ، فعنده الصباح يحمد القوم السرى». نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠ ، عيون الموعظ والحكم: ٤٠٥.

(٢) روضة الوعاظين: ١٠٧.

(٣) الفارات: ١: ٦٣ ، مكارم الأخلاق: ١١٤.

(٤) شرح الأخبار: ٣: ٢٧١ / ١٧٥ ، الإرشاد: ٢: ١٤٢ .

وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مث قلوبهم ميت الملح في الماء»^(١). ثم يرى النبي ﷺ في المنام فيقول: «يا رسول الله، ما رأيت من أمتك من الأود واللدد؟». فيقول له ﷺ: «ادع عليهم». فيقول: «اللهم أبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شرّاً مني»^(٢).

وكان يدعوا أن يلحق بأحبابه، فكان يقول: «أين إخوانى الذى ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ ... أوه على إخوانى الذى تلوا القرآن...»^(٣).

نعم، لقد ضاق به عصره، وكانت قريش تتربيص به الدوائر، ثم وجد الحقد طريقه إليه في مثل هذه الليلة، وهذا الحقد مهدت له قريش وجعلت السيف المباشر الذي حمله هو سيف الخوارج.. الخوارج الذين كان منهم ثلاثة في أداء العمرة وقد اجتمعوا في مكة وتذاكروا الأمراء فعابوهم وعابوا أعمالهم، فقالوا: لو أننا شرينا أنفسنا لله فأرحننا البلاد والعباد من هؤلاء: معاوية، وعمرو بن العاص، وعلى بن أبي طالب! فقال عبد الرحمن بن ملجم: أنا أكفيكم علياً. وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية.

فتعاهدوا على ذلك وتفرقوا، وكان الموعد في شهر رمضان في الليلة التاسعة عشرة، وطرحوا الأمر للأشعث بن قيس. ويبدو أنه كان على علم بالواقعة^(٤).

(١) الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

(٢) شرح الأخبار ٢: ٤٢٠ / ٧٧٩، مقاتل الطالبين ٢٥، الطبقات الكبرى ٣: ٣٦، شرح نهج البلاغة ٩: ١١٨ - ١١٩، فيض التدبر شرح الجامع الصغير ٣: ١٢٨ / ٢٨٥٠.

(٣) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢. (٤) تهذيب التهذيب ٣: ٦٥.

وقد نقل بعض المؤرخين أن عدم خروج عمرو بن العاص في تلك الليلة لم يكن لمرض، وإنما أبلغ بأنه سيتعرض للقتل. ويقول أحد المؤرخين: إن معاوية خرج إلى المحراب هذه الليلة وقد كفر درعه تحت ثيابه، وإن الضربة التي وقعت عليه لم يكن يقصد بها القتل. وظروف الأحوال تساعد على هذا المعنى.

أما عبد الرحمن بن ملجم فقد سقى سيفه السمّ وكمن لعلي عليه السلام في مثل هذه الليلة، يقول ابن عبدون:

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بعن شاءت من البشر^(١)

يقول المؤرخون: عندما دخل هذا الشهر المبارك كان علي عليه السلام يوزع إفطاره بين بيت عبد الله بن جعفر وبيت ابنته الحسن عليهما السلام وبيت ابنيه الحسين عليهما السلام، فكان كل ليلة يفتر عندهم على شيء من الخبز والملح، وإن زاد فبشيء من اللبن، وكان يكرر هذين البيتين:

تلهم قريش تعمّاني لتقتلني	فلا وربك ما ضرروا وما ظفروا
إن يقتلوني فرهن ذمتني لهم	بذات ودقين لا يغفو لها انز ^(٢)

حتى قالت أم كلثوم عليهما السلام: «يا أباها، مالي أراك هذه الليلة لا تذوق طعم الرقاد؟». فقال عليهما السلام: «لا يا بنتي، إن أباك قتل الأبطال وخاض الأموال، فعاد خل الجوف له خوف، وما دخل في قلبي رعب، وليس منا من يتظير، ولكن للموت علامات ودلائل يتبع بعضها بعضاً».^(٣)

(١) كشف الغمة ٢: ٦٦، سبل السلام (المسقلاني) ٢: ١١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٦٦ - روى، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٢٧٩ - روى، ٥: ١٦٨ - ودق.

(٣) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٧، باختلاف.

تقول أم كلثوم: عندما حان وقت الإفطار ليلة التاسعة عشرة من رمضان، رفعت لأبي أمير المؤمنين عليه السلام طبقاً فيه إفطارة، وكان فيه إدامان، فالتفت إلى قائلًا: «بنية، ارفعي أحد الإدامين، أما علمت أن من طاب طعامه وشرابه طال وقوفه بين يدي الله؟».

تقول أم كلثوم: فلما أردت أن أرفع بعض النباتات التي كانت في الطبق قال: «لا، ارفعي اللبن».

فهو الذي كان حينما يأكل رغيف خبز أو تمرة يمسح بيده على بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»^(١). وكان يقوم ويقلب طرفه في السماء ويقول: «هي هي والله الليلة التي وعدت بها، والله ماكذبت ولاكذبت». ثم يدخل إلى الحجرة ويخرج ليقلب طرفه في النجوم. وكان هكذا ليته كلها، إلى أن انبلج عمود الفجر، فقام عليه السلام وجدد وضوئه ونزل إلى الدار، وكان في الدار طيور من الإوز أهدىت للإمام الحسن عليه السلام، فرفرن في وجهه، فذدت عنه تلك الطيور فقال: «دعهن فإنهم صوائح ونوائح». ثم فتح باب الدار فتعلق مثزره بالباب، فأخذ يشدّه ويقول: «أشدد..

حياز يند للسموت فبان الموت لا يكينا

ولا تفتز بالدهر إذا كان يواسينا

كما أضحك الدهر كذاك الدهر يبكينا»

تقول أم كلثوم: فرجعت إلى الحسن عليه السلام فقلت له: يا أخي، لقد سمعت أبي يقول كذا وكذا، فتبعه الحسن والحسين عليهما السلام فقال لهما: «أقسمت

(١) الدعوات: ١٣٧ - ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان): ٢٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار: ٤٠ / ٢٦، تاريخ مدينة دمشق: ٤٨، ٢٣٠، كنز الممال: ٣ .٨٧٤١ / ٧٨٢

عليكما بعد كما إلا ما رجعتما». فرجعوا، ثم دخل المسجد يوقيظ الناس إلى الصلاة، ثم وصل المئذنة فأذن، وكان إذا أذن اضطربت حيطان المسجد، ثم نزل وأقبل نحو المحراب، ووقف فيه ثم رفع رأسه إلى السماء ورمقها بطرفه، ثم رفع يديه حيال أذنيه مكتبراً، ثم قرأ وانحنى للركوع، وما كاد يسجد السجدة الأولى حتى سمع الناس قائلاً يقول: الحكم لله لا لك يا علي. وإذا بالسيف يهوي على هامة أمير المؤمنين عليه السلام، فسقط إلى الأرض وهو يقول: «فزت ورب الكعبة، لا يفوتكم ابن اليهودية؛ فقد قتلني». وإذا بالصوت بين السماء والأرض: «تهدمت والله أركان الهدى، وانفصمت العروة الوثقى، قتل أتقى الأتقياء، قتل أشقي الأشقياء»^(١):

بعيد البلة يا داهي الباب	يا سور عزنه يبن الاطياب
مطروح بويه على المحراب	وتلوج من حر العصواب

* * *

هذا المحاريب أين القانون بها^(٢)



(١) انظر بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٦.

(٢) صدر بيت من قصيدة للشيخ كاظم ستي الناكر التجني، وتمامه:

والليل مرخ من الظلماء أستارا

الأنوار العلوية: ٣٩٦. ومن جملة أبيات القصيدة:

فأي حادثة في الدين قد وقعت	فالبسته من الأشجان أطمara
جار الزمان عليهم كم بهم ملاؤ	دنيا مصابباً وكم أخلفن لهم دارا
هذي منازلهم بعد الأنبياء فلا	ترى بها غير وحش الفقر زوارا

أمير المؤمنين عليه السلام وكتابة التاريخ

أَبْا الْحُسْنَى وَتِلْكَ أَرْوَعُ كَنْيَةٍ
 لَكَ فِي خَيَالِ الدَّهْرِ أَيُّ مَلَامِعٍ
 فِي الصَّبَحِ أَنْتَ الْمُسْتَجْعِمُ مِنَ الظَّنِّ
 تَكْسُو وَأَنْتَ قَسْطِيفَةً مَرْقُوْعَةً
 آلَاؤْكَ الْبَيْضَاءَ طَرَّقَتِ الدُّنْيَا
 وَكِلَّا كَمَا بِالْأَيَّالِعَاتِ قَسِيْنَ
 تَرْوِي السَّنَا وَيُشَرِّجُمُ النَّسَرِيْنَ
 وَاللَّسِيلُ فِي الْمَحْرَابِ أَنْتَ أَنْيَنَ
 وَتَسْمُوْثُ مِنْ جَسْوٍ وَأَنْتَ بَطْيَنَ
 فَلَهَا عَلَى ذِمَّمِ الْأَنَامِ دُبُونَ^(١)

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: أمير المؤمنين عليه السلام في مرآة التاريخ
 ويشتمل هذا المبحث على عدة مقدمات توطئة لما سأله من بحوث
 إن شاء الله تعالى :

المقدمة الأولى: عظمة أمير المؤمنين عليه السلام
 عندما يقدم أي باحث على ترجمة هذا الرجل العظيم فإنه يحار من
 أين يبدأ وأين ينتهي؛ فليس في حياته عليه السلام لحظة لا تستحق التوقف عندها،
 وليس فيها حركة لا ينبغي تسجيلها والتأمل فيها، وليس منها موقف لا

ينبغي الانحناء أمامه إجلالاً وإكباراً؛ فكل ما في كيانه وجوده وحياته ألق مشرق يأخذ بالأبصار. إن من يدخل بستانها أو حتى جنة فيمكن أن يلفت نظره فيها زهرة جميلة شذية، أو شجرة وارفة ندية، فيكتفي بهذه أو تلك وينشغل بها عما في البستان من أوراد وأشجار، أمّا من يدخل حقل حياة الإمام علي عليه السلام فإنه سيجد نفسه مشدوداً إلى كلّ ما فيه. وكلّ ما فيه معجب - وحائزًا فيما ينبعي أن يبدأ به، فما من زهرة إلا ومجاورها يعقب مثلها وما من شجرة إلا وتؤتي أكلها حالها في ذلك حال أي شجرة أخرى، وما من شيء إلا وهو من نتاج الإرادة الإلهية التي أحنت على هذا الوجود ومنحته هذه العظمة.

ومن هذا أنه عليه السلام قد تساوت فيه جميع الميزات والكمالات، وهذا ما لا يمكن أن يكون لغيره - سوى نبينا محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه، ومن سبقه من الأنبياء - فمن ينبع من الناس في البلاغة أو الشعر أو الشجاعة أو الكرم أو غيرها نجد عنده نقصاً في الجوانب الأخرى مما ذكرنا وغيره، أمّا أمير المؤمنين عليه السلام فخلاف ذلك؛ فقد نبع في الجميع، وبــ الناس جميعاً في كل ما أوتي من فضائل ومناقب كان له فيها الحظ الأوفر والكعب العالي والقبح المعلى من بينهم، مع تساويها عنده في بلوغه القمة فيها. وهكذا كان هذا الرجل العظيم.. لقد كانت كلّ حياته عطاءً وعنواناً ومثاراً للإعجاب والحسد من عاصروه ومن جاؤوا بعده.

المقدمة الثانية: عطاوه المتجدد ومناقبه التي لا تنفذ

إن بيننا وبين أمير المؤمنين عليه السلام أربعة عشر قرناً من الزمان تناولت فيها شخصيته وحياته وموافقه الأقلام من مختلف الفئات والمشارب والأذواق؛ فبين محب مواد، وبين مبغض شانى، وبين متوقف محайд.

وقد كتبت هذه الأقلام ما حلالها وما لم يحلُّ، من واقع الحياة ومن وهم مخيلات أصحابها غير أنه عليه السلام بقي من بين كل الكتابات وهذه الأقلام إشعاعاً حضارياً وهاجأ في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الدنيا أجمعه. لقد كان يعطي جديداً كلما شرع أحد في الكتابة عنه؛ فلم تنفذ مناقبه، ولم تفنِ مهامده.

وسرّ هذه الظاهرة هو أن عناية الله تعالى به لم ولن تقطع عنه أبداً منذ مجิئه إلى الحياة وولوجه فيها وحتى قيام الساعة. وربما يرد في ذهن البعض أن هذا يتناقض مع واقع حياته عليه السلام؛ ذلك أنه لو كان محظوظاً عنابة السماء لما مرت به في حياته مصائب عظيمة ونكبات جمة جعلته يتمتنى الموت ^(١). لكن هذا غير صحيح من ناحية مبدئية؛ لأن هذه المصائب والنكبات هي بعض ما أعطته السماء ووهبته الإرادة الإلهية؛ لترفع بها كعبه فوق من سواه ولتبذر للدنيا أجمع مقدار إيمان علي بن أبي طالب عليه السلام وصبره وتحمله؛ وبهذا كان ألقاً، وبقى نجمه يسطع في سماء الإيمان والصبر، وكوكبه يلمع في دنيا الخلود، وبقى هو يتألق بين كل من هم سواه. ودليل هذا أننا حينما ندرس ما مرّ به من هذه المصائب المذكورة

(١) فقال عليه السلام يصف حاله وحال من معه: «لا أرى هؤلاء القوم إلا ظاهرين عليكم؛ لا جتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم وطاعتهم لإمامهم ومعصيتكم لإمامكم، وبادائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم إياي. إني وليت فلاناً فخان وغدر، واحتفل فيه المسلمين إلى معاوية، ولو لست فلاناً فخان وغدر فعل مثله، فصررت لا آتنيكم على علاقة سوط. وإن ندبتم إلى عدوكم في الصيف قلتم: أمهلنا ينسليح العزّ عننا، وإن ندبتم في الشتاء قلتم: أمهلنا ينسليح القرّ عننا. اللهم إني قد مللتهم وملوني، وسنتهم وسمونني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء». ثم نزل. الغارات ٢: ٦٣٦. تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

دراسة موضوعية فسنجد أنها كافية في القضاء على غيره وكفيلة بأن تأتي عليه، لكن هذا لم يحصل مع أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يدرى بأنه حتى بعد الموت لم يسلم من أذى مدعى الإسلام، فكان يعلم أنه لو دفن علينا لأخرجت جنته الطاهرة ومثل بها؛ فكان يوصي ولده الحسن عليه السلام عند وفاته بقوله: «لا تشهدوا أحداً جنازتي ومكان دفني».

وهذا الحذر لم يكن خوفاً من أن يمثل به، بل إنه كان خوفاً من أن تنتهي حرمة الإسلام بالتمثيل بجسده؛ لأنَّه عليه السلام كان يعلم مدى حقد السلطة الأموية وبطشها واعتدائها على حرمات الإسلام؛ وألا فليسوا هم أبناء وأحفاد هند أكلة الأكباد، التي بقرت بطن حمزة عليه السلام وأكلت كبده نيناً؟ مع أن المفترض أنه قد قتل وانتهى أمره بالنسبة لها ولجيشه زوجها جيش الكفر والشرك؟ وأليسوا هم أبناء وأحفاد قائد جيش الشرك والنفاق أبي سفيان الذي كان يضع رمحه في خد الحمزة ويتكئ عليه حتى تخرج من خدَّه الآخر؟ فهذا المقدار من الحقد الكامن والدفين في صدر هؤلاء كافٍ لأن يدفعهم لفعل ما لا يجرؤ غيرهم على فعله مما يدفعهم إلى اخراج الجثمان الظاهر لأمير المؤمنين عليه السلام والتمثيل به.

إن هؤلاء كانوا إذا عزم خطيب على أن يرقى أعود المنبر أفهموه وأوهموه أنهم لا يريدون أن يذكر لعلي بن أبي طالب عليه السلام منقبة، وأنه غير مرغوب، فيه وأنه ليس أهلاً لأن تكون له مناقب يذكر بها بين الملا، وأن عليه (الخطيب) ^(١) أن يحدِّث الناس بفضائل الصحابة دون ذكر هذا

(١) روى الطبرى أنَّ المغيرة دعا صعصعة، فقال له: إياك أن يبلغنى عنك أنك تظهر من فضل على شيئاً علانية، فإنك لست بذلك من فضل علي شيئاً أجهله، بل أنا أعلم بذلك، ولكن هذا السلطان قد ظهر، وقد أخذنا باظهار عبيه للناس، فنحن ندع كثيراً ماتأبه، ونذكر الشيء.

الرجل. سئل أحدهم يوماً: لماذا نرى أن الصحابة كلهم كأنهم أبناء لأم واحدة، وعلى بينهم كأنه ابن علة؟ فقال: ولم لا يكون كذلك، وقد سبّهم سلماً، وتقديمهم علماء، وفاقهم حلماً، وبزّهم شجاعة؟ والجنس لجنسه أميل^(١).

فهذا الرجل قد تميّز فأصبح محسوداً.. تميّز عن غيره بالتحلّي بكل الفضائل والتخلّي عن جميع الرذائل؛ فكان طاهراً نقيناً^(٢)؛ ولذا فإن هؤلاء لم يتوقوا له ولم يميلوا إلى جانبه ولم يسلكوا مسلكه^(٣).

محاولات أعدائه للنيل منه

وهؤلاء حينما وجدوا أنفسهم لا يستطيعون أن يرقوا مراقيه، ولا أن يصلوا إلى منزلته في الشجاعة والإيمان والسابقة والمناقب والجهاد في سبيل الله تعالى ورسوله الكريم عليه السلام ودينه الحنيف راحوا يشكّكون

الذى لا تجد بدأً منه، نداعن به هؤلاء القوم عن أنفسنا. فإن كنت ذاكراً فضله فاذكره بينك وبين أصحابك. تاريخ الطبرى ٥: ١٨٩ - ١٨٨.

(١) الأمالى (الطوسى): ٤٨١ / ٣ - ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١، المسؤول هو الخليل ابن أحمد الفراهيدى.

(٢) ورد في زيارة أبي عبد الله عليه السلام: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تتّجس الجاهلية بإنجازها، ولم تلبسك من مدحّمات ثيابها». مصباح المتّهجد: ٧٢١.

(٣) مع أن مسلكه القرآن ومع القرآن بنص قول الرسول الأكرم فيه عليه السلام: «علي مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان حتى يردا على العوض». المعجم الأوسط ٥: ١٢٥، المعجم الصغير ١: ٢٥٥. وفي المستدرك على الصعبيين ٢: ١١٩: أنه عليه السلام، حينما جاء يوشع أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله تعالى عنها) عند خروجه إلى الجمل، قالت له: «سر في حفظ الله وفي كنته، فواشه، إنك لعلى الحق والحق معك، ولو لا أني أكره أن أعصي الله ورسوله فإنه أمرنا أن نتّبعك وأن نقرّ في بيوتنا لسرت معك».

الناس به وبكلّ ما يمثّل إليه بصلة، وهي محاولات كثيرة نذكر منها:

الأولى: نفي نسبة (نهج البلاغة) إليه

فحيني (نهج البلاغة) لم يسلم من حقد هم الذي وصل إليه، وسمّهم الذي أرادوا أن ينفثوه حوله، وكانت هناك محاولات لنفي صحة نسبة إليه^(١) لأنّ فيه عطاً أكبر من مستوى العصر الذي يعيش فيه^(٢). كما أن البعض من المفسّرين أو المؤرّخين حينما يمرّ بمنقبة أثبتتها له آية كريمة أو حدّيث شريف يغفلها ويعدّ إلى إهمال ذكرها أو نفيها عنه^(٣)؛ لأنّه لا يقوى على الوصول إلى مثلها.

الثانية: هدم داره التي ترك النبي ﷺ بابها مفتوحاً على المسجد وكذلك بيت الإمام زيد في المدينة، والذي بناه له رسول الله ﷺ ضمن الدور العشرة التي بناها حيث إنه كان يحيى خصّص تسعة منها للنسانه وأعطى العاشرة لأمير المؤمنين زيد^(٤)، وهي الدار الوحيدة التي لم يغلق بابها الذي يطلّ على المسجد بعد أن أوصى بإغلاق الأبواب كلّها^(٥).

لكن الأميين هدموا هذه الدار عن عمد؛ لأنّ فيها إيحاءً بحقيقة ساطعة أرادوا وأدّها وتضييعها؛ فعدم إغلاق باب هذه الدار يشكّل علامه فارقة، كما أنّ وقوف الرسول ﷺ منادياً: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيذْهَبَ عَنْكُمُ الرُّجْسُ أَهْلُ

(١) انظر شرح نهج البلاغة ١٠: ١٢٧ - ١٢٩.

(٢) انظر حول تفسير سورة الدهر: تفسير ابن كثير ٤: ٤٨٤ - ٤٨٥، تفسير الجلالين: ٧٨١ - ٧٨٢، منهاج السنة ٥: ٧ - ٥. وقد ذكرنا هناك ما نقله كلّ من ابن الجوزي في زاد المسير ٨: ١٤١، والشوكاني في فتح القيدير ٥: ٢٤٢ في مكان نزول هذه السورة متأففه دحض لهذا القول السخيف ورفع له. انظر ج ٣ ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٣) السنن الكبرى (النساني) ٥: ١١٩ / ٨٤٢٧ - ٨٤٢٨، خصائص أمير المؤمنين زيد^(٦) (النساني): ٧٦ - ٧٥، المعجم الكبير ٢: ٢٤٦.

البنية ويطهركم تطهيراً^(١) كل يوم صباحاً عند صلاة الفجر له صورة حية تبيّن أهمية هذه الدار وساكنها. وهذه الصورة طبعاً ظلت مائة طيلة الوقت في أذهان صحابة الرسول عليهما السلام، كما أن بقاءها في أذهان الناس يؤذى الأميين، وابقاءها وتركها كذلك يتقدّم مضاجعهم؛ لأن ذلك يفشل مخططاتهم في ارجاع الناس القهري^(٢) عن الدين إلى شريعة الجاهلية عبر محاولاتهم المتكررة لتحقيق ذلك، إلى أن جاء عهد الملك عبد الملك بن مروان الذي هدم هذا البيت مع كل البيوت التي حول المسجد بذريعة توسيعه^(٣).

على أية حال فإن ولد أمير المؤمنين عليه السلام لم يزالوا في بيته إلى أيام عبد الملك بن مروان الذي ما إن عرف الخبر حتى حسدتهم على ذلك وأغتصبوا، وأمر بهدم الدار متظاهراً أنه يريد أن يوسع في المسجد. وكان فيها الحسن بن الحسن عليهما السلام، فقال: لا أخرج، ولا أمكن من هدمها. فضرب بالسياط، وتصابع الناس، وأخرج عند ذلك وهدمت الدار^(٤).

فهناك محاولة لإقصائه عن أذهان الناس، وإبعاد دائرة النور عنه، وعدم تسليط الضوء عليه، وهذا هو حال كل ما أثر عنه مع التاريخ الجائز

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) قال رسولنا الأكرم عليهما السلام: «رأيتبني أمة ينزلون على منبري نزو القردة، يرددون الناس عن الدين القهري». فهبط عليه جبرائيل عليهما السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رأه حق، وأن مدة ملكبني أمية ألف شهر. جامع البيان ١٥: ١٤، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨.

(٣) مع أنها لا ضرر من بقائها داخل المسجد لو أريد توسيعه؛ لأنها محراب رسول الله عليهما السلام ومحراب الإمام علي عليهما السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، فيكون بذلك شأنها شأن مقام إسماعيل عليهما السلام وغيره؛ فهي لا تقلّ عنها شأنها.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٨، بحار الأنوار ٢٩: ٢٩ - ٣٠.

والحكام الحاقدين، فهؤلاء حاولوا جهداً مكانتهم إلقاء ظلال من التشكيك حوله.

الثالثة: أذنوبه خطبة بنت أبي جهل

وهكذا ما أثبتت الحق ميزة له عليه السلام إلا تحولت عند أهل الحقد إلى مثلية، ومن هذا أن معظم الصحابة خطبوا فاطمة الزهراء عليها السلام، وكان النبي عليه السلام يردهم مبيناً لهم أن أمرها ليس إليه بل إنه راجع إلى السماء، حتى أمرته السماء بأن يزوج علياً عليه السلام منها، وهنا جاء على عليه السلام فابتدأه رسول الله عليه السلام قائلاً: «ارفع رأسك وقل لي عما جئت به». فقال عليه السلام: «الحياة يمنعني». قال عليه السلام: «لعلك جئت خاطباً فاطمة؟». فقال عليه السلام: «إي والله». فقال عليه السلام: «الله أكبر، الآن خرج من عندي جبرئيل، وقد أمرني أن أزوج النور من النور، فقلت: من متمن؟ قال: زوج علياً من فاطمة. وأنا زوجتك ابنتي».

ثم قال عليه السلام: «يا علي ما عندك تسوقه لأهلك؟». فقال عليه السلام: «إنه ورسوله أعلم بحالى، ليس لي نقد، وليس عندي إلا الدرع والناضح». فقال عليه السلام: «اذهب فقد زوجتك ابنتي بالدرع»^(١).

وهذه البشرى استغلها أعداء أمير المؤمنين عليه السلام ليحولوها إلى مثلبه ضده، يقول المؤرخون: إن أمير المؤمنين عليه السلام خطب بنت أبي جهل، فلما بلغ الخبر النبي عليه السلام صعد المنبر وقال: إذا كان علي بن أبي طالب يريد الزواج من بنت أبي جهل فليطلق ابنتي فإنه لا تجتمع ابنة نبي الله وابنة عدو الله. وكانت الزهراء عليها السلام خرجت وبيدها الحسن والحسين وهي

(١) دلائل الإمامة: ٨٧، بحار الأنوار ١٠١: ٨٨، ٥٣.

غضبي (١) .

وبقيت هذه الأكذوبة مروية في الصاحب بقرؤها المسلم المغزز
فينحرف عن نهج علي ويتحامل عليه . وهذا واقعاً يؤلمني ، لأنه يوجع
قلب رسول الله عليه السلام وقلب السيدة فاطمة الزهراء عليها باعتقاده صحة هذه
الفرية ، وبإثباتها في كتب الحديث . وهكذا حول أعداؤه عليه منقبة هبة
السماء له بتزويعه من سيدة نساء العالمين عليها إلى مثابة بفرية لم تحصل
أبداً (٢) .

الرابعة: محاولة تفضيل الزهراء عليها

ومن هذه المحاولات ما أثبته بعض المفسّرين في كتبهم حول قوله تعالى : «اذْغُوْهُمْ لِأَبْنَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ» (٣) ، فيقول هؤلاء : إن كلّ الناس
يوم القيامة يدعون بأسماء أمهاتهم ؛ وذلك لثلاثة (٤) أسباب أحدها
تشريف الحسينين عليهما السلام بحسبهما إلى أمّهما وإشعار بشرفها هي (٥) . فهل إن
فاطمة الزهراء أفضل من علي بن أبي طالب عليهما السلام الذي نذر حياته
للإسلام ، فكانت عطاء ثرّاً في سبيل اعلاء كلمته . ثم إن فاطمة عليها قد

(١) السنن الكبرى (النساني) ٥: ١٤٧ / ٨٥١٨، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٢، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢٢٧.

(٢) قال الشاعر :

وَمَا مِنْ كَاتِبٍ إِلَّا سَبَقَنِي كَسْتَابُهُ وَإِنْ فَسِيَّتْ يَدَاهُ
فَلَا تَكْتُبْ بِكَفْكَهُ غَيْرَ شَيْءٍ يَسْرُكَ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ
تأويل مختلف الحديث ١: ٥٩، كتاب الغرباء: ١٦.

(٣) الأحزاب: ٥.

(٤) ستأتي الأسباب الثلاثة في ج ٨ ص ٢٨٣ من المحاضرات ، وفيه أن صاحب هذا الرأي
هو القرطبي وإن كنا لم نعثر عليه في تفسيره .

تشرفت بالزواج من أمير المؤمنين عليه السلام ، أليس رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه قد قال لها: «زوجتك خير الناس من بعدي»^(١)؟ لكن بما أن هذا الحديث وغيره^(٢) في جانب أمير المؤمنين ، ويعدّ أعظم منقبة له حيث إنه صلوات الله عليه وآله وسلامه فضلـه فيه على صحابته كافة ، فإن المحاولات الحاقدة راحت تعمل معاولها في هدمه ووضع قبالـه ما يمسـخه بأكاذـيب ليتحولـ من فضـيلة إلى رذـيلة.

وعلى الرغم من كل المحاولات التي بذلت في هذا السـبيل ومورست في هذا المجال مما ذكرنا أو لم نذكر فإن قـدحـ أمـيرـ المؤـمنـينـ بـقـيـ هوـ المـعـلـىـ وـسـهـمـهـ هوـ الصـائـبـ وـحـظـهـ هوـ الـأـوـفـرـ ، وـبـقـيـ عـلـيـ عليه السلامـ مـفـخرـةـ الدـهـرـ بما تركـ من آثارـ حـسـدـهـ عـلـيـهـ الـحـاسـدـوـنـ وـأـبـغـضـهـ عـلـيـهـ الـمـبـغـضـوـنـ **الـحـاـقـدـوـنـ**. إنـ المـسـاعـوـلـ التـيـ رـفـعـوـهـ لـلـقـضـاءـ عـلـيـهـ اـرـتـدـتـ خـائـبـةـ

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٢ ، وفيه: «خير من أعلم» ، الطبقات الكبرى ٨: ٢٤ ، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٢٦ ، كنز العمال ١١: ٦٠٥ / ١٣٢٩٢٦ / ١٢٥ ، و فيها: «خير أهلي».

وفي الأمالي (الصدوق) : ٤٣٤ / ٤٣٤ عن جابر بن عبد الله الانصاري أنه قال: إن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه كان ذات يوم في منزل أم إبراهيم، وعندـهـ نـفـرـ منـ أـصـحـابـهـ، إـذـ أـقـبـلـ عـلـيـهـ عليه السلامـ قال: «يا مـعـشـرـ النـاسـ، أـقـبـلـ إـلـيـكـمـ خـيرـ النـاسـ بـعـدـيـ، وـهـوـ مـوـلـاـكـ؛ طـاعـتـهـ مـفـرـوضـةـ كـطـاعـتـيـ، وـمـعـصـيـتـهـ مـحـرـمةـ كـمـعـصـيـتـيـ».

وفي بشارـةـ المصطفـىـ (الطـبـريـ) : ٤٢٠ - ٤٢١ / ٢٨: «يا عـلـيـ أـنتـ خـيرـ النـاسـ بـعـدـيـ، وـأـنـتـ أـوـلـ النـاسـ تـصـدـرـأـ، مـنـ أـطـاعـكـ فـقـدـ أـطـاعـنـيـ، وـمـنـ أـطـاعـنـيـ فـقـدـ أـطـاعـ اللـهـ، وـمـنـ عـصـاكـ فـقـدـ عـصـانـيـ، وـمـنـ عـصـانـيـ فـقـدـ عـصـىـ اللـهـ، وـمـنـ أـحـبـكـ فـقـدـ أـحـبـتـيـ، وـمـنـ أـحـبـتـيـ فـقـدـ أـحـبـ اللـهـ، وـمـنـ أـبغـضـكـ فـقـدـ أـبغـضـنـيـ، وـمـنـ أـبغـضـنـيـ فـقـدـ أـبغـضـ اللـهـ، يـاـ عـلـيـ لـاـ يـحـبـكـ إـلـاـ مـؤـمنـ وـلـاـ يـبغـضـكـ إـلـاـ مـنـافـقـ أـوـ كـافـرـ».

(٢) مع أنـ حـجـرـ العـسـقلـانـيـ يـقـولـ: «قـالـ أـحـمـدـ وـإـسـمـاعـيلـ القـاضـيـ وـالـنـسـائـيـ وـأـبـوـ عـلـيـ الـنـيـساـبـورـيـ: لـمـ يـرـدـ فـيـ حـقـ أـحـدـ مـنـ الصـاحـبـةـ بـالـأـسـانـيدـ الـجـيـادـ أـكـثـرـ مـاـ جـاءـ فـيـ عـلـيـ». الصـوـاعـقـ المـحرـقةـ: ١٢٥

خاصة^(١)، وشيد له الحق قبال كل خلية من نسيج محاولاتهم البائسة بناءً يتسامي في النفوس وفي الدنيا. وهكذا رفعته السماء فلم يؤثر فيه الشتم ولا الهدم^(٢)، ولم تنحسر عنه الأضواء؛ فكم حاولوا عزله عن اسهاماته مع رسول الله عليه السلام، حيث إنه عليه السلام شاركه في أربع وثمانين غزوة من غزواته لم ينكحها ولم يفرّ في واحدة منها أبداً، وكان يحمل لواء الإسلام فيها كلها، ومع ذلك فإن هؤلاء كانوا يصوّرونه على أنه كأي جندي عادي في جيش الرسول الأكرم عليه السلام.

نعم، لقد بقي على عليه السلام شاكراً كالعلم يرقب المعاول وهي تتحطم على سفحه بعد أن ترتد خاصته صاغرة، وما تهدم في هذا المضمار إلا تلك المحاولات وأصحابها حيث أتت عليهم عفونة التاريخ.

المقدمة الثالثة: في حجم علي عليه السلام الذي منحته إياه السماء

هناك من يطعن فيما حببني به أمير المؤمنين عليه السلام من فضائل ومناقب وكرامات ومعاجز، وما حبته بها إلا السماء، وما حبته به إلا لما أعطى للإسلام وقدمه في سبيل اعلاء كلمته. وهذا الطعن يستند إلى القول بأننا بالغنا في تضخيم علي عليه السلام وتضخيم مناقبه وموافقه؛ لأننا ننظر إليه بعين

(١) قال الشاعر:

كتاطيع صخرة يوماً ليغلقها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل
ديوان الأعشى : ١٤٤.

(٢) قال حمزة بن عبد الله بن الزبير بعد أن انتقص ابنه الإمام علي عليه السلام : يابني، إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلا هدمه الدين، وما بني الدين شيئاً فهدمته الدنيا، أما ترى على ما يظهر بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكانما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء، وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس فكانما يكشفون عن العيف؟ ونسى عبد العزيز بن مروان. انظر: جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩، المحاسن والمساوي: ٤٠، البيان والتبيين ٢: ١٧٣.

تحتفل عن العين التي ننظر بها للآخرين، ونراه بنظرة غير تلك التي نرى بها غيره. فنحن نلونه بعيوننا، وعيون الوراثة التي عشنا نحملها هي التي تجعلنا نقول هذا ونراه فيه، وبأننا نقول فيه كما قال الشاعر:

لا عذب الله أقسى إنها شربت
حب الوصسي وغذتني باللبن
وكان لي والد يهوى أبا حسن^(١)

أما غيركم فيراه بالعين الطبيعية، وبالتالي فهو يراه بحجمه الطبيعي، دون أن يمنحه ما تمنحونه إياه من ألقاب وكرامات وغيرها.

حديث عبادة الثقلين

ونقول لهذا المعترض: ألم تسمع أو تقرأ عن نبينا الأكرم عليه السلام عندما برز أمير المؤمنين إلى قتال عمرو بن ود العامری حيث رفعه فوق الثقلين بقوله: «وَإِنَّ لِضَرْبَةِ عَلَيِّ لَعُمَرَ وَابْنِ عَبْدِ وَدَ تَعْدُلُ عِبَادَةَ أَمْتَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢)؟ فعندما يقرأ أمرؤ هذه العبارة أو يسمعها من الرسول صلوات الله عليه وسلم في علي عليه السلام يجد أن هذا تقييم موضوعي لم ينبع من عاطفة أبداً؛ لأن النبي صلوات الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى^(٣) أبداً. فكيف يمكن أن يفسر هذا المعنى إلا بما نعطيه لعلي عليه السلام وهو عين ما أعطته إياه السماء على لسان أمينها في الأرض نبينا الأكرم محمد صلوات الله عليه وسلم^(٤)؟ وهذا الحديث ترويه كتب المسلمين

(١) نور البراهين ١: ٣٦.

(٢) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٥٧، عوالى اللآلى ٤: ٨٦/١٠٢، ينابيع المودة ١: ٤١٢/٥.

(٣) قال تعالى: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» (النجم: ٤ - ٣).

(٤) قال رسولنا الأكرم صلوات الله عليه وسلم مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام: «من مات يحبك بعد موتك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن مات يبغضك مات ميتة جاهلية وحوسب بما عمل في الإسلام». مسند أبي يعلى ١: ٤٠٣، ٥٢٨، كنز المطالب ١١: ٦١١، ١٣، ٣٢٩٥٥، ١٥٩، ٣٦٤٩١/١٥٩.

عامة.

حدث برب الإيمان كله

وكذلك ألم يسمع هذا القائل قول رسولنا الأكرم عليه السلام فيه: «برب الإيمان كله إلى الشرك كله»^(١) حينما برب لقتال مرتضى؟ فالشرع الأعظم ورسول السماء عليه السلام حينما يجعله هو الإسلام والإيمان، فما يكون عليه موقفنا من علي عليه السلام بعد كل هذا؟ والرسول الأكرم عليه لم ينطق من نفسه ولا من هوا وعاطفته بل إنه يترجم قول السماء؟ فهل بعد هذا يقال: إن أعيناً أعين ملوّنة أم إنها أعين طبيعية؟

القرآن يمدح علينا في أكثر من سبعين مواطناً وكذلك ألم يسمع هذا المفترض أو يقرأ ما ورد فيه في كتابنا الكريم حيث إنه ذكره في سبعين آية على أقل الروايات، والأقل منها ثلاثة آية^(٢). وهذه الآيات تحيط بجوانب أمير المؤمنين عليه السلام حياة كاملة

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ١٩، ٢٦١: ٦١، ٢٨٥، ٢٦١: ١٩، ٢٨٤، ٢٨١: ١.

(٢) قال ابن عباس عليهما السلام: «نزل في علي ثلاثة آية». الصواعق المحرقة: ١٢٥، كفاية الطالب:

٢٣١، تاريخ الخلفاء (السيوطى): ١٧٢، نور الأ بصار: ٧٣، إسعاف الراغبين: ١٦٠.
وقال عليهما السلام: «ما في القرآن آية إلا وعلى رأسها وقادتها وشريفها وأميرها. ولقد عاتب الله أصحاب محمد عليهما السلام، وما ذكر علياً إلا بخير». تفسير ابن أبي حاتم الرازي ٣: ٩٠١ - ٩٠٢ / ٥٠٢٥، تفسير القرآن العظيم ٢: ٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٢، الصواعق المحرقة: ١٢٥، كفاية الطالب: ١٤٠، شواهد التنزيل ١: ٤٩، ذخائر العقبى: ٨٩، نظم درر السطرين: ٨٩، نور الأ بصار: ٧٣، تاريخ الخلفاء (السيوطى): ١٧١، الرياض النبرة ٢: ٢٧٤.

وقال عليهما السلام: «ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي». الصواعق المحرقة: ١٢٥.

تاریخ الخلفاء (السيوطى): ١: ١٧١، شواهد التنزيل ١: ٣٩، نور الأ بصار: ٣٧.

وقال عليهما السلام: «ما أنزل الله: (لَيَا أَنْزَلَ اللَّهُ مَا أَنْزَلَ) إلا وعلى أميرها وشريفها». الصواعق

بعضها بشكل مباشر وبعضها بشكل غير مباشر. وكيف لنا أن نقف بعيدين عن هذا، ونكتفي ب موقف المترجح الذي لا يطعن القرآن بعد أن نعرف أن القرآن قد أعطاه كل هذه المساحة الواسعة؟ وهل يعد هذا النظر إليه نظراً بمنظار ملون وخاصةً؟ وهل من موقف له لم يمجده الإسلام؟ وأي موقف لا يمكن أن يمجده؟ أباداته، أم شجاعته، أم تواضعه، أم كرمه، أم علمه، أم غير هذا من الأخلاق الحميدة والصفات الحسنة التي ارتضتها له السماء؟

إذن فالقرآن الكريم يذكر الحقائق كما هي، ولستنا نحن من ننظر إليه بعين ملوّنة ولا غيرنا من ينظر إليه بعين طبيعية، بل العكس هو الصحيح، فنحن ننظر إليه بالعين التي رأته فيها السماء متمثلة برسولها الكريم ﷺ، وغيرنا ينظر إليه بعين محولة كلها بغض وحدق وشنان له لما وهبه الله تعالى من مزايا وصفات وكرامات أعياناً أهل عصره فيها.

إننا لا نريد أن نعطي أمير المؤمنين عليه السلام حجماً أكبر من حجمه، ولا أن ننظر إليه على أنه فوق ما هو عليه. والدليل على هذا أننا نكفر الغلاة فيه وفي أبناءه المعصومين ^(١). وهو عليه السلام قد أعطانا دستوراً بهذا، فقد مرّ عليه السلام في

المحرق: ٢٥، ١١٨، شواهد التنزيل: ١: ٤٩، ذخائر العقبى: ٨٩، كفاية الطالب: ١٤٠، نظم درر السمعتين: ٨٩، نور الأ بصار: ٧٣، تاريخ الخلفاء (السيوطى): ١٧١، الرياض النبرة . ٢: ٢٧٤.

(١) فنحن لا نزوج المغالى، ولا نسله ولا ندفعه إذا مات، ولا نورثه، ونحكم بنجاسته، وبعد جواز أكل ما يذكيه، بل نخرجه من حضرة الإسلام. انظر: شرائع الإسلام: ١: ١١ - ١٢، المعتبر شرح المختصر: ١: ١٩٨، منتهى المطلب: ١: ١٥٢، قواعد الأحكام: ٢: ٢١٨، تحرير الأحكام: ٢: ١٧١ (حجرى)، إيضاح الفوائد: ١: ٤، ٢٦: ٤، ١٢٧، البيان: ٢٤، ٢٨، ذخيرة المعاد: ٢: ٣٢٧ (حجرى).

شهر رمضان، فرأى جماعة جالسين يأكلون، فقال لهم: «أنتم على سفر فستعملون هذه الرخصة؟». قالوا: لا. قال لهم: «مرضى؟». قالوا: لا. قال: «لماذا تأكلون في شهر رمضان؟». فقالوا له: أنت.. أنت. فقال: «من أنا؟». قالوا: أنت الله (والعياذ بالله). فنزل الإمام من على راحلته، ومرغ خده على التراب، وقال لهم: «أنا عبد من عبيد الله، والله إن لم ترتدعوا لأضر من عليكم ناراً». ثم أنسد:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أخذت ناري ودعوت قنبراً^(١)

فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الدرجة من الغلو عمدوا إلى حرقهم، فقد فهو عليه السلام وضع لنا هذا الدستور بشكل عملي، وأمرنا بفعله اقتداءً بسنته الفعلية والقولية الشريفة.

ونحن كما نرفض الغلاة نرفض العيون التي يكون ملؤها الحقد، والتي تحاول أن تضع حجاباً بينها وبين الواقع، فكل ما نريده هو أن يأخذ هذا الرجل حقه في الحياة التاريخ ويتربيع على كامل مساحته التي أعطاه إياها الرسول عليه السلام مترجمًا لأوامر السماء^(٢). ولماذا لا يعطي حجمه الحقيقي

(١) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٨٨ / ١٢٨، المبسوط (الشيخ الطوسي) ٧: ٢٨١، نيل الأوطار ٨: ٦، وفيه: قال الحافظ: إن إسناده صحيح. فتح الباري ٦: ١٠٦، ١٢، ٢٣٨: ١٢، ١٩٦، التمهيد ٥: ٣١٨، تأویل مختلف الحديث ٧٠، دستور عالم الحكم (ابن سلامة) ١٩٦، ميزان الاعتدال ١: ٦٢٦، الأنساب ٥: ٤٩٩، شرح نهج البلاغة ٨: ١١٩، كنز العمال ١١: ٣٠٢، ٣١٥٧٨ / ٢٠٣.

(٢) قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلْغُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَقَاتِلْنَاهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (آل عمران) ٦٧. انظر حول هذه الآية، وإلى كونها في بيعة خم: عameda القاري ١٨: ٢٠٦، تفسير العلبي ٤: ٩٢، شواهد التنزيل ١: ٢٣٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٣٢، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الخوارزمي) ٧، مطالب المسؤول

هذا؟ إن التاريخ الذي كتب بأيدٍ ملطخة بالحقد على أهل البيت عليهم السلام وبدمائهم أو مشتركة في إراقتها يتناسى ويتغاضى عن الكثير مما له الصلة، وكأنه يستكثر ويستنكر عليه أن يكون له الصلة ذلك أو أن يذكره له؛ فمثلاً قتلى أحد كأن عددهم ثمانية وعشرين قتيلاً ثمانية عشر منهم كانوا بسيف علي بن أبي طالب، فلماذا لا يذكر له هذا؟ وهل هي إلا الأحقاد الكامنة والضغائن الدفينة؟

المقدمة الرابعة: أنه عذر لمن لفته بعذتها

^{١٦٣} في مناقب آل الرسول: ٩٤، ٩٥، ينابيع المودة: ٢، ٢٤٩، ٢٨٤، الملل والنحل: ١.

(١) ولهذا فإننا لا يمكن أن ننسى عبد الله بن رواحة، وعثمان بن مظعون، وحنظلة غسيل الملائكة، وعاصماً حمي الدبر، وغيرهم من الأبطال الأفذاذ والمجاهدين في سبيل الله والإسلام.

كان هذا الرجل قد اتصف بسمات تميّزه عن غيره فيجب ألا يشير هذا الأمر في نفوس البعض البعض، ويُقدح في صدورهم كواطن الحقد والشناآن، يقول أحد الأدباء:

لورأى مثله النبي لآخره وإنما فاختطا الانتقاد^(١)

المقدمة الخامسة: أن تاريخ علي عليهما السلام كتب بأيدٍ غير محابية إن هذه المساحة الزمنية الواسعة التي تفصلنا عن أمير المؤمنين عليهما السلام تحتاج إلى ألف عين موضوعية فاحصنة لكتابته بشكل علمي ومنهجي صحيح. الواقع أنه يصعب القول بأن هذا التاريخ يمكن أخذه عن طريق محابيد، أو أنه كتب بأقلام تقف على الحياد. وببالغ الأسف نقول: هذا هو الذي حدث. إننا يمكن أن نقسم فترات كتابة التاريخ آنذاك إلى قسمين يعود كل قسم منهما إلى عصر، كالتالي:

١- العهد الأموي

فالأمويون حينما جاؤوا حاولوا صياغة التاريخ وإعادة كتابته بشكل يتلاءم تماماً مع مآربهم وأهدافهم الجاهلية، سيما ما حصل في زمن معاوية الذي سخر بيت المال، ووظف كل الإمكانيات للقضاء على كل ذكر يخص علي بن أبي طالب. ثم جاء من بعده عبد الملك بن مروان وأبناؤه، وواصلوا المسيرة نفسها^(٢). وخلال هذا اتخذت هذه الحرب

(١) البيت للسيد محمد الهندي. الأنوار العلوية: ٣٤٠. وقد قال له رسولنا الأكرم عليهما السلام في حديث المؤاخاة: «إنما ادْخُرْتَك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة». الطبقات الكبرى ٢: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٨، كنز العمال ١١: ٥٩٨ / ٣٦٤٤٠، ٦١٠، ٣٢٩٣٩ / ٦٠٨، ٣٢٨٧٩.

(٢) ومن ذلك محاولة الوليد تعيمية الأمر على من سأله عن الإمام السجاد عليهما السلام في قصة تناول

صفة دموية؛ حيث انتهى الأمر بمجازرة دموية تناولت البيت الهاشمي كلّه.

٢ - العهد العباسى

ثم جاء دور العباسيين الذين تسنموا سدة الحكم باسم البيت العلوي، لكن عهدهم كان أشد وأنكى على الهاشميين، حيث حاربواهم بكل ما استطاعوا وما أوتوا من قوة وقدرات وطاقات. ثم أعقبهم ذيولهم وصنانعهم من السلاجقة والأتراب الذين انقلبوا عليهم، وهؤلاء فعلوا كفعلهم في أهل البيت عليهم السلام. وكذلك فعل التتر ما فعل غيرهم.

بل إن الأمر تجاوزه وامتد إلى الآن، حيث لا زلتنا نجد من يكتب بحقد وعداء لعلي بن أبي طالب رض. وهذا كله يحتاج لإعادة نظر؛ لأنّه لا بد من تصحيح الوضع الخطأ، كما يجب ألا تضيع هذه الشروة التي غطّاها التاريخ بالضباب. فعلينا أن ندرسها عليهم السلام كما هو؛ كي تأخذ دنيا الإسلام حقّها الواجب لها من عطائه الثر الضخم؛ لأنّه عطاء للمسلمين كافة.

للحجر الأسعد بعد أن عجز عن تناوله، لو لا أن الفرزدق فضحه، فقال:

واليبيت يعرّف البطحاء وطائمة	هذا الذي تعرف البطحاء وطائمة
هذا ابنُ خيرٍ عباد الله كلّهم	هذا ابنُ خيرٍ عباد الله كلّهم
الغربُ تعرفُ من أنكرتَ والجمُ	وليس قولكَ مَنْ هذا بضارٍه
من كفَّ أروعَ في عِزْنِيهِ شَمَّ	في كفهِ خَيْرُ زَانَ رِيحُهُ عَيْقَ
فلا يَكُلُّ إِلَّا حَسِنَ يَبْتَسِمُ	يُعْضِي حَيَاةً وَيَعْصِي مَنْ مَهَا يَهُ
رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ	يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانُ رَاحِيَهُ

إلى آخر ميمنته الرائعة. مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٠٦.

ومن ذلك أن أحد كتاب الوالي الأموي خالد بن عبد الله القرشي على الكوفة سأله عن مصير الروايات التي فيها مدح لأمير المؤمنين عليه السلام؛ فهل يذكرها، أم لا؟ فقال له خالد: لا تذكرها إلا أن تجده في قبر جهنم.

وبعد هذه المقدمات نرجع إلى سيرة هذا الرجل العظيم لنتناولها ناحية ناحية، كل ناحية بمبحث إن شاء الله تعالى:

المبحث الثاني: في أنه عليه السلام أكبر من الوعاء الذي احتواه
لقد اختار الله تعالى لهذا الرجل العظيم أوعية احتوته، وعادة ما تكون الأوعية (الظروف) أكبر من المظروف، غير أن هذا الأمر على العكس مع علي بن أبي طالب عليه السلام فهو دوماً وأبداً أكبر من الظرف الذي احتواه إلا صدر رسول الله عليه السلام. والأوعية التي اختارها الله تعالى لهذا الرجل على نوعين: مادية ومعنوية، وهي أوعية تتناسب مع أمير المؤمنين عليه السلام من حيث طهارته وألقه.

وهنا نقطة ابتنلي بها علي بن أبي طالب عليه السلام كما ابتنلي بها الرسول الأكرم عليه السلام حيث يروي غيرنا من أبناء المذاهب الإسلامية أن أبوى الرسول الأكرم عليه السلام ماتا مشركين. فهم يررون عن ابن عباس أن النبي عليه السلام نزل على قبر أمه فناجي ربه طويلاً ثم بكى، حتى اشتد بكاؤه، وبكى المسلمون لبكائه وقالوا: ما بكىنبي الله عليه السلام بهذا المكان إلا وقد حدث في أمته شيء لا نطيقه. فقال عليه السلام لهم: «ما يبكيكم؟». قالوا: يانبي الله، بكينا لبكائك. فقال: «نزلت على قبر فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعته يوم القيمة، فأبى الله أن يأذن لي، فرحمتها وهي أمي فبكيت. واستأذنت ربتي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي. ثم جاءني جبريل عليه السلام فقال: تبرأ من أنتك كما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه».^(١).

(١) مسند أحمد ٢: ٤٤١، صحيح مسلم ٣: ٦٥، سنن ابن ماجة ١: ٥٠١، المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٤، ٣٧٥: ٢، صحيح مسلم بشرح النووي ٧: ٤٥، مجمع الزوائد ١: ١١٧.

ويعلق بعض علمائهم على هذا بالقول: هذا أمر عظيم. وفعلاً لهو أمر عظيم أن نتصور أن أبوى الرسول ﷺ مشركان نجسان، وأن الرسول الأكرم ﷺ قد وصل إلى الدنيا بوعاء نجس؛ ذلك أن المشركين نجس^(١). وهذا ظلم للرسول ﷺ وافتراء عليه.

الوعاء الأول: صلب النبي إبراهيم ﷺ

الواقع أن رسول الله ﷺ طاهر من طاهر^(٢)، وهؤلاء الأطهار بعضهم من بعض، وهو ﷺ الذي يقول لأمير المؤمنين ع: «أنت مني وأنا منك»^(٣). ويروي ابن سيرين أنه ع قال له: «أنت ختنى وأبو ولدى»^(٤). أي أنك ياعلى من سنجي ومن طينتي نفسها. فعلى ع في خط الإمامة، وهو امتداد لخط النبوة.

ثم إنه ينبغي التنبيه إلى أن بيت عبد المطلب ع لم يعرف الشرك أبداً، وهو ابن النبي الله إبراهيم الخليل ع، فعلى ع ابن إبراهيم الخليل ع ومن وعاء النبي إبراهيم الخليل ع.

الوعاء الثاني: الكعبة المشرفة

وبعد أن اختار الله تعالى لأمير المؤمنين ع الوعاء الذي ولد منه، جاء

(١) قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ تَجْسَنُ فَلَا يَتَبَرَّوْا التَّسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِيمَهُ هَذَا» التوبة: ٢٨.

(٢) فنحن نخاطبهم بما وصفوا به أنفسهم في زيارتهم فنقول: «أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تتجلّكم الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسكم من مدحّمات ثيابها» مصباح المتهدّج: ٧٢١/٨٠٧.

(٣) مسند أحمد ١: ١٠٨، ٤: ١٦٤ - ٣٥٦: ٥، المسند على الصحيحين ٢: ١٣٣ - ٢٩٦.

(٤) مسند أحمد ٥: ٢٠٤، السنن الكبرى (النساني) ٥: ١٤٩، خصانص أمير المؤمنين ع (النساني): ١٢٢، كنز العمال ١١: ٦٩٣ - ٣٣١٠٩، ٢٥٥: ١٢، ٣٦٧٥٥ / ٢٥٥.

دور اختيار الوعاء الذي يولد فيه، فكان أمر الله تعالى أن اختار له الكعبة المشرفة موضع ولادة، وهو مالم يكن لأحد قبله ولا لأحد بعده مطلقاً. واختيار الكعبة المقدسة وعاءً لولادته عليه السلام له دلالات إيجابية عدّة؛ لأن الكعبة وعاءً مشرف في نظر المسلمين عامة، فهي أشرف البيوت عند الله وأكرمها عليه، لكن لا بد من بيان أن الظرف هنا لم يكن أشرف من المظروف البة كما ذكرنا في صدر هذا المبحث. والدليل على هذا أن الخليفة عمر بن الخطاب حينما مرّ على الحجر الأسود نظر إليه ثم خاطبه بقوله: «أما والله ، لو لا أني رأيت رسول الله عليه السلام يقبلك ما قبلتك». ثم قبله^(١).

فالله تعبدنا بإكرام الحجر والبيت لكن لا على أساس أنها أشرف من رسول الله عليه السلام أو من علي أمير المؤمنين عليه السلام^(٢) ، فالنبي عليه السلام أشرف الموجودات الممكنة، والإمام علي عليه السلام جزء من رسول الله عليه السلام بنص القرآن الكريم : ﴿تَعَالَوْا تَنْعُجُ أَبْنَاءُنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَبِنْسَاءُنَا وَبِنْسَاءَكُمْ وَأَنْفَسَنَا وَأَنْفَسَكُمْ ثُمَّ تَبَثِّلُ فَتَنْجَعُ لِغَنَّةِ اللَّهِ عَلَى الْخَانِدِينَ﴾^(٣)؛ ولذا فإنه عليه السلام يأخذ حكم رسول

(١) مسند أحمد ١: ١٦-١٧-٢٦، صحيح البخاري ٢: ١٥٩-٥٤، صحيح مسلم ٤: ٢٦، سنن ابن ماجة ٢: ٦٧-٦٦، صحيح مسلم ٤: ١٦٢-٢٠، سنه ٩٨١-٩٨٢.

(٢) بل ورد أن المؤمن عامة له حرمة عند الله أعظم من حرمة بيت الله العرام أو مثلها، قال رسولنا الأكرم عليه السلام في إحدى حجاته: «إن الله عز وجل حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه». الخصال: ٤٨٧، عوالى الالالى ١: ١٦١/١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠، صحيح ابن خزيمة ٢٩٩: ٤، المتنقى من السنن المستندة (ابن الجارود النسابوري)، وقال الصادق عليه السلام: «إن حرمة المؤمن أعظم من حرمة هذه البنية... إن المؤمن لو قال لهذه الجبال: أقبلني أقبلت». الاختصاص: ٢٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

(٣) آل عمران: ٦١.

الله ﷺ هنا.

إذن اختيار الكعبة وعاء له ﷺ يعد من المناقب الشريفة والفضائل العظيمة، لكنه ﷺ يبقى أشرف من الكعبة كما رسول الله ﷺ أشرف منها.

الوعاء الثالث: صدر نبينا الأكرم ﷺ

وهذا الوعاء من الأواعية المعنوية، وقد جاءت هذه الحالة نتيجة تخطيط السماء، فترعرع أمير المؤمنين ﷺ ونما في رعاية أشرف موجود وأعظم مخلوق. لقد كان ﷺ يوجره اللbin في فمه، ويهرّ له مهده، ويضجعه إلى جانبه، ويحمله على صدره ويطوف به شعاب مكة المكرمة إلى أن كبر. فلم يكن ﷺ يفارقه، وبعد أن كبر راح ﷺ يصحبه معه إلى غار حراء. قالت للنبي ﷺ إحدى نسائه: إن لي ليلة من تسع ليالٍ، ثم يأتي علي وتخلو به فيها وتتركني؟ فقال ﷺ لها: «إياك أن تغضبي، والله لا يغضبه أحد إلا ويكتبه الله على منخريه في نار جهنم».

وهكذا استلهم ﷺ من النبي الأكرم ﷺ فيوضاته وأدابه، يقول ﷺ: «وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيبة؛ وضعني في حجره وأنا ولد، يضموني إلى صدره، ويكتفي إلى فراشه، ويمسني جسده، ويشتمني عرقه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه»^(١).

فأي وعاء أشرف من هذا الوعاء؟ وهكذا فإن الله تعالى اختار لعلي بن أبي طالب رض البيوت الطاهرة والأمكنة الطاهرة. وكل وعاء مرّ به علي بن أبي طالب رض. فهو من اختيار الله تعالى له، حيث إنه تعالى أراد له ذلك.

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢، بتابع المودة: ١ - ٢٠٨ - ٢٠٩.

الوعاء الرابع: الوادي المقدس الذي دفن فيه
 ثم اختار له تعالى الوعاء الذي حلّ فيه جسده الطاهر، وهذا الوعاء والتربة التي حلّ فيها هو عبارة عن وادٍ مقدسٍ. وعند بعض المفسرين أن الوادي المذكور في قوله تعالى: ﴿فَاخْتُنْ نَغْلِنَكَ إِنْكَ بِالْوَادِيِ الْمُقَدَّسِ طَوْيٌ﴾^(١) هو التربة التي دفن فيها علي بن أبي طالب عليهما السلام. وقد أشار عبد الباقي العمري إلى هذا المعنى في قوله:

إذا نحن زرناها وجدنا نسيمها
 يسروح لنا كالغفتر المستنقضٍ
 (٢) نرى أنفسنا نمشي بواحدٍ مقدسٍ
 ونمشي حفاةً في ثراها تقدساً

المبحث الثالث: أنه عليهما السلام شهيد موقف
 لقد سقط عليهما السلام ليلة التاسعة عشرة من رمضان شهيد مبادئ عاش من أجلها واستشهد من أجلها، وكرس كل حياته لها. إن بإمكانه عليهما السلام أن يحتوي المقدمات التي أدت إلى قتله، وبواسعه أن يمنع حدوث هذا الأمر، لكنه إن فعل فعلى حساب المبادئ يفعل، وهو عليهما السلام ليس من هذا النمط الذي يبيع مبادئه. ولتوسيع ذلك نقول: أليس بإمكان الإمام علي عليهما السلام أن يقتل الأشعث بن قيس وعبد الرحمن بن ملجم وغيرهما وينحيهم عن الساحة، ويخلص الأمة من شرورهم؟ لكنه لم يشأ أن يفعل .. كان عليهما السلام يردّ: «وقد عاتبكم بذرتي التي أعادت بها أهلي فلم تبالوا، وضربتكم بسوطي الذي أقيم به حدود ربتي فلم ترعوا، أتريدون أن أضرركم بسيفي؟ أما إبني أعلم الذي تريدون ويقييم إودكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد

(١) طه: ١٢.

(٢) لم نعثر عليهما لعبد الباقي العمري، بل هنا للبهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.

نفسي^(١).

ومعنى هذا أنه عليه السلام لا يريد أن يفسد مبادئه من أجلهم. وحينما بايعه ابن ملجم ثم أذبر عنه، دعاه أمير المؤمنين عليه السلام فتوّت منه ألا يغدر ولا ينكث فعل، ثم أذبر عنه فدعاه عليه السلام ثانية فتوّت منه كذلك، فقال ابن ملجم: والله يا أمير المؤمنين، ما رأيتك فعلت هذا بأحد غيري. فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أُريد حباءه ويريد قتيٍ عذيرك من خليلك من مراد

امض يا بن ملجم، فوالله ما أرى أن تفني بما قلت»^(٢).

فكان عليه السلام يقول بعد ذلك: «ما ينتظركم أشقاها أن يخضب هذه من هذه؛ شوقاً إلى ربِّي عزَّ وجلَّ وتصديقاً. إني إلى لقاء ربِّي لمشتاق، ولحسن ثوابه لمتظر راجٍ، وإنِّي لعلى الصراط المستقيم في يقين من أمري وبيته من ربِّي»^(٣).

وكان عليه السلام يعرف أن هناك عناصر من الخوارج تترخص به، لكنه لم يرد أن يثلم مبدأً من مبادئ الإسلام، فيقتصر قبل الجنائية. وهو عليه السلام بهذا الميشأن أن يحاسب على النوايا أو يعاقب عليها، فصمد وصبر، فالذى انتهى به

(١) الكافي: ٨ / ٢٦١، أنساب الأشراف: ٤٥٨ - ٤٩٨ / ٤٥٩.

(٢) الإرشاد: ١، ١٢، أنساب الأشراف: ٥٠٢ / ٥٥١. والبيت لعمرو بن معدى كرب، وقد تمثل به عليه السلام. انظر أسد الثنية: ٤ / ١٣٣ - ١٣٤.

(٣) المسترشد في الإمامة: ٢٦٦ - ٢٦٧، مقاتل الطالبين: ١٨، الآحاد والمثاني (الضحاك): ١ / ١٤٨، المعجم الكبير: ١٠٥، تاريخ الإسلام: ٢ / ٦٤٧، سرح نهج البلاغة: ٦، كنز العمال: ١٣ / ١٨٧، ٣٦٥٥٧، وفي بعضها أنه عليه السلام أنشد: أشد..

حيازيمك للموت فإن الموت لا يقيك
ولا ترجع من الموت إذا حلَّ بسواديك

إلى القتل هو موقفه الذي وقفه من أجل الإسلام، فقاتل الناكثين والقاطسين والمارقين^(١). يقول العقاد مناقشاً مواقف علي بن أبي طالب عليهما السلام: لماذا نحن على معاوية ولم يقعه في الحكم؟ ولماذا ساوي في العطاء بين عامة الناس والرؤساء، مع أنه كان بوسعي أن يمايز في العطاء؟ ثم يعلق قائلاً: إن هؤلاء يريدون من علي عليه السلام أن يكون معاوية؛ وعلى لا يكون إلا علياً، ومعاوية لا يكون إلا معاوية.

وقد كلامه أكثر من شخص في مهادنة معاوية، وعدم الإلحاح في المساواة في العطاء، فقال عليهما السلام لهم: «أتريدونني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله، لا أفعل ذلك ما طلعت شمس، وما لاح في السماء نجم»^(٢). فهذا ليس نصراً وإنما هو ضياع وانهزام. وهكذا نجد أن الإمام علي عليهما السلام في مثل هذه الليلة كان صريحاً مبدأً وشهيداً موقف، وقد شعر بأن مجتمعه بدأ يضيق به، فكان عليه السلام يردد:

تلهم قريش تمعناني لتقتليني فلا وربك ما ضروا وما ظفروا

(١) قال عليهما السلام: «أمرني رسول الله عليه السلام أن أقاتل بعده الناكثين والقاطسين والمارقين». المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، مسند أبي يعلى ١: ٣٩٧ / ٥١٩، المعجم الكبير ٤: ١٧٢.

(٢) الأمالى (الطوسي): ١٩٤ / ٢٢١، ونسب العتاب فيه لجماعة من أصحابه عليهما السلام، وفي نهج البلاغة / الكلام: ١٢٦ ما نصه: «والله، ما أطور به ما سر سمير، وما ألم نجم في السماء نجماً. لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس وبهينه عند الله. ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم، وكان لنفيه ودهم. فإن زلت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشرّ خدين والألم خليل». وكاماً من محاولات المغيرة، انظر: بحار الأنوار ٤٢: ١٧٠، مروج الذهب ٢: ٣٩١، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٠١.

إِنْ يَقْتُلُنِي فَرَهْنَ ذَفْتَى لَهُمْ بَذَاتِ وَدْقَنِ لَا يَعْفُو لَهَا أَثْرٌ^(١)

وكان عليه السلام يرد هذه الأبيات ثم يضع يده الكريمة على شبيبته الشريفة، ثم يصعد المنبر ويقول: «اللهم إني قد ملتتهم وملوني، وسمتهم وسموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شر لهم مني. اللهم مث قلوبهم ميث الملح في الماء»^(٢).

لقد كان المجتمع المحيط به يتسلل إلى معاوية، وكلما حاول عليه السلام أن يروضه على قبول الصلاح استعصى على الترويض والإصلاح، حتى وصل به الأمر أن أصبح في حالة من التعفن والفساد يصعب بل يتعدّر معها العلاج إلا بالسيف، وقد أبى أن يورد سيفه هذا المورد.

ثم إن المتتبع للتاريخ لا بد أنه وجد أن الخوارج ليسوا وحدهم من قتل أمير المؤمنين عليه السلام، بل إن هناك عناصر كانت تعيش في قلب الكوفة، شركت في قتل علي عليه السلام وخططت له، وغاية ما في الأمر أن الخوارج كانوا الأداة المنفذة لهذه الجريمة البشعة. يقول أرباب التوارييخ: وعندما دخل هذا الشهر المبارك كان علي عليه السلام يوزع إفطاره بين بيت عبد الله بن جعفر وبيت ابنه الحسن عليه السلام وبيت ابنه الحسين عليه السلام، فكان كل ليلة يفطر عند أحدهم على شيء من الخبز والملح، وإن زاد فبشيء من اللبن. وهكذا كان ديدنه عليه السلام في هذا الشهر الكريم، ثم يقصد المسجد ليتنقل فيه.

وكان عليه السلام على هذا الحال حتى الليلة التاسعة عشرة، تقول أم كلثوم: دخل أبي الدار وقت الإفطار ليلة التاسعة عشرة من رمضان، رفعت لأبي

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٦٦ - روى، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٢٧٩ - روى، ٥: ١٦٨ - ودق.

(٢) الفتاوى ٢: ٦٢٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

أمير المؤمنين عليه طبقاً فيه إفطاره، وكان فيه إدامان، فالتفت إلى قائلًا: «بنية، ارفعي أحد الإدامين، أما علمت أن من طاب طعامه وشرابه طال وقوفه بين يدي الله؟».

تقول أم كلثوم: فلما أردت أن أرفع بعض النباتات التي كانت في الطبق قال: «لا، ارفعي اللبن». ثم أكل شيئاً من ذلك وقال: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»^(١).

تقول: ثم رميت السماء بطرفه ثم قال: «يامن قصده الضالون فأصابوه مرشدأ، وأمإ إليه الخائفون فرأوه موئلا، ولجا إيه العائدون فرأوه معقلأ»^(٢).

ثم دخل حجرته وراح يتفلّ بركعات، وكان يخرج بين آونة وأخرى ويطيل النظر إلى السماء، فقلت: أبه، أراك تطيل النظر إلى السماء؟ فقال: «هي هي والله الليلة التي ُؤعدت بها، والله ما كذبت ولا كذبت». ثم يعود إلى حجرته، إلى أن انبلج عمود拂جر، فقام^{عليه السلام} ونزل إلى الدار، وكان فيها أوز أهدية للإمام الحسن^{عليه السلام}، فرفرون في وجهه، فزدت عنه تلك الطيور، فقال: «دعينهن فإنهن صوائح ونوائح، وفي غداة الغد ينزل القدر المحتموم».

تقول أم كلثوم: فقلت له: «يا أبااته، أراك تتطيير هذه الليلة؟ فقال^{عليه السلام}: «لا يا بنיתי، إن أباك قتل الأبطال وخاض الأهوال، فما دخل الجوف له خوف، وما دخل في قلبي رعب، وليس منا من يتطيير، ولكن للموت علامات ودلائل يتبع بعضها بعضاً»^(٣).

(١) الدعوات: ١٢٧ - ١٢٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه (محمد بن سليمان) ٢/٨٢، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠، ٢٦، تاريخ مدينة دمشق: ٤٨، ٢٢٠، كنز العمال ٥٦٧/٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣: ٢٨٤، ٧٨٢/٧٨٤١.

(٣) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٧، باختلاف.

فاختنت بعيرتها، ثم فتح باب الدار فتعلق مثزره به فانحلَّ ، فأخذ يشدَّه ويقول : « اشدد ..

فَإِنْ مُوتَ لَا قِبَكَا	حَيَا زِيَافَكَ لِلْمُوتِ
إِذَا كَانَ يَوْاسِيَكَا	وَلَا تَغْتَرْ بِسَالَدَهْرِ
كَذَاكَ الْدَهْرُ يَبْكِيَكَا	كَمَا أَضْحَكَكَ الدَهْرُ



{١٤}

أهداف البيعة في الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَابُونَ إِنَّمَا يَتَابُونَ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُّكَفَّرُونَ
يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (١١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: معنى البيعة

البيعة هي العلاقة التي تربط الحاكم والمحكوم، أو بمعنى آخر هي العقد الاجتماعي. وقد أسمتها المشرع الإسلامي بيعة لأن فيها نوعاً من المعاوضة؛ ذلك أننا نعرف أن البيع هو عملية معاوضة بين البائع والمشتري، ففيما يعاوض كل منهما ما عند الثاني بما عنده؛ فالبائع يعاوض الثمن بالثمن، والمشتري يعاوض المثمن بالثمن. والبيعة لا تخرج عن هذا الإطار فهي عملية توفر على المعاوضة؛ فالإنسان المحكوم يعطي الطاعة لل الخليفة أو الحاكم أو الإمام، الذي في مقابلها يعطيه الحقوق الاجتماعية والسياسية الأخرى ويوفّرها له.

وهذا يعني أن هناك التزاماً ينشأ من خلال هذه البيعة بين الطرفين،

فيوفر الطرف الأول - وهو الحاكم - حقوق المحكومين وحمايتهم شريطة أن يتزموا له بالطاعة والولاء والمعونة متى طلبها منهم. وفي ضوء هذا كل إنسان له الحق في الحياة والحرية والاستقرار والأمان، وهذه الحقوق له الحق في أن يطالب الحاكم بتوفيرها له، لكنه حينما يفعل ذلك فإن الحاكم بالمقابل له الحق في أن يطالبه والمحكومين الآخرين بحق الطاعة. وحينئذ فإنها ترجع إلى أصل التبادل والتعاون.

وربما يعترض معترض هنا فيقول: ما حاجة النبي إلى الناس حتى يطلب منهم المبايعة إن كانت بهذا المعنى المعاوضي أو التبادلي؟ يقول أحد الكتاب الإسلاميين: إن البيعة مظهر من مظاهر الشورى. ثم يقول: ومن جملة الأدلة على الشورى مسألة البيعة؛ حيث إن المبايعين يختارون ويغبون عن رأيهم عن طريق ممارسة هذا النمط، وهو البيعة.

لكن لنا أن نسأل في هذا المقام فنقول: هل إن النبوة مما يمكن أن تتم بالاختيار؟ وعندما يبعث الله نبياً فهل إنه تعالى يجعل شرعية هذا النبي وطاعته نابعين من البيعة، أم إن الجميع مجبورون على طاعة الله وطاعة رسله وأنبيائه كما عليه التعاليم الحقة النابعة من أديان السماء؟ إن طاعة الله وطاعة النبي مفروضة؛ سواء كان هناك بيعة أو لم تكن، فالله جلّ وعلا خلقنا وهو يعرف حاجتنا إلى الصلاح، ويعرف نوافضنا، فسيرسل إلينا الأنبياء، ويبين لنا أن وظيفته مساعدة العقل الإنساني في توجيه الإنسان إلى الوجهة الصحيحة؛ لأن عقل الإنسان قاصر لوحده عن إدراك ذلك.

وبهذا الاعتبار فإننا نجد أن المتكلمين والفلسفه يقولون: إن العقل نبي داخلي، والنبي المرسل عقل خارجي؛ لأنه يوجه العقل الداخلي ويسدده.

وبهذا فإنه يمكن القول بأن دعوى أن العقل وحده قادر على أن يتحقق السعادة والرفاهية للمجتمع هي دعوى غير صحيحة وباطلة؛ فالقوانين المستمدّة من العقل وإن كان البعض يظن أنها ناجحة، كادّعائه ذلك في أوروبا مثلاً، أو في العالم المتحضر، أو في بعض الدول التي ليس فيها أديان سماوية لا يمكن لوحدها أن تتحقق سعادة الإنسان. ودليل هذا ما نلاحظه من الأمراض المنتشرة والحروب والتقتيل والتنكيل وما إلى ذلك مما يحدث في هذه الدول.

وعليه فلو أن العقل وحده كان قادراً على إيجاد مادة السعادة للإنسانية، فإننا سوف لن نجد مثل هذه الأمور المخلّة بالقوانين والمخلّة بالسعادة الإنسانية طاغية في تلك المجتمعات. وعليه فإن العقل ما لم يسانده أمر خارجي وهو النبوة، فإنه لا يمكن من إيجاد تلك السعادة. ففي تلك المجتمعات نجد هنالك الفقير فقراً مدقعاً والغني غنى فاحشاً، وهذا نتيجة قوانين العقل لوحدها.

ولا يظنن البعض أن ذلك غير موجود في الدول الإسلامية، فهو موجود لأنها لا تعتمد قوانين السماء في تشريعاتها إلا بشكل صوري. إذن فالعقل وحده غير قادر على توفير السعادة النفسية، وكل ما يشاع حول ذلك هو هراء وخيالات وأوهام؛ لأن الفرد لا يمكن أن يشعر بشيء من السعادة والراحة والأمن والاستقرار في ذلك المجال بعيداً عن قوانين السماء؛ وإن كانت هنالك تصورات حول تلك القوانين توحّي للأخرين بأنها تمثل الجنة التي وعد بها الإنسان. فالحقيقة أن السعادة هي ما رسمتها السماء، والله جلّ وعلا هو الذي خلق الخلق وهو أعرف بما يصلحهم ويصلح لهم، وما يفسدهم ولا يصلح لهم.

ولهذا السبب فإننا نقول بأنه تعالى هو الوحيد القادر على سن قوانين يمكن أن توفر للإنسان السعادة، في حين أن العقل الإنساني قاصر عن إيجاد ذلك؛ لأنه أساساً قاصر عن فهمه، بل إنه يتأثر بمؤثرات بسيطة جداً حيث إن الإنسان ما إن يفقد أعصابه لسبب أو لغيره حتى نجده يغيب عقله عن تصرفاته، ويتحول إلى كائن بهيمي، وبالتالي فإنه سوف لن يكون ذات قابلية على إيجاد القوانين الصحيحة التي تخدم البشرية^(١).

إذن فالله جل وعلا أرسل الأنبياء وفرض علينا طاعتهم بغض النظر عن كون هذه الطاعة جاءت بعد بيعة أو من غير بيعة؛ ذلك أن النبي ﷺ لا يحتاج إلى أن يبايعه أحد حتى تثبت نبوته لأن النبوات أمر فرضه الله جل وعلا وهذا ما يجب الطاعة فيه سواء كانت هنالك بيعة أو لم تكن.

المبحث الثاني: في شرعية الإمامة

إن المسلمين اختلفوا فيما بينهم حول الشرعية التي يستمدّ منها الإمام المعصوم أو الخليفة بعد النبي ﷺ سلطنتهما، فهم في هذا على قسمين:

الأول: أنها تستمدّ من الأمة

إن أصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن المشرعية التي تمنح الإمام سلطنته ورئاسته على الأمة هي مشروعية مستمدّة من الانتخاب أو من

(١) وهذا ما يسمى بأخذ العامل النفسي أو الذاتي في عملية التشريع، ذلك أن الإنسان حينما يتصدى بنفسه للتشريع وسن القوانين فإنه لا يمكن أن ينسها بعيداً عن رغباته النفسية وعن إرادته وعن مشتكياته وعما يرغب فيه؛ فمن غير الممكن أن يسنّ إنسان قد اعتاد القتل قانوناً يحاسب على جريمة القتل، ومن غير الممكن أن يسنّ إنسان قد اعتاد الربا قانوناً يجرّم الآخرين الذين يمارسون عملية الربا ويحرّم ذلك عليهم. وكذلك في غيرهما من القوانين الخاصة بالنساء والغاشية بالبيوع وما إلى ذلك.

الشوري. وهؤلاء هم المذاهب الإسلامية من غير الإمامية والزيدية.

الثاني: أنها مستمدّة من السماء

وهؤلاء هم الإمامية والزيدية، فهم يقولون بأن الإمام أو الخليفة الشرعي المنصب لرئاسة الدين والدنيا يجب أن يكون مستمدًا شرعياً من الرسول عليه السلام، أي بنصّ من الله جل وعلا، ومن رسوله عليه السلام بشخصه فيقول: فلان خليفة من بعدي، وأمام من بعدي.

ومن هنا فإنه يستمد شرعيته في قيادة هذه الأمة ورئاستها وحكمها من السماء ذات السلطة المطلقة، والصلاحية المتفrدة.

ويجب أن نلاحظ هنا أن الإمامة والنبوة أمران يشتراكان في طبيعة واحدة؛ ذلك أن الإمام لا ينصب إلا بعد ارتحال النبي؛ حتى لا تبقى الأرض خالية من حجة على الناس؛ ولذا فإن النبي عليه السلام ينصب عوضاً عنه أو نيابة عنه إماماً من بعده، أو خليفة له من الأشخاص الذين تتوفّر فيهم الصفات المناسبة لقيادة الأمة كافة.

وهناك من الناس من يذهب إلى أن القرآن الكريم يمكن أن يقوم مقام النبوة. وهذا خطأ واضح؛ لأنّه لو كان صحيحاً لانتفت الفائدة من وجود النبي عليه السلام ذلك أن القرآن كان موجوداً والنبي كان موجوداً معه، فلو كان فيه كفاية لكان وجود النبي عليه السلام عيناً، والله تعالى منزه عن العبث، والنبي عليه السلام وجوده ضرورة حتمية تفرضها العقول ويفرضها الواقع.

إن النبي عليه السلام يطبق القرآن ويبلغ تعاليمه، ويشرف على تطبيقه، ويتابع ممارسة الأمور الدينية والدنيوية. وكذلك الأمر بالنسبة للإمامية؛ لأنّها امتداد طبيعي للنبوة، وحينئذٍ فإننا سوف لنحتاج إلى مسألة الشوري.

المبحث الثالث: في المبايعة لله ولرسوله ﷺ

تقول الآية الكريمة: **(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)**، إن الله تعالى قد فرض على الناس طاعة النبي ﷺ سواءً بايده أو لم يبايعوه؛ ذلك أنه جل وعلا قد نصبه في هذا المنصب، وقد جعله في هذه الوظيفة الإلهية السماوية. وعليه فإن البيعة ليس لها تأثير من قريب أو من بعيد في مشروعية النبي ﷺ والنبوة، ولا في مصداقيتها.

والدليل على هذا أن النبي ﷺ نبي وإن لم يبايعه الناس كما حصل مع الكثير من الأنبياء **بَلْ الَّذِينَ حَدَّثَنَا عَنْهُمُ الْقُرْآنُ مَمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِمْ قَوْمُهُمْ أَوْ أَمَّنْ بِهِمْ مِنْهُمْ رَهْطٌ قَلِيلٌ جَدًّا.**

وببناء على هذا فما فائدة البيعة؟ إن البيعة ما هي إلا وسيلة من وسائل إظهار الطاعة، وليس وسيلة من وسائل تنصيب النبي ﷺ الذي نصبه السماء سلفاً؛ ولذا فإن النبي ﷺ استدعاي المسلمين في بدء الإسلام ليبايعوه ذكوراً وإناثاً؛ الذكور بالمصادفة المباشرة، والإإناث بصورة غير مباشرة، وذلك بأن وضع النبي ﷺ لهنَّ طستاً فيه ماء، ووضع يده الشريفة فيه، ثم تأتي المرأة وتضع يدها فيه وتبايع. وبهذه الصورة تمت البيعة للنبي ﷺ حرصاً على عدم الملامسة بين الرجل والمرأة.

وكانت بيعة النبي ﷺ في حقيقتها بيعة لله جل وعلا، كما نصت عليه آية المقام، وهذا يعني أن النبي ﷺ مجردنبي حامل لشريعة السماء، وأن المقصد في الأصل بالطاعة والبيعة هنا هو الله جل وعلا. ولتوسيع هذا الأمر نقول: إن النبي هل يستطيع أن يجتهد في بعض القضايا أم لا؟ فالقرآن مثلاً عالج قضايا اقتصادية وأخرى اجتماعية وغيرهما سياسية، لكنه لم يعالج جميع القضايا المطروحة بالساحة أو التي سوف تطرح

وتأتي ، ولم يتطرق إلى ذكرها أو ذكر علاجها ، ومنها قضايا عالقة تشغل بالـ الكثير من المفكرين والمحظيين . كما أن القرآن الكريم ليس فيه أحاديث مروية .

مناطق الفراغ في التشريع

وتأسياً على هذا لنا أن نسأل : هل إن للنبي عليه السلام الحق في أن يجتهد فيها أم لا ؟ إن بعض العلماء يقولون : إن للنبي عليه السلام أن يجتهد في أمور لا نص فيها . أما نحن فنقول : ليس هناك من شيء لا نص فيه ، بمعنى أن هذه الأمور التي لم يتطرق القرآن إلى ذكرها فإنها يمكن إدخالها تحت عمومات أخرى وقواعد أخرى لتندرج تحتها ؛ وبالتالي فإننا نوجد لها الحكم الشرعي المناسب . فهناك مناطق تسمى مناطق الفراغ وهي المناطق التي وردت فيها نصوص لكن النبي أو الإمام عليهم السلام لم يستعملها ولم يطبقها ؛ لعدم الحاجة إليها ، ومن ذلك أنه مثلاً في القرن العشرين قد استحدثت الكثير من الوسائل المعاملية على صعيد النظام الاقتصادي فهناك البنوك وهناك النظام المصرفي وهناك الحالات والسنادات والأسهم وما إلى ذلك ، وهذه كلها لم تكن موجودة في زمن النبي عليه السلام ، فهل يعني أننا نتوقف عن هذه المعاملة لأنها لم تكن موجودة في زمانه عليه السلام ؟

والجواب طبعاً لا ؛ لأن هذا النمط من التفكير يسلّم الحياة ويوقفها ، مقيداً إياها عن أن تتحرك ، أو أن تتطور في حال أنها متطرفة ومتغيرة ، فإن جمدنا على ما كان موجوداً أو معروفاً في زمن النبي عليه السلام فإننا حينئذ سوف نجعل من الحياة وحدة جامدة غير قابلة للحركة وغير قابلة للتطور مع أنها متطرفة .

كما أن الإسلام لا يريد أن يكون عقبة في طريق تقدمهم وتطورهم، بل إنه جاء ليدفع الناس نحو التقدم والتطور، واستيعاب ما يستجد في الحياة وما يحدث فيها من اكتشافات، وما إلى ذلك.

وعليه ففي مثل هذه الحالة ما الذي يمكن لنا أن نفعله؟ وكيف نستدل على أن هذه المعاملة مما يجب أن يترك أو مما يجوز أن يفعل أو يجب ألا يفعل؟ إن الدليل الذي تتبعه أو تتوسل به في الوصول إلى هذه النتيجة، وإلى كون هذه المعاملة مباحة أو غير مباحة هو أن ننظر إليها من زاوية أخرى، فنقول: هل إن في هذه المعاملة ربا أم لا؟ وهل فيها غرر - أي جهالة - أم لا؟ وحينئذ نحكم؛ فإن كان في المعاملة ربا فإننا سوف نحكم بحرمتها؛ ذلك أن الله جل وعلا يقول في محكم كتابه الكريم: «وَأَخْلُ اللَّهُ
بِالْبَيْنَةِ وَخَرُمُ الرَّبَّانِي»^(١)، فكل معاملة ربوية هي معاملة محمرة، وبالتالي فإن هذه المعاملة المصرفة أو البنكية سوف نحكم بحرمتها؛ لأن النص يشملها بلحاظ وجود الربا فيها، وإن لم يكن فيها ربا أو عائق شرعي آخر فإننا سوف نحكم بصحتها للدخولها تحت عموم الأدلة كما أنها نلاحظها من جانب آخر أيضاً، وهو وجود الغرر فيها، فإن كان فيها غرر فإن المعاملة باطلة؛ لأن عندنا أن من شروط صحة المعاملة: المعلومية، أي أن يكون المثمن معلوماً، ولو قال أحد لشخص آخر: بعثك الشيء الفلانى، وقال له الثاني: قبلت، ولم يكن يعلم بصفات ذلك الشيء وخصائصه فإن هذه المعاملة حينئذ تعتبر باطلة في حكم الشارع المقدس؛ لأن فيها غرراً أو جهالة كما ذكرنا؛ إذ لا بد من معلومية المبيع؛ من حيث صفاتة، ومن

حيث هيئته وكيفياته، وما إلى ذلك.

البراءة العقلية

وعليه فإن المعاملة مالم يكن فيها غرر أو ربا أو أي مانع آخر من المowanع الشرعية التي تحكم ببطلان المعاملة فإنها حينئذ تكون صحيحة وشرعية؛ ذلك أن الله جل وعلا يقول في محكم كتابه الكريم: «وَمَا كُنَّا
مُعذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبَغَّثُ رَسُولُهُ»^(١)، أي أن كل شيء لنا حلال ومحظوظ حتى يثبت أنه حرام بالدليل الشرعي. وهذا ما يسمى بالبراءة العقلية وهي أن العقل يحكم بقبح أن الله يعاقب الإنسان على شيء دون أن يبين له حرمة ذلك الشيء أو محظوريته، أي أنه لابد أن يبين الله جل وعلا محظورية هذا الشيء، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة العقوبة عليها، وما لم يكن هناك بيان فليس هناك من عقوبة؛ لأنه يصبح العقاب بلا بيان.

رجوع

إذن فإن الله جل وعلا يقول للنبي عليه السلام: إنك حامل رسالة السماء، وإن المسلمين حينما يبايعونك فإنما يبايعونك لأجل هذا؛ لا لأنك لحم ودم، وإنك إنما أصبحت عظيماً في نظرهم ونظر السماء لأنك رسول الله، ولأنك الوسيط بين الله وبين الناس والوسيلة لهم إلى الإمامية. والإمامية لها عين هذا المفهوم وتمامه؛ لأنها الامتداد الطبيعي والشرعى للنبوة، وحينئذ فإننا سوف لنحتاج لانتخاب أو بيعة أو ما إلى ذلك إلا إذا أراد الفرد المسلم أن يظهر الطاعة إلى الإمام أو النبي.

نظريّة العقد الاجتماعي ومستلزماتها

وهنا نقطة أود أن أذكرها حول البيعة وهي أن البيعة عبارة عن عقد اجتماعي، ويعبّر عنه جان جاك روسو المفكّر الفرنسي بقوله: كل حاكم بينه وبين المحكومين عقد اجتماعي، فحين يرضون به حاكماً يرضى بهم أناساً عندهم حقوق عليه أن يوفرها لهم، فإذا انفصّل العقد اختلت البيعة. وعلى ضوء هذا التقرير نقول: إن على الحاكم أن يؤدي جميع حقوق الناس المالية في الحرّيات والأمن، وتوفير وسائل العمل وما إلى ذلك، وأن يحافظ على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، وأن يضمن لهم حقوقهم المالية جميعاً بالتساوي. اعتراض جماعة على أمير المؤمنين عليه السلام في خصوص توزيعه الثروة بين المسلمين ومساواته بين السيد والعبد، فقال عليه السلام: «لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله تعالى»^(١). فهو عليه السلام يريد أن يبيّن لهم أن المسألة المالية تخص المسلمين جميعاً وليس لمجموعة دون أخرى، وعليه فلا بد من توزيعها بالعدل والسوية بينهم.

إذن فالبيعة هي عملية يتم بها التبادل والمعاوضة بين الطاعة وحقوق المجتمع، وقد ذهب الأئمة عليهم السلام ممن تسمّي دفّة الحكم إلى تطبيق هذا المعنى وإن حنث بعض رعيّتهم ببيعته، حيث إن أمير المؤمنين عليه السلام حينما جاء إلى الحكم وجاء الناس ليبايعوه كان فيهم طلحه بن أبي عبد الله الذي يقول عنه المؤرخون: إن أول يد بايعته هي يد طلحه، وكانت يد طلحه شلاء، أي مقطوعاً أحد أصابعها، فلما بايعه رأه قبيصة بن ذؤيب

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٢٦.

الأُسدي - وكان واقفاً - فقال: والله، لا تتم هذه البيعة؛ فإن أول يد باينته هي يد شلّاء^(١).

وهذا كلام لا أثر له بل هو مبني على التطير المنهي عنه في الإسلام، لكن حدث أن آتني أَنَّ الذي كان أول المبايعين له كان أول الناكثين بينته. ولهذا فإن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في واقعة الجمل أرسل ابن عباس إلى الزبير، فقال له: أرسلني ابن خالك، وهو يقول لك: «ما عدأ ماتا بدا؟ عرفتني بالمدينة وأنكرتني بالبصرة، ألم تباعني طائعاً غير مكره؟ فما الذي رابك مني فاستحللت به قتالي؟». فجعل الزبير ينقر بالمر渥حة في الأرض^(٢).

المبحث الرابع: تأويل ولا تجسيم

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»، وهنا نقطة أود أن ألفت النظر إليها، وهي أن البعض يتهمنا بأننا نأول القرآن ولا نأخذه على ظاهره، ونحن نقول: نعم هذا صحيح؛ لأننا مضطرون لأن نعمد إلى التأويل وأن نترك التفسير الذي يأخذنا إلى ما يخالف العقائد الحقة في بعض الحالات.

ضرورة تأويل آية المقام

ومن ذلك آية المقام، فحينما تقول الآية الكريمة: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»، فهذا يقتضي أن تأول هذه الآية الكريمة؛ لأن عدم التأويل يستلزم أموراً عديدة كلّها تبتعد عن روح الإسلام وأسسها ومفاهيمه، ومنها:

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٨.

(٢) حديث مصعب ١: ٣٦ - ٣٧، شرح نهج البلاغة ٩: ٣١٧، الشافعي ٤: ٣٢٤.

الأول: التجسيم

فالقول بأن له تعالى يدأً حقيقة مادية جارحة، يعني أنه تعالى جسم، وإذا كان كذلك فهذا يعني أن له رجلاً ولساناً وشفة وعيناً وما إلى ذلك. ومعلوم أن جميع هذه الأمور تعني أن الله جلَّ وعلا محدود، وأنه جسم من الأجسام، وبما أنه كذلك فلا بدَّ من أنه يحتاج إلى مكان يحلُّ به، ويحتاج إلى هواء يحيط به.

الثاني: المغایرة والتركيب والتلاشي

كما أن إثبات التجسيم له تعالى يعني أن له جهتين، والجزء الأيمن من كلِّ جسم هو غير الجزء الأيسر منه، وهذا يعني أنه تعالى قد أصبح مركباً، والمركب يضم حلَّ ويتلاشى. وحيثندَ لا يمكن أن يكون لها؛ لأن الإله لا تعتريه ما تعتري بني البشر أو الفانيات من عوارض وما إلى ذلك من صفات تلحقها.

ومن هنا فإننا مضطرون إلى أن نأول بعض الآيات؛ حتى نبتعد عن بعض التفسيرات السطحية التي تؤول إلى الكفر، وهذا يعني ارجاع المتشابه من الآيات إلى المحكم منها، والمحكم في خصوص المقام هو قوله تعالى: «لَا تُذْرِكُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَذْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»^(١)، وقوله تعالى: «لَئِنْ شِئْتُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(٢)، فإذا كان له تعالى يد ظاهرة أدركتها الأ بصار وهذا ينافي محكم الكتاب.

وكذلك الأمر حينما نأتي إلى قوله تعالى: «تَسْوِي اللَّهُ فَنْسِيَتْهُمْ»^(٣)، فإننا

(١) الأنعام: ١٠٣.
(٢) الشورى: ١١.

(٣) التوبه: ٦٧.

ملزمون بأن نأول؛ لأن الله جل وعلا لا يمكن أن ينسى؛ ذلك أن نسيانه تعالى يعني تدهور العالم وصيرونته إلى الخراب والدمار والتفكك. كما أنه ينافق أو ينافي ما هو معلوم من صفاته جل وعلا، وهي أنه تعالى لا يغفل ولا ينسى، وأنه عالم مطلقاً.

إذن لا بد لنا على ضوء هذه المعطيات أن نأول هذه الآيات لأن نفسرها على ظاهرها، وأن نقول: إنها من متشابه الكتاب الذي لا بد أن يرجع إلى محكمه، كما نص على ذلك القرآن الكريم^(١).

ويمكن أن نسند هذا القول بما يروى من أن السيد الحكيم لما ذهب إلى الحجَّ كان هناك شخص بصير من علماء أهل السنة، فجاء إلى زيارة السيد، وبعد أن استقبله ورحب به: قال له مهما كان من خلاف بيننا في الفروع فإن الخلاف يبقى علمياً وطبيعياً. فأجابه الرجل الضرير بقوله: لا ليس الكلام على هذه الشاكلة؛ ذلك أن عندنا أشياء رئيسة وفي الأصول نختلف فيها معكم. فقال له السيد: مثل ماذا؟ فقال له الرجل: أنتم مثلاً تؤولون القرآن. فقال له السيد: نحن مضطرون إلى ذلك وإذا لم نؤوله فإننا حينئذ سوف نقع في مشاكل نحن في غنى عنها ولا حصر لها. فقال له الشيخ الضرير: ليس هنالك من مشكلة، ولا داعي حينئذ إلى تأويل القرآن. فقال له السيد: ألم تقرأ القرآن؟ قال: نعم. فقال له السيد الحكيم: وهل قرأت قوله تعالى: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أُغْنِيَ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَغْنَىٰ وَأَضْلَلَ سَبِيلًا»^(٢)؟ فسكت الرجل محرجاً وقد أفحمه الآية والحجَّة.

(١) قال تعالى: «فَمِنْهُ آيَاتٌ مُّنْخَكِتَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَآخَرَ مُتَشَابِهَاتٌ فَإِنَّمَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَبِّيْنَ فَيَتَبَعُّونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاهُ الْفَتَنَةُ وَابْتِغَاهُ تَأْوِيلُهُ وَمَا يَتَلَمَّ ثَائِبَلَهُ إِلَّا أَنَّهُ وَالرَّازِيُّونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ أَنَّهَا بِهِ كُلُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَدْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ» آل عمران: ٧.

(٢) الإسراء: ٧٢.

ذلك أن الأعمى في هذه الآية قطعاً لم يقصد به فاقد البصر، وإنما هي مأولة بمعنى عمي القلوب^(١).

وعليه فإننا يجب ألا نحمل لفاظ القرآن على ظاهرها في كل حال وفي كل مقام؛ لأن منها ما يأخذ بأعناقنا ويلجئنا إلى أن نأوله حتى يتناسب مع العقائد الصحيحة ومع الآيات الأخرى المحكمة التي أمرنا برد المتشابه إليها. عليه فحينما تنص الآية الكريمة فتقول: (إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ أُنْبِيَّهُمْ) فإننا حينئذ نكون مضطرين إلى تأويلها بما يخالف ظاهرها، وهذا التأويل هو أن المقصود يد الله جل وعلا هنا قوته وسيطرته وسلطنته على كل الموجودات، بمعنى أن قوة الله تعالى فوق قوة الناس جميعاً لأن اليد (بمعنى القوة) الخالقة والبارئة والمعطية هي يد الله جل وعلا.

المبحث الخامس: شروط البيعة

يذكر الفقهاء والعلماء أن البيعة هي عبارة عن عقد من العقود كما ذكرنا، ووفق التشريع الإسلامي فإن العقد لا يصح ألا من بالغين، بمعنى أنه لا يجوز أن يعقد الصبي عقداً من العقود فيما لو كان عمره أقل من العمر الشرعي وهو عمر التكليف. المراد بالبلوغ هنا هو البلوغ العقلي وليس البلوغ البايولوجي (القدرة على الإنجاب)^(٢) أي أن الإنسان إذا بلغ سن التكليف وهو عاقل غير سفيه فإنه حينئذ يصح منه العقد؛ لأن تصرفاته حينئذ سوف تكون خاضعة لميزان العقل فلا ينخدع ولا يمكن أن يغش في المعاملة، كما أنه يمكن أن يضع الأشياء مواضعها، أما إذا بلغ وهو

(١) قال تعالى: (فَإِنَّهَا لَا تَعْنِي الْأَبْصَارَ وَلَكِنَّ تَعْنِي الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) الحج: ٤٦.

(٢) كما سبق أن نوه المعاشر إلى ذلك في أكثر من محااضرة.

سفيه أو مجنون فإنه حينئذ لا يعتبر بالغاً يصح منه العقد. وبهذا فإن المعاملة والمعاقدة لا تتم إلا إذا كان الشخصان المتعاقدان يتضمان بأنهما ذوي بلوغ عقلي أو نضوج عقلي. والدليل على هذا صحة البيعة التي وقعت من الحسين عليهما السلام لرسول الله عليهما السلام فهما كانوا صغيرين حينما توفي عليهما السلام؛ فقد كان عمر الإمام الحسن عليهما السلام سبع سنين، وكان عمر الإمام الحسين عليهما السلام ست سنين، وقد بايعا جدهما الأكرم عليهما السلام كما باياعه أصحابه. وهذه المسألة يذكرها أغلب المسلمين، ولو لا أن النضج البالغوي لا مدخلية له في الأمر لما قبلت بيعة الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام.

وبهذا فإننا نرى أن المقصود بالبلوغ هو البلوغ العقلي، وهذا يعني أنهما عليهما السلام لم يكونا بالصغارين من الجهة العقلية. وهكذا فإننا نصل إلى نتيجة هي أن الصغر وال الكبر عندهما عليهما السلام لا يضريرهما بشيء؛ فالنبي عليهما السلام عاملهما معاملة البالغ الراسد، وهذا طبعاً يدل على وجود ميزة لهم.

وكان الإمام الحسين عليهما السلام من ضمن الثلاثة الذين كتب يزيد بن معاوية إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة أن يحضرهم ليأخذ البيعة منهم، وهم: الإمام الحسين عليهما السلام، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير. وقد سبقه أبوه معاوية إلى ذلك حيث إنه جاء في أحدى السنوات حاجاً فاستقبله الناس باعتباره الحاكم، ولم يجد هؤلاء الثلاثة بين المستقبلين وجه إليهم من يحضرهم، وقد أمر خلال ذلك ثلاثة من رجاله ووضع في أيديهم السيف، وأمرهم أن يقف كل واحد منهم خلف واحد من هؤلاء الثلاثة، وأن يضربوا عنق كل من يعارض كلامه، أو يقاطعه، أو ينفي، أو يهز رأسه منهم نافياً ما يقوله معاوية. ثم صعد المنبر فخطب الناس وقال: قد

علمت سيرتي فيكم، وصلتني لأرحامكم، وحملني ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة، وقد بايع هؤلاء الثلاثة، فما ترون؟ فسكتوا فقال: ألا تجيبون؟ مرتين^(١).

غير أن اللعبة انكشفت بعد ذلك ولم تنطوي على الناس؛ حيث إنهم قد عرفوا أن عبد الله بن عمر لم يكن راضياً عن هذه البيعة ولا عبد الله بن الزبير ولا الإمام الحسين عليه السلام، وأنه لم تكن هنالك بيعة منهم إطلاقاً. وهنا بدأ الناس بالتحدث بهذا الموضوع.

هذا حال البيعة التي حاول الأمويون أخذها لأنفسهم، وإذا لم يكن في البيعة اختيار فما قيمة هذه البيعة؟ نحن ذكرنا في صدر المحاضرة أنَّ البيعة هي عبارة عن مبايعة ومعاقدة واتفاق بين الطرفين: الحكم والمحكوم، لكنَّ الأمويين أرادوا أن يجعلوها بيعة قسرية غير مستندة إلى رضا أحد الطرفين. فلما أن توفي معاوية أرسل يزيد - كما ذكرنا - كتاباً إلى واليه الوليد بن عتبة وأمره بإحضار هؤلاء الثلاثة وأخذ البيعة منهم، كما أمره بأن يضرب عنق كل من يرفض المبايعة وخاصة الإمام الحسين عليه السلام. وقال له: إن امتنع عليك فاضرب عنقه وابعث برأسه إلى.

فأحضر الكتاب إلى مروان بن الحكم وأخذ رأيه فأشار بإحضار الإمام الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن مطيع وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأخذ بيعتهم وقال له: فإن أجابوا، وإنما فاضرب عنقهم. فقال الوليد: ليتنى لم أك شيئاً مذكوراً، لقد أمرتني بأمر عظيم، وما كنت لأفعل.

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٥١٠

ثم بعث الوليد عبد الله بن عمرو بن عثمان خلف هؤلاء، وكانوا مجتمعين في المسجد، فلما حضر رسوله قال الحسين عليهما السلام للجماعة: «أظن أن طاغيهم هلك؛ رأيت البارحة أن منبر معاوية منكوس، وداره تشتعل بالنيران».

فدعاهم الرسول إلى الوليد فقال له الإمام الحسين عليهما السلام: «اسبقني وسائلحق بك». فلما ذهب الرسول جمع الإمام عليهما السلام أهل بيته وأحضرهم معه وأمرهم بأن يقبحوا على سيفهم وينتظروا؛ فإن خرج رجعوا معه، وإن سمعوا صوته قد علا على الوليد، فليدخلوا ليمنعوه منه عليهما السلام.

فلما دخل عليهما السلام عليه نعي إليه معاوية، وأخبره أن الخلافة تمت ليزيد، وأمره بالبيعة له، فقال الإمام الحسين عليهما السلام: «نحن أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ويزيد فاسق، شارب الخمر، وقاتل النفس، ومثلي لا يباع لمثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر ونتظرون أيها أحقر بالخلافة والبيعة».

وحق للإمام عليهما السلام أن يقول فيه مثل ذلك؛ فإنه حقاً شارب خمر، وفاسق، وقاتل للنفس المحترمة، وقد ترجم هذا المعنى الألوسي - مع أنه الأكثر تعصباً من أبناء جلدته - حيث يؤيد قول معاصره الشاعر إذ يقول:

يزيد على لعني عريض جنابه فاغدو به من لعنه لعن اللعنة

إن المؤمن غير لعان ولا سباب^(١)، فكل ذلك لا داعي له، لكن في بعض الحالات نجد أن الواقع يفرض نفسه في مثل هذه الأمور، وهي أمور تلجمى إلى أن يسب أحد الناس أو يلعن بما يفعل ويرتكب من معاixin.

(١) قال رسول الله عليهما السلام: «ليس المؤمن بطعآن ولا بلعآن ولا الفاحش البذيء». مسنـد أحمد .٤٠٥ : ١

ومن هذا ما يفعله يزيد وهو على منبر المسلمين.. يزيد الذي يروي الجميع عنه أنه كان يرقى منبر المسلمين ويقول:

أقوال لصاحب ضفت الكأس شعلتهم
داعي صبابات الهوى يسترثمة
خذوا بمنصب من نعيم ولدَه فكلُّ وإن طال المدى يتصرَّم^(١)

فهذا المنبر هو في حقيقته منبر رسول الله ﷺ؛ لأنَّه امتداد لذلك المنبر الذي شرفه عليه السلام بالجلوس عليه، وعليه فإنَّ من يصعد عليه يجب أن يكون إنساناً واعياً مؤمناً ملتزماً، وليس إنساناً منحلاً تحرَّكه الخمر يميناً وشمالاً. فمثل هذا في حقيقة أمره لا يعدو كونه مأساة حلَّت بال المسلمين ولذا فإنَ الإمام الحسين قال للوليد: «ومثلي لا يباع لمثله، ولكن نصيع وتصبحون، وننطر ونتظرون أينا أحَقُّ بالخلافة والبيعة».

وكان الوليد من عقلاة الأمويين، وكان بعيد الغور والفكير، وممَّا يذكر له أنه كان قد نهى عبيد الله بن زياد عن الاقتراب من الإمام الحسين عليه السلام والحادق الأذى به، وحدَّره بأنه سوف يوقع نفسه بذلك في مشاكل جمة لا حصر لها؛ لأنَ دم الحسين عليه السلام لا يبقى معه بناء، وسيهدم الحكم من أساسه ولكن هذا الأخير لم يطع أمره.

وهنا قال له الوليد: انصرف يا أبا عبد الله مصاحباً على اسم الله وعonne حتى تغدو علىي. وكان مروان قد أسرَ إلى الوليد أن اضرَب رقبته، ثم قال جهراً: لا تقبل عذرَه واضرب رقبته، فغضِّب الحسين عليه السلام وقال: «ويلي عليك يابن الزرقاء، أنت تأمر بضرب عنقي؟ كذبت ولوَّمت؛ من الذي يقتلني؛ أنت أم هو؟».

(١) جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢٠١: ٢.

ثم خرج الإمام علي عليه السلام، فلما ابتعد قال مروان بن الحكم للوليد: والله لئن فارقك اليوم لا قدرتم عليه حتى تكثروا القتلى، وسترى ما يصير أمره إليه. فقال: ويحك إنك أشرت إلى بذهباب ديني ودنياي، والله ما أحبت أن ملك الدنيا لي وأني قتلت حسيناً، والله ما أظن أن أحداً يلقى الله بدمه إلا هو خفيف الميزان.

وبقيت هذه المسألة في نفس مروان إلى أن رأى الإمام الحسين عليه السلام بعد يومين من هذا الحوار خارجاً من المدينة، فقصده وقال له: أبا عبد الله أطعني ترشد. فقال عليه السلام: «قل». قال: بايع أمير المؤمنين يزيد؛ فهو خير لك في الدارين. فقال الإمام الحسين عليه السلام: «وعلى الإسلام السلام؛ إذ قد بليت الأمة برابع مثل يزيد. ولقد سمعت جدي أبي طالب يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان»^(١).

وانصرف الإمام الحسين عليه السلام إلى مقصدته وانصرف مروان وهو حاتق، وقد كتم ذلك وحفظها، إلى أن جيء برأسه الشريف إليه وهو في المدينة، ذلك أن يزيد أمر بإرسال الرأس إلى المدينة إلى واليه عليها عمر بن سعيد الأشدق، وقال له: نفس عن روحك؛ فإن هذا ابن الذي قتلوك في واقعة بدر، فأدرك ثارك.

فأخذ الرأس ووقف أمام قبر النبي عليه السلام وقال: يا محمد ثار بثارات بدر. ولما سمع النوح والبكاء في بيتبني هاشم أنشد بيته المعروف:

عجبت نساء بني زيد عجّة كعجيج بسوتنا غداة الأربـب^(٢)

(١) انظر في كل ذلك: مثير الأحزان: ١٢ - ١٥، الأخبار الطوال: ٢٢٧ - ٢٢٨، تاريخ الطبرى ٤: ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) الإرشاد: ٢، شرح الأخبار: ١٥٩، تاريخ الطبرى: ٤، الكامل في التاريخ ٣٥٧.

حيث خرجت أم لقمان بنت عقيل وهي ضاربة يدها على رأسها ومعها
أخواتها وهي تقول:

ماذًا فعلتم وأنتم آخر الأمس
بعترتي أهل بيتي بعد مفترقي
^(١)
منهم أسازى ومنهم ضرّجوا بهم

فلما سمع بكاء العلويات ونوحهنَّ اطمأنَّ وبعث ذلك في نفسه شيئاً من
الراحة والفرح ومن التشفى . وهكذا نجد أن هؤلاء اللثام قد أبكوا النساء ،
وطبعوا بيوت الهاشميين بطابع اليأس والأسى واللوعة والنحيب ،
وجعلوا منها بيوتاً يغلب عليها الشجا والأنين ، وخاصةً بيت الحسين بن
علي عليه السلام التي كانت تدور فيه عقبة الطالبيين وهي تقول :

منازل كانت نيرات بأهلها تسولى عليها غبرة وقتابم
على الدار من بعد الحسين سلام الا لا تزان الدار إلا بأهلها

* * *

يُناعي اشبع تدري اشغدالي شفت وشقي وهضمة عيالي
على حسي أهل المعالي عجب نزلهم صوت عالي
اخذ معصبي وانخة بداعي بيت وبكى من الزلم خالي

* * *

تلك الديار العامرات بأهلها



٤٨٩

(١) الإرشاد : ٢، ١٢٤، تاريخ الطبرى : ٤، ٣٩٤، تهذيب الكمال : ٦، ٤٣٠، تهذيب التهذيب : ٢، ٣٠٥، الكامل في التاريخ : ٤، ٨٩، البداية والنهاية : ٦، ٢٦١، ٨، ٢٦١.

خلافة الرسول ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَقْتَ مِنْ قَبْلِهِ
الرَّسُولُ أَفَإِنَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىَّ
أَغْنَابِكُمْ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: موضوع الوصية في الإسلام

هذه الآية الكريمة توجه باللوم والعتاب للمهاجرين والأنصار في واقعة أحد، وفهمهم بأن النبي ﷺ إذا قُتل^(٢)، فليس لهم أن ينكروا عن رسالته؛ لأن الأمر يتعلق برسالة إلهية عامة وثابتة وليس بأمر شخصي يحيى زمناً ثم يفارق الدنيا إلى حيث الرفيق الأعلى. فالأشخاص سيموتون مهما طال بهم الدهر ومهما عمروا، أما الرسائلات فعلى العكس من ذلك، سيما إذا كانت رسالة حق أو رسالة سماء فهي ستعيش وتخلد أبداً الدهر. وعليه فإن عليهم أن يجعلوا ارتباطهم بالرسالة أولاً وأخراً؛ مات صاحبها أو

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) بعد أن نادى الشيطان: إن محمدًا قد مات. فهربوا.

عاش بين ظهارائهم؛ فالرسالة لا يمكن أن تموت. فالآية الكريمة نبهت إلى هذا المعنى.

ومن الثابت عندنا أن النبي ﷺ وهو يستعد للقاء الله تعالى كان قد خطط لكل شيء يتعلق بمصير الرسالة والدين، ولذا فإن ﷺ قد خرج من الدنيا وقد أكمل كل شيء يتعلق بالإسلام، ولم يترك وراءه ثغرة في هذا الباب. وهنا نقطتان ينبغي الإشارة إليها، هما:

النقطة الأولى: ترخيص أعداء الإسلام الداونر به

إننا نعرف أن في القرآن الكريم سورة كاملة في خصوص المنافقين، وهي السورة التي أنزلها الله جل وعلا وفضح فيها نوايا المنافقين وتوجهاتهم وأفعالهم وأماناتهم. هذا فضلاً عن الآيات القرآنية الكريمة المبثوثة في مطاوي سورة الشريفة، فهناك الكثير من الآيات المنتشرة في القرآن الكريم والموزعة على سوره والتي تعالج مفهوم المنافقين، وتفضح أفعالهم وتفضح نواياهم.

إذن فهناك الكثير من المنافقين، وهناك الكثير من مسلمة الفتح الذين الجاهم الخوف أو بريق الذهب أو الحصول على الغنائم إلى الدخول في الإسلام وهم ليسوا معتقدين فيه اعتقداً صحيحاً. فهو لاء كانوا يطلبون الدنيا عبر الاتمام إلى هذا الدين، وهم الذين عبر عنهم القرآن الكريم بقوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَزْنَ الْآخِرَةِ فَنِزَّلَهُ فِي حَزْنِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَزْنَ الدُّنْيَا نُؤْتَهُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»^(١).

ثم إن هناك جماعة أخرى هي جماعة المترخصين بالنبي ﷺ الداونر

من أمثال أبي سفيان وجماعته وهم الذين كانوا يتربصون بالنبي ﷺ متى يقضى أو متى يُفعل به شيء حتى ينقضوا على هذا الإسلام، وكان هؤلاء وأولئك الذين أسلموا طلباً للدنيا وللمنزلة ولبريق الذهب يمثلون طبقة كبيرة، وفعلاً كان لهم تأثير كبير بحيث إنهم بمجرد أن توقي النبي ﷺ وكان أمير المؤمنين عليهما السلام جالساً في بيت النبي وكان عليهما السلام منشغلًا بإعداد النبي ﷺ الذي تركه المسلمون مسجى دون أن ينشغلوا بتجهيزه وتوفيه ودفنه ولذا كان عليهما السلام منشغلًا بتجهيزه وتوفيه ودفنه؛ وإذا بصارخ بباب الدار بعد مؤتمر السقيفة مباشرةً وكان صاحب الصوت يصرخ: أيتولى هذا الأمر ضئيل تيم؟ أين الأذلان على والعباس؟

فخرج الإمام علي عليه السلام إليه وإذا به أبو سفيان، فقال له: «ما الذي تريده؟». فقال له: أيتولى هذا الأمر فلان وأنت جالس؟ أتريد أن أملأ لك المدينة خيلاً؟ أبا حسن ابسط يدك حتى أبأيعك. إني على استعداد كامل أن أملأ المدينة الآن بالخيل والرجال لينصرونك ضد من تولى الخلافة بعد النبي ﷺ فالتفت إليه الإمام علي عليه السلام وزجره قائلاً: «أبا سفيان، أجاهيلية بعد إسلام؟ إنك وافق ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت بالإسلام شرًّا. لا حاجة لنا في نصيحتك».

فكأن لسان حال الإمام علي عليه السلام: وهل أنا غائب عنك وعما تريده؟ إني أعرفك حق المعرفة فأنت أنت الذي تريدين أن تفعل ما تفعل بهذا الدين ولا أرى إلا إنك تريد أن تعيد إلينا هيل لننصبه على ظهر الكعبة، ثم قال له الإمام علي عليه السلام: أخرج فلا حاجة لنا بخيلك فخرج وهو يتمثل بشعر المتنمّس:

إن الهوان حمار الأهل يعرفه
والحرز ينعره والرسلة الأجد
ولا يقيم على ضيم يراد به
إلا الأذلان عزيز الحسي والوتوء

هذا على الخسف معكوس برقته (١) وذا يشخ فلا يبكي له أحد

فهذا وأمثاله يريدون أن ينتهزوا أول فرصة تسنح لهم حتى يعودوا بالناس إلى الجاهلية ويطمسوا معالم الإسلام وينصبوا هبل على قبر النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، ولذا فإن الإمام عليه السلام بحكمته ونظرته الثاقبة لم يكن ليغفل عن أفعاله أو لتخفي عليه نوايا مثله؛ ولذا فقد طرد من المدينة المنورة.

إذن فالمنافقون والمؤلفة قلوبهم وسلمة الفتح والمتربصون بالنبي الدوائر كلّ هؤلاء كانوا يمثلون خطراً داهماً ضدّ الإسلام، وممكّن أن ينقضوا عليه في أيّة لحظة من اللحظات، وكلّ هذه المجاميع التي يصح التعبير عنها بأنّها لم يدخل الإسلام قلوبها كانت متّوّبة للهجوم على الإسلام والقضاء عليه. فكلّ هذا الوجود الخطر على الإسلام المتمثل بهذه الشرائح التي تريد أن تقضي على الإسلام، ويخرج النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه من الدنيا دون أن يستخلف على هذا الدين وأهل هذا الدين وأتباع هذا الدين من يقوم بشؤونهم، ويضع حدّاً لمثل هؤلاء المنافقين؟ إنّ هذا لا يصح أن يفعله حتى الإنسان العادي فكيف بالإنسان الرسالي .. بحامل الرسالة وحامل نبوءة السماء؟ وإن القول بأن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه لم يعين اطلاقاً لهذا الأمر ولم يستخلف أحداً هو أشبه شيء بالقول بأن الإسلام لم يكن. إذن فهذا الفرض لا يمكن أن تقبله بأي حال من الأحوال أبداً، وبهذا فإن هذا الفرض يطرح من الحسابات؛ لأنّه غير صحيح.

النقطة الثانية: خلافة الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه

بما أنّ الإسلام عبارة عن منظومة من التعاليم والأحكام، فممّا لا شك

فيه أن النبي الأكرم عليه السلام قد أكمله، فالقرآن الكريم نزل على مدى ثلاث وعشرين سنة، وعلى المساحة التي تشمل كل سورة فإنه قد تضمن الأحكام الشرعية التي تتعلق بالأفراد والمجتمع كافة. ثم إن السنة النبوية المطهرة تكفلت بشرح الغامض من القرآن الكريم وتبيان مالم يبيّنه لنا في آياته الكريمة. وحيثند لم يبق إلا أمر بإعداد الأمة لمواصلة طريقها ومسيرتها على منهج الإسلام والقرآن بعد موته عليه السلام.

وبتعبير آخر: الوسيلة التي تجعل النبي عليه السلام يعيش من بعد موته والتحاقه بالرفيق الأعلى. وهذا أمر طبيعي جداً؛ إذ أنه لا يمكن بطبيعة الحال أن تخلو الأرض من خليفة يمثل الرسول الأكرم عليه السلام؛ لأن هذا معناه أن تموت هذه الرسالة بمجرد موت النبي عليه السلام. فلابد إذن من استمرار هذه الرسالة، وهذا معناه أنه لا بد من إيجاد الامتداد الطبيعي والإلهي لحمل هذه الرسالة المقدسة من بعد النبي عليه السلام.

إذن فلا بد من وجود زعامة تتولى الحفاظ على الإسلام ورعايته قوانينه وأحكامه، وكذلك تتولى مسؤولية القيام بشرح الأحكام وتنفيذها. فهناك افتراضات لابد من استقرائهما لمعرفة ما الذي تحقق منها وما الذي لم يتم تتحقق، وهذه الافتراضات يمكن حصرها بالتالي:

الفرض الأول: أن النبي عليه السلام مات ولم يوص

وهذا الفرض يذهب إليه طائفة كبيرة من المسلمين الآن، لكن لنرى إن كان هذا الفرض ممكناً أم لا. ونحن بطبيعة الحال نقولها جازمين وبشكل حازم وحاسم لا يقبل الرد: إنه فرض غير ممكن وغير وارد؛ لأننا نعرف أن النبي عليه السلام لم يكن يخرج من المدينة لأمر ما من أموره إلا واستخلف عليها

من يقوم مقامه وإن قصرت مدة غيابه عنها^(١). فما خرج في غزوة من غزواته ولا في سفرٍ من أسفاره إلا واستخلف عليها من ينوب عنه فيها ليدير شؤونها وشؤون الدولة وأهلها.

استخلاف أمير المؤمنين عليه السلام على المدينة

وفي غزوة تبوك خلف عليها أمير المؤمنين عليه السلام، وهي الغزوة الوحيدة التي تخلف فيها عليه السلام عن القتال مع الرسول صلوات الله عليه وسلم، وكان تخلفه عليه السلام عنها بأمر رسول الله صلوات الله عليه وسلم حيث استدعاه عليه السلام وبين له أنه لا ينبغي أن يغيب في هذه الغزوة بالذات إلا وهو مكانه، فلا بد من استخلافه فيها لأمر كان عليه السلام يرى عاقبته. ثم قال له: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لانبي بعدي؟»^(٢).

وممّا يستغرب له أشد الاستغراب أن هذا النص الصريح وهذا الفعل الصريح لا يعتبره المؤرخون المسلمون وغير المؤرخين منهم دليلاً على إماماة أمير المؤمنين عليه السلام، لكن لمجرد أن يمرض الرسول صلوات الله عليه وسلم فيعجز عن الصلاة بال المسلمين فيقدموا واحداً يصلّي بهم يعده هذا دليلاً كافياً في النص عليه، وقالوا: لقد رضيَ النبي صلوات الله عليه وسلم لدينا، فكيف لا نرضاه لدينا؟^(٣).

(١) لقد ذكرنا ذلك مفصلاً في ج ٢ ص ١٩٨ / الهاشم: ٢.

(٢) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٢ - ١٤، صحيح مسلم ٧، ١٢٠، الجامع الصحيح ٥: ٣٠٢، ٣٨٠٨ / ٣٠٤، ٣٨١٣ - ٣٨١٤، السنن الكبرى (الثانية): ٥: ٤٤، ٨١٣٨ - ٨١٤٢، فتح الباري ٧: ٦٠.

(٣) فهذا التصرف الوحيد يصلح أن يكون دليلاً على صحة خلافته وإمامته. أما تصرفات الرسول صلوات الله عليه وسلم الكثيرة التي ملأت بطون الكتب من مثل الحديث الماز، وحديث «هو نفسي» وكذا قوله صلوات الله عليه وسلم: «هو خليفتي من بعدي» فلا تصلح دليلاً على إمامية أمير

إننا لا نريد أن نبخس أحداً حقه أبداً سيما إذا كان من الصحابة، لكننا في الوقت نفسه نقول: إن النصوص إما أن تكون لها تلك المعطيات، أي أن أقوال الرسول إما أن تكون في كل حال نصاً يجب التعبد به والانقياد له أو لا، أما أن تكون تارةً كذلك وتارةً ليست كذلك حسب ما تملئه الرغبات والأهواء فهذا أمرٌ بعيدٌ عن الموضوعية بعده شاسعاً، وليس هو من المنهج العلمي في شيء.

على أية حال فنحن نتساءل هنا حول ما إذا كان الرسول عليه السلام قد خرج من الدنيا ولم يوص مع ما كان يفعله من استخلاف أحد صحابته على عاصمة الدولة الإسلامية عند غيابه عنها^(١). إن هذا ما لا يجوز تصوره في حق الرسول عليه السلام؛ لأنه عليه السلام أعلم بأحكام الله تعالى الذي أوجب الوصية في مرض شاء، فكيف لا يعرف الرسول عليه السلام وجوب الوصية في كيان دولة كامل ينطوي على جميع الجوانب الحيوية في الدولة من اقتصاد وإدارة وسياسة وعلاقات. ثم أليس القرآن الكريم يقول: ﴿كُنْ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَوْتَ إِنْ تَرَكْ خَيْرًا لِّوَصِيَّةٍ لِّلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَفْرُوضِ حَقًا عَلَى الْمُفْتَقِرِينَ﴾^(٢)? والخير هو المال، والمال هو كل ما يتمول به الإنسان، بمعنى أنه ما يصح أن يكون متمولًا ويقتني ، فالسلع وال الحاجات هي أموال حتى وإن كان شاء واحدة، فما زالت يتمول بها فهي مال.

أي أن الله جل وعلا يفرض على الإنسان ألا يخرج من الدنيا حتى

المؤمنين عليه السلام، إن هذا هو العجب العجاب.

(١) مع أن الخليفتين أبو بكر وعمر أنفسهما قد أوصيا: فأوصى أبو بكر لعمر، وأوصى عمر لواحد من ستة: وجعل كفنة عبد الرحمن هي الراحلة إذا تساوى الطرفان؛ لما في الأمر من ضرورة وأهمية ارتياها، فكيف بالرسول عليه السلام وهو أعلم الجميع وأحكمهم، بل لا وجه للتفاصل لأنعدام جهة الاشتراك؟ . (٢) البقرة: ١٨٠.

يوصي ولو بهذه الشاة. وإذا كان الإسلام يعطي للوصية هذه الأهمية الكبرى بخصوص الشاة أو ما هو أدنى منها ثمناً، فكيف هو الحال بأمةٍ بأكملها، وبمصير أمة، وبمستقبل أمة، وبوجود أمة، سيماً أننا إذا علمنا أن المسلمين بلغوا في عصر النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه عشرات الآلاف، ثم بعد جيل النبي بدأت تصبح مئات الآلاف، وبعد جيل الخلفاء أصبحت الأمة الإسلامية بالمالين. وهكذا أصبحت تنامى وتكثر فهل من المعقول أن يترك النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه هذه الأمة دون وصية وهو حامل رسالتها تأمر بالوصية ولو بشارة؟ إن هذا لا يمكن قبوله ولا يمكن تصوره أبداً.

وقد يقول قائل: إن المسلمين في ذلك الوقت كان يكفيهم القرآن، وكان يكفيهم الصحابة.

والجواب: صحيح أن يقال: إن القرآن فيه تبيان كل شيء^(١) وأنه «ما فرطنا في الكتاب من شيء»^(٢) لكن الواقع يقول بأن القرآن الكريم يحتاج إلى القائم عليه ليفسر ويبيّن معانيه ولبيّض الغرض المراد منه، فهو يحتاج إلى من يشرحه.

والدليل على هذا الكلام كما ذكرت قبل فترة وجيزة في إحدى محاضراتي هو أنه ليست هنالك آية في القرآن الكريم لا نجد فيها خلافاً بين المفسرين، فكل آية متنازع فيها وفي معانيها وفي مدلولاتها فمن غير الممكن واقعاً أن يكون هناك اجماع بين المفسرين على معنى معين ما لم يقف الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه أو القائم مقامه في هذا المجال وفي هذه الرسالة ليبيّنا للناس ويقولا لهم: هذا هو المعنى المراد من الآية الكريمة. بل إن هذا

(١) قال تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ» التحل: ٨٩.

(٢) الأنعام: ٣٨.

الأمر يتعدى المهمات ليصل حتى إلى الأمور الواضحة وذلك كما في قوله تعالى: «وَخَلَقَهُ وَفِي سَاعَةٍ ثَلَاثَةً شَهْرًا»^(١)، فالقرآن يقول: الحمل والفالصال سنتان ونصف لكن بعض المسلمين يقول بأنه سنتان، وبعضهم يقول بأنه أربع سنين، وبعضهم يقول بأنه عشر سنين، وبعضهم يقول بأنه عشرون سنة. وهذا اختلاف واضح في تحديد فترة الحمل والرضاعة. إذن فنحن في مقام العمل والتطبيق إلى أي رأي من الآراء يجب علينا أن نرجع؟ وهكذا هو الحال في مختلف الجوانب القرآنية، فما من جانب قرآني إلا وبين المسلمين فيه خلاف واختلاف في تفسيره وبيان المراد منه. وعليه فلا يمكن توحيد رأي المسلمين برأي واحد حول منظور واحد أو حول آية واحدة، ولا يمكن أن يتم هذا إلا إذا نصّ عليه النبي عليه السلام أو من أنابه النبي عنه فيقول: إن هذا المعنى هو المتعين وهو المراد من هذه الآية الكريمة.

الفرض الثاني: نظرية الوصاية للأمة

وينص هذا الفرض على أن النبي عليه السلام قد أوصى ولكن لا لشخص بعينه بل للأمة بكمالها.. أو أوصى للأمة بأجمعها، بمعنى أن النبي عليه السلام ترك مسألة إدارة شؤون المسلمين واختيار خليفة له إلى الأمة ليتشاوروا فيما بينهم لانتخابه واستخلافه. وازاء هذا الفرض فإن لنا أن نوجه بضعة أسئلة إلى الفقه الإسلامي وإلى التاريخ الإسلامي لنطلب منهمما أن يفسرا لنا

بعض الإشكالات التي تتعارضنا أمام هذا الفرض، فنطلب منها تفسيرات وشروحًا وأجابات لهذه الأسئلة:

السؤال الأول: الدليل على نظرية الشوري

وهنا نسأل التاريخ والفقه الإسلاميين فنقول: ما هو الدليل على أن الأمر كان شوري؟ ومتى عمل بالشوري في تاريخ المسلمين؟ طبعاً سوف يستدل هنا في هذا المقام على أمر الشوري بأي تبرير:

الأولى: قوله تعالى: **(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)**^(١).

الثانية: قوله تعالى: **(وَشَاوِرُوهُمْ فِي الْأُفْرِيْقِ)**^(٢).

الرد على الاستدلال بالأية الأولى

وللإجابة والرد على هذا الاستدلال نقول بخصوص قوله تعالى: **(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)** فإن جميع المفسرين يقولون بأن هذه الآية هي في مقام مدح الأنصار^(٣)؛ لأن هؤلاء كانوا إذا نزل بأحد هم أمر أو حصل له شيء مشكل فإنه لا يستبد برأيه فيه ولا يحاول بأن يحله من نفسه بل إنه يرجع إلى أخوانه وأصحابه فيشاورهم ويستنصي بأرائهم ويستشير بشورتهم على حل مشكلته. فكان الأننصاري يطرح مشكلته أمام أصحابه ويتداولون هذه المشكلة فإذا أقروا حلاً معيناً عمل به وإن لم يقرروه تركه، وبهذا فإنهم كانوا يعملون بمبدأ العقل الجماعي .. العقلية الجماعية التي كانت تسد كثيراً من الآراء التي يمكن ألا تصيب فيما إذا كانت آراء شخصية بعيدة عن الشوري.

(١) الشوري: ٢٨.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٦: ١٦

وبناء على هذا فلا يمكن توجيه الآية إلا بهذه الصورة وهي أن الأنصار مدحهم القرآن الكريم؛ لأنهم يحلون مشاكلهم بمبدأ التشاور والتداول في هذه المشاكل ليصلوا إلى الحلول المناسبة فيقروها. وبما أن الخلافة الإسلامية أمر مهم فإن المسلمين عمدوا إلى إيجاد حل له عن طريق مبدأ الشورى، فهذا هو أقرب الطرق وأيسرها لتقريب الاستدلال بهذه الآية على مبدأ الخلافة.

وهذا الكلام إنما يتم ويعتبر صحيحاً فيما لو لم يكن هنالك نص من السماء على خلاف الشورى، فلو لم يكن هنالك نص فإن الشورى تبقى هي الحل، أما مع وجود النص من السماء على شخص بعينه بأنه هو الخليفة بعد النبي فإن هذا الكلام وهذا الاستدلال يعتبران ساقطين عن الاعتبار؛ لأنه لا شورى ولا اجتهاد في مقابل النصوص السماوية. وإن شاء الله تعالى سوف أبين من خلال البحث ما هو المراد من النصوص التي لا يجوز الاجتهاد إزاءها.

ومن هذا نخلص إلى أن هذه الآية الكريمة نزلت في خصوص مدح الأنصار ولا علاقة لها من قريب أو من بعيد بالحكم ونظرية الحكم وتحديد الحاكم الشرعي أو الخليفة الشرعي بعد الرسول عليه السلام.

الردة على الاستدلال بالأية الثانية

وأما في خصوص قوله تعالى: وشاورهم في الأمر فإن المفسرين ينصون على أن الله جل وعلا إنما أمر نبيه عليه السلام بمشاورة المسلمين لعدة أسباب منها:

السبب الأول: استجلاب موئذنة الصحابة

أي أنه عليه السلام حينما يخاطبهم في الأمور المهمة ويسألهم حول بعض

المسائل المصيرية التي تهم الإسلام والدولة وتمس الوجود فإنه بذلك يكون قد وضع حجر الأساس لانقيادهم ولتقبيلهم، ولا إشعارهم بأنهم ذوو مكانة عنده أو ذوو أهمية لديه. إذن فهذا السبب هو استجلاب مودة هؤلاء كيلا ينفروا من الإسلام وكيلا يتهموا الرسول ﷺ بأنه يستبد بالرأي لوحده^(١).

السبب الثاني: استبيان الناصح من غير الناصح

ذلك أن الرسول ﷺ بما يعرفه من حلول وما يعرفه من دسائس عند البعض من الشرائح التي انتسبت إلى الإسلام والتي مر ذكرها فإن هؤلاء من خلال مشورتهم ومن خلال إشارتهم على الرسول ﷺ يتضح منهم الناصح لله تعالى ولرسوله ﷺ وللإسلام من الذي يريد أن يكيده.

السبب الثالث: تعليم المسلمين حسن المشورة

أي أنه ﷺ يريد أن يقول للمسلمين جميعاً بأنكم - كما أني أشاوركم بأمورى وأمور الدولة - عليكم أن تشاوروا فيما بينكم في أموركم ولحل مشاكلكم وقضاياكم التي تعلق.

إذن فهذه الآية أيضاً لا علاقة لها من قريب أو من بعيد في قضية الإدارة وقضية الحكم والخلافة بعد النبي ﷺ.

وهذه تفاسير المسلمين بين أيدينا وهي تفاسير يبلغ عددها المئة والخمسين تفسيراً أو أكثر، وكلها لا تنقص على أن لهذه الآية علاقة بمبدأ الحكم والإدارة في الإسلام، وكذلك السنة النبوية فإنها تخلو من النصوص التي لها علاقة بمبدأ الشورى حول الحكم في الإسلام بعد

النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، فليس هنالك من حديث في السنة النبوية المطهرة يأمر المسلمين بأن ينتخبو لهم خليفة شرعاً من بعده عن طريق الشورى. لكن لو تنزلنا وقلنا: إن في القرآن آيات وفي السنة النبوية أحاديث وروايات تنص وتأمر بمبدأ الشورى حول قضية الخلافة والحكم في الإسلام، فهنا لنا أن نتساءل: ما هي معالم الشورى؟ وما هي حدودها؟ وهل امتنع الصحابة أمر الشورى أم لم يتمثلوه؟ إن الشورى تعني التداول، يعني أن هناك جماعة كبيرة من المسلمين تمثل المسلمين جميعهم تداول فيما بينها لتقرير مصير الأمة، أو لإيجاد حل لهذه المشكلة. ولو رجعنا إلى قضية السقيفة لوجدنا أن الذين انطلقا من السقيفة وقد بايعوا كانوا اثنين فقط. وتنص الرواية على أن هذين جاءا بال الخليفة، وكانوا كما تنص الرواية يخطبون الناس خبطاً بالسيوف ويأمرون الناس والMuslimين بمبايحته حتى بايعوا له^(١). وهذا الانثنان اللذان بايعا الخليفة هما عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فهل هذه هي الشورى التي تضع حللاً لمشكلة تتعلق بمصير الأمة وجودها؟ وهل مجلس الشورى الذي ينعقد ينعقد باثنين فقط؟ ولنفرض أن مجلس الشورى قد انعقد باثنين ثم تزايد وأصبح عشرين رجلاً، وأن هذا هو أمر مشروع فلماذا إذن نص الخليفة الأول على شخص من بعده بعينه ولم يجعل الأمر شورى بين المسلمين؟ فقد قال قوله الشهيرة: إني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب. فدخل عليه أحد المسلمين وقال له: ماذا تقول لله غداً؟ قال: أقول له: إني استخلفت عليهم خيرهم^(٢). وهذه

(١) قريب منه في تاريخ الطبرى ٤٥٩: ٢.

(٢) السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ١٤٩، شرح نهج البلاغة ١: ١٦٥، الطبقات الكبرى ٢:

الرواية يرويها أبناء المذاهب الإسلامية الأخرى . وبناء عليه فأين مبدأ الشورى؟ ثم كان الأمر مع الخليفة الثاني وقد خرج عن الطريقين فلم يعمل بالتعيين كما عمل أبو بكر ولم ي العمل بالشورى كما فعل مع أبي بكر ؟ فقد عمد إلى ستة أو صي اليهم بأن تكون الخلافة في أحد هم بعد أن يتلقوا عليه ، ثم أمرهم بأنه لو انقسم هؤلاء الستة إلى قسمين متساوين فإن عليهم أن يرجحوا كفة الجماعة التي فيها عبد الرحمن بن عوف ، وهكذا فإن الجماعة التي اختارت عثمان بن عفان كان فيها عبد الرحمن بن عوف ، وفعلاً تمت البيعة لعثمان ابن عفان .

إذن فهل هذا الأمر من الشورى بشيء؟ وأين موقع الشورى من النص والتطبيق؟ وبناء على هذه التفسيرات وبناء على هذه الواقع يتضح ما هو المراد من الشورى . ثم إن هذا الذي يدعى دعوى الشورى دون أن يكون هناك عنده دليل ناهض يعتصمه ينبغي عليه أن يخجل من نفسه وأن يحترم مخه وهو يطلق مثل هذه الدعوى التي لا دليل عليها ولا أساس لها بناء على ما بيننا من ردود ونقوص على أدلةها .

على أية حال فالنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه لم يعتمد نظرية الشورى إطلاقاً، وكذلك الإسلام لم يعتمد نظرية الشورى أيضاً، ومن غير المعقول أن يكل النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه هذا الأمر (أمر الشورى) إلى الأمة، والأمة إلى الآن لم تصل إلى المستوى المطلوب في حمل رسالة القرآن .

٢٧٤، الثقات (ابن حبان) ٢: ٢، وفيه: رفع أبو بكر يديه وقال: اللهم إني قد ولتنيه بغير أمر نبيك .

وهنا نقول: إن كان الأمر شورى، فما الضرورة لهذا القول؟ وإن كان هذا القول نابعاً عن إحساس أبي بكر بالمسؤولية، وتوقع الخوف أو المكره من أجله؛ كما توحيد عبارة «بغير أمر نبيك» فهذا يعني أن في الأمر تعدياً على خليفة شرعياً بعينه .

وريما يقول قائل: إن هذه الدعوى دعوى خطيرة وهي تمس الأمة كلها.
 والجواب: أن هذه الدعوى صحيحة ودليل صحتها هو بالرجوع إلى
 الأدلة والحقائق التاريخية التي مر بها المسلمون، ومن ذلك واقعة أحد
 التي خالف المسلمين فيها قول الرسول طمعاً في الغنيمة مع أن الرسول
 أمرهم بـألا يبارحو أماكنهم التي وضعهم فيها وفق خطته العسكرية
 للمعركة، ولكنهم مع ذلك خالفوا طلباً للغنيمة فكان ما كان من أمر هزيمة
 المسلمين وفرارهم عنه عليه السلام. وكذلك الحال في يوم موت الرسول عليه السلام
 وفيما كان الرسول عليه السلام يحضر أمرهم بأن يأتيوه بدواة وقرطاس كي
 يكتب لهم كتاباً يحقق وجودهم ويثبتهم، لكنهم رفضوا.

ونحن لا نريد أن نقول: إن بعض المسلمين قال: إنه يهجر، لكننا نقول
 بما تقوله الروايات عند المذاهب الإسلامية من أن أحد المسلمين قال
 فيها: قد غالب عليه الوجع^(١) ومعنى غالب عليه الوجع أن كلامه ليس كلام
 شخص متزن، وعليه فإنه لا قيمة له. أليس هؤلاء هم الذين كانوا
 المسلمين في زمان الرسول عليه السلام؟ وهل يتهم المسلم الرسول الذي لا
 ينطق عن الهوى بأنه قد غالب عليه الوجع؟ بمعنى أن كلامه كلام مريض
 وليس كلام رجل متزن في كامل قواد العقلية، وأن كلامه ليس بحجة فلا
 تأتوه بقرطاس ودواة ولا تطيعوا ما أمركم به. فإذا كان هذا حال المسلمين
 والنبي حي بيدهم.. والنبي لم يزل بين ظهرياتهم، فما هو الحال فيما إذا
 كان الأمر بعد رحيل النبي عليه السلام عنهم؟

(١) مسند أحمد ١: ٢٣٦، صحيح البخاري ٧: ٩، صحيح مسلم ٥: ٧٦.

الردة على الشورى بقول أبي بكر وعمر

ونحن حينما نرجع إلى الفقه الإسلامي عند المذاهب الإسلامية الأخرى والى كتب التاريخ والسير فإننا سنجد أن الخليفة الثاني قد فرق في العطاء بين المسلمين، ومن هؤلاء المؤلفة قلوبهم الذين نصت عليهم الآية في اعطائهم الزكاة، وهؤلاء المؤلفة قلوبهم كان الرسول ﷺ يعطيهم شيئاً من الزكاة بقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ... وَالْمُؤْلَفَةُ قُلُوبُهُمْ﴾**^(١)؛ ليستمبلهم إلى الإسلام، وحينما جاء الخليفة الثاني منع الزكاة عنهم وقال: إن الإسلام إنما فرض لهؤلاء سهماً؛ لأنه في أول أمره كان ضعيفاً، أما الآن وقد قوي فلا حاجة له بهم. ولما قيل له في ذلك بأنه إنما يخالف النص، أجابهم بأنه يسترشد بروح النص.

فإذا كان الخليفة الثاني يرى منع الزكاة عن هؤلاء لأنهم لا يمكن أن يكونوا بمستوى المسلم الصحيح أو الحقيقى، فكيف يمكن أن يوكل أمر الأمة إلى المسلمين وفيهم من هو من المؤلفة قلوبهم، وفيهم من هو من المتربيين وما إلى ذلك؟ وسوف أروي هنا رواية وقعت أو حادثة حدثت بين الخليفة الثاني وبين عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهي واحدة من الحوادث التي وقعت بينهما، تقول الرواية التي تنقل هذه الحادثة: دخل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما المسجد النبوي فوجد الخليفة الثاني وحولة مجموعة من الشعراء وقد تسألهوا فيما بينهم، فسأل أحد الجالسين قائلاً: أي الناس أشعر؟ فقال له عمر بن الخطاب: أنا لا أعرف في الشعر، وهذا ابن بجدتها قد جاءكم (يعني عبد الله بن عباس)، فاسأله. فلما دخل عبد الله بن

عباس وجلس إلى جانب الخليفة الثاني التفت إليه عمر بن الخطاب وقال له: يا بن عباس، هل لك إلى أن تخبرنا عن أي الناس أشعر؟ فقال ابن عباس: أشعر الناس زهير بن أبي سلمى حيث يقول في مدح قوم من غطفان يقال لهم بنو سنان:

قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا مرزقون بهاليل إذا جهدوا لا ينزع الله منهم ماله حسدوا	لو كان يقعد فوق الشمس من كرم القوم أبوهم سنان حين تنسبهم إنس إذا أمنوا جن إذا فرزعوا محسدون على ما كان من نعم
--	--

فقال عمر: والله لقد أحسن، وما أرى هذا المدح يصلح إلا لهذا البيت من هاشم لقربتهم من رسول الله عليه السلام. ثم قال: يا بن عباس، أتدرى ما منع الناس عنكم؟ قال: لا. قال: لكنني أدرى. قال: ما هو؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجفخوا جفحاً وتتفخوا تفخاً، فنظرت قريش لنفسها فاختارت، ووفقت فأصابت. فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عنى غضبه فيسمع؟ قال: قل ما تشاء. قال:

أما قولك: إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: (إِذْلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطْتُ أَغْنَانَهُمْ) ^(١) أي أنك جعلت المناط في أحكام الله تعالى وأوامره هو كراهة قومنا وعدم كراحتهم، فلو كره قومنا نزول القرآن الكريم فهل يترك الله تعالى إِنزاله؟ ولو أن قومنا كرهوا نزول الوحي والإسلام - كما حصل بالفعل - فهل يترك الله تعالى أمره ويمتنع عن إِنزاله على الرسول الأكرم عليه السلام؟ والحاصل أنه لو أراد الله تعالى شيئاً وكرهته

قريش فهل تركه طاعة لقريش ومعصية الله؟
وأما قولك: إننا كنا نجحف - أي يصبح عندهم كبراءة وتضخم - فلو
جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة، ولكننا قوم أخلاقنا مشتقة من خلق
رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه الذي قال الله تعالى فيه: «إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ»^(١)، وقال
له: «وَاحْفِظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٢).

وأما قولك: فإن قريشاً نظرت لنفسها فاختارت - ولنلاحظ التعبير هنا
وهو (قريشاً اختارت)، بمعنى أن المسلمين جميعاً لم يختاروا بل إن
الذي اختار هو قريش فقط، وهم جزء من المسلمين وليسوا كلهم، فهناك
الأنصار وهناك القبائل العربية المسلمة من غير قريش، فإن كان الأمر
متعلقاً بكون قريش قبيلة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه فبنو هاشم أهل بيت النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه؛ ولذا فإن
أمير المؤمنين عليه السلام لما بلغه احتجاج أهل السقيفة بهذا قال عليه السلام: «احتجوا
بالشجرة وأضعوا الشمرة»^(٣)؛ لأنهم أقرباء نبينا الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه وخاصته
وابناؤه، وغيرهم من قريش أبعد عنهم، وهذا هو تعبير الخليفة الثاني
نفسه - فليس من حق قريش أن تختار لنفسها، ذلك أن الله تعالى يقول:
«وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْخَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا
يُشَرِّكُونَ»^(٤)، وقد علمت أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار. أي أن
الله تعالى اختار وقضى ولم يترك الأمر هملاً أو دون أن ينزل فيه حكماً.
وأما قولك: ووفقت فأصابت، فليس الأمر كذلك؛ لأن الذي يختار
خلاف ما اختار الله تعالى لم يوفق، ولو نظرت قريش من حيث نظر الله لها

(١) القلم: ٤. (٢) الشعراء: ٢١٥.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ٦٧.

(٤) التoccus: ٦٨، أي أنه تعالى جعل كل اختيار خلاف اختياره جل وعلا شركاً.

لوفقت وأصابت.

ثم نفض ابن عباس ثيابه وقام، فقال عمر: على رسلك يا بن عباس، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلا غشأ في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول. فقال ابن عباس: مهلاً، لا تنسب هاشماً إلى الغش؛ فإن قلوبهم من قلب رسول الله ﷺ الذي طهره الله وزكاً، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى فيهم: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرَّجُسُ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا»^(١). وأما قولك: حقداً، فكيف لا يحقد من غصب حقه ويراه في يد غيره؟ فقال عمر: أما أنت يا بن عباس، فقد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به، فتزول منزلتك عندى. قال: وما هو؟ أخبرني به؛ فإن يكُ باطلًا فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وإن يكُ حقًا فإن منزلتي عندك لا تزول به. قال: بلغني أنك لا تزال تقول: أخذ هذا الأمر منك حسداً وظلماً. قال: أما قولك: حسداً، فقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود.

وأما قولك: ظلماً، فأمير المؤمنين يعلم صاحب الحق من هو. ثم قال: ألم تحنج العرب على العجم بحق رسول الله ﷺ، واحتاجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله ﷺ؟ فنحن أحق برسول الله ﷺ من سائر قريش. فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك.

فقام، فلما ولَّ هتف به الخليفة عمر: أيها المنصرف، أني على ما كان منك لراعٍ حقك. فالتفت إليه ابن عباس وقال: إن لي عليك وعلى كل المسلمين حقًا برسول الله ﷺ، فمن حفظه فحقّ نفسه حفظ، ومن أضاعه

فحقّ نفسه أضعاع . ثم مضى ^(١) .

أي أن الخليفة الثاني كأنما استشعر أن المدح هذا إذا كان لا يليق إلا ببني هاشم وهم أهل له فلماذا إذن ذهبت الخلافة عنهم ، فكأنما أجاب عن إشكالٍ مضرم . وعبد الله بن عباس قد أمسك بزمام المبادرة بعد أن قال له الخليفة الثاني ما قال ، فهو لم يكن بالذى تفوت عليه مثل هذه الأمور ولذا فإنه احتاج عليه بما احتاج .

على أية حال فإننا حينما نلاحظ المحاورة نجد فيها أن قريشاً قد اختارت وليس المسلمون هم من اختيار ، وموضع الشاهد هنا أنه يقول له : قريش اختارت ونحن اخترنا ولم يستدل عليه أو على مدعاه بمبدأ الشورى بل إنه استدل عليه أو نسب هذا الفعل إلى اختيار قريش خاصة دون أن يكون للMuslimين عامة . ولو أن هناك نظرية واضحة المعالم للشورى لاحتاج بها الخليفة عليه وقال له : على رسلك فإننا إنما تشاورنا في الأمر واخترنا أبا بكر في تلك الحادثة؛ وعليه فلا وجه لادعائكم الأمر دوننا ؛ لأننا قد أثبتناه لل الخليفة الأول بحق الشورى ، وهو حق مأمور به . وبما أن الخليفة الثاني لم يحتاج بهذا بل احتاج باختيار قريش فهذا يدل على أن مبدأ الشورى لم يكن معمولاً به ، وعلى أن الشورى لم تكن منظورة في اختيار الخليفة الأول .

ثم إنه ليس هنالك من صحابي احتاج للخلافة ولصحتها ولصحة اعطائها لأبي بكر بمبدأ الشورى ، بل إن الخليفة الأول نفسه لم يحتاج في السقيفة بمبدأ الشورى فلم يقل أنا جئت بالشورى بل إنه قال : نحن أهل

(١) شرح نهج البلاغة ٢ : ٥٢ - ٥٥ ، مناقب أهل البيت عليهم السلام : ٤٥٢ - ٤٥٤

بيت النبي محمد وعشيرته ولا ينazuننا سلطان محمد إلا ظالم. فهذا كل احتجاجه، وليس فيه إشارة إلى مسألة الشورى، فلا الخليفة الأول ولا الخليفة الثاني يحتجان بالشورى في مسألة الخلافة واستخلاف الرسول بل إن الخليفة الأول يحتاج بقرابة النبي التي عبر عنها الإمام علي عليه السلام بأنهم احتجوا بالشجرة وأضعوا الثمرة، واحتاج الخليفة الثاني باختيار قريش وليس هنالك من ذكر مطلقاً لقضية الشورى.

ولهذا فإن الأنصار رفضوا هذا القول وهذا المبدأ حتى إنهم وصل بهم الأمر إلى أن يقولوا: مَنْ أَمِيرٌ وَمَنْكُمْ أَمِيرٌ، فقام عمر بن الخطاب وقال: والله لا ينazuن عشيرة محمد في سلطانه إلا ظالم^(١). ورُفض «مبدأ مَنْ أَمِيرٌ وَمَنْكُمْ أَمِيرٌ».

إذن مبدأ الشورى لم يحتج به أي صحابي في صدر الإسلام حول صحة الخلافة بعد رسول الله عليه السلام، وهذا القرآن الكريم بين أيدينا وهذه السنة النبوية المطهرة أيضاً بين أيدينا دون أن نجد فيهما ما يشير إلى هذا المبدأ أو هذه النظرية في خصوص تعيين الخليفة بعد الرسول الأكرم عليه السلام. فمن أين انبثقت نظرية الشورى؟ وبهذا فإننا نغلق باب القول بمبدأ الشورى أو بنظرية الشورى لأنها نظرية لا أساس لها في الإسلام، ولم يحتج بها أو يستدل بها صحابي سواء كان الخليفة نفسه أو أحد الصحابة الآخرين في كل احتجاجاتهم ومناقشاتهم.

الفرض الثالث: النص

ووفق هذا الرأي فإن النبي عليه السلام قد أوصى بالخلافة من بعده لشخص

(١) تاريخ الطبرى ٢: ٤٥٧، الكامل في التاريخ ٢: ٢٣٠.

معين، وأن النصوص والروايات النبوية الشريفة قد نصت على هذا الأمر. وهذه النصوص (لحسن حظنا) تملأ كتب الحديث والسير والتاريخ، وإنما قلنا: لحسن حظنا، لأننا نعرف ما هو التاريخ ومن الذي كتب التاريخ وما الذي حصل في التاريخ.. التاريخ الذي يقول عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه: إنه قد غلبه الوجع حينما قال لهم «إيتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لن نضلوا بعده أبداً»^(١).

المبحث الثاني: نماذج من محاولات تشويه التاريخ
 فهذا التاريخ الذي يحمل حقداً على هذا البيت النبوي لا يمكن أن يحفظ لنا هذا الأمر، لكن الله شاء - وهذا كما قلنا من حسن حظنا - أن يكون في التاريخ أو في الكتب الأخرى إشارات أو ذكر لهذا الأمر.
 وهذا التاريخ مشبع بالتزوير، وسننطر على هذا عدة نماذج:

النموذج الأول: نسبة كلمة «غلبه الوجع» لأمير المؤمنين عليه السلام
 إننا حينما نرجع إلى كتاب (حياة محمد) لتوفيق الحكيم نجده يذكر أن هذه الكلمة (غلبه الوجع أو أنه ليهجر) قد ذكرها عمر وعلي. هكذا ينص توفيق الحكيم حول هذه الواقعة، وهل من المعقول أن يقولها علي بن أبي طالب الذي انتقل الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه إلى الرفيق الأعلى ورأسه على صدره؟ إن هذا هو المستحيل بعينه لكن هذا الكاتب كأنما كبرت عليه الكلمة أن تُنسب لل الخليفة الثاني وحده فحاول أن يخفف وطأتها بحسبها إلى علي عليه السلام معه، وهذا هو التاريخ الذي نتكلم عنه، إنه تاريخ مشوه مزور يحاول فيه البعض طمس الحقائق وتشويه الصور الواضحة

(١) مسند أحمد ١: ٤٥٥، صحيح البخاري ١: ٣٦، ٩٧، صحيح مسلم ٥: ٧٥-٧٦.

للوصول إلى مأرب يرثونها.

الأنموذج الثاني: فرية أن السجادة ﷺ يلعب بالشطرنج ينقل الدميري في كتابه (حياة الحيوان الكبرى) أن الإمام الشافعي يجيز اللعب بالشطرنج ولا يرى به بأساً إلا وقت الصلاة، فإنه لا يجيزه بمعنى أنه لا يجيزه إذا حل وقت الصلاة. فإذا أدى المسلم صلاته فحينئذ لا بأس عليه في أن يلعب، وحينما ينتقل بعد ذلك الدميري إلى نقل موقف الإمام زين العابدين ع من مسألة اللعب بالشطرنج، فإننا نجده يقول: وكان زين العابدين يلعب بالشطرنج^(١).

وقصد الدميري هنا هو عين قصد الحكم هناك فهو لا يريد أن يقع اللوم على عاتق الشافعي وحده فأراد أن يشرك معه أحداً في هذا، ولم يجد أمامه غير زين العابدين ع؛ لأنه من هذا البيت الذي نسب توفيق الحكم إلى أحد أفراده كلمة قالها عمر بحق الرسول ﷺ. أي أنه يريد أن يجد مبرراً لفتوى الشافعي ولم يجد أمامه سوى زين العابدين وسيد الساجدين ع الذي قيل ما قيل فيه وبحقه من علماء المسلمين.

وهكذا نرى أن تاريخاً مثل هذا لا يمكن أن يحفظ لنا نصوصاً يمكن أن يستدل بها في المقام على نظرية النص أو على حقيقة النص، لكن مع ذلك ولمشيئة الله جلَّ وعلا فإننا نجد أن التاريخ قد حفظ لنا نصوصاً كثيرة في هذا المجال مبثوثة ومنتشرة في كتب التاريخ والسير والحديث، ومن هذه النصوص ما يرويه أبو ذر ع بقوله: والذى بعث محمداً بالحق نبأ لقد رأيت رسول الله ﷺ آخذاً بيد عليٍّ ع في جانب الكعبة وهو يقول له:

(١) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٦٢ - ٦٣.

«يا علي حربك حربي وسلفك سلمي»^(١)، ويقول له ﷺ: «من أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام»^(٢)، ويقول له ﷺ: «أخي وزيري وناصري وخليفي من بعدي»^(٣).

وليس هذا الأمر مقتصرًا على النصوص الحديبية بل إنه تجاوزها إلى النصوص الأدبية أيضًا التي عاصر أصحابها النبي ﷺ؛ فهناك الكثير من النصوص الأدبية التي قيلت في زمن النبي ﷺ والتي تعبر عن الإمام علي عليه السلام بأنه الوصي وال الخليفة من بعد النبي محمد ﷺ^(٤). وهناك نصوص أخرى قيلت بعد وفاة الرسول في حادثة السقية ومنها نص شعرى قاله عبد الله بن أبي سفيان بن الحarth بن عبد المطلب حيث يقول:

إِنَّ وَلِيَ الْأُمُرِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
عَلَىٰ وَفَىٰ كُلَّ الْمُوَاطِنِ صَاحِبِهِ
وَصَاحِبِي رَسُولِ اللَّهِ حَقًا وَصَنْوُهُ
وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّىٰ وَمَنْ لَانْ جَانَبَهُ^(٥)

هذا وهناك الكثير من النصوص غيره تثبت هذا الأمر لأمير المؤمنين عليه السلام.

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وقال له بهذا المعنى أحاديث كثيرة، انظر الحاوي لفتاویٰ ٢: ٤٤.

(٢) مسند أبي يعلىٰ ١: ٥٠٣/٤٠٣، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١، ١٣: ٢٩٥٥ / ١٥٩، ٣٦٤٩١، وقال: قال البوصيري: رواه ثقات.

(٣) ورد هذا الحديث عن الصادق الأمين عليه السلام في حق أمير المؤمنين عليه السلام بصيغة ومتناسبات عدة، انظر: الكافي ١: ٢٢١، ٧ / ٤٢٢، الأمازي (الصدوق): ٢٥٤ / ٤٢٢، السنن الكبرى (النساني) ٥: ١٢٦، ٨٤٥١، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١.

(٤) كنص حسان بن ثابت الذي يقول فيه: يسأد بهم يوم الفدیر نبيهم بضم واسمع بالنبي مناديا مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الковي) ١: ١١٩، مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٢٠.

(٥) شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٣١.

الأنموذج الثالث: فريدة عبد الله بن سبأ
ومع كل هذا يأتي التاريخ النتن الذي يقول بأن عبد الله بن سبأ هو
صاحب نظرية الوصاية إلى الشيعة أو إلى علي بن أبي طالب عليهما السلام لأن عبد
الله بن سبأ هو مؤسس المذهب الشيعي.

حقيقة عبد الله بن سبأ

وهذا الأمر يمكن الرد عليه من عدة جوانب:
الجانب الأول: أن عبد الله بن سبأ هو شخصية وهمية غير حقيقة ولا
وجود لها.

الجانب الثاني: أنه على فرض وجوده فإن الذين يثبتون وجوده فإنهم
يثبتونه في زمانٍ متأخرٍ على وجود المذهب الشيعي، كما أنه نشأ في
العراق وليس في المدينة المنورة وفي خلافة علي بن أبي طالب عليهما السلام أما
هذه الأبيات المارة لسفيان ابن الحرنث ابن عبد المطلب فإنها قيلت في
الحجاج وليس في العراق وبعد وفاة النبي عليهما السلام مباشرةً أي قبل وجود عبد
الله بن سبأ وقبل خلافة علي بن أبي طالب عليهما السلام بما يقارب الثلاثين عاماً، فهل
إن عبد الله بن أبي سفيان بن الحرنث تنبأ بهذه الأبيات قبل أن يخلق عبد الله
بن سبأ؟ إن هذا أمر غير معقول.

وكذلك النصوص الأدبية التي وقعت في حرب صفين، النصوص التي
كانت تصف الإمام علي عليهما السلام بأنه وصي رسول الله عليهما السلام وخليفته، فيقول
الوليد بن جابر بن ظالم الطائي:

فبانوا الأمر غداً من غلت
تسفيه للعلياء سادات العرب

شدوا فداء لخُمُّم أقسى وأن
هذا ابن عم المصطفى والمنتخب

ليس بسموصوم إذا نصت النسب أول من صلّى وصام واقترب^(١)

وكذلك غيره من الشعراء الذين يستعرضون هذه النصوص أو هذه الحقائق التي تصفه عليه السلام بأنه الخليفة والوصي بعد رسول الله صلوات الله عليه وسلم. وكل هذه النصوص قبل أن يخلق عبد الله بن سبأ الموهوم في مخيلات وأذهان مزوري التاريخ والحاقدين على أهل هذا البيت عليه السلام. وهؤلاء الذين يدعون وجوده يقولون: إن عبد الله بن سبأ هذا هو الذي حرك أهل مصر للثورة على الخليفة الثالث، وهو الذي حرك أبا ذر، وهو الذي حرك أهل الكوفة، وهو الذي زرع فيهم قضية الوصاية إلى الشيعة والى علي بن أبي طالب عليه السلام.

وحيينما نطلع أكثر على ما يكتبه هؤلاء عن عبد الله بن سبأ فإننا نستطيع أن نصفه بأنهم يكتبون عن عقل الكتروني ضخم موجود في مكان ما من هذا العالم ويمد أذرعه وسيطرته على العالم كله فيحركه أنى شاء وكيف شاء. وهذا طبعاً راجعاً إلى تلك العقليات التافهة التي خلقته في مخيلتها وحاولت أن تصبه في كتب التاريخ. وقد أجاد الدكتور طه حسين حينما عبر عنه بقوله: لقد ادخره خصوم الشيعة للشيعة^(٢)، أي أنه كيان وهمي

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ١٢٩.

(٢) قد ذكر الدكتور طه حسين هذه الأسطورة السببية، حيث إنه استعرض الصورة التي رسمت لابن سبأ أولاً، ثم سخّف هذه الفكرة بعد تحليل دقيق، وانتهى به إلى القول بأن عبد الله بن سبأ شخصية وهمية خلقها خصوم الشيعة، ثم دعم رأيه بالأمور التالية:

- ١ - أن كل المؤذخين والفتات لم يشيروا إلى قصة عبد الله بن سبأ، ولم يذكروا عنها شيئاً.
- ٢ - أن المصدر الوحيد عنه هو سيف بن عمر، وهو رجل معلوم الكذب ومقطوع بأنه وضاع.
- ٣ - أن الأمور التي أنسنت إلى عبد الله بن سبأ تستلزم معجزات خارقة لفرد عادي، كما تستلزم أن يكون المسلمون الذين خدّعهم عبد الله بن سبأ وسرّحهم لما رأبه، وهم ينفدون

وخيال غير موجود ادّخره خصوم الشيعة لشيعة ليحاربوا به.

أهداف بدون اعتراض بأنهم في منتهى والسفه.

٤ - عدم وجود تفسير مقنع لسكتوت عثمان وعُتَّاله عنه مع ضربهم لغيره من المعارضين كمحمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر وعمار وغيرهم.

٥ - عدم وجود أثر لابن سبا ولجماعته في واقعة صفين وفي حرب التهروان.
ولهذا قال: إن عبد الله بن سبا شخص ادّخره خصوم الشيعة للشيعة، ولا وجود له في الخارج.

الفتنة الكبرى ١: ١٣١.

وقد ورد في سيف بن عمر راوي الأكذوبة قدح كثير نذكر منه على سبيل المثال:

١ - يقول ابن حبان: كان سيف بن عمر يروي الموضوعات، وقالوا: إنه كان يضع الحديث، واتهم بالزندقة. كتاب المجرودين ١: ٢٤٥.

٢ - كما يقول عنه الحكم النيسابوري: اتهم سيف بالزندقة، وهو بالرواية ساقط. عنه في تاريخ الإسلام ١١: ١٦٢.

٣ - وقال عنه ابن معين: ضعيف. تاريخ ابن معين ١: ٣٣٦ / ٢٢٦٢.

٤ - وقال عنه: متزوك. مجمع الزوائد ١٠: ٢١.

٥ - ونقل الذبيهي في كاشفه عنه تضعيفه له: الكاشف في معرفة من له رواية في كتب الستة ١: ٤٧٦ / ٤٧٦.

٦ - وقال عنه: يروي عن خلق كثير مجهولين. ميزان الاعتدال ٢: ٢٥٥ / ٣٦٣٧.

٧ - وقال: ضعيف. الأول ٨١.

٨ - وقال عنه النسائي صاحب (السنن): ضعيف. الضعفاء والمتركون ١٨٧ / ٢٥٦.

٩ - وقال عنه العقيلي: ضعيف. ضعفاء العقيلي ٢: ١٧٥ / ٦٩٤.

١٠ - وقال عنه ابن عدي: ضعيف. الكامل في ضعفاء الرجال ٣: ٤٣٥ / ٨٥١.

١١ - وقال عنه الطبراني: ضعيف. الأول ٨١.

١٢ - وقال عنه الرازمي: ضعيف. الجرح والتعديل ٤: ٢٧٨ / ١١٩٨.

١٣ - وقال سبط ابن العجمي: كان يضع الحديث، اتهم بالزندقة. الكشف العثيث ١: ١٣١ / ١٣٥.

١٤ - وقال عنه أبو نعيم: متهم في دينه، مرمي بالزندقة، ساقط الحديث، لا شيء. الضعفاء: ٩٥ / ٩١.

١٥ - وقال عنه الهيشني: ضعيف. مجمع الزوائد ١: ١٥٢، ٤: ١٥١.

الأنموذج الرابع: فريدة أن «المولى» تعني ابن العم إذن فالواقع أن وصاية النبي محمد ﷺ للأمير المؤمنين ع ثابتة معلومة وقد وقف بها النبي ﷺ يعلن عنها أكثر من مرّة ويصبح قائلًا: «من كنت مولاه فهذا على مولاه»^(١).

ومعنى «أنا أولى بكم من أنفسكم»، أن لي حق التصرف بأموالكم وبأنفسكم وفق الضوابط الشرعية والسلطة الممنوحة من السماء. وهذه الولاية التي هي لي أنا أعطيها لعلي بن أبي طالب^{٢١} في حين أن التاريخ المزور يأتي ليقول: إن الرسول أخذ يد علي في ذلك الموقف الشديد الحرارة وفي ذلك الجمع الغفير والجماعة العظيمة ليقول لهم: إن علي بن أبي طالب هو ابن عمي؛ لأن من معانى المولى هو ابن العم^{٢٢}. وما دام الخصم يأخذ

الركيزة الثانية: السري بن يحيى، كما يسميه الطبرى، وهو ليس بالسرى بن يحيى الثقة، لأن السرى بن يحيى الثقة يكون زمانه أقدم من الطبرى، فقد توفي سنة (١٩٧) هـ في حين أن الطبرى قد ولد سنة (٢٢٤) هـ. فالفرق بينهما سبعة وخمسون عاماً. ولا يوجد عند الرواة سرى بن يحيى غيره؛ ولذلك يفترض أهل البرج والتعديل أن السرى الذى يروى عنه الطبرى يجب أن يكون واحداً من اثنين، كل منهما كذاب وهما: السرى بن إسماعيل الهمданى الكوفى، والسرى بن عاصم الهمدانى نزيل بغداد المتوفى سنة (٢٥٨) هـ، والذي أدرك ابن جرير الطبرى وعاصره أكثر من ثلاثين عاماً. وكل من هذين قد كذبه أهل الحديث، فقد اتهموها بالوضع، كما فعل ابن حجر فى (تهدىب التهدىب)، والسان الميزان، والذهبى فى (ميزان الاعتذار)، والجوزي فى (تذكرة الموضوعات)، وغيرهم. وقد ذكر النقاد للطبرى سبعمائة حديثاً واحداً، وهذه الأحاديث تغطي زمن الخلفاء الثلاثة، وأسانيد هذه الروايات كلها عن السرى الكذاب وعن شعيب المجهول، وعن سيف الوضاع المتهم بالزندقة.

(١) مسند أحمد : ٨٤ وغیرها، ٤: ٢٨١ وغیرها، ٥: ٣٤٧ وغيرها، الجامع الصحيح (سنن الترمذى) : ٥: ٢٩٧، سنن ابن ماجة : ١: ٤٥، وغيرها كثير.

^٥ الترمذى)، ٢٩٧، سنن ابن ماجة: ٤٥، وغيرها كثیر.

^{٢)} لسان العرب ١٥: ٤٠٨ - ولی.

النصوص بهذه الكيفية وبهذه الصورة وبهذا الفهم الساذج السطحي، فما الفائدة من سرد النصوص التاريخية الكثيرة له؟

وأحب أن أؤكّد بأنّ علي بن أبي طالب عليهما السلام في غنى عن كثيرون من النصوص، بمعنى أننا لا نريد أن نزكي علي بن أبي طالب لأنّه قد وردت بحقه الفضيلة الكاذبة أو الحديث الكاذبي، بل إننا نريد أن نستقرئه بعيداً عن كل النصوص وعانياً عن الفضائل التي قيلت بحقه وهو أهل لها، فنأخذه مجرداً عن كل تلك الأقوال التي قيلت فيه والفضائل التي وردت بحقه، ثم لنرى هل هو يستحق أن يكون في المنزلة التي وضع فيها أو لا يستحق أن يكون. وهذا معناه أن كل تلك الفضائل والأحاديث التي وردت بحقه هي إنما وردت لأنّه أهل لأن ترد فيه، لا أنه وضع في هذه المكانة لأن هذه الأحاديث قد وردت فيه.

وهذا يدفع بنا إلى أن نأخذ علي بن أبي طالب كياناً مسلماً مجرداً عن الخصوصيات الأخرى كافة، ثم نقارنه بالكيانات الإسلامية الأخرى مجردة أيضاً عن تلك الخصائص، ثم لنرى من هو الأفضل منهم ومن هو الأحق بأمر هذه الأمة. وبعد هذا التجريد هل يمكن أن يقال: إننا يمكن أن نجد نذاماً للعلي عليه السلام؟ طبعاً لا. وكما قلنا فإن هذا الأمر مأخوذه مجرداً عن كل الخصوصيات بغض النظر عن كونني شيعياً وكونك شيعياً وما إلى ذلك^(١). وعليه فإننا لا يمكن أن نجد له من يمكن أن يقارعه علماء أو حلماء أو شجاعاء أو كرماء أو قدماً في الإسلام وأصالحة وكفاحاً عن المسلمين، إننا لن نحتاج إلى النصوص بهذا المجال في شيء لأن النصوص لا يمكن أن

(١) ولذا فقد كتب فيه حتى أهل السنة، بل وحتى المسيحيون كما فعل جورج جرداد، والشاعر بولس سلامة صاحب (ملحمة الفدير).

تزيد عليهما شيئاً مادام هو في تلك المكانة التي أهلته لها خصائصه الكريمة وصفاته الشريفة:

غالي يسار واستخف يمين
بك يالكهنك لا يكاد يبين
تجفى وتعبد والضفانن تفتلى
والدهر يقسوا تارة ويلين
ولأن لم يرق لها تلحين
للناس لا صور ولا تلوين
فرأيت أن أرويك محضر رواية
فلأنت أروع إذ تكون مجرداً
ولقد يضيق الشكل عن مضمونه
ويضيق داخل شكله المضمون
إنني أتيتك أجيتك وأبتفى
واغض عن طرفي أمام شوامخ
وأراك أكبر من حديث خلافة
بساتامها مروان أو هارون
عصفت بك الشورى أو التعبيين
لك بالنفوس إماماً ففيهون لو
فدع المعاول تزبنز قساوة وضراء
وضراوة إن البناء متين

إذن فدراسة أمير المؤمنين عليه السلام دراسة موضوعية بعيدة حتى عن النصوص توصل الدارس والباحث إلى أنه ملاك الفضائل والصفات الحميدة بما له من سابقة في الإسلام، وكناح عنه وعن دين السماء وعن رسول السماء. ومع كل هذا فإن من يُرد نصوصاً في هذا الخصوص فإن بين أيدينا العشرات من المصادر والكم الهائل من النصوص التي تتناول صفات هذا الرجل وفضائله الحميدة، يروي الدارقطني والسمعاني في (فضائل الصحابة) عن عائشة أنها قالت: والله لقد وضعه رسول الله صلوات الله عليه وسلم إلى جانبه وأخذ يدنيه إليه.

وهذه الخصيصة لم تكن لتفارق علياً في منزلته من رسول الله عليه السلام؛ ولذا فإنه حتى في اللحظات الأخيرة من الحياة الشريفة للرسول الأكرم عليه السلام نجد أمير المؤمنين عليه يفارقه، ونجد أنه يصف تلك اللحظات بقوله: «ولقد وسدتك في ملحوظة قبرك، وفاضت روحك بين صدري ونحري»^(١).

وهذا النص الشريف وغيره يثبت أن علي بن أبي طالب عليه لم يكن بالذى يفارق رسول الله عليه السلام ليلاً ولا نهاراً.

والنصوص التي وردت في هذا الشخص هي نصوص صريحة لا تحتمل معنى آخر غير هذا الذي يتบรร إلى ذهن قارئها منه، فهل من المعقول أن يعتبر توكيلا الخليفة الأول بالصلاوة بال المسلمين نيابة عن الرسول مدركاً وحججاً ودليلًا على صحة إمامته، ولا يمكن أن تعتبر كل هذه الفضائل والروايات والأفعال التي قالها وقام بها الرسول الأكرم عليه دليلاً على إمامية أمير المؤمنين عليه؟ ومن ذلك قضية نزول براءة حيث أخذ النبي عليه السلام الآيات ودفعها إلى أبي بكر وأمره بأن يتلوها على المشركين، فقد أمر رسول الله عليه السلام أبو بكر بأن يبلغها، ثم أتبعه أمير المؤمنين عليه، فلما كان بعض الطريق هبط جبرائيل عليه فقال: «يا محمد لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك». فأرسل أمير المؤمنين عليه خلفه، وأركبه العصباء (ناقة رسول الله عليه)، فرجع أبو بكر وقال: يا رسول الله، أشيء نزل من السماء؟ قال عليه السلام: «نعم».

(١) الأمالى (الطوسي): ٦٠٢ / ١٤٤٤.

(٢) فاستخلفه عليه على المدينة، واستخلفه في فراشة ليلة الهجرة، وأنابه عنه في كثير من الأمور في السرايا وفي غيرها، مضافاً إلى ذلك جميع ما قال به حقه من فضائل.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه دعا أبو بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني صلوات الله عليه وآله وسلامه فقال: أدرك أبو بكر، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاقرأه على أهل مكة. فلحقه فأخذت الكتاب منه، ورجعت إلى أبي بكر فقال: يا رسول الله نزل في شيء؟ قال صلوات الله عليه وآله وسلامه: لا ولكن جبرائيل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك»^(١).

وفعلاً أخذ علي بن أبي طالب عليه السلام الآيات من صدر سورة براءة وتلاها على المشركين

وهناك الكثير الكثير من الفضائل التي تُروى بحق علي بن أبي طالب عليه السلام لا يتسع المقام لذكرها ويضيق الوقت عن أن يسعها. وكل هذا لا يبعد البعض دليلاً على صحة إمامته مع أنهم يعدون صلاة ركعات بالناس دليلاً ومسوغًا للخلافة والإمامية. إن هذا فهو مورد العجب وعين العجب، فهذه الركعات اعتبرت نصاً على إمامية أبي بكر وكل تلك الصفات والوصايا والأفعال لا يمكن أن تعتبر نصاً مع أنها تزخر بها كتب المذاهب الإسلامية الأخرى!

خلاصة الموضوع

إذن فالنبي الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلامه لم يخرج من الدنيا حتى وضع الأمر في نصابه وحتى أوصى إلى من يلي الأمر من بعده وعيّن خليفته وأكمل رسالته السماء وأتم نعمة الدين على المسلمين، وهكذا خرج رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه من الدنيا إلى لقاء ربه جلّ وعلا وهو مثلوج المزاد بما أتم من نعمة هذا الدين

(١) سنن الدارمي ٢ : ٦٧ - ٦٦ ، السنن الكبرى (النسائي) ٥ : ٢٤٧ - ٢٤٨ ، مناقب أهل البيت عليهم السلام (الشيرازاني) : ٤٦٠ - ٤٦١ .

وأكمل رسالة السماء. أما أن المسلمين لم يأخذوا بهذا النص ولم يعملا به فهذا أمر يرجع إليهم ويرجع إلى أهوائهم التي ساقتهم في هذا المجال.

وما إن توفي الرسول الأكرم عليه السلام حتى بات أهل هذا البيت كما يعبر عنهم الإمام الصادق عليهما السلام بقوله: «لما قبض رسول الله عليه السلام بات آل محمد عليهما السلام بأطول ليلة، حتى ظنوا أن لا سماء تظلّهم، ولا أرض تقْلُمُهم؛ لأن رسول الله عليه السلام وتر الأقربين والأبعدين في الله. فبینا هم كذلك إذ أتاهم آتٍ لا يروننه ويسمعون كلامه، فقال: السلام عليكم أهل البيت، ورحمة الله وبركاته؛ إن في الله عزاء من كل مصيبة، ونجاة من كل هلاكة، ودركاً لما ثات. (كُلُّ نَفْسٍ ذَايَقَةٌ أَنْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُؤْفَقُنَّ أَجْوَزَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُحِبَّعَ عَنِ التَّأْرِيفِ وَأَذْجَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْخِيَانَةُ إِلَّا مَنَعَ الْغَرُورِ)»^(١). إن الله اختاركم وفضلكم وطهركم، وجعلكم أهل بيته، واستودعكم علمه، وأورثكم كتابه، وجعلكم تابوت علمه وعصا عزه، وضرب لكم مثلاً من نوره، وعصمكم من الزلل وأمنكم من الفتنة...»^(٢).

وهنا أحب أن أؤكد على أن المجتمع المكي لم يكن يعامل النبي الأكرم عليه السلام على أساس من النبوة.. على أنه رسول السماء، وعلى أنه حامل دين الله جل جلاله وعلا وعلى أنه منفذ الوحي في الأرض. والدليل على هذا أن فتح مكة كان في السنة العاشرة للهجرة حيث دخل الرسول الأكرم عليه السلام مكة فاتحاً، وأمر العباس وقال له: «مرأبا سفيان فليقف ولينظر إلى كتاب المسلمين حينما تمر عليه». وفعلاً بعد أن مررت عليه الكتاب التفت أبو سفيان إلى العباس وقال له: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

(١) الكافي ١ : ٤٤٤ - ٤٤٦ .

(٢) آل عمران: ١٨٥ .

فقال له العباس عليه السلام: ويلك إنها النبوة وليس الملك ^(١).
 أي أن هذا الرجل لم يعرف النبوة ولم يؤمن بالله طرفة عين أبداً، لأنه لم يدخل الإسلام إلا خوفاً من القتل، والأقرب لحملة الرسول عليه السلام إلى الرفيق الأعلى بفترة قليلة. وعليه فمثل هذا لا يمكن أن يؤمن بالله إيماناً حقيقياً، وبالتالي فهو لا ينظر إلى الرسول عليه السلام على أنه نبي بل على أنه ملك استطاع أن يحكم الناس بقوته. فمثل هذا المجتمع الذي خلفه النبي عليه السلام وراءه كان ينظر إلى علي على أنه هو الذي وتر الأبعد والأقرب وليس النبي؛ لأنهم يرون أن علياً هو الذي فعل هذا؛ ولهذا فإنهم يحملون علياً المسئولية الجنائية - إن صحي التعبير - عن هؤلاء الذين قتلهم في معارك المسلمين ضد الكفر والشرك والنفاق.

وهؤلاء لم يكتفوا بهذا القدر بل إنهم وسعوا دائرة المسئولية الجنائية من شخص علي عليه السلام إلى كل أبناء البيت النبوي المطهر، فما هي إلا هنئه حتى أصبح بيت النبي عليه السلام عرضة للهجوم وما هو الأمر إلا بين عشية وضحاها حتى تنتهي حرمة البيت النبوي. يقول عبد الفتاح في أحد فصوله: وهل وضع على الألسن عقال أن تتكلم عن نار وضعت على بيت فاطمة؟ وهذا ما أكدته الشاعر حافظ إبراهيم بقوله:

وقولة لعلي قالها عمر أكرم بسامعها أنعم بملقيه
 حزقت دارك لا أبقي عليك بها مالم تبایع وبنت المصطفى فيها ^(٢)

وإذا بهذا البيت الذي كان يقف عليه النبي عليه السلام كل يوم عند صلاة

(١) مجمع الزوائد ٦ : ١٦٤ ، ١٧٠ ، المعجم الصغير ٢ ، ٧٥ ، المعجم الكبير ٧ : ٢٣ ، ٧٦ ، ٤٣٥ .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم ١ : ٧٥ .

الفجر وينادي: «الصلة يا أهل البيت، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِلِذْهَبِ عَنْكُمُ الرَّجُسُ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيُطْهِرُكُمْ تَطْهِيرًا»^(١)... ». ويستمر على هذا ستة أشهر لا يبارحهم حتى يخرجوا إلى الصلاة، وإذا به بين عشية وضحاها يصبح عرضة لنيران القوم، فقد التهمت ألسنتها تلك الدار التي عاش فيها الرسول الأكرم عليه السلام: «باب فاطمة بابي وبيتها بيتي، فمن هتكه فقد هتك حجاب الله»^(٢)، تضطرم فيها النار ويدخل القوم عنوة إلى بيت الرسول الأكرم عليه السلام، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كانت جدتي الزهراء في معاصمتها».

وهي صورة طبيعية ينفي فيها الإمام كل المبالغات، ويصور هؤلاء القوم حينما عاجلواها في الدخول عليها إلى دارها، وكان أمير المؤمنين داخل الدار يريد القرآن يريده أن يتم نسخه، وكانت الزهراء كما نقل الإمام الصادق عليه السلام في معاصمتها، أي في ثيابها ولم يكن عليها رداء فاستترت من القوم وراء الباب؛ لأنهم عاجلواها بالدخول ولم تكن تستطيع أن تجد شيئاً لتضعه عليها، وحينما تدافع الجمع دخولاً إلى الدار وهي خلف الباب تسبب ذلك الجمع بالضغط على الباب فكان أن سقط جنينها وسقطت على الأرض مفمن عليها، وعندما خرج أمير المؤمنين عليه السلام فرأى الجمع الغفير العاشر الذي توجه به إلى المسجد. وفي هذه الأثناء فتحت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام عينيها فوجدت نفسها في فراشها وأبنتها زينب

(١) الأحزاب: ٣٢.

(٢) مسند أحمد: ٣، ٢٥٩، ٢٨٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذى): ٥: ٣١، شواهد التنزيل: ٢: ١٩، سير أعلام النبلاء: ٢: ١٣٤، ١٣٢، تهذيب الكمال: ٢٥: ٢٥٠.

(٣) بحار الأنوار: ٢٢: ٤٧٧.

قربها، فو الله ما قالت: كسر ضلعي ، ولا قالت: سقط جنبي ، ولا قالت: الألم الذي يخالجها بل إنها أول ما فتحت عينيها سالت ابنتها زينب عليها السلام قائلةً: «بنية أين أبوك؟».

وهذا أول سؤال ينطق به لسانها بعد صحوها من إغمائتها. قالت: أماه لقد أخرج من الدار، فخرجت مولاتنا الزهراء عليها السلام تقوم ويقعدها الألم وتمشي قليلاً وتجلس لستريح وكانت قد أخذت بيد الحسن والحسين بعد أن وضعت شيئاً على رأسها والدم ينزف منها وهي تنادي: «خلوا عن ابن عمي والآ لا أكشف للدعاء رأسي». فالتفت الناس فإذا بهم يرون فاطمة الزهراء عليها السلام فراح يبحث بعضهم بعضاً على الرجوع عن هذا الجمع الذي جاء لأجل علي ، فالتفت الخليفة الثاني إلى غلامه وقال له: ويحك أرجعواها، أما ترى كيف أنها أرجعت الناس عنا؟ فرجع إليها فنفذه وجعل يحملها بسوطه الذي راح يتلوى على كتفيها، فأدارت وجهها إلى قبر أبيها:

بويه الودع عمداً ضربني ومن سطره لکاع ذبني
من الناس ما واحد حشمني

قالت: «والله لا أرجع». فرجع إليها خالد وجعل يضررها بمقبض سيفه فأثبت أن ترجع وتابت أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد وصاح الناس بالرجلين: خلياه لها. فأطلقا عليها عليها السلام، فأتقبل إليها وقال لها: «كيف أنت؟». فقالت له: «كيف أنت يا بن عم رسول الله؟ فإني إن كنت بخير كنت بخير معك وإن كنت بشرٍ كنت بشرٍ معك». وقبل ذلك بادر إليها سلمان المحمدي عليه السلام قائلًا: يا ابنة رسول الله لقد بعث الله أباك رحمةً للعالمين فلا

تكوني سبباً في هلاك هذه الأمة. فقالت: «يا عم أخذوا حقنا فصبرت، وكسروا ضلعي فصبرت، ثم يريدون أن يتمموا أولادي! فوالله لا أرجع حتى أرى علي بن أبي طالب معي».

ولكنها اضطرت للتراجع بعد ذلك رضوخاً لطلب أمير المؤمنين عليه السلام دون أن تتمكن من نسيان لوعتها، وبقيت على هذه الحال حتى وافت ربها في جنان الخلد مع أبيها عليهما السلام راضية مرضية:

بابي التي ماتت وما دفنت وبين ضلوعها	مسانت مكارها السنينة آثار ضرب الأصحابية ^(١)
--	---

← ١٥٦ →

(١) الأصحابية: سياط تنسب إلى ذي أصبع، ملك من ملوك حمير. لسان العرب ٢: ٥٠٧ - صبح، ٣: ٤٩٢ - رد.

{١٦}

أمير الزاهدين

عن نوف البكالي قال: رأيت أمير المؤمنين ذات ليلة وقد خرج من فراشه فنظر في النجوم، فقال لي يا نوف : أرأقد أنت أم رامق ؟ فقلت: بل رامق يا أمير المؤمنين. فأخذ أمير المؤمنين بيدي وقال : «يا نوف ، طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين بالآخرة ، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً ، وترابها فراشاً ، وما هما طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً ، ثم قرضاوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح »^(١).

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: الحياة الدنيا في نظر المشرع الإسلامي
لعل أول تساؤل يرد هنا هو أن علي بن أبي طالب لما كان تلميذ الإسلام ، وأول من استوعب أحكامه ومفاهيمه استيعاباً كاماً بكل أبعادها ومستوياتها ، ولما كانت الدنيا من جملة اهتمامات الإسلام ، بل إن

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٤.

درجة الاهتمام بها عين درجة الاهتمام بالأخرة^(١)، فلذا كان من المفروض أن تحظى بنوع اهتمام عنده^(٢)، مع أن الملاحظ غير هذا؛ فهو عليه السلام لم يكن للدنيا شأن، ولم تأخذ منه مأخذًا أو يعزّها أي اهتمام^(٣)، فلم ذلك ياترى؟

(١) قال تعالى: «وَانْتَهُ فِيْنَا آتَانَا اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ وَلَا تَشَنَّ نَصْيَبَكَ مِنَ الدُّنْيَا» (القصص: ٧٧). وكما في قول الإمام الكاظم عليه السلام: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» الفقيه: ٣، ١٥٦، ونسب للرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه بلفظ: «احرث لدنياك ...». النهاية في غريب الحديث: ١: ٣٤٦ - حرف.

(٢) فهو عليه السلام القائل: «لولا حضور العاضر وقيام العجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كثرة ظالم ولا سبب مظلوم لأنفitem دنياكم هذه أزهد عندي من عضة عنز». نهج البلاغة / الخطبة: ٣ المعروفة بالشقشقة.
وقال عليه السلام: «من زهد في الدنيا استهان بالمصيبة، ومن ارتقى الموت سارع إلى الخيرات». نهج البلاغة / الحكمة: ٣١.

ورأى عليه إزار خلق مرقوم فقيل له في ذلك، فقال: «يخشع له القلب، وتذلل به النفس، ويقتدي به المؤمنون». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٣.
وقال عليه السلام: «إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان، وسيبيان مختلفان، فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعادها. وهما بمنزلة المشرق والمغرب وما بينهما، كلما قرب من واحد بعد من الآخر، وهما بعد ضررتان». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٤.

وقال عليه السلام: «مثل الدنيا كمثل الحياة؛ لين مسها، والسم الناقع في جوفها، يهوي إليها الفرّ الجاهل، ويحذرها ذو اللب العاقل». نهج البلاغة / الحكمة: ١١٩.

وقال عليه السلام من ضمن ما قال وقد سمع رجلاً يدّمّ الدنيا: «من ذا يذمّها وقد آذنت بيبيها، ونادت بفرارها، ونعت نفسها وأهلها فمثلت لهم بيلانها البلاء، وشوّقتهم بسرورها إلى السرور، وراحت بعافية وايتكرت بتجيئه ترغيباً وترهيباً، وتخويفاً وتحذيراً، فذمّها رجال غدة الندامة، وحمدّها آخرون يوم القيمة، ذكرّتهم الدنيا فتذكّروا، وحدّتهم فصدقوا، ووعظّهم فاتعظوا!». نهج البلاغة / الحكمة: ١٣١.

وقال عليه السلام: «الدنيا دار ممز إلى دار مقر، والناس فيها رجال: رجل باع فيها نفسه فأوّيقها، ورجل ابتاع نفسه فأعنته». نهج البلاغة / الحكمة: ١٢٣.

وقال عليه السلام: «إنما المرء في الدنيا غرض تتصل فيه المنايا، ونهب تبادره المصائب. ومع كلّ

إن ديننا الإسلامي في تعاليمه وأحكامه لم يفرق بين جانب وآخر، ولم يفرّط في جانب لحساب آخر، فهي (تعاليمه) واحدة؛ سواء كانت فيما يخص العقيدة أو فيما يخص الفقه أو فيما يخص الأخلاق. فقد وضع أخلاقيات تنظم الدنيا. وهناك عقائد وفقه لها علاقة بالدنيا ويختصان بها؛ فهناك فقه سياسي وفقه أخلاقي وفقه اقتصادي وآخر اجتماعي، وكل هذه الأقسام للعناية بالدنيا والحياة وتنظيمهما. فالتشريع الإسلامي يعطي الدنيا اهتمامات واسعة جداً، ويخصص لها مساحة واسعة من أحكامه وقوانينه؛ بحيث إنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا كان له فيها حكم أو رأي، ولم يترك باباً يلجه إنسان أو حالة من الحالات يمكن أن يقع فيها أحد إلا وضع لها علاجاً مسبقاً؛ فهو يضع الحلول والأحكام لجميع المسائل والمشاكل مسبقاً، أي قبل البتاء بها؛ كي يجد المكلّف أحكاماً لكلّ ما يمكن أن يبتلي به، أو يقع فيه من ابتلاءات.

جريدة شرق، وفي كل أكلة غصص، ولا ينال العبد نعمة إلا بفارق أخرى، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفارق آخر من أجله. فتحن أعون المعنون، وأنفسنا نصب العتوف، فمن أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفا من شيء، شرفاً إلا أسرعا الكثرة في هدم ما بنيا، وتفرق ما جمعا؟». نهج البلاغة / الحكمة: ١٩١.
وقال عليه السلام: «من أصبح على الدنيا حزيناً فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً». نهج البلاغة / الحكمة: ٢٢٨.

وقال عليه السلام: «يا أيها الناس مناع الدنيا حطام موبي، فتجنّبوا مرعاه... حكم على مكثِّر بها بالفراق... ومن استمر الشفف بها ملأت ضمیره أشجاناً لهن رقص على سويداء قلبه، هم يشغلونه وهم يحزنه؛ كذلك حتى يؤخذ بكظمه فيلقى بالقضاء منقطعاً أبهراه، هيئناً على الله فناوه وعلى الإخوان إقاوه... إن قيل: أثرى قيل: أكدرى». نهج البلاغة / الحكمة: ٣٦٧.

المبحث الثاني: تعريف الزهد

إذا تقرر هذا فما معنى قول أمير المؤمنين (عليه السلام): «طوبى للزاهدين في الدنيا»؟ وهل أن لدينا تصوّراً مسبقاً عن الزهد؟ وما هو تعريف الزهد الذي يقصده أمير المؤمنين (عليه السلام)؟ هل إنه (عليه السلام) يقصد به ترك الدنيا والاستمتع بها ويملاها، وبما وضع الله تعالى فيها من مباح؟ فمعلوم أن الحياة فيها حاجات للطعام والشراب والسكنى والجنس، ويجب إشباع كل هذه الحاجات عند الإنسان بالطرق المشروعة طبعاً. فما معنى الزهد في الدنيا إذن؟ وهل الدنيا المأمور بالزهد فيها إلا هذه؟

إن الدعوة إلى الزهد في الدنيا دعوة قديمة، وقد وردت على ألسنة المصلحين والأولياء والأخلاقيين، فهناك نداء مستمراً إلى الزهد على مر تاريخ البشرية. أما أبعد هذا الزهد وتعريفه فيحتاجان إلى توضيح وبيان على ضوء قوله الإمام (عليه السلام): «طوبى للزاهدين في الدنيا»؛ ذلك أن الزهد الذي يخالف أفهام الناس لأول وهلة كما مرّ هو الابتعاد عن الناس واعتزالهم، وعدم التفاعل مع المجتمع من بعيد أو من قريب. وهو تصوّر مخاطر ومغلوط؛ لأن الإسلام لم يأت ليواجه الحياة بهذه السلبية والعدمية، بل إنه واجهها بكل مشاكلها وأبعادها بشكل إيجابي فاعل وكامل، وحشد لذلك العديد من النظريات، وهياً لكل بعد من أبعادها الأجزاء المناسبة لتطبيقها؛ مراعاة للمنهج السليم في الحياة ومشاكلها وتطبيق نظريات الحلول لها ولما يعترض الإنسان فيها.

الإسلام ينظم الحياة

الإسلام ونظام استصلاح الأرضي

ومكذا فقد وضع الإسلام النظم والقوانين التي تحكم العلاقات

الإنسانية، والتي تنظم الزراعة وأحكامها، وأحكام الأراضي واصلاحها واستصلاحها؛ فقَنْتُ توزيع الأراضي وتمليكها وجعلها وسيلة الإنتاج الأولى. فقد وضع أحكام امتلاك الأرضي بحيث انه قَنْتُ المقدار الذي يمكن للفرد أن يأخذ منهَا، والثمن الذي سيبذله إزاءها.

حالات امتلاك الأرض

هناك حالتان من حالات التمْلِك التي يمكن أن يستفيد منها الفرد حال مسألة استثمار الأرضي ، مما:

الأولى: الحالة الاعتيادية

وهي الحالة التي تكون فيها الأرضي الصالحة للزراعة واسعة متوفّرة، فلكل إنسان هنا أن يأخذ ما يستطيع إصلاحه وإعماره وزراعته بأي مساحة كانت. فلو أن شخصاً يستطيع استصلاح عشرين دونماً من الأرض أو أكثر بماله وما يتمكّن من توفيره من وسائل ومكائن وآلات لحراثة الأرض وزراعتها وحصاد منتوجها وبيعه، فإن له الحق في أن يتمْلِك كل تلك المساحة ويزرعها ليُفید منها ويستفيد.

الثانية: الحالة الاستثنائية

وهي الحالة التي تكون فيها مساحة الأرضي الصالحة للزراعة محدودة، ولا يمكن أن تغطّي حاجات من يريد، فيعطي ما يريد، أو يعطى بما يتناسب مع إمكاناته المادية. وهنا لفقهائنا رأي هو أن الإنسان يعطى من الأرض مقداراً يستطيع أن يعالجه ويصلحه بنفسه لا بمن يستأجرهم. فعليه هنا أن يأخذ أرضاً لا تزيد إمكانية إحيائها عن إمكانياته الشخصية؛ سواء كان ذلك الإحياء بيده أو باللة يملكتها، أما أن

يأخذ أرضاً أكبر من ذلك ثم يستأجر لها أناساً يحيونها - بحجة أنه يملك الإمكانيات المادية لذلك - فلا.

كما أن الإسلام يعطي الأرض من يحييها ويملكه إياها، أما إذا عطلها ولم يستثمرها فإن الإسلام يسحب ملكيتها لها ويقوم بمصادرتها ثم يعطيها لمن يزرعها ويستثمرها^(١).

قانون العمل في الإسلام

وكما أن الإسلام قنن الأرضي ووضع لها أحكاماً، فكذلك قنن العمل ووضع له ضوابطه وأحكامه وضمن حقوق العامل المستثمر. وقانون العمل في الإسلام لا يضاهيه قانون أبداً، فما فيه من ضوابط وقوانين وضمانات لكل أطراف العمل يجعله صاحب ريادة بين القوانين التي تحكم العمل والمنظمة له. ونظرته لعوامل الإنتاج - الإنسان والمعلم والخامة المستعملة في الصناعة، كما يطلق عليها ذلك علم الاقتصاد الحديث - تختلف عن تنظير كل قانون آخر لها. والفقهاء المسلمين ذكروا لهذا الجانب قوانينه وتشريعاته الخاصة به، فرسموا بها حقوق العامل وحقوق صاحب العمل؛ عبر حساب كلفة الإنتاج وكيفية توزيع الفائض عنها. وهذا بطبيعة الحال يدخل في مجال الفقه الاقتصادي الذي أخذ صورته الكاملة في الإسلام.

ونحن نأمل من الكتاب المسلمين أن يتناولوا هذا الموضوع بشكل موسّع، وأن يوفّوه حقّه من البحث والتنقيب؛ فهو موضوع ما زال في

(١) قال رسول الله ﷺ: «من أحيا أرضاً مواناً فهي له». تهذيب الأحكام ٧ / ١٥٢، ٦٧٣.
فتح الباري ٥: ١٤، وقال أمير المؤمنين ع: «من أحيا أرضاً فهي له». تهذيب الأحكام ٤: ٤٠٤ / ١٤٥.

بداياته. وقد تناولت موضوع العمالقة وعالجته برسالتها التي تقدّمت بها في جامعة القاهرة، وكان موضوعها حول العمالقة بالذات، أي بخصوص فائض القيمة.

نظريّة فائض القيمة

لقد تعبدت كثيراً وعانيت ما عانيت في سبيل استخلاص هذه النظرية من مصادرها؛ ذلك أنني لاحظت أن بعض الكتاب حينما ينقلون نظرية لأحد العلماء أو المنظرين فإنهم لا ينقلونها عنده مباشرة؛ بل إنهم ينقلونها عن غيره، وهذا عن غيره أيضاً دون الرجوع إلى مطانها الأصلية أو مؤلفات صاحبها. وحينما ترجع إلى تلك المطان أو المصادر الأصلية لهذه النظرية فإنك تجدها مغایرة تماماً لما ينقل بخصوصها. كما أن هناك من ينقل نظرية وهو لا يعيشها، وهذا في الواقع لا يُعد عملاً علمياً. فمن لم يكن هذا عمله فإنه سيجهد نفسه، وسوف لن يصل إلى نتيجة ما خصوصاً في مجال نظرية فائض القيمة؛ لأنها معقدة جداً.

والذي يريد أن يدرس هذه النظرية دراسة واعية فإنه ينبغي عليه أن يقوم بدراسة المصطلحات الماركسية؛ لأنها تدخل في صميمها. وإن شاء الله تعالى سنتطرق لها بشكل مفصل، وسنعرّف على ملامحها وطبعتها في بعض محاضراتنا القادمة.

فالإسلام إذن واجه صاحب العمل وواجه العامل، وأعطى كلّاً منها ضمانات وحقوقاً كاملة. وعليه فإن النظرية العمالية قد عُولجت بشكل كامل في التشريع الإسلامي.

الإسلام ينظم العلاقات الاجتماعية الأسرية

ومن جهة أخرى فإن الإسلام قام بتنظيم العلاقات الأسرية والاجتماعية كافة، ووضع ضوابط تحكم علاقة الإنسان بمجتمعه وبنفسه وبأسرته. وهو يخرج مع الإنسان في أول خطوة من خطواته وهو يحتاز بباب بيته، ويدلف معه إلى الشارع، فهو يقول له: «إِذَا حَيَّيْتُمْ بِتَحْيَيْةٍ فَحَيُّوا بِأَخْسَنِ مِثْلِهِ أَوْ رِدْوَهَا»^(١). ثم إنه يأمره بأن يحمل الخير لغيره كما يحمله لنفسه، بل وأن يحمل الخير للدنيا لا الشر، ويأمره بأن يكون متواضعاً ومتخلقاً بأخلاق الأنبياء عليهم السلام ووراثتهم، وألا يصغر خدّه للناس، وألا يمشي في الأرض مرحًا، ثم يؤكد ذلك بقوله الكريم: «إِنَّمَا تُخْرِقُ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغُ الْجَنَّالَ طُولًا»^(٢).

ويدخل مع الإنسان إلى الأسواق والشركات، ويقول له: «وَلَا تَنْخُسُوا النّاسَ أَشْيَاءَهُمْ»^(٣).

وبهذا فالإسلام يجعل الإنسان دائماً في مواجهة الحدث الذي هو ذاهب إليه، ولن يترك له منطقة فارغة دون أن يملأها بما يناسبها من القوانين والأحكام. فالإسلام إذن لا يكتفي بتنظيم الدولة فقط، بل إنه ينظم البيت والسوق، والنفس والذوات، وعلاقة الإنسان بزوجته وأخيه، وأسرته ومجتمعه، ويؤطرها بقواعدها المناسبة، ويدفع الإنسان للعمل الدؤوب لتحصيل هذا.

يروي المفضل بن عمر أنه لقي الإمام الصادق عليه السلام في فصل الصيف،

(١) الإسراء: ٣٧.

(٢) النساء: ٨٦.

(٣) الأعراف: ٨٥.

وبينه مسحة وهو يرشح عرقاً، فسأله قائلاً: إلى أين يا سيد؟ فقال له: «عندِي بستان، وأردت أن أسقيه وأصلحه». فقال له: إذا متْ فماذا تقول لله؟ فأجابه عليه السلام بأنه سيقول حينها بأنه قد خرج إلى حيث وجهه وأمره، أي من حيث يكتسب قوته، فقد قال تعالى: «فَانشُوا فِي مَنَاجِبِهِ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ»^(١)؛ لأن الله يحب العبد المحترف^(٢)، وما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كذا يده^(٣)، فسكت المفضل. فهو عليه السلام يريد أن يقول له: إذا لم تكن تفقه المسائل، فلا تنفيقه على غيرك؛ فإن الله قد أمرني بأن أعمل وأعول عيالي، فأنا ذاذهب لأمر الله، بل أنا في حدود طاعة الله تعالى وفي نطاق أوامره.

المبحث الثالث: الزهد شعبتان

إذن كيف يكون توجيه كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى للزاهدين»؟ إن توجيه هذا الحديث الشريف يمكن أن يتم بالقول: إن الزهد له شعبتان في المنظور السليم والتصور الصحيح اللذين رسمتهما لنا الروايات الشريفة والسنة المطهرة:

الشعبة الأولى: عدم إهلاك النفس حسرات على الدنيا

فالآلية الكريمة تقول: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ»^(٤) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكتم^(٥). وهي هنا تصور حال الإنسان حينما يتوقع من عمل ما،

(١) الملك: ١٥.

(٢) الخصال: ٦٢١، الجامع لأحكام القرآن: ٤: ١٨٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢: ٥٧٠.

(٤) العديد: ٢٢ - ٢٣. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الزهد كله بين كلمتين من القرآن، قال الله

يقوم به أو مشروع اقتصادي يدخله أن يكون مردوده المادي ونفعه المالي كثرين، ثم يأتيه منها أقل مما توقع بكثير، وتكون النتيجة أن يترك نفسه تأكل تحت وطأة الحزن، فينتابها الألم والحسرة على ما فات من متع زائل. فالإسلام يقول لهذا: لا تهلك نفسك حسرات على الدنيا. وهنا يتدخل القرآن الكريم ليقول له: «إِذْنِلَا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ». فالإنسان باستسلامه لل Yas وحزنه على الدنيا، ولحرساته عليها لن يستطيع أن يحصل على شيء من الدنيا ثانية.

فالإسلام يوجهنا ويحدّرنا من أن ننظر إلى ما عند غيرنا نظرة غير مشروعة، ويضع لجاماً لتصرّفانا إزاء هذا الأمر؛ ليهدّينا ويحدّ من تطرّفنا: «وَلَا تَعْدُنَّ عَيْنَيْكُمْ إِلَىٰ مَا مَتَّفَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ»^(١). وهو يطالعنا بأن نكتفي بما عندنا مما أتانا الله تعالى، ولا نطمح إلى ما وراء ذلك مع بذل الجهد لأجله.

الشعبة الثانية: اجترار المال في الحلال وصرفه في الحلال

وهذا أيضاً تصور سليم للزهد رسمته لنا السنة المشرفة، فالإنسان يجب أن يعمد إلى الطرق المشروعة في الكسب فينتهجهما، وبعد أن يحصل على المال الحلال يضعه في قناة نظيفة مشروعة توصله إلى هدفه الصحيح من موارد الصرف التي يرتضيها الله لنا. فهذا التصرّف في الكسب والعطاء عبارة عن تفاعل مع المجتمع بالมورد، كما أنه لأجله، فإن كان هذا التفاعل غير سليم ومنحرفاً فسوف ينعكس سلباً على

سبحانه: «إِذْنِلَا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ». ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بظرفه». نهج البلاغة / ٤٢٩ .
 (١) طه: ١٣١.

المجتمع.

والانحراف هنا قد يتمثل بسرقة حق الغير، أو غش الغير في المعاملة وغيرها، أو خديعه لأجل الاستيلاء على ما يملك، وهي نوع من السرقة أيضاً ووجه من وجوهها. وقد يتمثل الانحراف باحتكار السلع والبضائع والأطعمة في جميع المحتكر الآخرين، وقد يتمثل الانحراف أيضاً بالصرف غير المشروع، كإنفاق المال على موارد الحرام من شرب خمر وانحراف في مجالس اللهو والفجور وغير ذلك. ومما يروى في هذا المجال أن أبو حنيفة صاحب المذهب الإسلامي المعروف كان له جار من الكتائين مغرم بالشراب، وكان يغنى على شرابه بقول العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا لي يوم كريهة وسداد ثغر

قال فأخذه العسس ليلة وحبسوه، فقد أبو حنيفة صوته واستوحش له، فقال لأهله: ما فعل جارنا الكتائ؟ قالوا: أخذه العسس، وهو في الحبس. فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى الأمير عيسى بن موسى فاستأذن عليه، فأذن له، فلما دخل عليه أقبل عليه عيسى بن موسى وسأله عما جاء بسببه، فقال: أصلاح الله للأمير، إن لي جاراً من الكتائين أخذه عسس الأمير ليلة كذا، فوقع في حبسه. فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من في الحبس إكرااماً له، فأقبل الكتائ على أبي حنيفة يتشكر له، فلما رأه أبو حنيفة قال له: هل أضعناك يا فتى؟ يعرض له بشعره الذي ينشده، قال: لا والله^(١).

فمعنى الانحراف في الصرف: انحراف المجتمع بالنتيجة، والأفان

(١) المستطرف في كل فن مستطرف ٢: ٣٢٠ - ٣٢١.

شارب الخمرة إنما يشرب ما يُنفِّد عقله ويضره بعد أن كان قد اشتراه بما تعب من أجله وعرق لكتبه في حرّ الصيف أو في برد الشتاء، فها هو يصرفها في مورد ملوث. وربما يصرفها كذلك في الاعتداء على أعراض الناس الذي هو أبرز مصاديق الانحراف في المجتمع.

فالزهد إذن على ضوء هذا التصور الذي نحن بصدده هو اكتساب المال من الحلال وصرفه في الحلال، وهذا هو معنى الزهد في أسلم مفاهيمه، لا أنه ترك لذائذ الحياة؛ لأن هذا مفهوم سلبي للزهد، ويتعارض مع المفهوم الإسلامي له. سئل الإمام الصادق <عليه السلام> عن الزهد فأجاب السائل بأن الله عز وجل خلق النعم فإن لم يتمتع بها الإنسان، فمن يتمتع بها إذن؟ على أي حال فإن الله خلق الأرض وسخرها لنا بأجمعها، بما فيها من بحار ومحيطات، وما أودع داخلها من حلية ولباس وطعام ومعادن وزراعة وغيرها. فإذا كان الإنسان لا يتمتع بهذا كلّه فلمن يترك إذن؟ هل يترك للحيوان يتمتع به وحده؟ طبعاً لا؛ فإن لبسك من حلال وأكلك من حلال وتصرفك من حلال لا ينافي الزهد أبداً، فكلّ ما شئت والبس ما شئت لكن لا تتعَدَ حدود الله أو حدود مراعاة المجتمع، وهي الضوابط الأخلاقية التي حثّنا الإسلام على لسان الرسول الأكرم <ص> وآله الطاهرين < عليهم السلام> على اتباعها^(١).

(١) قال رسول الله <ص>: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيئوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهَاكم عن أشياء فلا تنتهكونها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تتكلفوها». سنن الدارقطني ٤: ٢٩٨، وفي كنز العمال ١: ٢٨١ / ١٦٥٦ نحوه.

وقال أمير المؤمنين <عليه السلام>: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيئوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهَاكم عن أشياء فلا تنتهكونها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً، فلا تتكلفوها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٥.

أما القائل خلاف هذا، والداعي إلى نبذ الحياة الدنيا كلها، فهو شاذ لا علاقة له بالإسلام ولا للإسلام به؛ لأنَّه بعيد عن الإسلام وواقع الإسلام الذي يتعامل مع الحياة بشكل واقعي بعيد عن الطوباوية والمعالجات السلبية لمشاكلها، وبعيد عن الهروب من مشاكلها أو آفاتها. كما أنَّ هذا الداعي يصور الإسلام بصورة غريبة عنه لا تمسّ حقيقته بشيء أبداً.. بصورة تنفر الناس منه وتبعدهم عنه.

وقد يسأل سائل فيقول: لكنَّ ألم يكن أهل البيت عليهما السلام كذلك؟ ألم يتمتعوا من لذائذ الدنيا وأكلوا الجشب ويلبسوا الخشن ويعيشوا عيشة الفقراء مع أنَّ الله تعالى سخر لهم الدنيا؟

والجواب: أنَّ هذا صحيح، لكنَّ وضع أهل البيت عليهما السلام يختلف عن غيره، ذلك أنَّهم عليهما السلام قمم ونجوم أهل الأرض وأمانهم ومقتداهم^(١) فهم يتأسون بأضعف الناس^(٢).

ورواه الصدوق عليه السلام وزاد عليه: ثم قال عليه السلام: «حلال بين، وحرام بين، وشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الإيمان فهو لما استبان أتركه. والمعاصي حمى الله عزوجل، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها». الفقيه ٤: ٥٢ / ١٩٣.

(١) قال الرسول عليه السلام: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون». انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد: ٣، ١٤ وغيرها، سنن الدارمي: ٤٣٢، المعجم الكبير: ٧٢ - ٢٢، نوادر الأصول (الحكيم الترمذى): ٦٣، ٦٦ / الأصل: ٦٦، ٦٣، بناية المودة: ١: ٧٧ / ٤ وغيرها وقال عليه السلام: «أبني مختلف فيكم التقليين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تستكتم بهما لتنضوا بعدى أبداً. ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض». المعجم الكبير: ٧٢ - ٢٢، نوادر الأصول (الحكيم الترمذى): ٦٣، ٦٦ / الأصل: ٦٦، ٦٣، بناية المودة: ١: ٧٧ / ٤، وانظر شواهد التنزيل: ١: ١٨٩، ١٩١.

(٢) فعن الرضا عليه السلام أنه قال لمحمد بن أبي نصر: «البس وتجمل؛ فإنَّ عليَّ بن الحسين عليهما السلام كان يلبس جبة الخز بخمسة درهم، ومطرف الخز بخمسين ديناراً، فيشتو فيه، فإذا خرج

دخل أمير المؤمنين عليه السلام على العلاء وقد بنى له داراً ولا يريد أن يدخلها، فأنبه الإمام عليه السلام على ذلك، وبين له أن الله أكرم من أن يأمره ببناء دار له، ثم يكره له أن يسكنها. ولما احتاج له العلاء بسيرته هو عليه السلام في هذا

الشأن باعده، فتصدق بثمنه». وتلا هذه الآية: **(قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ)**. تفسير العياشي ٢: ٣٤ / ١٩

ودخل سفيان الثوري وعليه ثياب الصوف على الصادق عليه السلام وكان عليه ثياب رفاق، فقال له: يا مولاي، إن جدك علينا عليه السلام كان يلبس من الشياطين ما خشن، فلم لا تقتندي به؟ فقال عليه السلام: «كان جدّي في زمان ضيق بعد، لم تستمع الدنيا على المسلمين كاساعتها في هذا الوقت، ونحن قوم إذا وسع الله علينا، وسعنا على أنفسنا؛ لأن الله إذا أنعم على عبده بنعمة، أحبّ أن يرى ها عليه. وإنما خلق الله الدنيا وما فيها من الملاذ للمؤمن، لا للكافر؛ لأنّه لا قدر له عنده. ولو كان علي عليه السلام في مثل هذا العصر، لما وسعه إلا أن يسلك مثل ما سلك أهله؛ لئلا يقال: إنه مُرءٌ، ولئلا يتمشّت بشيابه وأماكنه، مع أن علياً عليه السلام كان والياً، فلو أنه لبس مثل هذا؛ لا تهم المسلمين على أموالهم. فينبغي له أن يكون كواحد من فقراء المسلمين في العماش والرياش؛ حتى يسهل على الفقير فقره إذا نظر للوالى وما هو عليه، وأتّا أنا، فلست بوايل، ولو كنت والياً لاقتني به». الكافي ٦: ٤٤٢ / ٨.

ويؤيد قول الإمام الصادق عليه السلام هذا ما روى ابن عبد ربه من أنه أصابت الربيع بن زياد الحارثي نشابة في جبينه، فكانت تنتقض عليه في كل عام، فأثناء أمير المؤمنين عليه السلام عاندأ له، فقال له أخيه الربيع: يا أمير المؤمنين، لا أشكوك إلينك أخي عاصماً؟ قال: «وما به؟». قال: لبس العباء، وترك الملا، وغمّ أهله، وأحزن ولده. فقال عليه السلام: «عليّ عاصماً».

فأتي به، فعبس الإمام عليه السلام في وجهه وقال: «ويحك يا عاصم، أترى أن الله أباح لك اللذات، وهو يكره أخذك منها؟ أنت أهون على الله من ذلك. أوما سمعته يقول: **(وَمِنْ كُلِّ نَائِكُونَ لَخْمًا طَرِيًّا وَشَشَّرُجُونَ جَلْيَةَ تَلْبِسُوهَا)**؟ فاطر: ١٢؟ أما والله، إن ابتدال النعمة بالفعال، أحبّ إليه من ابتدالها بال مقابل. وقد سمعته تعالى يقول: **(وَأَشَاءَ بِسُعْدَةَ رَبِّكَ فَحَبَّثَ** الضحي: ١١، ويقول: **(قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِيَتَادُ وَأَطْبَاتَ مِنْ أَرْزَقِي)**؟». قال عاصم: فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن، وأكل الجشب؟ فقال عليه السلام: «إن الله افترض على أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بالقوام؛ لئلا يشنع بالفقره».

فما برح أمير المؤمنين عليه السلام، حتى لبس عاصم الملا، ونبذ العبا. العقد الفريد ٢: ٣٧٣ - ٣٧٤.

الباب أجابه بما معناه: أن حالك غير حالي؛ فلاني أريد أن أعيش أضعف الناس، وأن أشاركهم مستوىهم المعيشي؛ فلا أتميز عنهم؛ لأن هذه هي وظيفة القائد والراعي. ومن ناحية أخرى فأنا إن فعلت ذلك فربما يظن البعض أنني أسرقهم أموالهم، ولا أريد لأحد أن يقول: سلبني علي بن أبي طالب حقّي وتمتنع به في قصر وتركني أرزع في كوخ، بل أريد أن أشعره بأنني واياده في مستوى واحد.

وهذا قد وقع فعلاً، فبعد قدومه الكوفة أعد له الجندي قصر الأمارة وهيّوه، وطلبو منه أن ينزل به، فرفض ذلك وقال: «لا والله، إنه قصر البخاري، جنبيه». ثم اشتري له بواري وحصراً، وبنى له بيته من قصب يلامس رأسه إذا قام فيه، ذلك البيت الذي استحال - بعد لحوقه بـ بالرفيق الأعلى تبارك وتعالى - قمة شماء تناطح السماء عزة وسمواً ورفعه وطيب ذكره. وقد قارن أحد الأدباء المعاصرين بينها وبين قبة الخضراء التي كان يسكنها معاوية، والتي كلفته من بيت مال المسلمين ثمانية عشر بعيراً ذهباً وفضة، ثم بعد ذلك حولها إلى سجن. وقد كان معاوية يسكنها في الوقت نفسه الذي كان الخليفة الشرعي المنصوص عليه والمنتخب من الأمة أمير المؤمنين بـ يسكن تلك الخربة التي بناها من الباري والمحصر، يقول هذا الأديب:

يرتؤ طرفك وهو براك ارمذ
فتكتأ لولا خوف ربك شانها
من كل صوب شوقيا المُتوقد
ثم انسطوى كالحُلم ذات الموردة

قم وارمق النجف الأغرى بنظره
تلك العظام أعز ربك شانها
ابداً تباكيها الوفود يخثها
ناسعتها الدنيا ففرزت بوردها

وَسَفَتْ إِلَى الْأُخْرَى فَاصْبَحَ ذِكْرُهَا فِي الْخَالِدِينَ وَعَطَّفَ رَبُّهُ أَخْذَهُ^(١)

وأي سعي كان الناس يسعون إليه مع علمهم أنه لم يكن إلا قصباً وحصراً وبواري؟ كان عظماء الناس يسعون إليه على جفونهم فضلاً عن أرجلهم. وما أروع ما صوره عبد الباقي العمري في قصidته، وكان قداماً نحوه في سفينته في نهر الفرات، وفيها أنشد قصidته التي يقول فيها:

بَنَاهُ مِنْ بَنَاتِ الْمَاءِ لِلْكَوْفَةِ الْفَرَزاً صَبُوحَ سُرْتَ لِيَلًا فَسِبْحَانَ مِنْ أَسْرَى^(٢)

وبعد أن لامست قدماه الرمل الطاهر أنشد قائلاً مرتجلأً أبياتاً رائعة منها:

وَلَقَّا سَرِينَا لِلْسَّغْرَى عَشِينَةً لَمْنَ قَدْ ثُوِيْ فِيهِ احْتِرَامًا وَتَجْبِيلًا
وَبِطَنَاهُ بِأَخْفَافِ الْمَطَيِّ شَغَورَنَا فَأَوْسَعَتِ الْصَّحَراءَ لِثَمَّا وَتَقْبِيلًا

فالدنيا بطبيعة الحال بالنسبة لأمير المؤمنين عليه السلام ولأهل البيت عليهم السلام لا تعني شيئاً، وهم يريدون ألا يمتازوا عن غيرهم من ضعفة الناس. ثم إن القرآن الكريم يرفع عقيرته آناء الليل وأطراف النهار منادياً: «فَلَمَنْ حَرَّمَ زِينَةُ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْأَطْيَابَ مِنَ الرُّزْقِ»^(٣).

المبحث الرابع: في معنى الرغبة في الآخرة
ثم قال عليه السلام: «الراغبين في الآخرة»، وتجلى الرغبة في الآخرة بطاعة الله والرغبة فيما عنده وطلبه، وذلك بعلاقة الإنسان مع الناس والمجتمع.

(١) من قصيدة للشاعر السوري محمد مجدوب بعنوان (على قبر معاوية)، وقد مرّ قسم منها في ج ٢ ص ٣٤٤.

(٢) ديوان عبد الغفار الأخرس: ١٦٤ (تخيس قصيدة العمري).

(٣) الأعراف: ٣٢.

وهذه العلاقة يجب أن يحكمها الدين والشرع، وألا تكون تحت مقاييس وتوجيه الحاجة والمصالح الشخصية، بحيث إن عيادة المريض والقاء التحية وغيرها مما تصبح أموراً تقيدها تلك المصلحة فلا يعاد المريض إلا إذا كان من أصحاب الأموال والجاه، ولا تلقى التحية إلا على ذوي الشرف والغنى، ويترك الفقير دون مراعاة لتلك الأخلاقيات معه لا لشيء سوى أنه فقير معدم. وهذا الذي يوقف فعله على مثل هذه المقاييس الدنيوية النفعية لا يتنافي وجه الله حتماً؛ لأن وجه الله يؤتى من كل جهة ومع كل مورد، بغض النظر عن خصوصيات ذلك المورد.

فالذى ينشد وجه الله تعالى يرى في عيادة الفقير احساناً لمؤمن يستوجب عليه رضا الله، ويرى أن إلقاء التحية عليه مرتبة من مراتب الأخلاق والسمو الروحي، ويرى أن علاقته الطيبة مع الناس ووذه لهم وقضاء حوائج المح الحاج منهم والفقير هي من موجبات مغفرة الله ورضوانه. فمثل هذا ينمّ سعيه وعمله عن أنه للأخرة، وعن رغبته فيها.

المبحث الخامس: معنى اتخاذ القرآن شعراً

ثم قال عليه السلام: «الذين اتخذوا القرآن شعاراً»، ومعنى اتخاذ القرآن شعاراً: أن القرآن يلاصقهم كما يلاصق الشعار الجسم، وهو الشوب الذي يلاصق الجسم، فعنده العرب أنه شعار، والذي يكون فوقه دثار.

فالزاهدون هم الذين يريدون منهم ألا يفارقهم القرآن ولا يفارقونه بحال من الأحوال، وهو ملاصق لعقولهم وتفكيرهم كما يلاصق الشوب أجسامهم. وهذا الزاهد هو المسلم الحق في نظره (سلام الله عليه)، وهذا المسلم الحق هو الذي يكون كلامه من القرآن وفيه، وأدابه آداب

القرآن وخلقه خلق القرآن؛ فالقرآن مستودع وافٍ لكل هذه المفاهيم. وكم هو أمر جميل أن يفهم المسلم القرآن ويعرف أهدافه ومراده، وهذا طبعاً لا يتأتى إلا بالتواصل اليومي المستمر مع القرآن؛ فلابد للمسلم أن يقرأ كل يوم منه ما يتيسر ولو عشر آيات من أجل العطة والتأدب بآدابه والتبرّك به. ومن لم يستطع أن يقرأ فيما كانه أن يستمع لمن يقرؤه. وعلى المسلم ألا يكتفي بقراءة القرآن، بل أن يسأل عن معانيه وشروطه ومسائله وحكمه وأحكامه ومغازيه^(١)؛ كي يكون على مستوى المسلم الوعي المثقف بالثقافة والوعي الإسلاميين.

العرب والقرآن

وأحب أن ألفت نظرك إلى نقطة هامة هي أن العرب في الجزيرة كانت آذانهم تستذوق النغم الموسيقي في الكلام - أي أنهم كان عندهم حس منقّم - فكانوا إذا سمعوا الشعر طربوا له سيماما إذا نال إعجابهم ووقر في سمعهم إيقاعه، فهم ذواقون لفن الأدبي؛ وهذا هو الذي يجعل أحدهم يطرق وهو يسمع مقطوعة أدبية أو قصيدة شعر حتى ينتهي من شدهما منها. يروى أن أحد الشعراء لما أنسد هذا البيت:

ترجي أغنْ كان أبْرَة رُوفَة قلم أصاب من الدواة مدادها

سجد له الشعراء، فلما قيل لهم في ذلك قالوا: نحن نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن^(٢). فهم

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر ولا في عبادة ليس فيها تفكّر». الكافي ١: ٣٦ / ٣٦.

(٢) البيت لدى بن الرقّاع. أمالى المرتضى ٣: ٩٨، ٤: ٣٧ ولم يذكر موضع الشاهد، شرح

يقولون: كما أنكم تسجدون حينما تصلون إلى موضع السجود في آيات معلومة من القرآن الكريم فكذلك نحن نسجد حينما نسمع ما يستوجب السجود من الشعر؛ لعظمته ورفعته وروعته.

وهذا طبعاً ناشئ مما خلفه الإيقاع الموسيقي للبيت في مسامعهم، فهو الذي يجعلهم يحبون سماع الشعر ويطربون له.

وكذلك القرآن الكريم فإنه حينما نزل لم يبق للنصوص الأدبية شعراً ونثراً ذكر، ولم يسمع لها أثر؛ لأن القرآن الكريم بما فيه من معانٍ وإيقاع وفن أدبي رفيع رائع، وجوّ روحي قد ملك عليهم أسماعهم^(١). وقد خلق بتلك الروحية العالية التي كانت تغطي كل مساحاته وأبعاده من ذلك العربي الذي كان لا يعرف في ليله إلا السلب والنهب والقتل والشدة، خلق منه إنساناً مؤمناً عظوفاً شغوفاً يعمر ليله القرآنُ الكريم تلاوة وتفكراً وعملاً بمبادئه وأحكامه. وقد أصبح ينزل في كل واقعة عند حكم القرآن ولو كان عليه، بعد أن كانت أفقته تمنعه حتى من تقبيل أطفاله.

وهكذا يسمع إيقاع القرآن ليلاً من بيوت المسلمين وهو يأسر سامعه بما فيه من صور أدبية رائعة تشخص وتبيّن الكثير من الحقائق. وحينما يصغى إليه وهو يصف ما أعد الله تعالى للصالحين من ثواب وجزاء ومكافأة يلتفى وقد أخذ يمنع الوجود والمسامع صوراً كلها عطاء

نهج البلاغة ١١: ١٥٢.

(١) وكمثال على ذلك فإن الوليد بن العفيرة لما سمع من النبي من قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْمَعْدُلِ وَالْإِحْسَانِ...) [التحل: ٩٠] قال: والله إن له لحلوة وإن عليه لطلاؤة، وإن أعلاه لمونق وإن أسفله لمغدق، وإن أعلىه لمثير، وما يقول هذا بشر. مناقب آل أبي طالب ١: ٤٩، ٧٤: ١٩٢، ٦: ١٩٢، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٦٥، ١٧: ١٥١، ١٩: ١٥١.

وذوق ، ويستشعر الإنسان معها لذة النعمة تحالجه . فمثلاً حينما يقول :

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدُّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا
 هَلْ أَخْلَقْنَا إِنْسَانًا مِنْ نُطْفَةٍ أَنْشَأْجُنَّبِّنَاهُ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ إِنَّا هَذِينَا
 السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَافُورًا ﴾ إِنَّا أَغْنَدْنَا الْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ إِنَّ
 الْأَنْزَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَاسٍ كَانَ مِرَاجِهَا كَافُورًا ﴾ غَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عَيْنَادَ اللَّهَ يُفْجِرُ وَنَهَا
 شَفِيجِرًا ﴾ يُوْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى
 حَبْبِهِ مِسْكِينًا وَيَتَبِّعُهُمْ وَأَسِيرًا ﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا
 إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَبُوْسًا قَنْطَرِيرًا ﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَاهُمْ نَصْرَة
 وَسُرُورًا ﴾ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَزْانِكَ لَا يَرَوْنَ
 فِيهَا شَفَسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ وَذَانِيَةَ عَنْهُمْ ظَلَالُهَا وَذُلُّكَ قُطُوفُهَا تَذَلِّيلًا ﴾^(١) . فإن
 السامِعُ سُوفَ يَحْسَنُ بِرُوعَةِ الإِيقَاعِ وَشَرِيطِ الصُّورِ الْمُمْتَعَةِ الْمُشَرَّقَةِ ، فَهُوَ
 يَسْتَعْرِضُ نَعِيْمًا قَدْ صُورَ بِأَدَقِ تصوِيرٍ .

وَحِينَما يَصِفُ سُخْطَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُجْرِمِينَ بِقُولِهِ : (إِنَّمَا تُبَذِّلُ
 الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ وَبَرْزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَؤْمِنُونَ
 مُقْرَبِيْنَ فِي الْأَضْفَادِ ﴾ سَرَابِيْلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَفْشِي وَجْهُهُمُ الْنَّازِ ﴾^(٢) فَإِنَّ السامِعَ
 يَجِدُ نَفْسَهُ وَهُوَ يَتَلَقَّى أَرْوَعَ وَصَفَ لِحَالِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ سِيَعْذِبُهُمُ اللَّهُ ،
 وَسِيَجِدُ صُورًا مَرْعِبَةً مَلُؤُهَا الرَّهْبَةُ وَالْخُوفُ . وَهَذَا طَبِيعًا كَلَامُ مَعِ الإِنْسَانِ
 الَّذِي يَمْلِكُ خَلْفَيْهِ ثَقَافَةً أَدِيبَةً وَلُغْوَيَةً جَيْدَةً ، فَهُوَ الَّذِي سَيُؤْخَذُ بِهَا
 وَسَتَأْسِرُ لَهُ مَجَامِعَ قَلْبِهِ .

فَقُولُهُ عليه السلام : « الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْقُرْآنَ شَعَارًا ، أَيْ جَعَلُوا الْقُرْآنَ هَادِيْهِمْ »

وامامهم ومرشدهم، وهو معهم أينما كانوا في عقولهم وأذهانهم وعلى ألسنتهم. وأنا أعتقد أن أغلب بيوت المسلمين الآن لا يسمع فيه صوت القرآن الكريم، فهم يقتلونه ويركزونه على الأرفف للتبرك بوجوده ليس إلا، أما أنا أن يقرؤوه ويسبعوا ما جاء الرسول به فهذا لم يكن من أغلبهم. وهذه كارثة كبيرة، ولأن الدين الذي يستيقظ عند الفجر ويناجي الله بكلامه الذي أنزله على نبيه محمد عليه السلام^(١)

وقد سئل أحد العباد الملازمين لبيوتهم: ألا تستوحش من ملازمتك بيئتك؟ فقال: لا. فقيل له: لماذا؟ فأجاب: إذا أحببت أن يكلمني الله قرأت القرآن؛ لأنه كلام الله، وإذا أحببت أن أكلم الله صليت.

وأنا لا أريد من على هذا المنبر من كل إنسان أن يكون كذلك؛ لأنه لا يمكن لكل إنسان أن يفعل هذا الفعل من جهة، ولا شتم الله على جنبه سلبية من جهة أخرى، وهي اعتزال الناس وعدم التفاعل مع المجتمع. كما أني لا أريد أن أخلق هذا الاستعداد للتصرف عند الإنسان، أو أحثّم عليه أن يملكه، لكن كل ما أريده هنا هو أن يجلس المؤمن كل يوم صباحاً فيؤدي صلاته ويناجي الله تعالى بالقرآن والدعاة. وما عندنا من الأحاديث التي وردت في السنة النبوية الشريفة في الحث على قراءة القرآن الكريم شيء كثير، ومنها قوله عليه السلام: «من قرأ القرآن في المصحف متى

(١) عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: متى يحرم الطعام والشراب على الصائم، وتحل الصلاة.. صلاة الفجر؟ فقال: «إذا اعترض الفجر وكان كالقطبية البيضاء، فثم يحرم الطعام ويحل الصيام وتحل الصلاة صلاة الفجر». قلت: فلسنا في وقت إلى أن يطلع شعاع الشمس؟ فقال عليه السلام: «هيئات أين تذهب؟ تلك صلاة الصبيان». الكافي ٤: ٩٩، الفقيه ٢: ١٩٣٤ / ١٣٠.

يصره وخفف عن والديه وإن كانا كافرين^(١).

المبحث السادس: المراد من الأرض في الحديث الشريف

ثم قال عليه السلام: «وأرض الله فراشاً»، المراد بالأرض هنا: التواضع، حيث إن الأمر ينتهي بهؤلاء الراهدين إلى أن يجلسوا حيث هم وحيث ينتهي بهم المجلس، ولا يدخل أحد هم أمر دنيوي من قبيل أن الرفعه والسموه وغيرهما هي أمور تكون بتسلّم الكراسي وتناول المناصب. كما أنهم يعلمون جيداً أن الكرسي الذي يمتطيه صاحبه يكون أفضل من صاحبه في كثير من الأحيان. يقول أحد الأدباء، وقد رأى طيباً اسمه توما راكباً على حمار له:

قال حمار الطبيب توما لو انصفوني لكنت اركب
لأنني جاهل بسيط وراكبي جهله مرتفع^(٢)

وكراهة الإنسان ليست من كرسي يجلس عليه أو طنفته يفترشها ويتربع عليها، بل إن من هو أهل لأن يكون كذلك إذا جلس على التراب أحالة إلى عرش وقمة من أنفس وأثمن ما في الوجود؛ ولذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يفرح إذا ما كُنْتَ بأبيِّ تراب. وسبب تلك الكنية وحبه لها أن النبي عليه السلام أدركه ذات يوم نائماً، وقد خلص التراب إلى جسمه، فقال عليه السلام له: «قم أباً تراب»^(٣). يقول أحد الأدباء:

البا تراب للستراب تفاخر
أن كان من أمشاجه لك طين
في أصله حما به سينون

(١) الكافي ٦١٢: ٢، نواب الأعمال: ١٠٢.

(٢) المثل السائر ٢٢٨: ٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٦٠.

ومن الترابِ حواجبٌ وعيونٌ
فلا نَلَنَتْ من وجهِهِ الترابُ جبَينٌ
كالجذرِ ليس يموثُ وهو دفينٌ
و ترَفُ منه براًعَمَ وغصَونٌ^(١)

لكتنا من ذا القراب حوافر
فباندا استطان بك التراب فعائز
وإذا رجعت إلى التراب فلم تعمت
لكنه ينمو ويفرغ الشري

فالحقيقة أن هذا الرجل العظيم قد اتّخذ له من التراب عرشاً، وهو الذي أصبح فيما بعد ذهباً متألّقاً يناظح السماء؛ فهو أبو تراب الذي عشق التراب، وما كان لينقص من قدره أو يقلّ من قيمته، بل التواضع هو الذي يرفع الإنسان ويسمو به^(٢). وهذا لا يعرفه ولا يدركه إلا ذو النفس الكبيرة والهمة العالية.. النفس التي تدرك أن كبرها وسموها هما فيما تحمل من إنسانية وعطاء للمجتمع.

المبحث السادس: الاسلام نظيف

ثم قال عليه: «وماءها طيباً»، إن أطيب الطيب هو الماء، والماء هنا كناية عن النظافة، فهو لاء الزاهدون من صفاتهم أنهم دائمًا على نظافة وطهارة. والرواية تقول: «المؤمن قاذورة»^(٣).

١٩) ديوان المحاضر ١:

(٢) قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن في السماء ملكين موكلين بالعباد؛ فمن تواضع لله رفعاه، ومن تكبر وضعاه». الكافي ٢: ١٢٢، مشكاة الأنوار: ٤٠١.

تواضع تكن كالنجم لاح لنظر
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه
وقال آخر:

(٢) عن النبي ﷺ أنه كان قاذرة، لا يأكل الدجاج حتى يعلف. والقدر: خلاف النظافة، وهو حبل السنان يتنحني برأوبيها والفارغات رزوّهن شوامخ

وهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي تحت على النظافة^(١) هو الذي جعلنا ننظر إلى الزهد بهذا المنظار الإيجابي المستقى من السنة، وألا فإن البعض يعتقد واهماً بأن الزهد هو الاعتزال عن المجتمع وعدم التفاعل معه، وهو الشياب المتسخة والجسم القذر. فالإمام عليه السلام يريد أن يصحح هذا المفهوم المخطوء في أذهان الناس فيقول: «اتخذوا ... ماءها طيباً». فالله تعالى قد خلق لنا هذا الماء كي نتظره به ونتنظف ، دخل يوماً أبو الأحوص الجشمي إلى المسجد ، فرأه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسخ الشياب نتن الرائحة ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له : « هل عندك أموال؟ ». قال : نعم . فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « من أيها؟ ». قال : أعطاني الله من كلها؛ من الإبل والبقر والغنم والمزارع والتجارة . فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أما وجدت ما تلبسه؟ ».

فكأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: ألم تجده ما تغسل به بدنك؟ مع أن هذا الأسلوب

مجتب: فمن تم قيل: قدر الشيء، إذا اجتبه كراهة له. قال العجاج:
وقدري ما ليس بالمقذور

ومنه قالوا: ناقة قذور، إذا كانت عزيزة النفس لا ترعى مع الإبل، ورجل قاذورة، إذا كان متقدراً. الفائق في غريب الحديث والأثر . ٧٥:٣
فالقدر لفظ من الأضداد.

(١) كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « تنظفوا بالماء من التن ، والريح الذي يتآذى به . وتعاهدوا أنفسكم فإن الله: عزوجل يبغض من عباده القاذورة الذي يتأذى به من جلس إليه ». الخصال: ٦٢٠.
قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنس: « يا أنس، أكثر من الطهور يزد الله في عمرك، فإن استطعت أن تكون بالليل والنهر على طهارة فافعل، فإنك تكون إذا مت على طهارة مت شهيداً ».
وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « تنظفوا بالماء من الرائحة المنتنة: فإن الله تعالى يبغض من عباده القاذورة ». وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « غسل الشياب يذهب الهم وهو ظهور للصلة ». مكارم الأخلاق: ٤٠.

« تنظفوا بكل ما استطعتم، فإن الله تعالى بنى الإسلام على النظافة، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف ». الجامع الصغير ١: ٥١٧ ، ٣٣٦٩ . كنز العمال ٩: ٢٧٧ ، ٢٦٠٢ .

ليس من خلق النبي الأكرم عليه السلام، فهو واسع الخلق بتعبير القرآن الكريم: «وَإِنَّهُ لَقَلِيلٌ مُّخْلِقٌ خُلُقَيْهِمْ»^(١)، لكنه حينما وصل الأمر إلى النظافة وعدم الاهتمام بها وإذاء الغير بتركها ضاق ذرعاً بأبي الأحوص وقال له ما قال.

فهو عليه السلام يذكره بأن الله تعالى حينما أنعم عليه بكل هذه النعمة فمن الواجب عليه أن يظهر الشكر له على ما أنعم به عليه، وأن يتمتع بهذه النعمة؛ فيلبس اللباس الحسن، وينظف جسمه ويظهره من الأقدار والنجاسات. ويريد من الناس أن يقتدوا به، فقد كان عليه السلام مثال النظافة والطهارة^(٢).

وقد كان الحسان عليه غاية في النظافة؛ فقد كانت الزهراء عليها تباشر تنظيفهما والعناية بهما كل يوم، ثم تلبسهما ثياباً بسيطة ونظيفة، وتأخذهما إلى جدهما حيث يدرجان إلى حجره الشريف، فيفتح عليهما ذراعيه الطاهرتين ليضمّهما إلى صدره ويظلل عليهما وهما في حجره، فتأخذ اليد اليمنى الحسن عليهما واليد اليسرى الحسين عليهما وينحنى على تلك الشفاه ليشعّبها لثماً وتفيلاً.

يا رسول الله، ليتك تنظر هذه الشفاه التي لامست شفاهك كيف أن عصا يزيد تعثّب بها ضرباً بما يحمله من حقد وضغينة على آل بيتك (صلوات الله وسلامه عليهم):

(١) القلم: ٤.

(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كانت لرسول الله عليه السلام ممسكة إذا هو توضاً أخذها بيده وهي رطبة، فكان إذا خرج عرّفوا أنه رسول الله عليه السلام برانحته». الكافي ٦ / ٥١٥: ٢.

يناعي اشبعد تدري اشبگالي وشخلفت عندي اللسيالي

* * *

تسوالني عليها غبرة وقتمام	مسنازل كانت نيزات بأهلها
على الدار من بعد الحسين سلام	ألا لا ترzan الدار إلأ بأهلها



﴿١٧﴾

أصوات على حياة عليؑ

أوري الغداة بقلب الممحضى نارا
 فأليسته من الأشجان أطمارا
 فجذلت بطلاً في الحرب كزارا
 مضرجاً بدم من رأسه فارا
 وغيب الحتف بحراً منه تيارا
 من دهشة الخطب إقبالاً وإدبارا^(١)

خطب ألم بركن الدين فانهara
 فـأـيـ حـادـثـةـ فـيـ الـدـيـنـ قدـ وـقـعـتـ
 حـرـزـتـ وـقـدـ شـفـرـتـ عـنـ سـاقـهاـ فـرـمـتـ
 هـذـاـ عـلـيـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ لـقـنـ
 قـدـ غـيـبـ الـخـسـفـ بـدـرـاـ مـنـ مـكـتمـلـاـ
 أـوـدـيـ وـمـنـ حـولـهـ لـلـمـسـلـمـينـ قـرـىـ

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: نقاط مضيئة في سيرتهؑ

لكي يتمكّن الباحث من معرفة شيء يسير من الحياة السياسية لأمير المؤمنينؑ ومعطيات خلافته لابد له من المرور بعض الجوانب التي تسلط الضوء على ما انتهى إليهؑ خلال مجيئه إلى تلك الخلافة حتى مصرعه (سلام الله عليه). وهذا الجانب بحاجة إلى تغطية كاملة؛ ذلك أن الإمام عليؑ تتوفر حياته على جوانب كثيرة كان من المفترض أن تكون

(١) الآيات للشيخ كاظم السبتي الذاكر التجففي للهـ. نهج السعادة ٧: ١٧٥.

عوامل استقرار واستتباطِ أمنٍ، لأن تصبح عوامل تؤدي إلى نشوب تلك الحروب الداخلية التي خاضها الإمام علي <ص> من أجل تثبيت وحدة الدين وقوية شوكته، ومن هذه العوامل:

الأول: النفس

فكل الجوانب والظروف التي من حياة الإنسان.. أي إنسان يعيش أجواء متناسبة ومتناهية، ويعيش الأمن والاستقرار كانت كلها مجتمعة عند أمير المؤمنين <ص>؟ فقد كان العرب يعتدون بالأنساب، ويررون أن الذي يتولى أمرهم يجب أن تتوفر فيه أمور عدة منها أن يكون ذا نسب شريف وعالٍ، ولا أقل من آل يصل إلى مستوى هابط.

ومن هذه الناحية فإن أمير المؤمنين <ص> غني عن التعريف؛ ذلك أن هاشماً كان قلب قريش، وكان بيت علي <ص> قلب بنى هاشم. وقد سلط القرآن الكريم الضوء على مسألة النسب في بعض من آياته، فهو عندما يفرق بين مجتمع الدنيا والآخرة يقول: «إِنَّمَا نُفَخَ فِي الصُّورِ قَلَّ أَنْسَابَ بَنِيهِمْ يَرْمِنُونَ وَلَا يَنْسَأِلُونَ»^(١).

أي أن هذا النسب الذي تعزون به في الدنيا ليس له اعتبار قائم في الآخرة، بل إنه لا اعتبار له أصلاً^(٢).

إذن فمن ناحية النسب نجد أن الإمام علي <ص> كان صاحب الحظ الأوفر بين جميع الصحابة والقريشيين منهم خاصة، باعتبار أن قريشاً كانت لها الزعامة على العرب، وكان لبيت هاشم الزعامة على قريش. وكما ذكرنا

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَعْمَالِكُمْ لَا بِأَنْسَابِكُمْ: فَإِنِّي لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً». بحار الأنوار ٧: ٢٤١ - ٢٤٢، التفسير الكبير ٤: ٨٧.

فإن قلب بنى هاشم كان بيت علي عليه السلام؛ لأنه يرجع إلى عبد المطلب وعبد المطلب هو قلب بنى هاشم.

إذن هذه الجوانب التي يجب أن يسلط الضوء عليها هي أمور عدة وكانت النقطة الأولى التي سلطنا الضوء عليها هي جهة النسب

الثاني: الشخصية المتكاملة

إن الناس عندما يطلبون المثل الأعلى فإنهم ينشدون صفات معينة عنده، وأول هذه الصفات أنهم كانوا يبحثون عن البطولة فيه، فهم كانوا يمجدونها أي تمجيد، وكانتوا يمجدون الشخص الذي توجد فيه كل تمجيد، فكانوا يرون في شخص البطل في ساحة الحرب أنه المثل الأعلى، وأنه الشخص الذي يجب أن يقتدي به وأن يحتذى.

وتمجيدهم للبطولة إنما هو من حيث ما كانوا عليه من تركيبة ومن طريقة معيشة وتعامل مع الحياة والآخرين. وهذا المعنى أو هذا المضمون لا يمكن لأحد أن ينكره في حق علي عليه السلام؛ فالبطولة والشجاعة عنده (سلام الله عليه) أشهر من نار على علم، وقد وصلتا إلى درجة من الاشتهر بحيث إن الإنسان لا يحتاج إلى أن يبرهن عليهما أو على أنه عليه السلام هو الشجاع والبطل. لقد كان عليه السلام إذا دخل الحرب فرّ الناس من بين يديه كما تفرّ المعزى بين يدي الأسد، وكان العرب يعتبرون أن الفرار من الحرب عازلاً الفرار من سيف علي بن أبي طالب عليه السلام.

وهذا المعنى يضاف إلى رصيد أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الجوانب المشار إليها، وهو رصيد وافر. وبالرجوع إلى التاريخ الطويل للإمام عليه السلام في هذا المجال، والى إنجازاته الصارخة في ميدان البطولة والشجاعة والبسالة فإننا نجد أن هذا المجال قد مجده السماء والأرض، وامتلأت

به كتب التاريخ، وأشادت بذكره إشادة لا نظير لها؛ وعليه فإننا لسنا بحاجة إلى إثباته أو البرهنة عليه. وما ينشده الناس في مجال البطولات هو التصاق البطل بالأمة، واندماجه مع الجماهير، وكونه يتعايش معها ويتعامل مع قلوبها.

وقد بلغ أمير المؤمنين عليه السلام في قلوب الناس مبلغاً لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده إلا رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، بحيث إنه عليه السلام قد وصل به الأمر إلى أن ينام على دفعاء من الأرض حتى يتتصق ظهره بالتراب، فكان عليه السلام لا يتميز عن سائر الناس بشيء، ولم يكن يفكر في أن يتميز عنهم أو أن يشار إليه على أنه فوقهم. ومن طبيعة الإنسان أنه إذا اجتمعت فيه مزايا كثيرة فإنه غالباً يصيّبها نوع من الغرور وإن لم يكن الغرور كلّه، أما على عليه السلام فكان خلاف ذلك تماماً، فكان مع ما عنده من المزايا التي لا عد لها ولا حصر، والتي أشادت بها السماء قبل الأرض نجده في قمة التواضع، وفي منتهى الخلق النبيل مع الآخرين، وهذا في نفسه يعد قمة في النضوج، فلم يكن لأحد أن يراه متميّزاً عن غيره من المسلمين، وهو على قمة هرم السلطة بلباسه أو طعامه أو في شرابه؛ سواء كان ذلك في الساحة المدنية أو الساحة الحرية.

ومن هذا أنه عليه السلام كان إذا مر في سوق الكوفة لم تكن له علامة تميّزه عن الناس الموجودين فيه، فكان الناظر إليه يحسبه بدرياً بما عليه من ملابس بسيطة. وهذه الملابس لم تكن تتعدي شملة قد شمر طرفيها إلى أنصاف ساقيه.

نعم هناك شيء واحد يميّزه، وهو أنه كان يحمل بيده عصا ويأمر الناس بالمعروف وينهّم عن المنكر، ويأمرهم بطاعة الله ويتقواه،

وبالابتعاد عن الغش بالمعاملة.

الثالث: العلم

فهو عليه السلام لم يكن ليجاريه أحد في علمه ولا في لوازمه؛ من فصاحة وبلاغة وما إلى ذلك، فقد كان العلم المبرز فيها، وقد بلغ القمة ووصل إلى الشأو الأقصى في كل ذلك. فكان عليه السلام المثل الأعلى لغيره في العلم^(١). وكما ذكرنا فإن هذه النقاط كانت مشفوعة بالشجاعة والأخلاق العالية، والنفس الكبيرة والنبيلة، وكرم الطباع، وحب الله جل وعلا وطاعته، والانقياد إليه، والفناء فيه، وما إلى ذلك.

المبحث الثاني: أسباب اضطراب الدولة في أيامه عليه السلام

وإذا كانت كل هذه المؤهلات التي ذكرناها بأجمعها موجودة عنده عليه السلام، فإن من المفترض أن الأمور ستستقر أكثر بعد مجئه إلى الحكم، لكن الذي سطره لنا التاريخ هو أن الاستقرار بدأ يتراجع في عهده، إذ أن فيه كثرة الحروب الداخلية، وقد انشغل عليه السلام بهذه الحروب، وينثنيت كلمة الله جل وعلا عن الفتوحات الخارجية إلا ما ندر منها.

وحيينما نتمعن في الوضع أو الظروف السياسية التي عاصرت الإمام عليه السلام فإننا سوف نتلمس فيها ومن خلالها جملة من الأسباب أدت إلى حصول هذا الصراع إبان دولته عليه السلام، وهو صراع تحول إلى مصاعفات خطيرة بعد رحيله من الدنيا، ومثل علي لا يرحل عن الدنيا.

إذن فهناك جملة من الأسباب أدت إلى اضطراب الوضع السياسي

(١) ولقد ذكر ابن أبي الحديد فصلاً في انتقام جميع العلوم إليه عليه السلام. انظر شرح نهج البلاغة ١:

والإداري إبان خلافة أمير المؤمنين عليه السلام؛ صيرت من الإمام شخصاً كان دأبه أن يحاول جاهداً معايشة هذا اللون من الصراع وهذه الدوامة السياسية التي انعكست مضاعفاتها كما قلنا على الحياة العامة، وعلى كتب التاريخ أيضاً، ومن هذه الأسباب نذكر:

السبب الأول: الحسد

إن من النادر أن نجد شخصاً قد اجتمعت فيه كل المزايا الحسنة، والصفات النبيلة، والطبائع الكريمة كما اجتمعت عند عليٍّ أمير المؤمنين عليه السلام، لقد اجتمع فيه من الصفات ما لم يجتمع لغيره إلّا أنبياء الله ورسله، فقد كان عليه السلام مثالاً في كل أمر حسن، ومثالاً في كل منقبة يحمدُ عليها أصحابها دون أن يكون هناك حدّ أو حصرٌ لتلك الأمور الحسنة أو المناقب الجميلة. يقول أبو الطفيل : قال بعض أصحاب النبي صلوات الله عليه وسلم - وهي قالة تكلّف قائلها ثمناً غالياً - : «لقد كان لعلي بن أبي طالب عليه السلام من السوابق ما لو أن سابقة منها فرقت بين الخلائق لوسعتهم خيراً»^(١). وهذا ما جعله عليه السلام هدفاً لسهام حقد القوم وحسدهم ، الذي يمكن إجماله بالأتي :

الأول: الحسد على النبل

وفعلاً فرأى شيء عند هذا الرجل العظيم وليس له القابلية على أن يغطي المجتمع كله؟ لقد كان عليه السلام ذا نفس نبيلة لو طرح نبلها على الدنيا جميعاً لغطتها؛ فقد وسع نبل نفسه حتى أذ أعدائه ، وهذا النبل والكرم في الطبع لم يكونوا ليفارقاه حتى في أصعب الظروف التي مرت به ، فكانوا

(١) الأمازي (الطوسي) : ٣٩١ / ٨٥٩ ، شواهد التنزيل ١ : ٢٨ - ٢٩ ، تاريخ مدينة دمشق : ٤٢ ، ٤١٨ ، أسد الثابة ٤ : ٢٣ .

يسموان به عن الحقد والغيفظ ، ومقابلة الآخرين بما يقابلونه به ، والنزول إلى مرحلة الأخذ بالثار حتى مع من رام تمزيقه ، يلتج عليه السلام ساحة الحرب في معركة الجمل فيأمر مناديه أن ينادي جيشه ويأمرهم ألا يأخذوا شيئاً من معسكر أهل الجمل أبداً . ف يأتيه شخص من جنده وأتباعه ويقول له : يا أمير المؤمنين ، أباح دمائهم ولا تباح أموالهم ؟ قال عليه السلام : « هؤلاء إخواننا بعوا علينا ، فلا تناولوا شيئاً من معسكرهم » ^(١) .

وكان بعد المعركة يمر عليهم وبهذه عصاً يقلب بها بعض الأشلاء وهو ينظر إليها ويملاً الدنيا بحسراته وبآهاته وبالمه ؛ لأنهم صرعوا وهو يعلم أن مصيرهم النار لأنهم قاتلوه ، وهم إذ قاتلوه فإنما قاتلوا إماماً ، وبغوا على خليفة شرعي . فكان عليه السلام يتالم لأجلهم ؛ لأنهم سوف يدخلون النار بسيبه . ومن مظاهر نبله (صلوات الله وسلامه عليه) في تلك المعركة أن امرأة استقبلته لما دخل البصرة بعد واقعة الجمل ، ووقفت له بباب الدار ، وقالت له : يا قاتل الأحبة ، أبىتم ولدنا أبىتم الله ولدك . فقال عليه السلام : « لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذه الحجرة » ^(٢) .

ولم يكن فيها سوى مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير والوليد بن عقبة بن أبي معيط ، ثم تنهداً عميقاً نعم في نفسه الكريمة من ألم وحزن .

الثاني: الحسد على الزهد والتواضع

نعم ، إنها نفس تختلف سنتيتها عن سنتية النفوس التي عاصرتها

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٠ / ٥٣.

(٢) دعائم الإسلام ١ : ٣٩٤ ، مناقب آل أبي طالب ٢ : ٩٨ ، الجمل (ضامر بن شدق) : ١٤٧ ، تاريخ الطبرى ٣ : ٥٤٣ ، شرح نهج البلاغة ١٥ : ١٠٥ .

أجمع؛ ففي الوقت الذي كانت فيه تلك النفوس تلتهب حقداً، كانت نفسه الشريفة عليها السلام تفيض رحمةً وعطفاً ووداً وشفقةً على الآخرين. وكيف لا يكون كذلك وهو ابن القرآن وتلميذ السماء، والابن النجيب لرسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، وهو ترجمان القرآن في سلوكه وفي كل جزئية من جزئيات حياته؟ وكيف لا يكون كذلك وهو الذي قد رُبي في حجر الرسالة، ونشأ في مريع الرعاية الإلهية؟

إذن لا بدّ لشخص يجمع كل تلك الصفات أن يكون على هذه الشاكلة وأن يكون بهذه النفس الطيبة الكريمة، وبهذه الدرجة من السمو.. الدرجة التي ينتهي الأمر معها إلى أن يوجد صاحبها بكل ما تصل إليه يده من ذهب وفضة، ويفرقه على غيره من المسلمين، ثم يؤوب إلى بيته وهو يحمل رغيفاً من الخبز لا يكاد يتناوله إلا بصعوبة بالغة؛ لأنّه كان رغيفاً جافاً فاسياً. وكان يأكل بعض تميرات يشتريها من صاحبها ميشم، ثم يمسح على بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار، فأبعده الله»^(١) ..

وهكذا نجد أنه عليه السلام قد أبى أن يتناول شيئاً من حطام الدنيا ومن زادها إلا ما يقوم بها بدنه على عبادة الله جل وعلا. وقد ذكر لنا التاريخ أنه عليه السلام أبى أن يتناول حتى من الهدية التي تهدي إلىه؛ فقد أهدى إليه بخيص أو فالوذج - على رواية - فمَدَ يده إلىه ليأكل منه، ثم سحبها ولم يذق منه شيئاً، ثم قال لأصحابه: «هلْمُوا وكلوا». فقالوا له: نراك رفعت يدك عنه؟ فقال عليه السلام: «لم أكن لآكل من شيء لم يأكل منه رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، فكلوا هنئاً مريئاً».

(١) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧.
بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٢: ٧٨٤١ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨:

فروعه عليه السلام انتهى به إلى أن يمنعه عن تناول طعام مباح له، أو ممارسة رغبة مباحة؛ وذلك ابتعاء وجه الله جل وعلا ونزولاً في مستوى معيشته عليه السلام لمستوى أدنى الناس معيشة؛ حتى يوازيهم وحتى يساوهم في مأكلهم ومشربهم وملبسهم^(١).

وهذا الأمر في حقيقته شيء أكثر من عادي في سلوكه؛ لأن الله عليه السلام قد رأى نفسه على هذه المزايا التي كانت مبعثاً على أن يحسده الآخرون عليها؛ فقد حسده الأبطال والشجعان، وحسده أهل العلم، وحسده أهل الانقطاع إلى الله جل وعلا؛ لأنهم كانوا لا يستطيعون أن يصلوا إلى المستوى الذي وصله. وهكذا كان الشجعان يفرّون بين يديه في الحرب، ووصل الأمر به أن أحدهم يذكر معاوية بن أبي سفيان بقوله:

أب لي عفتني وأبى بلائني	واخذني الحمد بالثمن الربيع
وإقدامي على المكروره نفسى	وضربى هامة البطل المشبع
مكانك تحمدى أو تستريحى	وقولى كلما جشأت وجاشت

ومع كل هذا فإننا نجد من يشتتم عليه عليه السلام حتى الآن، والذي ينفعي بهذا الشاتم أن يكون عنده ولو شيء يسير من النبل، يرفعه عن شتم هذه

(١) وقد أوضح عليه السلام هذا الأمر ل العاصم في محاورة هذا الأخير معه، فقال (سلام الله عليه): «إن الله افترض على آنفة العدل أن يقدروا أنفسهم بالقوام؛ لئلا يشنع بالفقير فقره». العقد الفريد .٢٧٣ - ٢٧٤

وقال الإمام الصادق عليه: «فينبغي له - الوالي - أن يكون كواحد من فقراء المسلمين في المعاش والرياش؛ حتى يسهل على الفقير فقره إذا نظر للوالى وما هو عليه». الكافي ٦: ٨ / ٤٤٢

(٢) تفسير الشعبي ٤: ٥٢، تنزيل الآيات على الشواهد من الآيات: ٣٥٩، شرح نهج البلاغة .٢٠٣: ٥٩، ١٨: ٢٢٣، ٢

الشخصية العظيمة، وهو إذا يشتم علينا فإنما يشتم نفسه؛ لأن علينا عليها
ينحسر عنه الشتم، ويعود على قائله؛ فهو عليه طهر طاهر مطهر؛ لا تضره
تلك النفوس الخانعة الخاضعة، ولا تؤثر فيه تلك الألفاظ التي لا تسمو
إلى أن تصل إليه.

إذن فلابد أن يحسد من كان على هذه الدرجة العظيمة من الفضائل.

الثالث: الحسد على العلم والمعرفة

وكان عليه فوق كلّ هذا يتصدى لحل المشاكل والقضايا العالقة بين المسلمين في القضاء وغيره، ومن ذلك أنه جيء بامرأة إلى عمر ومعها رجلان؛ أحدهما ابن زوجها السابق والثاني زوجها الحالي، والولد يتهمهما بقتل أبيه، فقال عمر: أقتل نفسين بنفس واحدة؟ فلننتظر حتى نرى رأي علي بن أبي طالب. فقال عليه: «نعم يقتل أكثر من نفس بنفس واحدة، أرأيت لو أن أكثر من رجل سرقوا جزوراً؛ فأخذ كل رجل منهم جزءاً منها، أكنت تقطع أيديهم؟». قال: نعم. قال عليه: «فهذه كتلك».

وكان هذا دأب المسلمين، فكلّ مسألة تواجههم كانت أعينهم ترقب علي بن أبي طالب عليه ليجد حلّاً لمشكلها ومعضلها. ومثل هذه المواقف، ومثل هذه الأمور حتماً ستترك حسدًا لا حدّ له في نفوس من يراها من المسلمين آنذاك؛ لأنّه كان العلم والعلماء، والمتصدّي في كل الساحات الحياتية في زمانه؛ فهو الرائدُ والمُبَرِّز والمقدّم في ميدان الحرب، وهو الرائدُ والعلمُ في ميدان العلم، وهو الرائدُ والمقدّم في ميدان القضاء؛ الذي يدعى إلى حل المعضلات والملمات في القضايا كافة فيحلّها ويحلّ مشكلتها ومعضلتها دون أن يتردد، ودون أن يتلّكأ.

هذا كلّه مع بيان العلة والدليل الذي من أجله حكم بهذا الحكم وهذه

القضية، أو أفتى بهذه الفتوى.

الرابع: الحسد على الشجاعة والبطولة

وكما ذكرنا في المبحث الأول فإنَّه عليه السلام كان مثالاً في الشجاعة لا يرقى إليه أحد، ولا يصل إلى مستوى بطل مهما كانت شجاعته وبطولته، إضافة إلى ذلك كرم الأخلاق وحسن الطباع والشيم العالية ونبل النفس التي كان يُخضع نفسه الشريفة لها حتى في ميادين القتال^(١)، وما إلى ذلك.

الخامس: الحسد على قربه من الرسول عليه السلام

وكل هذه الأمور كما ذكرنا تبعث على الحسد.. الحسد حتى من الأقارب والمحظيين بالرسول عليه السلام، مضافاً إليه قربه الشديد من رسول الله عليه السلام؛ ومن هذا أنَّ أسامة بن زيد وكان قد ربي في بيت رسول الله عليه السلام، وكان يعرف موقع علي بن أبي طالب عليه السلام من رسول الله عليه السلام، ومع هذا نجده يتخلَّف عن بيته عليه السلام، ولم يكن لديه من دافع سوى حقد دفين كامن في نفسه على هذه الشخصية العظيمة، فلم يكن ليطلب علياً بأثار حتى يقال: إنه لم يبايعه ثاراً منه. والأنكى من هذا أنه كان يسمع رسول الله عليه السلام - كما هو شأن كثير من المسلمين - يقول لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «حربك حربك وسلمك سلمي»^(٢)، «من أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام»^(٣).

(١) كموقفه من عمرو بن عبد ود العامری، إذ أبى عليه السلام أن يقتله مباشرة بعد أن بصر اللعين عليه،

فتمهل عليه حتى سكن عنه الغضب، ثم قتله الله تعالى وفي سبيله.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وقد بين عليه السلام مكانته العظيمة لل-Muslimين في خصوص هذا المعنى في أحاديث كثيرة، انظر الحاوي للفتاوى ٢: ٤٤.

(٣) مسند أبي يحيى يعلق ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١:

ومع ذلك فإنه لا يضره في نفسه إلا البغض والحسد، وهذا ما دفعه إلى التخلف عن البيعة له مع أنه قد رأى أن علياً قد استأثر بحب رسول الله ﷺ وقد أخذ مكانه ومكانته من بعده. فهذا الأمر يمثل أحد الأمور التي كانت بمجموعها تشكل دافعاً له لأن يحسد. والحسود يبحث عن ثغرة مهما صغرت لينفذ منها حتى يحطّ من قيمة المحسود.

لكن أي شيء يمكن أن يقال عن علي؟ هذا التاريخ بين أيدينا، ولم يستطع أن يجد له ثغرة من الثغرات إلا أن يفعل أحدهم مثلية وينسبها إليه، ومن ذلك أن يقول أحدهم: لقد ذمت أصابع علي بن أبي طالب من كثرة تسرّه جدران بيوت نساء النبي ﷺ.

فهل هذه لغة عالم أو فقيه؟ إن هذا القبح كما نعلم نحن ويعلمه قائله لا يصل إلى علي بن أبي طالب منه شيء، بل إنه يرتد سهاماً قاتلة على نحر قائله، فتكيدة بما افترى على مثل هذه الشخصية الإلهية العظيمة^(١) إن مثل هذا الذي يطلق سهامه على علي فهو يعلم حق العلم أن هذه السهام ستعود عليه هو نفسه وتصيبه. ثم إنه لا يعلم أنه بهذا الكلام إنما يشتم النبي ﷺ وبهتك حرمة نسائه وعرضهن.. فحقاً إن هذا الشتم سينحرس عن علي ﷺ ويلتحق بصاحبه؛ لأنه لا يجد في علي ما يستحق ذلك الشتم.

وهنا نقطة ينبغي التنويه إليها هي أن هذا الحسد قد خدم علي بن أبي طالب ﷺ، وهذا ما يقرره الشيخ الشفهي بقوله:

.٦٦١ / ١٥٩ : ٣٦٤٩١ / ٣٢٩٥٥ . وقال: قال البوصيري: رواه ثقات.

(١) وكما نسب إليه من قضية الصلة وهو ثمل وقد ردنا كل هذا وعليه في ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩.

إن يحسدوك على علاك فابنها
متسائل الدرجات يحسد من علا
أولاك ربك ذو الجلال وفضلا^(١)
إذن فالحسد لم يكن لينال من أمير المؤمنين عليه السلام، ورحم الله أبا حيان
الأندلسي حيث يقول:

عداي لهم فضل على ومنه
فلا أبعد الرحمن عن الأعداء
مُم بحثوا عن زلتني فاجتنبها
وهم نافسوني فارتقيت المعالى^(٢)

السبب الثاني: الحقد

وكان الحقد من قريش على هذا الرجل في أشد حالاته، وأبعد مداراته، وأوسع مستوياته. وهذا طبيعي منهم، ونروي هنا حادثة وقعت عقب موقعة بدر، فقد أمر رسول الله عليه السلام بقتلى بدر فسحبوا إلى القليب فطرحوا فيه، ثم وقف عليهما عليهم فقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدني بكم ربّي حقاً».

وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة لما رأى أباه يسحب إلى القليب كره ذلك؛ لأن عتبة أباه كان من رجالات قريش، فعرف النبي عليه السلام الكراهة في وجهه، فقال له: «يا أبو حذيفة، كأنك كرهت ما ترى؟». فقال: يا رسول الله، إني والله ما كنت بشك في الله ولا رسوله، ولكن أبي كان رجلاً سيداً حليماً ذا رأي، فكنت أرجو أن يهديه رأيه إلى الإسلام، فلما فات ذلك منه، ووقع فيما وقع فيه أحزنني ذلك^(٣).

وأبو حذيفة هذا كان له موقف قبل انتهاء المعركة حيث إن رسول

(١) الكتبة والأنقاٰب ١: ٦١.

(٢) الفدیر ٦: ٢٨٨.

(٣) مسند ابن راهويه ٢: ٥٧٣ - ١١٤٨، صحيح بن حبان ١٥: ٥٦٢ - ٥٦٣.

الله عز وجله نهى يوم بدر أن يقتل أحد من بني هاشم، وكذلك أبو البختري، وقال عليه السلام: «إبني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لنا بقتلهم؛ فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبي البختري فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عمَّ رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرها». حيث إن قريشاً قالت للهاشميين: لا تبقوا بين ظهرانينا ومحمد خارج لقتالنا، بل لابد من أن تخرجوا معنا وتقاتلوا. وهنا قال أبو حذيفة بن ربيعة: أقتل آباءنا وأخواننا وعشائرنا، ونترك العباس، والله لئن لقيته لآلحمنه السيف^(١).

وهذا المعنى إذا أردنا نقله إلى باقي أفراد قريش وغير قريش فإننا نجد أن دواعي الحقد ومسبباته موجودة عندهم، وكامنة في صدورهم ضدَ الإمام على عليه السلام؛ لأنَّه صاحب النصيب والأوفر والعدد الأكبر من القتلى، فقد كان معظم القتلى في معظم الغزوات من فعل سيفه. فهو لاء لا يمكن لهم أن ينسوا مصارع آبائهم أو أخوانهم إلا إذا كان فيهم من بلغ من الإيمان مبلغاً عظيماً، أو كان ذا مستوى من الورع، أو التفاني، أو التضحية في سبيل الله بكل شيء؛ فإنه حينئذ يمكن له أن ينسى هذه الحالة.

وبهذا فإننا نجد أنَّ أغلب بيوتات قريش كانت تطلبه بثار وكانت تحقد عليه. وهذا المعنى قد عبر عنه الخليفة الثاني في محاورته مع عبد الله بن عباس ذات مرة، يقول عبد الله بن عباس عليه السلام: كنت مع الخليفة عمر فقال لي: يا بن عباس، أتدرِّي ما منع الناس عنكم؟ قال: لا. قال: لكنِي أدرِّي. قال: ما هو؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجفخوا

(١) الكافي ٨: ٢٤٤، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٨٢ - ١٨٣.

جفحاً، وتنفسوا نفخاً، فنظرت قريش لنفسها فاختارت، ووفقت فأصابت. فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع؟ قال: قل ما تشاء. قال:

أما قولك: إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطْنَا أَغْنَاهُمْ»^(١). أي أنك جعلت المناط في أحكام الله تعالى وأوامره هو كراهة قومنا وعدم كراحتهم، ولو كره قومنا نزول القرآن الكريم فهل يترك الله تعالى إزالته؟ ولو أن قومنا كرهوا نزول الوحي والإسلام - كما حصل بالفعل - فهل يترك الله تعالى أمره، ويمنع عن إزالته على الرسول الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ والحاصل أنه لو أراد الله تعالى شيئاً وكراهته قريش فهل نتركه طاعة لقريش ومعصية لله؟

وأما قولك: إننا كنا نجحف - أي يصبح عندهم كبراءة وتضخم - فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة، ولكننا قوم أخلقا مشتقة من خلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قال الله تعالى فيه: «فَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»^(٢)، وقال له: «وَاحْفِظْ جَنَاحَكَ لِمَنْ أَتَبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٣).

وأما قولك: فإن قريشاً نظرت لنفسها فاختارت، فليس من حق قريش أن تختار لنفسها، ذلك أن الله تعالى يقول: «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»^(٤)، وقد علمت أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار. أي أن الله تعالى اختار وقضى، ولم يترك الأمر هملاً، أو دون أن ينزل فيه حكماً.

(١) محمد: ٩. (٢) القلم: ٤.

(٣) الشعراء: ٢١٥.

(٤) التصص: ٦٨، أي أنه تعالى جعل كل اختيار خلاف اختياره جلّ وعلا شركاً.

ولنلاحظ التعبير هنا وهو (قريشاً اختارت)، بمعنى أن المسلمين جميعاً لم يختاروا بل إن الذي اختار هو قريش فقط، وهم جزء من المسلمين وليسوا كلهم، فهناك الأنصار وهناك القبائل العربية المسلمة من غير قريش، فإن كان الأمر متعلقاً بكون قريش قبيلة النبي فبني هاشم أهل بيت النبي ﷺ؛ ولذا فإن أمير المؤمنين رضي الله عنه لما بلغه احتجاج أهل السقيفة بهذا قال عليه السلام: «احتلوا بالشجرة وأضعوا الشمرة»^(١)؛ لأنهم ولديه رضي الله عنه أقرباء نبينا الأكرم رضي الله عنه وخاصته والحسنان رضي الله عنه ابناه، وغيرهم من قريش أبعد عنهم. وعلى أية حال فهذا هو تعبير الخليفة الثاني نفسه.

وأما قولك: ووقفت فأصابت، فليس الأمر كذلك؛ لأن الذي يختار خلاف ما اختار الله تعالى لم يوفق. فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها لوقفت وأصابت.

ثم نقض ابن عباس ثيابه وقام، فقال عمر: على رسلك يا بن عباس، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلا غشّاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول. فقال ابن عباس: مهلاً، لا تنسب هاشماً إلى الغشّ؛ فإن قلوبهم من قلب رسول الله ﷺ الذي طهره الله تعالى وزكاه، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى فيهم: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِذَهَابِ عَنْكُمُ الرَّجُسْ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُهُمْ تَطْهِيرًا»^(٢).

وأما قولك: حقداً، فكيف لا يحقد من غصب حقه ويراه في يد غيره؟ فقال عمر: أما أنت يا بن عباس، فقد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به،

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٦٧.

فتزول منزلتك عندي. قال: وما هو؟ أخبرني به؛ فإن يك باطلًا فمثلي أباطل الباطل عن نفسه، وإن يك حقاً فإن منزلتي عندك لا تزول به. قال: بلغني أنك لا تزال تقول: أخذ هذا الأمر منك حسداً وظلماً. قال: أما قولك: حسداً، فقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود.

وأما قولك: ظلماً، فأنت تعلم صاحب الحق من هو. ثم قال: ألم تحتاج العرب على العجم بحق رسول الله عليه السلام، واحتاجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله عليه السلام؟ فنحن أحق برسول الله عليه السلام من سائر قريش. فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك.

فقام، فلما ولّى هتف به عمر: أيها المنصرف، ابني على ما كان منك لراع حلقك. فالتفت إليه ابن عباس وقال: إن لي عليك وعلى كل المسلمين حقاً برسول الله عليه السلام، فمن حفظه فحق نفسه حفظ، ومن أضاعه فحق نفسه أضاع. ثم مضى ^(١).

أي أنه عليه السلام يريد أن يقول له: إن الذي يختار غير ما اختار الله له وضده فإنه غير معلوم من أمره أنه موقف، (وَرَبِّكَ يُخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ).

فالمحاورة على بساطتها تكشف عن معنى كبير؛ لأنها ليست من شخص من عامة الناس بل أنها من الخليفة الثاني، وهو عمر بن الخطاب، وهو الشخص الملهم بأحوال قريش؛ ولهذا فإنه يقول له: ليس من السهل أو اليسير أن تطيب نفوس قريش تجاهكم، ولا تظنن أن صاحبك - يقصد

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٥٢ - ٥٥، مناقب أهل البيت عليهم السلام: ٤٥٢ - ٤٥٤

أمير المؤمنين عليه السلام - يمكن أن يجد له مكاناً في قلوب هؤلاء؛ لأنَّه طاف على بحرِ من الدماء، وعلى جبال من أشلاء الضحايا من المشركين وجثثهم ممن ذهبوا بسناته وسفنه، وهو يدافع عن دين السماء وعن نبي السماء. وبهذا فإنه في مكان لا يحسد عليه، بل إنَّ هذا المكان خلق له حقداً دفيناً كامناً لا حدود ولا أمل له في صدور القرشيين. وهذه أخت عدي تقول حينما خرج أمير المؤمنين عليه السلام ليُمْتَطِي جمله:

لامَ فاعقر بعلِي جمله ولا تبارك ببعير حمله^(١)

وفوق ذلك فإننا نجد أنَّ أحدى نساء النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه حينما بلغها مصرعه قالت:

نعيٌ ليس في فيه التراب وإن يكُن نسائياً فلقد نعاه^(٢)

ذلك أنَّ العرب كانوا إذا فقدوا عزيزاً عليهم ثم ذكره أحدٌ ونعاه فإنهم يقولون له: في فيك التراب، أي ملأ الله فاك تراباً، لأنَّك جئت بهذا الخبر الشؤم. هذا في حين أنَّ الذي حدث هو أنَّ عائشة تصف هذا الذي جاء بنعي أمير المؤمنين عليه السلام بأنه ليس في فيه التراب؛ لأنَّه لم يجئ بخبر مشهور بالتناسب لها، بل إنه جاء بخبر مفرح.. جاء بخبر فألي حسن تراه؛ ولذا فإنها لم تدع عليه بأن يكون التراب في فمه، وهو دعاء مذمومة واستنكار واستقباح من القائل.

فهي لا تذم ناعي أمير المؤمنين عليه السلام، ولا تستقبح قوله ولا تستنكر عليه قوله هذا؛ ذلك أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قد وتر الأقرب والأبعد في سبيل الله

(١) القائلة هي أخت علي بن عدي من بنى عبد العزى بن عبد شمس. تاريخ الطبرى ٣: ٤٩٣، الإصابة ٥: ٥٣ / ٦٢٧٧.

(٢) العمل: ٨٤، تاريخ الطبرى ٤: ١١٥.

جلّ وعلا ، فما من بيت من بيوتات قريش إلّا ولعلّي بن أبي طالب عليه السلام فيه نصح من الدماء دفاعاً عن الحق وعن السماء وتعاليم السماء ونبي السماء عليه السلام . وبهذا فإننا نرى أن هذه الحوادث تكشف عن ذلك الحقد الذي يغلّ في عروق هؤلاء ، وهو حقد لم يأتِ من فراغ كما بينا .

السبب الثالث: أنه عليه السلام سار بسيرة العدل

ومعلوم أن من يسيره بسيرة العدل فإنه حتماً سوف يرضي جماعة مستضعفة ، ويغضب منه جماعة أخرى من ذوي الجاه والسلطان والمال وما إلى ذلك . فالسير بطريق العدل والصواب - وهو وضع الشيء في موضعه - يخلق حالة من الغضب عند شريحة عريضة من المجتمع ^(١) . ونضرب مثالاً على هذا ، وهو أن الحكم لو أراد مثلاً أن يلغى المصارف الربوية فإن الطبقات العامة سوف يرضون بهذا ويستبشرون به ، ويشجعون الحكم عليه ويساعدونه ؛ لأنّه يكون بهذا القرار قد خلّصهم من هؤلاء المرابين الذين يمتّصون عرقهم وكسفهم بغير وجه حقّ ، كما أنه يكون بهذا قد حقّ لهم مكسباً من المكاسب وهو حفظ أموالهم .

هذا في حين أن الطبقة المرابية التي كانت مستفيدة من النظام القديم سوف تعلن غضبها وثورتها واستنكارها لهذا القرار ، وتعتمد إلى خلق الفتنة والمشاكل ضده ؛ كي تطيح به ؛ لأنّه يكون قد أضرّ بمصالحها ، وقد سدّ على أفرادها باباً من أبواب الرزق وإن كان رزقاً غير حلالٍ وغير مشروع .

(١) ورد عن النبي الأكرم عليه السلام قوله: «ما ترك الحقّ من صديق» . كشف الخفاء ١ : ٣٦٢ . ١١٥٥ / ٣٦٣

والمستفيدون من البنوك الربوية كما هو معلوم هم أصحاب رؤوس الأموال الذين يفترضون سلفاً بأن هذا الحاكم إنما يريد ضرب مصالحهم عبر إغلاق الأسواق في وجه استثماراتهم الربوية، ومعاملاتهم غير المشروعة. وهؤلاء طبعاً هم غالباً ما يكونون في أيديهم الحل والعقد، لأنهم مجموعة التكتلات التي تمتلك وسائل القوة، فهذه الطبقة الخاصة سوف يستثار في نفوسها حقد لا حدود له؛ لأنها ترى من نفسها أنها طبقات مميزة، والطبقات المميزة تفترض أنها يجب ألا تساوى مع الآخرين في التعامل أو العطاء أو الكسب أو ماتملك، بل وعلى كل مستويات الحياة وأصعدتها.

فإذا حصل أن ذلك قد وقع بفعل قرار ترى أنه يسلب منها مكانتها وحقوقها وامتيازاتها فإنها تعمد إلى محاربة هذا القرار، ذلك أنها لا شيء يمكنها من الوقوف في وجه من يحاول مصادرة ذلك منها، بل إنها لا تتوانى عن ترك حتى الواجبات أو المستحبات الأكيدة في سبيل ألا تنزل بنفسها مع الطبقة المتدينة؛ لأنهم يرون أنهم أرفع شأناً وأعلى مكاناً وأسمى مقاماً من هؤلاء الناس الذين يعذّونهم بنظرهم على أنهم من السوق.

والتاريخ يحدثنا أن بعض المسلمين كان لا يصلح جماعة، وكان يقول: إن في هذه الجماعة من يزاحمني من السوق وعليه فلا أريد أن أضع نفسي في موضع مزاحمة معهم؛ أتفة من هذا، وتأنفنا من أن يكون من منزلتهم. كما أنه يحدثنا أن جماعة من قريش وهم عتبة وشيبة وحكيم بن حزام والوليد قد دخلوا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ فقالوا له: نحن نريد أن نجلس إليك ونسمع منك، لكن يمنعنا من ذلك هؤلاء الأراذل الذين اتبعوك، وهم

يحيطون بك.

إذن فإن رضاء الطبقة العامة يؤدي إلى إغضاب وازعاج الطبقات الخاصة المنتفعه بفعل وجودها، ومكانتها، و شأنيتها الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، وما إلى ذلك، ولهذا فإننا نجد أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقدم رضا العامة لأنهم الطبقة المسحورة والطبقة التي تقف مع الحق غالباً. كتب عليه السلام إلى مالك الأشتر قائلاً: «ول يكن أحبت الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمتها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة ينفتر مع رضا العامة... وإنما عmad الدين، وجماع المسلمين، والعدة للأعداء العامة من الأمة»^(١).

ذلك أن العامة هم القاعدة العريضة، وهم الذين يصنعون الحياة بعرقهم، وهم الذين ينسجونها ويصوغونها بكلدهم وتعبهم؛ فلابد إذن أن يعطى الجائع البائس فرصته في الحياة. وهذا هو الذي يفسر لنا كيف أن الإمام علي عليه السلام كان ملتصقاً بالجماهير، متخفياً لهمومهم ومشاكلهم ومعاناتهم، محاولاً أن يضع حدأً لها. لقد كان عليه السلام يحمل على يديه الشر يغتبن أنسات الضعفاء، وألام المكلومين، وتأوهات الجائعين والبائسين.

وهذا بطبيعة الحال قد سبب له مشكلة كبيرة مع أبناء الطبقة الخاصة الذين أعلنوا عصيانهم له وغضبهم منه بمجرد وصوله إلى السلطة، وأخذه الحق ممن أخذه عنوة ودون حق وأرجعه إلى أهله^(٢).

(١) نهج البلاغة / ٥٣، عهد عليه السلام إلى مالك الأشتر.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام عندما انتهت إليه الغلافة: «والله لو وجدتها مهرت بها النساء لرددتها، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق». نهج البلاغة / الكلام : ١٥.

دخل عليه بعض من أصحابه وقالوا له: كيف ت يريد أن تساوي بين الناس؟ سيدهم وعبدهم في العطاء، والواقع يفرض أن يكون هناك تمييز بينهم؟ فرؤساء العشائر مثلاً يجب أن يميزوا بالعطاء عن أفراد عشائرهم، والعرب يجب أن يميزوا بالعطاء عن العجم، فلا يأخذ المولى كما يأخذ العربي على حد سواء، بل لا بد من اعطاء المولى دون ما يعطى إلى العربي، ولهذا فعليك أن تفرق في العطاء في كل ما ذكرنا. فقال لهم الإمام عليه السلام: «أتأنروا أن أطلب النصر بالجور فممن وليت عليه؟ والله، ما أطور به ما سر سمير، وما أَمَّ نجم في السماء نجماً. لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله تعالى»^(١).

وهذا كله قد أوجب سخط الطبقة الخاصة عليه بل وحتى الأدباء والشعراء، كجريير وغيره الذين تعودوا أن يأخذوا أموالاً من الطغاة والسلاطين بغير حق، ذلك أنهم كانوا يأخذون أموالاً من المدح الكاذب، مما دفع بجريير هذا وغيره من الشعراء إلى تركه والالتحاق بمعاوية، يقول أحد الشعراء:

أنا لا أريد الشعر إن جذت بنا نوب يختفي ما عناه ويقبح	أو أن يسباع فيشتري إكليله تاج من المدح الكذوب مرضعه
---	--

فهذا يأخذ أموال غيره ويذهب بها بكلمة أو كلمتين دون أن تكوننا بوجه حق، ولو أنها كانت بوجه حق لأن يكون الممدوح يستحق كلام مادحه فإنه يمكن أن يهون الأمر، ويمكن أن يقال حينئذ: إنه لا يأس به، أما إذا كان الممدوح غير أهل لهذا فإنه يكون قد اكتسب هذا المال عن طريق

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٢٦.

الكذب وكلام الزور.

إذن فهو لاء يكسبون الأموال من غير حلها ويأخذونها ثم ينفقونها في غير حل كذلك، في حين أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن ليعطي المال لجرير وأمثال جرير؛ ولهذا فإنه كان ممن تخلف عن بيعته والتحق بمعاوية كما ذكرنا. وكذلك تخلف عن بيعته حسان بن ثابت حيث إنه لم يحصل على الأموال التي كان يبغى الحصول عليها من أمير المؤمنين عليه السلام؛ فـأمير المؤمنين عليه السلام كان يمنح عطاءه كله لمن يحتاجه، لكنه لم يكن بالذى يمد يده لبيت مال المسلمين ويأخذ منه ويعطي الشعراة والمتملقين^(١).

وهكذا نجد أن كثيراً من الشعراة والرؤساء قد التحقوا بمعاوية بعد أن منأهم وأعطاهم الأموال الجزيلة، وقد بلغ مقدار ما أعطاهم لبعضهم مئة ألف دينار أو أكثر. دخل الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة، والجون بن قتادة، والحباب بن يزيد أبو منازل على معاوية بن أبي سفيان، فأعطى كل رجل منهم مئة ألف درهم، وأعطى الحباب سبعين ألف درهم.

فلما خرجوا منه وكانوا في الطريق، سأله بعضهم بعضاً عمّا أعطاهم معاوية، فأخبروا بجوائزهم، فرجع الحباب إلى معاوية، فقال له: ما ردك يا أبا منازل؟ قال: فضحتني فيبني تميم، أما حسبي صحيح؟ أولست ذا سن؟ أولست مطاعاً في عشيرتي؟ فقال معاوية: بل أنت كذلك. قال: فما بالك خسست بي دون القوم، فتعطى الأحنف ورأيه رأيه - وكان علوى الرأى والهوى - مئة ألف درهم وتعطيني ورأيي رأيي - وكان عثمانى

(١) قدم على أمير المؤمنين عليه السلام خراج إصفهان، فقال: «أيها الناس، اغدوا فخذوا، فواه ما أنا لكم بخازن». ثم أمر ببيت المال فكتن ونضج، ثم صلّى فيه ركعتين ثم قال: «يا دنيا، غري غيري»، الفارات ١: ٨٤ - ٨٣، وسائل الشيعة ١٥: ١٠٩ - ١١٠، ٢٠٠٨.

الرأي والهوى - سبعين ألف درهم؟ فقال: يا حباب، إني اشتريت منه دينه بما أعطيته، أما أنت فقد وكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفان، فلاني أبقيت لك دينك؛ لأنك عثماني، وأنا أريد أن أبقيك على عثمانيةتك. فقال الحباب: يا أمير المؤمنين، فاشترِ مني أيضاً ديني. فأتمها له مئة ألف درهم، وألحقه بالأحنف ورفيقه.

ثم لم يأتِ على الحباب بعد ذلك أسبوع حتى مات، ورُدَّ المال بعنه إلى معاوية^(١).

فهذا النمط من الناس كان مستعداً لأن يعيش في ظل معاوية ويبيع دينه، ولم يكن ذا استعداد لأن يعيش تحت جناح أمير المؤمنين^(٢) من غير مال؛ لأنه يرى أنه سوف لن يحصل على ما يحصل عليه من معاوية. وهذا في الواقع الأمر انتكاسة وهبوط بالإنسان عن طريق الإنسانية؛ لأن معاوية وأمثاله كانوا يرون أن المكانة يمكن أن يأخذها الناس عن طريق شراء الضمائر والذمم وببيع الحقيقة والدين والرسول والكتاب والعترة^(٢)، مع أن مثل هذه المكانة ليست بمكانة ذات قيمة، وإنما هي منحدر ومستنقع قدر يلجه أولئك من ذوي النفوس الضئيلة الوضيعة؛ لأنهم قد ساموا بها من باع عليهم مكانتهم هذه بدينه.

وعليه فإن هؤلاء كانوا يرون أن تقديم الإمام^(٣) لل العامة قد أحجف برضاه الخاصة.. الخاصة التي دبرت مصرعه. أما العامة فقد أثروا أنة واحدة

(١) انظر: الغارات ٢: ٧٥٤، تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) أعطى معاوية سمرة بن جندب أربعين ألف درهم ليروي أن قوله تعالى: «(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ بِتَبْغَاءِ مَرْضَأَ اللَّهِ وَاللَّهُ رَزُوفٌ بِالْعَبْدِادِ)» البقرة: ٢٠٧ - نزل في عبد الرحمن ابن ملجم؛ إذ باع نفسه لله عندما ضرب علي بن أبي طالب^(٤). الصراط المستقيم ١: ١٥٢ . النصائح الكافية: ٢٥٣.

حينما صرخ عليه السلام ولم تخرج تلك الآلة والأهة من قلوبهم إلى يومنا هذا.

السبب الرابع: مجده عليه السلام إلى كرسى الخلافة بعد عثمان

فلو أنه عليه السلام جاء إلى الخلافة بعد أبي بكر أو عمر لما حصل كل هذا، ولما وصل به الأمر إلى أن يحارب وأن يقتل . وبيان ذلك أن الأمور بعد الخليفتين الأولين كانت طبيعية إلى حد ما ، فقد كانت الأمور بيد الخليفة نفسه يسيرها كيف يشاء ، أما بعد مجيء عثمان إلى الحكم فإنه لم يكن سوى صورة وواجهة للحكام الحقيقيين الفعليين الذين كانوا يديرون الحكم ويدبرون دفته ، وهم بنو أمية ، ويمثلهم - على رأسهم - مروان بن الحكم الذي حكم المسلمين باسم الخليفة عثمان الذي لم يكن أمامه سوى شكل وصورة كما ذكرنا .

مؤاخذته عليه السلام على أسلوب عثمان في الحكم
وعليه فلابد هنا من أن نشير إلى جملة من مؤاخذته عليه السلام على أسلوب عثمان في الحكم ، ومنها :

الأولى: تسلیمه مقاليد الحكم لمروان

ومروان ورهطه هم الفتنة التي طردها رسول الله عليه السلام من المدينة المنورة ونفاهما منها^(١) ، لكن عثمان أعادهم إليها ، فاستغلوا الظروف التي كان عليها ، وحكموا حكماً حقيقياً باسمه .

(١) حيث إنه عليه السلام طرد الحكم أبا مروان إلى الطائف . انظر : الإحکام في أصول الأحكام (ابن حزم) ٢ : ٢٠٣ ، مجمع الزوائد ٨ : ٤٣ ، المعجم الكبير ١٢ : ١١٥ ، شرح نهج البلاغة ١ : ١٤٩ ، ٦٠٢٠ : ٣٢٢٥

الثانية: إيثاره أقرباءه بمال المسلمين

وهذا الأمر - جعل عثمان مجرّد علامة في الحكم - أدى إلى حدوث نوع من التسيب لا حدود له ، وعندما جاء الإمام علي عليه السلام إلى الحكم عمل جاهداً على إصلاح ما أفسده هؤلاء ، لكنه وجد الأمر في غاية الصعوبة والتعقيد ؛ فمثلاً أنه عليه السلام قد وجد أن خمس أفريقيا قد أعطي إلى مروان بن الحكم ؛ ولذا فإن من الصعب على مثل هذا أن تجود نفسه بإرجاع هذه الأموال إلى بيت مال المسلمين بعد أن طوّعت له أخذها بغير وجه حق ، فهو لم يكن ليترتضى أن يعطي ما يملك من أموال هي في الحقيقة أموال المسلمين إلى بيت المال ثم يرجع فيأخذ عطاها منه حاله في ذلك حال أدناهم دون أن تكون له ميزة عليهم .

الثالثة: تعطيل حدود الله لاعتبارات شخصية

كما أنه عليه السلام قد وجد أن حدود الله قد عطلت ، فقاتل الهرمزان ونظائره لم تقم عليهم الحدود ؛ ذلك أن إقامة الحدود تستوجب غضب جهات معينة ، وليس هناك صلابة عند أولئك الذين سلموا كرسي الحكم بأن يأخذوا بحق الله وبحق المظلومين من هؤلاء . وهذا ما حدا بأمير المؤمنين عليه السلام - بمجرد أن جاء - إلى أن يصلح الأوضاع المتردية ، وكان إصلاحها أصعب من العسير . كما أن الزمن كذلك لم يسعفه ، إذ لم يكن لديه وقت كافٍ لإصلاح كل تلك الأخطاء ، وكل ذلك الخلل الذي وقع فيه من سبقه .

ثم إنه يؤخذ عامل الزمن بعين الاعتبار ، عند محاولة دراسة آثار تلك الظاهرة وعلاجها والقضاء عليها ، فقد كانت خلافته أربع سنوات وثمانية

أشهر تقريباً، وهي فترة قصيرة سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار فيها مجموعة الحروب التي استنزفت كلَّ هذه الفترة، وهو ما دفع به عليه السلام لأن يعمد إلى إصلاح كل هذه الأخطاء منذ لحظة وصوله الحكم، أو منذ لحظة اعتلائه كرسي الخلافة.

السبب الخامس: المساواة بين العرب والموالي

ولبيان هذا الأمر نروي هذه الحادثة، حيث إنه عليه السلام كان في يوم من الأيام جالساً في مسجد الكوفة عند بيت المال، فدخلت عليه أمرأة انحدرها مولاية مملوكة والأخرى عربية حرة، تسألانه العطاء، فأمر لكل واحدة منهما بكرَّ من طعام وأربعين درهماً، فأخذت المولاية العطاء الذي أعطيت وذهبت، وقالت العربية: يا أمير المؤمنين، تعطيني مثل الذي أعطيت هذه، وأنا عربية وهي مولاية؟ فحمل أمير المؤمنين عليه السلام قبضتين من التراب وقال: «والله، إنني لا أرى فرقاً بين هذه وبين هذه، (إِنَّ أَخْرَمْكُمْ عَنِّي اللَّهُ أَتَفَاقَمُ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ) ^(١)...». ثم قال عليه السلام لها: «إنني نظرت في كتاب الله عز وجل، فلم أر فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق» ^(٢).

(١) الحجرات : ١٢.

(٢) انظر السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٢٤٩، كنز العمال ٦: ٦١٠ - ٦١١ / ١٧٩٥. وفي الكافي ٨: ٦٩ / ٢٦ أنَّه عليه السلام خطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وإن الناس كلهم أحرار، ولكن الله خوَّل بعضكم بعضاً، فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمنَّ به على الله عز وجل، ألا وقد حضر شيء ونحن مسؤولون فيه بين الأسود والأحمر». فقال مروان لطلحة والزبير: ما أراد بهذا غير كما ثم وزَّع عليه المال، فاعطى كل واحد ثلاثة دنانير، وأعطى رجلاً من الأنصار ثلاثة دنانير، وجاء بعد غلام أسود فأعطيه ثلاثة دنانير، فقال الأنصاري: يا أمير المؤمنين، هذا غلام أعتقده بالأمس تجعلني وإياه سواه؟ فقال عليه السلام: «إنني نظرت في كتاب الله، فلم أجده ولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلاً».

وهذا ليس بالأمر السهل ولا الهين عند هؤلاء، بل انه من الأمور الحساسة والهامة في المجتمع آنذاك، فليس من السهل أو اليسير أن يجد العربي نفسه وقد وضع على قدم المساواة مع الموالي من غير العرب. فهذا من الأمور التي أوجبت سخط المجتمع عليه، وأوجبت بذلك نعمة كبيرة منه عليه عليهم السلام.

المبحث الثالث: علي عليهم السلام يمثل جوهر الإسلام

هذا كله مع أنه عليهم السلام لم يكن يهدف لشيء سوى تجسيد رسالة الإسلام وتجسيد تعاليم السماء الحقة، وهي المساواة بين المسلمين كافة دون فرق بينهم بالنسبة إلى اللون أو العرق والدم وما إلى ذلك. وهذا الأمر أدى إلى حدوث هذه الحروب الداخلية التي اشتعلت أوارها إبان خلافته؛ لأن من حارب لم يكن يريد سوى تجسيد مفاهيم الجاهلية وقيمها. فحرب الجمل مثلاً إنما وقعت لأن طلحة والزبير لم يحصلا على ما كانوا يؤملاه من الجاه والسلطة والأموال، فقد كان عليهم السلام يمنعهما من الوصول إليها؛ لأنها ليست لهما بل هي حقوق المسلمين؛ وبالتالي فإنهما ليس لهما الحق في الأخذ منها.

ثم وقعت بعدها حرب صفين والنهر وان، وكان ضحية المعركة الأخيرة الخوارج؛ لأنهم قد غرر بهم، فهم لم يكونوا سوى أداة منفذة لقتل علي بن أبي طالب عليهم السلام؛ لأن الذي تولى مصرعه وخطط له هم قريش المتمثلة بمعاوية والأشعث بن قيس وعمرو بن العاص. وهنا نجد أن قريشاً قد لعبت الدور الكامل والكبير في اغتيال الإمام علي عليهم السلام، ففي مثل هذه الليلة المشؤومة التي اغتيل فيها الحق والدين. يحدثنا التاريخ أن

معاوية كان يلبس درعاً كاملة حينما خرج إلى الصلاة، وكأنه كان يعرف ما سوف يحدث؛ ولذا فإن الضربة التي تلقاها ضربة خفيفة يراد منها إصابة معاویة بالاغتيال.

فالعملية لم تكن تعدو تمثيلية كتب السيناريو لها معاویة وعمرو بن العاص، وكان المنفذون لها هم الخوارج كما يذهب إلى ذلك محمود عباس في كتابه (اليمين واليسار في الإسلام). وكذلك الأمر مع عمرو بن العاص حيث أنه لم يخرج تلك الليلة إلى الصلاة، بل إنه تكفل المرض وأدعاه ليحمي نفسه من هذه الضربة فقام بتكليف رئيس شرطته للخروج والصلاة مكانه. وكان الأشعث بن قيس ومجموعة من العناصر التي اشتركت في هذه المؤامرة متهميين وعلى أتم الاستعداد للقيام بما خططوا للقيام به ومن أجله، وهو اغتيال أمير المؤمنين ^{عليه السلام}.

ومع كل هذا نجد أن أحد المؤرخين عندما يتناول هذه المسألة يحاول أن يضفي عليها بعضاً قومياً، كما فعلوا في مسألة قتل الخليفة الثاني حيث إنهم اتهموا أبا لؤلؤة، مع أنه لم يكن سوى أدلة منفذة في القتل، وكان المخطط والمنظر لعملية اغتياله هو المغيرة بن شعبة وجماعة من الأمويين الذين كبر عليهم ما كان يفعله عمر في أيامه الأخيرة من انحيازه إلى بني هاشم، واظهاره ملامح الاحترام لهم والميل إلى جانبهم.

وباختصار فإن مواقف عمر في أيامه الأخيرة قد تغيرت إزاء الأمويين والبيت الهاشمي، فقد بدأ يميل إلى أبناء هذا البيت، وكانت قد ظهرت على لسانه عبارات كثيرة في مدحهم وفي مدح الإمام على ^{عليه السلام} حيث إنه كان يحاول أن يدنه إليه، وأن يقربه منه، في الوقت الذي لمس الأمويون منه أنه بدأ يتبعده عنهم. وهنا رأوا أن هذا الأمر سوف يتفاقم، وسيخرج من

أيديهم ويؤول إلى بنى هاشم.

هذا هو السيناريو الحقيقى لمقتل الخليفة عمر، أما ما يذهب إليه البعض من المحللين من أن أبيا لؤلؤة كان قد كلام الخليفة عمر بأن يشفع له عند المغيرة؛ لأن الأخير كان يأخذ منه كل أسبوع مئة درهم - باعتباره مولى له - كجزية أو كضريبة على عمله، فلم يفعل الخليفة ذلك، ولم يكلم المغيرة في هذا الأمر؛ مما أدى إلى حقد أبي لؤلؤة عليه وقتلها، فليس بشيء ذي أهمية.

إن هذا في واقع الأمر ليس مبرراً للقتل، وليس سبباً معقولاً لأن يؤدي إلى أن يقدم أبو لؤلؤة على هذا الأمر، غير أن هذا التفسير وهذا التحليل انتشر لأن الأمويين كانوا وراءه، وأنهم كانوا يريدون له أن ينتشر بهذه الصورة وبهذه الشاكلة. وهذا ما نجده كثيراً في تاريخنا حيث إننا نجد أن هناك الكثير الكثير من القضايا التي لها باطن وظاهر، بمعنى أنها عملة ذات وجهين، فتقراً من وجه واحد ولم تقرأ من الوجه الثاني.

إذن فقضية اغتيال الإمام علي (عليه السلام) ليست كما أرادوا لها أن تكون - أي ذات صبغة قومية - لكنهم حاولوا صبغها بتلك الصبغة، فادعوا أن أحد هؤلاء الثلاثة الذين تكفلوا بقتل الثلاثة هو مولى واسمه زادويه، حيث إنهم يذكرون بأن هؤلاء الثلاثة قد اجتمعوا في الحجّ، وخططوا العملية الاغتيال. لكن من الواضح أن هؤلاء قد صبروا ما يقارب التسعة أشهر لتنفيذ عمليتهم، مع أنه ليس هنالك من مبرر لكل هذا التأجيل، وهذه الفترة هي الزمن المحصور بين ذي الحجة حيث اجتمعوا وخططوا، وبين رمضان حيث تفرقوا ونفذوا.

غير أن الحقيقة هي أنهم اجتمعوا في عمرة في مكة ورتبوا الأمر هناك،

وكان الأشعث بن قيس حاضراً معهم ومتهياً للوفير كلَّ ما يحتاجونه لهم، ووضع نفسه في خدمتهم ومساعدتهم في تحقيق أمر اغتيال أمير المؤمنين عليه السلام الذي عزماً على إقامته. والذى يدعم هذا الطرح أبيات مشهورة لأبي الأسود الدولى الذى كان يعيش في قلب الحادثة، حيث يقول:

فلا قررت عيون الشامتينا بخير الناس طراً أجمعينا أبو حسن وخير الصالحينا نعم جائ في بلدينينا نوى فيما وصي المسلمينا وحشن صلاته في الرايعينا بأنك خيرهم حسناً وديتنا فيان بقية الخلفاء فيما ^(١)	ألا أبلغ معاوية بن حرب أفي الشهر الحرام فجتمعونا ومن بعد النبي فخير نفس كأن الناس إذ فقدوا علينا وكنا قبل مهلته بخير فلا والله لا أنسى علينا لقد علمت قريش حيث كانت فلا تشم معاوية بن حرب
--	--

يروى المؤرخون أن عمرو بن العاص لما بلغه نعي أمير المؤمنين دخل على معاوية فأخبره الخبر وقال له: إن الأسد الذي كان يفترش ذراعيه في العراق قد قضى نحبه. فقال:

قتل للأرانب ترعى أينما سرحت وللضياع بلا خوف ولا وجع^(٢)

إذن، فيد الأمويين وما ربهم كانت واضحة في عملية اغتيال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي بمصرعه صرخ الحق وصرع الدين،

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٨، تاريخ الطبرى ٤: ١١٦، المعجم الكبير ١: ١٠٣، أنساب الأشراف ٥: ٨٠، الكامل في التاريخ ٣: ٣٩٥.

(٢) ناسخ التواريخ (القسم المختص بحياة أمير المؤمنين عليه السلام) ١: ٦٩٢.

يقول أحد الشعراء:

وليتها إذ فدت عمرأ بخارجية فدت علية من شاءت من البشر^(١)

فهذه الضربة لم تكن على هامة علي (عليه السلام)، بل إنها قد وقعت على هامة الإسلام، فصرع بمصرعه العدل والاستقامة والدين والحق؛ لأنَّه كان بحق راهباً من رهبان الليل.. كان إذا جن عليه ليله رقم السماء بنظره ينادي ربه ويصلِّي، ويتلو آيات كتابه، حتى جاءت تلك الليلة المشؤومة التي أقصى فيها الإسلام عن الحياة باقصائه عنها. وبعد أن سرى السم في جسده الشريف جاؤوه بأثير بن عمر، وهو كبير الأطباء في ذلك الوقت، الذي أمر بأن يحضروا إليه شاة ويدبحوها ويخرجوا الله رئتها، فاستخرج منها عرقاً وأنزله في دماغ أمير المؤمنين (عليه السلام)، فلما أخرجه التفت إليه وقال: سيدِي أوصِن وصيتك، واعهد عهديك؛ فإن ضربة عدو الله قد وصلت إلى أمِّ رأسك.

يقول الأصيغ: لما دخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام) ووقع بصرِي عليه رأيت رأسه وقد عَصَب بعصابة صفراء فوالله ما أدرِي أوْجَهه أشدَّ اصفراراً أم العصابة، فبكَيْتُ، وكان رأسه على صدر ابنِه الإمام الحسن (عليه السلام)، فتضَدَّ وجهه عرقاً، فمَذِّ الإمام الحسن (عليه السلام) يده إلى جنبيه واستخرج منديلاً وراح يمسح به العرق عن وجه أبيه، وهو يقول: «أبا، أراك وقد تكلَّل جبينك عرقاً؟». قال: «بني إن المؤمن إذا نزل به الموت عطف عرنيته، وسكن حنيته، وعرق جبيته»^(٢).

(١) كشف الغمة ٢: ٦٦، سبل السلام (المسقلاني) ٢: ١١.

(٢) قطعة منسوب ذيلها - من قوله: عطف - لأمير المؤمنين (عليه السلام) من خطبته خالية من الأنف.

يقول المؤرخون: كان **علي** بين الأونة والأخرى يرمي السماء بطرفه ويقول: «رفقاً بي ملائكة ربِّي، لمثلها فليعمل العاملون»^(١). فلما سمعه عياله علت أصواتهم بالندب والبكاء:

الليله مسه المحراب خالي	يُعماد خيمتنا يغالي
ما جنت افلن لن الليله	بيك اشقدر وتخيب آمالي

* * *

هذى المحاربِ أين القائمون بها والليلُ مُرخٌ من الظلماء أستارا



انظر: شرح نهج البلاغة ١٩: ١٤١، كنز العمال ١٦: ٢١١، ٤٤٢٣٤، وعليه فليس فيها: إن المؤمن إذا نزل به الموت.

(١) وفيات الآية: ٥٨.

{١٨}

عليه ميزان العدل

من خطبة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام:

«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان
منا منافسة في سلطان ولا لالتماس شيء
من فضول العظام ، ولكن لنرة المعالم من
دينك : فتَقَامُ الْمُعْتَدَلَةُ مِنْ حَدُودِكَ ، وَيَأْمُنُ الْفَعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ . اللهم إني أول من
أناب ، وأسلم وأجاب ، لم يسبقني أحد بالصلة إلآ رسول الله صلوات الله عليه وسلم »^(١) .

المباحث العامة للموضوع

مقدمة حول بعض الاجتهادات المخطوئة في صدر الإسلام

هذه الخطبة تعدّ من المواطن التي أعرب فيها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام
عن تحليل بعض مواقفه ، وبالذات موقفه في الصدر الأول . والمسألة في
الواقع هي جواب لسؤال مضرمر في النفوس ؛ لأن بعض الناس يتساءل: إن
ما نعرفه عن علي عليه السلام من هيكله ووضعه العام أنه ليس إنساناً حباً للدنيا أو
الكرسي ، أو يتهالك على شيء من الرغائب المؤقتة ، فلماذا إذن وقف

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٢١

موقف السلبية من الصدر الأول، فامتنع عن البيعة مدة من الزمن ثم أخذ يبدي تذمّره من بعض التصرّفات؟ فما هو الدافع الذي دفعه لذلك؟ وهنا لا بد من السؤال: هل إن الوضع العام في الصدر الإسلامي كان منحرفاً عن الإسلام، أو أنه في خطّ الإسلام ولكن فيه اجتهادات مخطوئة؟ فإن كان منحرفاً عن الإسلام فالواجب على الإمام (عليه السلام) أن يجاهد ويقاتل ولو بنفسه. فهذا الفرض إذن لا سيل إلى الأخذ به، ولا بد من الأخذ بالفرض الثاني وهو أن الوضع كان في خطّ الإسلام لكن فيه اجتهادات مخطوئة. ويعتبر آخر فإن هناك مناهج تختلف عن منهج الإمام (عليه السلام) الذي يتضح عندما قال له عبد الرحمن بن عوف: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله (عليه السلام) وسيرة الشيوخين. فقال له (عليه السلام): «بل على كتاب الله وسنة رسوله، وأجتهد برأيي» ^(١).

فالمسألة إذن أن الخطّ كان خطّاً إسلامياً، وهذا هو الذي يفسّر لنا موافقه (عليه السلام) الإيجابية؛ كإرسال أبنائه إلى الفتوحات ^(٢)، ووقفه مراراً وهو يشارك بالنظرية وإبداء الرأي ^(٣)، وحضوره الاجتماعات والمجالس ^(٤)،

(١) المسترشد في الإمامة (الطبراني الشيعي): ٣٦٥، بحار الأنوار ٣١: ٣٩٩، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٨، وانظر المحصول في علم الأصول ٦: ٨٦.

(٢) انظر: طبقات المحدثين بأصبهان (ابن حبان) ١: ١٩١، تاريخ جرجان: ٤٨.

(٣) كما في قضية التاريخ في الإسلام وتحديد بدايته، فقد اختلف المسلمون حول ذلك في خلاقة عمر بن الخطاب: حيث قام لعمر ف وقال: أرّخوا ب بتاريخ الروم، فإنهم يوزّعون من عهد ذي القرنين. فقال لهم أمير المؤمنين (عليه السلام): «أرّخوا من هاجرة رسول الله (عليه السلام)». فرضوا بذلك. انظر: تاريخ الطبرى ٢: ٢، الكامل في التاريخ ١: ١١.

(٤) فقد ذكر التاريخ لنا كثيراً هائلاً من قضاياه العجيبة التي حكم بها أيام الخلفاء قبله، ومن رام الاستزادة فليرجع إلى كتاب (قضاء أمير المؤمنين (عليه السلام)) فقد ترك لنا فيه ثروة كبيرة في هذا المجال، ومنها مارواه المفترضون والمحدثون والفقهاء والمؤرخون، انظر مثلاً: مسند أبي داود

وهذا بداع حفظ بيضة الإسلام.

فالخطأ إذن خطأ إسلام، ولكن هناك منهج فيه أخطاء، وهو في نظر الإمام عليه السلام لا يؤدي إلى الإسلام بالشكل المطلوب الذي يريد هو. فليست المسألة هي ضم جماعة إلى جماعة، أو ضم قطعة من الأرض إلى قطعة أخرى، وإنما هي مسألة صنع مسلم حقيقي. وهذه النقطة هي التي اختلفت فيها المناهج.

المبحث الأول: أنه عليه السلام أرفع من أن ينافس في سلطان

يقول الإمام عليه السلام: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان». وقد تستغرب من هذا الأسلوب، وهو أن الإمام عليه السلام يستشهد بالله، ويضع في صدر خطبته هذا اللون من التأكيد مع أن منزلته فوق الشبهات، فما هو الدافع لذلك؟ الدافع هو أن الدعاية كانت عاتية أقوى من الواقع، وغالب الناس سُدج تأخذهم الدعاية، وليس بعيداً عنك ما يحدث في زماننا من أثر الدعاية التي تجعل من بعض الأصنام أنساناً، فتقلب الحق باطلأ، وتغير النظرية رأساً على عقب. فالناس يعيشون الواقع، ولكن لا يعيشونه بعقولهم إنما بأذانهم، ورحم الله شوقياً حيث يقول:

ملأ الجو هنافاً	بحياة قاتلية
بساته من ببغاء	عقله في أذنيه

فالدور الدعائي له من الإمكانيات أن يقلب الحق باطلأ وبالعكس. فالإمام عليه السلام ينطلق من هذا الواقع لطرد هذه الشبهات عن الأفهام، فهو

يقول لهم: لا تتصوروا أن ما ترونـه من موقفـي هو بـدافعـ من الرغـائب المؤـقـنةـ، وإنـماـ هوـ فيـ خطـ المـبدأـ العامـ، ولاـ تـتصـورـواـ أنـهاـ قـضـيـةـ شخصـيـةـ أـبـداـ، أوـ أـنـ منـ وـرـاءـ مـوقـفـيـ السـلـبـيـ هـذـاـ أـهـدـافـاـ ضـيـقةـ تـعودـ عـلـىـ بـالـنـفـعـ. والـدـلـلـيـلـ عـلـىـ ذـلـكـ أـنـ الإـنـسـانـ إنـماـ يـرـيدـ السـلـطـانـ إـمـاـ لـإـرـضـاءـ شـعـورـ بـالـنـفـصـ فـيـ دـاخـلـهـ، فـهـوـ يـرـيدـ أـنـ يـشـعـرـ أـنـ النـاسـ تـنـحـنـيـ لـهـ وـتـسـمـعـ وـتـطـيـعـ وـهـوـ يـأـمـرـ وـيـنـهـيـ وـيـفـعـلـ مـاـ يـشـاءـ، أـوـ لـاستـفـادـةـ مـنـ حـطـامـ كـالـمـالـ وـالـكـرـسيـ وـالـمـرـكـزـ. وـهـذـانـ كـلـاهـمـاـ غـيـرـ مـوـجـودـينـ عـنـدـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عليـهـ السـلـامــ، وـسـيـرـتـهـ أـوـضـحـ دـلـلـيـلـ عـلـىـ ذـلـكـ ؟ـ فـهـوـ ذـوـ نـفـسـ قـوـيـةـ مـتـكـامـلـةـ لـاـ تـشـعـرـ بـأـيـ لـونـ مـنـ أـلـوـانـ الشـعـورـ بـالـحـاجـةـ إـلـىـ الـغـيـرـ ^(١)ـ، وـهـوـ الصـادـقـ الـأـمـيـنـ الـذـيـ أـعـرـبـ عـنـ هـذـاـ بـقـولـهـ: «ـوـالـلـهـ لـاـ يـزـيـدـنـيـ كـثـرـةـ النـاسـ حـوـلـيـ عـزـةـ، وـلـاـ تـفـرـقـهـمـ عـنـيـ وـحـشـةـ» ^(٢)ـ. وـهـذـاـ الـذـيـ آـمـنـ بـهـ جـسـدـهـ عـلـىـ أـرـضـ الـوـاقـعـ، فـقـدـ دـخـلـ عـلـيـ جـمـاعـةـ مـنـ أـصـحـابـ وـأـرـادـوـاـ مـنـهـ أـنـ يـتـهـاـوـنـ قـلـيلـاـ مـعـ الـبـعـضـ عـلـىـ حـسـابـ الـمـبـادـئـ، فـلـمـ يـفـعـلـ. وـمـنـ جـمـلةـ مـنـ دـخـلـ إـلـيـهـ مـالـكـ الـأـشـتـرـ فـقـالـ لـهـ: مـاـذـاـ تـصـنـعـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ؟ـ الـأـولـىـ أـنـ تـنـفـضـ الـرـؤـسـاءـ عـلـىـ سـائـرـ النـاسـ، وـالـعـربـ عـلـىـ الـمـوـالـيـ، وـتـسـتـمـيلـ مـنـ تـشـكـ فـيـ وـدـهـ. فـتـبـسـمـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عليـهـ السـلـامــ، وـبـلـهـجـةـ الـوـاثـقـ الـذـيـ لـاـ تـزـيـدـهـ الـحـيـاةـ إـلـاـ شـعـورـاـ بـالـسـمـوـ

(١) خـرـجـ عليـهـ السـلـامــ عـلـىـ أـصـحـابـ يـوـمـاـ وـهـوـ رـاكـبـ، فـمـشـواـ مـعـهـ، فـالـتـفـتـ إـلـيـهـمـ فـقـالـ: «ـلـكـمـ حـاجـةـ؟ـ». فـقـالـوـاـ: لـاـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ، وـلـكـنـ نـحـنـ أـنـعـشـيـ مـعـكـ. فـقـالـ لـهـمـ: «ـاـنـصـرـفـواـ؛ـ فـإـنـ مـشـيـ الـمـاشـيـ مـعـ الـرـاكـبـ مـفـسـدـةـ لـلـرـاكـبـ وـمـذـلـةـ لـلـمـاشـيـ»ـ.

وـرـكـبـ مـرـةـ أـخـرىـ فـمـشـواـ خـلـفـهـ فـقـالـ: «ـاـنـصـرـفـواـ؛ـ فـإـنـ خـفـقـ النـعـالـ خـلـفـ أـعـقـابـ الـرـجـالـ مـفـسـدـةـ لـقـلـوبـ الـنـوـكـيـ»ـ.ـ الـمـحـاسـنـ ٢: ٦٢٩ـ، ١٠٤ـ، مشـكـاةـ الـأـنـوارـ: ٣٦٤ـ.

وـالـنـوـكـيـ:ـ الـحـمـقـنـ لـسـانـ الـعـربـ ١٠: ٥٠١ـ نـوـكــ.

(٢) نـهجـ الـبـلـاغـةـ /ـ الـكـتـابـ: ٣٦ـ

والرفة مهما وصلت ، قال بِلَه لهم: «أتريدونني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله ، لا أفعل ذلك ما طلت شمس ، وما لاح في السماء نجم»^(١) . إنه بِلَه يقول لهم: أنا لا أسحق مصالح الجماهير من أجل كرسي أجلس عليه ، ولا أعتدي على حقوق الناس من أجل شيء تافه لا يعدل شيئاً . يقول أحدهم في علي بِلَه :

ورداً فعندك للعطاش معين	إني أتيتك أجتليك وأيتفي
وقع الزمان وأسْهُدْ متين	وأغضُّ من طرفي أمام شوامخ
بسنائهما مروان أو هارون	وأراك أكبر من حديث خلافة
عصفت بك الشورى أو التعين	لك بالذفوس إماماً فيهونَ لو
وضراوة ابن البناء متين ^(٢)	فدع المعاول تزبنَ قساوة

فهو بِلَه يقول: لو كانت الأموال لي لواستيت بينهم ، فكيف وهي أموال الله تعالى وأموالهم ؟

وهذه المفاهيم كانت غريبة كثيراً عن العصر الذي كان يعيشه أمير المؤمنين بِلَه ، فقد كان الحاكم آنذاك يرى نفسه أنه ظلّ الله وخليفته في الأرض ، يقول معاوية: المال مال الله وأنا خليفة الله ؛ إن شئت أعطيت ،

(١) الأحمالي (الطوسي): ١٩٤ / ٣٢١، ونسب العتاب فيه لجماعة من أصحابه بِلَه ، وفي نهج البلاغة / الكلام: ١٢٦ ما نصه: «والله ، ما أطور به ما سر سير ، وما أَمْ نجم في السماء نجماً . لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف ، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ، ويكرمه في الناس وبهينه عند الله . ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم ، وكان لغيره ودهم . فإن زلت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشرّ خدين والأم خليل » . وكما مرّ من محاولات المغيرة ، انظر: بحار الأنوار ٤٢: ١٧٠ ، مروج الذهب ٢: ٣٩١ ، شرح نهج البلاغة ٦: ٢٠١ .

(٢) ديوان المحاضر ١: ٢٠.

وأن شئت منعت . وهذه هي العقلية التي كانت سائدة حينذاك ، ولكن أمير المؤمنين ﷺ يأتي حاملاً هذا المفهوم الجديد: الأموال أموالهم ، وأنا أمثل مصالحهم . وهذا اللون من الفكر - كما قلنا - جديد جداً على المنطقة والبيئة اللتين عاش فيها أمير المؤمنين ﷺ .

فلم يكن الكرسي بالذى يستهوي علياً ﷺ ويستميله ويزيده شيئاً من الشعور بالرثى والخبلاء ، بل العكس هو الصحيح ، فالتراب الذى يجلس عليه والى جانبه بعض رفاقه الذين يألفهم ويأنس بهم ويميل اليهم نفسياً أكبر في عينه وأللّ لنفسه وأمتع لقرارته من أن يجلس على كرسي يرى أنه جلس عليه بغير حق ، إنه أبعد عن هذا وأكبر .

وفي الوقت نفسه لم يكن يرى أن التكامل الجسدي يمر عبر ملابس زاهية مُحَلَّة بالذهب يتباهى بها ، أبداً ، يقول ﷺ: «ولقد رقعت مدرعي حتى استحييت من راقعها ، وحتى قال لي قائل: ألا تبذرها عنك؟ فقلت اعزب عنني ، فمند الصباح يحمد القوم السري»^(١) .

وكان ﷺ يقول: «ما على ولنعم يفتن ولذة لا تبقى؟»^(٢) .

ولئن أبى ﷺ أن يلبس رداء من هذا النوع ، فقد لبس رداء الحمد ضافياً على امتداد السنين ، يقول أحد الشعراء:

فيوشك أن يمسى كما شئت خاويا
على قمه ثُرُوى وما زال راويا
ليسا له أياماً وابت ليساليا

ابا حسن إن ربعوا بك ذستهم
فانت حديث الدهر ما زلت طافحاً
وانت حديث الدهر مهما تناشت

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠ ، عيون الموعظ والحكم: ٤٠٥ ، وقد رأينا أنه ﷺ يشتري الثوبين بخمسة دراهم فيلبس ذا الدرهمين ويعطى ذا الثلاثة دراهم لقنبر . انظر روضة الوعاظين: ١٠٧ .

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤ .

أرد بباطراني عليك الطواريا
عليك فما شاني وشان ثنائي

وما مدخلتي توليك فخرأ وإنما
إذا الملا الأعلى تحذر بالثنا

المبحث الثاني: من مظاهر زهده عليه السلام

ثم قال عليه السلام: «ولا لات manus شيء من فضول الطعام». وما قيمة الأموال^(١) عند هذا العملاق الذي كان يرى في الرغيف كفاية له^(٢)، وفي المرفعة ثوبأً له، ويأبى أن يمد يده إلى طعام مالم يكن طيباً^(٣). وماذا خلُف من الأموال عند استشهاده؟ لقد أوقف كل مالديه في سبيل الله^(٤)، وكل ما خلفه سبعمئة درهم كان قد خصصها لشراء أجير كانوا بحاجة إليه في البيت يساعدهم في نقل الماء والخطب وغير ذلك^(٥)، وكان أمير

(١) لقد عاش عليه السلام ومات وما بني لبنيه على لبنيه، ولا قصبة على قصبة، تهذيب الأسماء: ٢، ٣٤٦، أسد العابدة: ٤، ٢٤، مناقب أمير المؤمنين (الخوارزمي): ٧٠، البداية والنهاية: ٨، ٥٥. وقد باع عليه السلام سيفه وقال: «لو كان عندي ثمن عشاء ما بعنته». كشف المحجة: ١٢٤. وقد قال عليه السلام: «أنا الذي أهنت الدنيا». ترجمة الإمام علي (ابن عساكر): ٢٠٢، ٣: ٥، البداية والنهاية: ٨، ٥.

(٢) وهو عليهما السلام القائل: «والله لو شئت لا هديت الطريق إلى مصنفي هذا العمل...»، وسيأتي. نهج البلاغة / الكتاب: ٤، ٤٥. والقائل: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله». الدعوات: ١٢٨، ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد ابن سليمان): ٢، ٨٢ / ٥٦٧، تاريخ مدينة دمشق: ٤٨، ٢٣٠، كنز العمال: ٣ / ٧٨٢ / ٧٨٤١.

(٣) أي مكتسباً من جل.

(٤) فقد وقف عليه السلام على الحاج منة عين استبطها في ينبع، مناقب آل أبي طالب: ٢، ١٢٣، وقد تصدق عليه بكل حواططه وما استبط من عيون ووقفها على المسلمين، ولم يُبَقِ منها شيئاً حين وفاته كما هو صريح خطبة ولده الحسن السبط عليه السلام حين توفي والده. الفتوح (ابن أثيم): ٤: ١٤٦، ترجمة الإمام علي (ابن عساكر): ٣، ٥٨، ٦٠.

(٥) الإمامة والسياسة: ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أثيم): ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة): ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام: ٢: ٢٠٧. وقد أمر برد هذا المبلغ إلى بيت المال بعد وفاته كما ذكره الإمام الحسن عليه السلام في خطبته. الفتوح (ابن أثيم): ٤: ١٤٦، وقد مرّ ما في هذا الهاشم

المؤمنين عليهم السلام يتولى ذلك بنفسه، فكان ينقل الماء والخطب حتى في أيام خلافته، وكان يخرج صباحاً يدور في الأسواق ثم يرجع ويده شيء من التمر الذي أشتراه من ميثم التمار عليه السلام، فيلتقيه شرطة الخميس ويطلبون منه حمل هذا التمر عنه فيقول: «أبو العيال أحق بحمله»^(١). فيحمله إلى البيت، ويقوم بأعماله البيتية كأي إنسان عادي^(٢)، ثم يأتي إلى دكة القضاء.

فكان عياله بحاجة إلى من يساعدهم، ولذا كان يدخل من عطائه الخاص شيئاً ليأخذ لعياله أجيراً يساعدهم في البيت. والزهراء عليها السلام نفسها من قبل كانت تطحن بيدها عند إقامة أمير المؤمنين عليه السلام في المدينة؛ ولذلك فإن هذه الطيوف تلاحق الإنسان وهو يدخل إلى القبر النبوى الشريف، يقول أحد الشعراء:

لـجـبـرـيـلـ مـنـ جـنـعـيـهـ رـيشـ مـزـعـبـ	وـغـفـرـتـ خـذـيـ فيـ شـرـىـ مـشـ غـفـرـةـ
بـهـنـ ضـرـاعـاـثـ إـلـىـ اللـهـ ثـنـضـبـ	وـفـيـهـ مـسـحـارـيـبـ لـآلـ مـحـمـدـ
إـلـىـ الـحـسـنـيـنـ الزـاـكـيـيـنـ وـمـلـعـبـ	وـأـثـازـ أـقـدـامـ صـفـارـ وـمـهـجـعـ
إـلـىـ جـلـدـ كـبـشـ حـيـثـ تـجـلـسـ زـيـنـبـ	وـصـوـثـ رـحـىـ الزـهـراءـ تـطـحـنـ قـوـتـهـاـ
وـتـبـقـىـ عـلـىـ رـغـمـ الـبـسـاطـةـ نـاـشـبـ	رـوـىـ سـوـفـ يـبـقـىـ الـدـهـرـ يـرـوـيـ جـلـالـهـاـ

فكل ما كان عند أمير المؤمنين عليه السلام هو هذه السبعون درهم التي أراد أن

والهامش الثالثة التي قبله منفصلًا في ج ٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ من كتابنا هذا.

(١) الفارات ١: ٨٩، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٧٢، وفيه: رب العيال، تاريخ مدينة دمشق ٤٢، البداية والنهاية ٨: ٦، كنز العمال ١٣: ١٨٠ / ١٨١ - ٣٦٥٣٧.

(٢) وكان عليه السلام يعمل في خلافته حتى أصاب يديه التجل. الفارات ١: ٩٢.

(٣) ديوان المحاضر ١: ١٥، وتأشیب: تجمع. لسان العرب ١: ٢١٤ - أشب.

يشتري بها خادماً أو جارية لعياله. في حين أن أحد كتاب المأمون مات، فبعث المأمون أخاه المعتصم ليحرر تركته ويحصيها، فاشتغلوا في تحريرها شهراً كاملاً، ثم عادوا إلى المأمون فقال لهم: ما رأيتم؟ فقال المعتصم: لقد ترك ثمانية آلاف ألف دينار - أي ثمانية ملايين دينار باصطلاح اليوم - وهذا الرقم ليس في عصر النفط طبعاً إنما في عصر المعتصم الذي كان فيه الدرهم يشغل عشرة عمال، فالعامل يشتغل بدانق واحد، والدينار ستة دراهم، فالدينار يشغل ستين عاماً.

وهذا الكاتب ترك ثمانية ملايين دينار، فقال المأمون لأخيه المعتصم: ما لك مدلت بها الكلام؟ والله ما كنت أرضها لتابع من أتباعه، اتركوها لأهله^(١). فتركها المعتصم لصغاره، ووهد الأمير ما لا يملك كما يقال. أما على بن أبي طالب، الخليفة الشرعي الذي تجلى له الأموال من الشرق والغرب فلا يترك سوى سبعمائة درهم.

المبحث الثالث: أسباب عدم اهتمامه بالفتוחات

ثم يقول^(٢) في خطبته: «ولكن لنرء المعامل من دينك»، فللدين معالم واضحة ولكن الناس لا يصلون إليها، وإنما يقعون غالباً على الشكليات والمظاهر ولا يقعون على اللباب. فكان^(٣) يريد أن ينشئ مجتمعاً فيه حرارة إيمان، ومنهج إسلام، ومثل هذا العمل يتطلب تغييراً جذرياً للمجتمع والطبياع السائد، وهذا هو السر الذي جعل عصر الإمام^(٤) خالياً من الفتوحات عدا بعض الفتوحات البسيطة؛ لأنَّه^(٥) أراد أن ينشغل بالكيفية لا بالكمية. وهذا أشبه بمن يكون عنده عشرة أولاد بلا

(١) شرح نهج البلاغة ١٨ : ٨٧

علم ولا تربية وأخر لديه ولد واحد كلّه أخلاق وعلم وتربيّة، فهذا الواحد هو حتماً أفضل من أولئك العشرة كما هو واضح.
لقد كان بوسع أمير المؤمنين عليه السلام أن ينصرف إلى الفتوحات، ولا يستطيع أحد أن يتهمه بالجبن، فهو من كان العرب وغير العرب يضربون المثل بسيفه، يقول أحد الشعراء:

بسيف أبي رغوان سيف مُجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن طالب^(١)

نعم قد يكون للانشغال الداخلي، وعدم انتظام الجيش الأثري في انحسار الفتوحات في زمانه، ولكن أحد العوامل المهمة في ذلك هو اهتمامه عليه السلام ببناء الإنسان بناء صحيحاً، فقد دخل عليه السلام إلى الكوفة وكان لا بد له من بناء الإنسان فيها، وقد بني من الناس أمثال صعصعة بن صوحان وزيد أخيه وسويد بن غفلة وهاشم المرقال وعمار بن ياسر وغيرهم، أما الأجيال التي عاصرت الإمام عليه السلام فلا تجد لها أثراً. وهذا هو حال الدنيا عبر التاريخ، فالعبارة أفراد قلائل؛ لأنهم مبنيون بناء صحيحاً. وهذا هو الذي أراده الإمام عليه السلام في تربيته الصارمة التي جعلت البعض يهرب منه إلى معاوية^(٢).

فكان عليه السلام كلما صعد المنبر قال: «سلوني قبل أن تفقدوني»^(٣). فيقوم له من يقول: «أخبرني، كم شعرة في لحيتي؟»^(٤).

(١) البيت للفرزدق، قاله لما ضرب عنق رومي فنبأ السيف عنه، فقال: كأني وابن اليقين وقد مجاني، ثم أنسد البيت. انظر مناقب آل أبي طالب ٢: ٨٣. وروى البيت ومناسبة قوله بشكل آخر في تاريخ الطبرى ٥: ٢٠٦، شرح نهج البلاغة ٥: ٢٢.

(٢) كما مرّ من أمر جرير الشاعر وغيره. (٣) نهج البلاغة / الكلام: ١٨٩.

(٤) خصائص الآية: ٦٦.

المبحث الرابع: من مظاهر تعطيل الحدود في زمن من سبقه
 ثم قال عليهما السلام «فَتَقَامُ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حَدَّوْدَكُ»، وهذه الحدود المعطلة خلقت له مشكلة من أول أيام خلافته، وكم من الحدود كان معطلًا! كما هو الحال مع المغيرة بن شعبة الذي عطل عنده الحد، وذرئ عنه بشكل أو بأخر. ولم يتمكن عليهما السلام أن يغير من الواقع شيئاً؛ لأن تغيير الواقع يحتاج إلى وقت طويل، وألا فإن المغيرة مثلاً كان نصب عينيه، لكن الخليفة الثاني هو الذي درأ عنده الحد^(١)، وال الخليفة الثاني له منهجه، ومن الصعب على الإمام عليهما السلام أن يغير المنهج بهذه البساطة التي تتصورها.

وهناك الكثير من المسائل التي أبقاها كما هي، فقد كتب إلى قضايه: «اقضوا كما كتتم تقضون؛ فإني أكره الاختلاف، حتى تكون للناس جماعة أو أموت كما مات أصحابي»^(٢).

فهو عليهما السلام يقول لهم: أنا صاحب منهج، ولا أستطيع أن أنفذ ما أريد إلا أن أحمل الناس على منهجي، فأنا أحكم شعباً، ولا أريد أن أحكمه بخلاف إرادته وإنما أريد أولاً أن أطوعه وأجعله يرتفع إلى مستوى الشعور بأن رأيي هو الأصوب، وأخلق عنده رأياً عاماً موافقاً لي، وعند ذاك أنفذ مبادئي.

ومن الحدود المعطلة ما كان يستحقه عبيد الله بن الخليفة الثاني الذي

(١) المسترشد في الإمامة: ٢٢٣، الاحتجاج: ٤١٣، المصنف (ابن أبي شيبة) ٦: ٥٦، ٣: ٢.
 شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٢٧ - ٢٣٧، ٢٣: ٢٠٠، المصنف (ابن أبي شيبة) ٤٥٢: ١٣٥٨٩ / ٢٢: ٧، ١٧٧٧٦
 ١٧٧٧٦، الإصابة: ٣: ٣٠٤.

(٢) تهذيب الأحكام ٩: ٢٥٩ / ٩٧٠، صحيح البخاري ٤: ٢٠٨ - ٢٠٩، المصنف (الصنعاني)
 ١١: ٣٢٩ / ٢٠٦٧٧، الأحكام (الأمدي) ٤: ٩، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢، ١٤: ٢٩، ٢٩: ١٤.
 ١٦١.

قتل الهرمزان وشخصاً آخر في المسجد انتقاماً لقتل أبيه على يد رجل فارسي^(١). ولم يكن للهرمزان ذنب سوى أن أحد أبناء جنسه قتل الخليفة، في حين أن القرآن الكريم يقول: «وَلَا تُنْزِرْ وَإِزْرَةً وَزُزَّ أَخْرَى»^(٢). ولذلك لجأ عبيد الله بن عمر بن الخطاب إلى معاوية أول مجيء الإمام^(٣) إلى الخلافة^(٤).

وهناك من الأموال ما كان يعاقب عليه بقطع اليد؛ لأنها سرقت من بيت المال، وينبئ بها البيوت، فراح يسترجعها وله في ذلك قوله المعروف: «والله لو وجدته قد ترثوج به النساء وملك به الإمام لرددته؛ فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»^(٤). ولذا التحق الكثير من المتضررين بمعاوية، وكلف هذا المنهج الإمام^(٥) ثمناً غالياً.

المبحث الخامس: من مظاهر عدله

ثم قال^(٦): «ويأمن الضعيف من عبادك»، هذا الضعف الممحوق الذي يستغل ويتجاهر باسمه، وتسحق أدميته لا بد أن يأمن في دولة العدل. وقد رأينا^(٧) حينما انتهى له الأمر كيف كان يحمل مسؤولية الإنسان الذي يبعد عنه مئات الأميال، يقول في كتابه لعثمان بن حنيف: «والله لو شئت لاحتديت الطريق إلى مصفني هذا العسل ولباب هذا القمع، ونسائج هذا الفرز، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جسمي إلى تخثير الأطعمة، ولعل

(١) السنن الكبرى: ٨، ٦١، وذكر فيه أن عبيد الله احتاج بأنه رأى الهرمزان يدفع أباً لزوجة لقتل أبيه، فتح الباري: ٦، ١٨٩، شرح معاني الآثار (ابن سلمة) ٣: ١٩٤، شرح نهج البلاغة: ٣.

(٢) الأنعام: ١٦٤. ١٠١، ٥٩.

(٣) شرح الأخبار: ٢: ١٣، ٤٠١ / ١٢، بحار الأنوار: ٢٠، الطبقات الكبرى: ٥: ١٧، شرح نهج

(٤) نهج البلاغة / الكلام: ١٥. ١٠١، ٣.

بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشيع، أبيب مبطاناً
وحولي بطون غرثي؟^(١)

وكان ^{عليه السلام} كثيراً ما تعجبه أبيات حاتم بن عبد الله الطائي:

ويا ابنة ذي البردين والأسد الورد	أيا ابنة عبد الله يا أم مالك
أكيلأ فابني لست أكيله وحدي	إذا ما صنعت الزاد فالتمسي لنا
وحولك أكباد تجئ إلى القيد ^(٢)	وحسبيك داء أن تبيت ببيطنة

وانتهى به الأمر إلى أن بيت طاويأ ثلاثة أيام، فنزلت سورة بكمالمها
ترفع عقيرتها آناء الليل وأطراف النهار: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبُّهِ مُسْكِنِنَا
وَيَتَبَيَّنَا وَاسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُخُورًا)^(٣).

يقول الشاعر:

ـ وعاف الطعام وهو سفوـب	جاد بالقرص والطـوى مـلة جـنبـيـ
قرص والمـفرض الكـرام كـسـوبـ	فـاعـاد القرـض المـنـيـز عـلـيـهـ الـدـ

لقد كان هذا الرجل العظيم يطيل النظر إلى الرغيف ويندُّ ذهنه إلى كبد
جائح، ونفس تبيت لا تجد طعاماً، يخرج ^{عليه السلام} إلى السوق، فلا يشتري من
الثياب إلا ما كان بدرهم أو بدرهمين، أما ما بلغ الثلاثة دراهم فيعطيه

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٢) ديوان حاتم الطائي: ٤٢، ولم ينقل البيت الثالث.

(٣) الدرر: ٨ - ٩، وانظر في سبب نزولها: أسباب نزول الآيات (الواحدي): ٢٩٦، شواهد
التنزيل: ٢: ٤٠٣، ٤٠٤ - ٤٠٦، ٤٠٨، زاد المسير: ٨: ١٤٥، الجامع لأحكام القرآن: ١٩
١٢٠، فتح القدير شرح الجامع الصغير: ٥: ٣٤٨ - ٣٤٩، وانظر محاولات نفيها عنه ^{عليه السلام} والرد
على ذلك في محاضرة (المودة في التربين) من ج ٦.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١٩، ١٠١.

لقبر، فقد روي أن أمير المؤمنين عليه السلام أتى سوق الكرايس، فإذا هو برجل وسيم فقال: «يا هذا عندك ثوبان بخمسة دراهم؟». فوثب الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، عندي حاجتك.

فلما رأى أمير المؤمنين عليه السلام أنه عرفه مرضى عنه، حتى انتهى إلى غلام، فقال له: «يا غلام عندك ثوبان بخمسة دراهم؟». قال: نعم، عندي ثوبان بخمسة دراهم. فأأخذ الشوين، وكان أحدهما بثلاثة دراهم والأخر بدرهمين، فقال: «يا قبر خذ الذي بثلاثة دراهم». فقال له: يا سيدي أنت أولى به مني؟ تتصعد المنبر وتحطب الناس. فقال عليه السلام: «وأنت شاب ولك شره الشباب، وأنا استحي من ربى أن أتفضل عليك؟ سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ألسونهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تأكلون».

فلما لبس أمير المؤمنين عليه السلام القميص مذيده في ردن التوب فإذا هو يفضل عن أصحابه، فقال للغلام: «اقطع هذا الفضل». فقطعه الغلام له، ثم قال: يا سيدي، هلّم أكتفه لك. فقال له الإمام عليه السلام: «دعه كما هو؛ فإن الأمر أسرع من ذلك»^(١).

المبحث السادس: في أنه عليه السلام أول من أسلم وأناب ثم قال عليه السلام: «اللهم إني أول من أناب وأسلم وأجاب، لم يسبقني أحد بالصلة إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

فهو عليه السلام يريد أن يقول: إن الذي يشفع لي بصحّة نبيّي أول من ردّ شعار «لا إله إلا الله».

وقد كان ذلك حقاً، فقد بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان أول من صدّقه علي عليه السلام

هو خديجة ؟ ولذلك كانوا (سلام الله عليهم) رفيقي رسول الله عليه السلام في المحنـة وأنيسـيه في الشدـة ، فقد خرج يوماً وقد رمته قريش بالحجارة حتى أدمـته وأبعـده إلى وادـ من الأودـية وبقـى حـنـى الغـروب ، فجـاءـت خـديـجة إلى الإمام علي عليه السلام ^(١) ، فـقالـت لهـ: مـنـذـ الصـبـاحـ ما رـأـيـتـ رسـولـ اللهـ عليهـ السلامـ ، وـقدـ أـخـرـجـهـ أـعـدـاءـ اللهـ ، وـأـنـاـ حـامـلـةـ مـعـيـ شـيـئـاـ مـنـ الطـعـامـ ، فـاصـحـبـنـيـ لـنـبـحـثـ عـنـهـ . وـأـقـبـلـتـ تـنـادـيـ: أـينـ أـنـتـ يـارـسـولـ اللهـ ، أـينـ أـنـتـ يـاـ ثـمـالـ الـيـتـامـيـ ، وـأـخـذـتـ تـجـولـ فـيـ الـوـادـيـ وـعـلـىـ مـعـهـ وـأـضـعـاـ يـدـهـ عـلـىـ قـائـمـ سـيفـهـ ، حتـىـ وـجـدـاهـ طـرـيـحاـ قدـ أـخـذـتـهـ الـحـجـارـةـ ، فـمـسـحـاـ عـنـهـ الدـمـ وـالـتـرـابـ ، وـأـتـيـاـ بـهـ عـلـىـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ وـخـديـجةـ .

وهـذاـ المـوقـفـ العـظـيمـ مـنـ هـذـهـ الـمـرـأـةـ السـيـدةـ الـجـلـيلـةـ يـذـكـرـنـيـ بـمـوـقـفـ حـفـيدـتـهاـ يـوـمـ الطـفـ ، يـوـمـ جـالـتـ فـيـ وـسـطـ وـادـيـ كـرـبـلـاءـ تـبـحـثـ عـنـ جـسـدـ صـرـيعـ ، وـلـكـنـ شـتـآنـ بـيـنـهـمـ ، فـقـدـ وـصـلـتـ جـدـتـهـاـ إـلـىـ النـبـيـ عـلـىـهـ السـلـامـ فـوـجـدـتـهـ حـيـاـ ، فـأـقـامـتـهـ وـحـمـلـتـ مـعـهـ إـلـىـ بـيـتـهـ ، وـوـجـدـتـ زـيـنـبـ عـلـىـهـ أـخـاـهـ صـرـيعـاـ ، وـمـاـ حـمـلـتـ مـعـهـ إـلـاـ دـمـعـاـ تـلـذـعـ عـيـنـيـهاـ ، فـنـضـحـتـهـ بـدـمـوعـهـ ، وـجـلـسـتـ بـجـانـبـ الـجـسـدـ الشـرـيفـ تـمـسـحـ الدـمـ وـالـتـرـابـ عـنـ الـوـجـهـ الـذـيـ طـالـمـاـ اـتـكـأـ عـلـىـ رـسـولـ اللهـ عـلـىـهـ السـلـامـ بـشـفـاهـهـ :

إـذـ لـيـشـ مـسـتـلـ فـقـيـهـ فـقـيـداـ
لـكـنـمـاـ اـنـتـفـعـمـ الـبـيـانـ فـرـيـداـ
ـوـرـقـاءـ تـحـسـنـ عـنـدـهـاـ التـرـدـيدـاـ
ضـعـفتـ فـابـدـتـ شـجـوـهـاـ الـمـكـمـودـاـ

حـتـىـ قـلـمـ ثـرـ مـثـلـهـ نـوـانـحـاـ
نـسـانـتـ فـقـطـعـتـ الـقـلـوبـ لـشـجـوـهـاـ
لـاـعـيـسـ تـسـكـيـهـاـ إـذـ حـتـىـ وـلـاـكـ
تـخـفـيـ الشـجـاـ جـلـداـ فـابـنـ غـلـبـ الـأـسـىـ

(١) في بعض المصادر أنه عليه السلام هو الذي جاءها.

أمسان عيني يا حسين أخني يا
مالى دعوٌث فلا تُجيب ولم تكن
المختة شفتك عَنِّي أم قلن
حاشاك إنك ما بـرحت ودوداً^(١)
عُؤـدتنـي من قـبـل ذـاك صـدـودـاً
أـمـلي وـعـقـد جـسـامي المـنـضـودـاـ

8

الله من يسعد يحسين من نواي
أنداديك ما يشحيلك انداي
ولا تسمم اعتابي ونخواي
ظبني اندقطع وانقطع رجواي



{١٩}

سجدة في محراب علي

خَضَكَ اللَّهُ فِي مَنَابِبِ شَتَّى
 لَسْبَتْ غَيْنَا بِغَيْرِ رَوْضَكَ تَرَغَى
 أَنْتَ بَعْدَ النَّبِيِّ خَيْرُ الْبَرَادِ
 لَكَ ذَاتٌ كَذَاتِهِ حَيْثُ نَوَّا
 مِنْ مِثْلِ الْأَعْذَادِ لَا تَسْتَأْهِنِ
 قَذِيفَتْ وَاسْتَقَرَّ فِيهَا قَذَادِهَا
 وَالشَّعْـا خَيْرٌ مَا بِهَا قَفَزَادِهَا
 أَئْنَـا بِمِثْلِهِ حَيْثُ نَوَّا

(١) ^{أَنَّهَا مِثْلَةً لِمَا أَخْهَاهَا}

المباحث العامة في الموضوع

المبحث الأول: الإمام عليه السلام معجزة في كل أبعاده

وأشار الشاعر الأزرري إلى موطن من مواطن الإبداع، وإلى مورد من الموارد التي تحير الألباب في الإمام عليه السلام، ولابد من الالتفات إلى جوانب تفرض نفسها في ترجمة هذا الرجل العظيم إذا ما أردنا المرور على ترجمته. وأول هذه الجوانب - وهو ما يبعث العجب في النفوس، وما يلفت الأذهان إلى مقدار عناية الله به - هو كيف وصل لنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عبر هذا التاريخ الطويل شخصية متکاملة؟ فنحن لم نواجهه (سلام الله عليه) وجهاً لوجه، بل نحن إنما

(١) تخميس الأزرية (المتن) : ٨٥.

نواجه شخصاً بيننا وبينه من التاريخ أماد طويلة، فنأخذه عن طريق القنوات التي تعكسه لنا.

ولدينا من القنوات نوعان: تاريجية وتقييمية، فالقناة الأولى تروي لنا ملابسات حياة الإنسان؛ كيف ولد، وكيف مات، وما هي صفاتة وميزاته، لكن القناة الأخرى هي قناة تقييم، فعندما يمرّ إنسان ما بأخر فإنه يكون عنه انطباعاً معيناً من خلال معايشته له عبر هذه القناة. وهذا الانطباع قد يرسم ذلك الإنسان بصورة موضوعية وقد يرسمه بصورة متحيزة.

ونحن نعجب أشد العجب كيف وصل إلينا علي بن أبي طالب عليهما السلام بما يحمل من مزايا وما له من شخصية متكاملة عن طريق هاتين القناتين، فالدنيا - إلا ما شد - مرت بها علي عليهما السلام، فأوصلته لنا على الرغم منها؛ لأن التاريخ كتب بيد أعداء علي عليهما السلام، والتقييم مرت على قوم لا ينظرون إلى علي عليهما السلام نظرة المستريح، وقد تلقت عليا عليهما السلام يوم تلقته وقد وتر الدنيا، وتلقاه التاريخ بصورة متشنجـة، فتلقاء الحقد والأضغان والكرامة، وتلقـاه التقييم المـتضارب المـتناقض.

دخل إلى الدنيا وكلـه حـسنـاتـ، ولكن حـرسـنـاتـ التـاريـخـ علىـ أنـ يـقلبـ كلـ حـسـنةـ منـ حـسـنـاتـ إـلـىـ سـيـئـةـ، وـحاـوـلـ الـحـقـدـ أـنـ يـقـلـبـهاـ إـلـىـ مـنـقـصـةـ، وـلـكـنـهـ تـرـاجـعـ خـاصـاـ وـهـوـ حـسـيرـ أـمـامـ صـمـودـهـ.

المبحث الثاني: نماذج من حـيـاةـ عـلـيـ عـلـيـهـ السـلامـ وـظـلـمـ التـاريـخـ لـهـ
 والتـاريـخـ لمـ يـرـوـ عـلـيـ عـلـيـهـ بـصـورـةـ مـوـضـوـعـيـةـ، وـلـمـ يـقـيـمـ مـوـقـفـهـ تـقـيـيـماـ
 صـحـيـحاـ. وـدـعـنـيـ أـضـرـبـ لـكـ بـعـضـ الـأـمـثـلـةـ، جـاءـ عـلـيـ عـلـيـهـ إـلـىـ الـحـيـاةـ
 وـخـرـجـ، ثـمـ أـتـ الـأـقـلـامـ لـنـكـتـبـ عـنـهـ، وـسـنـلـاحـظـ الـآنـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـظـواـهـرـ
 فـيـ حـيـاةـ هـذـاـ الرـجـلـ:

النموذج الأول: الأقلام المأجورة والأمويون

لقد كانت تلك الأقلام تحت سمع معاوية خاصة وبصره، وتحت أسماع الأمويين وأعداء علي وأبصارهم عامة، فكانوا ينظرون إليه نظرة الحقد؛ لأنك لا تستطيع أن تنظر إلى قاتل أبيك ولو قتله بحقّ. وعلى عليه السلام قتل الأقرب والأبعد، وشاء الله له أن يحمل الأولوية في اثنين وثمانين غزوة، ولم يترك بطلًا من أبطال قريش إلا وأشبع منه سيفه، وروى منه رمحه، وأخذ من علق دمائه. أفترى عليه السلام بعد تلك المواقف سيكتب عنه المقتول أبوه والمقتول أخيه كتابة موضوعية؟ كلاً وألف كلاً:

بَدْرُ وَأَحَدُ وَالْهِرَاسُ وَخَيْرُ وَالثَّمَرَوَانُ وَقَبْلَهَا صِفَيْنُ	خَفْ ثَطِيقُ بِهَا وَيَنْدَرُ كَاهِلُ وَيَدْرُ ثَجَدُ وَيُسْجَدُ الْعَرَبَيْنُ
هَذَا زَصِيدُكَ بِالْقُوقُوسِ فَمَا ثَرَى أَيْحَيْكَ الْفَذْبُوحُ وَالْمَطْغُونُ	وَمِنَ الْبَذَاهَةِ وَالْبَذَاهَةِ خَيْةٌ فِي أَنْ يَقْاضِنَ ذَاهِنَ وَمَدِينَ

فهؤلاء الذين كتبوا عن علي عليه السلام هم بين موتوه منه، وبين طامع أنه إذا شتمه فسيأخذ جزاء شتمه له، وبين من أعممه التربة الفاسدة، وبين مضلل أحسن الظن بالتأريخ. وكل أولئك حاولوا أن يهشموه، فراعهم أنه خرج عملاقاً من تلك الأقلام، وأنه لما استهدفته الأقلام كررت منهزمة، وظل في ألفه وبهاته وعظمته، وانحصر عنده التاريخ، وهو أuge جوبة الدنيا ومخرتها.

من معاوية على الصفا والمروة وكان فيهما عبد الله بن عباس، فقال له: يا بن عباس. قال: نعم، قال: أوما بلغك ما أمرنا به؟ قال: وبم أمرت؟ قال: ألا يذكر علي بن أبي طالب. قال: أو تمنعنا من قراءة القرآن؟ قال: لا، قال:

أو تمنعنا من تأويله؟ قال: لا، ولكن أمنعكم من تأويله بالستكم أنتم، قال: أفتريد أن نأخذ القرآن من غيرنا وقد نزل في بيوتنا؟ فقال معاوية: قد أنبأتك فافعل ما تريده^(١).

وأخذ ذلك الموقف أثراً، فكان الناس إذا أراد أحدهم التحدث عن علي عليه السلام لا يقوى أن يأتي باسمه، وكان المؤرخ يقف ويقول: حدثني فلان عن فلان عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو عن أبي زينب. ويقف أحد العلماء فيصف لنا هذه الحالة بقوله: ما نصنع بعلي؟ إن أحبيناه قتلنا، وإن أبغضناه كفربنا^(٢). وهي عبارة تعكس الواقع المرّ بأدق صوره.

ويدخل رجل على إبراهيم بن سلمة بن هرمة - وكان له أبيات في مدح الإمام علي وولده عليه السلام - فيسألـه الرجل: لمن هذان البيتان:

وَمِنْهَا أَلَمْ عَلَىٰ خَبِيرٍ فَإِنِّي أَحَبُّ بَنِي فَسَاطِةَ
بَنِي الْبَيْتِ مَنْ جَاءَ بِالْبَيْتِ تَ وَالْهَذِي وَالسُّئْطَنُ الْقَائِمُهُ

قال: قالـهما من عـض بـيـظـر أـمـهـ. فـلـما خـرـجـ الرـجـلـ سـأـلـ إـبـراهـيمـ مـنـ يـشـقـ بـهـ: أـوـلـسـتـ قـائـلـ هـذـيـنـ الـبـيـتـيـنـ؟ قـالـ: نـعـمـ. قـالـ: فـلـمـ نـفـيـتـهـماـ عـنـ نـفـسـكـ وـأـنـكـرـهـمـاـ؟ قـالـ: وـيـحـكـ، أـيـهـمـاـ أـهـونـ، أـنـكـرـ بـيـتـيـنـ مـنـ الشـعـرـ أـمـ أـشـقـ عـلـىـ بـابـ بـيـتـيـ؟^(٣)

(١) كتاب سليم بن قيس: ٣١٥، مناقب آل أبي طالب ٢: ١٧٤، بحار الأنوار ٤٢: ٣٨.

(٢) نسب قريب من هذا القول في مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦، بحار الأنوار ٩٢: ٤٨١ للشعبي، وهو: «ما ندرى ما نصنع بعلي بن أبي طالب عليه السلام: إن أحبيناه افتقرنا، وإن أبغضناه كفربنا!».

(٣) بيان ثالثهما:

فـلـسـتـ أـبـالـيـ بـحـيـ لـهـ سـوـاهـمـ مـنـ النـعـمـ السـائـمـهـ

وهذا يعكس الواقع المزّ الذي مرّ به تاريخ هذا الرجل، وال فترة العصبية التي مرّت بمن يذكر الإمام علي عليه السلام بخير. وقد وهم الأمويون أن جعلوا سجدة على عليه السلام فاتحة الخطباء على المنابر؛ ظناً منهم أنهم إذا نعموا بأبي تراب فإنما يشتمونه بذلك^(١)، يقول له شاعر:

أَبَا تَرَابَ لِلْتُرَابِ تَفَاخِرْ
الثَّائِشُ مِنْ هَذَا التُّرَابِ وَكُلُّهُمْ
لَكُنْ مِنْ هَذَا التُّرَابِ خَوَافِرْ
فَإِذَا اسْتَطَعْتَ بِكِ التُّرَابَ فَعَادَرْ
وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِ التُّرَابِ فَلَمْ تَمْتَ
لَكُنْهُ يَنْمُو وَيَفْتَرُغُ الْفَرَى
أَنْ كَانَ مِنْ أَمْشاجِهِ لَكِ طَيْنْ
فِي أَصْبِهِ خَمَابِهِ مَسْئُونْ
وَمِنْ التُّرَابِ حَوَاجِبُ وَعَيْوَنْ
فَلَأْنَتْ مِنْ وَجْهِ التُّرَابِ جَبَبِنْ
كَالْجَذْرِ لَيْسَ يَمُوتُ وَهُوَ ذَفِينْ
وَثَرَفُ مَنْهُ بِرَاعِمَ وَغَضُونْ

أراد الأمويون أن يسيطر واعلى وسائل الإعلام ويضعوها في قناة الدم على عليه السلام فيما سخوا سيرته في نفوس الناس، يقول أحدهم: مررت بمسجد حمص فسمعت رجلاً يشتم أبا تراب، ويسأله رجل إلى جانبه: وبحك، من أبو تراب هذا؟ فيقول له: أحسبه لصاً من لصوص الفتنة^(٢). فهذا هو مبلغ علمهم عن علي عليه السلام وهذا مبلغ تربتهم في شتمه.

وقد أراد الزخم الأموي في وسائل الدعاية والعطاء الأموي في

تاریخ مدینة دمشق ٧٦:٧ جواہر المطالب ٢:٣١١، وقد ذکر هذین الیتین فقط.

(١) انظر: الإرشاد ١: ٣٠٩ - ٣١٠، كشف الغمة ٢: ٣٧، بحار الأنوار ٤٢: ١٩، تتبیه الغافلین:

١٠٤، شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، المعasan والمساوی: ٤٠، جواہر المطالب (ابن الدمشقی)

(٢) مرجح الذهب ٣: ٤٢، ٢: ٢٢٩.

الأموال والرعب الأموي بالسيوف أن تغلق النوافذ، فلا ينفذ منها أريح
لعلي ^{عليه السلام}، ولا يخرج منها اسم له، ولكن هلم معنـى لستقرـى التاريخ،
ونـسـال معاوـية: لقد حرصـتـ أن تـشـتـمـ عـلـيـاً ^{عليـهـ السـلامـ} عـلـىـ المـنـابـرـ، وـأـنـ تـدـفـنـهـ فـيـ التـرـابـ، وـأـنـ تـبـرـزـهـ بـصـورـةـ تـشـمـثـ مـنـهاـ النـفـوسـ، وـلـكـنـ بـيـنـيـ وـبـيـنـكـ
التـارـيخـ وـالـوـاقـعـ وـأـقـلـامـ الـأـحـرـارـ، فـسـلـ الـأـقـلـامـ بـمـ صـوـرـتـ عـلـيـاً ^{عليـهـ السـلامـ} وـبـمـ
صـوـرـتـ مـعـاـوـيـةـ، وـسـلـ التـارـيخـ كـيـفـ يـرـوـيـ لـنـاـ مـنـ صـفـحـاتـ عـنـ عـلـيـاً ^{عليـهـ السـلامـ}،
وـمـاـذـاـ يـبـعـثـ لـنـاـ مـنـ عـطـرـهـ، وـسـلـهـ مـاـذـاـ يـبـعـثـ فـيـ أـنـوـفـنـاـ مـنـ رـائـحةـ الـأـمـوـيـنـ
الـتـيـ تـرـكـمـ الـأـنـوـفـ:

ماـذـاـ أـقـولـ وـبـنـابـ شـمـعـكـ مـوـضـعـ
وـالـصـافـانـاثـ وـزـهـمـؤـهاـ وـالـسـؤـنـدـ
اعـتـابـ دـنـيـاـ سـبـحـرـهاـ لـاـ يـنـفـدـ
لـأـسـالـ مـدـمـقـكـ الـمـصـيـرـ الـأـسـوـدـ
سـكـرـ الـذـبـابـ بـهـاـ فـرـاخـ يـعـربـدـ
فـكـائـنـهـاـ فـيـ مـجـهـلـ لـاـ يـقـضـدـ
عـاـنـ يـكـادـ مـنـ الضـرـاءـ يـسـجـدـ
يـرـتـدـ طـرـفـكـ وـمـوـ بـنـاكـ أـرـمـدـ
فـتـكـادـ لـوـلاـ خـوـفـ رـبـكـ تـسـعـدـ
مـنـ كـلـ صـوبـ شـوـفـهـاـ الـمـتـوـفـدـ
ثـمـ اـنـطـوىـ كـالـخـلـمـ ذـاكـ الـفـوـرـدـ
فـيـ الـخـالـدـيـنـ وـغـطـفـ رـبـكـ أـخـلـدـ^(١)

أـبـاـ يـزـيـدـ وـتـلـكـ جـمـعـةـ خـالـقـ
أـبـنـ الـقـصـوـزـ أـبـاـ يـزـيـدـ وـلـهـؤـهاـ
أـبـنـ الدـهـاءـ نـحـرـتـ عـرـةـ عـلـىـ
هـذـاـ ضـرـيـحـكـ لـوـ شـعـرـتـ بـبـؤـسـهـ
مـكـثـلـ مـنـ الـثـرـبـ الـفـهـيـنـ بـخـرـبـةـ
حـقـيـثـ مـعـالـقـهـاـ عـلـىـ سـكـانـهـاـ
وـمـشـنـ بـهـاـ رـكـبـ الـبـلـىـ فـجـدـارـهـاـ
قـمـ وـارـمـقـ الـثـجـفـ الـأـغـرـ بـنـظـرـةـ
تـلـكـ الـعـظـامـ أـعـزـ رـبـكـ شـائـهـاـ
أـبـدـأـ ثـبـاـيـرـهـاـ الـوـفـودـ يـخـثـنـهـاـ
نـازـعـتـهـاـ الـدـنـيـاـ فـقـرـتـ بـوـرـدـهـاـ
وـسـعـتـ إـلـىـ الـأـخـرـىـ فـاـصـبـحـ زـكـرـهـاـ

(١) من قصيدة للشاعر السوري محمد مجدوب بعنوان (على قبر معاوية).

نعم تألق علي عليه السلام من وراء التراب نوراً، ووقف من تحت التراب خطيباً مفروهاً يرسم لنا عبر العصور في منهجه وتعبيره رسالة السماء ناصعة صافية. ومرّ التراب على معاوية، فإذا انكشف عنه انكشف عمما لا تطاق رائحته ولا يحمد ذكره. لكنه لو انكشف عن علي عليه السلام فإنما ينكشف عن مآثر وقوى وإيمان وصلة بالله، وعن روح ما عرفت إلا الله في كل صورها. وتلك هي العاقبة التي رسمها الله للمتّقين ولم تستطع كل تلك السنين التي مرت أن تخفي عطر علي بن أبي طالب عليه السلام:

أموالِي هذا مربع في ثرابِه	لخَيْرَةِ جَسْمٍ وَفِي أَفْقِهِ فَكُرْ
ثلاَثٌ وَعَشْرُ مِنْ قُرُونٍ تَضَرَّمْتُ	وَمَا زَالَ مِنْهُ فَوْقُ هَذَا الشَّرَنِ عَطَرْ
وَأَزْمَنَةً مَرَّتْ بِكُلِّ صُرُوفِهَا	يَشَدُّ بِهَا زَيْدٌ وَيَدْفَعُهَا عَفْرَوْ
تَمُّرْ عَلَيْهِ وَهِيَ سُودَاءُ غَيْرَةِ	فِيمْشِي إِلَيْهَا وَهُوَ مُنْبَلِّجٌ بَدْرُ
أَجْلِ تَلْكَ عَقْبَنِ الْمُتَقْيِنِ خَوَالَدْ	مِنَ الذَّكْرِ لَا تَقْنَى وَلَا يَنْتَهِي الذَّكْرُ

وجاء دور أبناء العم من العباسيين، فكانت قسوتهم عليهم أشدّ من قسوة الأمويين. فكان متوكّلهم يأتي بعبادة المختبئ ويضع على بطنه وسادة وعلى ظهره أخرى، ويرقصه في وسط المجلس ويقول عنه: هذا الأنزع الطين، هذا أمير المؤمنين مستهزئاً بعلي عليه السلام^(١). ولكن ابحث عن المتوكّل الآن فهل تجد له أثراً؟ اللهم إلا عند بعض الأقلام العفنة المأجورة التي تاهت عن الحقّ وعميت عن الهدى، وابحث عن علي عليه السلام فستجده عند كل قلم وفكّر^(٢). ذلك لأنّه كان من الله، وما كان من الله يخلد.

(١) شجرة طوبى ١: ١٥٧.

(٢) فقد كتب عنه وألف فيه جملة من الكتاب من غير أبناء المذهب والدين كجورج جرداق

فعلى عليهم السلام مَرَّ عبر القناة الأموية والعباسية وقناة السلاجقة والتتر والأتراك وذريول الأتراك، وقنوات أعدائه الذين تزخر بهم الدنيا، وما زال ولم يزل ذلك الألق الذي شعَّ في دنيا الإيمان، وذلك النور الذي أضاء لل المسلمين، وذلك الفكر الذي حمل روح الإيمان فجسدها قولًا وفعلاً، وسيبقى ما بقيت الدنيا؛ لأن التقوى لا عمر لها، والإيمان لا عمر له. وهكذا تتهاوى الدنيا كلها ويبيقى الإيمان الصالح المنور خالدًا مهما امتدت الدنيا ومهما طالت الظروف. وما زالت الأقلام تجرح عليه عليهم السلام لكنه أقوى من الجراح:

فرأيناك مُثْنَأَ بالجراح من جراح الأقلام تُصْبِيكَ زُورًا حرض الحقدَ أن يُسمَى قبيحاً	عشقتَ الجراح حيًّاً ومتُّنَأَ وجراح السيفِ وسط الشاحِ
---	--

وسيبقى القمر بعيدًا عن النباح مهما كان النباح قويًا، وستبقى الشمس تهزاً بالشتم والشاتمين، وسيبقى النور لا يبعأ بالظلام، وكل ذلك لأن عليهم السلام من معاجز الإسلام، ومعاجز الإسلام ممتدة. ولعل هذا المعنى هو الذي أراد الحديث الشريف أن يرسمه: «إني مختلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمكنت بهما لن تفلوا بعدي أبداً. ولقد نبأني اللطيف الخبر أنهما لن يفترقا حتى يردا على العوض»^(١).

استمع معى إلى أحد أفراد عائلة استهرت ببغضها الشديد لأمير

يوس سلامة ومخايل نعيمة عبد الفتاح عبد المقصود وعباس محمود العقاد الذي كتب أيضًا: أبو الشهداء الحسين بن علي، وغيرهم.

(١) ورد هذا الحديث بصيغة كبيرة وطرق أكثر، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد: ٣، ١٤، وغيرها، سنن الدرامي: ٢، ٤٣٢، وغيرها.

المؤمنين عليهما السلام، وهو عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، وكان يستمع إلى خطيب وهو يشيع أمير المؤمنين عليهما السلام شتماً، ويحاول مدح الأمويين. ويلتفت عبد العزيز لمن معه فيقول: انظروا إلى هؤلاء، إنهم إذا مدحوا أسلافهم فكأنما يكشفون عن الجيف، وإذا شتموا علينا عليهما السلام فكأنما يأخذون بضبعه^(١) فيرفعونه إلى السماء^(٢). ذلك أن الدين ما بني شيئاً واستطاعت الدنيا أن تهدمه^(٣).

النموذج الثاني: الأقلام المأجورة وعطاء الإمام عليهما السلام

وسنبيان هنا ظاهرة إيجابية أخرى في حياة هذا الرجل مع سلبية هذا النموذج، فنحن نعرف أن الأقلام إذا انصبّت على شيء فإن مضمونه ينفي، فلو تناول العلماء أو البلغاء أو الأدباء موضوعاً وكتبوا فيه مرّة أو مررتين أو أكثر فإن مضمونه سينفي وسيصبح عتيقاً. ولكن تأمل هذا الرجل، وسل التاريخ: كم مرّ على عليهما السلام من الأقلام والعصور؟ لكن كلّما أخذت القرائح منه أعطى عوض ذلك وتضاعف، فكلّما أرادت الأقلام أن تستنفِد مضمونه وجدته خالداً متجدداً، يقول أحد الأدباء:

دنيا على وهي خصبٌ ماتعٌ يمتاز منها ما استطاع المنطقُ

(١) الضبع - بسكون الباء -: وسط العضد بلحمة يكون للإنسان وغيره، والجمع أضباع مثل (فرخ وأفراخ). وقيل: العضد كلها. لسان العرب ٨: ٢١٦ - ضبع.

(٢) الإرشاد ١: ٢٠٩ - ٣١٠ . كشف الغمة ٢: ٣٧، بحار الأنوار ٤٢: ١٩، وقد نقله عن الوليد بن عبد الملك، تبييه الغافلين: ١٠٤، وقد نقله عن الشعبي، شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، وقد نسبه لعبد الله بن عروة بن الزبير.

(٣) قول منسوب لعبد الله بن عروة بن الزبير في حقّ أمير المؤمنين عليهما السلام، انظر شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، المحاسن والمساوئ (السيهقي): ٧٧، البيان والتبيين ٢: ١٧٣، ونسبه في بحار الأنوار ٤٢: ١٩ للوليد بن عبد الملك.

فؤارة اليسبوع إن شمتخ لها
 كاسأ شدافع ضعفه يتدفق
 تخثار منها رونقاً وتظنه الـ
 أسمى فيلمع فوق ظنك رونق
 ابديّة الأبعاد لا قدم لها
 يدنو ولا رجل تسير فتتحقق

جاء جماعة فقيموا علياً عليه السلام في وقته، ثم جاء آخرون بعدهم فقيموه
 بتقييم آخر، وهكذا وكلما مَدَ الأديب يده إلى ذات على عليه السلام ومايده رفده
 بكل ما هو جديد، فكان ذاته تتواتد ولا ينفد عطاها. ومهما أردت أن
 تأخذ منها أعطتك:

بزيك وجهه حسنة إذا مازدته نظراً^(١)

وكم حال من الأقلام في حياة علي عليه السلام! يدخل ضرار الفهرى على
 معاوية، فيقول له: صف لي علياً. فيقول: اعفنى. فيقول معاوية: لابد من
 وصفه. فقال: إذا أبىت فاستمع: كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول
 فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه،
 يستأنس بالليل ووحشته، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، غزير العبرة
 طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب. وكان
 كأحدنا فيينا؛ يجيئنا إذا دعوناه، ويأتينا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه،
 ونحن والله مع تقربيه لنا وقربه منا لا نكاد نرفع رؤوسنا إجلالاً له. لا يطمع
 القوى في باطله، ولا يأس الضعيف من عدله، يقرب المساكين، ويعظم
 أهل الدين.

ولقد رأيته ليلة من الليالي وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه،

(١) البيت للعباس بن الأحنف. ديوان العباس بن الأحنف: ١٢٩، شفاء السقام: ٢٧٧، شرح نهج البلاغة ٢٠٨، تاريخ بغداد: ١٢٩.

قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، يقول: «إليك عندي يا دنيا، غري غيري، ألي تعرضت؟ أم إلئ تشوفت^(١)؟ هيهات هيهات، قد أبنتك ثلاثة. فأمده قصير، وزادك حقير، وخطرك كبير. آه آه من قلة الزاد ووحشة الطريق».

فبكى معاوية حتى وكفت دموعه على لحيته، وقال: رحم الله أبا حسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه؟ قال: حزن من ذبح رضيعها على صدرها، فلا تهدأ دمعتها ولا ترقأ عبرتها^(٢).

هذا هو على عليه السلام في رأي معاصر له، وستسمع كذلك في أحد الجواع من يقول: لقد فارقكم بالأمس رجل كان سهماً من مرامي الله عز وجل على عدوه، رباني هذه الأمة، ذا شرفها وفضلها، وذا قرابة من النبي عليه السلام قريبة، لم يكن بالثؤومة عن أمر الله، ولا بالغافل عن حق الله، ولا بالسرقة من مال الله. أعطى القرآن عزائمه فيما له وعليه، فأشرف منها على رياض مؤنقة، وأعلام بيّنة ذلك ابن أبي طالب^(٣). وهذا هو تقييم الحسن البصري له.

ثم انحدر مع التأريخ، وانظر ما كتبت عنه الأقلام، وتأمل هل أخذت هذه الأقلام شيئاً مكرراً عن علي عليه السلام؟ كلا، فهي كلما بحثت عن ذاته وجدت جديداً في شخصه. فما سر هذا العطاء الذي لا ينقطع؟ وما سر هذا التوالي؟ سر ذلك أن الإنسان يأخذ منه بقدر ما يستوعب، وهو عطاء

(١) تشوفت: تزرت. لسان العرب ٧: ٢٢٨ - شوف.

(٢) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٥٢، شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٢٦، ينابيع المودة ٢: ١٨٩.

(٣) أمالى المرتضى ١: ١١٢، جواهر المطالب (ابن الدمشقى) ١: ٢٢٦، ذخائر العقبى: ٧٩، شرح نهج البلاغة ٤: ٩٥، فتح الملك العلي (المغربى): ٧٨، البداية والنهاية ٨: ٦.

لا ينضب. وتلك خاصّة من خواصه أخذها من القرآن، فهو تلميذ القرآن، والقرآن لا تفني عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، وهو أحد الأشباح الخمسة الذين يقول فيهم أبو العلاء:

يابن مسurgض المصفوِّ ببدرِ والقُسْنَا المُؤْرَ من بني غطفانِ
أحدُ الخمسةِ الَّذِينَ هُمُ الْأَشْجَابُ ساجٌ فِي كُلِّ مَنْطَقٍ وَالْمَعَانِي^(١)

فعلى عليه السلام أحد العترة الذين هم عدل الكتاب الذي لا تفني عجائبه، ولذا فإن عليه عليه السلام لا تفني عجائبه. وكلما بحثت في ذوات هذه العترة وجدتها غنية بالعطاء، وسيبقى على عليه السلام منبعاً ضخماً، كلما امتدت العصور وجدت في ذاته جديداً.

وقد وصل الأمر بحجم على عليه السلام الذي لم تستوعبه الدنيا أن كان الناس فيه صنفين: كافراً به، ومؤلهاً له^(٢). يقول له أحد هم وهو على المنبر يخطب: الله أبوك! ما أفصحك كاذباً. ويقول له آخر: أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا هو!^(٣).

وابحث في ذوات من عاصر عليه عليه السلام، فهل ترى له أبعاداً في الفكر الاجتماعي أو الفلسفى أو الاقتصادي أو الأخلاقي كما تجد لعلى عليه السلام? أفتتعجب بعد ذلك أن يقف بعض الناس لينفي عنه (نهج البلاغة)? لا شك أن في (نهج البلاغة) عطاء يضيق به ذلك العصر، وفات هؤلاء أن العبرية ليست من الجنس العادي وإنما هي ندرة، والعبرى يختلف عن جنس

(١) ديوان سقط الزند: ٩٤.

(٢) قال له النبي عليه السلام: «يملك فيك اثنان: محبٌّ غالٍ، ومبغض قائل». منهاج الكرامة: ١١١، الملل والنحل: ١٢: ١٢ - ١٣.

(٣) انظر بحار الأنوار ٢٥: ٢٦١ - ٢٦٧ / ب ١٠ في نهي الفلو في النبي عليه السلام والأئمة عليهم السلام....

زمنه، ولو كان من جنسهم لما كان عبقرياً. فالعقلري يسبق الزمن بما عنده من عطاء.

يمراً بعض الكتاب الذين ينفون عنه (نهج البلاغة) فيقول: من أين جاء على عليه السلام بهذه العلوم التي نجدها في (نهج البلاغة)? ولكن يمرّ بابن خلدون فيقول عن رياضته لعلم الاجتماع: ذلك تفاعل داخلي واحتмар ذاتي نبغ فيه ابن خلدون!

فليت شعري، هل هذا التفاعل الداخلي والاحتمار الذاتي وقف على ابن خلدون؟ ولم لا يكون لعلي بن أبي طالب عليه السلام؟ أو تستكثر على عليه السلام أن يكون رائداً في علم الفلسفة أو الأخلاق ولا تستكثر ذلك على ابن خلدون؟ لكنه الحقد يعمي ويصمّ، وكذلك هي الأقلام النافحة، والنظر القاصر، ولكن، هيهات أن تُحجب الشمس بالغربال! (١).

النموذج الثالث: اجتماع الأضداد في حياته عليه السلام

ومن الظواهر النادرة في حياته عليه السلام - وهي تستحق أن يلفت إليها النظر - أننا تعودنا ألا نرى إنساناً يجمع بين الشيء وضده، فمن العسير - إن لم يكن من المستحيل - أن يجمع بين الشيء وضده. لكن دعني أضرب لك مثلاً، تأمل تاريخ الزهد والتصوف، وادرس ملامع الزاهد كيف هي، ستتجد أن التاريخ يصور الزاهدين بأنهم منعزلون عن الناس، وتغلب على

(١) قال المتنبي:

وإذا استطال الشيء، قام بنفسه
وصفات خوه الشمس تذهب باطلا
وقال عبد الله بن معاوية:
وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساواة
شرح نهج البلاغة ٢٠٧: ١٦، ١١٨: ١٩، ٣٣٩، أنساب الأشراف (ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام)، ٦٣.

وجوهم الكآبة والانقباض، وعدم البشاشة والاندماج بالمجتمع. ادرس تاريخ الاجتماعيين الذين عاشوا واندمجاً بالمجتمع فستجد عندهم صفات على النقيض من ذلك، فالشخص الاجتماعي منطلق الطلعة بشوش الوجه، ضاحك الثغر، لا يحب العزلة. ويندر أن تجد هاتين الخصلتين المتناقضتين مجتمعتين في شخص واحد. ولكن هلْمَّ معي إلى على عليه السلام، فسترى أنه جمع بين الاتجاهين المتضادَيْن؛ فقد كان عليه السلام إذا جن عليه ليله تجده في محاربه كما وصفه ضرار، وتسمعه يقول: «إلهي إن طال في عصيائك عمري وكثر بالصحف ذنبي، فما أنا مؤمل غير رضوانك ولا راجٍ غير غفرانك، أفكِّر في ذنبي فتعظم عليّ بليتي، وأفكِّر في عفوك فتهون عليّ خططيتي. آه إن أنا قرأت بالصحف سَيِّئةً أنا ناسيها وأنت محسبيها، فتقول: خذوه. فياله من مأخذوذ لا تنفعه عشيرته ولا تنجيه قبيلته! آه من نار نزاعة للشوى، آه من غمرة من ملهمات لظى، آه من نار تنضح الأكباد والكلب»^(١).

ثم ينکوم على الرمل جسدًا لا حراك فيه وقد أغمى عليه، فلا يفيق إلا بعد فترة طويلة، أو حتى ينضج الماء على وجهه.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «صلَّى اللهُ عَلَى أَبِيهِ طَالِبِ الْفَجْرِ، ثُمَّ لَمْ يَرِدْ فِي مَوْضِعِهِ حَتَّى صَارَتِ الشَّمْسُ عَلَى قِيدِ رَمْعٍ، وَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ بِوْجْهِهِ فَقَالَ: وَاللهِ لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا يَبْيَطُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وَقِيَامًا، يَخَالُفُونَ بَيْنَ جَبَاهِهِمْ وَرُكْبَهُمْ كَأَنْ زَفِيرَ النَّارِ فِي آذَانِهِمْ، إِذَا ذَكَرَ اللهُ عَنْهُمْ مَا دَوَاهُ كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرَ، كَأَنَّهُمْ قَوْمٌ بَاتُوا غَافِلِينَ».

يقول: «فَوَاللهِ مَا رَوَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ ضَاحِكًا حَتَّى تَبْضَ»^(٢).

(١) الأُمَّالِيُّ (الصَّدُوقُ): ١٢٨ / ١٢٦، مَنَاقِبُ آلِ أَبِي طَالِبٍ: ٣٨٩.

(٢) الْكَافِيُّ: ٢ / ٢٣٦، ٢٢، بِحَارُ الْأَنُوَارِ: ٤١ / ٤٧، ٢٤٧ / ٤٢، ٦٤ / ٢٦٠، ٦٣ / ٢٦٣.

أما إذا أصبح الصباح فإنك تجده في السوق يتفقد أحوال الرعية، أو تجده في مسجد الكوفة على دكة القضاة يقضي بين الناس، أو تجده في حاجة أهلها مازاً في السوق يحمل برداه شيناً من التمر ويأوي إلى البيت، وهو يرتجز:

أفلح من كانت له قوصرة يأكل منها كل يوم مزة^(١)

ولا يكاد يضع الطعام عند أهله حتى يخرج، فتجده عند جارية كانت قد اشتريت سلعة لأهلهما وأبوا قبولها، فأعادوها إلى باائع السلعة الذي رفض إرجاعها، فوقفت تبكي، فيسأل على عليه السلام البائع: «لم لا ترجع لها السلعة؟». فيدفعه قائلاً: وما أنت وذاك؟ ويأتي الناس ليسلموا على الإمام على عليه السلام بأمرة المؤمنين، فيرتعد هذا الرجل ويقول: سيدى، أرض عنى. فيجيبه عليه السلام بقوله: «ما أرضانى عنك إذا وفيت الناس حقوقهم»^(٢). ولم يكلمه بشيء.

ومع كل تلك الأماكن التي تجده فيها تجد ثغراً لا تفارقه البسمة، حتى

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث ٢: ٨٦ - قرر، البداية والنهاية ٨: ٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. والقوصرة: الذي يكتن في التمر من الباري. الصلاح ٢: ٧٩٣ - قصر.

(٢) الفارات ٢: ٧١٤، الأمالي (الطوسي): ٥٦٥ / ١١٧٤، منتخب مستند عبد بن حميد: ٦٢، كنز العمال ١٢: ١٨٣: ٢٦٥٤٧. أي أنه عليه السلام لم يجعل اعتذار الرجل إليه سبباً لضياع عنه، بل جعل أداء حقوق الناس هو السبب في ذلك: لأن عليه السلام يرى نفسه كأي أحد من المسلمين في المعاملة، وأن لا أثر لتوليه الخلافة في ذلك. ولعلنا لا ننسى قول ابن حنبل حينما ذكره عنده الإمام علي عليه السلام: «قد أذكرتكم، إن كانت الخلافة قد زلت غير علي، فإن علياً قد زان الخلافة». الهدایة الكبيرى: ١٢، شرح نهج البلاغة ١: ٥٢، تاريخ بغداد ١: ١٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٤٦. أي أنه عليه السلام لم يستخدم الخلافة وسيلة للتعالي على الناس.

قال قائلهم: إن فيه دعابة^(١). ولعمري ما كانت دعابة، ولكنها البشر الذي يطفح على وجوه المؤمنين، والانطلاق التي يحتمها الخلق العالى:

فبادا ما رارقت او بئش وجه	فقبل تلعاية كثير المزاج
واسترزادوا فقيل لا رأي في الحر	ب له رغم أنه ابن كفاح
وعجيب أن يغوز الرأي قرما	عاش بين القنا وببيض. الصفاح
عركته الزحوف وهو ابن عشر	وتفرئ أديفة بالسلاح
الوجوه المشؤهات بدية	لصقها العيب بالوجوه الصباح

فعلى عليه السلام جمع بين الأصداد، فهو الزاهد الذي يذوب في قلب المحراب، وهو الاجتماعي الصاحك.

وكمثل آخر على جمعه بين الأصداد جمعه بين الصلابة والصرامة وبين الرقة، فكلنا يعرف مثلاً أن الذي يعيش بين الدماء والسيوف والأعضاء المقطعة يحمل ملامح شرسه، ووجهها شديد الصلابة والصرامة، ولا يوجد في نفسه شيء من الرقة، ولكن حينما نمر في سيرة هذا الرجل نجد أخلاقه غاية في اللطف والرقة. طلب يوماً من أحد غلمانه ماء، فلم يجده، حتى كرر الطلب ثلاثة. فقال له: «لم لم تجبني؟». قال: أمنت عقوبتك. قال: «الحمد لله الذي جعل عبدي يأمن عقوبتي، اذهب فأنت حر لوجه الله».

ومر ما بين أجساد تراقص بدمائهما بعد وقعة البصرة التي طارت فيها الرؤوس، حتى دخل دار المرأة - وقد أفرد لها داراً خاصة - وما كاد يضع قدمه في باب الدار حتى انبرت له امرأة تقول: يا قاتل الأحبة، أينتم

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ٨٤.

ولدنا أيتم الله ولدك. فما حمله ذلك على الغضب، ولا فارق بشاشته، ولا عكر طبعه المليء بالرقة، وإنما أجابها والبسمة تعلو شفتيه: «لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذه الحجرة». وكان في الغرفة عبد الله بن الزبير ومرwan بن الحكم والوليد^(١)، وأنماط من هذا النوع الذي لا تلتقي عن ذمه الشفتان. هذا هو هدوء علي عليه السلام وتلك هي رقته، وهو الذي يأخذ السيف ويغوص في لهوات الحرب وهو يرتجز ويقول:

«ما تنقم الحرب العوان متى باز爾 عامین حدیث سنتی»^(٢)

«سنحنح اللسیل کانی جتی لمثل هذا ولدتني امی»^(٣)

لقد جمع علي عليه السلام الأصداد في صفاتاته، ورحم الله الصفي الحلى:

«جمعت فی صفاتك الأصداد فلهذا عزّت لك الأصداد»

«خُلقَ يُخجلُ النسيمَ من اللطَّافِ وباسَ يذوبُ منه الجماَد»^(٤)

وهلم معنى هذه الليلة لنقف على علي عليه السلام.. على جبين معصوب بعصابة صفراء، والدم تحت العصابة ما يزال آنذاك طريأ، وهلم معنى لنسب أغوار روحه، هذه الليلة جيء إليه بقاتله في حال كان السم قد أخذ

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب أبي طالب ٢: ٩٨، العمل (ضامر بن شدق): ١٤٧، تاريخ الطبرى ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١: ١٥، ١٠٥، والمرأة التي قالت له عليه السلام ذلك هي صفية بنت الحرث الثقافية امرأة عبد الله بن خلف الخزاعي.

(٢) البازل من الإبل: الذي تم له ثمانين سنين ودخل في التاسعة، وحينته يطلع نابه وتكمل قوتها، ثم يقال له بعد ذلك بازل عام وباذل عامين. يقول عليه السلام: أنا مستجمع الشباب مستكملا للقوة. النهاية في غريب الحديث ١: ١٢٤. أو هو الكامل المعرفة. المعجم الوسيط: ٥٤ - بازل. يزيد عليه السلام أنه عرك الحروب وهو صغير السن.

(٣) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٥٦٩، مناقب علي بن أبي طالب (الخوارزمي): ١٥٨ / ١٨٧. (٤) ديوان صفي الدين الحلى: ٨٨.

من رأسه مأخذًا، ورأسه في حجر ابنه الحسن عليه السلام، وعائلته تتشنج من وراء الستار نشيجاً خفياً، وما كاد بصره عليه السلام يقع على قاتله ابن ملجم حتى قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله، والله لقد شربت اللبن ونسيت أن أترك لأسيركم منه، بالله عليكم اسقوه من شرابي، وأطعموه من طعامي. فإن عشت فأنا ولبي دمي، وإن مث فاضريوه ضربة بضربة، ولا تمثلوا بالرجل؛ فإن المثلة حرام ولو بالكلب العقور، وأن تعفوا بذلك أحب إلى عليه السلام». ثم أطبق جفنه وهمهمت شفتاه بذكر الله، وأخذت حبات من العرق تترفق على جبينه.

ومد الإمام الحسن عليه السلام يده إلى جيشه واستخرج منديلاً وراح يمسح به العرق عن وجه أبيه، وهو يقول: «أبا، أراك وقد تكفل جبينك عرقاً». قال: «بني إن المؤمن إذا نزل به الموت عطف عرنيته، وسكن حنيته، وعرق جبينه»^(١). يقول سعيد بن غفلة: غدوت أنا وجماعة إلى دار أمير المؤمنين عليه السلام، فسمعنا النحيب من داخل الدار، فما استطعنا أن نسكت، وعلا نحيبنا، فخرج الحسن عليه السلام فقال: «إن أمير المؤمنين يقول لكم: ارجعوا».

يقول الأصيعي: فرجع الناس إلا أنا لم تطاوعني قدماي، فرجع الإمام الحسن عليه السلام وقال: «ألم أقل لكم: ارجعوا؟». فقلت: سيدى، والله لا تطاوعني قدماي. قال: «ادخل». فدخلت، ولما وقع بصرى على أمير المؤمنين عليه السلام رأيت رأسه وقد عصب بعصابة صفراء، والله ما أدرى أوجهه أشدّ أصفراراً أم العصابة، فبكى عند ذلك فالتفت إلى أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً:

(١) نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

(٢) قطعة منسوب ذيلها لأمير المؤمنين عليه السلام من خطبه خالية من الأنف، انظر: شرح نهج البلاغة ١٩: ١٤١، كنز العمال ١٦: ٢١١ / ٤٤٢٣٤، وعليه فليس فيها: إن المؤمن إذا نزل به الموت.

«يا أصبع لا تبك، إنها واثة الجنة». قلت: سيدني، أنا أعلم أنها الجنة ولكنني أبكي لفراقك. عند ذلك سمعت النساء قد علا ضجيجهن بالبكاء^(١):

الليله مسه المحراب خالي يعماد خيمتنا يغالي

ما چنت اقلن لن الليليه بيک اشغدر وتختب امالی

كان أولاده إلى جانبه إلا بنتاً واحدة ذهبت إلى مسجد الكوفة.. إلى
محراب خلا من أمير المؤمنين عليه السلام فجلست تمطره بدموع عينيها:

يا محراب ابوي اجيست انا جيك اصبن ادموع العين واروينك

من طاح ابويه وانطبر بيک صدک شبيبته من ادماء تسکيک

* * *

هذى المحاريبُ أين القائمون بها والليل مُرخٌ من الفلقاء أستارا



{٢٠}

من وصاياه أمير المؤمنين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَخَدُكُمُ الْمَوْتُ
إِن تَرَكَ خَيْرًا وَوَصِيَّةً لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنَ
بِالْمَغْرُوفِ﴾^(١).

مقدمة في معنى الوصية، وبعض وصاياته العهدية
 فرض الإسلام على كل مسلم ألا يبيت إلا ووصيته تحت رأسه.
 ويقسم الفقهاء الوصية إلى قسمين، عهدية وتمليكية. فالتمليكية هي
 تملك عين أو منفعة بعد الموت، والعهدية هي أن يوصي المحتضر
 بالقيام بأشياء من بعده.

الوصية الأولى: حفر أربعة قبور له للتعيمية
 وأمير المؤمنين عليه السلام في مثل هذه الليلة كانت عنده وصايات تملكية
 ووصايات عهدية، وعندة تركه من القسمين، فله تركة معنوية وأخرى مادية.
 فمن وصايات العهدية التي أوصى بها في مثل هذه الليلة أنه أوصى أن

تحفر له أربعة قبور في أحدها: يحفر أحدها في دار جعدة بن هبيرة ابن أخيه أم هاني فاختة بنت أبي طالب، وهو البيت الذي سكنته الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فحفر هذا القبر للنعمية. وقبر آخر حفروه في الرحبة وهو للنعمية أيضاً، وقبر ثالث للنعمية أيضاً حفر بجانب مسجد الكوفة. والقبر الرابع حفر في الغري بين ذkovات ييض أربع وهو القبر الذي دفن فيه، وعلم به الإمام الحسن والحسين عليهما السلام ووضع على علامة، والأئمة من بعدهم تناوبوا على تبيان تلك العلامة لأصحابهم. فكان أصحاب أمير المؤمنين والأئمة يأخذون ذلك بالتسالم بعضهم عن بعض.

وكان الهدف من حفر القبور الأربعة واضحاً. فنحن نعرف أن الحكم انتقل من بعده مباشرة إلى الأمويين، والأمويون معروفون بإقدامهم على ارتكاب أي عمل من الأعمال مع خصومهم. وهذا التاريخ واضح بين أيدينا، فقد قتلوا عبد الله بن الزبير في الكعبة أقدس تربة على وجه الأرض، وقد جعلوها الله حرماً آمناً، ومع ذلك سلطوا عليها المنجنيقات ورمواها وهدموها وأحرقوا أستارها وأجروا الدماء في داخلها. والغريب أن تاريخنا ما يزال يمر بهم ويعتبرهم من الأبطال والرواد، وكأن الإسلام لا يعنيهم من قريب ولا من بعيد. وقد صنعوا ذلك مرتين في الكعبة^(١). فجعلوا الكعبة مجرى للدم، ومرمى تقع عليه المنجنيقات. وأسالوا فيها الدماء وصلبوا فيها ابن الزبير.

أما زيد الشهيد فأخرجوه من القبر وصلبوه أربع سنين حتى عاشت الفاختة في جوفه، وحتى استرسل جلده على عورته فسترها. فليس

(١) انظر ٢ ص ٧٠

عندهم مانع أن يخرجوا جثمان أمير المؤمنين عليه السلام ويصلبوه أو يفعلوا معه ما فعلوا مع غيره فيما بعد.

ولم يكن أمير المؤمنين مبالياً أن هؤلاء سوف يخرجون جسمه ويمثلون به، إنما الذي يعنيه ألا تحدث وصمة كهذه في تاريخ الإسلام، وألا فإن علياً كان نهباً مشاعاً للرماح والسيوف في طاعة الله. وقد وضع جسمه في حياته ليقطع أرباً أرباً من أجل الإسلام وما عناه ذلك. فما كان يعنيه أن يقطع جسمه بعد الموت.

وقد كان ابن الزبير يقول لأمه أسماء بنت أبي بكر: أخشى من الأمويين أن يمثلوا بي بعد موتي. فقالت له: يابني، إن الشاة لا يضرها السلح بعد الموت. وهذا هو الواقع. فلم يكن علي عليه السلام مهتماً أن يأخذوا جسمه فيمثلوا به، لكنه لم يرد أن تحدث هذه المثلية في حضارة إسلامية، وألا فإن جسم علي عليه السلام كان أهون ما عند علي في سبيل الله.

ومن العبث أن نقول: إن علياً عليه السلام يحيوه قبر. فإن كل المسلمين بالإجماع يقولون: إن النبي لا يبقى بعد موته في قبره أكثر من ثلاثة أيام، ثم يُرفع، والكثير من العلماء يذهب إلى أن الإمام كذلك. وللجمع بين الروايات يقال: إنه يعرج بروحه ويبيقى جسمه. فالقبر لا يضم رسول الله عليه السلام، ولا نستطيع أن نلتمسه في حفنة من التراب في قبر مبني من اللبن، ولا نلتمس عليه السلام في حفنة من التراب في قبر كذلك، يقول أحد الشعراء:

فإن قيل هذا قبره قلت أربعوا
اهذا الكيان الضخم يجمعه قبر
ولكنه بباب إلى مسعطياته يمدد غناه من بساحته فقر

فلا يعنينا أن تكون منطقة ما قبراً لعلي، فكم أرادوا أن يسلطوا

التشكيك على مكان القبر، فجاء الخطيب البغدادي ومن بعده كثيرون، وسخر الأمويون شعراءهم، وادعوا أن نعش على وضع على البعير وضلّ البعير طريقه. وراح شاعرهم يقول:

فما كان مهدياً وما كان هارباً^(١)

ولكن انحسرت تلك الافتراط والأكاذيب والادعاءات، وظلّ على **علي عليه السلام** أكبر من أن يحييه قبر أو أن يحلّ بقبر. وهو **عليه السلام** لا يهمه أن يمثل بجسمه وهو يعلم سلفاً أن الجسم يعطى لله، وقد خلّد الله عليه السلام على العصور فلا يضيره جسم تمزق أو تحول إلى تراب.

كانت هذه أولى وصاياه العهدية التي أوصى بها هذه الليلة.

وصاياه **عليه السلام** التملوكية

الأولى: أنه **عليه السلام** أوصى بكتبه وسلاحه ولوائه

وهذه الوصية هي من الوصايا التملوكية، فقد أوصى بكتبه وسلاحه ولوائه، فقد كان عنده لواء مكتوب عليه هذا البيت:

هذا على والهدى يقوده من خير فتيان قريش عوده^(٢)

وكان عنده درع صدر لا ظهر لها، مكتوب عليها هذان البيتان:

أي يومٍ من الموت أفتر بـ يوم لا يقدر ألم يوم قدر
يوم قد قدر لا يغنى الحذر يوم لا يقدر لا أخشى الوعى^(٣)

(١) انظر الفارات ٢: ٥١٩، شرح نهج البلاغة ٤: ٨٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٧، بحار الأنوار ٤٢: ٦٠.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٤، بحار الأنوار ٤٢: ٥٨.

وترى أربعة عشر كتاباً من مؤلفاته وتراثه العلمي وهي: كتاب القضاة، وهو مجموع القضايا التي قضى بها على دكة القضاة في مسجد الكوفة وغيره. وكتب فيها جماعة من العلماء وما تزال حتى الآن مبسوطة في ثنايا الكتب. وهذه القضايا بعضها انفرد به وبعضها لم ينفرد به. فمما انفرد به مثلاً القضاة بشاهد ويمين إذا عدم الشاهدان.

ومن كتبه أيضاً كتاب الأحكام الفقهية، وهو مجموع الفتاوى التي كان يستفتى فيها ويجيب عليها، وكانت إجابته مباشرة من القرآن. فالفقهي الآخر إذا أراد أن يستنبط الحكم يبحث عن الأصل ويستعمل الأدوات الفنية ومجموعة من العلوم، ويناقش الروايات متناً ودلالة وسندأ ثم يدرس الرواية وهل هي معارضة أو ليست معارضة، وغير ذلك من الأدوات الفنية التي يصل إلى الحكم، أما أمير المؤمنين عليه السلام فكانت يده على المنبع مباشرة. فهو يقول: «فتح لي رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب»^(١). وكان رسول الله يقول: «أنا مدينة العلم وعلى بابها»^(٢).

فكان يعطي الجواب مباشرة لأن يده كانت على الحكم بشكل مباشر، وقد أخذ ذلك من رسول الله عليه السلام في حياته.

ومن جملة الكتب الأربع عشر تفسير القرآن، فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا نزلت آية يسأل عنها رسول الله عليه السلام فيكتبها ويكتب تفسيرها. وتفسير القرآن يطلق عليه كلمة «الوحى»، قال تعالى: «وَلَا تَنْعَجِلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضِي إِلَيْكَ وَحْيَهُ»^(٣) أي تفسيره. فقد كان النبي إذا نزلت

(١) النصال: ٥٧٢ / ١، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٨٥.

(٢) النصال: ٥٧٤ / ١، المستدرك على الصحيحين ١٢٦، ١٢٧، ٥٥، المعجم الكبير ١١: ٥٥.

(٣) ط: ١١٤.

الأية يأمر الكتاب أن يكتبواها، ويبيّن لهم المعنى ثم يسجل المعنى. وهذا القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين هو الذي يقول عنه الإمام الصادق: إنه «مصحف فاطمة»، وإنه «مثل قرأنكم هذا ثلاثة مرات»، وما فيه من قرأنكم شيء^(١). فهو تفسير للقرآن وليس هو القرآن.

وهذا القرآن هو الذي بدأ الأقلام الرخيصة تتوجه إلى القول فيه: إن للشيعة قرآنًا يخالف قرآن المسلمين. فأين هو هذا القرآن؟ فهذه آراءنا وأراء علمائنا صريحة في أن ما بين الدفتين هو القرآن، والذي يقول بالتحريف غيرنا. وبين يدي دراسة ضخمة لعلى أفق إنجازها إن شاء الله، وهي تبين بالإحصاء من الذي يقول بتحريف القرآن. إن الذي يقول بالتحريف غيرنا لا نحن، وما عندنا إلا آراء شاذة لا يعتمد عليها. أما الآخرون فهم الذين يذهبون إلى التحريف.

وهذا الذي نقول عنه مصحف فاطمة ما هو إلا تفسير القرآن الذي كان يأخذه علي عن الرسول ﷺ ويكتبه، وهذا هو الذي شغله بعد وفاة النبي عن الخروج، فلم يخرج إلا بعد إكمال القرآن. فما كان يترك آية إلا وقد دوّنها مع شرحها وتفسيرها.

ومن الكتب التي تركها (الجغر) و(الجامعة) و(صحيفة الدولة). فالجغر جلد جدي مدبوغ مكتوب فيه بعض الملاحم وما سيحدث خلال الزمان. وهذا الجغر هو الذي يشير إليه أبو العلاء المعري:

اتاهم علمهم في مسك جفر	لقد عجبوا لأهل البيت لما
ارتئ كل عاصمة وقفرا ^(٢)	ومرأة المنجم وهي صغرى

(١) الكافي ١: ٢٣٩، ١، بحار الأنوار ٢٦: ٦٩ / ٣٩: ٦٩.

(٢) اللزوقيات: ٣٥٣.

وكان في هذا الجفر حتى أرش الخدش^(١) كما يقول الإمام الصادق عليه السلام. أما (صحيفة الدولة) فكتب بها أحوال بنى العباس ودولتهم وما يسبقها وما يجري فيها. وقد أخذ هذه الصحيفة محمد بن الحنفية، طلبها من الحسينين، فأعطوه إياها فدفعها إلى ولده أبي هاشم، ودفعها أبو هاشم إلى أولاد عبد الله بن الحسن. ولما لاحقهم مروان آخر خلفاء بنى أمية دفنوها في الصحراء بين دمشق والمدينة في مكان يسمى الحميمة أو الجمية من أرض الشرة، ثم بحثوا عنها بعد ذلك فلم يجدوها^(٢).

أدلة كون (نهج البلاغة) له عليه السلام

وهناك مجموعة من الكتب تركها أمير المؤمنين من ضمنها (نهج البلاغة)، وقد صار موضوع أخذ ورد. وقد اتبع العلماء في إثباتات (نهج البلاغة) لعلي منهجاً من عدة شعب، منها:

الأول: منهج الأسلوب الأدبي

وهو منهج يعني بدراسة الأسلوب ويقوم عليه، فمن عنده تذوق للأدب وعرضت عليه قطعة شعرية فإنه يعرف لمن؛ للبحترى أو لأبي فراس أو لأبي تمام أو للمتنبى؛ لأنه يأنس بالذوق فيصبح تخصصه. وهذا أشبه بعالم الآثار الذي يؤتى إليه بقطعة حجرية فيعرف أنها من عهد ما قبل التاريخ أو من العصر الأول أو الثاني أو غير ذلك. فمنهج علي منهج متميز له دينياً وأسلوب خاص، فإن وضعت قطعة من قطع علي بن أبي طالب إلى جانب القطع الأخرى تجدها متميزة واضحة. وهذا الأمر يعرفه

(١) الكافي ١: ٢٤١، معاني الأخبار ٥: ٥، ٤: ١٠٢.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٤٢، ١٠٣: ١٠٣، شرح نهج البلاغة ١٤٩، ٧.

الأدباء وأهل الفن^(١).

الثاني: وجود خطب النهج قبل ولادة الرضي
وهناك منهج آخر هو أنهم فزعوا إلى الروايات التي سبقت الشريف
الرضي، فالمتأخرون ادعوا أن (النهج) اخترعه الشريف الرضي ونسبه
إلى أمير المؤمنين عليه السلام. لكن الواقع هو أن أسلوب الشريف الرضي معروف
وأسلوب علي معروف. ومن ناحية ثانية فإن خطب النهج موجودة قبل أن
يولد الرضي بمئة سنة. وهذا ما ينص عليه العلماء.

الثالث: منهج التمحيص

فقد ادعى جماعة أن في (نهج البلاغة) ألفاظاً لم تكن موجودة في زمن
علي وإنما هي مستحدثة أيام العباسيين من بعد ما حدثت الترجمة،
وذلك مثل كلمة الأزل والحد. فالحد في اللغة هو الفاصل، ومعناه العلمي
هو التعريف. فعندما نعرف الفرس نقول: إنها حيوان صاہل، والإنسان
نقول عنه: حيوان ناطق. وهذا لم يكن موجوداً أيام علي حتى يقول: «من
حده فقد عده»^(٢).

وهذه مغالطة، فإن أمير المؤمنين لم يستخدم لفظة الحد بمعناها
الغني، إنما استخدمها بمعناها اللغوي. فمن حده أي من جعل له حداً
 وأنه جسم جالس على العرش.

وهناك مناهج متعددة استعملت وسلطت على (نهج البلاغة) فدللت
على أنه من عطاء علي. يقول أحد الأدباء:

(١) وهو ما فعله ابن أبي الحديد. انظر شرح نهج البلاغة ١٢٧ - ١٢٩.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة ١، ١٥٢.

شهد الشهير أنه لعلي رث قوب عليه منه دليل
كل فضل أبو تراب به يبـ دـو فـتـهـزـ بالـهـدـيـرـ الفـصـولـ

فـ(نهـجـ الـبـلـاغـةـ) بـرـوـنـقـهـ وـعـطـائـهـ وـدـيـبـاجـتـهـ وـبـهـاـنـهـ هـوـ مـنـ عـطـاءـ هـذـاـ
الـرـجـلـ. فـكـانـ هـذـاـ (نهـجـ) مـاـ تـرـكـهـ مـنـ الـكـتـبـ. وـمـاـ تـرـكـ مـنـ الـكـتـبـ (جـنـةـ)
الـأـسـمـاءـ) وـهـوـ الـذـيـ شـرـحـهـ الغـزـالـيـ. وـقـدـ نـصـ عـلـىـ هـذـاـ مـنـ كـتـبـ فـيـ
معـاجـمـ الـمـؤـلـفـينـ^(١).

هـذـهـ الـكـتـبـ أـعـطـاهـاـ لـوـلـدـهـ الـحـسـنـ^(٢) بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ الـلـوـاءـ وـالـسـيـوـفـ التـيـ
تـرـكـهـاـ وـمـنـهـاـ ذـوـ الـفـقـارـ، وـمـنـهـاـ حـدـيـدـهـ هـبـلـ، وـذـلـكـ لـمـ صـعـدـ عـلـىـ ظـهـرـ
الـكـعـبـةـ وـأـخـذـ الـأـصـنـامـ فـحـطـمـهـاـ.

وـبـالـأـمـسـ سـمـعـتـ مـذـيـعاـ يـذـكـرـ فـتـحـ مـكـةـ وـيـقـولـ: دـخـلـ الـمـسـلـمـونـ إـلـىـ
الـكـعـبـةـ فـحـطـمـوـاـ الـأـصـنـامـ، وـلـمـ يـذـكـرـ لـعـلـيـ^(٣) قـلـيـلـاـ وـلـاـ كـثـيرـاـ، وـرـحـمـةـ اللهـ
عـلـىـ الـإـمـامـ أـحـمـدـ بـنـ حـنـبـلـ لـمـ سـتـلـ يـوـمـاـ: مـاـ بـالـصـحـابـةـ كـلـهـمـ كـأـنـهـمـ
أـخـوـةـ وـعـلـىـ كـأـنـهـ اـبـنـ عـلـةـ؟ـ قـالـ: لـأـنـ عـلـيـاـ سـبـقـهـمـ سـلـمـاـ، وـفـاقـهـمـ عـلـمـاـ،
وـبـزـهـمـ شـجـاعـةـ فـحـسـدـوـهـ^(٤).

كـانـ عـلـيـ^(٥) فـيـ الصـلـاـةـ فـدـخـلـ سـائـلـ يـقـولـ: مـنـ مـنـكـمـ يـقـرـرـضـ اللهـ قـرـضاـ
حـسـنـاـ، وـيـتـصـدـقـ عـلـيـ؟ـ فـأـشـارـ إـلـيـهـ بـأـنـمـلـتـهـ، فـتـنـاـوـلـ مـنـهـ الـخـاتـمـ وـخـرـجـ، فـلـمـ
يـبـرـ الـإـمـامـ حـتـىـ هـبـطـ الـأـمـيـنـ جـبـرـيـلـ يـحـمـلـ هـذـهـ الـآـيـةـ: (إـنـا وـلـيـكـمـ اللهـ

(١) انظر كشف الطنون ١: ٦٠٦ - ٦٠٧، هدية العارفين ١: ٦٦٧، وشرح جنة الأسماء للغزالى موجود في مكتبة مخطوطات آية الله السيد الگلبایگانی في قم برقم ١ / ش ٩٥٠، ورقم ٢٤١٢ أيضاً.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ - ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١، ٣ / ٤٨١، وفيهما عن الخليل بن أحمد الفراهيدي.

وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزُّكَارَةَ وَمَنْ زَانَهُ فَأَنْهَىٰهُ^(١)، فأقبل رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه يحمل الآية ويقول: «بشراك يا بن أبي طالب لقد أنزل الله فيك قرآنًا^(٢). ثم قرأ عليه الآية. وهذا ما اتفق عليه جمهور مؤرخي المسلمين.

الثانية: وصيته بوقف حوانطه

وكان علي عليه السلام يختتم بأربعة خواتم، تصدق بأحدتها وبقيت ثلاثة: واحد من عقيق والثاني من فيروزج وخاتم آخر، وكانت ضمن التركة التي أعطاها الإمام الحسن عليه السلام. وما تركه من وصاياه التسلية الحوائط الضخمة (البساتين)؛ لأنه كان يستغل قوته ويخرج بنفسه يستنبط الماء ويزرع النخل ويفلح الأرض، حتى إذا اكتملت وقفها في سبيل الله. وكان عنده سبع مناطق، منها ينبع وأدينة وديمة وأبو نيزر والبغيبة والعفرتان، وكلها كان له فيها تخيل وعيون ماء. وكتب بيده وبخطه أن يحبس أصلها وينفق واردها في سبيل الله.

وهذه وصية لجهات لا لوجه، فقد ملكها الله، وكانت هذه البساتين تغل عليه وارداً كبيراً. وقد دفع معاوية في أبي نيزر والبغيبة الملايين من الدرارهم، لكن الإمام الحسين عليه السلام امتنع^(٣) وقال: «هذه صدقات أبي، ولا أبيعها». فكانت تنفق كلها في سبيل الله.

وكان علي عليه السلام ينفقها في حياته ثم يعود إلى سوق الكوفة فينادي: «من

(١) المائدة: ٥٥، وانظر: شواهد التنزيل ١: ٢١٧ / ٢٢٥، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٢٢١، تفسير القرآن العظيم ٢: ٧٤.

(٢) شواهد التنزيل ٢: ٣٤٧ / ٩٨٩، وأورده في قوله تعالى: (وَجِئْنَاهُ بِالْحَقِيقَةِ وَصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ) التحرير: ٤.

(٣) معجم البلدان ٤: ١٧٦ - البغيبة.

يشتري مني هذا السيف؟ والله لو كان عندي ثمن إزار ما بعثه^(١):

أيها المال ما خدعت علياً حسبي منك بلفة لعشانة

حتى إن أحد هذه الحوائط السبعة كان فيه عبيد ثلاثة من جملتهم أبو نيزر، فأوصى الإمام عليه السلام أن يعتقوا من بعده شرط أن يبقوا بالحوائط خمس سنين

الثالثة: وصيته عليه السلام بعتق ممالike وأمهات الأولاد عنده

وأوصى بعتق ممالike، وكان قد أعتق في حياته ألف مملوك من كذا يده، ومما كان يعرق به^(٢). ولم يكن يمد يده إلى بيت المال، فكان يصبح عليه الصباح فیأخذ مسحاته، وله معها تاريخ طويل، فيأتي إلى الأرض ويسبك فيها عرقه، ويستصلحها ويبيع أحياناً بعض البساتين ويشتري بها عبیداً يعتقهم لوجه الله. ومن كان عنده وقت الضربة والوفاة أوصى بعتقهم في سبيل الله.

ومن وصاياه في هذه الليلة أنه كان عنده أمهات أولاد^(٣) عددهن سبع عشرة، فأوصى بعتق من لم تكن حاملاً، والحامل تحسب من نصيب ولدتها وتعتق بعد ذلك.

أما من النقود فإن راتب علي عليه السلام من بيت المال لم يكن يتميز عن راتب قنبر، ولذا لما جاءه عقيل أخوه يحمل صبيانه وهم جياع، أو كما يقول عنهم أمير المؤمنين: «فرأيت صبيانه شاعت الشعور غير الألوان من فقرهم، كأنما

(١) النارات ١: ٦٣، مكارم الأخلاق: ١١٤.

(٢) الكافي ٥: ٧٤، ٢ / ٧٤، ٨، ٤، ٢ / ١٦٣، ١٧٣ / ١٦٥، ١٧٥، بناية المودة ١: ٤٤٦.

(٣) أم الولد: الأمة التي يط祚ها مولاها فتحمل وتلد منه.

سُوَدَتْ وجوهُهُمْ بِالْعَذَابِ^(١)، وطالبه بزيادة الراتب، أجابه الإمام عليه السلام بأنه لو كان عنده وفر ما بخل به عليه. وأنه عليه السلام لا يمدّ يده إلى مال المسلمين ثم قال له: «انتظر حتى يخرج عطاني من بيت المال فأعطيك إياه. أو أن تأخذ بيدي إلى سوق الصرائين حتى أسرق لك». فقال: معاذ الله أن أكلفك هذا. قال: «فما الفرق في أن أمدّ يدي إلى بيت المال أو أسرق من الناس؟»، وانتظر عطاءه، حتى إذا جاء قال لابنه الحسن: «اكتُشْ عَمَّكْ جَبَةً».

فهذا الراتب الذي كان يأخذته أمير المؤمنين عليه السلام كان يقطع منه قليلاً قليلاً، حتى جمع منه سبعون درهماً. وهذه كلّ تركته التي ينص عليها كلّ من كتب في تاريخه. وقد جمعها ليشتري بها جارية تساعد أهله في خدمة البيت. فهو عليه السلام ضمِّنَ ما كان خارج البيت من نقل الحطب والماء وجلب الحاجات. وممّا يذكر هنا أن الزهراء عليها السلام نفسها كانت تضمن ما بداخل البيت، فكانت تكنس البيت وتترفع الإمام الحسن والحسين عليهم السلام، وتغسل الثياب، وتطحن الحبّ بالرحى، وتطهو الطعام وتقوم بالأعمال البيتية. حتى قال المؤرخون: إن يدها مجلت من الرحى^(٢). وقد جاءت يوماً إلى النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه فقالت له: «يارسول الله روحبي فداك، لقد مجلت يداي من الجاروش». وكان رسول الله يعرف ذلك؛ لأنّه مر يوماً فوجد علياً وفاطمة يتعاونان على إدارة الجاروش فجلس بينهما يعينهما^(٣).

وأتذكر هنا عبارة لأحد العلماء يقول فيها: والله لو أعطيت جزءاً مما كان في هذا الجاروش لكان أحب إلى مما طلعت عليه الشمس. هذا

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣، ١٢٠، مسند أحمد: ٦: ٢٩٨.

(٣) بحار الأنوار: ٤٣: ٥١ / ٤٧.

الجاروش الذي كانت تديره فاطمة كان العباسيون وشعراؤهم يعيرون به فاطمة وأنها مسكينة وأن أباها مسكنين زوجها لمسكين مثله، وأنها كانت تطحن الحب بالرحى. وقد تصدّى لهم الحسين بن الحاج النيلي المدفون عند رجلِ الإمام الكاظم عليهما السلام، صاحب القصيدة الفائبة. ومما قال ردّاً على مروان بن أبي حفصة شاعر البلاط العباسي:

قول امرئٍ نَبَهَ بالنصب مفتون	وكان قوله بالزهاء فاطمة
لا زال زادُك حبَا غَيْرَ مطحون	غيرتها بالرَّحِيْ وَالْحَبْ تطحنه
مسكينة بنت مسكنين لمسكين	وقلت إِنَّ رَسُولَ اللهِ زُوْجَهَا
أهْلُ الْجَنَانِ بِحُورِ الْخَرْدِ الْعَيْنِ ^(١)	وهي التي في غَيْرِ الْحَشْرِ يَخْذُنُهَا

فكانت الزهاء تطحن بتلك الرحى.

ودخل عليها الرسول عليهما السلام يوماً فرأى الإمام الحسين عليهما السلام يبكي على صدرها والبيت يحتاج إلى كنس، والملابس تحتاج إلى غسل، وهي تدير الرحى، فقال: «يا فاطمة تعجل لي مرارة الدنيا بحلوة الآخرة»^(٢). ثم ذهب واشتري لها جاريتها فضة لتعينها في أمور البيت.

فكان جميع ما تركه الإمام علي عليهما السلام سبعون درهماً أراد أن يشتري بها جارية تعين أهله على أمور البيت؛ فقد كانوا يديرون شؤونه بأنفسهم. غير أن الموت أدركه قبل أن يفعل ذلك، فكانت هذه كلّ تركته من الدنيا.

وقد وجدت رواية تقول: إن الإمام أوصى أن تُقسم الدار إلى ثلاثة أقسام، فأي دار هذه؟ أنا لا أعرف داراً لعلي في الكوفة. وهذه يمكن أن

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٥.

(٢) التمهيس (الإسكافي): ٦، شواهد التنزيل ٢: ٤٤٥، كنز العمال ٤٢٢: ٤٢٢، ٣٥٤٧٥.

تكون الحجرة التي كانت في المدينة. والحجرة التي كانت في المدينة لم يقسمها لأنها كانت صغيرة وظل فيها أولاد الحسن. وكان بابها على المسجد، فلما جاء عبد الملك بن مروان أراد أن يوسع المسجد، فقيل له: هذه الدار لعلي بن أبي طالب وفيها ولده. قال: يخرجون منها. فامتنع الحسن أن يخرج حتى ضرب بالسياط، وهدموها وأدخلوها إلى المسجد^(١).

فلم يكن لأمير المؤمنين دار، ولا أدرى ما هو منشأ هذه الرواية، فعلى لم يملك داراً، ولم يضع حجراً على حجر وهذه عبارة المؤرخين هذا كله ما تركه علي من الأموال، أما الثياب فلم يترك منها شيئاً، نعم ترك تلك المدرعة التي يقول عنها هارون بن عترة أحد أصحابه: دخلت عليه في الخورنق والسدير فرأيت عليه سمل قطيفة، فقلت له: إن الله قد جعل لك وأهل بيتك في بيت المال حقاً. قال: «إني أكره أن أرزاكم من أموالكم شيئاً، إن الله يعلم أنها القطيفة التي خرجت بها من أهلي في المدينة، وإن خرجت منكم بغيرها فأنا خائن».

تنمية وصايا العهدية

الثانية: وصيته بابن ملجم (الع)

أما وصايا العهدية فهي حفر القبور الأربع لتضييع القبر كما ذكرنا. والوصية الأخرى أنه قال: «إن عشت فأنا ولني دمي، وإن مت فاضربوه ضربة بضربي». يعني أنكم أولياء الدم، فإن شئتم قتلتموه وإن شئتم عفوت عنده. وأقسم أن علياً^{عليه السلام} لو عاش بعد تلك الضربة لأطلق سراح ابن ملجم:

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٨، بحار الأنوار ٣٩: ٢٩.

لأنه ظفر بمن هو أشد منه نكابة فعفا عنه، فابن ملجم جرح جسم علي، ولكن هناك أناس جرحوا الإسلام فظفر بهم علي وأطلق سراحهم^(١). وهذا كان دأبه ودينه، فهو تلميذ القرآن: «وَلَا تُشْتَوِي الْخَسْنَةَ وَلَا الشَّيْئَةَ»^(٢)!

وهكذا أوصاهم بعد الرحمن أن إذا عشت فأنا ولني دمي، وإن قضيت نحبي فلا تمثلو بي؛ فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: المثلة حرام ولو بالكلب العقور... اضربوه ضربة بضربة^(٣).

الثالثة: وصيته بلزم دفنه

ومن وصاياه العهدية أنه أوصى الإمام الحسن بأن هناك بقايا حنوط من رسول الله هبط به جبريل من الجنة، وكان الإمام عليه السلام قد قسم هذا الحنوط خمسة أقسام: فقسم منه حنط به رسول الله عليه السلام، وقسم حنط به الزهراء عليها السلام، وقسم اختص به نفسه، وقال لهم: «ادخروا الباقى لكم». وأوصاهم أن يحملوا مؤخر السرير فيكفوا مقدمة.

الرابعة: وصيته^(٤) بتعاهد المساجد

وأوصاهم ألا يتركوا مسجد ربيهم، وقال لهم: «لا تخلو ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تُناظروا»^(٤). فالمساجد مجد المسلمين وعزّهم. وأوصاهم بالصلة عمود الدين. وأوصاهم بصلة الأرحام وأوصاهم بأهل بيته نبيهم، وصحابة جدهم رسول الله عليه السلام. إلى غير ذلك من الوصايا المتعددة التي

(١) كما حصل مع عمرو بن العاص، وبسر بن أرطاة وغيرهم.

(٢) فضلت: ٣٤.

(٣) انظر نهج البلاغة / الوصية: ٤٧، قرب الاستاد: ١٤٣ / ٥١٥، تاريخ الطبرى: ٤: ١١٤.

(٤) نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

أوصى بها في هذه الليلة.

لقد ترك على ترکة مادية وقد ذكرناها، وترکة معنوية، فقد ترك على التربة التي دفن فيها بصماته، فهذه التربة منذ دفن فيها على تحولت إلى مدرسة للحكمة والعلم والفكر والقرآن بكل أبعاده. وبصماته ^(١) لا زالت فيها، ومن يعرف تاريخ المدارس الإسلامية كالأزهر والزيتونة يلاحظ بصمات على واضحة على النجف. فالذى يدرس في النجف يعرف قيمة تراثها العلمي، يقول أحد الشعراء:

أيا صاح هذا مربع في ترابه
ثلاثة عشر من قرون تضئمت
وازمنة مرت بكل ضروفها
ثمرة عليه وهي سوداء غيمة
لحيدرة جسم وفي أفقيه فخر
وما زال منه فوق هذا الشرى عطر
يشد بها زيداً ويدفعها عمرو
فيمشي إليها وهو مُنتَج بدر^(١)

نعم، هذا تراب أمير المؤمنين ^(عليه السلام)، مأوى أرواح المؤمنين، ومحراب الفكر، ومركز العبادة، وهذه بصمات علي ^(عليه السلام) على هذا التراب الذي يواد العلماء أن يحصلوا على شبر منه ليضطجعوا فيه، كتب النراقي إلى معاصره السيد مهدي بحر العلوم:

الاقل لسكان أرض الغري
لقد فرztتم بجتان الخلوة
افيضوا علينا من الماء أو
فنحن عطاشى وأنتم وروذ^(٢)

هذا التراب المقدس الذي يعبر عنه عبد الباقي العمري بقوله:
إذا نحن زرناها وجدنا نسيمها
يسفوح لنا كالعنبر المستنقس

(١) الفوانيد الرجالية ١: ٧٤ / مقدمة المحقق.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٢٤١.

وَنَمْشِي حَفَّةً فِي ثَرَامٍ تَقْدِسٌ
مُرَى أَنْتَا نَمْشِي بِوَادٍ مُقْدِسٍ^(١)

وهذا من تراثه العلمي المعنوي وال النفسي، والمسلمون يعتقدون ببقاء النفس الناطقة، وكذلك اليونانيون، فكانوا إذا أعضلت عليهم مشكلة جلسوا إلى قبور حكمائهم يستجلونها. فمدفن على العلم محراب فكر.

الإمام عليه السلام عنوان الأحرار

ومما ترك علي عليه السلام دماء الشهداء من أبنائه ألوية ترفرف
للأحرار على مدى الزمان، ورحم الله أبو العلاء المعربي حيث يقول:

دين علي ونجله شاهدان	وعلى الدهر من دماء الشهيد
ن وفي أولياته شفقان	فهما في أواخر الليل فجرا
حشر مستعدياً إلى الرحمن ^(٢)	ثبنا في قميصه ليجيء الـ

نعم ترك دماء الطاهرة ودماء أبنائه الlorية على طريق الشهادة والشهداء تشير للأجيال أن الدم الحرّ هو الذي ينير الطريق وحده. فكلّما احتاج الزمان إلى لواء استجلى بعض تلك الlorية التي تركها على من دماء ودماء أبنائه:

وتركت للأحرار حين يلزهم غنت السرى ويضيق فيه المهرب
جئت الصحابا من بنيك ثريهم أن الحقوق بممثل ذلك تطلب
فعليه أبو الشهداء والأحرار، وهو مفتزع طريق الشهادة، وهو من ترك الدم لواء يرفرف خفافاً على طريق الحرية.. ترك جلال المصرع في

(١) لم نعثر عليهما لعبد الباقى العمرى، بل هما للبهاء زهير فى ديوانه : ١٧٧ .

(٢) مناق آل آئي طالب ٢: ٢١٣، درر السط : ٩٣

محرابه، وصورة يختزنها الفكر إذا دخل إلى مسجد الكوفة وواجهه
محرابه وكأنه يرى البيت:

قتلت الصلاة في محرابها يا قاتلها وهو في محرابها

نعم، سقط في المحراب والصلاحة بين شفتيه، ولسانه وقلبه عامران بذكر
الله، فترك جلال المصرع في هذا المكان. وماذا ترك على بعد؟ ترك لوعة
في قلوب شيعته، ودمعة حزى في عيونهم:

أرق من دمعة شيعية تبكي على بن أبي طالب^(١)

كل هذا تركه علي في مثل هذه الليلة وقد اجتمع حوله أولاده
وأصحابه وأهل بيته، وكان في هذه الليلة يتلفت يميناً وشمالاً، يقول له
الحسن: أبا، «ما لي أراك تتلفت؟». فيقول له: «بني، هذا جدك رسول الله، وهذا
عمي حمزة، وهذا أخي جعفر، ورسول الله يقول لي: إنك صائر إلينا عن قريب». فلما سمعت بناته صوته تعالى بكاؤهن ونشيجهن وارتفعت أصواتهن
بالنحيب، فقال أمير المؤمنين: «مهلاً لا تؤذوا إمامكم ببكائهم».

ودخل عليه ذلك اليوم مجموعة من أصحابه منهم الأصيغ، يقول
الأصيغ: نظرت إلى وجهه مصفرأً وقد عصبوه بعصابة صفراء، والله ما
أدري أوجهه أشدّ أصفاراً أم العصابة، فلما وقع بصري عليه انت Hibit
باكيأً، فقال لي: «يا أصيغ لا تبك، إنها والله الجنة». قلت: سيدِي أنا أعلم أنها
الجنة ولكن أبكي لفارقك يا أمير المؤمنين. فهداً أمير المؤمنين قليلاً، ثم
رفع رأسه إليهم، قال: «بالأمس أنا صاحبكم، واليوم أنا عبرة لكم، وغداً أنا

مفارقكم». فلما سمعت النساء ذلك علت أصواتهن بالبكاء^(١):

أجلل إيتامك بالمواعيد
يبوئه عليهنّ مجلب العيد

واقولن ذخرنا بلجن يعيده

فلما اشتدت عليه الحالة أخذ أصحابه يتبرّكون بالدّنور منه والسلام، فصاح الإمام الحسن: «خففوا على إمامكم؛ فقد احمرّت قدماه، واشتدّ عليه الألم، وثقل جفناه». فأطرق الإمام برأسه على صدر ولده الحسن، وهو يمسح ما تلاصق بجيئنه من العرق، حتى إذا اشتدت حاليه سجّاه الإمام الحسن^{عليه السلام} إلى القبلة، وأسبل يديه ورجليه، وغمض عينيه، وقضى نحبه.



۲۱۳

دار السلام

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

«لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ لَهُمْ
بِتَا كَانُوا يَعْتَلُونَ» (١١).

مباحث الآية الكريمة

البحث الأول: معنى السلام وأقسامه

سميت الدار بهذا الاسم لأن سورها يدور على الإنسان، وهي تعني المكان الذي يسكنه متحذله. والقرآن الكريم يعبر عن الجنة بأنها دار السلام؛ للتفرقة بينها وبين الدنيا، فلماذا ينعتها الله تعالى بهذا الوصف؟ لا شك أن هناك سلاماً في داخل النفس، وأخر في محيط الأسرة، وثالثاً في المجتمع، وهذه الثلاثة مهددة في دار الدنيا، ولكنها في الآخرة موجودة.

سلام النفس

فالسلام في داخل النفس مهدّد في الدنيا بالصراعات الداخلية، ومن

١٢٧ (الأنعام: ١)

النادر أن تجد في الدنيا نفساً ليس فيها صراع داخلي، فهناك مثلاً صراع بين الغرائز والعقل، فالعقل يريد شيئاً والغرائز تريد أشياء أخرى، فتجد الإنسان ممزقاً بين عقله وغرائزه، وتائحاً بين غلبة العقل وغلبة الغريزة، وهو وبالتالي سيعيش معذباً في هذا الجو من الصراع.

وقد يكون الصراع أحياناً صراعاً وهمياً كالصراع الناشب عن الحسد، فالإنسان يحسد أخاه لأنه موهوب مثلاً، أو أن الله أنعم عليه بنعمة، فهناك من النفوس من تمنى لو أن هذا الإنسان يحترق، وإن كان هناك من النفوس الكبيرة من يقول: إن الله أنعم على هذا بنعمة وعسى الله أن يزيده ويعطيني مثله. وهذه نفس سليمة تحب الخير للدنيا كلها، وتلك سقيمة عليلة موبوءة. وهناك بعض الناس من يتمنى أن يحرق غيره لا لشيء إلا لأنه محروم مما حبا الله ذلك الشخص إياه.

كان النبي ﷺ جالساً بين أصحابه يوماً فقال لهم ﷺ: «سيدخل عليكم رجل من أهل الجنة». فدخل أحد الأنصار يحمل نعله بيده ووضؤه ينطف، وفي اليوم التالي كرر النبي ﷺ الفعل ذاته، فدخل الرجل نفسه، وفي اليوم الثالث تكرر الفعل أيضاً. فلما خرج الرجل تبعه عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال له: لي إليك حاجة. قال: هات. قال: إن بيبي وبين أبي برودة، وأريد أن أحـل عليك ضيفاً. قال: على الرحب والاسعة. فذهب معه إلى البيت، وراح يراقب هذا الأنصاري ليرى نوع العمل الذي استحق به هذه المنقبة؟ فرأـه يؤـدي الواجبات فقط، وعند الليل ينام على وضوء، وإذا تقلب في نومه ذكر الله.

فلما أصبح الصباح سأله عبد الله عن السبب الذي استحق به هذه المنقبة وهو على هذه الحال الاعتيادية من العبادة، فقال الرجل: ما هو إلا

ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غثناً ولا أحسد أحداً على خير أعطاء الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لانطيق فتمسك بها^(١). فهو يقول له: ما حملت بعد أعطاء الله خيراً إلا خيراً في نفسي، فلا أحمل حقداً عليه، فإذا رأيت أحداً أعطاه الله خيراً قلت: زاده الله خيراً.

نعم، هناك من الناس من يحمل في نفسه ناراً تلتهب، خصوصاً إذا كان فاشلاً أو دجالاً، فهو يتمنى أن يحرق الدنيا على أهلها، لا لشيء إلا لأنه فاشل والأخرون ناجحون، أو أن الآخرين صادقون وهو دجال لم يستطع أن يصل بطريق ذله إلى ما وصلوا إليه. وهؤلاء بلاه ونكسة على الإنسانية، أما النفس الكبيرة فهي مطمئنة إلى ما عند الله، راضية بما حكم الله: «بِإِيمَانِهِ النُّفُوسُ الْكَبِيرَةُ هُنَّ أَرْجَعُوا إِلَى زَقْرِبِكَ زَاضِبَةً مَرْضِبَةً»^(٢). وهي النفس التي تعيش بسلام دائماً، أما النفس التي تعيش في حرب مستمرة فهي النفس التي تحمل الحقد والحسد ولا تحبّ الخير لأحد، فهي في حرب داخلية دائمة. وهذه النفس يعالجها القرآن عند دخولها إلى الجنة بقوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غُلٍ»^(٣). فهذه النفوس تدخل الجنة بعد عملية غسيل من نوع خاص، فهي تدخل الجنة حالية من الحقد والحسد.. تدخل وهي صافية تحمل الخير للناس.

سلام الأسرة

ولدينا في الدنيا أيضاً موضوع السلام في محيط الأسرة، وهو قليل

(١) الفجر: ٢٧ - ٢٨.

(٢) مجمع الزوائد: ٨: ٧٨.

(٣) الأعراف: ٤٣.

خصوصاً عند بعض الآباء الجهال، فتجد الأب يفضل ولداً على آخر دون سبب للتفضيل، فتارة يكون أحد الأولاد مستقيماً والأخر منحرفاً، فيكون التفضيل هنا قائماً على أساس أن المستقيم مقدم على المنحرف، فيشعر هذا المنحرف في قراره نفسه أن أخيه إنما فضل عليه لاستقامته، فيدرك المبرر ولا ينشأ عنده الحقد. أما إذا كان الأمر على خلاف هذا، وكان هناك من يعامل أحد الأولاد معاملة جيدة لأن أمّه محبوبة، ويعامل الآخر بعكسه؛ لأن أمّه ليست كذلك. وهذا يخلق جوًّا من الحرب داخل الأسرة، ولا يكون التفاعل داخلها تفاعلاً سليماً، في حين أنه يفترض أن يكون التفاعل سليماً. نقل عن النعمان بن بشير أنه قال: سألت أمي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي فقالت: لا أرضي حتى تشهد النبي ﷺ. فأخذ يدي وأنا غلام فأتنى بي النبي ﷺ، فقال: إن أمّه بنت رواحة سألتنى بعض الموهبة لهذا. قال ﷺ «ألك ولد سواه؟». قال: نعم. قال: «لا تشهدني على جور».

وفي رواية: «ألك بنون سواه؟». قال: نعم. قال ﷺ: «فكلهم أعطيت مثل هذا؟». قال: لا. قال: «فلا أشهد على جور».^(١)

فالحرب داخل الأسرة موجودة بين الزوج وزوجه، فمثلاً قال تعالى: «فَإِنْ حَفِظُتُمُ الْأَنْوَارَ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مُلْكَتْ أَيْمَانُكُمْ»^(٢) فإن كان لدى الإنسان من الإمكانيات المالية ما يمكن أن يوفر بها العدل بين النساء ويسد الحاجة، وكان عنده الموجب للتعدد، فيها ونعمت، وإنما أظافر الحرب سوف تنشب داخل الأسرة لا محالة.

(١) جامع المقاصد ٩، ١٧١، مستند أحمد ٤، ٢٦٨، صحيح البخاري ٣: ١٥١.

(٢) النساء: ٣.

وهناك البعض ممَّن تحدث له خارج بيته مشاكل تجارية أو وظيفية، فيدخل البيت ويصبُّ جمَّ غضبه على أولاده وعياله، وقد ورد في المأثور أن أكثر عذاب القبر من سوء الخلق مع العيال^(١). فالإنسان عندما يدخل على عياله فعليه أن يحمل لهم التغر الباسم، والروح الكريمة. فهؤلاء أشبه بالأسرى عنده، وهو في نظرهم عمد البيت، فينبغي أن يحمل الطمأنينة والروح الطيبة إليهم وهو يدخل إلى البيت. ولذلك كان النبي ﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم؛ لأنني خيركم لأهلي»^(٢). والثابت أنه ^{عليه السلام} كان في منتهى الخلق الكريم مع عياله.

إذن هذا السلام في محيط الأسرة متوفَّ في الجنة، فليس في الجنة ما يوجب سوء الخلق، إذ ليس فيها موجبات خطأً أو مسببات للصراع والألم، ولذا فهي مؤسسة للسلام.

سلام المجتمع

ولدينا في الدنيا حروب على مستوى أوسع، تأكل الأخضر واليابس، وهي الحرب بين الإنسان والإنسان، وتترتب على هذه الحروب مشاكل كبرى. حدث يوماً أنَّ قبيلة أغارت على قبيلة قيس بن عاصم المنقري فأخذت منها سبايا، وبعد مدة تصالحت القبيلتان واتفقنا على رد السبايا، فأرجعت السبايا جميعها، إلا امرأة واحدة هي ابنة قيس بن عاصم المنقري، فقد تزوجت بالرجل الذي سباها، فلحلَّ قيس إلا تأييه بنت إلا ويئتها، فقلَّدته قبيلته في هذا الفعل، ثم قلدتهم قبائل أخرى في هذا

(١) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.

(٢) الفقيه: ٣ / ٥٥٥، ٤٩٠٨ / ١٩٧٧، سنن ابن ماجة: ٦٣٣ / ٦٣٣.

الفعل. فكان الرجل ينتظر امرأته ساعة المخاض، فإن كان المولود أنثى ألقاها في التراب وأهاله عليها^(١). فالقرآن يسألهم: «وَإِذَا الْمُؤْمِنَةُ سُبِّلَتْ هِيَئَةً ذَنْبٍ قُتِّلَتْ»^(٢).

ثم تطور القتل إلى قتل كلّ حقّ للمرأة، فهي تُقتل بمختلف الوسائل، وحتى أوروبا التي تتشدق بالدفاع عن حقوق المرأة فإن كلّ حقوق المرأة تقتل فيها. فنحن عندما ندرس أن هناك حوالي خمسة وعشرين فرقاً نفسياً وجسدياً بين الرجل والمرأة نفهم أن هذا يعني أن المرأة تصلح لأعمال معينة تتناسب مع فطرتها وأنوثتها. فلو كنا حريصين حقاً على حقوقها لأعطيتها العمل الذي يتناسب مع فطرتها مع الإبقاء على الأجر كما هي، ولكن انظر الآن إلى أوروبا الغربية والشرقية فهل تجد أن المرأة تأخذ ذات الحقوق التي يأخذها الرجل؟ كلا، وإنما تعطى فقط إجازة معينة في أيام النفاس. وهذا في العمل ذي الأجر اليومية، أما إذا كان العمل عمل «القطعة» - أي العمل الذي تعطى أجوره على ما ينتج الإنسان من القطع الصناعية - فهذا العمل إذا قصرت به المرأة فهي تعطى حسب عملها.

فلو كانت هناك رحمة وشفقة لأعطيت المرأة الحقوق والأجر نفسها التي يأخذها الرجل، مع الأخذ بعين الاعتبار أنها امرأة تتعرض إلى أمور قهريّة خارجة عن إرادتها من حمل ونفاس وولادة.

والى حد قريب لم يكن في أوروبا للمرأة ذمة مالية مستقلة، بمعنى أنها ليس لها حساب مالي خاص بها، ولو أنها تزوجت فليس لها الحق حتى

(١) التكوير: ٩ - ٨.

(٢) مجمع البيان: ٤: ١٧١.

أن تتسمى باسم أبيها، وإنما تصبح كالظلل للرجل. أما في الشريعة الإسلامية فهي تحمل حقوق المرأة كاملة مذ تولد^(١).

إذن لدينا في الدنيا حرب على مستوى النفس، وحرب على مستوى الأسرة، وحرب على مستوى الخارج أو المجتمع، فالدنيا دار حرب ليست بدار سلام. وهناك حرب أيضاً مع النفس والجسد، فالجرائم طارد الإنسان وتريد أن تفترسه، والجسد بهذا معرض للمرض والآفات. فعلى الإنسان دوماً أن يتوفّى من الحرّ ومن البرد، والجرائم والعدوى. فالمستشفيات مثلاً تمثل دار الحرب بين الجسد من جهة وبين الجرائم والأمراض من جهة أخرى.

أما الحرب مع النفس فهي أن النفس المطمئنة تنهي الجسد عن ارتكاب الخطيئة، وهو يجتهد نحو ارتکابها. وهذه الظاهرة يسجلها بعض الأدباء حيث يقول:

بَذْ وَجْسُمٌ مُصْفَدَ مَكْبُولٌ	رَبِّي رُوْحِي طَلِيقَةٌ فِي مُنْجَا
جَسْدِي آثِمٌ وَرُوْحِي فَتَّولٌ	بَعْدَ الْفَرْقِ بَيْنَ رُوْحِي وَجَسْمِي
وَحْشَةُ الدُّلُّ أَثْكَنَ الْفَسَّوْرُ	وَأَثْكَنَ السَّائِلُ الْمُلْبِحُ وَيَجْلُو

فهذا صراع بين الروح والجسد. وقد تستغرب هذه الثنائية التي تراها في القرآن الكريم، فهو يقول مثلاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوَا انْفُسُكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُوَّدُهَا النَّاسُ وَالْجَاهَةُ»^(٢)، فتقول: ما معنى أن يقى الإنسان نفسه؟ فهل

(١) لمزيد من المعلومات حول هذا انظر المحاضرات: (الإسلام والمرأة) و(حقوق المرأة) و(المرأة بين الحقوق والواجبات)، و(وراثة النساء)، في الجزء الأول من موسوعتنا هذه.

(٢) التحرير: ٦.

هما اثنان؛ هو واحد ونفسه ثانية؟ هذا هو الصراع بين الضمير والغرائز.

المبحث الثاني: الشعور بالفوت

وفي الدنيا أيضاً هناك الشعور بالفوت، وهو أعن شيء فيها، فلو أنت بنيت قصراً جميلاً فيها، وأنفقت عليه الكثير، فأنا لا أدري هل يهبط على ملك الموت وأنا داخل إليه أو يلقاني وأنا خارج منه؟ وهذا الشعور بالفوت من أعن آلام الدنيا. وكذلك مع الذهب والأموال، فأنا أجمعها ولا أدري هل يصبح على الصباح وهي بيدي أو بيد غيري، وهل أنها ستفتح بيد من يُعيّرني بعض الأهمية أو بيد من يهملي:

بَهْبِلُونَهُ فَوْقِي وَدَمْسَقْهُمْ شَذْرِي	عَائِشِي بِاحْبَابِي عَلَى حَافَقِي قَبْرِي
سَتَعْرِضُ فِي يَوْمَيْنِ عَنِّي وَعَنِّي بَكْرِي	أَلَا إِيَّاهَا الْمُذْرِي عَلَيَّ دَمْوَغَهُ
عَفَا اللَّهُ عَنِّي يَوْمَ أَتَرَكُ شَاوِيَا	أَزَارَ فَلَأَدْرِي وَأَجْفَنَ فَلَأَدْرِي

وكل هذه الحرب لا تجدها في الجنة أبداً، ولذا يقول القرآن: «إِنَّهُمْ ذَارُ السَّلَامِ»، فهي دار خالية من الحقد والحسد والألام والآفات، لا تجد فيها إلا الإنسان الكريم الذي نفرح بصحبه.

ماهية العندية في قوله تعالى: (عِنْدَ رَبِّهِمْ)

ثم انتقلت الآية فقالت: (عِنْدَ رَبِّهِمْ)، وهذه العندية لا يمكن حملها على العندية المكانية، كما نقول: جاء فلان من عند فلان. وهذه العندية المكانية لا تتصحّ على الله هنا؛ لأن الناس في الدنيا والآخرة هم عند الله، فهو تعالى لا يخلو منه مكان، بل المقصود بالعندية هنا: الالتزام، كمن يطلب من أحد ديننا، ويطالبه بشخص ضامن، فيقول الضامن: دين فلان عندي. بمعنى أنه ضامن له، وملتزم بما عليه من دين

وهذا الوعد هو المعنى هنا، أي بضمان الله تعالى، وهو إذا وعد وفي، ولكن بالأسف! يعدنا الله وليس لنا ثقة بما عندنا، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُو﴾^(١)، ولكننا لا نشعر أنها لهو ولعب، ويقول: ﴿فَلَا تَغُرُّنُكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّنُكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾^(٢)، ولكننا نترك للغرور أنفسنا. فهو تعالى يعد، ونحن نعلم صدق وعوده لكننا بالأسف لا نرتب عليها أثراً. والسبب في ذلك أن عندنا ظللاً باهتة من الإيمان، وليس عندنا الإيمان الذي يأخذ العمق الكافي، ذلك العمق الذي كان في زمن النبي ﷺ حينما نزل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَنَأْلُوا الْبَرَ حَتَّىٰ تَنْقِضُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(٣) فقام له رجل من الأنصار يدعى أبو طلحة فقال له: يا رسول الله روحي فداك، لدى أحسن ضيعة، وهي بيرحاء^(٤) كنت أذخرتها لنفسي، وأنا أشهدك أنها صدقة في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: «بغ بغ ذلك مال رابع»^(٥). في حين أن بعض الصحابة كان عندما يريد أن يخرج الزكاة من تمره فإنه يخرج التمر الرديء والخشاف، وقد رأى النبي ﷺ ذلك بعينه يوماً، فأخذ بيده حفنة من التمر والتفت إلى المجتمع فقال ﷺ: «هل يقدم هذا الرجل مثل هذا التمر لأمه وأبيه لو أرادا أن يأكلان؟». قالوا: لا يا رسول الله.

(١) محمد: ٣٦، الحديد: ٢٠.

(٢) لقمان: ٣٣، فاطر: ٥.

(٣) آل عمران: ٩٢.

(٤) بيرحاء - بفتح أوله والراء، على وزن خَيْرَلَى - ويقال: بيرحاء - مضاف إليه ممدود - ويقال: بيرحاء، وفي رواية مسلم: بيرحاء، وفي رواية أبي داود: باريحا. وهذا كله يدل على أنها ليست ببر، وقيل: هي أرض لأنبي طلحة، وقيل: هي موضع بقرب المسجد بالمدينة يعرف بقصر بنى جديلة. معجم البلدان ١: ٥٢٤ - بيرحاء.

(٥) مسند أحمد ٣: ١٤١، صحيح ابن حبان ٨: ١٢٩ - ١٣٠ - ١٤٩ - ١٥١، تفسير القرآن العظيم ١: ٢٨٩.

فقال عليه السلام: «لِمَ يَقُدِّمُ هَذَا الْمُسْلِمُينَ؟ أَوْلَيْسَ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؟»^(١). انظر إلينا الآن، فستجده يبنتنا من يأكل ويتنعم ويلبس، وعنده أب أو أم لا يجدون حتى رغيف الخبز، ففي هذه السنة دعاني أحد الأصدقاء في ذبي لزيارة والده - فقد كان أبوه كبير السن لا يستطيع أن يأتي إلى وفي نفسه الرغبة في أن يراني - فلبيت الدعوة وذهبت، فوجدت أباً يسكن في بيت متواضع خالٍ من التبريد وكأنه في فرن، وعندما خرجت وبخت هذا الصديق على تقصيره مع أبيه. فالابن يسكن في بيت فاخر، والأب في بيت بسيط خالٍ من التبريد!

المبحث الثالث: مناسبة **﴿ذَارُ السَّلَام﴾** و**﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾**

وفي القرآن من الالتفاقات والأسرار ما لا يعرفها إلا صاحب الخلفية القرآنية، ومن هذه قوله تعالى: **﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾**، ولم يقل: «عِنْدَ الله» فهناك فرق بين التعبيرين، وللغة العربية ليس فيها مترادافات بالمعنى الدقى أبداً، فالسيف يسمى البثار والصمصام والقاطع وهي أسماء تطلق على السيف ولكنها تختلف بعضها عن البعض الآخر فالقاطع صفة للسيف، والبثار أمضى من القاطع، وهكذا. وكذلك في أسماء الله، فهي ليست مترادفة وإنما يوجد فيها نوع تفاوت، فالرب غير الخالق مثلاً، والرب في هذه الآية يعطي معنى التربية، أي أن دار السلام هي للمتربي الذي نزع من قلبه الحقد، ولمن يحمل الخير في نفسه.

ثم قالت الآية: **﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾**، والولي هو الذي يدفع الشر ويأتي بالخير،

(١) قريب منه في جامع البيان، المجلد ٢، ج ٣: ١١٧، الدر المنثور ١: ٣٤٦، ولم ينسبه إلى رسول عليه السلام.

كولي اليتيم الذي يسدّد الطفل ويوجهه، ويدفع عنه الشر ويجلب له الخير، ويقربه إلى البر والصلاح. والإنسان كله ضعف وقصور، وهو قاصر وناهٍ وإن كان مليئاً بالغرور، وقد يتحوّل في لحظة ما إلى تافه، وقد يبيع كل مقدّساته وكرامته بشيء من الذهب. فهو ضعيف يعصي الله من أجل رغيف، ولا تجد إلا القليل ممن يحمل الروح السامية والكرامة والخلق الرفيعين، فأنت تجد من يقول:

وأظمماً إن أبدى لي الماء مائة
ولو كان لي ثهز المجرّة مورداً
ولو مذنبو حادث الدهر كفة
لأخذت نفسى أن أهذاه يداً

ولتكن تأني إليه فلا تجده حقاً هكذا، فهو في واد الواقع في واد فالإنسان ملاكه الضعف، ولا يدفع عنه الضعف إلا الله، وهو المتفضل على عباده. ولو تضافر العلم على إعادة ضوء إلى عين فقدت البصر مثلاً لما استطاع إلا بإذنه؛ ولذا تجد النفوس الكبيرة تتوجه إلى الله تعالى في كل حال:

وما ظم إلة في كلّ حائةٍ فلا تثيل يوماً على غير لطفه

وأشير هنا إلى أن التصور يمثل قيمة الثقة غير المحدودة بالله، والتي تمثل روح الإنسانية لولا وجود بعض الجوانب السلبية فيه. والنفوس الكبيرة لا تعرف الشكوى أبداً، وأية مصيبة تحل فيها تراها يتسع صدرها لها وتقابها بمتنه رحابة الصدر، وفي طليعة هؤلاء أهل البيت عليهم الدين جُبلوا على الصبر عند المصائب. ويا لها من ليلة تلك التي مررت على الحوراء زينب عليها السلام ومجموعة السبايا معها، فقد كانت الأجساد على الرمال ولما تدفن بعد، وهي تسأل الإمام السجاد عليه السلام: لا يزال أبوك على

الرمضاء؟ والإمام السجاد عليه السلام يغاليب دمعة ت يريد أن تنحدر من بين عينيه. نعم كانت هي والسبايا في مثل هذه الليلة في خربة الكوفة، وقد نادت أحدهن جواريها فقالت لها: قفي على باب الخربة ولا تسمحي لأية امرأة أن تدخل علىي إلى الخربة. فهي كانت ابنة الحاكم العام في هذه المدينة، فكيف تُدخل إليها وهي في هذه الحالة؟ ولسان حالها: ليست بي طاقة على الشماتة. وكانت تفرغ كل ألمها في الليل عند رأس الحسين عليه السلام .. تبت ألمها لمن عاشت معه دهرًا .. إلى الخدّ الذي أشبعه رسول الله لثماً وتقبيلاً:

ما يرضه القلب ينسه	ولا ترضه العيون تفnam
ولا طـيقك يفارغنى	ولا تـنسيني الآيام
واللـى زـوده الفـوحـى	نـوح اطـفالـك الأـيـقـام

نقوم إلى الرأس وتسكب ما يعتمل في صدرها من عواطف عنده، وتذكّره بزمن مضى لها معه:

با شـدي الرـضـعـتـ وـيـاهـ	الـخـوـهـ مـنـ ثـدـايـهـ أـمـيـ
وـيـا وـجـهـ العـلـىـ مـلـكـاهـ	يـزـولـ وـيـنـجـلـيـ هـفـيـ
وـيـا جـسـمـ الـذـيـ بـرـدـاهـ	رـيـحـةـ وـالـدـيـ وـعـفـيـ

﴿٢٢﴾

بين الوادي المقدس والغربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَأْمُوسَى * إِنِّي أَنَا
رَبُّكَ فَاخْلُغْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالوَادِي الْمُقَدَّسِ
مُؤْمَنٌ * وَأَنَا أَخْتَرُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا
يُوحَى﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

توطئة

تناول هذه الآية الكريمة مسيرة النبي موسى عليه السلام بأهله في وقت كان شاتياً شديداً البرودة، وكذلك تناول قضية الوحي والنبوة إليه عليه السلام. وهذا هو النداء الأول الذي نودي به النبي الله وكلمه موسى بن عمران عليهما السلام حينما كان عائداً من مدین إلى مصر، وكما قلنا فإن الجو كان شاتياً قاسياً شديداً البرودة، وكانت أهله في حالة طلق، ولذا فإنه عليه السلام راح يتلمس لها ناراً للتدفئة. وأثناء بحثه تراءت له ناراً من بعيد، فخفَّ إليها ليقتبس منها قبساً لأهله يدفthem به، لكنه حينما اقترب من النار سمع صوت الله جل وعلا

يُخاطبه بأية المقام.

فالآية الكريمة تدور في هذا الإطار، وهي تحتوي على مضمamins عدّة سوف أعرض لها إن شاء الله تعالى كلّ مضمون في مبحث مستقل:

المبحث الأول: وجه استعمال الكلمة **﴿نُؤْدِي﴾**

تقول الآية الكريمة: **﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُؤْدِي﴾** وفي هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة نكتantan ينبغي التنبيه إليهما، وهما:

النكتة الأولى: وجه استعمال الكلمة **﴿نُؤْدِي﴾ مع أنها للبعيد**
فأول ما يلفت النظر في هذا التعبير القرآني الشريف هو الكلمة **﴿نُؤْدِي﴾؛ ذلك أن مدلول هذه الكلمة يستعمل للمنادى البعيد، في حين أن النبي موسى عليه السلام كان قريباً من الله جل وعلا ب نوعين من القرب، هما:
 الأول: القرب المعنوي. فالنبي موسى عليه السلام كان في كنف الله تبارك وتعالى ورعايته، وتحت عينه وكلاءه.**

الثاني: القرب المكاني. فهو عليه السلام كان إلى جانب النار التي خرج منها صوت الخطاب المقدس إليه، أي قريباً منها.

وببناء عليه ما هو الوجه في اللجوء إلى الكلمة **﴿نُؤْدِي﴾**، وهي لمن يكلّم أو يخاطب من بعيد؟ وما هو وجه البعد الذي وضع له الكلمة النداء المشار إليها؟

الظاهر من بعض الآراء أن وجه البعد هو بين المنزلتين؛ منزلة الإله، ومنزلة العبد. فمنزلة العبودية فيها بعْد واسع وبوْن شاسع عن منزلة الألوهية التي لا يمكن أن يرقى إليها شيء. وهذا هو المعنى الذي أراد القرآن الكريم التنبيه إليه بهذه الإشارة اللطيفة. وألا في واقع الأمر أن

النبي موسى عليه السلام لم يكن بعيد عن الله جل وعلا في لحظة من لحظات حياته.

النكتة الثانية: جذبة صوفية حول الآية الكريمة

وهي عدم التزدّاد النبي موسى عليه بصوت غير صوت النداء المقدس، يقول بعض المفسّرين: إن النبي موسى عليه بعد أن سمع ذلك النداء الإلهي المقدس وهو عند النار المقدسة وفي ذلك الوادي المقدس لم يعد يلذّ له سماع أي صوت آخر غير ذلك الصوت؛ فالنسمة التي وصلته عبر ذلك الصوت - وهو صوت الحق - جعلته لا يستأنس ولا يلتفت بأي صوت آخر سواه. ولعل في هذا الأمر جذبة من جذبات الصوفية. وتحديد هذه الجذبة ربما يكون من المفسّرين أنفسهم، وربما يكون لها واقع موضوعي. لكن على أية حال مهما يكن الأمر فإن ذلك الصوت حتماً له وقع لا يمكن أن يكون إلا من صوت الحق، ولا يمكن لصوت آخر غيره أن يكون له ذلك الواقع نفسه.

المبحث الثاني: في معنى الربوبية

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ((يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا زَيْنٌ)), وهنا يتساءل البعض عن وجه التأكيد في قوله تعالى: ((إِنِّي أَنَا)), فكان من الممكن أن يكتفى بالقول: أنا ربك، أو: إني ربك دون الجمع بينهما. إذن فلا بد من وجود أمر أو نكتة ينبغي الالتفات إليها في هذا التعبير القرآني الشريف، وهذا نقطتان يذكرهما المفسّرون سبباً لهذا النداء الذي نودي به كليم الله عليه السلام، هما:

النقطة الأولى: التأكيد على أن هذا الخطاب من الله جل وعلا
ذلك أن النبي موسى عليه السلام لم يكن ليدور في خلده أو ليظن أن صوت
السماء سوف ينبعث مخاطباً إياه من نار؛ ولهذا فإن التأكيد هنا جاء لتأكيد
هذا الشيء عنده، وليحوله من ظن إلى يقين. أي أن الصوت الذي سمعته
يا موسى هو صوت الحق تبارك وتعالى، وليس صوتاً غيره... هو صوت
الخالق وصوت القدرة الإلهية المبدعة وليس صوت شيء غيره.

نشوء الصوت وحدوده

إننا نعرف أن الصوت هو عبارة عن انحباس الهواء بين أعضاء الصوت
 وهي العبال الصوتية داخل الحنجرة، وهي حبال تقطع الهواء عندما يمر
 بها؛ مما يصدر عنها هذا الصوت. والصوت بهذا المعنى لا يمكن أن يصح
 بحال من الأحوال على الله تبارك وتعالى؛ لأنه جل وعلا ليس بجسم ولا
 بمادة حتى يمكن أن يقال: إن عنده حنجرة وحبالاً صوتية يضطرب
 الهواء فيها فتقطعه وتحبسه، ثم يخرج منها على هيئة الصوت.

إذن فلا بد من الصيغة إلى القول بأن ما حدث هو أنه تعالى قد أظهر
 الصوت الذي يريده عن طريق بعض مخلوقاته وهي النار، فغاية ما في
 الأمر أنه تعالى قد أظهر الصوت عن طريق مخلوقاته. وهنا نلتفت إلى أن
 التأكيد المعارض هو لهذا الهدف، والا فإن التعبير بأحد هما كافٍ عن
 التعبير بكليهما.

النقطة الثانية: تهدئة اضطراب موسى عليه السلام

فالنبي موسى عليه السلام حينما سمع الصوت اضطراب وداخله شيء من
 الخوف، وهنا أراد الله جل وعلا أن يطمئنه، ويُزيل عنه اضطرابه؛ ولذا

فإنه عقبه بقوله: «زَيْدُك»، ذلك أن التربية تعطي معنى الدفء العاطفي والطمأنينة. والمربي عادة هو الأبوان، فهما غالباً من يقوم بدور التربية، والأب أو الأم لا يمكن أن يحملها تجاه ابنهما إلا المودة والعاطفة والحنان والدفء؛ ولذا فإن الإنسان يحمل في أعماقه للمربي صورة مملوءة بالحنان والاحترام والإكبار. وعندما نتعامل مع علاقتنا بالأم فإننا نجد أنها تحمل في ذكرياتنا صورة مملوءة رحمة وعطفاً وعطاء، كما أن في ذكرياتنا أيضاً تصوراً واضحاً وكبيراً لحجر الأب عبر صورة مملوءة بالشفقة والرحمة والرأفة والمودة.

لماذا اختار الله تعالى كلمة «زَيْدُك»؟

وهنا فإننا نلتف النظر إلى النكتة في التعبير القرآني الشريف: «زَيْدُك»؛ دون (الله) ، وهمما جنبتان:

الجنبة الأولى: انتزاع الرهبة من نفس موسى عليه السلام

ذلك أنه تبارك وتعالى أراد أن ينتزع من نفس موسى عليه السلام الشعور بالرهبة والخوف والاضطراب، وهذا لا يكون مع التعبير بلفظ العبودية أو الألوهية، لأنها مناط الخوف من الله تعالى، بل إن الذي يناسبه هو لفظ الربوبية التي تعني الرحمة والتربية. فالخطاب المتوجه إلى النبي موسى بن عمران عليه السلام يقول له: لا تضطرب؛ فأنا ربك الذي خلقتك، وأفضت عليك الوجود والحياة، وغمرتك بالنعم، وشمنتك بالرحمة في كل أبعادك؛ فأنا ربك ومربيك، وأنا الذي أفيض عليك رحمة وحناناً ومودة. إذن فالآلية الكريمة في مقام إعطائه عليه السلام لوناً منألوان الطمأنينة والاستقرار بعد أن استشعر في قراره نفسه تلك الرهبة وذلك الاضطراب

نتيجة الموقف الذي كان فيه . إن الإنسان حينما يضطرب أو يرتجف من نداء يسمعه فإنه في تلك اللحظة يكون أحوج ما يكون عليه هو أن يُمد بالشعور بالطمأنينة ، ولذا فإن الله جل وعلا عبر لنبيه موسى <ص> بهذا التعبير الذي هو في حقيقته كله طمأنينة وإيحاء بالمودة والشفقة .

الجنبة الثانية: أن الله تعالى هو الرب والمربّي
وتربيته تبارك وتعالى للإنسان تتصور على نمطين:
النمط الأول: التربية التكوينية .

النمط الثاني: التربية التشريعية .

ولو أننا تتبعنا تعريف مفهوم التربية من وجهة نظر فلسفية ، ورجعنا في هذا الأمر إلى فلاسفة اليونان لوجدنا أنهم يعرّفون التربية على أنها إمداد العقل والجسم بكل ما يمكنهما تقبله . أي أنك حينما تربى أحداً فإنك إنما تمد جسمه وعقله بما يستطيعان أن يستوعباً أو أن يتقبلاه . وبتعبير آخر يعني هذا تأمين حاجات الإنسان الروحية والجسدية . والتربية الروحية أو التربية التشريعية هي التربية التي تأتي على رأس قائمة أنماط التربية التي يتلقاها الإنسان وبالدرجة الأولى منها؛ لأنها إمداد للعقل والروح، في حين أنَّ الأنماط الأخرى هي عبارة عن إمداد للجسم وتؤمن احتياجاته كافة وتوفيرها له .

وكما هو معلوم فإن الجسم يأتي بالدرجة الثانية بعد الروح؛ لأنها هي الباقية وهو الفاني .

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن إمداد الجسم يشاركتنا به حتى الحيوان فكما أنَّ الإنسان يأكل ليتغذى ويشرب ويتزوج وعنده خلايا تتجدد يومياً فكذلك الحيوان شأنه شأننا في هذه الناحية، فهو بحاجة إلى

المأكول والمشرب والمأوى وال العلاقات الجنسية التي تمدّ نوعه، كما أنه يمتاز بعين ما نمتاز به نحن من موت الخلايا اليومي وتجددها. وبشكل مجمل فإنَ العمليات الأيضية^(١) كافة التي تحدث في جسم الإنسان تحدث في جسم الحيوان بشكل عام من غير فرق، أو من غير اختلاف بينهما. أي أن هذا الشيء تشاركنا فيه حتى أدنى الحيوانات في سلم الرقي والتطور.

وعليه فمسألة إمداد الجسم تأتي بالمرتبة الثانية؛ لأن الإنسان لا يشاركه حيوان أو مخلوق آخر مما هو تحت مجال حواسنا في احتياجاته العقلية. فالإنسان متفرد بهذه الجنبة والحيوان لا يشاركه فيها أبداً.

ملازمة الروح والجسد

وربما يقول قائل: إن الروح لا يمكنها أن تمارس فعالياتها بشكل مستقل عن الجسم، فما لم يأخذ الجسم حقه من الإمداد فان الروح سوف لا تستطيع أن تأخذ حقها من الإمداد، وبالتالي من تأمين حاجاتها.

والجواب أن يقال: إن الواقع الذي لابد من التنبيه إليه هو أن المقصود من إمداد الجسم ليس الرغيف الذي يأكله الإنسان، وإنما هو عبارة عن وضع قابلية للجسم في الاستمرار في الحياة. أما إمداد الروح الذي هو أهم، فلأنه يعني بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة؛ وأنه يعني تحقيق الوجود الإنساني وليس الوجود الحيواني.

وقد ذكرت أكثر من مرة أن أرسطو كان معلم الإسكندر، وكان

(١) أي عملية البناء والهدم الحيوتين.

الإسكندر في أيام حكمه إذا دخل عليه أرسطو قام له ويحترمه ويجله غاية الاحترام والإجلال ويقدرها غاية التقدير، لكنه إذا دخل عليه أبوه فهو يحترمه لكنه احترام دون احترامه لمعلمه، وقد سئل ذات يوم عن السبب الذي من أجله يجعل أستاذه ومعلمه ويبجّله أكثر من إجلاله وتبيجيله لأبيه، فقال: إن أستاذي أخرجني من كون الظلمة إلى كون النور، وأنشأني فكراً، والإنسان إنما يكون إنساناً بفكره لا بدمه ولحمه، وهذا بخلاف حال أبي.

فهو يريد أن يقول: إن الإنسان إذا تعلم وثقّف ووعي أصبح يمتلك ما يضيء له طريق روحه، أما أبي فقد أخرجني من كون الموت إلى كون الفساد والشيخوخة والألام والمأساة والمصائب، ثم وبالتالي يسلمني إلى القبر. وشتان بين شخص يخرج غيره من عالم الظلمات إلى النور، وبين شخص يخرجه من عالم النور إلى الظلمات.

فكانه يقرر أن دور الأب ليس أكثر من إخراج الوليد من بطن الأم إلى رحم الدنيا، فيعرضه بذلك إلى الآلام والمشاكل.

وهذه النظرة في حقيقة الحال موجودة عند جماعة كبيرة من الناس، وهي أن الإنسان حينما يدخل إلى هذه الدنيا فإنه يلتجع عالماً مليئاً بالآلام والمشاكل والمصائب ونحن نرى في حياتنا اليومية وما تمتلك به من مشاكل وألام أن الكثير من الناس حينما يلتجع هذه الدنيا فإنه لا يكاد يخرج من ألم حتى يدخل في ألم غيره، ولا يكاد ينجو من مشكلة حتى يقع في مشكلة أخرى، حتى إن البعض يصل به الأمر إلى أن يتمنى لو أنه لم يولد، أو أنه يتمنى الموت لعظم ما هو فيه من مصائب ومايس وألام؛ لأن ولادته أدت به إلى هذا اللون من التعب والرزايا في هذه الحياة، ولو لوح

عالم مليء بالمصائب والمصاعب والمعاناة، وكل ما يتلخص بهذه الصفات.

إذن في واقع الأمر أن الله تبارك وتعالى يمد كلاً من العقل والجسم بكل ما يمكنهما تقبيله، وأنه جل وعلا حينما عبر بهذا التعبير فلأنه يريد أن يقول لموسى عليه السلام: إن الذي يخاطبك ربك، أي من خلقك وأفاض عليك الوجود والرحمة والشفقة والمودة، ولم يخاطبه بلفظ العبودية؛ لأن فيه معنى التخويف والترهيب وما يدور في هذا المدار.

إذن يتجلّى لنا من خلال هذا أن المعنى المقصود في هذه الآية الشريفة هو بعث الطمأنينة في نفس موسى عليه السلام وعدم استمرار حالة الخوف والرهبة والاضطراب لحظة سماعه الصوت؛ لأنَّه عليه السلام لم يكن ليتصور أن صوت السماء.. صوت الرحمة والوحى سوف يخرج إليه من خلال هذه النار المتقدّة.

المبحث الثالث: في معنى تعليم الله جل وعلا
 ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: «فَاخْلُنْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوِي»، وهنا يتبدّل إلى الأذهان سؤال هو: لماذا أمر الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام بأن يخلع نعليه وهو مقبل على هذا الوادي؟ إن للمفسرين للجواب على هذا السؤال عدة آراء، نذكر منها:

الرأي الأول: أنها عادة العظماء

فهؤلاء المفسرون يرون أن الله جل وعلا إنما أمر النبي موسى عليه السلام بأن يخلع نعليه؛ لأن من عادة العظماء أنه إذا دخل عليه شخص فانهم يأمرونه بأن يخلع نعليه عند الباب ويدخل حافياً اعظاماً لهم؛ فلا يدخل إنسان

على عظيم وفي رجله نعل.

وقد يقول قائل: ما علاقة هذا بالله تبارك وتعالى ، وهو الرب العظيم الكبير ، الذي لا يتعامل مع عباده كما يتعامل الجبارية والسلاطين المتكبرون مع رعاياهم؟

والجواب أن يقال: إن الله جل وعلا أحياناً يأخذنا بالعرف الموجود أو السائد عندنا في مجتمعاتنا ، فكما أن الإنسان حينما يريد أن يعبر عن عدم احترامه أو تقديره لإنسان ما فإنه يدخل عليه بنعله دون أن يخلعه فإنه هنا ربما ينظر إلى هذه الجنبة النفسية عند الإنسان ، وهي جنبة عرفية نظر إليها رب العزة تبارك وتعالى في تعامله مع هذه الواقع.

إنه ليس من الاحترام في شيء أن يدخل أحد على إنسان مثله وإن كان أرفع منه منزلة بالعلم أو السلطان ، وهو ينتعل حذاءه؛ وهنا فإنه لابد أن يبادر إلى خلع نعله ثم الدخول عليه . وهذه علامات التقدير والاحترام السائدة في المجتمعات . ونحن هنا إنما نتكلّم عن المجتمع الذي نزلت فيه الآية الكريمة ، الذي يمثل جوّها ، وعليه فهذا المفسر يقول: إنه كان من عادة العظماء ألا يدخل عليهم أحد وهو منتعل .

مشروعية الصلاة بالنعل أو بالخف

ومما يروى هنا عن عبد الله بن السائب أنه قال: كان النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه إذا أراد أن يدخل إلى الصلاة فإنه يخلع نعليه^(١).

وهذه المسألة يشيرها الفقهاء ، وهي: هل يجوز للإنسان أن يصلّي وهو

(١) مسنـد أـحمد ٤١١، ٣، سـنـن ابن مـاجـة ١: ٤٦٠، ١٤٣١، سـنـن أـبـي دـاود ١: ١٥٤، ٦٤٨، ٦٥٠، السـنـن الـكـبـرـيـ (التـسـانـيـ) ٢: ٧٤، ١٧٦.

منتعل أو لا يجوز له ذلك؟ والفقهاء يجوزون ذلك إذا لم يكن في نعل الإنسان قدر، وكان من جلد حيوان مأكل اللحم ومذكى^(١). لكن الذي ينبغي أن يكون هو ألا يصللي الإنسان بنعله مراعاة للأدب مع الله جل وعلا؛ لأنه ليس من اللياقة أن يقف بين يدي الله وفي رجليه نعلان. إذن فلبس الخف ما دام من حيوان مأكل اللحم ومذكى وليس فيه قدر فإن الصلاة فيه جائزة وإن كانت عملية مراعاة الأدب مع الله جل وعلا تستلزم عدم فعل ذلك. ولتقريب المعنى نضرب على ذلك مثالاً هو أن الواجب في الصلاة هو ستر العورة فقط كما يذهب إليه عامة الفقهاء، لكن هل من الأدب أن يقوم الإنسان إلى الصلاة وهو عريان لا يستر ألا عورته الشرعية؟

إن هذا يتعارض مع قوله تعالى: «يَا بَنِي آدَمْ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِّنْ جُنُوبِكُمْ»^(٢)، والزينة هي أن يلبس الإنسان أفخر لباسه وأن يتطيب قبل أن يذهب إلى المسجد. وهذا الأمر يراعيه الإنسان حينما يريد أن يدخل على إنسان مثله أو حينما يزوره إنسان فإنه يأخذ أحسن ملابسه ويلبسها ثم يزور ذلك الرجل أو يستقبل ضيفه. وهذا التصرف مع الله من باب أولى؛ لأن الله جل وعلا هو ملك الملوك ورب الأرباب، وهو الخالق المقتدر العزيز؛ لأن في هذا التصرف نوعاً من إخفاء لون من ألوان التقدير الذي يريد أن يُبرّزه ذلك الإنسان تجاه ضيفه، أو تجاه الإنسان الذي يريد أن يدخل عليه، والله تبارك وتعالى أحق وأولى بهذا التقدير والاحترام؛ لأنه الإله المطلق.

(١) الأعراف: ٢١.

(٢) سنن أبي داود ١: ٦٥٠ / ١٥٤.

إذن فعلى المرء حينما يقف إلى الصلاة وهو يعرف أنه بين يدي الله جل وعلا أن يأخذ زينته لذلك، يروى أن هشام بن عبد الملك حجّ بيت الله في أحدى السنين، فلما دخل الحرم قال: ايتوني برجل من الصحابة. فقيل له: قد تفانوا. قال: فمن التابعين. قالوا: نعم. ثم أتى بطاؤوس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين، ولم يكنه، وجلس إلى جانبه بغير إذنه، ثم قال له: كيف أنت يا هشام؟

غضب من ذلك غضباً شديداً، حتى هم بقتله، فقيل له: أنت في حرم الله وحرم رسوله صلوات الله عليه وآله وسلامه، ولا يمكن ذلك. فقال له: يا طاووس ما حملك على ما صنعت؟ قال: وما صنعت؟ فاشتدّ غضبه وغيظه، وقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلم علي بإمرة المؤمنين، ولم تكنني، وجلست بجازائي بغير إذني، وقلت: يا هشام كيف أنت؟ فقال طاووس: أما خلع نعلي بحاشية بساطك، فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات، فلا يعاتبني، ولا يغضب علي.

وأما ما قلت: لم تسلم علي بإمرة المؤمنين، فليس كل المؤمنين راضين بإمرتك، فخفت أن أكون كاذباً.

وأما ما قلت: لم تكنني، فإن الله عزّ وجلّ سميَّ أنبياءه، فقال: **(إنِّي ذاوذ)^(١)**, **(إنِّي يخني)^(٢)**, **(إنِّي عيسى)^(٣)**, وكني أعداءه فقال: **(أَتَبَثُ يَدَا أَبِي لَهِبٍ وَتَبَّ)^(٤)**.

وأما قولك: جلست بجازائي، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي

(١) ص: ٢٦. (٢) مريم: ١٢.

(٣) المسد: ١.

(٤) آل عمران: ٥٥، المائدة: ١١٠.

طالب عليه السلام يقول: «إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام».

وهذا ليس غرباً عن خلق علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو غني عن التعريف، وهو الشخصية التي مثلت خلق الإسلام، بل هو الإسلام عينه مجسداً على الأرض. يروى أن النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ كان قد دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ له «هون عليك؛ فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»^(١).

وهذا لون من الخلق النبيل الظاهر، البعيد عن التكلف، وهو الخلق الذي أخذه علي بن أبي طالب عليه السلام من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ، وهذا ما يفسر لنا قوله عليه السلام: «إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام». وشخصية أمير المؤمنين عليه السلام لا يمكن بحال من الأحوال أن يحيط بها وصف أو أن يبلغ مداها إنسان، فهذا الرجل بمقدار ما يملك من عظمة وتميز ونبوغ نجده يتواضع حتى يلتتصق بالأرض. فتواضعه في الطرف الثاني من المعادلة يوازي عظمته وتميزه في الطرف الأول منها. فقال له هشام: عظني. قال: إني سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إن في جهنم حبات كالقلال^(٢)، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته». ثم قام وخرج^(٣)

وموضع الشاهد في روايتنا هذه هو خلع النعلين حيث قال له: «فإنما أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات، فلا يعاتبني، ولا

(١) الشفاعة بتعريف حقوق المصطفى ١: ١٢٢، كنز العمال ٦: ٨٨، ١٤٩٦٥ / ٦، السيرة النبوية

(ابن كثير) ٣: ٥٥٦. (٢) في الكنى والألقاب: الثالث.

(٣) الكنى والألقاب ٢: ٤٤١، وفيات الأنبياء ٢: ٥١٠.

يغضب عليٍ».

رجوع

إذن فالله جل وعلا إنما أمر النبي موسى عليه السلام بأن يخلع نعليه؛ لأنَّه تعالى راعى هذه الجنبة الاجتماعية في تصرفاتنا كما تذهب إليه هذه الطائفة من المفسِّرين.

الرأي الثاني: أنَّ في نعليه قدرأً

وتذهب هذه الطائفة من المفسِّرين إلى أنَّ الله تبارك وتعالى إنما أمر موسى بأن يخلع نعليه لأنَّ فيهما قدرأً من الأرض قد علق فيهما، وهو تعالى لا يريد لإنسان أن يمشي على هذه الأرض الطاهرة وفي نعليه قدرأً.

نقد الرأي الثاني

وهذا الرأي طبعاً لا سبيل إلى قبوله أو إلى الأخذ به؛ لأنَّه يفترض أنَّ الأنبياء عليهم السلام لا يلتفتون إلى هذه الناحية، وهي أنَّ في نعالهم قدرأً قد وطشه على الأرض.

الرأي الثالث: أن تمس الأرض باطن قدميه عليه السلام

وهذه الطائفة الثالثة من المفسِّرين ترى أن العلة التي من أجلها أمر الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام بأن يخلع نعليه؛ لأنَّه أراد لباطن قدميه عليه السلام أن يمسَّا هذه الأرض المقدسة الطاهرة، فالقرآن الكريم يعبر عنها بأنَّها مقدسة بقوله: «إِنَّكَ بِإِنْوَادِي الْمَقْدِسِ»، أي يا موسى، فلتلامس بقدميك هذه الأرض الطاهرة حتى تمسَّك بركرة هذا الوادي المقدس.

المبحث الرابع: في تحديد موقع الوادي المقدس

وهنا يطرح سؤال نفسه في البين حول هوية هذا الوادي المقدس الذي

ذكره القرآن الكريم، وحول موقعه الجغرافي ، وفي واقع الأمر فإن للمفسرين آراء ثلاثة حول الإجابة على هذا التساؤل:

الرأي الأول: أنه في بلاد الشام وهملاء المفسرون حينما يذكرون موقعه فإنهم يطلقون الأمر دون أن يذكروا موقعه على وجه التحديد.

الرأي الثاني: أنه في القدس ذلك أن القدس الشريف هو أحدى البقاع المقدسة منذ الأزل عند الأنبياء بَلْهَةَ وأتباعهم؛ فهو أولى القبلتين وثالث الحرمين.

الرأي الثالث: أنه الغري أي النجف الأشرف. وهذا الأمر يحتاج إلى وقفة بمقدار ما يقتضيه المقام. ثم إن هذا المعنى قد تناوله الأدب والفكر والتأثيرات الدينية؛ ولذا فإن الكثير من الآراء تميل إلى أن الغري الأشرف هو الوادي المقدس؛ لأنها منطقة قديمة معروفة بحضارتها ومدنيتها. فالذي يرجع إلى تاريخ هذه المنطقة يجد لها مصدراً للحضارات.

التاريخ الحضاري لمنطقة الغري
ولعل كثيراً من الناس يظن أن النجف قد ولدت مع دفن الإمام أمير المؤمنين بَلْهَةَ فيها، مع أن الواقع خلاف ذلك؛ فتاريخ هذه المنطقة تاريخ بعيد جداً؛ فقد كان مصب جداول حضارية متعددة؛ ذلك أنها كانت منطقة مسيحية، وكانت بيوت الرهبان وأدیرتهم منتشرة فيها، كما أنها كانت مراكزاً من مراكز الدين والأدب والفكر في العالم آنذاك. وبالإضافة إلى ذلك كلّه نجد أنها كانت المركز الذي يجلب إليه الأسرى منذ أيام

الإسكندر، وقد كانت معسكرات الأسرى ومعتقلاتهم تموج بالحركة الفكرية والعلمية؛ حيث إن أصحاب هذه المعسكرات كانوا يروّضون الأسرى الذين يأتون بهم على قبول أفكارهم ومعتقداتهم ومبادئهم؛ فكانت بهذا مصدراً لجداول كثيرة من المعرفة.

الغرى محطة الأنبياء عليهم السلام

وفوق ذلك كله فإن النجف أو الغرى هي محطة الأنبياء عليهم السلام، وأثارهم فيها كثيرة، ومن الآثار النبوية فيها ما هو معروف من أن النبي إبراهيم عليه السلام قد مر بهذه المنطقة حينما خرج عليه السلام من بابل، وكان أهله يُزلزلون في كل ليلة، فلما بات النبي إبراهيم عليه السلام عندهم لم يزلزلوا تلك الليلة، بل توقف الزلزال، فراح أهله يتساءلون عن السبب الذي من أجله توقف الزلزال في منطقتهم، فقال لهم شيخ بات عنده النبي إبراهيم عليه السلام : والله ما دفع عنكم إلا بشيخ بات عندي؛ فلاني رأيته كثير الصلاة. فجاووه وعرضوا عليه المقام عندهم، وطلبو منه أن يبقى بين ظهرانيهما؛ لأن الله تبارك وتعالى قد منع عنهم الزلزال ببركته، وبذلو له، فقال عليه السلام : «إنما خرجمت مهاجرأ إلى ربِّي».

وخرج حتى أتى النجف، فلما رأه رجع أدراجه، فتبashروا وظنوا أنه رغب فيما بذلو له، فقال لهم: «لمن تلك الأرض؟». يعني النجف، قالوا: هي لنا. فقال عليه السلام : «فتبعونيها؟». قالوا: هي لك، فهو الله ما تنبت شيئاً. فقال عليه السلام : «لا أحبها إلا شراء». ثم دفع إليهم مئة شاة كانت معه بها، والغنم يقال لها بالنبطية «نقياً»، وقال عليه السلام : «أكره أن أخذها بغير ثمن». فسميت «بانقيا»^(١).

(١) انظر: السرائر ١: ٤٧٩، عنه في بحار الأنوار ٤١: ١٢٩، معجم البلدان ١: ٣٢١، وفي

وعندنا الكثير من المأثورات التي تروى عن الأنبياء بِهِمْ الذين مرروا بهذه المنطقة وأقاموا بها. وعلومنا أن كل نبي يمر بمنطقة فإنه يترك بصماته الخيرة والنبلة عليها مادام قد أقام فيها.

قدسية أرض الغري

وأود أن الفت النظر إلى نقطة هامة هي أن فقهاء المسلمين عامة يقولون: إن أرض المدينة أشرف من مكة ، معللين ذلك بأنّ تراب المدينة قد لامس جسد الرسول بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ والرسول بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ أشرف من مكة المكرمة؛ وما لامس الأشرف فهو أشرف. وبناءً على هذا فإننا نقول: إن الغري أشرف من مكة، بدليل قوله تعالى: «فَقَنْ خَاجَكَ فِيهِ مِنْ يَغْدِي مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ شَفَّالُوا نَذْعَ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفَسْنَا وَأَنْفَسْكُمْ ثُمَّ تَبَثِّلْ فَتَجْعَلْ لِغَنَّةَ اللَّهِ عَلَى الْكَانِبِينَ»^(١).

وباجماع المسلمين أن النبي بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ ما دعا إلا أمير المؤمنين علياً بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ فاطمة بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ والحسن والحسين بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ ، ذلك أن علي بن أبي طالب هو نفس الرسول بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ ، فإن «أَبْنَاءَنَا» يراد بها الحسن والحسين بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ ، و«نِسَاءَنَا» يراد بها فاطمة الزهراء بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ ، و«أَنْفَسْنَا» يراد بها علي بن أبي طالب بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ. وبما أنّ علي بن أبي طالب بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ هو نفس الرسول الأكرم بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ ، والرسول بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ أشرف من مكة؛ إذن فإننا نخرج من هذا بنتيجـة هي أن علي بن أبي طالب بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ أشرف من مكة.

وهذا الأمر يذهب إليه عدد ضخم من المفسرين؛ ولذا فإن أحد

(معجم البلدان) أن النبي إبراهيم بِلَيْلَةِ الْحِجَّةِ ذكر أنه يحضر من ولده من ذلك الموضع سبعون ألف شهيد .

(١) آل عمران: ٦١

الشعراء يخاطبه بقوله:

وهو في آية التباهر نفسك
مغضوفي ليس غيره إياها

وعلى العموم فالمراد من الوادي المقدس في الآية الكريمة هو الأرض المقدسة في الغربى، وهذا المعنى قد تناوله الشاعر عبد الباقي العمرى ^{رحمه الله} في قصيده الرائعة حيث يقول:

إذا نحن زرناها وجدنا نسيمها يغوح لنا كالغبار المتنفس
ونمشي حفاة في ثراها شفاساً (١)
نرى أننا نمشي بواب مقدس

كما أن عنده بيته رائعين جداً في هذا المعنى يقول فيما:

ولقا سرينا للغربي عشية لمن قد ثوى فيه احتراماً وتبجيلاً
ربطنا بأخلف المعمق ثغورنا فاوسعوا الصحراء لشماً وتقبلاً

ولهذا فإن المؤرخين يذكرون أن السلطان العثماني سليمان القانوني حينما عزم على زيارة المشهد العلوى المقدس في النجف الأشرف، ومعه كثير من وزرائه وقواته وعساكره، ولاحت لهم القبة المباركة ترجل بعض وزرائه الموالين باطنأً من مسافة أربعة فراسخ، فسألوه السلطان عن سبب ترجله، فقال: هو أحد الخلفاء الراشدين، وقد نزلت تعظيمأً له. فترجل السلطان أيضاً، فقال له أحد وزرائه من الناصبيين العداء لأمير المؤمنين ^{رض}: إن كلاماً منكم ما خلية، واحترام الحى أولى من احترام الميت.

قياس مع الفارق

ولو أننا نظرنا إلى هذا القياس الذي حاول أن يقيس به ذلك الوزير أو

(١) لم نعثر عليهما لعبد الباقي العمرى، بل هما للبهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.

الشخص غير الميال لأهل البيت عليهما السلام لوجدنا أنه قياس عجيب، فنحن نسأل: هل إن هذا القياس ينطبق على علي بن أبي طالب عليهما السلام فقط أم إنه يسري على غيره؟^(١) إننا نفهم كمسلمين أن الإنسان حينما يموت فإنه لا يموت منه إلا ذلك البدن، أما روحه فهي باقية لأنها لا يطرأ عليها شيء سوى أنها تفارق ذلك البدن الترابي الظلماني الفاني. وفارقة الروح للبدن لا يعني أن الروح تفقد قيمتها وقدسيتها. وهذا القياس طبعاً هو قياس الحجاج وقياس خالد بن عبد الله القسري؛ حيث كان الحجاج يقول: إن المسلمين مخدوعون حين يطوفون بقبر محمد عليهما السلام، وقد تحول صاحب القبر عظام باليه، ألا يطوفون بقصر عبد الملك؟^(٢)

على أية حال تردد السلطان في الركوب، ثم لجأ إلى الاستفتاح بالقرآن المجيد، فخرجت هذه الآية الشريفة: «فَأَخْلَقْتُنِيلَكَ إِنَّكَ إِلَى الْوَادِي الْمُقْدَسِ طَوِيْ»). وعندها أمر السلطان بضرب عنق الناصبي الذي عذله على ترجله، ثم قال: قررت أن أترجل عن ظهر جوادي وأنا منتعل، والآن لا أترجل إلا وأنا حافي^(٣).

(١) مقوله الحجاج حول قصر عبد الملك وبقبر النبي.

(٢) الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال البرد فيه: إن ذلك متأثر به الفقهاء الحجاج، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٣) الأنوار العلوية: ٤٢٤ - ٤٢٦. وفيها استشهد مؤذب السلطان بيته الشاعر أبي الحسن التهامي، وهما:

تزاحم تيجان الملوك ببابه ويكثر عند الاستلام ازدحامها
إذا ما رأته من يعيد ترجلت وإن هي لم تفعل ترجل هامها
وهما يبتنان مشهوران، لهما تخميص وتشطير للكثير من الشعراء، نذكر منها:
١ - تخميص السيد مهدي بحر العلوم، حيث قال:
تطوف ملوك الأرض حوله جنابه وتعنى لكي تحظى بلئم ترابه

المبحث الخامس: تربة الغري تربة مقدسة
إذن فقوله تعالى: (فَاخْلُغْ نَعْلَيْكَ إِنْكَ بِالنَّوَادِيِ الْمُقْدَسِ طَوْيٌ) إنما يعني على

فكان كبيت الله بيت علا به (تزاحم تيجان الملوك ببابه
 ويكثر عند الاستلام ازدحامها)

أنته ملوك الأرض طوعاً وأمللت مليكاً سحاب الأرض منه تهلكت
 ومهما دنت زادت خضوعاً به علت (إذا ما رأته من بعيد ترجلت
 وإن هي لم تفعل ترجل هامها)

٢ - قوله تعالى مشطراً لها:

ليبلغ من قرب إليه سلامها (تزاحم تيجان الملوك ببابه)
 ويستلم الأركان عند طوفها (ويكثر عند طوفها)
 ليعلو فوق الفرقدين مقامها (إذا ما رأته من بعيد ترجلت)
 وإن هي لم تفعل ترجل هامها علت (فإن فعلت هاماً على هامها علت)

أعيان الشيعة ١٠: ١٦١.

٣ - وختّهما السيد زين العابدين البعلبكي فقال:

علي هو المولى فلذ بجنايه وضع حز وجه فوق زاكى ترابه
 متى أشرقت أنواره من قباه (تزاحم تيجان الملوك ببابه
 ويكثر عند الاستلام ازدحامها)
 به الشرعة الفراء رتبتها علت وظلمة ديجور الضلال به انجلت
 لديه ملوك الأرض طرأً تذللت (إذا ما رأته من بعيد ترجلت)
 وإن هي لم تفعل ترجل هامها)

أعيان الشيعة ٧: ١٦٢ - ١٦٣ / ٥٠٥.

٤ - وختّهما السيد محمد بن أحمد بن الطيب فقال:

علي تذلّ الأسد في عزّ غايه وتخضم أملاك السما لجنايه
 فزر ترّ في أعتابه وقباه (تزاحم تيجان الملوك ببابه
 ويكثر عند الاستلام ازدحامها)
 لم يقاته لبت وحجهت وولولت وفي طور ناديه سمعت تم هرولت
 له علم للناس أنواره انجلت (إذا ما رأته من بعيد ترجلت)
 وإن هي لم تفعل ترجل هامها

ضوء الرأي الثالث أن على النبي موسى عليه السلام أن يخلع نعليه ليمس باطن قدميه تراب تلك الأرض الطاهرة المقدسة كي يتلمس البركة من خلال ذلك، فحينما يلامس بدن شخص ما أرضاً مقدسة فإنه سوف تحل فيه بركتها.

وهذا مظاهر من مظاهر التقدير والاحترام لهذه التربة المقدسة، وكذلك هو مظاهر من مظاهر التكريم وعرفان الجميل لها، كما أن هناك نمطاً آخر من أنماط التكريم وعرفان الجميل للأرض هو لشم ثرى تلك الأرض وتمرغ الخد عليها وتغيير الجبين على ترابها، وهذا ما كان يفعله الرواد الأوائل ممن زار الإمام الحسين وممن كان يتزداد عليه فهولاء لا يكتفون بأن يخلعوا نعالهم؛ ليلامس باطن أقدامهم تلك الأرض الطاهرة المقدسة، بل إنهم يهونون على تلك التربة الطاهرة الزكية؛ ليعرفوا جبارتهم بها، وليلامسوها بخدوههم وشفاهم، يقول أحد الأدباء مصرياً

٥ - وله مشطرأ لهما:

وتخضع في مستوى ثراه أنماها
(ويكثر عند الاستلام ازدحامها)
ونادى مناديها عليك سلامها
(وابن هي لم تفعل ترجل هامها)

(تراحم تيجان السلوك ببابه)
وستلزم الأعتاب منه ذليلة
(إذا ما رأته من بعيد ترجلت)
وقد علمت إن أذعنتم جل قدرها
أعيان الشيعة ٩ : ٦٤ / ١٨٠ .

٦ - وخمسها الشيخ كاظم الأزرري، فقال:

وجبهة دار الملك دون ترايه
تراحم تيجان الملوك ببابه
ويكثر عند الاستلام ازدحامها
بباطنه آيات وهي تنزلت
ورسل وأملاك به قد توسلت
إذا ما رأته من بعيد ترجلت
وابن هي لم تفعل ترجل هامها

ديوان الأزرري الكبير: ٥١٥ - ٥١٧ .

المقدسة، بل إنهم يهونون على تلك التربة الطاهرة الزكية؛ ليغفروا جباهم بها، وليلامسوها بخدوهم وشفاهم، يقول أحد الأدباء مصوراً ذلك الحال:

وأنتم تربتُ يابن النبي
ويابن ذرًا المجد في يثرب
بحيث دمازك لم تنقضِ
يابن يسحتسي الذل في مشربِ
وهمام أبي للطغاة الركوع
وإن فلقوه منه بالمضربِ
(١)

وبالفعل كانت تلك الخدود تقلّب على تراب أبي عبد الله الحسين عليه السلام لتحظى بدعا الإمام الصادق عليه السلام لها، يقول معاوية بن وهب: استاذت على الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، فقيل لي: ادخل.

يقول: فلما دخلت عليه وجدته في مصلاه في بيته، فجلست قربه حتى قضى صلاته، فسمعته وهو ينادي ربه تبارك وتعالى في سجوده ويقول: «اللهم إن أعدانا عابوا عليهم خروجهم فلم ينفهم ذلك عن الشخص إلىنا وخلافاً منهم على من خالفنَا، فارحم تلك الوجوه التي قد غيرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تقلّبت على حفرة أبي عبد الله عليه السلام، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقـت لنا، وارحم الصرخة التي كانت لنا. اللهم إني أستودعك تلك الأنفس وتلك الأبدان حتى نوافيهـم على العوض يوم العطش» (٢).

(١) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

(٢) الكافي ٤: ٤، ١١ / ٥٨٣ - ٥٨٢، ثواب الأعمال: ٩٥ - ٩٦.

وكان أول خد تقلب على قبر أبي عبد الله الحسين عليهما السلام هو خد أخته الحوراء زينب وخد ولده الإمام السجاد عليهما السلام، ثم تالت بعد ذلك خدود مسيبيات أهل البيت عليهم السلام والأئمة الظاهرين من بعد ذلك. وكانت السبايا تحن إلى زيارات ذلك القبر فلم تهدأ حتى لاحت لهم أعلام كربلاء، وما إن وصلوا إلى أرض المعركة حتى راحوا يقومون من قبر ويجلسون عند

قبر:

خبر بقتلنا وما أعلمنا	يَا نَازِلِينَ بِكُرْبَلَا هَلْ عِنْدَكُمْ
بقيت شلاناً لا يزور مقائمهَا	مَا حَالَ جَثَّةُ مَيِّتٍ فِي أَرْضِكُمْ
(١) وهل استقررت في التحود رمامتها	بِاللَّهِ هَلْ وَارِيتُمُوهَا فِي الشَّرِي

ما غسلوه ولا لفوه في كفن	يَوْمَ الطُّفُوفِ وَلَا مَذَوَا عَلَيْهِ غُطَا
--------------------------	--



{٢٣}

فلسفة الجهاد عند أمير المؤمنين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَفَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَىٰ
الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: لمحات من جهاده بالسيف

الجهاد كما يعرّفه الفقهاء هو: بذل النفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله^(٢)، وهو مشتق من الجهد والتعب الذي يبذله الإنسان في سبيل ذلك. وانطلاقاً من هذا فإن أي نشاط يستهدف إعلاء كلمة الإسلام، وخدمة دين الله يكون جهاداً. فإذا وُجد مضمون التعريف السابق للجهاد في أي عمل فإنه يعتبر جهاداً.

ولعل الجهاد هو أبرز الملامح في حياة أمير المؤمنين ، وسوف نتناول هذا الجانب من جوانب حياته؛ لنرى كيف أن الجهاد انبسط على كل أبعاد حياته؛ فهو مجاهد بالسيف والقلم والكذب والكذب على العيال. ولم يكن على يرى أن عياله من يدور عليهم سور بيته، إنما كان

(٢) الروضة البهية ٢: ٣٧٩.

(١) النساء: ٩٥.

يرى المسلمين عيالاً له. فدعنا ننظر بعض صفات الجهاد في حياته: فعلى عليه السلام لازمه الجهاد من بوادر حياته، وشاء الله له أن يقترب بالدعوة الإسلامية ولا يبعد عنها. والدعوة الإسلامية لم تكن تلاقي طريقاً سهلاً سمحاً، وإنما كانت تحتاج دائماً للجهاد؛ لما كانت تواجهه من صدّ من المشركين، فانبرى هذا الرجل للجهاد منذ أن ترعرع.

جاء الإسلام وعلى صبي، فكان يضع يده على حسامه ويمشي وراء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ أياماً ذهب، فيذود عنه المشركين المعتدين.

ثم نزلت أول سورة من القرآن الكريم، فوعاها علي بن أبي طالب رض، وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ يبلغ بها فتبصره علي رض ويده على قائم سيفه. ومرت الأيام، ولم يؤذن للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ بالقتال في مكة، فمكث علي رض معه لمجرد حمايته من الأعداء، ثم بدأ الجهاد الفعلي عنده عندما وصل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ إلى المدينة، واستدعي علياً رض وطلب منه أن ينقل ظعينته إليه. ومن هنا تبدأ نقطة حاسمة في تاريخه، فهو رض خرج وهو لا يزال صبياً، وكانت قريش يومذاك بعنفوانها وقوتها وعدها وعديدها، فيما كان المسلمون يعدون بالأئم، وخرج علي رض يتحداهم، عندما أمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ أن ينقل الظعينة، فأخرج الظعينة وهو صبي لم يتجاوز العشرين - أو تجاوزها بسنة - . وقبل خروجه من على نوادي قريش، فقال لهم: «يا مشرقيش لا تقولوا: جبن ابن أبي طالب وخرج من حيث لا نشعر، ها أنا ذا خارج بظعينة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ ومن أحب منكم أن يتبعني فليفعل». فخرج وليس معه إلا شخصان: سائق للنيلق وقائد لها، وهو ثالثهم وانبرت له قريش بما تملك من جبروت وطغيان، وانبرى لهم علي رض، فاستبقوه وضرب عبداً لأبي جهل سبق إليه، فقده سيفه فتراجع عنده القوم، وأقبل بظعينة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ

إلى أن دخل إلى المدينة^(١). فالنقطة الحاسمة في حياته عليه السلام ابتدأت من ذلك اليوم.

وما كادت قدمه تطأ تراب المدينة حتى تهيأ للجهاد بالسيف بأوسع ما لهذه الكلمة من معنى، دعونا نزِّ ما يصفه به رسول الله عليه السلام وقد استدعاه يوماً فقال له: يا «علي أنت يعسوب المؤمنين» أو «يعسوب المسلمين»^(٢). يقول أهل اللغة: إن اليعسوب هو ذكر النحل الذي تتحتمي به جماعة النحل أو المستوطنة^(٣)، ويكون أمامها. فالنبي عليه السلام يقول لعلي عليه السلام: «أنت يعسوب المسلمين» أي يتحتمي بك المسلمين. وقد كان حقاً الذائد عن الإسلام والمسلمين في غزوته وحربه وإن أراد التاريخ أن يقف موقفاً غاية في السلبية، فمثلاً يقول أرباب السير: لما نزل علي عليه السلام إلى عمرو بن عبد ود توجَّه النبي عليه السلام بقوله: «واقه لضربة على عليه السلام لعمرو ابن عبد ود تعدل عبادة أمتى إلى يوم القيمة»^(٤). ويمر الذهبي على هذه الكلمة في (ميزان الاعتدال) فيقول: لا شك في أن هذا الحديث موضوع؛ فلا يمكن أن تكون ضربة تعدل عبادة الأمة.

ويقال للذهبي: إن عشرات المصادر من مختلف كتب المسلمين ذكرتها، وبطرق موثقة وصححة، ولكنها لعلي بن أبي طالب عليه السلام! يعقب أحد علمائنا على ذلك فيقول: والله لو شهد الثقلان، وجاءت الملائكة وشهدت لكَذِبها الذهبي.

ومن نعم الله تعالى علينا أن نجد شيئاً من سيرة علي عليه السلام في تاريخنا، لأن

(١) شجرة طوبى ١: ٦٤ - ٦٦ . (٢) المعجم الكبير ٦: ٢٦٩ .

(٣) غريب الحديث ٣: ٤٣٩ - ٤٤٣ . عصب، لسان العرب ١: ٥٩٩ - عصب .

(٤) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٥٧ ، عوالى الآلى ٤: ٨٦ / ١٠٢ ، ينابيع المودة ١: ٤١٢ / ٥ .

المتبوع إذا وقف على العقبات التي وُضعت بين الناس وبين علي بن أبي طالب عليهما السلام فسيعرف ما في التاريخ من دواء حالت بيننا وبين الوصول إلى ما ورد في علي عليه السلام في مختلف الأبعاد. فمن نعم الله تعالى علينا أن نحصل على شيء من الروايات التي تذكر جملة من الحقائق عن هذا الرجل العظيم الذي لم يترك له أعداؤه منقبة إلا حاولوا أن يقلبوها مثلبة، ورحم الله من قال:

والحق يُنطّق مُنصفاً وعنيداً

يقول أحد الأدباء:

سِيْدِي يَا أَبَا ثَرَابَ عَجِيبٌ
فِي بَرَاكِينُ الْحِسْقِ أَنْهَبَتِ النَّا
وَلَهَا مِنْ دِمِ بَسِيفِكَ فِي عَلَى
كَسْبَثَنَا أَوْشَانُ بَدِيرَ وَأَحْدَى
هُوَ صَوْتُ الْأَحْقَادِ هَيَّاهَاتِ يَعْلُو
أَرْسَلَتَهُ الشَّمَا لَأْحَمَدَ وَجَيَا

فالحمدُ لله أن في التاريخ شيئاً من الضمير الحي الذي يفتح لنا منفذًا للوصول إلى حقيقة هذا الرجل، ولا فقد وقف التاريخ والمؤرخون من هذا الرجل موقفاً شديداً العداوة، ونحن نعرف أن التاريخ كتبه أعداء، على عليه السلام، في الفترة الملغمة التي أعقبت مقتل أمير المؤمنين عليه السلام، وماذا تنتظر من الحجاج بن يوسف والمأويين على الكوفة إذا أراد أن يكتب تاريخ على عليه السلام! الحجاج هذا الذي يصعد على منبر الكوفة فيقول: إن هؤلاء المسلمين لا يعقلون، فهم يطوفون حول قبر رسول الله صلوات الله عليه وسلم وليس

فيه غير العظام البالية، لم لا يطوفون بقصر عبد الملك بن مروان؟^(١). أو تظن أن والياً مثل هذا يحمل للنبي ﷺ وأهل بيته أو لعلي رض شيئاً من الاحترام أو التقدير؟ أو تظن أن أمثال هذا كالزهري الذي عاش على موائد الأمويين وأموالهم وجوازهم يستطيع أن يكتب شيئاً يُشنّي به على رض علي بن أبي طالب رض؟

فمن النعم أن يتسرّب شيء من الحقيقة من بعض المنافذ فيما يسلط الضوء على حياة أمير المؤمنين رض والا فمواقفه الشجاعية لا يستطيع أن ينكرها إنسان، فقد بدأ منذ أن وطئت قدماء المدينة المنورة ينزل في لهوات الحرب، وعلى الصورة التي رواها لنا التاريخ.

يقول بعض المؤرخين: أهدى رسول الله ص لعلي رض علي بن أبي طالب رض فرساً، فقال ص: «مالي وللخييل يارسول الله». قال رض: «لماذا؟». قال: «إنني لا أتبع مدبراً، ولا أفر من أحد وإذا ارتديت سيفي لا أضعه إلا لمن ارتديت له السيف». ولذلك كان يمتطي بغلًا إذا نزل للحرب، فكان لا يتبع مدبراً، ولا يفر من أحد، وكانت الفرسان تحشاوه. وقد سمعه تاريخ الحروب وهو يقول:

(٢) بازل عامين حديث السن: استقبل الحرب بكل فن وصارم يذهب كل ضفاف	قد عرف الحرب العوان أني ستحنخ الليل كاني جئي معى سلاحي ومعى مجئي
--	--

(١) الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال العبرد فيه: إن ذلك متأكّفت به النقاوه العجاج، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٢) البازل: الكامل المعرفة. المعجم الوسيط: ٥٤ - بزل. يزيد رض أنه عرك الحروب وهو صغير السن، أو هو من «نزل السن» إذا طلع.

أمضى به كلّ عدو عنِي لمثل هذا ولدتني أقسى
 ما ترقب الحرب العوان متّي^(١)

بدأت الحروب تتواتي، وهو يعسوب المسلمين أمامهم، يحمل اللواء، ويدفع إلى الحرب ويرجع وقد كثُرت جسده الأوسمة، يقول المجلسي: «مرّ عليه رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند منصره من واقعة أحد، فرأه ينقل الفتائل من جرح إلى جرح، وكان فيه ثمانون جرحاً. ونظر إليه كأنه مُضفة (قطعة من اللحم) موضوعة على نَطْع، ومن حوله من يضمد جراحه، فبكى رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «حقّ لمن أصيّب لله بهذا أن يفعل الله به كذا وكذا، ويعطيه كذا وكذا». وأخذ النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعدد ما أعدّ الله له، فقال: «يا رسول الله، إني حمدت الله أنني ما ابتعدت عنك، ولا فررت، وسابقني ذلك المقاتل بين يديك». فقال النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن بينكم وبين أبي سفيان موعداً، وقد أرسل لي أنه سيلاقيكم عند حمراء الأسد». فالحرب لم تنتهِ، فقال صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «واه يا رسول الله، لو حملوني على الأيدي ما تركت القتال بين يديك ولا فررت عنك»، فنزلت الآية:
﴿وَكَائِنُ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِيعُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا إِلَّا أَصَابَتْهُمْ﴾^(٢) الآية.

انظر إلى عبارة الشيخ المجلسي رحمه الله: «كانه مُضفة» وهو مع ذلك يداوي جراحه، ويرمي السيف إلى فاطمة عليها السلام ويقول:

فاست بسرعدين ولا بسليم	فساطم هاك السيف غير ذميم
وطاعة رب بالعباد رحيم	لعمرى لقد بالفت فى نصر أحمر

(١) الكافي ٨: ١١٢، ٩١، ونقل بعضها كلّ من محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ٢: ٥٦٩، الفائق في غريب الحديث والأثر ١: ٩٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٦١، المناقب (الخوارزمي): ١٥٨.

(٢) آل عمران: ١٤٦.

(٣) الإرشاد ١: ٩٠، الأمالي (الطوسي): ١٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، المستدرك على

وأي واقعة خاضها المسلمون لم يكن لعلي عليه السلام فيها الساعد الأطول؟ أربع وثمانون غزوة ما تخلف فيها علي عليه السلام عن ساحات الجهاد، وكان المجاهد الأول والمدافع عن حمى المسلمين. وقد رسم لنا القرآن أوقاتاً من أخرج ما مر على المسلمين، ورسم لنا التاريخ وقف علي عليه السلام فيها مما وصل إلينا من بعض الضمائر الحية. يقول القرآن الكريم «فَإِذْ رَأَيْتَ الْأَبْصَارَ^(١)، في مثل هذا الموقف ينزل علي عليه السلام ليقول:

ونصرت دين محمد بصوابي	نصر الحجارة من سفاهة رايه
كالجذع بين دكاديك ورواب	فسخرته فتركته متجلداً
كنت الفجدل بزئني أشوابي	وعفت عن اشوابه ولو اتنى
ونبية يا معاشر الأحزاب ^(٢)	لا تحسبن الله خاذل دينه

فهذا الصوت الذي انطلق في الملاحم مدوياً، وذلك الساعد الذي امتد ليغري، وذلك الرمح الذي كان ينال الأبعد، وتلك الروح الكبيرة التي ما وهنت ولا ضعفت أبداً في أي مرحلة من مراحل حياتها، كل هذه سوف تبقى هكذا، ويبقى صوت الجهاد مدوياً في حياة علي، ويبقى علي عليه السلام السيف الذي زكته السماء بقوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُشَرِّي نَفْسَهُ أَبْتِغَاءَ مَرْضَاةَ اللَّهِ»^(٣).

ولم يكن جهاد علي عليه السلام سوى ابتغاء مرضاة الله، فهل ذكر لنا التاريخ

الصحيحين: ٣: ٢٤، مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ٦٧، وغيرها كثيرة.

(١) الأحزاب: ١٠.

(٢) شرح الأخبار: ١: ٢٩٤ - ٢٩٦، الجامع لأحكام القرآن: ١٤: ١٣٣ - ١٣٤، البداية والنهاية: ٤: ١٢١ - ١٢٠.

(٣) البقرة: ٢٠٧، وانظر الإيمان: ٣٠٣، شواهد التنزيل: ١: ١٣٠ / ١٤١ - ١٤٣.

بأن عليه عليه السلام جاهد لنيل منزلة من المنازل؟ أو ليحوز شيئاً من الأموال؟ لقد امتدت مرحلة الجهاد بالسيف على مدى ثمانين غزوة وكلها في سبيل الله تعالى، بحيث أصبح الحديث عن جهاد علي عليه السلام لا يستأثر بالاهتمام؛ لأنه أصبح من الضروريات، فالمحتجد عنه كالمتحجد عن نور الشمس بقوله: «الشمس مضيئه».

ولذا يعقب بعض العلماء على كلمة النبي صلوات الله عليه وسلم في علي عليه السلام: «لضربة علي لعمرو تعد عبادة أمتي»، بقوله: «فلو لم يقتل عمرو بن عبد ود ذلك اليوم، ولم يهزم الأحزاب لأصبح الإسلام في الأمس الدابر».

فهو إذن المجاهد بالسيف، وله من جراحاته ومواجهاته شواهد وشواهد لا تندثر على مدى التاريخ، ولا تمحوها الأيام، ثم يمتد هذا الجهاد في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين، يقول المؤرخون عنه يوم الجمل: نزل علي عليه السلام ودفع اللواء لولده محمد بن الحنفية وقال له «تذ في الأرض قدمك، عض على ناجذك». فلما نزل محمد أنته رشقة من السهام فتلها قليلاً لتنكشف السهام، فما أحسن إلا بنفس أبيه بين كتفيه وهو يقول: «ادررك عرق من أمك؟». ثم أخذ الراية فهزها، ثم قال:

«اطعن بها طعن أبيك تحمد لا خير في الحرب إذا لم توقد
بالمشرف والقنا المسد»

ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصرة^(١). يقول المؤرخون: كان للضرب على النبيض والهامت قرع، ونزل علي عليه السلام فما رده أحد حتى انتهى إلى الجمل فطعنه ورجع. ووقف بعد

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٢٤٣.

الواقعة على مصادر أعدائه، فلم يكن يهون عليه أن ينظر إلى جملة من رفقاء السلاح الذين قادهم سوء الطالع أن يُقتلوا، ولقد قال له رسول الله عليه السلام:

«وَيْلٌ لِمَنْ سَلَ سَيْفَهُ عَلَيْكُ، وَسَلَّتْ سَيْفَكُ عَلَيْهِ».

المبحث الثاني: لمحات من جهاده عليه السلام بالقلم والفكر

هذا في ساحة الحرب، أما الجهاد على مستوى القلم، وفي ساحة الفكر، فبين أيدينا تأريخ المسلمين والعلوم الإسلامية، فهل ترى - بالله عليك - مكاناً خالياً من أثر لعلي عليه السلام؟ كلا، إنك تجد آثاره في كل مكان بالرغم مما ذكرناه سلفاً من أن الأقلام حاولت أن تُلقي ستاراً على نشاطه عليه السلام في كل أبعاد المعرفة، ولكن شاء الله لهذا الرجل أن يبقى كالشمس الطالعة لا يُسترها الغربال. قال النبي عليه السلام: «إِنَّ أَبَا الْحُسْنَ، لِيَهْنَكُ الْعِلْمَ، فَلَقَدْ شَرِبَ الْعِلْمَ شَرِبَاً وَنَهَلَهُ نَهَلَاً»^(١). فأخذ على عليه السلام ليجنه للجهاد في سبيل الله.

تأمل معى قليلاً في (نهج البلاغة)، ولنمر بهذا الكتاب الذي حاول البعض أن يُبعده عن عليه السلام؛ لما فيه من جموح العبرية، وهي محاولة من المحاولات التي كان هدفها التغطية على جهاده، فقيل: إنه منحول وليس لعلي عليه السلام. ودعنا نمر لنتظر نظريات علي بن أبي طالب عليه السلام، فكل خطبة من خطبه في (نهج البلاغة) تتضمن من أبعاد المعرفة ما يملأ النفس إعجاضاً. وكان عليه السلام في حياة النبي عليه السلام هو المسدد، فيشير إليه النبي

(١) قد مر في ج ١ ص ٣٤٨ سؤال العجاج من الحسن وعامر الشعبي وواصل بن عطاء وعمرو ابن عبيد حول مسألة القضاء والتقدر، وكيف أجابوه كلهم بما وردتهم عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا مثل متواضع من دوره عليه السلام في مجال الفكر والعلوم.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٤٩٢ / ١٠٧٧، كنز العمال ١٢: ١٧٧ / ٣٦٥٢٤.

ويحيل السائل إليه، وذهب إلى اليمن فدعاه رسول الله ﷺ، ومسح بيده على صدره، وما ابتعد عن ساحة المعرفة ساعة من الساعات في حياة النبي ﷺ.

ثم جئَ نفسه بعد وفاة النبي ﷺ لخدمة المسلمين في حقول المعرفة، فنرى مجالس الخلفاء الثلاثة تحفل بالكثير من القضايا كان على بن أبي طالب عليه السلام ينبرى للإجابة عليها، بل إن معاوية كما ذكر ابن عبد البر في (الاستيعاب)، كان إذا نزلت به ملمة أو مسألة علمية يُرسل إلى علي عليه السلام يسألها، ولا يدخل على عليه السلام بالإجابة عليه مع ما كان بين الأميين وبينه عليه السلام، ولكننه عليه السلام كان يرى في ذلك نوعاً من أنواع الجهاد في ساحة المعرفة وفي سبيل الله. ولم يتوان في تجنيد قلمه وفكره في أيام الخلفاء أو في أيامه هو لخدمة المسلمين، حتى سُئل ابن عباس عن مقدار علمه قياساً بعلم علي عليه السلام، فقال: « قطرة إلى بحر محيط »^(١).

لقد أجاب علي عليه السلام عن جملة من القضايا، وبين تفسير الآيات، وترك لنا تراثاً ضخماً في هذا المجال، وبوسعك أن تعود إلى (نهج البلاغة)، فنرى على عليه السلام رأياً في الاجتماع، وفي التربية، وفي السلوك.

يقول عليه السلام: « قيمة كل أمرٍ ما يحسنها »^(٢)، ويقول عليه السلام: « من كانت همة بطنه كانت قيمة ما يخرج منها »^(٣)، ويقول عليه السلام: « المرء مخبوء تحت طي لسانه »^(٤) لا تحت طيلسانه.

(١) الصراط المستقيم ١: ١٥٥ . (٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٨١.

(٣) لم نعثر عليه، وفي عيون المواتظ: ١٢٤، أنه عليه السلام قال: « أمنت العباد إلى الله من كان همه بطنه وفرجه ».

(٤) نهج البلاغة / الحكمة ١٤٨، عيون الحكم والمواعظ: ٢٠١، ١٨ .

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يُتَّمِّم أبعاد الحياة كلها فيربطها بوجه الله عز وجل ، فيضيف عليها المعنى الجهادي ، ويريد لكل نشاط أن يجند في سبيل الله .

وهكذا ترك لنا ثروة ضخمة في (نهج البلاغة) ، وكان يتصدى بنفسه للإجابة ، وكان يتتجول في أسواق المسلمين منذ الصباح الباكر أيام خلافته ، ثم يعود ليجلس على دكّة القضاء ويتصدى للإجابة عن مسائل ومرافعات الناس .

جاءه يوماً طفل يبكي ، فسأله عليه السلام : « ما بالك ؟ ». قال: سيدني هؤلاء الأربعاء خرجوا بأبي إلى السفر ، ورجعوا ولم يرجع أبي ، وادعوا أنه قد فُقد ، ولم يعidentوا إلى شيئاً من أمواله . فقال عليه السلام : « وهل ذهبت إلى القضاء ؟ ». قال: نعم ، ذهبت إلى شريح فطلب مني أن آتيه بشهود بيته على أن أبي كان معهم ، ومعه كذا من الأموال . فاستشهد عليه السلام بهذا البيت :

اوردها سعد وسعده مشتمل ما هذى تورذ يا سعد الإبل

ثم قال: «أهون السقي التشريع» ، وهذا مثل يضرب لمن لا يتعب نفسه في استخراج الفكر ، أو في تناول أي شيء ، ومعنى أن أسهل ما في سقي الإبل وجود شريعة على حافة البشر ، فإذا وجدت الشريعة فلا يتعب الساقي في سقي إبله . فالإمام عليه السلام يقول عن شريح: إنه لم يتعب نفسه في استخراج الدليل والتوصيل إلى النتيجة . ثم قال عليه السلام: «هاتوا إلى هؤلاء الأربعاء» ، فأمر بتفريقهم ثم جيء بواحيده فسألته: «متى خرجمت؟». قال: في يوم كذا . قال عليه السلام: «في أية ساعة؟». قال: في ساعة كذا .

ثم أخذ يسأله ويسأله وهو يجيب وشهادته تُذَوَّن ، إلى أن أكمل

الإجابات فأخرجه وجاء بالثاني فسأله كما سأله صاحبه، وهكذا فعل بالآخرين، فاختللت أقوال الأربعة، وعندئذ جمعهم وتوعّدهم فأقرروا بقتله وأخذ الأموال، فاسترجع الأموال وأخذ عليهم القود^(١).

كان قضاوه كله مستنبطاً من القرآن الكريم، ويجري على أحسن الترتيبات الإدارية، كان عليه السلام متصدراً للقضاء بنفسه، فلا يكاد يبارح مسجد الكوفة يوماً. أما في أيام الخلفاء فقد ذكر التاريخ لنا كمّا هائلاً من قضاياه العجيبة، فترك لنا ثروة كبيرة في القضاء. والمتأمل في قضائه عليه السلام يستغرب من وجود الفكر النافذ في ذلك الزمان، ولكن لا غرابة واقعاً لأن عليه عليه السلام تلميذ القرآن والإسلام، فلا بد أن يكون بارعاً، فهو مجاهد بالعلم والقلم، ولا سبيل إلا إلى الإذعان لذلك. فقد جند المعانى لتكون في طريق الله، ومن أجل كلمة الله. يقول عليه السلام في مناجاته لنوف البكالي: «يأنوف، طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين بالأخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فرashaً، وما ها طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح»^(٢).

المبحث الثالث: جهاده عليه السلام في ساحة الكدح على العيال

أما الجهاد في ساحة الكد والكدح، فقد وقف يجاهد في هذه الساحة أيما جهاد، في حين أنها ما حُدثنا عن رجل كان يتولى العمل في خلافته حتى يُصيب يديه المَجَل^(٣). نعم ما كان ذلك إلا من على عليه السلام فقد أصاب يديه المَجَل من كثرة العمل، فكان منذ الصباح الباكر يتناول مسحاة له

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ١٩٩، فيض القدير ١: ٥٨٨.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٤، الغارات ١: ٩٢.

ويخرج إلى الأرض فيصلحها ويفلحها، ويستنبط منها العيون حتى أصاب يديه المجل. كان يتناول قوته من عرقه ^{عليه السلام}، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «وانه ما كان يأكل إلا العجوة وقليلًا من الخبز»^(١)!. وقد أعتق ألف مملوك من كذ يده، فكان يستنبط العين ثم يبيعها ويشتري بثمنها عيدها فيعتقهم^(٢).

وكان عليه السلام يؤجر نفسه في بساتين لبعض اليهود ليأخذ بضعة دريهمات، ثم يتصدق بها في سبيل الله، ويعود إلى البيت لا يحمل شيئاً^(٣). وإذا احتاج إلى شيء من اللباس فإنه يقطع من أجور عمله ما يشتري به ثوباً من الثياب العادية.

وهكذا وقف يكدر ويکدح حتى مجلت يداه وبلغ به الأمر حدّاً وقف معه فاطمة ^{عليها السلام} يوماً على النبي ^{عليه السلام} وهي باكية، فسألها ^{عليه السلام}: «ما يئيك؟؟». قالت ^{عليها السلام}: «دخلت علي نسوة من قريش، فغيرني بأن علياً ^{عليه السلام} فقير». فقال لها: «بنية، أما رضيت أنني زوجتك أكثرهم علماء، وأرجحهم حلماء، وأنتم لهم سلماً.. لقد زوجتك سيداً في الدنيا وفي الآخرة». فطفع البشر على وجهها^(٤).

وبلغ به الأمر أن انبرى له أبناء عمّه من العباسيين فغيروه بالفقر، فوقف مروان ابن أبي حفصة يشتم علياً ^{عليه السلام}، ويعيره بالفقر، وأن رسول الله ^{عليه السلام} زوج ابنته بمسكين، فوقف له الحسين بن الحاجاج من شعراء الشيعة فقال:

وكان قوله بالزهراء فاطمة قول امرئٍ لم يجيء بالنصب مفتون

(١) قريب منه في قرب الإسناد: ١١٣ / ٦٣، بحار الأنوار: ٥٦ / ١، عن الصادق عليه السلام.

(٢) انظر الهاشم السابق.

(٤) أسد النابية: ٥٢٠، كنز المطالب: ١١ / ٦٠٥ - ٣٢٩٢٦ - ٣٢٩٢٧، وله ١١٤: ١٣، ٣٦٢٧٠، ولم يذكر طرف القصة.

عيرتها بالزحن والحب سطحه
لازال زائد حباً غير مسطحون
مسكينة بنت مسكين لمسكين
أهل الجنان بحور الخرد العين^(١)

هكذا كان عليه السلام يكذّ ويتعجب، ثم يتصدق بما يكسبه على الفقراء والمساكين في سبيل الله، ويقنع بقليل من الخبر أو بشيء من التمر يأكله ويسمح بيده على بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»^(٢).

يقول بعض أصحابه: دخلت عليه وهو في طريقه إلى الحجاز، فوجدت جرابة معلقاً ومختوماً، فلما حان وقت الظهر أنزل ذلك الجراب ومد يده فيه ثم أخرج شيئاً من السوق، فقلت: يا سيد، أراك قد أغلقته! قال عليه السلام: «أوتظن ذلك بخل؟ لا والله ولكن هذا طعام من أرض أنا أزرعها منذ كنت بالحجاز، والآن يزرعها أهلي ثم يعيشون لي منها، وأنا أأكل منه ولا أحب أن يدخل بطني إلا الطعام الطيب»^(٣).

وقد حدثنا في نهجه فقال: «أما والله لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مادوماً»^(٤).

خلاصة البحث

لقد كان على عليه السلام مجاهداً بالسيف والقلم والعمل، فهو سيد المجاهدين

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٥.

(٢) الدعوات: ١٢٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٢: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٤٨ / ٢٣٠.

(٣) لم نعثر عليه بنصه، انظر أصل الشيعة وأصولها: ٤٨ - ٤٩.

(٤) حلية الأبرار ٢: ٢٢٢ / ٢٠، نثر الدرر (الوزير أبو سعيد منصور بن الحسين الآبي) ١: ٤٢ - ٤٤، مخطوط في دار الكتب المصرية برقم: ٢٦٤، وقد مر في ج ٢ ص ٣٢٩.

في سبيل الله، وقد قال تعالى: «وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا». لقد كان جهاده دفاعاً عن الدين وعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ، وعن الأمة. ولنكن كان المجاهد في ميدان العمل يجاهد عن أسرة، فعلى عليه السلام كان يجاهد عن أمة بكمالها، فيرى أن المسلمين عياله وأهله. ولذلك استدعى في مثل هذه الليلة (الحادية والعشرين من رمضان) أولاده بعد أن اشتد عليه الم ضربته فقال لهم: «إِنَّ اللَّهَ فِي الْبَيْتِمَى لَا تَغْبُوا أَنْوَاهِهِمْ»^(١). أي تتأخروا عنهم في إرسال الطعام فتغب أفواههم، أي تحدث فيها رائحة بسبب تأخر الطعام. وصل عطشه حتى إلى من ضربه، فقد أدخل عليه في هذه الليلة عبد الرحمن بن ملجم، فرفع الإمام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ رأسه إليه قائلاً: «أَيْ إِمَامٌ كُنْتَ لَكَ؟ أَلَمْ أَحْسَنْ إِلَيْكَ؟ أَلَمْ أُعْطُكَ عَطاءً كَهُوَ؟». وأخذ يعدد له وينذكه بنعمته عليه. فقال ابن ملجم: «فَأَنْتَ تُنْقِدُ مَنْ فِي النَّارِ؟ فَأَطْرَقَ عَلَيْهِ ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى الْحَسَنِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ: «اسْقُوهُ مِنْ شَرَابِيِّي، وَأَطْعُمُهُ مِنْ طَعَامِي، وَلَا تُمْثِلُوا بَهُ، إِنَّمَا عَشْتَ فَأَنَا وَلِيْ دَمِيِّ، وَإِنَّمَا مَتْ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بَضْرِبَةٍ، وَلَا تُمْثِلُوا بِالرَّجُلِ فَإِنَّ الْمُثْلَةَ حَرَامٌ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»^(٢).

أيتها النفس المطمئنة المجاهدة، يا نفس علي بن أبي طالب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ أطلئ علينا من عليائك .. امنحينا من العطاء الذي عندك .. احملينا على أن نسير في الطريق الذي سرت فيه .. ابعشي في نفوس المسلمين ما كان فيك من شفقة ورحمة، تنبسط على هذه الدنيا، وسلام على نفحاتك أبا الحسن وأنت تودع حياة الجسد، ولا تودع حياة الروح، لأنك خالد:

وَمُثْلٌ عَلَى لَا يُحَذَّلُهُ عَمَرٌ

(١) نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٧ - ٢٨٨.

مررت عليه هذه الليلة وهو في أشد حالات الألم، يقول حبيب بن عمرو والأصبع بن نباتة في دخولهم عليه: إننا وجدناه معصباً بعصابة صفراء، والله ما ندرى أوجهه أشد اصفراراً أم العصابة، يقول الأصبع: جلست ومعي جماعة من أصحابنا، فسمعنا البكاء من داخل الدار فارتنت أصواتنا بالبكاء، ثم خرج الإمام الحسن عليه السلام وقال: «إن أمير المؤمنين عليه السلام» يقول لكم: انصرفوا يرحمكم الله، فانصرف القوم إلا أنا، ثم سمعت البكاء مرة أخرى فعلا صوتي بالنحيب، فخرج الحسن عليه السلام فقال: «ألم أقل لكم: انصرفوا؟». قلت: سيدى، إن نفسي لا تطاوعني ورجلى لا تحملانى، فلابد أن أراه. فدخل الحسن عليه السلام ثم خرج، فقال: «ادخل». فلما دخلت وجدت أمير المؤمنين عليه السلام معصب الرأس، مصفر الوجه، وقد اشتدت عليه حرارة السسم، فوّقعت عليه أقبله وأبكي، فقال: «يا أصبع لا تبكي، إنها وافه الجنة». قلت: سيدى، أنا أعلم أنها الجنة ولكنني أبكي لفراقك. عند ذلك سمعت النساء قد علا ضجيجهن بالبكاء^(١).

يساوية من عقب عينك	عشن لا طالت النه اعمار
الدنيا موحشة بعدك	يوالينا وظلمه الدار
لسابعد جرح امي	ساجي بالقلب نغار
ويفععني زمانى بيتك	وبسطفي النور بعيوني

يا مصباحنه بالليل	يا خيمة هلي كلها
تجمعته على نورك	ننم ونكعد بفلاتها

ولما سمع بكاءهن قال للحسن عليهما السلام: «أسكتهن»، وقال لأم كلثوم: «بنية، لا تؤذيني، والله لو ترين كما أرى لما بكيت». فقال له الحسن عليهما السلام: «وماذا ترى يا أبي؟». قال: «هذا جدك رسول الله عليه السلام ومعه النبيون وهم يقولون: مرحبا بك، وإن ما أمامك خيراً لك مما أنت فيه».

عند ذاك ارتفعت أصوات النساء مرة أخرى، وأقبلن إلى محراب أمير المؤمنين عليهما السلام:

يحامي الحمه مولي الموالى يمالشلت راس الدين عالي

الليلة بكة المحراب خالي



بين الطور والنجد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْطُورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍ
مَسْتُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَغْمُورِ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

من أساليب القرآن الكريم أنه إذا أقسم بعض الأشياء أحياناً فإنما يقسم بها لهدف، ففي كل كلمة من القرآن توجد ملادات وأهداف، ومن هذه الأهداف بيان أهمية الأشياء التي يقسم بها، أو بيان شرفها، أو لفت النظر إليها. فاللوا في صدر الآية الكريمة هي واو القسم، وهي داخلة على قوله تعالى: ﴿الْطُور﴾ الذي هو كل مرتفع إذا كان ذانبات، أما إذا كان أجرد ليس عليه نبات فإنه يسمى جبلًا^(٢). والتسمية تختلف باختلاف النبات؛ فإذا كان عليه زيتون فقط يعبرون عنه بطور زيتنا، أما إذا كان عليه أشجار متنوعة وخضرة فإنه يسمى طور سينا^(٣).

(١) الطور: ١ - ٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٥٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧: ٥٩.

المبحث الأول: الأشياء التي تناولتها الآية بالقسم
ونحن نلاحظ هنا أن القرآن الكريم قد أقسم بثلاثة أشياء:
الشيء الأول الذي أقسم به تعالى هو قوله: **(الطور)**، والسؤال هو: أي طور يقصد به؟ وأين مكانه؟ وليعلم أن مسألة مكان الطور قد اكتسبت أهمية؛ لما يرتبط بها من أحداث حيث إنه المكان الذي حدثت عليه مناجاة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، والنداء من الله في هذه المنطقة مما يعطي هذا الموقع شرفاً وكراهة؛ ولذلك اختلفوا في موقعه. وعند تتبع كتب تفاسير المسلمين للمذاهب الإسلامية الأخرى نرى أنهم يقولون: إنه في أرض الشام، وبعضهم يقول: في القدس، وأخر يقول: في القرية التي كان فيها شعيب^(١). ولم تذكر رواية واحدة عنهم أنه كان في النجف حسبما قالت به روايات^(٢) أهل البيت عليهم السلام، وهي روايات صحيحة ومعترفة.

محاولات النيل من الأية

فلماذا لم تذكر هذه الروايات أنه في النجف؟ قبل الإجابة لابد من توضيح مقدمة، وهي أن كل مسلم يؤمن بالله ورسوله إذا رأى منقبة لصحابي يجب أن يعتز بها، لماذا؟ لأنهم جداً يصيرون في بحيرة الإسلام، لكن الذي حدث لفضائل الإمام علي صلوات الله عليه وآله وسلامه أن جاء الأمويون بعد مصرعه ثم العباسيون، وكان لكل منهم حسابه الخاص معه صلوات الله عليه وآله وسلامه، ذلك أن التاريخ يحذثنا أن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه كان يبعث الإمام علياً صلوات الله عليه وآله وسلامه في الكتبية فلا يرجع إلا وقد علق الدم عليه بنياناً. وهو مما له تركة ثقيلة عند الأمويين

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٢: ١١٤، ١١٣: ٥٨ - ٥٩، زاد المسير ٥: ٣١٨، ٧: ٢١٥، ٢١٦.
تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٢) انظر العيزان في تفسير القرآن ٢٠: ٢٢٠ - ٢٢١.

والعباسيين. ولا ننسَ أن ذكر المثل المشهور في حالنا هذه مع العباسين: «اتق شرَّ من أحسنت إلَيْهِ»، مع أن الحيوان عندما تبرَّه يألفك ويقربك، غير أن الإنسان خلاف ذلك؛ إذ يوجد أناس من المعدن الذي إذا أحسنت إلَيْهِ فلن ترى منه مكافأة إلَّا بالإساءة؛ لأنَّه يظنُّ أنَّ إحسانك إلَيْهِ نوع من التمييز عليه فينقلب عليك. والفترة التي كتب فيها التاريخ وتفسير القرآن الكريم ابتدأت في عصر الأمويين والعباسيين؛ وللهذا فإنَّهم إذا مروا بالإمام علي عليه السلام انقلبوا الحسابات، فصاحب (السيرة الحلبية) مثلاً التي تشرح تاريخ الإسلام، والقاري الحنفي في (شرح الشفاء)، والألوسي في (شرح عينية عبد الباقي العمري)، والحاكم في مستدركه - وهم جزءٌ مما نصَّ عليه مؤرخونا، ومنهم الأميني في الجزء السادس من موسوعته الغديرية^(١) - ينصُّون على أنَّ ولادة الإمام علي عليه السلام كانت في الكعبة، والحاكم يقول: «الرواية متواترة»، أي رواها جيل عن جيل.

وكذلك جملة من المؤرخين ذهبوا إلى أنه عليه السلام ولد في بطن الكعبة^(٢)، لكنَّ الآن لم نجد لهذا ذكراً في حياة الناس، فالمفروض أنَّه يشار إلى هذا الرجل، فإن ذكره رصيد للإسلام. والألوسي عندما يمر بهذه الرواية يقول: «سبحان الذي يضع الأشياء مواضعها»؛ حيث إنَّ هذا الرجل أراد أن يرَّ الجميل فظهرَ البيت من الأصنام وكسرها، وأراد الله أن يكافئه أيضاً:

لما دعاك الله قدماً لأنْ
تولد في البيت فليبيته

جزيته بين قريش بانْ
طهرت من أصنامهم بيته^(٣)

(١) الفدير ٦: ٢٢، وانظر ٢: ٣٤٨.

(٢) مروج الذهب ٢: ٣٣، ١٥.

(٣) الفدير ٦: ٢٣.

أما قبره فإن التاريخ يضع ضباباً عليه، ويقول: إنه لم يعلم النعش أين^(١). ونقول لهم: إن أهل البيت عليهم السلام يعرفون ذلك، ويزورون هذا الموضع ويشيرون إليه وينصّون عليه، ونحن عندما نريد أن نرجع لقبور الأنبياء والأولياء كيف يمكن لنا أن نهتدي إليّها؟ حتماً يكون ذلك عن طريق ذراريهم. يقول صفوان الجمال: صحبت الإمام الصادق عليه السلام، ولما مررتنا بالغربي في النجف وقف في مكان وصلّى ركعتين، ثم انتقل إلى مكان ثالث وصلّى ركعتين، ثم انتقل إلى مكان ثالث وصلّى ركعتين، فقلت: سيدى، هذه الأماكن الثلاث هل لك أن تخبرني عنها؟ فقال عليه السلام: «بلى، المكان الأول قبر جدي علي بن أبي طالب، والمكان الثاني موقع صلب فيه رأس الحسين في طريقهم لما جاؤوا به إلى الكوفة، والمكان الثالث مكان منبر القائم عليه السلام»^(٢).

فكان أبيّة أهل البيت عليهم السلام لا يتركون فرصة تمر دون الإشارة إلى موقع القبر ودعوة الناس لتجديده العهد له. غير أن التاريخ حاول أن يلطفه وولادته بحالة ضبابية، فكانوا لا يذكرونه بخير، يقول أحدهم: ما نفعل مع هذا الرجل؟ إن أحبيناه قتلنا، وإن أبغضناه كفرنا^(٣).

على أبيّة حال فروايات أهل البيت عليهم السلام تنص على أن الطور في النجف، والذي يؤيّد ذلك أن مناجاة النبي موسى عليه السلام حدثت على جبل من جبال

(١) تاريخ بغداد ١٤٨: ١، سبل الهدى والرشاد (الصالحي الشامي) ١١: ٣٠٧، ونقل ذلك عن الصندي في (تمام المتون) .

(٢) كامل الزيارات: ٨٤، تهذيب الأحكام ٦: ٢٥/٧١، وسائل الشيعة ١٤: ٢٩٩/١٩٤٥٤، دلائل الإمامة: ٤٥٩.

(٣) القول منسوب في مناقب آل أبي طالب وبحار الأنوار للشعبي، وفيه: «ما ندرى ما نصنع بعلي بن أبي طالب عليه السلام؛ إن أحبيناه افتقرنا، وإن أبغضناه كفرنا!». مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦، بحار الأنوار ٩٢: ٤٨١.

الجنة، وجبال الجنة ذكر رسول الله ﷺ أنها أربعة، وذكرها المؤرخون كذلك، وهي: الجودي (الذي رست عليه سفينته نبي الله نوح عليه السلام)، وجبل أحد، وجبل لبنان، والرابع الطور^(١). فإذا أخذنا هذه الرواية وضممنا إليها رواية أن الطور هو وادي السلام، وهو مأوى أرواح المؤمنين وأن أرواح المؤمنين تذهب إلى الجنان^(٢)، تكون نتيجة الجمع بين الروايات أن هذه هي المنطقة التي حدثت فيها المناجاة. وهذا لا نعتبره دليلاً ناهضاً، لكن توجد روايات عن الإمام الバاقر والإمام الصادق عليهما السلام بخصوص ذلك، ففي كتاب (فرحة الغري) وغيره من الكتب^(٣) نص على أن الطور في الغري، وأن المناجاة حدثت فيه.

وحسب هذه التربية فخرأ وشرفاً أنها قد حدثت عليها أمور هامة في تاريخ المسلمين، فهي لها دور كبير في حفظ اللغة العربية، فمدرسة اللغة العربية في النجف من أعمق المدارس، ويمكن الرجوع إلى المؤلفات التي ألفت في هذا البلد والتي راعت حفظ اللغة، والجهد الذي انصب لأجل ذلك. ومن أهم الدروس التي يدرسها طالب العلم اللغة ومشتقاتها، أي النحو والصرف والمعاني والبيان. وتوجد ريادة في النجف لتدريس العلوم الإسلامية، فأراء المذاهب الإسلامية تدرس إلى جانب مذهب أهل البيت عليهما السلام بشكل مقارن من دون فرق بين مذهب وآخر، حيث يتم مناقشة الأحكام واستدلالياتها. في حين أننا نقرأ موسوعة إسلامية كبيرة فلا نجد فيها رواية لأهل البيت عليهما السلام، فلنسأل: من هم أهل البيت عليهما السلام؟ إنهم حملة القرآن، والبيت الذي هبط فيه الوحي، وفيه زغب جناح

(١) رواها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٧: ٥٨، عن نبيتنا محمد عليهما السلام.

(٢) وفيات الآئية: ٧٥.

(٣) العيزان في تفسير القرآن ٢٠: ٣٢٠ - ٣٢١.

جبرئيل^(١).

فالنじف احتضن رسالة الإسلام بحق، وفيه توجد مؤلفات ضخمة تستعرض آراء المذاهب الإسلامية كـ(الخلاف) للشيخ الطوسي حيث يستعرض فيه بكل أدب واحترام آراء المذاهب الإسلامية ويشبعها ويقارنها بفقه أهل البيت عليهم السلام، وكمؤلفات العلامة الحلى والمقداد السيوري. وعندها الفقه المقارن يدرس الآن، في حين أنك لا تجد ذلك عند غيرنا من كتاب المذاهب الأربع فلا يمر أحد منهم برأي لأهل البيت عليهم السلام. مع أن هذا في الواقع يحط من قيمة الكاتب نفسه؛ لأن أهل البيت عليهم السلام هم النبع الصافي^(٢). فالإمام الصادق عليه السلام هو الجذر والنبع

(١) ورد أن للحسن والحسين عليهم السلام تعويذين حشوهما من زغب جناح جبرئيل. انظر مناقب آل أبي طالب ٢: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٩، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١١٣، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ١٩٢.

(٢) روى أن الحجاج بن يوسف التقى كتب إلى الحسن البصري، وإلى عامر الشعبي، وإلى عمرو بن عبيد، وإلى واصل بن عطاء أن يذكروا ما عندهم وما وصل إليهم في القضايا والقدر؛ فكتب إليه الحسن البصري: أحسن ما انتهى إلينا في القضايا والقدر ما سمعته عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو قوله: «أظن أن الذي هداك دهاك؟ إنما دهاك أسلوك وأعلافك، والله بريء من ذاك». وكتب إليه عامر الشعبي: أحسن ما سمعت في القضايا والقدر قول علي بن أبي طالب عليه السلام: «لو كان الوزر في الأصل محتوماً، لكان الموزور في القضايا مظلوماً».

وكتب إلى واصل بن عطاء: أحسن ما سمعت في القضايا والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أيدلك على الطريق، ثم يأخذ عليك المضيق؟! هذا في العقل لا يليق». وكتب إليه عامر الشعبي: أحسن ما سمعت في القضايا والقدر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «كل ما حمدت الله عليه فهو منه، وكل ما استغرت الله منه فهو منك».

فلتنا وصلت كتبهم إلى الحجاج، وقرأ ما كتبوه إليه، قال: لقد أخذوها من عين صافية، ليس فيها كدر ولا وعر.

انظر: الطراف في معرفة مذاهب الطوائف: ٣٢٩، كنز الفوانيد: ١٧٠، الميزان في تفسير

للمذاهب الإسلامية؛ لأنَّه تلمذ له اثنان من أئمَّة المذاهب الإسلامية الأربعة بصورة مباشرة، والآخران بصورة غير مباشرة^(١).

فمقتضى القاعدة أنَّ هذه المزية لهذه التربة ينبغي أن تكون موضع اعتزاز وفخر عند المسلمين؛ لأنَّ هذا البلد خدم الإسلام بكل معارفه، والتربة قد احتضنت الإمام علي عليه السلام، وهو عطاء للمسلمين كافة.

فقسم الآية بـ«الطور» إشارة إلى فضل هذه التربة، حيث نجد روايات تقول: إنَّ هذه التربة ضجَّت إلى الله، فجعلتها الله مكاناً يعبد به. وقد خصَّها الله بفضل، كما خصَّ غيرها. فنحن نعترَّب تربة المدينة لأنَّها مهد الرسول عليه السلام، وكذلك نحن عندما نرى هذا الرجل قد خدم الإسلام بكل ما أمكنه فإنَّ التربة التي تضمَّنه ستُصبح موضع اعتزازنا، فأثاره الروحية باقية إلى الآن، وهي ستبقى مابقي الدهر؛ لأنَّ الفكر والعطاء لا آمد لعمره. فمهما مرَّت الدنيا فإنَّها لا تقضي على عطاء النبوة، وعلى راقد من رواد

. ١٠٣: القرآن.

(١) وفي جدَّه أمير المؤمنين عليه السلام، قال ابن أبي الحديد: «ومن العلوم علم الفقه، وهو طلاق يعني أمير المؤمنين عليه السلام - أصله وأساسه، وكلَّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه»:

أما أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما، فأخذوا عن أبي حنيفة.

وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة.

واماً أحمد بن حنبل، فقرأ على الشافعي، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة.

وابن حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليهما السلام، وينتهي الأمر إلى علي عليه السلام.

واماً مالك بن أنس، فقرأ على ربيعة الرأي، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد

الله بن عباس، وقرأ عبد الله بن عباس على ابن أبي طالب عليهما السلام.

وإن شئت ردَّت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك، كان لك ذلك.

فهؤلاء الفقهاء الأربعة.

شرح نهج البلاغة ١٦: ١.

الإسلام؛ فلا يمكن أن يموت ودنياه خالدة ستبقى مابقى الدهر. يقول أحد الشعراء:

سِيدِيْ يَا أَبَا تَرَابٍ يَطِيبُ الْأَرْضَ سَفَرْسَ فِيهِ وَتَشْرِنْتَ الْجَذْوَرَ

فالقرآن يقسم بالطور، والروايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام أنه هذه البقعة.

معنى الكتاب المسطور

الشيء الثاني الذي أقسم به تعالى هو قوله: «كتاب مسطور»، وفي تسميته بالمسطور ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنه تعالى عبر عنه بالمسطور؛ لأن الملائكة ترؤه باللوح، والناس يقرؤونه على الورق المسطور، أي في سطور.

ليس في القرآن تحريف

وهنا نقطة دقيقة، فالقرآن عندما يعبر عنه بـ«مسطور» - أي مكتوب في سطور - يريد أنه لا سبيل إلى العبث به، فهو ما بين الدفتين، فإذا كانت الكتب السماوية الأخرى قد حصل فيها عبث فالقرآن لم يحصل فيه ذلك العبث، وعليه أساطير علمائنا.

لكن هناك من يفسّر عبث، وهناك من يقول: إن الإمامية يقولون بوقوع التحريف في القرآن، ونحن نقول: إن القرآن ما بين الدفتين وإن وجدت روايات بهذا فهي غير معتبرة لا عندنا ولا عندهم. فليس في القرآن زيادة ولا نقصة، فإن كان كذلك - أي أنه قد وقع فيه تحريف - فإن دستور الأمة الإسلامية كلّه باطل؛ مما يعني أنه ترتب عليه لوازم فاسدة. ونسأل: ما هو الهدف من القسم بالكتاب المسطور؟

والجواب: أن الهدف هو أن يدفعنا لقراءة القرآن فإنه المنبع الذي نستلهم منه كل احتياجتنا ويفدّي أنفسنا بالخير. وكل الآيات لها معنى يستفيد منه، فالذي يقرأ القرآن يخرج وهو يحمل الرحمة للناس والخلق، لكن يشرط أن يقرأه قراءة تدبر^(١)؛ فمن هنا تستلهم الهدایة والقيم والمواقف. يروي عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه أنه قال: «القرآن مأدبة الله»^(٢) حيث نأخذ منه النظريات والتوجيه والهدایة، ونأخذ منه حتى الأسلوب في الكتابة والفصاحة.

الرأي الثاني: الكتاب المسطور هو كل الكتب السماوية؛ ولذلك فإن الآية نكّرته وقالت: «وَيَقْتَلُ مَسْطُور»، ولم تقل: «والكتاب المسطور». فهذا التنكير يفيد العموم أي كل كتاب نزل من السماء يحمل للناس الأحكام والتشريعات. وفهم من هذا أن ديننا ليس فيه عداء للأديان الأخرى، فنحن نقرأ التوراة والإنجيل وليس لنا عداء معهم، لكن مع الأسف نقرأ بعض حملة الأنجليل فنجد لهم مواقف عجيبة إزاء الإسلام حيث يقول أحدهم: إن محمداً مات سكران فأكلته الخنازير. وهذا حقد غريب، مع العلم أن الإسلام وقف منهم غاية في الإنسانية فإنه لا يجد مصلحة في معاداتهم إلا إذا كانوا يهدّدون الإنسانية، فالإسلام لا يقاتل أصحاب الأديان وإنما يقاتل الكافر لأنه خالي من المبادئ ويحارب الإسلام

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفكّر».

وفي رواية أخرى: «ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر». الكافي ١: ٣٦، معاني الأخبار: ٢/٢٢٦.

(٢) وسائل الشيعة ٦: ١٦٨، ٧٤٨، مستدرك وسائل الشيعة ٤: ٤٥٦٩/ ٢٢٢٥ عن لب الباب للراوندي، القاموس الفقهي: ١٧، وتمامه: «فتعلّموا من مأدبتة».

ويشكل خطراً عليه. فنرى الحقد على أهل البوسنة المسلمين، ومع الأسف نرى المسلمين تحت هذه المطارق والتهديدات يتوزعون أقساماً.

وأرعيتهم من الأعداء مطرقة **فما استغاثوا بها إلا وهم شغفٌ**

ورحم الله أحمد شوقي حيث يشكو الأمة في تائينه التي يخاطب بها الخديوي عندما جاء إلى الحجّ:

إلى عرفات الله يساخِر زانر عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ فِي عَرْفَاتٍ

إذا زرت بيت محمد فقل مولى الأعظم العطرات

فَقُلْ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ فَرِجَاعٌ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُحْسِنِينَ**

فهنا يطرح بين يدي رسول الله ﷺ آلامه ومشاكله من هذه الأمة التي تمزقت وعادت شيئاً.

الرأي الثالث: أن الكتاب المسطور هو كتاب الأعمال، أي الصحيفة التي تسجل تصرفات الإنسان فيها يومياً، فيسجل عليه كل قول و فعل. ويؤيد هذا المعنى، أنه عَبَر عنه بـ «في رُقْ مَنشور» أي ينشر بين يدي صاحبه يوم القيمة «أقرّا إِنْتَ كُفٍّ بِنَفْسِكَ التَّيْمُ عَلَيْكَ حَسِيبَاً» (٢).
ونسأل أيضاً: لكن لماذا يقسم به البارئ عز و جل؟

والجواب: أن الغرض واضح حيث إن الله تعالى يريد أن يقول للإنسان: أنت ثمرة الوجود وسيد الموجودات، وإنك لم أخلقك عبئاً، فوراءك حساب؛ ولذا فيجب عليك أن تضع في حسابك أن هناك كتاباً يحصي عليك كل صغيرة وكبيرة. فكأن الهدف إشعار الإنسان وتنبيه بأنه مسؤول:

(٢) الاسراء:

١) دیوان احمد شوقي ١: ٩٨

ولو أننا إذا مُستنا ثُرَكنا
ولكِستنا إذا مُستنا بِعثنا

الشيء الثالث الذي أقسم به تعالى هو قوله: «الْبَيْتُ الْمَسْفُورٌ»، وهو الكعبة الشريفة، فقد خطط الله للكعبة وبنى في عهد آدم عليه السلام باعتباره أول نبي أرسل للبشر، وبقي مكانها معروفاً ومميزاً إلى أن حدث الطوفان حيث رفعت، ثم بعد الطوفان أمر الله نبيه إبراهيم عليه السلام أن يعيد بناءها، وعيّن له موضع البيت: ليبنيه على الأسس السابقة: «وَإِذْ بَوَأْنَا لِبْرَاهِيمَ مَكَانَ النَّتْفَتِ»⁽¹⁾.

ونسائل أيضاً: لماذا أقسم الله به؟

والجواب: أن الكعبة أمّنا العقائدية ، حيث إنها المكان الذي انطلق منه شعاع الأنبياء على امتداد التاريخ الإنساني. وبعد أن تحكمت الجاهلية كانت الكعبة الشريفة هي المكان الذي انطلق منه صوت «لا إله إلا الله». فالنبي ﷺ عندما دخل مكة أمر بلاً. وكان يحمل نبره السماء - فصعد وأذن، واعتبرت قريش ذلك كارثة من الكوارث، حيث إن هذا معناه القضاء على تعدد الآلهة. فحدث في مكة نوع من الهرج والتأسف، وبعضهم ولّ خارج مكة؟ كي لا يسمع صوت النداء.

فالقرآن الكريم أقسم بها؛ لأنها المنطلق، ولأننا نعود إليها في كل عقائدها، ومنها انطلق الإسلام.

لـكن لماذا عبر عنها بـ«البيـنـتـ المـغـفـورـ»؟

هناك قاعدة عند الأصوليين مفادها أن الأمر له صيغة متعددة، مثلًا حينما يريده الشارع أن يأمرنا بالصلوة فإنه قد يقول: «أعيدوا الصلاة»، أو يقول: «تعيدون الصلاة»، فهذا كلًا هما أمر وان كان الثاني جاء في صيغة الخبر. فـ«البيت المعمور» أمر جاء في صيغة الخبر، حيث إنه تعالى يريده أن يقول: إن البيت ينبغي أن يعمّر.

أنواع العمارة

والعمارة إما مادّية أو معنوية:

فالعمارة العادّية أن يبني ويضاء وينظّف ويُتعاقد.

والعمارة المعنوية أن يتعاقد البيت بألا يفرغ من العبادة، فإذا نقص الحاجاج أو المعتمرون فإن الله يكملهم من الملائكة؛ رعاية لهذه البقعة. وشرف هذه البقعة انسحب إلى المنطقة بكمالها حيث إن حدود الحرم أوسع من البيت، فجاء شرفه من هذا المكان المشرف. والسعادة الحقيقية هي أمام بيت الله، يقول أحد الأدباء:

نال منها حتى أحسن القرود	أيها الغارقون في غمرات
نزل الركب عند نبع برود	مامتنا يطفئن الغليل فهيا
جنب رمل النقا ووادي القديد	الجنان الملفولات هراء
لله في دربه الكريم السعيد	السعادات ليس إلا بدرب الـ

فهناك السعادة الحقيقية حيث الكعبة الشريفة، وهي تجسد هذا الجلال لك.

المبحث الثاني: موقف الأمويين من البيت الحرام لكن ما الذي صنعوا الأمويون بهذا البيت: «وإذ جعلنا البيت مثابة للتأسیس

وأفنا^(١)؟ لقد ضربوه بالمنجنيقات وهدموا أركانه، وسالت الدماء في قلبه، وأحرقوا أستاره، فكيف تريدنا أن نتفاوض عن هذا اللون من الاعتداء على البيت الطاهر؟ فهذا الذي من أجله خرج الحسين عليه السلام من مكة. يقول السيد الحلي:

وقد انجلن عن مكة وهو ابنها
وبه تشرفت الحطيم وزمزم
لم يدرِّ أين يربيع بُدن ركابه
فكانَما الماوی عليه محزم

فالحسين عليه خرج من مكة في اليوم الثامن من ذي الحجة - يوم التروية - بعد أن حلّ إحرامه وحول حجّته إلى عمرة مفردة، واستعدّ للخروج، فقيل له: ما أعجلك عن حجّك يا أبا عبد الله؟ فقال عليه السلام: «لو لم يُعجل لأخذت»^(٢).

فهو عليه يخبرهم بأنه غير مستعدّ لأن يبقى في البيت حتى يقتل فيه، فتنتهك حرمة الكعبة وتجرح مشاعر المسلمين. وفعلاً خرج عليه وصعد المنبر وخطب خطبته الشهيره: «خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني عن أسلافني اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأنني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النوايس وكربلا فيمלאن مني أكراشاً جوفاً وأجرية سفناً. لا محيس عن يوم خطّ بالقلم. رضا الله رضاناً أهل البيت، نصبر على بلائه فيوفينا أجور الصابرين. إلا ومن كان فيما باذلاً مهجته موطنًا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإبني راحل مصيحاً إن شاء الله»^(٣).

فهو عليه إذن خرج ليحافظ على حرمة الكعبة، وكان ما أراد عليه السلام، فاحترم

(١) البقرة: ١٢٥ . (٢) مثیر الأحزان: ٢٨ .

(٣) اللهو في قتلى الطفوف: ٣٨ . كشف النقعة: ٢ . ٢٣٩ .

الكعبة، وخرج فلحق به صفوته وأهل بيته، فأراد الله تعويضه، فعوضه بثلاث: جعل الدعاء مستجابةً تحت قبته، وجعل الأيمان في ذريته، وجعل الشفاء في تربته الطاهرة^(١)، وخصها بمنزلة عظيمة، فكأنما قوله تعالى: «فاجعل أفيض من الناس تهوي إلينهم»^(٢) في حقها، فجعل القبر يطاف به، وجعل له في قلب كل مسلم مكاناً^(٣)، فهو^(٤) يطوف في فكر كل مسلم يتأمله ليست لهم أرفع القيم والمواقف من هذه التربة التي جسد عليها أسمى أنواع الفضائل.

وهكذا نجد أن الله قد جعل قبره كعبة للمؤمنين يطوفون حوله، والأصوات تنادي: «أشهد لقد اقشعرت لدمائكم أظللة العرش مع أظللة الخلاائق»^(٤).

ونرى كيف طاف التوابون وغيرهم من بعض صحابة الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه، حيث مرروا بهذا القبر الكريم وطافوا حوله، فجابر بن عبد الله الأنصاري يقف على القبر ويقول لابن عطية: «ضع يدي على القبر، المسيء». حتى إذا أحسن ببرد ترابه صالح: «ياحسين، ياحسين». ثم قال: «حبيب لا يجيب حبيبه، وأنى لك بالجواب وقد شخت أوداجك على أثيابك، وفرق بين رأسك وبدنك؟ أشهد أنك من دعائم الدين وأركان المؤمنين، خامس أهل الكسا، وكيف لا تكون كذلك وقد رضعت من ثدي الإسلام، وربت

(١) عدة الداعي: ٤٨.

(٢) إبراهيم: ٣٧.

(٣) قال الشاعر:

من بشرقاها أو غرب
نحوي فمشهدك بقلبي

لاتطلبوا قبر الحسين

ودعوا الجميع وعززوا

(٤) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، المزار: ١٤٤.

في حجر الإيمان؟».

وفي اللحظات التي كان جابر يزور، أطلَ الإمام السجاد عليه ومه السبايا، وما كادت السبايا يلمون قبر الحسين عليه حتى هرولن إليه وجلس عنده، أخذت اللوعة مأخذها من قلوب بنات الزهراء عليه، وأثرت أثراً فيهن، وهو ما دفع الإمام السجاد عليه إلى ألا يطيل البقاء في تربة كربلاء، فلم يبق إلا ثلاثة أيام، فكلّموه في ذلك وقالوا له: إن العائلة لم تكتفِ بعد من الوداع، فلم لا تتركها لتتزود منه؟ فقال عليه: «إني أرى ما لا ترون». قالوا: وما ترى؟ قال: «إني أخشى على عمتي زينب أن تموت، فإنها تقوم من قبر وتجلس عند قبر ودموعها جارية».

الفهرس الإجمالي

الفصل الأول: الرسول ﷺ

٩	﴿١﴾ ذكرى الرسول الأعظم ﷺ
٢٩	﴿٢﴾ هجرة الرسول ﷺ
٤٩	﴿٣﴾ أمنية الرسول ﷺ
٧٥	﴿٤﴾ مزايا الرسول ﷺ
١٠٣	﴿٥﴾ عصمة الأنبياء ﷺ
١٢٣	﴿٦﴾ اتباع الرسول ﷺ
١٣٧	﴿٧﴾ صحابة الرسول ﷺ

الفصل الثاني: السيدة فاطمة الزهراء ؓ

١٥٩	﴿٨﴾ وراثة الأنبياء ؓ
١٧٥	﴿٩﴾ أضواء على خطبة الزهراء ؓ

الفصل الثالث: أمير المؤمنين عليؑ

١٩٥	﴿١٠﴾ بين يدي أمير المؤمنينؑ
٢١٣	﴿١١﴾ أمير المؤمنينؑ سيرةً و موقفاً
٢٣٩	﴿١٢﴾ في رحاب أمير المؤمنينؑ
٢٦١	﴿١٣﴾ أمير المؤمنينؑ وكتابة التاريخ

﴿١﴾ أهداف البيعة في الإسلام	٢٨٩
﴿٢﴾ خلافة الرسول <small>صلوات الله عليه وآله وسلامه</small>	٣٠٩
﴿٣﴾ أمير الزاهدين <small>عليه السلام</small>	٣٤٧
﴿٤﴾ أضواء على حياة علي <small>عليه السلام</small>	٣٧٣
﴿٥﴾ علي <small>عليه السلام</small> ميزان العدل	٤٠٧
﴿٦﴾ سجدة في محراب علي <small>عليه السلام</small>	٤٢٣
﴿٧﴾ من وصايا أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>	٤٤٣
﴿٨﴾ دار السلام	٤٦٣
﴿٩﴾ بين الوادي المقدس والغربي	٤٧٥
﴿١٠﴾ فلسفة الجهاد عند أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>	٤٩٩
﴿١١﴾ بين الطور والنجف	٥١٧
الفهرس الإجمالي	٥٣٣

الفهرس التفصيلي

الفصل الأول: الرسول ﷺ

١	﴿ ذكرى الرسول الأعظم ﷺ ...
٩	مراحل حياة الرسول الأعظم ﷺ ...
٩	المرحلة الأولى: من ولادته حتى بعثته ﷺ ...
١٠	إرهاصات ولادته ﷺ ...
١٣	الرسول ﷺ يغض النزاع في رفع الحجر الأسود ...
١٧	المرحلة الثانية: من بعثته المقدسة حتى هجرته الشريفة ...
٢٢	المرحلة الثالثة: من هجرته الشريفة إلى لحوقه بالرفيق الأعلى ...
٢٩	﴿ هجرة الرسول ﷺ ...
٢٩	المبحث الأول: في تحديد مفهوم الهجرة وأقسامها ...
٣١	عملية الهجرة اشتراك فيها أكثر من صحابي ...
٣٢	المبحث الثاني: إفرازات الهجرة الشريفة ...
٣٢	أولاً: وضع قاعدة إنسانية على مستوى الممارسة الفعلية ...
٣٥	ثانياً: أنها أصبحت مبدأ للتاريخ الإسلامي ...
٣٦	ثالثاً: إزالة العقبات النفسية من المجتمع الإسلامي ...
٣٦	ظواهر تطبيق مبدأ المساواة في الإسلام ...

٣٧	الهدف من إزالة العقبات النفسية.....
٣٨	رابعاً: زرع أمر الصلاة في نفوس المسلمين.....
٤٠	اختلاف المذاهب الإسلامية حول فعل النبي ﷺ.....
٤٠	الأول: استحباب القصر في السفر.....
٤٠	الثاني: وجوب القصر في السفر
٤١	ثمرة الخطاب بلسان الجمع في سورة الحمد.....
٤١	الأول: قبول الصلاة التي يتطرق إليها النقص
٤١	الثاني: التأكيد على الهوية الإسلامية.....
٤٢	خامساً: تزويع الإمام على من فاطمة زينب
٤٣	زواج النور من النور تطبيق عملي لنظريات الإسلام.....
٤٤	أولاً: مسألة الكفاءة.....
٤٥	ثانياً: القضاء على الشعور بالعار من تزويع البنت
٤٧	ثالثاً: التأكيد على بنوة الحسينين
٤٩	﴿٣﴾ أممية الرسول ﷺ
٤٩	المبحث الأول: أقسام الأممية ومعنى أممية الرسول ﷺ
٤٩	طبيعة أممية الرسول ﷺ
٥١	العلم يصدق القرآن
٥٢	المبحث الثاني: وجوب بعثة الأنبياء وعدمه
٥٣	شبهة البراهمة حول إرسال الرسل، ورذها
٥٤	عدم وجوب الوصيّة يساوي عدم وجوب البعثة.....
٥٦	المبحث الثالث: دلائل النبوة.....
٥٦	الأولى: الآياتي بما يخالف العقل والواقع والفطرة.....

٥٨.....	الثانية: أن تكون بعثته خيراً للناس وطاعة لله
٥٨.....	الثالثة: أن يكون مسلحاً بالمعجزة
٥٩.....	المبحث الرابع: من معجزات النبي ﷺ
٥٩.....	المعجزة الأولى: تنظيم المجتمع
٦٤.....	المعجزة الثانية: القرآن الكريم
٦٦.....	المعجزة الثالثة: خلقه الكريم ونفسه الرحيمة
٧٠.....	المبحث الخامس: فترات حياة النبي ﷺ التبليغية
٧٥.....	﴿﴾ مزايا الرسول الأكرم ﷺ
٧٥.....	المبحث الأول: معنى التوكل و موضوعه
٧٦.....	التوكل بين الوعي واللاوعي
٧٩.....	المبحث الثاني: في متعلق التوكل و صفاته
٨٤.....	المبحث الثالث: فضل الصلاة
٨٤.....	انقطاع أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>
٨٥.....	أقسام النعمة
٨٦.....	الأولى: نعمة العوض
٨٦.....	الثانية: نعمة الابتداء والامتنان
٨٦.....	الحركات الإصطلاحية والتزمر الدينى
٨٧.....	نقد نظرية التطور
٨٨.....	نظرية التلخيص
٨٩.....	رجوع
٨٩.....	رأي النظرية التسموية في نشوء المعرفة
٩١.....	المبحث الرابع: في معنى التقليب في الآية

الرأي الأول: عبادته <small>عليه السلام</small> في الأسحار	٩٢
الرأي الثاني: طهارة آبائه <small>عليهم السلام</small>	٩٢
التهافت في روايات العامة	٩٢
طهارة آباء الإمام <small>عليه السلام</small>	٩٤
دليل إسلام أبي طالب <small>عليه السلام</small>	٩٤
الأولى: بين المهدى وابن عبد القدس	٩٤
الثانية: بين أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small> وأعشى همدان	٩٥
سر تحفیر أبي طالب <small>عليه السلام</small>	٩٩
رجوع	١٠٠
(٥) عصمة الأنبياء <small>عليهم السلام</small>	١٠٣
المبحث الأول: سبب نزول الآية الكريمة	١٠٤
نظرة على السبب الأول	١٠٤
نظرة على السبب الرابع	١٠٦
مامية العصمة	١٠٧
المبحث الثاني: أن على صاحب الموقف الثبات على موقفه	١٠٩
المبحث الثالث: في الافتداء على الله ورسوله <small>عليهم السلام</small>	١١٣
المبحث الرابع: في اتخاذ الكافرين أولياء	١١٧
الحجاج والأعرابي	١١٧
(٦) اتباع الرسول <small>عليه السلام</small>	١٢٣
المبحث الأول: وجه الجمع بين النبي والرسول	١٢٣
المبحث الثاني: كتمان الحق	١٢٦
المبحث الثالث: معنى الطيبات والخباث	١٢٨

النقطة الأولى: أن الإسلام مساوق للغطرسة	١٢٨
الآثار الوضعية للأطعمة	١٢٩
النقطة الثانية: في الحسن والقبح الذاتيين	١٣٠
النقطة الثالثة: الحرية الفكرية	١٣١
﴿٧﴾ صحابة الرسول ﷺ	١٣٧
المبحث الأول: منهجنا العلمي في تقييم الصحابة	١٣٧
في سبب نزول الآية الكريمة	١٣٨
المبحث الثاني: مناسبة الحكم والموضوع	١٤٢
المبحث الثالث: فرى القوم على الشيعة	١٤٧
فرى ابن تيمية	١٤٧
الأولى: أن كتب الصاحب لم تنقل عن راوٍ منهم	١٤٧
الثانية: تمثيل عائشة بالشاة	١٤٨
الثالثة: كرامة الرقم عشرة	١٤٨
فرى أخرى	١٤٩
المبحث الرابع: صفة صحابة الإمام الحسين ع على ضوء الآية	١٥١
الفصل الثاني: السيدة فاطمة الزهراء ع	١٥١
﴿٨﴾ وراثة الأنبياء ﷺ	١٥٩
توطنة	١٥٩
المبحث الأول: هل يوزّت الأنبياء ﷺ؟	١٦١
قضية فدك ودعوى «لا نورث»	١٦٢
دعوى النحلـة	١٦٤
دعوى الخمس	١٦٦

١٦٧	المبحث الثاني: في نعم الله تعالى على سليمان عليه السلام
١٦٨	النبي سليمان عليه السلام يفسر لغة الطير.
١٧٠	حول صيام عاشوراء.....
١٧١	المبحث الثالث: في مخصصات العلوم
١٧١	التخصيص بالعقل.....
١٧٢	التخصيص بالإجماع.....
١٧٢	التخصيص بالحسن.....
١٧٣	المبحث الرابع: في كيفية شكر نعم الله تعالى
١٧٥	(٩) أصوات على خطبة الزهراء عليها السلام
١٧٥	المبحث الأول: حول مسألة فدك.....
١٧٨	المبحث الثاني: أدلة صحة ملكية الزهراء عليها السلام لفديها
١٧٨	الوسيلة الأولى: النحلة.....
١٧٩	رد دعوى جواز الرجوع بفديك كونه هبة غير معوضة.....
١٧٩	الوسيلة الثانية: اليد.....
١٨١	منى تردد شهادة الفرع للأصل؟.....
١٨٢	الوسيلة الثالثة: الإبراث.....
١٨٣	الرد على حديث «لانورث».....
١٨٤	طلب الشهادة من الزهراء تجاوز على روح القرآن.....
١٨٦	حقيقة قداسة الصدر الأول.....
١٨٧	الوسيلة الرابعة: سهم ذوي القربي.....
١٨٧	أستاذ ابن أبي الحديد يعلل موقف أبي بكر.....

١٨٨	المبحث الثالث: الزهراء <small>عليها السلام</small> ماتت غير راضية عن الشیخین
	الفصل الثالث: أمیر المؤمنین <small>عليه السلام</small>
١٩٥	(١٠) بین یدی أمیر المؤمنین <small>عليه السلام</small>
١٩٥	المبحث الأول: شعاع من حیاته <small>عليه السلام</small>
١٩٦	المبحث الثاني: محطّات مضيّنة
١٩٦	المحطة الأولى: ولادته <small>عليه السلام</small> في الكعبة
١٩٧	ماذا أقول لمن حطّت له قدم
١٩٨	المحطة الثانية: ياعلي أنت أخي في الدنيا والآخرة
٢٠٠	المحطة الثالثة: دفاعه عن الإسلام ونبي الإسلام <small>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</small>
٢٠١	هذا أخي وزيري
٢٠٢	الله تعالى يباهي الملائكة بعلی <small>عليه السلام</small>
٢٠٤	حامي ظعينة الرسول <small>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</small>
٢٠٥	سجدت رؤوسهم لديك
٢٠٦	نداء السماء: لا فتن إلّا على
٢٠٨	برز الإيمان كله إلى الشرك كله
٢١٣	(١١) أمیر المؤمنین <small>عليه السلام</small> سيرةً و موقفاً
٢١٣	وقفات في حیاته <small>عليه السلام</small>
٢١٤	المبحث الأول: قضية العمر عند <small>عليه السلام</small> واشكالية إسلامه
٢١٤	مناقشة دعوى أنه <small>عليه السلام</small> لم يسلم عن إدراك
٢١٤	الأول: أنه <small>عليه السلام</small> نشا مسلماً
٢١٥	الثاني: اصطحاب رسول الله <small>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</small> إياه إلى غار حراء
٢١٥	المبحث الثاني: الإمام <small>عليه السلام</small> ينذر حیاته دفاعاً عن الإسلام و صاحبه <small>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</small>

٢١٥	دوره <small>عليه السلام</small> في حفظ الإسلام
٢١٨	المبحث الثالث: زواجه <small>عليه السلام</small> وأسباب تعدد الزوجات أول الإسلام
٢١٨	الأول: تمتين الوسائل بين القبائل
٢١٨	الثاني: تكثير المقاتلين
٢١٨	الثالث: عامل القربي والتربية
٢٢٠	المبحث الرابع: عطاءاته <small>عليه السلام</small>
٢٢٠	العطاء الأول: رصيده <small>عليه السلام</small> من الهجرة
٢٢٠	الأولى: هجرة الطائف
٢٢١	مغالطات المؤرخين فيما يخص أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>
٢٢١	١ - هجرته <small>عليه السلام</small> إلى الطائف
٢٢٢	٢ - توكيّ رسول الله <small>صلوات الله عليه وسلم</small> على كتفه
٢٢٢	٣ - حامل لواء المسلمين في أحد
٢٢٣	الثانية: هجرته <small>عليه السلام</small> إلى المدينة
٢٢٤	العطاء الثاني: رصيده من الواقع والحروب
٢٢٦	العطاء الثالث: رصيده من المؤلفات
٢٢٦	فرى على الشيعة حول مصحف أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>
٢٢٩	محاولات التشكيك في نسبة (نهج البلاغة)
٢٣٠	المبحث الخامس: علي <small>عليه السلام</small> في القرآن
٢٣٢	محاولات طمس فضائله <small>عليه السلام</small>
٢٣٤	المبحث السادس: زهده <small>عليه السلام</small> في الدنيا
٢٣٥	المبحث السابع: جرأة <small>عليه السلام</small> في الدنيا
٢٣٩	١٢) في رحاب أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>

٢٣٩	المبحث الأول: في عطائه ﷺ ومنشئه
٢٤٠	المبحث الثاني: جملة من خصائصه ﷺ ذات المنشأ الإلهي
٢٤٠	الخصيصة الأولى: أنه ﷺ يتحدر من أسرة كريمة
٢٤١	الخصيصة الثانية: أن الله تعالى كرمه بان جعله وليد الكعبة
٢٤٣	الخصيصة الثالثة: أنه تعالى قدر أن يتربى في قلب النبي ﷺ
٢٤٥	المبحث الثالث: عوامل عدم تفاعل المجتمع مع أمير المؤمنين ﷺ
٢٤٥	العامل الأول: الحسد
٢٥٠	العامل الثاني: الحقد
٢٥٢	العامل الثالث: منهجه ﷺ في تقديم العامة على الخاصة
٢٥٣	العامل الرابع: التسوية بالعطاء بين الناس
٢٥٥	العامل الخامس: أنه سبق زمانه بعشرات السنين
٢٦١	«١٣») أمير المؤمنين ﷺ وكتابة التاريخ
٢٦١	المبحث الأول: أمير المؤمنين ﷺ في مرآة التاريخ
٢٦١	المقدمة الأولى: عظلمة أمير المؤمنين ﷺ
٢٦٢	المقدمة الثانية: عطاوه المتجدد ومناقبه التي لا تنفذ
٢٦٥	محاولات أعدائه للنيل منه
٢٦٦	الأولى: نقفي نسبة (نهج البلاغة) إليه
٢٦٦	الثانية: هدم داره التي ترك النبي ﷺ ببابها مفتوحةً على المسجد
٢٦٨	الثالثة: أكذوبة خطبة بنت أبي جهل
٢٦٩	الرابعة: محاولة تفضيل الزهراء ﷺ عليه
٢٧١	المقدمة الثالثة: في حجم علي ﷺ الذي منحته إيات السماء
٢٧٢	حديث عبادة الثقلين

٢٧٣	Hadith Barz al-Iman khal
٢٧٣	القرآن يمدح علينا في أكثر من سبعين موطناً
٢٧٦	المقدمة الرابعة: أنه عليه السلام ليس لفنة بعينها
٢٧٧	المقدمة الخامسة: أن تاريخ علي عليه السلام كتب بأيد غير محابية
٢٧٧	١- العهد الأموي
٢٧٨	٢- العهد العباسي
٢٧٩	المبحث الثاني: في أنه عليه السلام أكبر من الوعاء الذي احتواه
٢٨٠	الوعاء الأول: صلب النبي إبراهيم عليه السلام
٢٨٠	الوعاء الثاني: الكعبة المشرفة
٢٨٢	الوعاء الثالث: صدر نبينا الأكرم عليه السلام
٢٨٣	الوعاء الرابع: الوادي المقدس الذي دفن فيه
٢٨٣	المبحث الثالث: أنه عليه السلام شهيد موقف
٢٨٩	﴿١٤﴾ أهداف البيعة في الإسلام
٢٨٩	المبحث الأول: معنى البيعة
٢٩٢	المبحث الثاني: في شرعية الإمامة
٢٩٢	الأول: أنها تستمد من الأمة
٢٩٣	الثاني: أنها مستمدّة من السماء
٢٩٤	المبحث الثالث: في المبايعة لله ولرسوله عليه السلام
٢٩٥	مناطق الفراغ في التشريع
٢٩٧	البراءة العقلية
٢٩٧	رجع
٢٩٨	نظيرية العق الاجتماعي ومستلزماتها

٢٩٩	المبحث الرابع: تأويل ولا تجسيم.....
٢٩٩	ضرورة تأويل آية المقام.....
٣٠٠	الأول: التجسيم.....
٣٠٠	الثاني: المغایرة والتركيب والتلاشي.....
٣٠٢	المبحث الخامس: شروط البيعة.....
٣٠٩	(١٥) خلافة الرسول ﷺ.....
٣٠٩	المبحث الأول: موضوع الوصية في الإسلام
٣١٠	النقطة الأولى: تربص أعداء الإسلام الداونر به
٣١٢	النقطة الثانية: خلافة الرسول الأكرم ﷺ
٣١٣	الفرض الأول: أن النبي ﷺ مات ولم يوصي
٣١٤	استخلاف أمير المؤمنين ع على المدينة
٣١٧	الفرض الثاني: نظرية الوصاية للأمة
٣١٨	السؤال الأول: الدليل على نظرية الشورى
٣١٨	الرد على الاستدلال بالأية الأولى
٣١٩	الرد على الاستدلال بالأية الثانية
٣١٩	السبب الأول: استجلاب موذة الصحابة
٣٢٠	السبب الثاني: استبعان الناصح من غير الناصح
٣٢٠	السبب الثالث: تعليم المسلمين حسن المشورة
٣٢٤	الرد على الشورى بقول أبي بكر وعمر
٣٢٩	الفرض الثالث: النضر
٣٣٠	المبحث الثاني: نماذج من محاولات تشویه التاريخ
٣٣٠	الأنموذج الأول: نسبة كلمة «غلبه الوجع» لأمير المؤمنين ع

الأنموذج الثاني: فريدة أن السجاد <small>عليه السلام</small> يلعب بالشطرنج	٣٣١
الأنموذج الثالث: فريدة عبد الله بن سبا	٣٣٢
حقيقة عبد الله بن سبا	٣٣٣
الأنموذج الرابع: فريدة أن «المولى» تعني ابن العم	٣٣٦
خلاصة الموضوع	٣٤٠
٣٤٧ (١٦) أمير الزاهدين <small>عليه السلام</small>	٣٤٧
المبحث الأول: الحياة الدنيا في نظر المشرع الإسلامي	٣٤٧
المبحث الثاني: تعريف الzed	٣٥١
الإسلام ينظم الحياة	٣٥٠
الإسلام ونظام استصلاح الأراضي	٣٥٠
حالات امتلاك الأرض	٣٥١
الأولى: الحالة الاعتيادية	٣٥١
الثانية: الحالة الاستثنائية	٣٥١
قانون العمل في الإسلام	٣٥٢
نظيرية فائض القيمة	٣٥٣
الإسلام ينظم العلاقات الاجتماعية الأسرية	٣٥٤
المبحث الثالث: الzed شعبتان	٣٥٥
الشعبة الأولى: عدم إهلاك النفس حسرات على الدنيا	٣٥٥
الشعبة الثانية: اجترار المال في الحلال وصرفه في الحلال	٣٥٦
المبحث الرابع: في معنى الرغبة في الآخرة	٣٦٢
المبحث الخامس: معنى اتخاذ القرآن شعاراً	٣٦٣
العرب والقرآن	٣٦٤

٣٦٨.....	المبحث السادس: المراد من الأرض في الحديث الشريف
٣٦٩.....	المبحث السابع: الإسلام نظيف.....
٣٧٢.....	١٧﴾ أضواء على حياة عليؑ.....
٣٧٣.....	المبحث الأول: نقاط مضيئة في سيرتهؑ
٣٧٤.....	الأول: النسب
٣٧٥.....	الثاني: الشخصية المتكاملة
٣٧٧.....	الثالث: العلم
٣٧٧.....	المبحث الثاني: أسباب اضطراب الدولة في أيامهؑ
٣٧٨.....	السبب الأول: الحسد
٣٧٨.....	الأول: الحسد على الثُّبُل
٣٧٩.....	الثاني: الحسد على الزهد والتواضع
٣٨٢.....	الثالث: الحسد على العلم والمعرفة
٣٨٣.....	الرابع: الحسد على الشجاعة والبطولة
٣٨٣.....	الخامس: الحسد على قربه من الرسول ﷺ
٣٨٥.....	السبب الثاني: الحقد
٣٩١.....	السبب الثالث: أنهؑ سار بسيرة العدل
٣٩٧.....	السبب الرابع: مجئهؑ إلى كرسي الخلافة بعد عثمان
٣٩٧.....	مؤاخذتهؑ على أسلوب عثمان في الحكم
٣٩٧.....	الأولى: تسلیمه مقاليد الحكم لمروان
٣٩٨.....	الثانية: إيثاره أقرباءه بمال المسلمين
٣٩٨.....	الثالثة: تعطيل حدود الله لاعتبارات شخصية
٣٩٩.....	السبب الخامس: المساواة بين العرب والموالي

٤٠٠	المبحث الثالث: على <small>عليه السلام</small> يمثل جوهر الإسلام.....
٤٠٧	﴿١٨﴾ على <small>عليه السلام</small> ميزان العدل.....
٤٠٧	مقدمة حول بعض الاجتهادات المخطوئة في صدر الإسلام.....
٤٠٩	المبحث الأول: أنه <small>عليه السلام</small> أرفع من أن ينافس في سلطان.....
٤١٣	المبحث الثاني: من مظاهر زهده <small>عليه السلام</small>
٤١٥	المبحث الثالث: أسباب عدم اهتمامه <small>عليه السلام</small> بالفتورات.....
٤١٧	المبحث الرابع: من مظاهر تعطيل الحدود في زمن من سبقة.....
٤١٨	المبحث الخامس: من مظاهر عدله <small>عليه السلام</small>
٤٢١	المبحث السادس: في أنه <small>عليه السلام</small> أول من أسلم وأناب.....
٤٢٣	﴿١٩﴾ سجدة في محراب على <small>عليه السلام</small>
٤٢٣	المبحث الأول: الإمام <small>عليه السلام</small> معجزة في كل أبعاده.....
٤٢٤	المبحث الثاني: نماذج من حياة على <small>عليه السلام</small> وظلم التاريخ له.....
٤٢٥	النموذج الأول: الأقلام الماجورة والأمويون.....
٤٣١	النموذج الثاني: الأقلام الماجورة وعطاء الإمام <small>عليه السلام</small>
٤٣٥	النموذج الثالث: اجتماع الأضداد في حياته <small>عليه السلام</small>
٤٤٣	﴿٢٠﴾ من وصايا أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>
٤٤٣	مقدمة في معنى الوصية، وبعض وصاياه العهدية.....
٤٤٣	الوصية الأولى: حفر أربعة قبور له للتعمية.....
٤٤٦	وصاياته <small>عليه السلام</small> التملحية.....
٤٤٦	الأولى: أنه <small>عليه السلام</small> أوصى بكتبه وسلاحه ولوائه.....
٤٤٩	أدلة كون (نهج البلاغة) له <small>عليه السلام</small>
٤٤٩	الأول: منهج الأسلوب الأدبي.....

الثاني: وجود خطب النهج قبل ولادة الرضي	٤٥١
الثالث: منهج التمحيص	٤٥١
الثانية: وصيته بوقف حوانطه	٤٥٢
الثالثة: وصيته <small>عليها</small> بعقد معاشه وأمهات الأولاد عنده	٤٥٣
تنقية وصاياه العهدية	٤٥٦
الثانية: وصيته بابن ملجم (لع)	٤٥٦
الثالثة: وصيته بلوازم دفته	٤٥٧
الرابعة: وصيته <small>عليها</small> بتعاهد المساجد	٤٥٧
الإمام <small>عليه</small> عنوان الأحرار	٤٥٩
﴿٢١﴾ دار السلام	٤٦٣
المبحث الأول: معنى السلام وأقسامه	٤٦٣
سلام النفس	٤٦٣
سلام الأسرة	٤٦٥
سلام المجتمع	٤٦٧
المبحث الثاني: الشعور بالغوت	٤٧٠
أهمية العندية في قوله تعالى: ﴿عِنْذَرِبَّهُمْ﴾	٤٧٠
المبحث الثالث: مناسبة ﴿دار السلام﴾ و﴿عِنْذَرِبَّهُمْ﴾	٤٧٢
﴿٢٢﴾ بين الوادي المقدس والغربي	٤٧٥
توطئة	٤٧٥
المبحث الأول: وجه استعمال كلمة ﴿نُؤْدِي﴾	٤٧٦
النكتة الأولى: وجه استعمال كلمة ﴿نُؤْدِي﴾ مع أنها للبعيد	٤٧٦
النكتة الثانية: جذبة صوفية حول الآية الكريمة	٤٧٧

٤٧٧	المبحث الثاني: في معنى الربوبية
٤٧٨	النقطة الأولى: التأكيد على أن هذا الخطاب من الله جل وعلا
٤٧٨	نشوء الصوت وحدوده
٤٧٨	النقطة الثانية: تهدئة اضطراب موسى <small>عليه السلام</small>
٤٧٩	الجنبة الأولى: انتزاع الرهبة من نفس موسى <small>عليه السلام</small>
٤٨٠	الجنبة الثانية: أن الله تعالى هو رب والمربي
٤٨١	ملازمة الروح والجسد
٤٨٢	المبحث الثالث: في معنى تعظيم الله جل وعلا
٤٨٣	الرأي الأول: أنها عادة العظاماء
٤٨٤	مشروعية الصلاة بالنعل أو بالخف
٤٨٨	رجوع
٤٨٨	الرأي الثاني: أن في نعليه قذراً
٤٨٨	نقد الرأي الثاني
٤٨٨	الرأي الثالث: أن تمس الأرض باطن قدميه <small>عليه السلام</small>
٤٨٨	المبحث الرابع: في تحديد موقع الوادي المقدس
٤٨٩	الرأي الأول: أنه في بلاد الشام
٤٨٩	الرأي الثاني: أنه في القدس
٤٨٩	الرأي الثالث: أنه الغري
٤٩٠	التاريخ الحضاري لمنطقة الغري
٤٩٠	الغري محطة الأنبياء <small>عليهم السلام</small>
٤٩١	قدسية أرض الغري
٤٩٢	قياس مع الفارق

٤٩٤	المبحث الخامس: تربة الغري تربة مقدسة
٤٩٩	٤٩٩) فلسفة الجهاد عند أمير المؤمنين (عليه السلام)
٤٩٩	المبحث الأول: لمحات من جهاده (عليه السلام) بالسيف
٥٠٧	المبحث الثاني: لمحات من جهاده (عليه السلام) بالقلم والفكر
٥١٠	المبحث الثالث: جهاده (عليه السلام) في ساحة الكذح على العيال
٥١٢	خلاصة البحث
٥١٧	٥١٧) بين الطور والنجد
٥١٨	المبحث الأول: الأشياء التي تناولتها الآية بالقسم
٥١٨	محاولات النيل من الأيمم (عليهم السلام)
٥٢٤	معنى الكتاب المسطور
٥٢٤	ليس في القرآن تحريف
٥٢٧	سبب تسميته بـ(البيت المفهوم)
٥٢٨	أنواع العمارة
٥٢٨	المبحث الثاني: موقف الأمويين من البيت الحرام
٥٣٣	الفهرس الإجمالي
٥٣٥	الفهرس التفصيلي

صدرت المجموعة الخامسة

الجزء ١٣ - الجزء ١٥

من

الْحَاضِرَاتُ الْأَنْيَلِينَ

رسالة للدعاة

مَسْنُوْرَاتٌ

شَرِيكٌ لِلْمُعْتَصِّفِ الْجَيَانِ الْبَهَيْنِ

صدر حديثاً دورة في ١٥ مجلداً

من كتاب

الحاضر في الولادة

رحمه الله

مَسْنُورَاتٌ



شَرِيكٌ لِلْمُسْتَطْفَنِ لِلْجَنَاحِ الْأَكْبَرِ

صدر حديثاً

كتاب

المرآة في الإسلام
من محاضرات الدكتور الشيخ محمد الوائلي

مَسْنُوْرَاتٍ



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

ترقبوا بإذن الله
صدور المجموعة السادسة
الجزء ١٦ - الجزء ١٨
من

حَاضِرَاتُ الْأَئِمَّةِ
رحمَةُ اللَّهِ

مَسْنُوْرَاتٍ 
شَرِيكٌ لِلْمُهَنْدِفِ لِلْجَمِيعِ الْمُتَكَبِّرِ